جامعة الأزهر

حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة

يحررها نخبة من أساتذة الكلية

العدد ٨

يشرف على تحريرها

أ.د. غريب نافع
وكيل الكلية

أ.د. علي البدري
عميد الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

البحوث المنشورة بالمجلة على مسئولية كاتبيها

بسم الله الرحمن الرحيم

أسرة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العدد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا هو العدد الثامن من المجلة العلمية (حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة) يشترك في إعدادها وكتابة بحوثها صفوة ممتازة من أعضاء هيئة التدريس بهذه الكلية العريقة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

ولما كانت هذه الكلية - بوضعها الحالي - تشمل من الأقسام العلمية ستة أقسام ، أربعة منها مختصة بدراسة اللغة العربية وآدابها وهي : اللغويات (النحو والصرف) ، وأصول اللغة (فقه اللغة واللهجات والقراءات والمعاجم والأصوات وعلم اللغة) ، والبلاغة والنقد ، والأدب والنقد ، واثنان من هذه الأقسام الستة يتصل كثير من الدراسات فيهما بالعلوم الإسلامية والعربية ، وهما قسم التاريخ والحضارة ، وقسم الصحافة والإعلام ، نقول : لما كانت هـــذه الكلية العريقة التي استمدت عراقتها من العناية بالدراسات العربية والإسلامية قد اشتملت على كل هذه الأقسام فقد تنوعت البحوث داخل هـــذه المجلة العلمية الغراء ، تلك البحوث التي كتبت بأقلام نخبة ممتازة من الباحثين والعلماء ، والتي يفيد منها أبناء هذه الكلية أساتذة وطلابا ، وكذا غيرهم من العرب والمسلمين في كل مكان .

وقد رأت أسرة التحرير بهذه المجلة أن يكون تصنيف هذه البحوث على النحو التالي :

قسم الدراسات القرآنية وهو الذى تستمد بحوثه كلها أو معظمها مباشرة من القرآن الكريم ، ولايختص ذلك بقسم على معين ، بل قد يكون أصحابها من أصول اللغة أو البلاغة أو غيرهما .

ثم قسم الدراسات اللغوية ، ويشمل من الأقسام العلمية بالكلية قسمى اللغويات وأصول اللغة ، (وتأتى بعـــد ذلك بقية أقسام هذه المجلة مطابقة للأقسام العلمية بالكلية) .

فقسم ثالث للدراسات البلاغية .

ورابع للدراسات الأدبية .

وخامس للدراسات التاريخية والجغرافية .

وسادس للدراسات الاعلامية .

وقد يمكن لنا ـ فى هذه المقدمة ـ أن نشير إلى تلك البحوث التى احتواها هذا العدد وما تتضمنه من جدة وابتكار .

ففى مجال قسم الدراسات القرآنية ـ فيما يتصل بعلوم اللغة ـ قدم الدكتور محمد خاطر الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة بحثا فى إتباع الحركة فى القراءات موضحا فيه معنى الإتباع فى أصل اللغة وفى اصطلاح علمائها المتقدمين والمحدثين ، وقد ركز فى بحثه على الإتباع للحركات ، فجاء بكل صور الإتباع لحركات الفتح والضم والكسر ، مستشهدا بالقراءات المختلفة ، ومعتمدا فى ذلك على أهم المراجع اللغوية قديما وحديثا .

كما قدم الأستاذ الدكتور عبد الغفار هلال بحثا فى الإدغام والفك بين القراء واللغويين ، وضح فيه معنى الإدغام فى اللغة وعند علماء القراءات ، مؤكدا القول بأنه مظهر من مظاهر التخفيف فى النطق ، وهو الهدف من وجوده فى العربية ، مستقصيا شروط الإدغام فى عشرة شروط ، وموضحا قسميه الصغير والكبير وأحكامهما من الوجوب والجواز ، ومستعرضا الأمثلة

الكثيرة من القرآن الكريم لبيان مجيء الإدغام الكبير في كلمة أو كلمتين في كل من المتماثلين والمتجانسين والمتقاربين ومستعينا بما جاء عن القدامى من أقوال في توضيح ذلك .

وفيما يتصل بعلوم البلاغة ـ في مجال الدراسات القرآنية أيضا ـ قدم الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى بحثا بلاغيا مبتكرا هو (أمثال سورة النور) وفيه يركز على التشبيه في آيتين من هذه السورة الكريمة ـ سورة النور ـ جاعلا من ذلك نموذجا لما في القرآن الكريم من أمثلة وتشبيهات أخرى في قمة الفصاحة والبلاغة ، فأما آية التشبيه الأولى فهي قوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ... الآية » وفيها وصف واضح لشرع الله ونظامه وأنه نور السموات والأرض ... إلخ ، وأما التشبيه الثاني وهو المقابل للأول ففي آيتين متتاليتين ، تبدأ الأولى بقوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ... » وتبدأ الثانية بقوله تعالى : « أو كظلمات في بحر لجي .. » وقد بين الباحث ما في هذين المثلين من بلاغة رفيعة المستوى ، لايستطيع بشر مهما أوتي من الفصاحة وقوة البيان أن يأتي بمثلها ، كما يوضح ما بين التشبيه في هذين المثلين وما بين التشبيه في الأولى من المقابلة التي يمكن أن تكون بين المشكاة المضيئة وبين السراب الخادع ، ومصورا ذلك كله بصورة أدبية رائعة .

وآخر البحوث في قسم الدراسات القرآنية ـ بهذا العدد من هذه الحولية ـ بحث قدمه الدكتور فتحي حسن المدرس في قسم البلاغة والنقد وفيه يذكر بعض أسرار الحذف في بعض آيات القرآن الكريم ، والبحث وإن لم يكن في ظاهرة جديدا لدى علماء البلاغة فقد استطاع الباحث بدراسته البلاغية الدقيقة لبعض الآيات القرآنيه أن يكشف أسرارا بلاغية عظيمة لحذف الحرف أو المسند أو المسند إليه أو الجملة ، وكل ذلك مما يبين لنا شيئا من أسرار قمة البلاغة وذروتها في كتاب الله عز وجل .

وأما القسم الثانى : الدراسات اللغوية، فقد شمل بحثين : الأول للدكتور عبد العزيز علام الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة ، وهو عن : النمو اللغوى والطفولة ، وفيه يتحدث عن اللغة ووظائفها الاجتماعية والنفسية والعقلية ، ومن خلال حديثه عن العلاقة بين اللغة والكلام ، وحديثه عن اللغة والفرد، ومن اللغة والمجتمع ، وكيف تتم عملية الكلام ، وكيف يتم إنتقال الصوت وإدراكه ، استطاع أن يصل إلى البحث فى النمو اللغوى ويبين المراحل التى يمر بها الطفل فى اكتساب لغته ، والطرق الحديثة التى اكتشفها العلماء فى مجال التعليم اللفظى للطفل .

والبحث الثانى فى مجال الدراسات اللغوية للدكتور سمير عبد الجواد الأستاذ المساعد بقسم اللغويات ، وفيه يتحدث عن العامل (فى علم النحو) وكيف يمكن أن يمنع من التسلط على المعمول فلا يعمل فيه ، وقد جعله تحت عنوان « الكف اللفظى فى ضوء الدراسات النحوية » ، وتناول فيه الكف بالألف ، وبما ، وبالأدوات التى تكف ما بعدها عن العمل فيما قبلها . وقد لايكون هناك جديد فى علم النحو ، ولكن الجديد فى هذا البحث أنه جمع كثيرا من الادوات أو الحروف التى يمكن أن تمنع العامل من التسلط على المعمول مستندا فى ذلك على الرجوع إلى أمهات الكتب فى النحو واللغة .

وفى مجال قسم الدراسات البلاغية قـــدم لنا الدكتور أحمد محمد على الاستاذ المساعد بقسم البلاغة بحثا بعنوان : (مصادر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) والمعجم للدكتور أحمد مطلوب ، وفى البحث يذكر الدكتور أحمد على المصادر التى اعتمد عليها صاحب هذا المعجم فى دراسة تحليلية نقدية سواء لمعجمه هذا أو مؤلفاته الأخرى وهى دراسة مفيدة .

كما قدم لنا فى هذا المجال أيضا الدكتور إبراهيم عبد الحميد التلب الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بحثا عن الوضع وصلته بالبيان وفيه يذكر أن الوضع ـ الذى هو بحث لغوى ـ له صلة بالبيان الذى هو علم من علوم البلاغة،

مبينا الوضع بين الحقيقة والمجاز ، ولئن كان الباحث قد تكلم عن وضع الحقيقة فقد أثبت أنه من قبيل الوضع التحقيقي كما بين وضع المجاز بين البيانيين والأصوليين ، فالبحث إذا لغوى بلاغى أصولى وهذا هو الجديد فيه .

وإذا ما انتقلنا إلى القسم الرابع من هذه الحولية وهو عن الدراسات الأدبية نجد طائفة كبيرة من النقاد والأدباء الباحثين من أعضاء هيئة التدريس بالكلية قد تقدموا ببحوث تتميز بالدقة والأصالة .

فقدم الدكتور جابر عبد الرحمن الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بحثه بعنوان : « الإمام الشافعى بين شاعريته وشعره » وفيه يؤكد أن الشافعى كان إلى جانب علمه وفقهه شاعرا ممتازا ، موضحا أن الذى ساعد على ذلك موهبته ومروءته الأصيلة ونعاته وثقافته ، ثم رحلاته وعصره الذى عاش فيه ، كما أثبت لنا خصائص شعره بعد أن أمكن لأحد الباحثين جمعه فى ديوان .

وفى مجال الدراسات الأدبية المقارنة قدم لنا الدكتور السيد العراقى الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد ـ فى هذا العدد ـ بحثا بعنوان : « إبراهيم عبد القادر المازنى إسهام رائد فى درس الأدب المقارن » ، وفيه استطاع أن يثبت أن المازنى قد اقتحم نطاق الدراسات المقارنة وذلك من خلال دراسة الباحث لبعض القضايا التى عالجها المازنى ، ومنها المصادر الأدبية ، والنماذج البشرية وكذلك الترجمة الأدبية ، وعلاقة الأدب بفروع المعرفة .

وفى مجال الأدب المقارن أيضا كتب الدكتور محمد السيد عيد المدرس بقسم الأدب والنقد ـ فى هذا العدد ـ عن الاتجاهات العالمية للأدب المقارن وتأثيرها فى الاتجاه المصرى، وفى بحثه ـ بعد أن تحدث عن الاتجاه الفرنسى والمفهوم الأمريكى للأدب المقارن ، وضح صلة الدراسات الأدبية المقارنة فى مصر بالاتجاهات العالمية مشيرا فى نهاية بحثه إلى ما يعانيه الأدب المقارن فى مصر من صعوبات .

وتلا ذلك بحث الدكتور محمد فاضل مدرس الأدب والنقد بعنوان : « طبيعة الشعر بين حازم القرطاجني وباكون » ويمكن أن يعد من قبيل الدراسات المقارنة ، أو على وجه أدق ما يسمونه بالدراسات التقابلية إذ هو في هذا البحث يقابل فكر عالم أندلسي مع ثقافته وحضارته بفكر عالم إنجليزي مع ثقافته وحضارته كذلك ، عارضا أثناء البحث أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما في نظرة كل منهما إلى الشعر وطبيعته وهو أيضا من البحوث الجديدة في هذا الميدان .

وجاء بعد ذلك بحث الدكتور شفيق أبو سعده « ديوان العرب مرآة الحياة الجاهلية وهو بحث طريف يتحدث فيه عن أولية الشعر العربي ، بعد أن يشير إلى قدمه في حياة المجتمع البشري بصفة عامة ، فلئن كان الشعر العربي قد وصلنا على صورة قوية فلابد أن هناك مرحلة من الطفولة قد سبقته لأن طبائع الأشياء تأبى إلا التدرج ، وهذا ما أثبته الباحث ، كما أثبت التحضر المبكر في مجال الأدب عند العرب القدامى رادا على من زعم غير ذلك مستشهدا على ذلك بشعر الجاهليين وما يمتاز به من خصائص مستمدة من البيئة العربية ومن اختلاطهم كذلك بالأمم الأخرى ، وحياة العرب الاجتماعية بصفة عامه ، بما يؤكد في النهاية أن الشعر ديوان العرب وهو الذي كان يمثل حياتهم في الجاهلية بصدق ودقة .

وقدم الدكتور محمد طه عصر المدرس بقسم الأدب بحثه (عالمية فن العربية الأول واشكالات الحداثيين) وفيه يرد على بعض المثقفين من الشعوبيين ومن سموا بالحداثيين ، في وصفهم للتراث العربي بالمحلية وأنه لن يصل إلى درجة العالمية إلا باحتذاء القيم الفنية الأوربية ، وقد أثبت الباحث أن الأدب العربي عبر تاريخه الطويل قد أدى دوره التاريخي والفكري والحضاري على أحسن مايكون الأداء .

وفي مجال الدراسات التاريخية والجغرافية نذكر بإجمال من أسهموا في

هذا العدد ببحوثهم القيمة ـ تكملة للفائدة ضمن هذه المقدمة ـ فبحث الأستاذ الدكتور عبد العزيز غنيم كان بعنوان « خير النساء خديجة بنت خويلد » وأما الدكتور السيد رزق حجاج أستاذ التاريخ الحديث المساعد فقد أسهم ببحثه : « الثورة الأرترية فى ضوء الوثائق التاريخية » ، وكان عنوان بحث الدكتور مجاهد توفيق الجندى الأستاذ المساعد بقسم التاريخ والحضارة هو « رواق الأتراك بالجامع الأزهر بالقاهرة وعلاقة المماليك الجراكسة بالعثمانيين ـ صفحة مشرقة فى تاريخ مصر » وقدم الدكتور محمد صابر عرب أستاذ مساعد التاريخ العربي الحديث بحثه « المنهج التاريخى فى كتابات سالم بن حمود السيابى » ويبدو أن الباحث قد استفاد من إقامته بدولة عمان مدة من الزمن فأفادنا ببحثه الجيد عن هذه الشخصية العمانية .

وفى مجال الجغرافيا قدم الدكتور طلعت أحمد عبده بحثه الجغرافى « الصور الصخرية الحائطية ودلالاتها المناخية على العصر المطير بالنطاق الصحراوى » .

أما الدراسات الاعلامية فقد أسهم بالكتابة فيها ضمن هذا العدد كل من الدكتور محي الدين عبد الحليم ببحثه : « المنافقون وأصول العمل الإعلامى » والدكتور مرعى مدكور ببحثه الصحافة المتخصصة والدكتور صلاح الدين عبد الحميد ببحثه : « قياس معدلات أداء الإعلاميين المبتدئين وأخيرا الدكتور سامى الكومى وعنوان بحثه : « نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية » .

وقد سارت هذه البحوث المقدمة فى مجال التاريخ والحضارة والصحافة والإعلام بوجه عام على النهج السابق من حيث الأصالة فى البحث والدقة فى العرض والاستنتاج مما يجعلنا نؤكد بصدق أن هـــذا العدد من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة قد حوى من البحوث فى تلك المجالات المتعددة التى أشرنا إليها مايفيد الدارسين والباحثين وطلاب العلم والمعرفة فى شتى المجالات .

وأخيراً فإننا نشكر الباحثين على ماقدموا من جهود فى بحوثهم القيمة كما نشكر القائمين على إخراج هذا العدد من هذه المجلة الغراء .

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد فى كل أعمالنا

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ؟

الدكتور
أمين محمد فاخر
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهر

القسم الأول

الدراسات القرآنية

١ ـ الدكتور محمد أحمد خاطر
٢ ـ الدكتور عبد الغفار حامد هلال
٣ ـ الدكتور محمد محمد أبو موسى
٤ ـ الدكتور فتحى أحمد إسماعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

إتباع الحركة فى القراءات

بقلم
دكتور محمد أحمد خاطر

يرد مصطلح الإتباع فى مباحث فقه اللغة ، وفى دراسة الأصوات ، والأبنية والصرف .

الإتباع فى اللغة :

يعنى الإتباع فى اللغة الإدراك واللحوق ، وجعل شىء تاليا لشىء ، ومادة (ت ب ع) فيما قال ابن فارس : « أصل واحد لا يشذ عنه من الباب شىء - وهو التلو والقفو ، تقول تبعت فلانا : إذا تلوته واتبعته ، وأتبعته : إذا لحقته ، والأصل واحد ، غير أنهم فرقوا بين القفو واللحوق . فغيروا البناء أدنى تغيير[1] » .

ويقال : تبع الشىء : سار فى أثره ، واتبع الشىء ، وأتبعه ، وتتبعه : قفاه وتطلبه متبعا له ، وأتبعه الشىء : جعله له تابعا ، أي : تاليا[2] .

الإتباع فى الاصطلاح :

حده « ابن فارس » بقوله : « أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعا وتأكيدا[3] » ، وهذا الحد الاصطلاحى هو الذى استقر

(١) مقاييس اللغة : م : [ت ب ع] ١/٣٦٢ .
(٢) لسان العرب م : [ت ب ع] .
(٣) الصاحبي ص ٤٥٨ .

للإتباع ، ونقــله الثعالبي والسيوطي متابعين عليه ابن فارس[1] ، وقال الفيروز ابادي : «والإتباع في الكلام ـ مثل : حسن بسن » وزاد الزبيدي « وقبيح شقيح ، وشيطان ليطان ، ونحوه »[2] .

وقد تكون الكلمة الثانية بمعنى الأولى ، فيكون الغرض من الإتيان بالثانية التأكيد لأن اللفظ مختلف ، وقد يكون معنى الثانية مغايرا لمعنى الأولى ، أو تكون الثانية « غير واضحة المعنى ولا بينة الاشتقاق[3] » أو بلا معنى ، فيكون الغرض من الإتيان بالثانية الإتباع .

وقد تستعمل الثانية وحدها مفردة ، وقد لا يكون لها وجه في الاستعمال إلا أن تأتي تابعة لغيرها مسبوقة بها .

وبعضهم يرى أن الكلمة التي سبقتها واو العطف لا تعد من الإتباع ، وبعضهم يرى أن ماله معنى ليس من الإتباع وأن التابع لا يفيد معنى أصلا ، ويذكر القالي أن « مذهبهم في الإتباع أن تكون أواخر الكلم على لفظ واحد مثل القوافي والسجع[4] » ـ ولا يلزم شيء من ذلك كله . ولم يتقيد بشيء منه من كتبوا في الإتباع[5] .

إتباع الكلمة وإتباع الحركة :

المعنى الاصطلاحي السابق للإتباع هو ما شاع وذاع ، وهو المراد من الإتباع عند الإطلاق ، وفيه يكون التابع دائما لاحقا ، والمتبوع دائما سابقا .

---

(١) ظ : فقه اللغة وسر العربية ـ للثعالبي ت : مصطفى السقا وآخرين ص ٣٧٢ ـ المزهر ـ للسيوطي ـ النوع ص ٢٨ وظ : حده في المعجم الأدبي ـ جبور عبد النور .

(٢) القاموس المحيط م : [ت ب ع] وتاج العروس ٥/٢٧٨ .

(٣) المزهر ١/٢٤٥ ط : صبيح نقلا عن الإتباع والمزاوجة لابن فارس

(٤) الأمالي : ٢/٢٤٢ .

(٥) ظ : المخصص ـ لابن سيده : ١٤/٢٨ ـ ٣٨ ـ الأمالي ٢/٢٣٢-٢٤٢ ـ المزهر ـ النوع ص ٢٨ .

وقد تغير له صيغة الكلمة التابعة عما حقها أن تكون عليه بنيتها لتوازن الكلمة المتبوعة ، وفى هـــذه الحال قد يسمى المزاوجة ، أو المشاكلة إلى جانب الإتباع .

وهناك ضرب آخر من الإتباع وهو :- أن تتبع الحركة أو السكون حركة أخرى سابقة أو لاحقة ، فتتغير عما حقها أن تكون عليه لتماثل الحركة المتبوعة ، ولا تتبع الحركة السكون ، إذ لا يلتقى ساكنان ، ولا يتبع السكون حركة متأخرة ، إذ تأثير السابق فى لاحقه أقوى من عكسه .

وهذا الضرب هو المقصود بهذا البحث ، ويمكن أن نطلق عليه: « إتباع الحركة » تخصيصا له ، وتمييزا عن الإتباع مطلقا ، الذى غلب فى إتباع الكلمة ، ويمكن أن يظل مصطلح الإتباع مطلقا مرادا به إتباع الكلمة ، أو يخصص كل منهما باصطلاح فيكون أحدهما : إتباع الكلمة ، ويكون الآخر إتباع الحركة .

وقد يحدث فى إتباع الكلمة أن تغير حركة ما عما حقها أن تكون عليه، ولكن هذا التغيير لا يكون بتأثير حركة سابقة أو لاحقة فى الكلمة نفسها، وإنما يكون لتوازن الكلمة التابعة بزنتها الطارئة الكلمة المتبوعة بزنتها الأصلية .

الإتباع عند المتقدمين والمعاصرين :

(ا) عرف الإتباع بنوعيه السالفين منذ أول العهد بدراسة اللغة . وقد أشار سيبويه إليهما ، فقال عن إتباع الكلمة « لا تقول عولة لك إلا أن يكون قبلها ويلة لك ، ولا تقول عول لك حتى تقول : ويل لك ، لأن ذا يتبع ذا ، كما أن يتوك يتبع يسوءك ، ولا يكون ينوءك مبتدأ » . وقال عن إتباع الحركة : « وأما الذين قالوا : مغيرة ومعين (١) فليس على هذا (٢) ولكنهم

---

(١) بكسر الميم فيهما .

(٢) كسر الفاء بإطراد فى فعيل وفعل إذا كانت عينهما حرف حلق .

أتبعوا الكسرة الكسرة ، كما قالوا : منتن (١) وأنبؤك وأجوءك(٢) يريد : أجيئك ، وأنبؤك(٣) .

وقد اهتم المتقدمون بإتباع الكلمة ، وأفردوا له مباحث ، أو عقدوا له أبوابا فى كتبهم ، أو صنفوا رسائل مفردة جمعت فيها الاستعمالات التى جاءت من أساليبه أو عدت منه ، وقد قدم السيوطى فى المزهر خلاصة وافية لما وقف عليه فى مؤلفات من تقدمه ، ومن نقل لهم كلاما فى الإتباع : الكسائى (١٨٩ هـ) الفراء (٢٠٧ هـ) أبو عبيد (٢٢٤ هـ) ثعلب (٢٩٠ هـ) ابن دريد (٣١١ هـ) الفارابى (٣٥٠ هـ) القالى (٣٥٦ هـ) ابن فارس (٣٩٥ هـ) الجوهرى (فى حدود ٤٠٠ هـ) الثعالبى (٤٣٠ هـ) ابن سيده (٤٥٨ هـ) ابن الدهان (٦١٢ هـ) .

أما إتباع الحركة فقد أشاروا إليه إشارات مفردة متناثرة ، لم يجمعها باب ولا مبحث ، وأوسع ماخلفه المتقدمون فيه ماجمعه ابن جنى [٣٩٢ هـ] فى الخصائص فى باب الساكن والمتحرك(٤) . وفيه جماع ماذكر فى المواضع الأخرى من الخصائص(٥) وزيادة عليه(٦) .

ومن مظاهر عدم عنايتهم بإتباع الحركة أنهم لم يضعوا له مصطلحا يحده ويختص به . فابن جنى يسميه فى بعض المواضع « الإتباع(٧) » وفى بعضها « تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق(٨) » ، وفى بعضها سكت عن تسميته(٩) .

---

(١) بكسر الميم أو ضم التاء . (٢) بضم الباء والجيم بدل كسرها .

(٣) كتاب سيبويه ت . هارون ١/٣٣٢ ، ٤/١٠٩

(٤) الخصائص ٢/٣٣٣ – ٣٣٧ .

(٥) ط : الخصائص : ١/٣٦٥–٣٦٦ ، ٢/٩ – ١٠ ، ١٤٣ – ١٤٥–٣/١٤١ .

(٦) جملتها ستة وعشرون شاهدا ومثالا ، اثنان منها من القراءات وسائرها من غيرها وفيها أتبع السكون الفتح والضم والكسر ، والضم والفتح الكسر ، والكسر للضم ، واطراد اتباع فتحة فاء فعيل وفعل المكسورة عينهما إذا كانت حرف حلق .

(٧) ١/٣٦٥ – ٣٦٦ – ٢/٣٣٣ – ٢٣٧ – ٣/١٤١ .

(٨) ٢/١٤٣ – ١٤٥ . (٩) ٢/٩ – ١٠

ويعده من ضروب الإدغام الأصغر مرة ، ومن الحركات غير اللازمة مرة أخرى ، ويورده فى أبواب مختلفة دون أن يعقد له بابا مفردا .

ومن المواطن التى تكثر الإشارة فيها إلى إتباع الحركة تحليل الصرفيين لبعض صيغ الأبنية الفرعية فى الأسماء والأفعال مثل فعل بكسر الفاء والعين فيهما ، وفعيل بكسرهما ، وصيغة فعل ـ بتضعيف العين ـ من افتعل ومضارعها واسم الفاعل منها .

(ب) : أما المعاصرون فمن تحدث عن الإتباع منهم أو عرض له فى فقه اللغة أو اللهجات ، أو فى المباحث العامة للغة ـ ردد ما قرره المتقدمون فى إتباع الكلمة ، ولا يكادون يعنون بإتباع غيره[1] ، ومنهم من جعله فى الحركات شاملا لإتباع الحركة وغيره[2] .

ومن تحدث منهم عنه فى دراسة الأصوات قصره على إتباع الحركة ، وعدوه ضربا مما سموه « المماثلة » التى غلب استعمالها فى مقابل assimilatiom وبعضهم وضع فى مقابل ذلك الترجمة « بالانسجام الصوتى فى أصوات اللغة » وبعضهم سمى إتباع الحركة « الانسجام المدى » فى مقابل vowel harmony ولا يعد ذلك بحثا لإتباع الحركة إنما هى إشارات سريعة مقتضبة ، وربما كانت مجرد إيماء . أو ذكر عارض لكلمة الإتباع ، ومعظمهم سكت عنه دون تعرض له من قريب أو بعيد[3] .

---

(١) ظ : حد الإتباع فى « المعجم الأدبى » لجبور عبد النور ، وما عده أحمد تيمور من الإتباع فى « أسرار اللغة » ص٢٢ . وما عده منه الشيخ : محمد عبدالخالق عضيمة فى « فهارس كتاب سيبويه ودراسة له » ص ٩٠ .

(٢) ظ : الإتباع فى فهارس كتاب سيبويه لعبد السلام هارون ٥/٢٤٤ .

(٣) أسبق من أشار إليه من المعاصرين المستشرق الألمانى « برجشتراسر » سنة ١٩٢٩ م فى : « التطور النحوى للغة العربية » وعده من أهم أنواع الإبدال فى الحركات وسماه « تشابه الحركة لحركة أخرى » ص ٦٢ ـ ٦٣ نشر : د/ رمضان عبد التواب وعرض بعض صوره .

=

. . . .

= ثم أشار إليه د : إبراهيم أنيس ، وعده نوعا من المماثلة ولم يبحثه قال : « وتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض ليس مقصورا على الأصوات الساكنة ، بل قد يكون أيضا في أصوات اللين ، وهو مايسمى بانسجام أصوات اللين vowel harmony . غيرأنا سنكتفي بشرح التأثير ونسبته في الأصوات الساكنة ، لوضوح التأثير فيها وضوحا لايدع مجالا للشك » [الأصوات اللغوية ص ١٨٢ ط (٤)] .

وأطول حديث عنه مافي « اللهجات العربية في التراث — د/ أحمد علم الدين الجندي (١٩٧ - ٢٠٢) قدم طرفا من كلام ابن جنى ، وعرض بضعة وعشرين شاهدا نثرا من كلام العرب ، وبينها عشر قراءات أو بضع عشرة ومعظمها لم يشر فيه إلى أنه من الإتباع ، وإنما هي عند المتقدمين لغات للعرب ، وقد عد منه قولهم : « أخذه ماحدث وما قدم » وهذا من إتباع الكلمة أو المزاوجة والمشاكلة .

وأشار إليه كذلك د / أحمد مختار عمر ، وقدم له ثلاثة شواهد أو أربعة من القراءات [دراسة الصوت اللغوي ص ٣٢٩] .

وأشار إليه — ولم يبحثه — د/ غالب فاضل المطلبي قال : « ومن يبحث في الإتباع والإمالة وتغير أصوات المد في طائفة من الكلمات يجد حتما أن ذلك كان نتيجة لخضوع العربية لضرب من الانسجام للدى ، وقد عرف علماء العربية هذا القانون وسموه التناسب أو المشاكلة ، وسأحاول تفصيل ذلك في موضعه » [في الأصوات اللغوية — دراسة في أصوات المد / ٥٠] ولكنه لم يحاول شيئا في الإتباع لا إجمالا ولا تفصيلا .

وأشار إليه الأخ الفاضل : د/عبدالغفار حامد هلال وأورد خمس قراءات وشاهدا [أصوات اللغة العربية / ٢٨٠ - ٢٨١] .

وممن لم يعرض له ولم يشر إليه د / محمود السعران = علم اللغة مقدمة للقارىء العربي — د / داود عبده = دراسات في علم أصوات العربية — جان كانتينو = دروس في علم أصوات العربية — ترجمة صالح القرمادي — د / كمال بشر = علم اللغة العام — القسم الأول : الأصوات — د / عبد الصبور شاهين = المنهج الصوتي للبنية العربية .

والظن أن قلة الشواهد التى وقف عليها هؤلاء الباحثون للإتباع هى التى جعلتهم يعرضون عنه، أو يلمون به عرضا، ولكن الدخول فى مضمار القراءات يأتى بخير من هذا، ويفسح مدى البحث، ويؤكد أهميته.

إتباع الحركة فى القراءات :

فى القراءات القرآنية المتواترة والشاذة قدر كبير من صور الإتباع، لا يستقريها هذا البحث شاهدا شاهدا، ولكنه يعتمد منها ما أشار أحد مصادره إلى أنه من الإتباع (*)، أو ما فيه مراعاة حركة مجاورة سابقة أو لاحقة، والمجموع من ذلك قدر مناسب، فإن انضم إليه ما ماثله أصبح أضعاف ماجمع هنا، والظن أن هذا المجموع لا يغادر صورة من صور الإتباع إلا عرض شواهد لها، ويسهل حينئذ أن يحمل على كل ما ماثله وناظره.

ويمكن أن يدرس الإتباع على أنحاء عدة، ومن جهات متغايرة من : نوع الحركة التابعة والمتبوعة، ورتبـــة كلتيهما بالنسبة لصاحبتها تقدما وتأخرا، واتصالها أو الفصل بينهما بساكن، وموضعها من الكلمة : أفى صيغة اسم أو فعل أصلية أو فرعية ؟ أو فى حركة إعراب أو بناء ؟ أو فى حرف بنية لا يدخل فى الأبنية ؟ أو فى حركة التقاء الساكنين ؟ ومن وقع الإتباع فى قراءته ؟ ودرجة شيوع صوره المختلفة .

والبحث يضم ذلك كله فى إيجاز لا يخل بالإيضاح .

صور إتباع الحركة :

أتبعت الحركات الثلاث، فالفتحة تبعها السكون والضمة والكسرة، والضمة تبعها السكون والفتحة والكسرة، والكسرة تبعها السكون والفتحة والضمة،

(*) مصادر القراءات المجموعة هنا هى : — إعراب القرآن للنحاس — مختصر فى شواذ القرآن لابن خالويه — شواذ القراءة للكرمانى — البحر المحيط لأبى حيان .

وقد تكون كل منهما متقدمة على الأخرى أو متأخرة عنها ، ويكون الإتباع في حركة فاء الكلمة أو عينها في الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة فتصير الكلمة بالإتباع إلى بناء أصلي تبنى عليه الأسماء أو الأفعال ، أو تصير إلى صيغة فرعية لا تكون إلا في حال الإتباع ، ولا تبنى عليها الأسماء أو الأفعال .

ويكون في حركة الاعراب أو البناء ، ويكون لالتقاء الساكنين ، ويكون في حرف أو اسم غير متمكن ولا بناء له . وهذه الصور جميعا وردت في القراءات : ونوردها على ترتيب الحركات فتحة فضمة فكسرة ، وفي كل حركة نفصل البنية الأصلية عن الصيغة الطارئة وهكذا سائر الصور .

أولا — الإتباع للفتحة

غير إليها إتباعا السكون والضمة والكسرة .

١ — إتباع سكون لاحق فتحة سابقة :

غير السكون بعدها إليها إتباعا ، فصارت الكلمة بعده على بنية أصلية ، وصيغة طارئة وغير إليها عند التقاء الساكنين .

(أ) إتباع السكون للفتحة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في فعل وفعلة — بفتح الفاء وسكون العين — فقرىء في بعض ماجاء عليهما بفتح العين الساكنة إتباعا لفتحة الفاء السابقة :

فعل :

منه قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » : آل عمران آية ١٤٠ — قرأ بفتح الراء فيهما محمد بن السميفع اليماني(١)

(١) ظ : ترجمته في غاية النهاية ٢/١٦١ — ١٦٢ ت ٣١٠٦ .

«س - ح(*)» وأبو السمال قعنب بن أبي قعنب[١] «خا - ى» .

وقوله تعالى : «حق قدره» الأنعام آية ٩١ - قرأ بفتح الدال عيسى بن عمر الثقفي ، وهـــو عيسى البصرة[٢] «ى - ح» ، وأبو يحيى ، وأبو نوفل الأعرابيان[٣] «ى» والحسن البصري[٤] «ح» .

وقوله تعالى : «بزعمهم» : الأنعام آية ١٣٦ - قرأ بفتح العين إبراهيم بن أبي عبلة[٥] «ى» .

وقوله تعالى : «من الضأن» الأنعام ١٤٣ قرأ بفتح الهمزة عيسى «خا» .

وقوله تعالى : «بملكنا» : طه آية ٨٧ - قرأ بفتح اللام والميم عمر بن الخطاب رضى الله عنه «ى - ح» .

وقوله تعالى : «البعث» الحج آية ٥ الروم آية ٥٦ - قرأ بفتح العين الحسن البصري «خا - ى - ح» .

وقوله تعالى : «وهنا على وهن» لقمان آية ١٤ - قرأ بفتح الهاء - عيسى بن عمر الثقفي ، وأحمد بن موسى اللؤلئي[٦] عن أبي عمرو «ى - ح» .

وقوله تعالى : «في شغل» يس آية ٥٥ - قرىء بفتح الشين وسكون الغين وقرأ بفتحهما مجاهد بن جبير[٧] ، وأبو السمال ، وعيسى بن عمر . قال أبو حيان

(*) يرمز للمصادر التي وردت فيها القراءة بما يلي : ح = البحر المحيط خا = مختصر في شـــواذ القرآن لابن خالويه س = إعراب القرآن للنحاس ى = شواذ القراءة للكرماني .

(١) ظ : غاية النهاية ٢/٢٧ ت ٢٦٢٤ .

(٢) ظ : غاية النهاية ١/٦١٣ ت ٢٤٩٩ .

(٣) لم يترجم لهما ابن الجزري ، ومن يسكت عنه فيما يستأنف لم يترجم له .

(٤) ظ : غاية النهاية ١/٢٣٥ ت ١٧٤ .

(٥) ظ : غاية النهاية ١/١٩ ت ٧٢ .

(٦) ظ : غاية النهاية ١/١٤٣ ت ٦٦٦ .

(٧) ظ : غاية النهاية ٢/٤١ - ٤٢ ت ٢٦٥٩ .

« وأبو هبيرة فيما نقله ابن خالويه » والذى فى متن كتاب ابن خالويه أبو هريرة وأبو السمال ، وعلق المحقق فذكر هريرة وهبيرة[١] .

فعلة :

فى قوله تعالى : « حتى نرى الله جهرة » : البقرة آية ٥٥ - قرأ بفتح الهاء تبعاً لفتحة الجيم طلحة بن مصرف[٢] «ى» وحميد بن قيس الأعرج[٣] «ى - ح» وابن عباس ، وسهل بن شعيب[٤] « خا - ح » وعيسى « خا » .

وفى قوله تعالى : « أرنا الله جهرة » : النساء آية ١٥٣ - قرأ بفتح الهاء الحسن والأعرج والأشهب «ى» . وفى قوله تعالى : « أخذناهم بغتة » الأنعام آية ٤٤ - قرأ عكرمة - جهرة بفتح الهاء موضع بغتة «ى» .

وقوله تعالى : « بغتة » الأنعام آية ٣١ - قرأ بفتح الغين خارجة بن مصعب[٥] والجعفى : الحسين بن على[٦] «ى» . وكذلك بغتة حيث وقع .

وقوله تعالى : « ويقولون خمسة » الكهف آية ٢٢ - قرأ بفتح الميم شبل بن عباد[٧] ، وابن كثير «ح» شبل عن ابن كثير «ى» .

وقوله تعالى : « زهرة » طه آية ١٣١ - قرأ بفتح الهاء طلحة ، والأعرج « ى[٨] - ح » ويعقوب وسهل « ح - ى » وعيسى بن عمر « س - ح . وعاصم

---

(١) مختصر فى شواذ القرآن ١٢٥ .

(٢) غاية النهاية ١/٣٤٣ ت ١٤٨٨ .

(٣) السابق ١/٢٦٥ ت ١٢٠٠ .

(٤) السابق ١/٣١٩ ت ١٣٩٩ .

(٥) السابق ١/٢٦٨ ت ١٢١١ .

(٦) السابق ١/٢٤٧ ت ١١٢٣ .

(٧) ط : غاية النهاية ١/٣٢٣ - ٣٢٤ ت ١٤١٤ .

(٨) فى شواذ القراءة ص ٢٥ مع آية ٥٥ سورة البقرة .

الجحدري[1] « س » والحسن ، وأبو البرهسم[2] ، وأبو حيوة[3] والزهري[4] « ح » .

وقوله تعالى : « بنعمة ربك » : القلم آية ٢ - قرأ زيد بن علي بفتح النون والعين « ى » .

فعل وفعل في اللغة :

جاء في العربية كلمات كثيرة على فعل وفعل - بفتح العين وسكونها مع فتح الفاء - والمعنى واحد ، وقد وجه اللغويون معظم هذه المتحدة في المعنى المختلفة في الضبط على أنها لغات ، وجلها لم تنسب إلى أصحابها الذين آثروها . قال النحاس : « حكى النحويون البعث « بفتح العين » ، وأجاز الكوفيون في كل ما ثانيه حرف من حروف الحلق أن تسكن وتفتح ، نحو : نعل ونعل ، وبخل وبخل قال أبو إسحاق : هذا خطأ ، وإنما يرجع في هذا إلى اللغة ، فيقال : لعلان على وعد ، ولا يقال وعد ، ولا فرق بين حروف الحلق وغيرها في هذا ، وإنما هذا مثل قدر وقدر »[5] .

وقال أبو حيان في البعث بفتح العين : « وهي لغة فيه كالحلب والطرد في الحلب والطرد . والكوفيون إسكان العين عندهم تخفيف ، يقيسون فيما وسطه حرف حلق . كالنهر والنهر ، والشعر والشعر ، والبصريون لا يقيسونه ،

---

(١) غاية النهاية ١/٣٤٩ ت ١٤٩٨ .

(٢) عمران بن عثمان أبو البرهسم الزبيدي الشامي . غاية النهاية ١/٦٠٤ ت ٢٤٧١ .

(٣) شريح بن يزيد أبو حيوة الحضرمي الحمصي (- ٢٠٣ هـ) غاية النهاية ١/٣٢٥ ت ١٤١٩ .

(٤) ابن شهاب محمد بن مسلم بن عبيد الله (- ١٢٤ هـ) - السابق ٢/٢٦٢-٢٦٣ ت ٣٤٧٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/٨٧ وظ ٣/٢٧٠

«وماورد من ذلك هو عندهم مما جاء فيه لغتان»(١) .

وماذهب إليه أبو إسحاق من عدم الفرق بين حروف الحلق وغيرها فى الفتح والتسكين صحيح . ومن لسان العرب مثلا أحصيت ثمان وخمسون ومائة كلمة جاءت على فعل وفعل والمفتوح العين وساكنها بمعنى واحد ومعظمها ليست العين فيها حرف حلق(٢) .

ومن العلماء من حاول التفريق بين الفتح والسكون ، بأن الكلمة مع أحدهما تفيد معنى غير ماتفيده مع الآخر ، وأكثر ما قالوا فى ذلك أن جعلوا إحدى الكلمتين اسما والأخرى مصدرا ، ولا تخلو هذه المحاولة من كثير من التعسف والتكلف، ويبقى أن يكون اختلاف الضبط من اختلاف اللغات أو من الإتباع .

والسكون - فيما قرر علماء العربية بشواهد وقرائن كثيرة قوية - أخف من الحركات - ومنها الفتحة - وهم مما يراعون ويعتمدون أن يجعلوا الأكثر أصلا لما دونه فى الكثرة ، والألفاظ التى جاءت على فعل - بسكون العين - أكثر كثيرا مما جاء على فعل - بفتحها - فأن يكون السكون هو الأصل - فيما جاء عنهم فى عينه الحركة والسكون - هو مقتضى الحمل على الأخف والأكثر وقياسه .

وعلى هذا النظر يحتاج إيثار الفتح على السكون ، والعدول عن أخف الأبنية إلى ماهو دونه فى الخفة ، وعن أشيعها فى كلامهم ، وأكثرها جريا على ألسنتهم إلى ماهو أقل من ذلك - يحتاج إلى علة وسبب ، والإتباع علة شارحة مفسرة ، وسبب كاف قوى لهذا العدول وما تبعه من تغيير ، إذ أثرت الفتحة السابقة فى ضبط الحرف اللاحق لها فضبط بمثل الحركة السابقة . ففتح بعد أن كان ساكنا ، ليكون عمل اللسان أو أعضاء النطق من وجه واحد وعلى وتيرة واحدة . ولا مانع بعد ذلك من أن يكون هذا التغيير فى

(١) البحر المحيط ٦/٣٥٢ .

(٢) انظرها فى دراسة فى الصيغ العربية ...٦/٧٠ .

حروف الحلق أكثر مما هو فى غيرها نوعا ما دون أن يكون مقصورا عليها ، ولا مانع كذلك من أن يكون هذا التغيير حدث فى بعض الألفاظ دون بعض ، أو لدى جماعة من العرب دون سائرهم . فإنما جرى هذا التغيير فيما جرى فيه وعند من أجروه لهذه العلة الصحيحة . وهذا السبب الوجيه .

ويبقى ألا يحمل على الإتباع إلا ما اتحد معناه على اختلاف الضبط ، أما ما اختلف معناه باختلاف الضبط فهو من المتغاير ، كل منهما كلمة غير صاحبتها ، ويكون تغيير ضبط الحرف عما حقه أن يضبط به عدو لا عن أصل إلى غيره ، حدث فى سياق صوتى أدى إليه ، كذلك التغيير الذى يحدث للحرف نفسه فيؤدى إلى تحويله إلى حرف آخر فى سياق صوتى معين ، فيبدل أحدهما أو يقلب ، أو يشم ويضارع به ، وقد يصحب هذا إدغام أحدهما فى صاحبه .

ولو أن لنا أن نقعد الآن لقلنا ـ لما كانت الحركة العارضة لا يعتد بها ، والحرف المقلوب إليه ، والمبدل لا يراعى فى ميزان أصالة الكلمة وعدمها ـ لا يعتد بالحركة الطارئة للإتباع فى وزن الكلمة . وتقابل فى الميزان بالحركة الأصلية دلالة على الأصل ، كما فعلوا ذلك فى التغيير اللازم فى التصريف إذ تقابل الحركة العارضة بأصلها لا بما صارت إليه ، فضبط فاء الكلمة مثلا فى يقول ويبيع ، ومقال ، ومقول ، ومقيل ، السكون ، وإن كان مقابلها فى هذه الكلمات محركا بالفتحة أو الكسرة أو الضمة .

ولا نظن الأمر يستقيم على غير ذلك فيما لو أدى الإتباع إلى صيغة غير أصلية ، كفتح الحاء فى محموم إتباعا لفتحة الميم ، فإنه ينبغى أن يوزن على الأصل ـ مفعول ـ بسكون الفاء لا بفتحها ، لأنه ليس من أبنيتهم ، وينبغى أن يكون الأمر ـ فيما يؤدى فيه الإتباع إلى بنية أصلية وإلى صيغة طارئة غير أصلية ـ سواء ، وإن لم أجد من نبه على ذلك فيما وقفت عليه .

وفعلة ـ بفتح العين وسكونها مع التاء ـ مثل فعل دون تاء فيما قلنا ، وليس

لحرف الحلق اختصاص بهذا التغيير ، وفيما قرىء به هنا فى فعل وفعلة تأكيد هذا ، فقد جاء الفتح والسكون فى الدال والراء واللام والنون .

(ب) إتباع سكون لاحق فتحة سابقة فى صيغة طارئة :

وذلك فى قوله تعالى : « كعصف مأكول » : الفيـــل آية ٥ ـ قرأ أبو الدرداء بفتح الهمزة إتباعا لفتحة الميم (خا ـ ح) وليس مفعول ـ بفتح الميم والفاء ـ من أبنيتهم ، وإنما هى صيغة طارئة أدى إليها الإتباع ، وقد جاء عنهم مثل هذا فى محوم . ولا وجه للفتح هنا إلا الإتباع ، فلا لغة يجىء عليها ، ولا معنى يفرق بين ماهو بالفتح وما هو بالسكون ، فالإتباع هنا متعين لا محالة ، وكذلك هو فى كل ما يؤدى إلى صيغة طارئة .

(ج) عند التقاء الساكنين :

فى صورة التقاء الساكنين فى العربية لا يكون ثانيهما إلا صحيحا أما الأول فيكون صحيحا ، ويكون لينا ويكون مدا ـ وقد عدوا المد هنا ساكنا على منهجهم فى أنه حرف لا حركة عليه ولا يقبلها ، ومالا حركة عليه فهو ساكن .

وإذا التقى فى كلمة ساكنان أولهما صحيح وجب تحريك أولهما إلا إذا كان ثانيهما فى آخر الكلمة وعرض سكونه لأجل الوقف فيبقى الأول ساكنا على حاله ولا يحرك تخلصا، وجاز التقاؤهما لعروض سكون الحرف الثانى، وإذا التقى ساكنان أولهما حرف مد وجب حذفه إلا فى حالين :ـ إذا كان الساكن الثانى بعد المد مدغما مثل الضالين ، والصافات ، والحاقه ، فى حاجك ، أو كان الثانى الساكن موقوفا عليه فى آخر الكلمه مثل : الرحيم ـ العالمين ـ الدين ..

وإذا كان أولهما حرف لين وجب تحريكه إلا إذا كان الثانى آخر كلمة وسكن الموقف مثل : البيع ، والقوم أو كان الساكن الثانى مدغما مثـــل :

دويبة وشويبة تصغير دابة وشابة ، ياء التصغير ساكنة والباء بعدها مضعفة وأولى الباءين ساكنة .

والأصل الغالب غلبة تقارب الاطراد فى التخلص من الساكنين إذا وكان أولهما صحيحا أو لينا ـ أن يحرك أولهما بالكسر . وقد جاء تحريكه بالفتح فإذا كان قبله أو بعده ـ متصلا به أو مفصولا عنه بساكن واحد ـ فتح كان العدول عن سكون أولهما إلى تحريكه بالفتح إتباعا ، وإذا لم يكن مع الساكن فتح عللوا العدول من الكسرة إلى الفتحة بأنه الميل إلى الخفة إذ الفتح أخف من الكسر ، والكسر أخف من الضم فيما تبين لهم وقرروا . وقد يحرك بالضم ولا يكون ذلك إلا لإتباع أو مناسبة .

(ج) إتباع سكون لاحق لفتحة سابقة عند التقاء ساكنين :

وجل ذلك وقع إذا كان أول الساكنين الذى تحرك واوا ، وأكثر ما جاء من هذه الواو أن تكون للجماعة . ومن ذلك :

قوله تعالى: «وإذا لقوا الذين آمنوا» : البقرة آية ١٤ ـ قرأ: لاقوا الذين ـ على فاعل بفتح واو الجماعة ـ أبو السمال «ى» . قال الكرمانى: ويجوز (فى) العربية « وإذا لاقوا الذين[١] » بالواو وكسره ، وكذلك قراءتهم فى قوله : « اشتروا الضلالة » « فتمنوا الموت » و « ولوا الأدبار » « ورأوا العذاب » « ولا تنسوا الفضل » ونحوهن ـ بكسر الواو ، وعن ابن يعمر[٢] بفتحه[٣] ـ ونكتفى بهذا عن نسبة القراءة إلى ابن يعمر فى هذه المواضع عند ذكرها .

وقوله تعالى : « اشتروا الضلالة » : البقرة آية ١٦ ـ قرأ بفتح الواو ـ أبو السمال « س . خا . ى . ح » .

(١) فى المخطوط . ويجوز للعربية وإذ قول بالواو ص ١٩ .

(٢) يحيى بن يعمر العدوانى توفى قبل سنة ٩٠ هـ غاية النهاية ٣٨١/٢ ت٣٨٧٣ .

(٣) شواذ القراءة ص ١٩ .

وقوله تعالى : « فتمنوا الموت » البقرة آية ٩٤ - بفتح الواو - أبو السمال «ى» وحكى أبو على الحسن بن إبراهيم بن يزداد عن أبي عمرو أنه قرأ فتمنوا الموت بفتح الواو ، وحركها بالفتح طلبا للتخفيف[1] ، « ح » الجمعة آية ٦ - أبو السمال «ى» .

وقوله تعالى : « ورأوا العذاب » البقرة آية ١٦٦ - يونس آية ٥٤ - سبأ آية ٣٣ - الشورى آية ٤٤ - ابن يعمر «ى»[2] .

وقوله تعالى : « رأوا الآيات » يوسف آية ٣٥ - بفتح الواو اختيار قعنب أبي السمال «ى» .

وقوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل » البقرة آية ٢٣٧ - يعمر «ى» .

وقوله تعالى : « لولوا الأدبار » الفتح آية ٢٢ - ابن يعمر «ى» .

وقوله تعالى : « لو استطعنا » التوبة آية ٤٢ - بفتح الواو : الحسن بن عمران «ى» والحسن « ح »

وفي كل هذا أتبع سكون الواو الفتحة السابقة عليها ففتحت الواو تخلصا من الساكنين ، واختيرت الفتحة للإتباع ، ويقرأ بالكسر على الأصل ، وبالضم لمناسبة الواو .

وقوى من شأن الفتحة وأثرها في هذه المواضع أن اكتنفت الساكن من طرفيه قبله متصلة به ، وبعده مفصولة عنه بساكن لا يمنع من الإتباع .

وفي قوله تعالى : « ولما يعلم الله » آل عمران آية ١٤٢ - قرأ بفتح بالميم إتباعا لفتحة اللام قبلها يحيى بن يعمر ، وإبراهيم النخعي[3] « ى - ح » وقوى من شأن الفتحة أن وقع الساكن مكتنفا بها .

وأن يكون الإتباع للفتحة السابقة أولى من وجهين : أنها سابقة ، وأنها ملاصقة غير مفصولة ، فتكون أقوى على التأثير من اللاحقة .

---

(١) البحر المحيط ٣١٠/١ .

(٢) في ص ١٩ مع قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين » .

(٣) ترجمته في غاية النهاية ٢٩/١ - ٣٠ ت ١٢٥ .

(د) إتباع سكون سابق لفتحة لاحقة :

فى قوله تعالى : « قم الليل » المزمل آية ٢ - قرأ بفتح الميم أبو السمال « ى » وعزا ابن خالويه لأبى السمال ضم الميم ، أما فتحها فقد عزاه لآخر لم يسمه وكذلك ذكر أبو حيان أنه قرىء به دون عزو .

ووجه الفتح أن يكون إتباعا لفتحة اللام اللاحقة ، وقد فصل بينهما الساكن الثانى - لام أل - ولا يمنع هذا الفاصل من الإتباع .

٢ — إتباع الضمة للفتحة :

الشأن فى الإتباع أن الأقوى يتبعه ماهو دونه فى القوة ، والخفيف يتبع الثقيل ، والضمة - فيما قرر علماء العربية - أقوى وأثقل من الفتحة، وعلى قوة الضمه وثقلها أتبعت الفتحة على ضعفها وخفتها ، وكأن الإتباع فى هذا ميل إلى الأخف ، وجنوح إلى التماثل، وكان هذا مقدما على ماتقتضيه قوة الضمة من جذبها الفتحة إليها، وأكثر ماجاء من ذلك كانت الفتحة فيه متقدمة على الضمة وكأن هذا يعنى أن تقدم الحركة يجعلها أقوى على التأثير فى غيرها وإن كان أقوى منها ، أى أن تقدم الفتحة الضعيفة جعلها أقوى من الضمة المتأخرة، فجبر تقدمها ضعفها وزيادة وقد أتبعت الضمة الفتحة سابقة ولاحقة .

(ا) إتباع ضمة لاحقة لفتحة سابقة فى بنية أصلية :

وجاء ذلك فى بنيتين : فعل - بفتح فضم - صارت بالإتباع إلى فعل - بالتحريك - وفى فعلات جمع فعلة - بضم العين - وأتبعت الضمة الفتحة فى الجمع وذلك فى :

فعل :

فى قوله تعالى : « وما أكل السبع » : المائدة آية ٣ - قرىء بضم الباء وسكونها - وقرأ بفتحها يحيى بن وثاب(١) ، وإبراهيم النخعى « ى » وفتح

(١) ظ : غاية النهاية ٢/٣٨٠ ت ٣٧٨١ .

الباء إتباع لفتحة السين ، وضم الباء هو الحركة الأصلية ، ولا يقال السكون هو الأصل إذ لا يكون لضم الباء وجه يحمل عليه ، ولا سبب يسيغه . ولا يقال محمله ووجهه ضمة العين تبعها السكون السابق ؛ لأن هذا الضبط لم يختص بحال الرفع ، وحركة الإعراب عارضة ولو كان الإتباع لها ما جاء فى غير الرفع ، ولنص عليه العلماء كما فعلوا فى امرىء وابنم ومرء فالضمة اللاحقة هنا أتبعت الفتحة السابقة .

وقوله تعالى : « سنشد عضدك بأخيك » : القصص آية ٣٥ - قرأ بفتح الضاد عيسى الكوفة « ى — ح » - وهو عيسى بن عمر أبو عمر الهمدانى[1] ، وأعان على ذلك أن وقعت الضمة بين ثلاث فتحات على العين والدال والكاف فجرى اللسان مجرى واحدا فى الأربعة . وكان ذلك أخف وأيسر .

فعلات جمع فعلة :

فى قوله تعالى : « وقد خلت من قبلهم المثلات » : الرعد آية ٦ - قرأ بفتح الثاء إتباعا لفتحة الميم قبلها الأعمش[2] « ى - ح » وعيسى بن عمر « خا » ومجاهد « ى » . وقد جاء فى واحدة ضم الثاء وسكونها[3] ، والسكون تخفيف والفتح إتباع ، والأمر فيها وفى « السبع » و « عضدك » واحد . ففيها إتباع ضمة لفتحة ، لا سكون لفتحة .

(ب) إتباع ضمة سابقة لفتحة لاحقة فى صيغة طارئة :

وذلك فى قوله تعالى : « مذبذبين بين ذلك » النساء آية ١٤٣ - قرأ بفتح الميم ابن عباس (خا) والحسن . (س . ى . ح) « قال ابن عطية : وهى

---

(١) السابق ١/٦١٢ ت ٢٤٩٧ ، ٢٤٩٩ .

(٢) سليمان بن مهران « ٦٠ - ١٤٨هـ » . غاية النهاية ١/٣١٦ - ٣١٦ت١٣٨٩ .

(٣) ظ : القاموس المحيط « م . ث . ل » .

قراءة مردودة . اهـ . والحسن البصرى من أفصح الناس يحتج بكلامه فلا ينبغى أن ترد قراءته ، ولها وجه فى العربية وهو أنه أتبع حركة الميم بحركة الذال. وإذا كانوا قد أتبعوا حركة الميم بحركة عين الكلمة فى مثل منتن وبينهما حاجز - فلأن يتبعوا بغير حاجز أولى . وكذلك أتبعوا حركة عين منفعل بحركة اللام فى حالة الرفع فقالوا : منحدر ،وهذا أولى ، لأن حركة الإعراب ليست ثابتة بخلاف حركة الذال . وهذا كله توجيه شذوذ . على تقدير صحة النقل عن الحسن أنه قرأ بفتح الميم »(١) .

وماذهب إليه أبو حيان من توجيه القراءة حسن ، أما مايوحى به كلامه من شك فى نسبتها للحسن فيرفعه أن النحاس والكرمانى نسباها إلى الحسن كذلك ، ويعزز القراءة أن ابن خالويه نسبها إلى ابن عباس . ويعزز ثبوتها أيضا أن ابن عطية أثبتها ولم ينفها إذ ردها ، فلو لم تثبت عنده لكان الاعتذار بعدم ثبوتها قاطعا وكافيا عن تجشم ردها والاحتجاج لهذا الرد .

٣ — إتباع الكسرة للفتحة :

اتبعت الكسرة اللاحقة الفتحة السابقة فى قوله تعالى : « وامرأته قائمة فضحكت » : هود آية ٧١ - قرأ بعضهم بفتح الحاء . (خا) . وقد وقعت كسرة الحاء بين فتحتين وإتباعها للفتحة السابقة أولى من إتباعها اللاحقة ، إلا أن وقوع الفتحة بعـــدها يقوى من صاحبتها وتتوالى بالإتباع أربع فتحات ، فيخف ذلك على اللسان ، ويجرى العمل على وجه واحد ، هـــذا إلى خفة الفتحة فى نفسها ، وإلى ماقرره بعض المتقدمين من ميل حروف الحلق إلى الفتح .

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٧٨ — ٣٨٩ وظ : النهر الماد من البحر — والدر اللقيط من البحر المحيط فى الموضع نفسه .

هذا وإذا نظر إلى أن حركة التخلص من الساكنين هي الكسرة وأن العدول عنها عدول عن أصل إلى حال طارئة لمناسبة وعلة كان ماسبق في الفقرة : ١ / جـ (إتباع سكون لاحق لفتحة سابقة) مما هنا والأولى أن يكون من إتباع السكون للفتحة كما سبق .

هذا ولم يأت إتباع الكسرة سابقة للفتحة لاحقة كما جاء في الضمة، وإذا أخذ ماورد هنا مقياسا للإتباع للفتحة كان إتباع الضمة لها أكثر من إتباع الكسرة لها . هذا إذا استبعدنا مافتح لالتقاء الساكنين نظراً لأنه من إتباع السكون للفتحة لا الكسرة للفتحة على ما رجح قبل .

وقد يفيد هذا وما يأتي بعد أن الضمة أقرب إلى الفتحة من الكسرة إليها ، وهذا يخالف ترتيب ابن جني للحركات بحسب مخارجها الفتحة فالكسرة فالضمة وماذهب إليه من أن الضمة أبعد عن الفتحة ، وأن الكسرة بينهما[1]، ويوافق ماذهب إليه المحدثون من أن الضمة كالواو من أقصى اللسان ، فهي بين الفتحة والكسرة ، وكذلك درجة القرب والبعد بين الحروف التي هذه الحركات أبعاضها .

ثانيا : الإتباع للضمة

أتبعها السكون والفتحة والكسرة . أتبعها السكون في بنية أصلية ، وفي علامة الإعراب ، وفي التقاء الساكنين ، وأتبعتها الفتحة والكسرة في بنية أصلية وفي صيغة طارئة ، وفي علامة البناء .

١ — إتباع السكون للضمة :

أتبعها لاحقا فصارت بعده الكلمة إلى بنية أصلية ، وفي علامة الإعراب ،

---

(١) ظ : سر صناعة الإعراب ١/ ٦٠ – ٦١ .

وفى التقاء الساكنين ، وقد يصير السكون إلى الضمة مع الواو عند التقاء الساكنين ، وهذا قريب من الإتباع لضمة سابقة .

٣ — إتباع سكون لاحق لضمة سابقة فى بنية أصلية :

وجاء ذلك فى فعل ، وفعلان، وفعلى.

فعل :

قرىء بضم الفاء وسكون العين على الأصل ، وبضمها إتباعا لضمة الفاء فى مواضع كثيرة ، والضم والسكون يحتملان أمرين :أن يكون الأصل الضم وعدل عنه إلى السكون تخفيفا ، وأن يكون السكون هو الأصل ، وعدل عنه إلى الضم إتباعا ، وتقدير أن يكون الأصل هو السكون أولى حملا على الأكثر ورودا من هاتين الصيغتين ، والأشهر الأشيع فى الاستعمال من الضبطين ، فى الكلمات التى قرىء فيها بهما ، ولا يمنع من الإتباع أن يكون الضم فى لغة قبيلة ، والسكون فى لغة أخرى . وما نحن بصدده لا يدخل فيه مايختلف معناه باختلاف ضبطه . ومما جاء على ذلك :

قوله تعالى : « قلوبنا غلف » : سورة البقرة آية ٨٨ - هذا جمع أغلف ، وقياسه بسكون عين الكلمة ، فالأصل السكون ويكون الضم عارضا إتباعا لضمة الغين - فاء الكلمة - وقرأ بضم اللام . ابن عباس (ى - ح)واللؤلؤى عن أبى عمرو (خا - ح) والحسن ، والزهرى (ى) والأعرج ، وابن هرمز[1]، وابن محيصن[2] (ح) .

قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » آل عمران

---

(١) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج المدنى (- ١١٧ هـ) - غاية النهاية ٣٨١/١ ت : ١٦٢٢ .

(٢) محمد بن عبدالرحمن بن محيصن (- ١٢٣ هـ) - غاية النهاية ١٦٧/٢ ت ٣١١٨ .

آية ١٤٠ قرىء بضم القاف وسكون الراء ـ وقرأ بضم الراء إتباعا ابن أبي ليلى[1] « ى » .

قوله تعالى : « سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب » سورة آل عمران آية ١٥١ . قرأ بضم العين أبو جعفر[2]، وعيسى والأعرج «س» وابن عامر والكسائي « ح » .

قوله تعالى : « ويأمرون الناس بالبخل » سورة النساء آية ٣٨ قرأ بضم الخاء عيسى بن عمر « خا . ى . ح » والحسن « ح » .

قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية » سورة المائدة آية ٥٠ «حكما» سورة الشعراء ٢١ قرأ بضم الكاف عيسى الكوفة « ى »[3] وهو الهمداني .

قوله تعالى : « وحرث حجر » سورة الأنعام آية ١٣٨ ، قرىء بضم الحاء وسكون الجيم وقرى بضم الجيم إتباعا قرأ بذلك أبان بن عثمان ، « س . ى . ح » وعيسى بن عمر « خا ـ ح » .

قوله تعالى : « وأمر بالعرف » سورة الأعراف آية ١٩٩ قرأ بضم الراء عيسى الثقفي البصري « س . ى . ح » .

وقوله : « والمرسلات عرفا » سورة المرسلات آية ١ ، عيسى بن عمر « ى ـ ح » والحسن « ى » .

قوله تعالى : « أو آوى إلى ركن شديد » سورة هود آية ٨٠ قرأ بضم الكاف . عمرو بن عبيد[4] ـ وسعيد بن أبي عروبة « خا » وابن عمر « ى » .

---

(١) عيسى بن عبد الرحمن الأنصاري ـ غاية النهاية ١/٦٠٩ ت : ٢٤٩١ .

(٢) يزيد بن القعقاع المخزومي (مولاهم) (ـ ١٣٠ هـ) : السابق ٢/٣٨٢-٣٨٤ ت ٣٨٨٢١ .

(٣) كلاهما في آ : ٢١ : الشعراء ص/١٧٧ .

(٤) عمرو بن عبيد بن باب البصري (ـ ١٨٠ هـ) غاية النهاية ١/٦٠٢ت٢٤٥٨ .

قوله تعالى : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » سورة هود آية ٨١ ، قرأ بضم الباء عيسى بن عمر الثقفي « س . خا . ى . ح » .

قوله تعالى « وابيضت عيناه من الحزن » سورة يوسف آية ٨٤ قرأ بضم الزاى قتادة[1] « ى – ح » .

قوله تعالى : « مالم تحط به خبرا » « بما لديه خبرا » سورة الكهف آية ٦٨ ، ٩١ قرأ بضم الباء : الحسن « ى . خا . ح » وعيسى البصرة « خا – ى » والأعرج ، وعباس[2] عن أبي عمرو ، وابن عباس « خا » وابن هرمز « ح » .

قوله تعالى : « من لدنى عذرا » سورة الكهف آية ٧٦ قرأ بضم الذال النبي صلى الله عليه وسلم وابن عباس وعلى بن الحسين[3] ، وسلام[4] ، والأعمش « ى » . وعيسى ، ورويت عن أبي عمرو « ح » . وفى « عذرا » سورة المرسلات آية ٦ قرأ بالضم الحسن ، وعاصم « ى » وبضم الذال فى عذرا أو نذرا » .

زيد بن ثابت ، وابن خارجة . وطلحة ، وأبو جعفر ، والحسن ، والأعشى[5] عن أبي بكر «[6] ، والضم عن زيد فى رواية ، وعن الحسن بخلاف « ح » .

---

(١) قتادة بن دعامة السدوسى البصرى (– ١١٧ هـ) السابق ٢/٢٥ – ٢٦ ت : ٢٦٢١ .

(٢) العباس بن الفضل بن عمر الواقفى الأنصارى البصرى (١٠٥ – ١٨٥ هـ) السابق ١/٣٥٣ ت : ١٥١٤ .

(٣) على بن الحسين بن على بن أبى طالب زين العابدين . السابق ١/٥٤ ت : ٢٢٠٦ .

(٤) سلام بن سليمان الطويل (– ١٧١ هـ) السابق ١/٣٠٩ ت : ١٣٦٠ .

(٥) يعقوب بن محمد بن خليفة التميمى الكوفى (– فى حدود ٢٠٠ هـ) السابق ٢/٣٩٠ ت : ٣٨٩٧

(٦) شعبة بن عياش بن سالم الأسدى الكوفى (– ١٩٣ هـ) السابق ١/٣٢٥ – ٣٢٧ ت : ١٤٢١ .

قوله تعالى : « يومئذ زرقا » سورة طه آية ١٠٢ - جمع أزرق . قرأ بضم الراء عيسى الكوفة (ى) .

« قوله تعالى : « والفلك تجرى » سورة الحج آية ٦٥ - قرأ بضم اللام ابن مقسم[1] (ى - ح) وزيد بن على (فى غير المؤمنين آية ٢٢) والسلمى ، وابن هرمز (ى) وابن الزبير (فى لقمان آية ٣١) (ى) والحسن « فى البقرة آية ١٦٤ » (خا) والكسائى عن الحسن (ح) .

قوله تعالى : « واضمم إليك جناحك من الرهب » سورة القصص آية ٣٢ .

قرىء بضم الراء وسكون الهاء وقرأ بضمهما عيسى البصرة (خا - ى - ح) .

والجحدرى (س ، ى ، ح) والحسن ، وقتادة (ى - ح) وابن كثير (س) والمفضل ، وابن عبيد (ى) .

قوله تعالى : « بوالديه حسنا » سورة العنكبوت آية ٨ بضم السين عيسى البصرة ، وعيسى الكوفة (ى) .

قوله تعالى : « من بعد قوة ضعفا) سورة الروم آية ٥٤ - قرأ بضم الضاد وسكون العين . وقرأ بضمها عيسى الكوفة (ى - ح) .

قوله تعالى : « إن الشرك لظلم » سورة لقمان آية ١٣ ، قرا بضم اللام - أبو واقد (ى) .

قوله تعالى : « فى شغل فاكهون » سورة يس آية ٥٥ - قرأ بضم الغين -

---

(١) محمد بن الحسن بن يعقوب البغدادى (٢٦٥ - ٣٥٤ هـ) السابق ٢/١٢٣ - ١٢٥ ت : ٢٩٤٥ .

الكوفيون (س) عيسى البصرة (ى) عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر (ح) .

قوله تعالى : « بنصب وعذاب » سورة ص آية ٤١ قرأ بضم الصاد أبو جعفر (س . خا . ى . ح) والحسن (خا - ى) وشيبة(١) ، وأبو عمارة عن حفص والجعفي عن أبي بكر ، وأبو معاذ عن نافع (ح) .

قوله تعالى : « فالجاريات يسرا » سورة الذاريات آية ٣ قرأ بضم السين مقبل الأنطاكي عن أبي جعفر (ى) وفي الشرح ٥ ، ٦ أبو جعفر (ى) .

قوله تعالى: « على رفرف خضر » سورة الرحمن آية ٧٦ قرأ بضم الضاد النبي صلى الله عليه وسلم . وعثمان بن عفان ، ونصر بن عاصم ، والجحدري ومالك بن دينار(٢) وابن محيصن وزهير الفرقبي(٣) (ى) وابن هرمز (ح) والأعرج (خا - ى) .

قوله تعالى : « بيده الملك » سورة الملك آية ١ قرأ بضم اللام زيد بن علي والسلمي وابن هرمز (ى) .

قوله تعالى : « يهدي إلى الرشد » سورة الجن آية ٢ - قرأ بضم الشين عيسى الثقفي (ى - ح) .

قوله تعالى : « يوم عسير » سورة المدثر آية ٩ - وقرىء « عسر » بضم العين وسكون السين وقرأ بضمهما الحسن (ى) وفي الشرح ٥ ، ٦ أبو جعفر (ى) .

قوله تعالى : « أو نذرا » المرسلات آية ٦ قرأ بضم الذال : شيبة ، وزيد

---

(١) شيبة بن نصاح بن سرجس (- ١٣٠ هـ) غاية النهاية ١/٣٢٩ - ٣٣٠ ت : ١٤٣٩ .

(٢) مالك بن دينار أبو يحيى البصري (- ١٢٧ هـ) السابق ٢/٣٦ ت : ٢٦٤٣

(٣) زهير الفرقبي النحوي يعرف بالكسائي : السابق ١/٢٩٥ ت : ١٣٠١ .

ابن على ، والحرميان: نافع وابن كثير ، وابن عامر وأبو بكر « ح » [وظ : « عذرا » وقد سبق] والحسن « ى » وعاصم « ى - ح » .

قوله تعالى : « كأنه جمالة صفر » المرسلات آية ٢٣ - قرأ بضم الفاء الحسن « ى - ح » وحميد ، والكلبى « ى » .

قوله تعالى : « إن الإنسان لفى خسر » العصر آية ٢ - قرأ بضم السين هارون عن أبى بكر عن عاصم « خا - ح » والأعرج ، وعيسى البصرة « ى » وابن هرمز ، وزيد بن على « ح » .

فعلى :

قرىء بسكون السين وضمها فى قوله تعالى : لليسرى » الليل آية ٧ وقوله تعالى « للعسرى » الليل آية ١٠ - قرأ بذلك أبو جعفر ، وابن مقسم « ى » .

فعلان :

قرىء بسكون العين وضمها فى :

قوله تعالى : « مالم ينزل به عليكم سلطانا» الأنعام آية ٨١ قرى بضم اللام « ح » و « سلطان » فى غافر الآيات ٢٣ ، ٣٥ ، ٥٦ - قرأ بضم اللام - عيسى البصرة « ى - ح » .

قوله تعالى : « ورضوان » التوبة آية ٢١ - قرأ بضم الضاد : الأعمش « ى - ح » واعترض عليها أبو حاتم ، ورده أبو حيان(١) .

قوله تعالى : « قربانا آلهة » الأحقاف آية ٢٨ - قرأ بضم الراء عيسى ابن عمر « ى » .

فعل فى اللغة :

جاء فعل - بسكون العين فى العربية أكثر من فعل - بضمها - والسكون أخف من الضم ، وقد جاءت كلمات بالسكون والضم مع اتحاد المعنى ، وقد

(١) البحر المحيط ٥/٢١ .

أوضحنا فى فعل - بفتح العين وسكونها - أن الأصل ينبغى أن يكون هو الأكثر والأخف ، وكذلك الأمر هنا ، وقد قال الفيومى : «كل اسم ثلاثى على فعل بضم الفاء وسكون العين فبنو أسد يضمون العين إتباعا للأول نحو عسر ويسر ، وإن كان بضمتين فبنو تميم يسكنون تخفيفا نحو : عنق وطنب ورسل وكتب إلا فى نحو سرر وذلك لأن السكون يؤدى إلى الإدغام فتختل دلالة الجمع[1] .

ومقتضى كلام الفيومى أن كل فعل - بسكون العين - يجوز فيه الإتباع على لغة بنى أسد ، وأن الإتباع كثر فى كلامهم ، والذى ينبغى أنه يصار إلى الإتباع إلا إذا كان الضم خلاف الأكثر والأشيع قاعدة واستعمالا ، فإن كان السكون خلاف ذلك كان تخفيفا من الضم ، فإن تساويا ترجح حملهما على اختلاف اللغات .

وقد ذكر ابن عطية - فيما نقله أبو حيان - «أن التخفيف من التثقيل قلما يستعمل إلا فى الشعر ، ونص ابن مالك على أنه يجوز التسكين فى نحو حمر جمع حمار دون ضرورة ، وهذا يوافق ماذكره الفيومى .

وفى قراءة «غلف» بضم اللام قال أبو حيان : «ولا يجوز أن يكون فى هذه القراءة جمع أغلف ، لأن تثقيل فعل الصحيح العين لا يجوز إلا فى الشعر[2] ، وقد نقل هو عن الحسن أنه قرأ فى المرسلات صفر - بضم الفاء - ونقل غيره عن عيسى الهمدانى أنه قرأ فى طه زرقا بضم الراء ، ولا وجه لهذين إلا أن يكون تثقيلا عن تخفيف وتفسيره لغلف على أنها جمع غلاف لا أغلف يغلب عليه التكلف وقسر اللفظ على أداء معنى لا يناسبه .

وبهذ يسلم لنا القول بأن ما جاء على فعل بضم عين الكلمة مما الغالب فيه

---

(١) المصباح المنير / ٦٩٨ ت : عبد العظيم الشناوى ط دار المعارف الخاتمة الفصل : ١٣ .

(٢) البحر المحيط ١/٣٠١ .

قياسا واستعمالا سكون العين فضمها للإتباع قراءة ولغة، وقوة الضمة السابقة وضعف السكون اللاحق يساعد على هذا الإتباع وبكون العدول عن الأكثر الأخف إلى ماهو دونه فى ذلك ليجرى اللسان على وجه واحد كما سبق بيانه فى فعل - بالفتح والسكون .

والشأن فى فعلان وفعلى شأن فعل سواء بسواء .

(ب) إتباع سكون لاحق لضمة سابقة فى علامة الإعراب :

ولا يتأتى ذلك إلا فى المضارع المجزوم وذلك محتمل فى قوله تعالى : « لايضركم » آل عمران آية ١٢٠ المائدة آية ١٠٥ - قرأ بضم الراء الكوفيون « س » . الكوفيون وابن عامر « ح » والكوفيون من السبعة عاصم وحمزة والكسائى ، وقرىء بفتح الراء وكسرها . قال أبوحيان فى قراءة ضم الراء : « واختلف أحركة الراء إعراب فهو مرفوع ؟ أم حركة إتباع لضمة الضاد وهو مجزوم كقولك مد . ونسب هذا إلى سيبويه[1] » .

(ج) إتباع سكون سابق لضمة لاحقة عند التقاء الساكنين :

بينا ما تكون عليه حركة التخلص من التقاء الساكنين ، وأنها عدول عن السكون لا عن الكسر ، وقد قرىء بضم الساكن الأول إذا كان تاء : أو دالا أو لاما أو نونا - أو تنوينا أو واوا . وذلك إذا كان بعد الساكن الثانى ضمة لازمة . قال أبو حيان : واختلف القراء فى حركة النون من قوله : « فمن اضطر » « وأن احكم » « ولكن انظر » وشبهه وحركة الدال من « ولقد استهزىء » والتاء من : « وقالت أخرج عليهن » وحركة التنوين من « فتيلا انظر » ونحوه ، وحركة اللام من « قل ادعوا الله » والواو من « أو ادعوا الرحمن » .

فكسر ذلك عاصم وحمزة - وحركها أبو عمرو إلا فى الواو والنون

(١) البحر المحيط : ٣/٤٣ .

ويعقوب إلا فى الواو(١) وضم باقى السبعة إلا ابن ذكوان فإنه كسر التنوين، وعنه فى « برحمة ادخلوا » و « خبيثة اجتثت » خلاف .

وضابط هذا أنه يكون ضمة هذه الأفعال لازمة ، فإن كانت عارضة فالكسر نحو « أن امشوا » .

وتوجيه الكسر أنه حركة التقاء الساكنين . والضم أنه إتباع ولم يعتدوا بالساكن لأنه حاجز غير حصين ، أو ليدلوا على أن حركة همزة الوصل المحذوفة كانت ضمة »(٢) .

ولا معنى للدلالة على حركة همزة الوصل المحذوفة فهى ليست حركة أصلية حتى يدل عليها بل تكون تبعا لغيرها ، فالمحمل الصحيح أن الضم للإتباع .

ونبين مواطن ماذكره أبو حيان ومن قرأ بالضم غير من ذكرهم هنا إن كان .

حركة التاء فى قوله تعالى : « وقالت اخرج عليهن » يوسف آية ٣١ .

حركة الدال فى قوله تعالى : « ولقد استهزىء » الأنعام آية ١٠ الرعد آية ٣٢ ، الأنبياء آية ٤١ .

حركة اللام فى قوله تعالى : « قل انظروا » يونس آية ١٠١ « قل ادعوا » الإسراء آية ١١٠ — ونسبها أبو حيـــان فى موضع يونس إلى : الحرميين والعربيين والكسائى فزاد أبا عمرو الذى عزا إليه التحريك إلا فى الواو والنون .

حركة النون فى قوله تعالى : « فمن اضطر » البقرة آية ١٧٣ — المائدة آية ٣ — الأنعام آية ١٤٥ — وعزا ابن خالويه الضم فى موضع البقرة إلى ابن

---

(١) يقصد بالتحريك الفتح .

(٢) البحر المحيط ١/٤٩٠ .

يعمر . وفى قوله تعالى : « أن اقتلوا أنفسكم » النساء آية ٦٦ ، « وأن احكم » المائدة آية ٤٩ « ولكن انظر » الأعراف آية ١٤٣ .

حركة نون التنوين فى قوله تعالى : « ولا يظلمون فتيلا انظر » النساء آية ٤٩ — ٥٠ « برحمة ادخـــلوا » الأعراف آية ٤٩ « خبيثة اجتثت » إبراهيم آية ٢٦ .

حركة الواو فى قوله تعالى : « أو اخرجوا من دياركم » النساء آية ٦٦ « أو ادعوا الرحمن » الإسراء آية ١١٠ .

(د) إتباع سكون لاحق لضمة سابقة عند التقاء الساكنين :

وإذا اتبع السكون الضمة وهى متأخرة عنه مفصولة منه فأن يتبعها متقدمة عليه متصلة به أولى ، وجاء ذلك فى :

قوله تعالى : « ونادى نوح ابنه » هود آية ٤٢ - قرأ بضم نون التنوين وكيع بن الجراح « ح » وهو إتباع لضمة الحاء السابقة .

وقوله تعالى : « قم الليل » المزمل آية ٢ - قرأ بضم الميم أبو السمال « خا - ى - ح »(١) وهو إتباع لضمة القاف السابقة .

(هـ) مناسبة سكون لاحق لواو سابقة عند التقاء الساكنين :

وسمينا ذلك مناسبة لأن المتقدمين جعلوا الإتباع إما أن تتبع كلمة كلمة ، أو حركة حركة ، وجعلوا العلاقة بين الحروف والحركات مناسبة أو مجانسة ، وقد قرىء بضم الساكن الأول وهو واو ولا ضمة قبله أو بعده ، فالوجه أن الضم لمناسبة الواو التى كانت ساكنة وحركت بالضم لالتقاء الساكنين . وذلك فى :

قوله تعـــالى : « ولا تنسوا الفضل » البقرة آية ٢٣٧ - قرأ بضم الواو يحيى بن يعمر « ح » .

(١) وظ : المحتسب لابن جنى ٢/٣٣٥ - ٣٣٦ .

قوله تعالى : « لو اطلعت عليهم » الكهف آية ١٨ - قرأ بضم الواو يحيي ابن وثاب ، والأعمش، وروى عن شيبة وأبي جعفر ونافع « ى » .

قوله تعالى : « ولو اتبع » المؤمنون آية ٧١ - قرأ بضم الواو يحيي بن وثاب « ى » .

قوله تعالى : « وأن لو استقاموا » الجن آية ١٦ - قرأ بضم الواو الأعمش وابن وثاب « خا . ى . ح » .

٢ — إتباع الفتحة للضمة :

أتبعت الفتحة للضمة فصارت الكلمة بالإتباع إلى بنية أصلية ، وإلى صيغة طارئة ، وأتبعتها في علامة البناء ، وفيها كانت الضمة سابقة ، والفتحة لاحقة ، والعكس .

(ا) إتباع فتحة لاحقة لضمة سابقة في بنية أصلية :

وجاء ذلك في فعل وفعلة وجمع مفعلة .

فعل : بضم الفاء وفتح العين - أتبعت العين الفاء فضمت ، والفتحة أخف من الضمة فالعدول إلى الأثقل إيثار لاتفاق الحركات ، وكأنهم يستخفون الثقيل ويستحسنونه إذا جرى على وجه واحد فيكون ، هـــذا أيسر على اللسان ، وأحب إلى الناطق من خلاف الحركات، ويكون الانتقال من ضم إلى ضم أقرب متناولا عند بعضهم من الانتقال من ضم إلى غيره ولو كان فتحا ، وجاءت القراءة بذلك في قوله :

قوله تعالى : « يكاد سنا برقه» النور آية ٤٣ - قرىء بضم الباء وفتح الراء على أنه جمع برقة كغرف جمع غرفة ، وقرأ بضم الباء والراء على الإتباع طلحة بن مصرف « خا - ح » .

قوله تعالى : « يقول أهلكت مالا لبدا » البلد آية ٦ - قرأ بضم الباء مجاهد « س . خا . ى . ح » وابن أبى الزناد « خا - ح » .

فعلة : بضم الفاء وفتح العين فى قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » الهمزة آية ١ قرأ بضم العين - الميم فيهما - إتباعا للضمة السابقة . الأعمش « ى » .

جمع مفعلة - اسم مفعول من أفعل - فى قوله تعالى : « والمحصنات » النساء آية ٢٤ - قرأ بضم الصاد إتباعا لضمة الميم السابقة يحيى بن وثاب « ى » ويزيد قطيب « ح » وفصلت بينهما الحاء الساكنة ، ولا يمنع ذلك من الإتباع الذى لا وجه للضم غيره .

(ب) إتباع فتحة لاحقة لضمة سابقة فى صيغة طارئة ،

وذلك فى :

قوله تعالى : « فمستقر ومستودع » الأنعام آية ٩٨ - قرأ بضم التاء فيهما إتباعا لضمة الميم السابقة . إبراهيم بن أبى عبلة « ى » .

قوله تعالى : « بألف من الملائكة مردفين » الأنفال آية ٩ قرأ بتضعيف الدال ، وأصله مرتدفين أدغمت التاء فى الدال ، أما الراء الساكنة فحركت بعد الإدغام بفتحة أو كسرة أو ضمة ، وهو بالضم إتباع ، أتبعت فتحة الراء ضمة الميم السابقة ، وقد نقل القراءة بضم الراء الخليل بن أحمد عن المكيين « ى » أو عن بعض المكيين « ح » .

قوله تعالى : « وطفقا يخصفان » الأعراف آية ٢٢ - قرىء يخصفان مضارع خصف - بالتضعيف - وقرأ عبد الله بن يزيد بضم الخاء إتباعا لضمة الياء « ح » .

(ج) إتباع فتحة سابقة لضمة لاحقة فى بنية أصلية :

وجاء ذلك فى ثلاثة أبنية فعل : بفتح فسكون - فعل : بفتح فضم - جمع فعلة : بفتح فضم :

فعل ـ بفتح فسكون ـ فى قوله تعالى : « يوم ينظر المرء » النبأ آية ٤٠ ـ قرأ بضم الميم إتباعا لضمة الهمزة ـ عـــلامة الإعراب ـ ابن أبي إسحاق وأبو السمال قعنب « ى » ونسبها أبو حيان إلى ابن أبي إسحاق وحده قال : « وضعفها أبو حاتم ، ولا ينبغى أن تضعف لأنها لغة ، يتبعون حركة الميم لحركة الهمزة ، فيقولون : مرء . ومرأ . ومرء ، على حسب الإعراب[1] » .

فعل ـ بفتح فضم ـ فى قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » الكهف آية ٥١ ـ قرأ بضم العين إتباعا لضمة الضاد ـ الحسن « خا » وقوله تعالى : « سنشد عضدك » القصص آية ٣٥ قرأ بضم العين إتباعا لضمة الضاد ـ الحسن « ى ـ ح » وزيد بن على « ح » .

وقوله تعالى : « من الكذاب الأشر » القمر آية ٢٦ قرىء الأشر بفتح فضم ، وقرأ بضم الهمزة إتباعا لضمة الشين مجاهد « ى ـ ح » .
قال أبو حيان : « مجاهد ـ فيما ذكر اللوامع ـ وأبو قيس الأودى[2] » .

جمع فعلة ـ بفتح فضم ـ فى قوله تعالى : « وقد خلت من قبلهم المثلات » الرعد آية ٦ ـ قرأ بضم الميم إتباعا لضمة الثاء . عيسى بن عمر أو عمير « خا ـ ح » وأبو بكر « ى ـ ح » وابن أبي عبلة ، ويزيد بن قطيب ـ وعاصم « ى » والأعمش فى رواية « ح » .

(د) إتباع فتحة سابقة لضمة لاحقة فى صيغة طارئة :

وذلك فى :

قوله تعالى : « ثم أضطره » البقرة آية ١٢٦ ـ قرأ بضم الطاء إتباعا لضمة الراء بعدها ـ يزيد بن أبي حبيب « ح » .

---

(١) البحر المحيط ٤١٦/٨ .
(٢) البحر المحيط : ١٨٠/٨ .

قوله تعالى : « مانعبدهم » الزمر آية ٣ - قرئ بضم النون إتباعا لضمة الباء «ح» .

(هـ) إتباع فتحة لاحقة لضمة سابقة فى علامة البناء :

وذلك فى :

قوله تعالى : « أيه المؤمنون » النور آية ٣١ « ياأيه الساحر » الزخرف آية ٤٩ - « أيه الثقلان » الرحمن آية ٣١ - وقرأ بضم الهاء إتباعا لضمة الياء قبلها ابن عامر - وضم هاء التنبيه بعد أى لغة لبنى مالك رهط شقيق بن سلمة «ح» وحكاها الكسائى ، وهى لغة شاذ «س» .

٣ — إتباع الكسرة للضمة :

وجاء ذلك قليلا فى علامة إعراب وعلامة بناء وحرف بنية :

(ا) إتباع كسرة لاحقه لضمة سابقة فى علامة بناء :

وذلك فى :

قوله تعالى : « الحمد لله » الفاتحة آية ٢ - قرأ بضم لام الجر إتباعا لضمة الدال قبلها - إبراهيم بن أبى عبلة « س . خا . ى . ح » ويزيد بن قطيفه الأعسم « ى » .

(ب) إتباع كسرة لاحقة لضمة سابقة فى حرف بنية :

وذلك فى :

قوله تعالى : « ياصالح ائتنا » الأعراف آية ٧٧ - قرأ : ياصالح أوتنا بهمز وإشباع ضم - عيسى وعاصم ، قال أبو حيان : « وفى كتاب ابن عطية : قال أبو حاتم : قرأ عيسى وعاصم أوتنا بهمز وإشباع ضم - انتهى . فلعله عاصم الجحدرى لا عاصم بن أبى النجود أحد قراء السبعة(١) .

(١) البحر المحيط ٤/٣٣١ .

(جـ) إتباع كسرة سابقة لضمة لاحقة علامة الإعراب :

وذلك فى قوله تعالى : «الملائكة اسجدوا» سورة البقرة آية ٣٤ ـ قرأ بضم التاء إتباعا لضمة الجيم بعدها ـ أبو جعفر يزيد بن القعقاع (س . خا . ى . ح) وسليمان بن مهران (ح) ورأى النحاس ذلك إشماما أو لحنا(١) .

وقد اعترض على هذه القراءة جمع من العلماء ودافع عنها أبو حيان . ونقل أنها لغة أزدشنوءة .(٢)

ثالثا : الإتباع لكسرة

أتبعها السكون والفتحة والضمة ، وأقلها إتباعا لها السكون بخلاف الفتحة والضمة إذ كثر إتباعه لها ، وإتباع الفتحة إياها أكثر من إتباع الضمة ولكنهما متقاربان .

١ — إتباع سكون لاحق لكسرة سابقة :

وذلك فى قوله تعالى : «ونعم أجر العاملين» سورة آل عمران آية ١٣٦ قرأ بكسر العين إتباعا لكسرة النون ـ طلحة بن مصرف (ى) ولم ينقل غير هذا .

٢ — إتباع الفتحة للكسرة :

أتبعتها سابقة ولاحقة ، فى بنية أصلية ، وصيغة طارئة ، وفى علامة بناء ، وفى حرف بنية .

١ - إتباع فتحة لاحقة لكسرة سابقة فى بنية أصلية :

وذلك فى جمع أم على أمهات . إذا كان الحرف السابق قبل الهمزة فى الكلمة السابقة عليها مكسورا ، وذلك : «من بطون أمهاتكم» النحل آية ٧٨

---

(١) ط ا إعراب القرآن ١ /٢١٢ (٢) ط ا البحر المحيط ١/١٥٢ .

. فى بطون أمهاتكم » سورة الزمر آية ٦ ، سورة النجم آية ٣٢ « أو بيوت أمهاتكم » سورة النور آية ٦١ .

(جميعها ذكرت مع آية ١١ سورة النساء « فلأمه الثلث » ظ : إتباع ضمة لكسرة) قرىء بكسر الهمزة المضمومة إتباعا لكسرة الحرف السابق. وقرأ بكسر الميم المفتوحة إتباعا للهمزة المكسورة. الأخوان (ح) . وذكرها النحاس ولم ينسبها فقال : « من كسر الهمزة أتبع الكسرة الكسرة ، وكسر الميم بعيد »[1] .

وعند ابن خالويه ذكرت تابعة لمن قرأ بالكسر فى « فلأمه الثلث » سورة النساء آية ١١ وقد سقطت فى الكتاب المحقق فلم تذكر ولا من قرأ بها فقال : «فى بطون أمهاتكم» بالوصل وكسر الميم عنه أيضا »[2] ويقصد بالوصل حذف الهمزة ، ونسب الكرمانى القراءة بذلك إلى الأعمش[3] .

(ب) إتباع فتحة لاحقة لكسرة سابقة فى علامة بناء : وذلك فى قوله تعالى : « وأنتم حينئذ » سورة الواقعة ٨٤ قرأ بكسر النون من حين عيسى (خا ـ ج) والكسر إتباع لكسرة الحاء السابقة ، ويجوز أن يكون إتباعا لكسرة الهمزة اللاحقة ، وإتباع السابق أولى .

(ج) إتباع فتحة لاحقة لكسرة سابقة فى حركة التخلص من الساكنين :

وذلك فى قوله تعالى : « براءة من الله » سورة التوبة آية ١ بكسر النون إتباعا لكسرة الميم (س ، خا ، ح) قال النحاس : زعم هارون أن أبا عمرو قرأها .

وقال أبو حيان : لغة نجران حكاها عنهم أبو عمرو ، وأوردها الكرمانى لغة لأهل نجران . وما قاله أبو حيان عند خالويه .

---

(١) إعراب القرآن : ٢/٤٠٤ . (٢) مختصر فى شواذ القرآن : ٢٥ .
(٣) شواذ القراءة : ١٣٤ .

(د) إتباع فتحة سابقة لكسرة لاحقة فى بنية أصلية :

وجاء ذلك فعل وفعيل وفعيلة ومفعول وأفعلين الملحق بجمع المذكر السالم وفعلات جمع فعلة :

فعل ـ بفتح فسكون ـ وذلك فى قوله تعالى : « يحول بين المرء وقلبه » سورة الأنفال آية ٢٤ ـ قرأ بكسر الميم إتباعا لكسرة الهمزة . علامة الإعراب ـ ابن أبى إسحاق (ح) ، (وظ : ج فى إتباع فتحة لضمة) .

فعيل ـ بفتح فكسر ـ قرىء بفتح الفاء إتباعا لكسرة العين بعدها فى قوله تعالى : « رطبا جنيا » سورة مريم آية ٢٥ قرأ به طلحة بن سليمان (ى ـ ح) ويحيى بن وثاب (ى) .

قوله تعالى : « وآتيناه الحكم صبيا » سورة مريم آية ٢٩ قرأ بكسر الصاد قرئ (؟) الشامى (ى) .

قوله تعالى : « أو صديقكم » سورة النور آية ٦١ ـ بكسر الصاد . حكاه حميد الخزاز (خا ـ ح) .

قوله تعالى : « وكان عند الله وجيها » سورة الأحزاب آية ٦٩ قرأ بكسر الواو زيد بن على ، وأبو البرهسم (ى) .

قوله تعالى : « أيهم بذلك زعيم » سورة القلم آية ٤٠ قرأ بكسر الزاى أبو السمال وبعض الأعراب (ى) .

فعيلة ـ بفتح فكسر ـ قرىء بكسر الفاء إتباعا لكسرة العين فى :

قوله تعالى : « بهيمة الأنعام » سورة المائدة آية ١ سورة الحج آية ٢٨، ٣٤ قرأ بكسر الباء فى موضع الأنعام أبو السمال ، وفى موضعى الحج عائشة رضى الله تعالى عنها (ى) .

قوله تعالى : « وجعلنا قلوبهم قاسية » سورة المائدة آية ١٣ قرىء قسية بكسر القاف إتباعا لكسرة السين (ح) بعضهم (خا) .

قوله تعالى : « أولو بقية » سورة هود آية ١١٦ قرأ بكسر الباء إسماعيل عن أبي جعفر طريق الحرمى (أو الجرمى ؟)[1] (ى) .

مفعول – من معتل اللام بالياء . فى قوله تعالى : « وكنت نسيا منسيا » سورة مريم آية ٢٣ قرأ بكسر الميم إتباعا للسين – الأعمش (خا - ح) وأبو الجهسم (ى) وأبو جعفر فى رواية (ح) .

فعلات – بفتح فكسر – جمع فعلة : فى قوله تعالى : « فى أيام نحسات » سورة فصلت آية ١٦ – قرأ بكسر النون مجاهد (ى) .

أفعلين الملحق بجميع المذكر السالم – فى قوله تعالى : « أربعين ليلة » سورة البقرة آية ٥١ قرأ بكسر الباء اليمانى (ى) وعلى ، وعيسى بن عمر (ح) .

(هـ) إتباع فتحة سابقة لكسرة لاحقة فى صيغة طارئة :

وذلك فى قوله تعالى : « وطفقا يخصفان » سورة الأعراف آية ٢٢ – قرىء بكسر الخاء والصاد المضعفة والأصل يختصفان وقرأ بكسر الياء الحسن والأعرج ومجاهد وابن وثاب (ح) وكسر الخاء إتباع للصاد وكسر الياء إتباع للخاء .

قوله تعالى : « مردفين » سورة الأنفال آية ٩ ، قرىء بكسر الراء وتضعيف الدال مكسورة وأصله مرتدفين حكاه الخليل بن أحمد عن المكيين (ى) وكسر الراء إتباع للدال ، أو على الأصل فى التخلص من الساكنين (ح) .

(١) لم يذكر فى طرق قراءة أبى جعفر ورواياتها فى النشر لابن الجزرى ١٧٤/١–١٨٧ ولا فى الكامل للهذلى لوحة : ٤٢ ، ٤٣ ، وذكر ابن الجزرى فى رواية ابن جماز طريق الهاشمى من طريق ابن رزين فى سندها أبا عمر محمد بن محمد بن عمر الحرقى الأصبهانى (النشر ١٧٦/١) . قال فى ترجمته : (أظنه بقى إلى حدود العشرين وأربعمائة) . غاية النهاية ٧٨/٢ .

قوله تعالى: «أم من لا يهدي-يونس آية ٣٥ - على يفتعل والأصل يهتدي» قرأ بالهاء مكسورة إتباعا لكسرة الدال - حفص - يعقوب - الأعمش عن أبي بكر (ى) وقال أبو حاتم هي لغة سفلى مضر وقال النحاس: الكسر للتخلص من الساكنين (ح)، وعاصم. والحسن، وأبو رجاء وقرأ بكسر الياء إتباعا لكسرة الهاء الكسائي عن عاصم (س) وأبو بكر في رواية يحيى بن آدم (ح).

قوله تعالى: «ولا تنيا في ذكري»: طه آية ٤٢ -قرأ بكسر التاء ابن وثاب (ح) إما إتباعا لكسرة النون، وإما على كسر حرف المضارعة.

قوله تعالى: «وهم يخصمون»: يس آية ٤٩ - قرأ بكسر الخاء عاصم. والكسائي، وبكسر الياء والخاء فرقة (ح) وهي مثل: يخصمان - يهدي - .

قوله تعالى: «إلا من خطف الخطفة» الصافات آية ١٠ - قرأ بكر الخاء إتباعا للطاء المخففة ابن عباس (ح)، وروي عن الحسن (خا) وبكسر الخاء والطاء المضعفة الحسن، وقتادة، وعيسى (خا) وقال النحاس: «ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر»[1] وهذا في تخفيف الطاء وتشديدها.

(هـ) إتباع فتحة سابقة لكسرة لاحقة في علامة البناء:

وذلك في قوله تعالى: «ثم ائتوا» طه آية ٦٤ قرأ بكسر الميم شبل بن عباد عن ابن كثير، وخلف عن ابن كثير (ى) شبل وابن كثير في رواية شبل عنه (ح) وقد أبدلت الهمزة ياء تخفيفا. قال أبو علي: «وهذا غلط ولا وجه لكسر الميم من ثم. وقال صاحب اللوامح: وذلك لالتقاء الساكنين كما كانت الفتحة في العامة كذلك»[2].

وواضح أنه لم يلتق ساكنان هنا، فالوجه أن كسرة الميم اتباع لكسرة همزة الوصل على تقدير الابتداء بها.

(١) إعراب القرآن ٣/٤١٢ . (٢) البحر المحيط ٦/٢٥٦ .

قوله تعالى : « وأنتم حينئذ » : سورة الواقعة آية ٨٤ قرأ بكسر نون حين عيسى (خا . ح) والكسر إتباع للكسرة بعدها أو قبلها .

٣ — إتباع الضمة الكسرة :

أتبعتها فى بنية أصلية ، وصيغة طارئة ، وعلامة إعراب . وعلامة بناء ، وحركة حرف بنية .

(ا) إتباع ضمة لاحقة لكسرة سابقة فى بنية أصلية :

والإتباع هنا كان لحركة سابقة على فاء الكلمة أى كسرة فى كلمة أخرى . وجاء ذلك فى :

* فعل — بضم فسكون — فى قوله تعالى : « فلأمه » سورة النساء آية ١١ قرأ بكسر الهمزة إتباعا لكسرة اللام قبلها أهل الكوفة (س) الاخوان (ح) وقال النحاس : هى لغة كثير من هوازن وهذيل .

وكذلك قرىء فى قــــوله تعالى : « فى أمها » سورة القصص آية ٥٩ « فى أم الكتاب » سورة الزخرف آية ٤ .

ويمكن أن يكون الإتباع للكسرة اللاحقة ولكن إتباع السابق أولى .

وفى قوله تعالى : « فإن لله خمسة » سورة الأنفال آية ٤١ قرأ بكسر الخاء وإسكان الميم النخعى (ح) وكسر الخاء إتباع للكسرة السابقة فى الهاء فى لفظ الجلالة .

* فعل — بضمتين — فى قوله تعالى : « والسماء ذات الحبك » سورة الذاريات آية ٧ — قرأ بكسر الحاء بضمهم (خا) أبو مالك الغفارى والحسن . (ح) ووجهها أبو حيان على إتباع كسرة التاء قبلها .

(ب) إتباع ضمة لاحقة لكسرة سابقة فى علامة بناء :

فى ضمير الغيبة المفرد إذا سبق بكسرة أو ياء ، ذلك أن الأصل فى حركته الضم كما هو فى الضمير المنفصل « هو » وقد قرىء بالضم والكسر موصولين بواو وياء فى قوله تعالى : « قل بئسما يأمركم به إيمانكم » سورة البقرة آية ٩٣ .

(ج) إتباع ضمة لاحقة لكسرة سابقة فى حركة حرف بنية :

وذلك حركة الهاء من هم وهن إذا سبقت بكسرة أو ياء إذ الأصل الضم كما هو فى المنفصل، وقد قرىء بهما فى قوله تعالى : « قال يا آدم أنبئهم » سورة البقرة آية ٣٣ قرأ : بكسر الهاء : الحسن (خا) وابن كثير (ى) ابن عباس (ح) قال أبو حيان : ووجهه أنه أتبع حركة الهاء لحركة الباء، ولم يعتد بالهمزة لأنها ساكنة، فهى حاجز غير حصين »[1].

وهذا على رأى من يجعل الضمير هم وهن، أى مجموع الهاء والميم، والهاء والنون. أما على رأى من يجعل الضمير الهاء فقط، والميم علامة جمع المذكر، والنون علامة جمع المؤنث فيكون الإتباع فى علامة البناء كما فى (ب)[2].

(د) إتباع ضمة سابقة لكسرة لاحقة فى صيغة طارئة فى الأسماء :

وذلك فى فعول فى المصدر والجمع إذا كانت اللام معتلة فيجوز فيما لامه واو قلبها ياء لتطرفها وإدغام واو فعول فيها، وتكسر العين لمناسبة الياء كما هو الشأن فيما لامه ياء إذ تقلب لها الواو الساكنة السابقة ويدغمان وتبقى ضمة الفاء أو تبدل كسرة إتباعا للكسرة بعدها وقرىء بذلك فى .

قوله تعالى : « من حليهم » سورة الأعراف آية ١٤٨ ـ قرأ بكسر الحاء أهل الكوفة إلا عاصما (س) الأخوان ـ وأصحاب عبد الله، ويحيى بن وثاب، وطلحة والأعمش (ح) .

قوله تعالى : « سجدا وبكيا » سورة مريم آية ٥٨ ـ قرأ بكسر الباء ـ عبد الله بن مسعود ويحيى، والأعمش، وحمزة، والكسائى (ح) .

قوله تعالى : « جثيا » مريم آية ٦٨، ٧٢ ـ قرأ بكسر الجيم، حمزة، والكسائى، وحفص (ح) .

(١) البحر المحيط ١٤٩/١ .

(٢) ظ : همع الهوامع للسيوطى ٦٠/١ ـ ٦١ .

قوله تعالى : « وعصيهم » سورة طه آيه ٦٦ قرأ بكسر العين غير الحسن وعيسى (ح) ولم يعزها النحاس هذا فى الجمع أما المصدر فنى .

قوله تعالى : « علوا » سورة الإسراء آية ٤ ، ٤٣ سورة النمل آية ١٤ ـ قرأ بكسر العين واللام وإبدال الواو ياء ـ عليا ـ فى موضعى الإسراء ـ زيد ابن على (ى ـ ح) . وفى موضع النمل عبد الله بن مسعود ، ويحى بن وثاب ، والأعمش (ى ـ ح) وزيد بن على (ى) وطلحة ، وأبان بن تغلب (ح) .

قوله تعالى : « عتيا » سورة مريم آية ٨ ـ ٦٩ وعتوا ـ قرأ عتيا بكسر العين أبو بحرية وابن أبى ليلى ، والأعمش ، وحمزة والكسائى وحفص (ح) ولم ينسبها النحاس .

قوله تعالى : « أولى بها صليا » سورة مريم آية ٧٠ (ذكرت مع آية ٨)
قوله تعالى « فما استطاعوا مضيا » سورة يس آية ٦٧ ـ قرأ بكسر الميم أبو جعفر أحمد بن جبير الأنطاكى عن الكسائى (ى ـ ح) .

(هـ) إتباع ضمة سابقة لكسرة لاحقة فى صيغة طارئة فى الأفعال :

قوله تعالى : « إلا ما اضطررتم إليه » سورة الأنعام آية ١١٩ ـ كسر الطاء أبو جعفر (ى) ووجهه أنه أتبع الضمة كسرة الراء بعدها .

قوله تعالى : « وزلزلوا » سورة الأحزاب آية ١١ ـ قرأ بكسر الزاى الأولى إتباعا للثانية أحمد بن موسى اللؤلئى عن أبى عمرو (ح) .

(و) إتباع ضمة سابقة لكسرة لاحقة فى علامة الاعراب .

فى قوله تعالى : « الحمد لله » سورة الفاتحة آية ٢ ـ قرأ بكسر الدال إتباعا لكسرة لام الجر ـ الحسن (س ، خا ، ى ، ح) ورؤبة (خا) ومحمد بن السميفع اليمانى . وأبو الشعثاء جابر بن زيد (ى) وزيد بن على (ح) .
فى قوله تعالى ، « ياصالح ائتنا » سورة الأعراف آية ٧٧ ـ قرأ ياصالح

أيتنا بكسر الحاء والياء بدل الهمز أبو عمرو وعاصم فى رواية (ح) اتبعت ضمة الحاء كسرة همزة الوصل على تقدير الابتداء بها .

فى قوله تعالى : « من يقول ائذن لى » سورة للتوبة آية ٤٩ ـ قرأ بكسر اللام ن الياء بدل الهمزة نبيح وأبو واقد والجراح (ى) وكسر اللام إتباع لكسرة همزة الوصل على تقدير الابتداء بها وبعد هذا العرض لما جاء فى القراءات على اختلافها متواترة وشاذة من شواهد الإتباع ـ وقد قاربت خمسين موضعا ومائة موضع وزاد عدد القراء الذين وردت فى قراءتهم على المائة ـ يمكننا أن نقول : إن ماقدم هنا خاضع للاختبار والتجربة ثم تتجلى فى حدود هذه الدراسة الحقائق التالية :

ـ أن إتباع السكون للحركة أكثر من إتباع الحركة للحركة عدد شواهد وتنوع ظواهر ومواضع .

ـ أن إتباع السكون للضمة أكثر من إتباعه للفتحة . وأن إتباعه للكسرة نادر .

ـ أن الإتباع للضمة أكثر يليه الإتباع للكسرة يليه الإتباع للفتحة .

ـ أن إتباع اللاحق للسابق أكثر من إتباع السابق للاحق .

ـ فى هذا تأكيد لما قرره المتقدمون من درجات القوة والضعف فى الحركات والسكون الضمة التى تليها الكسرة تليها الفتحة يليها السكون .

ـ لا تتضح علاقة ولا توجد بين الحركة ونوع الحرف سواء نظرنا إلى الحركة التابعة أم إلى الحركة المتبوعة . وهذا ينقض ماذهب إليه بعض المعاصرين من أن اختلاف علامات الإعراب راجع إلى مناسبة خاصة بين كل حركة وما يناسبها من حروف لا يناسب غيرها .

ـ أن كثرة من وردت فى قراءتهم ظواهر الإتباع واختلاف أصولهم القبلية وبيئاتهم تنفى أن يكون الميل إلى المماثلة أو المضارعة بين الأصوات مقصورة على البيئة البدوية ، كما تنفى أن يكون لبيئة القارىء الجغرافية .

أو الاجتماعية أثر فيما قرأ به وتؤكد ما تقرر لدى القدماء من أن القراءة سنة متبعة ، وأن كلا يؤدي كما سمع وعلم .

ـ الميل إلى التقريب بين الأصوات ـ الحركات هنا ـ والمناسبة بينها ومضارعة بعضها بعضا كان شائعا لدى العرب في عصور الاحتجاج لا يختص بقبيل دون قبيل .

ـ أطبقت آثار هذا التقريب فأصبحت الصورة التي وقع فيها الاتباع هي الأغلب في الفصحى أو هي الأصل في بعض الأحوال ، وكثرت حتى صارت جائزة قياسا في أحوال أخرى ، وإن كان الإتباع ليس هو السمة العامة .

في بعض الأحيان طغت حركة الإتباع على حركة الإعراب أو البناء وهذا يؤكد قوة مراعاتهم لتقريب الحركات بعضها من بعض .

ـ أن القرآن الكريم حافظ للفصحى وفيه أوثق ما يعتد به في دراستها ، وأنها وعلوءها عا يسره الله سبحانه وتعالى لحفظ كتابه .

المـــراجع

١ - أسرار العربية - أحمد تيمور ط - دار الكتاب العربي ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م .

٢ - أصوات اللغة العربية - د : عبد الغفار حامد هلال - ط - ٢ - ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م . مطبعة الجبلاوى .

٣ - الأصوات اللغوية د : إبراهيم أنيس ط ٤ .

٤ - إعراب القرآن - أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (٣٣٨ هـ) ت : زهير غازى زاهد ط ٢ - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٥ - الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب - ابن السيد البطليوسى (٤٤٤ - ٥٢١ هـ) مصورة - بيروت ١٩٧٣ .

٦ - الأمالى : لأبى على القالى (إسماعيل بن القاسم البغدادى ٢٨٨ - ٣٥٦ هـ) ط : الهيئة العامة للكتاب ٧٥/١٩٧٦ م .

٧ - البحر المحيط : لأبى حيان - أبو عبد الله محمد بن يوسف بن على - ٦٥٤ - ٧٥٤ هـ - مصورة لطبعة السعادة .

٧ - تاج العروس للزبيدى - السيد محمد مرتضى - ١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ .

٩ - التطور النحوى للغة العربية - برجستراسر ، نشر د : رمضان عبد التواب مطبعة المجد ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م .

١٠ - التعريفات : للجرجانى - السيد الشريف على بن محمد بن على (٧٤٠ - ٨١٦ هـ) ط الحلبى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨ م .

١١ - الخصائص : ابن جنى أبو الفتح عثمان - ٣٩٢هـ.ت : محمد على النجار ط - دار الكتب .

١٢ - دراسات فى علم أصوات العربية د : داود عبده . طهران ١٩٦٥م .

١٣ ـ دراسة الصوت اللغوى د . أحمد مختار عمر ط ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م مطابع سجل العرب .

١٤ ـ دراسة فى الصيغ العربية أصولها وتطورها وعلاقتها بالمعنى د/ محمد أحمد خاطر ـ رسالة بكلية اللغة العربية ١٩٧٦ م .

١٦ ـ دروس فى علم أصوات العربية ـ جان كانتينو ترجمة صالح القرمادى تونس ١٩٦٦ م .

١٧ ـ سر صناعة الإعراب ـ ابن جنى ت : مصطفى السقا وآخرين ـ ط الحلبى ١٣٧٤هـ/١٩٥٤ م .

١٨ ـ شواذ القراءة ـ للكرمانى ـ أبو محمد عبد الله بن أبى نصر (القرن السادس) مخطوط بمكتبة الأزهر ـ ٢٤٤ قراءات .

١٩ ـ الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ـ ابن فارس أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ـ ٣٩٥ هـ ت : السيد أحمد صقر ط ـ الحلبى .

٢٠ ـ علم الأصوات : تعريب ودراسة ـ برتيل مالمبرج ت : د/عبد الصبور شاهين ، ١٩٨٧ م .

٢١ ـ علم اللغة ـ مقدمة للقارىء العربى ـ د/ محمود السعران ط ـ دار المعارف ١٩٦٢ م .

٢٢ ـ علم اللغة العام ـ القسم الأول : الأصوات د/ كمال بشر ـ ط ، دار المعارف ١٩٧١ م .

٢٣ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء ـ ابن الجزرى ـ محمد بن محمد ـ ٨٣٣هـ عنى بنشره : برجستراسر . مصورة لطبعة الخانجى .

٢٤ ـ فقه اللغة وسر العربية ـ الثعالبى : أبو منصور محمد بن إسماعيل (٣٥٠-٤٣٠ هـ) ت : مصطفى السقا وآخرين ط الحلبى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢ م :

٢٥ ـ فهارس كتاب سيبويه ودراسة له د/ محمد عبد الخالق عضيمة ط : السعادة ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م .

٢٦ ـ فى الأصوات اللغوية : دراسة فى أصوات المد د/ غالب فاضل المطلبى بغداد ١٩٨٤ م .
٢٧ ـ القاموس المحيط : الفيروز ابادى ـ أبو طاهر محمـــد بن يعقوب : ٧٢٩-٨١٦ هـ .
٢٨ ـ الـكامل فى القراءات : أبو القاسم يوسف بن على بن جبارة الهذلى ٤٦٥ هـ مخطوط ٣٦٩ : قراءات رواق المغاربة بمكتبة الأزهر .
٢٩ ـ كتاب سيبويه ت : عبد السلام محمد هارون ـ الهيئة العامة للـكتاب ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥ م .
٣٠ ـ لسان العرب ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) .
٣١ ـ اللهجات العربية فى التراث ـ د / أحمـد علم الدين الجندى ـ رسالة مصورة .
٣٢ ـ مختصر فى شواذ القرآن ـ ابن خالويه : أبو عبدالله الحسين بن أحمد ٣٧٠ هـ عنى بنشره برجشتراسر ط الرحمانية ١٩٣٤ م .
٣٣ ـ المخصص : ابن سيده ـ أبو الحسن على بن إسماعيل ـ ٤٥٨ هـ .
٣٤ ـ المزهر فى علوم اللغـــة وأنواعها ـ السيوطى ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ـ ٩١١ هـ .
٣٥ ـ المعجم الأدبى : جبور عبد النور ط : ١ بيروت ١٩٧٩ م .
٣٦ ـ مقاييس اللغـــة : ابن فارس ت : عبد السلام محمد هارون ط الحلبى .
٣٧ ـ المنهج الصوتى للبنية العربية د/ عبد الصبور شاهين ط : بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨ م .
٣٨ ـ النشر فى القراءات العشر ـ ابن الجزرى : محمد بن محمد ـ ٨٣٣ هـ أشرف عليه على محمد الضباع ـ مصورة .
٣٩ ـ همع الهوامع ـ السيوطى ـ مصورة .

الإدغام والفك بين القراء واللغويين

بقلم

أ.د/ عبد الغفار حامد هلال

الإدغام في القراءات وتفسيره من الوجهة اللغوية :

الإدغام[1] ظاهرة لغوية واقعة في كلام العرب ، قال أبو عمرو بن العلاء الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها[2] .

كما أن الأصل أن يأتي الحرفان دون إدغام وهو ما يسمى بالفك وهو الأصل[3] أو اللغة القديمة[4] .

وقد وضح كل من ذلك في القراءات وتناوله تفصيلا علماء اللغة والقراءات .

تعريف الإدغام :

في اللغة : الإدخال ، يقال أدغمت اللجام في فم الدابة أي أدخلته فيه ، قال ساعد بن حؤية :

---

(١) على وزن (إفعال) مصدر (أدغم) - بسكون الدال قبلها همزة القطع - وهذا مذهب الكوفيين وعليه علماء التجويد وينطق بتشديد الدال (افتعال) من ادغم وهذا مذهب البصريين . شرح المفصل ١٠/١٢١ .

(٢) النشر في القراءات العشر ١/٢٧٥ .

(٣) الحجة لابن خالويه ص ١٧١ .

(٤) الكتاب ٤/٤٧٣ .

بمقربات بأيديهم أعنتها خوص إذا فزعوا أدغمن باللجم

ويستعمل — في اللغة أيضا — بمعنى التغطية ، يقال : دغم الغيث الأرض يدغمها : غشيها وغطاها ، وأدغمت الشيء ، غطيته[1] .

وهو في اصطلاح القراء وعلماء اللغة له تعريفات تختلف في اللفظ وتتحد في المعنى :

يعرفه بعض أهل الأداء بأنه : إدخال الحرف في الحرف ودفنه فيه حتى لا يقع بينهما فصل بوقف ولا بحركة ولكنك تعمل العضو الناطق بهما إعمالا واحدا فيكون الحاصل منهما في اللفظ حرفا واحدا مشددا[2] .

وذكر بعض علماء القراءات أنه اللفظ بحرفين حرفا كالثاني مشددا[3] ويقول بعضهم: الإدغام : أن تصل حرفا ساكنا بحرف متحرك فتصيرهما حرفا واحدا مشددا يرتفع اللسان عنه ارتفاعة واحدة وهو بوزن حرفين[4] .

وقال مكي بن أبي طالب: الإدغام معناه: إدخال شيء في شيء، فمعنى أدغمت الحرف في الحرف : أدخلته فيه فجعلت لفظه كلفظة الثاني فصارا مثلين والأول ساكن[5] .

وهذا الذي قال به علماء الأداء نقل عن اللغويين .

---

(١) تهذيب اللغة ٧٨/٨ وشرح الشافية للرضى ص ٣٣٦ والكشف لمكي بن أبي طالب ١٤٣/١ .

(٢) الدر النثير الورقة ٩ .

(٣) النشر ٢٧٤/١ وإبراز المعاني ص ٥٩ .

(٤) سراج القارىء المبتدىء ص ٤٤ .

(٥) الكشف ١٤٣/١ والتبصرة ص ٣٥ .

فينسب إلى الخليل أنه عرف الإدغام بأنه : إدخال حرف فى حرف بحيث يرتفع بهما اللسان ارتفاعة واحدة(١) .

وقال ابن السراج :الإدغام هو:وصلك حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك من موضعه من غير حركة تفصل بينهما ولا وقف فيصيران بتداخلهما كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة ويشتد الحرف، ألا ترى أن كل حرف شديد يقوم فى العروض والوزن مقام حرفين الأول ساكن(٢) .

وعرفه الرضى بقوله: وصل حرف ساكن بحرف مثله متحرك ، بلا سكتة على الأول ، بحيث يعتمد بهما على المخرج اعتمادة واحدة قوية(٣) .

وقال ابن جنى : إنما يجب أن يدغم الشىء فى مثله حتى ينبو اللسان عنهما نبوة واحدة فإذا اختلف الحرفان لم يجز الإدغام(٤) وفى الادغام يسوى بين لفظى الحرفين(٥) وفى الإدغام يتماثل الحرفان(٦) .

وبهذا ندرك صلة التعريفات الاصطلاحية بعضها ببعض وصلتها بالمعنى اللغوى العام وهو الادخال والتغطية .

الهدف من الإدغام : يعد الإدغام مظهرا من مظاهر تخفيف النطق فالمك يقتضى تكرار النطق بالحرف فينطق اللسان بالحرف الأول ثم يعود إلى النطق بالحرف المماثل أو المجانس له مرة أخرى وهذا أمر مستثقل (لصعوبة اللفظ

---

(١) تهذيب اللغة نسبه إلى الليث ٧٨/٨ وانظر القول المفيد فى علم التجويد ص ٤٠٩ .

(٢) الأصول فى النحو ٤٠٥/٣ .

(٣) انظر : شرح الشافية للرضى ص ٢٣٩ ، وانظر كتب النحو الأخرى مثل الأشمونى بحاشية الصبان ٣٤٥/٤ ، والخضرى على ابن عقيل ٢١٢/٢ .

(٤) المنصف ٩١/٢ .

(٥) المصدر السابق ٢٥٣/٢ . (٦) سر الصناعة ٦٣/١ .

بالمكرر على اللسان لأنه بمنزلة من يمشى وهو مقيد برفع رجله مرتين أو ثلاثا ويردها فى كل مرة إلى الموضع الذى رفعها منه)(١) .

وقد أشار سيبويه إلى أن ما (يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم فى موضع واحد ثم يعودوا إليه فلما صعب عليهم أن يداركوا فى موضع واحد ولا تكون مهلة كرهوه وأدغموا لتكون رفعة واحدة)(٢) .

فهم يستثقلون التضعيف غاية الاستثقال إذ على اللسان كلفة شديدة فى الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه ولهذا لم يصوغوا من الأسماء ولا الأفعال رباعيا أو خماسيا فيه حرفان أصليان متماثلان منفصلان لثقل البناءين وثقل التقاء المثلين ولاسيما مع أصالتهما فلا ترى رباعيا من الأسماء والأفعال ولا خماسيا من الأسماء وفيه حرفان كذلك إلا وأحدهما زائد إما للإلحاق أو لغيره(٣) .

ويفسر هذا التخفيف الحادث بالإدغام بأن الحرفين حال الفك يطول زمن النطق بهما أكثر من زمن النطق بالحرف المدغم فى صاحبه ، فالثانى أيسر وأقل زمنا وإن كان النطق بالمدغم أطول من النطق بالحرف الواحد غير المدغم(٤) .

ويقول المحدثون : إن لكل صوت حركتين فى أعضاء النطق إحداهما أمامية والثانية خلفية فالأولى خاصة بوضع أعضاء النطق الوضع الملائم لحدوث الصوت والثانية تعطى وضع الراحة لهذه الأعضاء ، والإدغام يوفر الحركة الثانية من الصوت الأول إذا أدغم فى الثانى المماثل أو المقارب له

---

(١) النشر ١/٢١٧ بتصرف قليل وشرح المفصل ١٠/١٣١ والسبعة لابن مجاهد ص ١٢٥

(٢) الكتاب ٤/٤١٧ بشىء من التصرف .

(٣) شرح الرضى الشافية ص ٣٤١ .

(٤) شرح الشافية للجاربردى ١/٢٣٧ .

فتصدر حال الإدغام ثلاث حركات ـ للصوتين ـ بدلا من أربع إذ يأتى وضع الراحة ـ الحركة الخلفية ـ مرة واحدة بدلا من مرتين(١) .

وبهذه المناسبة نعرض لما قيل : هل المدغم يصير حرفا واحداً أو يظل حرفين ؟

كل النصوص السابقة التى عرضناها تذكر أن الحرفين ـ حال الإدغام ـ يصيران حرفا واحدا أو كالحرف الواحد وأن اللسان يرتفع بهما ارتفاعة واحدة .

ويصرح بعض القدماء بأن (الحرف المشدد أبدا حرفان من جنس واحد الأول منهما ساكن)(٢) (وأن المدغم أبداً حرفان الأول منها ساكن والثانى متحرك)(٢) .

ومع ذلك كلهم يعتقدون أن النطق يخف بالإدغام حتى كأن الحرفين حرف واحد وسلك بذلك الرضى مسلكا يقرب فيه الحرفين ويبالغ فى صلة أحدهما بالآخر إلى حد أن يجعلهما ـ فى نظره ـ حرفا واحدا لقوة الصلة الصوتية حال النطق بهما مدغمين فى مكان خروجهما يقول : (والذى أرى أنه ليس الإدغام الإتيان بحرفين ، بل هو الإتيان بحرف واحد مع اعتماد على مخرجه قوى) ، ثم يقول : (يجوز تسكين المدغم اتفاقا إما لأنه يجوز فى الوقف الجمع بين الساكنين ـ عند من قال هما حرفان ـ وإما لأنه حرف واحد ـ على ما اخترنا ـ وإن كان كالحرفين الساكن أولها من حيث الاعتماد التام)(٣) .

وإذا كان غير الرضى حكموا بأن الحرفين المدغمين يصيران كالحرف الواحد حال النطق ، فإن الرضى حكم بأن الحرف المدغم حرف واحد

---

(١) Ceneral phonetics by Heffner . P : 176

(٢) شرح المفصل ٩٩/١٠ .

(٣) شرح الشافية للرضى ص ٢٣٩ .

كالحرفين الساكن أولهما ، وهذا يعنى أن للرضى موقفاً يتميز بالتقريب الشديد بين الحرفين ومزجهما مزجا تاما .

ونقل عن الخليل قوله « إذا أردت مد الصوت ضعفت الحرف فقلت صل »[1] وفى اقشعر واسبكر يقول : هما راءان أدغمت واحدة فى الأخرى والتشديد علامة الإدغام[2] .

وربما يفهم من كلام الخليل والرضى زيادة زمن النطق بالحرف الواحد لإدغام صاحبه فيه وهذا أمر لا يختلف عن نظرة القدماء الآخرين إلى حادثة الإدغام وإطالتها نطق الحرف المدغم ولعل ما أشار إليه الخليل والرضى يؤكد أهمية خاصة الإدغام ومزج الحرفين بحيث لا يفرق بين المخفف والمشدد إلا الزيادة الزمنية فى مدة النطق وأن التشديد مد للحروف الصامتة نظير المد للحروف الصائتة[3] .

ورأى بعض المحدثين ذلك فقال : (من الخطأ أن يقال : إنه يوجد ساكنان فى أتا (atta) وساكن واحد فى أتا (ata) فالعناصر المحصورة بين الحركتين فى كلتا المجموعتين واحدة : عنصر انحباسى يتبعه عنصر انفجارى ولكن بينما نجد العنصر الانحباسى فى (ata) يتبعه العنصر الانفجارى مباشرة نجده فى (atta) ينفصل عنه بإمساك يطيل مدى الإغلاق)[4] .

وهذا التصور فى رأيهم - يرجع إلى طبيعة العملية النطقية ووحدتها فهو صامت طويل يشبه الحركة الطويلة التى هى ضعف الحركة القصيرة[5] .

(فالحروف المشددة وبخاصة المتمادة - الرخوة - بينها - لها خصائص

---

(١) العين ١/١٣ . (٢) المصدر السابق ١/٥٤ ، ٥٥ .

(٣) التطور النحوى لبرجستراسر ص ٥٣ وانظر أسس علم اللغة لماريو باى ص ١٤٦ .

(٤) اللغة لفندريس ص ٤٩ .

(٥) المنهج الصوتى للبنية العربية للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٢٠٧ .

أهمها امتداد نطقها أكثر من امتداد نطق الحروف غير المشددة)[١] .

ونحن لا ننكر ـ كما ذكرنا ـ أن الحرف المدغم أطول زمنا من الحرف غير المدغم وذلك ما يعترف به القدماء ـ أيضا ـ لكننا نرجح الرأى القائل بأن المشدد حرفان لا حرف واحد على الحقيقة امتد به الصوت والنطق، لأن التقسيم المقطعى يرجح أنهما حرفان لا حرف واحد فى مثل شد ومد وقد أشار بعض علماء اللغة والقراءات إلى ذلك حين ذكروا أن المشدد يقوم مقام حرفين فى الوزن واللفظ[٢] ، وأيد ذلك بعض المحدثين بأن المضعف حرفان يستغنى به عن كتابة الحرف مكررا[٣] و يقسم إلى صامتين من الناحية الصرفية[٤] .

ويقول كانتينو : إن الحروف المضعفة يمتد النطق بها فيضاهى مداها مدى حرفين بسيطين تقريبا[٥] .

شروط الإدغام

هناك شروط يلزم توافرها لصحة الإدغام هى :

١ - وجود صوتين متجاورين خطا ولفظا ، أو خطا لا لفظا وهما متماثلان أو متجانسان أو متقاربان ، مثل (إنه هو) فتدغم النون فى النون والهاء فى الهاء للتجاور ، وفى نحو (أنا نذير) لا تدغم النون من (أنا) فى النون بعدها لفصل الألف بين النونين .

---

(١) التطور النحوى ص ٥٣ .

(٢) التمهيد فى علم التجويد الورقة ٣٧ والرعاية لمكى ص ٢١٩ وسراج القارىء المبتدىء ص ٤٤ والأصول فى النحو ٣/٤٠٥ .

(٣) نحو وعى لغوى للدكتور مازن المبارك ص ٦٤ .

(٤) المنهج الصوتى للبنية العربية ص ٢٠٧ .

(٥) دروس فى علم أصوات العربية ص ٢٥ .

٢ — ألا يكون التضعيف للالحاق - فى الاسم - كقردد أو فى الفعل كجلبب لأن الغرض بالإلحاق الوزن فلا يكسر ذلك الوزن بالإدغام .

٣ — ألا يكون الحرف الأول تاء ضمير ، سواء كان متكلما أو مخاطبا نحو : (كنت ترابا - أفأنت تسمع - خلقت طينا) إذ لا يعرف - عند الإدغام - ضمير المتكلم من ضمير المخاطب ، والضمير على حرف واحد يجحف به الإدغام ، وما قبل الضمير ساكن ، والشرط تحركه حتى لا يجتمع ساكنان حال الإدغام[1] .

٤ — ألا يكون الحرف الأول مشددا وإلا امتنع الإدغام مثل ردد و (رب بما - مس سقر - فتم ميقات ربه - وهم بها) لأن المشدد بحرفين ، ولا يجتمع إدغامان فى مكان واحد ، وهذا لا يحدث فى اللغة ، فضلا عن عدم وقوعه فى القرآن الكريم .

٥ — ألا يكون الحرف الأول منونا مثـــل (غفور رحيم - سميع عليم - سارب بالنهار) لأن التنوين حاجز قوى بين الحرفين فيمتنع الإدغام .

٦ — ألا يكون الحرف الأول مدا مثل (قالوا وهم) و(فى يوم) فلا بد من الإظهار ، لئلا يذهب المد بالإدغام .

٧ — ألا يكون أول المتجانسين أو المتقاربين حرف حلق مثل (فسبحه - فاصفح عنهم) لأن حروف الحلق تأبى الإدغام أو يقل فيها - فى أحوال خاصة - والبيان فى حروف الحلق أحسن من الإدغام .

٨ — الا يكون أول المتجاورين هاء سكت مثل (ماليه هلك) ، فإنها لا ندغم لأن الوقف على الهاء منوى .

٩ — أن يتحرك ثانى المتجاورين (المدغم فيه) فإن سكن امتنع الإدغام

---

(١) التحرير السديد الورقة ١٨ .

مثل : « قال الملأ — فإن زللتم — أأقررتم » فالإدغام فى هذا ونحوه لايجرى فى الأساليب العربية — كما نبه على ذلك علماء اللغة والتجويد — فضلا عن عدم وقوعه فى القرآن .

١٠ — ألا يؤدى الإدغام إلى اللبس ، كإدغام النون الساكنة فى الواو أو الياء فى كلمة واحدة مثل : صنوان وقنوان ، ودنيا وبنيان فإذا أدغم الصوتان التبست هذه الكلمات بضعف العين ، ولذا منع اللغويون ذلك فى اللغة مثل وتد ووطد وعند وشاة زنماء فإذا أدغمت التاء والطاء والنون فى الدال ، وأدغمت النون فى الميم لايعرف تركيب الكلمة ، هل عين وتد ووطد وعند — حال الإدغام — دال أو طاء أو غيرهما؟ وعينها ساكنة فى الوزن أو متحركة — كنت للإدغام ؟ وهل عين « زنماء » مضعفة أو لا ؟ ولذا امتنع الإدغام فيما يؤدى إلى اللبس فى هذا ونظائره ، وكذلك مثل شرر وقصص وعدد فلو أدغم فعل — بفتح الفاء والعين — مع خفته — لا لتبس بفعل — ساكن العين فيكثر الالتباس[1] .

وعلى هذا يلتقى المثلان والمتجانسان والمتقاربان :

فالمثلان هما : الصوتان المتحدان فى المخرج والصفة كالتاءين ، والراءين ونحو ذلك .

والمتجانسان هما : الصوتان المتفقان فى المخرج المختلفان فى الصفة كالتاء والطاء والسين والصاد .

والمتقاربان هما : الصوتان اللذان بينهما تقارب فى المخرج أو الصفة أو فيهما كالدال والسين أو الشين والذال والزاى واللام مع الراء[2] .

---

(١) شرح الشافية للرضى ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

(٢) اتحاف فضلاء البشر ص ٢١ وشرح الشاطبية ص ٣٥ وشرح الشافية للرضى ص ٣٤٧ .

وإذا سكن الأول منهما سميا بالمثلين أو المتجانسين أو المتقاربين الصغير، وإن تحرك الأول والثاني منهما سميا بالمثلين أو المتجانسين أو المتقاربين الكبير، وإن تحرك الأول وسكن الثاني سميت الأنواع الثلاثة بالمطلق.

والموضع الثالث يمتنع معه الإدغام، لكون الحركة فاصلة بين الحرفين كما أنها لو زالت يلتقي ساكنان وذلك لا يجوز(١).

والأول يجب فيه الإدغام في المتماثلين وبعض المتجانسين والمتقاربين حسب الصور التي اتفق فيها القراء على الإدغام أو اختلفوا فيها والثاني يخضع لتعدد الأوجه في الإدغام الكبير.

ولا يمكن إدغام المتقاربين إلا بعد جعلهما متماثلين إذ لا يمكن إخراج المتقاربين من مخرج واحد لأن لكل صوت مخرجه الخاص فيلزم قلب الحرف المراد إدغامه إلى جنس ما يدغم فيه ليتوصل بذلك إلى الإدغام(٢).

أقسام الإدغام

جعل القراء الإدغام قسمين: صغيرا وكبيرا.

فالصغير هو: ما سكن فيه الحرف الأول.

والكبير هو: ما تحرك فيه الحرف الأول(٣).

وهذا يعني أن ما يسمى صغيرا يقوم على إدغام حرفين متصلين اتصالا مباشرا، وما يسمى كبيرا يقوم على إدغام حرفين تفصل بينهما حركة،

---

(١) شرح الشافية للرضي ٣/٢٤٤ — ٢٤٥ وشرح المفصل ١٠/١٢١، ١٢٢.

(٢) شرح الشافية للرضي ٣/٢٣٥ وانظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا لشادة ص ٢٣.

(٣) النشر ١/٧٤، والقول المفيد ص ٩٥ وإتحاف فضلاء البشر ص ٢٢ وشرح الشاطبية ص ٣٥.

ويقع الإدغام - فى هذه الحال - بسقوط الحركة أولا - أى بذهاب مقطع من مقاطع الكلمة ثم بإدغام أحد الحرفين فى الآخر ، وفى كلتا الحالتين لا يجوز الإدغام إلا إذا كان الحرف الثانى متبوعا بحركة(١) .

ويسمى ابن جنى نوعى الإدغام الصغير والكبير بالادغام الأكبر يقول : الإدغام فى الكلام على ضربين .

أحدهما : أن يلتقى المثلان على الأحكام التى يكون عنها الادغام فيدغم الأول فى الآخر ، والأول من الحرفين فى ذلك على ضربين : ساكن ومتحرك ، المدغم الساكن الأصل كطاء قطع وكاف كسر الأولين والمتحرك نحو دال شد ولام معتل .

والآخر : أن يلتقى المتقاربان على الأحكام التى يسوغ معها الإدغام فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتدغمه فيه وذلك مثل ود فى اللغة التميمية وامحى وامار واصبر واثاقل عنه(٢).

ويقول بعد ذلك : فهذا حديث الادغام الأكبر(٣) .

وأطلق ابن جنى مصطلح « الادغام الأصغر » على شىء آخر هو « تقريب صوت من صوت »(٤) أو « تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك »(٥).

---

(١) دروس فى علم أصوات العربية لـكانتينو ص ٣٩ وسمى هذا النوع من الإدغام كبيرا لتأثيره فى إسكان المتحرك قبل إدغامه ولشموله نوعى المثلين والمتقاربين وقيل : سمى كبيرا لـكثرة وقوعه ، إذ الحركة أكثر من السكون ، وقيل : لما فيه من الصعوبة . انظر النشر ١/٢٧٤، ٢٧٥ .

(٢) الخصائص ٢/١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ٢/١٤١ .

(٤) المصدر السابق ٢/٢٢٧ .

(٥) المحتسب ٢/٢٦ .

أحكام الإدغام الصغير

له حالتان : وجوب الإدغام وجوازه .

الحكم الأول : الوجوب :

يتحقق إذا سكن الأول وتحرك الثاني من المتماثلين وذلك يكون في كلمة واحدة ، كما إذا كانت العين واللام من جنس واحد وتحركت اللام في الفعل الماضي أو المضارع أو الأمر المتصل بألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة أو نون التوكيد .

مثال ذلك : مدا ومدوا ويمدان ويمدون وتمدين ، ومنه قوله تعالى : « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به »[٦] .

---

(١) وقوع المثلين في آخر الكلمة هو الكثير الشائع ولم يبنوا ثلاثيا فاؤه وعينه متماثلان إلا نادرا مثل ددن وببر بل ضعفوا حيث يمكنهم الإدغام وذلك بتماثل العين واللام إذ الفاء لو أدغم في العين وجب إسكانه ولا يبتدأ بالساكن .

وجاء ذلك في مزيد الأفعال والأسماء المزيدة الموازنة لها لكثرة التصرف في الفعل قياسا فمن مزيد الفعل الثلاثي ما جاء على وزن تفعل وتفاعل مثل تترس وتتارك وتنزل وتثاقل ومضارعه ومن مزيد الرباعي تفعلل مثل تتدحرج ، أما مزيد الثلاثي من الأفعال فالأولى في الماضي الإظهار ويجوز الإدغام مع اجتلاب همزة الوصل في الابتداء وكذلك إذا كانت فاؤه مقارنة للتاء في المخرج نحو اطيرو اثاقل وحال الإدغام في الماضي يدغم المضارع والأسماء والأفعال المتصرفة منه ، وفي المضارع يجوز الإظهار والحذف والإدغام وحال الإدغام لا تجلب همزة الوصل كما في الماضي لثقل المضارع ولايدغم إلا في الدرج ليكتفي بحركة ماقبله مثل قال تنزل ، أما في مزيد الرباعي فلا يخفف بالإدغام إذ لو أدغمت لاحتجت إلى همزة الوصل فيؤدي إلى الثقل عند القصد إلى التخفيف والأولى إبقاؤهما ويجوز حذف أحدهما (شرح الشافية للرضي ص ٣٤١ — ٣٤٤) .

ويكون فى كلمتين متصلتين ـ ولم يكن أولهما مدا ـ نحو : اسمع علما ، وربما أتى من الأسماء المشبهة للفعل فى كلمة واحدة فى الثلاثى صب زعم الخليل أنها فعل ـ بكسر العين ـ لأنك تقول : صببت صبابة ، وكذلك الاسم الثلاثى المزيد فيه يدغم إذا وازن الفعل مثل مستعد ومرد فكل منها على مثال الفعل .

وأصل الإدغام فى الأفعال للثقل الحادث فيها ، وفى الأسماء الموازنة للأفعال لمشابهتها الفعل الثقيل وزنا .

فهذا واجب الإدغام عند جميع العرب الحجازيين والتميميين[1] وغيرهم، فإن سكنت اللام امتنع الإدغام كما فى : ضللت[2] ـ قال الملأ[3] ـ ظللت .
وكأن تقع بعد الباء الساكنة باء متحركة مثل ، (فاضرب به)[4] ، أو بعد التاء الساكنة تاء متحركة مثل : (فما ربحت تجارتهم)[5] ـ (إذا طلعت تزاور)[6] أو تقع بعد الدال الساكنة دال متحركة مثل : (وقـــد دخلوا بالكفر)[7] أو بعد الذال الساكنة ذال متحركة مثل : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا)[8] .

أو بعد الكاف الساكنة كاف متحركة مثل (أينما تكونوا يدرككم الموت)[9] أو بعد اللام الساكنة لام متحركة مثل (وقل لهما)[10] أو الميم بعدها ميم كذلك مثل (وهم من)[11] أو النون بعدها نون على هذا النحو مثل

---

(١) الكتاب ٤/٤١٧ ـ ٤١٩ (باب التضعيف) .
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٦ وسورة سبأ الآية ٥٠ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٦٠ وغيرها .
(٤) سورة ص الآية ٤٤ .
(٥) سورة البقرة الآية ١٦ .
(٦) سورة الكهف الآية ١٧ .
(٧) سورة المائدة الآية ٦١ .
(٨) سورة الأنبياء الآية ٨٧ .
(٩) سورة النساء الآية ٧٨ .
(١٠) سورة الإسراء الآية ٢٣ .
(١١) سورة الروم الآية ٣ .

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا »[1] أو هاء بعدها هاء كذلك « أينما يوجهه لا يأت بخير »[2].

كما يجب الإدغام فى بعض صور المتجانسين والمتقاربين عند القراء. ومن الواجب فى ذلك إدغام التاء فى الدال فى مثل « أثقلت دعوا »[3] وإدغام الدال فى التاء كما فى قوله تعالى « لقد تاب الله »[4] و « قد تبين »[5] - فى البقرة والقصص « ولقد تركنا »[6] فى العنكبوت والقمر.

وإدغام التاء فى الطاء مثل « ودت طائفة »[7] « وقالت طائفة »[8] - « فآمنت طائفة »[9].

وإدغام الذال فى الظاء فى قوله تعالى « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم »[10] وقوله سبحانه « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم »[11]. وإدغام اللام فى الراء مثل « وقل رب »[12].

فهذا كله اتفق القراء على إدغامه.

الحكم الثانى الجواز :

ذلك فى غير ما هو واجب، فإنه يسمى الإدغام الجائز، لوروده بصور

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٨.
(٢) سورة النحل الآية ٧٦.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٩.
(٤) سورة التوبة الآية ١١٧.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٦ وسورة القصص الآية ٣٨.
(٦) سورة العنكبوت آية ٣٥ وسورة القمر الآية ١٥.
(٧) سورة آل عمران الآية ٦٩.
(٨) سورة آل عمران الآية ٧٢.
(٩) سورة الصف الآية ١٤.
(١٠) سورة الزخرف الآية ٣٩.
(١١) سورة النساء الآية ٦٤.
(١٢) سورة طه الآية ١١٤ والنشر ٢/١٩.

مختلفة عند العرب تارة بالإدغام وتارة بغيره (وهو الذى جرت عادة القراء بذكره فى كتب الخلاف)[1] .

ويجرى فى نوعين من الإدغام الصغير .

الأول : بعض الحروف التى تجانست مخارجها ويتمثل فى إدغام حرف من كلمة فى حروف متعددة من كلمات متفرقة ، وينحصر فى : إذ وقد وتاء التأنيث وهل وبل .

وفيها يجرى الخلاف فى الإدغام والأظهار بين القراء .

ذال إذ :[2] عند ستة أحرف مجموعة فى (سجز تصد)[3] مما يقع بعد إذ متحركا .

مع التاء : مثل قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا)[4] و (وإذ تأذن)[5] .

مع الجيم : مثل : (إذ جعل)[6] و (إذ جاءوكم)[7] .

مع الدال : مثل (ولولا إذ دخلت جنتك)[8] و (إذ دخلوا على داود)[9] .

مع السين : مثل : (إذ سمعتموه)[10] .

---

(١) النشر ٢/٢ .

(٢) يقصد بهذا ما يكون فيه ما بعد إذ متحركا مما لم يتفق القراء على إدغام ذال إذ فيه ، وهناك قسم اتفقوا على إدغامها فيه ـ ذكرناه فى الواجب ـ وقسم اتفقوا على إظهارها فيه وذلك إذا وقع بعدها متحرك من ستة عشر حرفا يجمعها قولك (ربك أحق غنى له عدو) ، أما ماسكن فيه الحرف بعد إذ فتكسر له ذالها لالتقاء الساكنين مثل : وإذ استسق . وإذ ابتلى الخ .

(٣) الدر النثير الورقة ص ٦٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

(٦) سورة المائدة الآية ٢٠ .

(٧) سورة الأحزاب الآية ١١ .

(٨) سورة الكهف الآية ٣٩ .

(٩) سورة ص الآية ٢٢ .

(١٠) سورة النور الآية ١٢ .

مع الصاد : مثل (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن)[1] .

مع الزاي : مثل (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم)[2] .

أدغم ذلك أبو عمرو وهشام ، وأظهرها عندها نافع وابن كثير وعاصم وأبو جعفر ويعقوب ، وأدغمها في التاء والدال فحسب حمزة وخلف ، وأدغمها في غير الجيم الكسائي وخلاد .

وهكذا يختلف القراء .

دال قد :[3] اختلفوا في إدغامها وإظهارها عن ثمانية أحرف متحركة هي الذال والظاء والضاد والجيم والشين وحروف الصفير[4] .

مع الذال (ولقد ذرأنا)[5] .

مع الظاء (فقد ظلم[6] ـ لقد ظلمك)[7] .

مع الضاد (قد ضلوا ضلالا بعيدا)[8] .

مع الجيم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)[9] .

مع الشين (قد شغفها)[10] .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٩ .　　(٢) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٣) يقصد به ما كان ما بعد دال قد متحركا مما اختلف فيه القراء وهناك قسم اتفقوا على إدغام دال قد فيه وقسم اتفقوا على إظهاره عنده ، وإذا سكن ما بعد الدال كسرت الدال تخلصا من التقاء الساكنين مثل فقد اهتدوا إلخ ، واتفق القراء على إظهار دال قد قبل خمسة عشر حرفا يجمعها قولك (العفو خير بحقك غ٥) الدر النثير الورقة ٦٤ .

(٤) يجمعها أوائل كلمات هذا البيت :

شهدت ضحى ظباء سابحات　　ذكرت زمان جرد صافنات

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .　　(٦) سورة الطلاق الآية ١ .

(٧) سورة ص الآية ٢٤ .　　(٨) سورة النساء الآية ١٦٧ .

(٩) سورة التوبة الآية ١٢٨ .　　(١٠) سورة يوسف الآية ٣٠ .

مع السين (قد سمع)(١) (ماقد سلف)(٢) .
مع الزاى (ولقد زينا السماء الدنيا)(٣) .
مع الصاد (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل)(٤) .

تاء التأنيث(٥) :

اختلفوا فى إدغامها وإظهارها عند ستة أحرف يجمعها أوائل كلمات هذا البيت :

صـد جابر ظهرا ثم زارنى سحرا(٦)

مع الثاء : بعدت ثمود(٧) كذبت ثمود(٨) .
مع الجيم : نضجت جلودهم(٩) - فإذا وجبت جنوبها(١٠) .
مع الزاى : خبت زدناهم(١١) .
مع السين . أنبتت سبع سنابل(١٢) أقلت سحابا(١٣) .
مع الصاد : حصرت صدورهم(١٤) فى قراءة غير يعقوب - لهدمت صوامع (١٥) .

---

(١) سورة المجادلة الآية ١ . (٢) سورة النساء الآية ٢٣ .
(٣) سورة الملك الآية ٥ . (٤) الإسراء الآية ٨٩ .
(٥) يقصد به ما تحرك فيه مابعد تاء التأنيث مما اختلف فيه القراء ومما تحرك فيه مابعد التاء قسم اتفقوا على إدغام التاء فيه ، وهو التاء والطاء ، والدال ، وقسم اتفقوا على إظهارها عنده وذلك إذا وقع بعدها خمسة عشر حرفا يجمعها قولك : « الهو غنم حقه كبير » فإذا سكن مابعد التاء كسرت التاء تخلصا من التقاء الساكنين مثل وقالت اليهود إلخ .
(٦) الدر النثير الورقة ٦٥ . (٧) سورة هود الآية ٩٥ .
(٨) سورة الحاقة الآية ٤ . (٩) سورة النساء الآية ٥٦ .
(١٠) سورة الحج الآية ٣٦ . (١١) سورة الإسراء الآية ٩٧ .
(١٢) سورة البقرة الآية ٢٦١ . (١٣) سورة الأعراف الآية ٥٧ .
(١٤) سورة النساء الآية ٩٠ . (١٥) سورة الحج الآية ٤٠ .

مع الظاء : حملت ظهورهما(١) كانت ظالمة(٢) .

أدغم في الحروف الستة أبو عمرو وحمزة والكسائي واختلف بعض القراء في الإدغام والإظهار في بعضها .

لام هل وبل :

اختلفوا في إدغامها وإظهارها عند ثمانية أحرف(٣) هي : التاء والثاء والزاي والسين والصاد والطاء والظاء والنون ، منها خمسة تختص ببل وهي الزاي والسين والضاد والطاء والظاء وواحد يختص بهل وهو الثاء وحرفان مشتركان فيهما معا وهما التاء والنون .

الخاص بهل :

مع الثاء : هل ثوب الكفار قرأ أبو عمرو والكسائي وحمزة وابن محيصن هثوب فأدغم اللام في الثاء(٤) .

الخاص ببل :

مع الزاي : بل زين للذين(٥) - بل زعمتم(٦) .

مع السين : بل سولت لكم(٧) .

مع الضاد : بل ضلوا عنهم(٨) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٦ . (٢) سورة الأنبياء الآية ١١ .

(٣) جمعت الحروف الثمانية في أوائل كلمات هذا البيت :

تقول سلمى ضاع طالبوك نأيت ظلما ثم زايلوك

الدر النثير الورقة ٦٦ .

(٤) سورة المطففين ٣٦ والكتاب ٤/٣٥٩ وقرأ الجمهور بإظهار لام هل وانظر البحر ٨/٤٤٣ .

(٥) سورة الرعد الآية ٣٣ . (٦) سورة الكهف الآية ٤٨ .

(٧) سورة يوسف الآية ١٨ . (٨) سورة الأحقاف الآية ٢٨ .

مع الطاء : بل طبع(١) .

مع الظاء : بل ظننتم(٢) .

المشترك بينهما :

مع التاء : هل تنقمون منا(٣) هل تعلم(٤) - بل تأتيهم بغتة(٥) - بل تؤثرون(٦) .

ومن ذلك قول مزاحم العقيلي :

فدع ذا ولكن هتعين متيما على ضوء برق آخر الليل ناصب

يريد هل تعين(٧) .

مع النون : هل نحن منظرون(٨) - هل ننبئكم(٩) - بل نتبع(١٠) - بل نقذف بالحق على الباطل(١١) .

أدغم اللام منهما في الأحرف الثمانية الكسائي واختلف الآخرون إدغاما وإظهارا ، وهذا كله فيما كان سكون الحرف الأول فيه سكونا أصليا(١٢) وهذا الإدغام جائز عند اللغويين لأن هذه الحروف - عدا الجيم - تخرج من بين الثنايا أو أطرافها وطرف اللسان فمخارجها متقاربة إلى جانب تقاربها في بعض الصفات مما يجعل الإدغام سائغا .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٥ .

(٢) سورة الفتح الآية ١٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٥٩ .

(٤) سورة مريم الآية ٦٥ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٤٠ .

(٦) سورة الأعلى الآية ١٦ .

(٧) الكتاب ٤/٤٥٩ .

(٨) سورة الشعراء الآية ٢٠٣ .

(٩) سورة الكهف الآية ١٠٣ .

(١٠) سورة البقرة الآية ١٠٧ .

(١١) سورة الأنبياء الآية ١٨ .

(١٢) ويلحق بهذا القسم من حيث إنه ساكن الأصل دال الصاد من كهيعص ونون السين بعد طسم في السورتين : انظر الدر النثير الورقة ٦٣ (باب الإظهار والإدغام للحروف السواكن) .

والجيم من وسط اللسان متجاورة مع طرفه ، وليس فى الأصوات التى تدغم فيها اللام انحراف كاللام ومع ذلك يجوز فيها الإدغام لأنها قريبة من مخرج اللام إذ هى من حروف طرف اللسان[١] واللام تدغم فى النون والبيان أحسن لأنه قد امتنع أن يدغم فى النون وأدغمت فيه سوى اللام فكأنهم يتوجسون من الإدغام فيها[٢] .

والضاد والشين يجوز إدغام الـــلام فيهما لاتصال مخرجهما وجاء مع الشين قول طريف بن تميم العنبرى :

تقول إذا استهلكت مالا للذة فكيهة هشىء بكفيك لائق

يريد : هل شىء فأدغم اللام فى الشين .

ولكن هذا الإدغام أضعف من سابقه لأن مخرج الضاد من أول حافة اللسان والشين من وسطه[٣] وفى ذلك بعد عن مخرج اللام لايتكيف معه .

النوع الثانى من الإدغام الصغير عند القراء :

إدغام حرف فى حرف من كلمة أو كلمتين حيث وقع ذلك فيما أطلق عليه حروف قربت مخارجها .

وهذا فيما يكون فيه للحرف الأول أصل فى التحريك ولكن استعمل فى الكلام الذى هو فيه ساكنا لسبب وهذا مانسميه بالسكون العارض[٤] .

وجملة الحروف التى تدخل تحت هذا القسم تنحصر فى ضربين :

الأول : أن يكون الحرف المدغم والحرف المدغم فيه فى كلمة واحدة وذلك : الثاء قبل التاء فى قوله تعالى : (أورثتموها)[٥] ـ قال بل لبثت[٦]

---

(١) الكتاب ٤/٤٥٧ ، ٤٥٨ بتصرف . (٢) الكتاب ٤/٤٥٦ .

(٣) الكتاب ٤/٤٥٨ . (٤) انظر الدر النثير الورقة ٦٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٤٣ (ونودوا أن تلكم الجنـــة أورثتموها بما كنتم تعملون) والزخرف الآية ٧٢(وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

مائة عام - وتظنون إن لبثتم إلا قليلا -[1] ولبثت فينا من عمرك سنين[2] - أظهر ذلك الحرميان[3] وعاصم والإظهار حسن لأنه الأصل وأدغم الباقون[4].

والذال قبل التاء وهو أصل مطرد .

فالأصل ماجاء من لفظ (أخذتم)[5] و (اتخذتم)[6] و (لتخذت)[7] أظهره ابن كثير وحفص .

والكلمتان : فنبذتها[8] وعذت[9] أدغمهما أبو عمرو وحمزة والكسائي وأظهر الباقون (١٠) .

الثاني : أن يكون الحرف المدغم والحرف المدغم فيه من كلمتين وهو سبعة أنواع :

١ - الباء قبل الفاء في خمسة مواضع في القرآن منها :

أو يغلب فسوف(١١) وإن تعجب فعجب قولهم(١٢) أدغم ذلك أبو عمرو والكسائي وخلاد ، قال سيبويه : (والباء تدغم في الفاء للتقارب ولأنها قد ضارعت الفاء فقويت على ذلك لكثرة الإدغام في حروف الفم)(١٣) .

٢ - الباء قبل الميم في موضعين : يعذب من يشاء(١٤) قرأ عاصم وابن عامر برفع الباء فلزم الإظهار على قراءتهما وجزم الباقون فأظهر ورش وأدغم الباقون ، ولا خلاف - كما يقول السيرافي - في إدغام الباء في الميم .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٢ .
(٢) سورة الشعراء الآية ١٨ .
(٣) ابن كثير ونافع .
(٤) التيسير ص ٢٤ وإبراز المعاني ١٤٧ - ١٤٧ والنشر ٢/١٦ ، ١٧ .
(٥) سورة الأنفال الآية ٦٨ .
(٦) سورة البقرة الآية ٨٠ .
(٧) سورة الكهف الآية ٧٧ .
(٨) سورة طه الآية ٦٩ .
(٩) سورة المؤمنون الآية ٢٧ ، وسورة الدخان الآية ٢٠ .
(١٠) انظر النشر ٢/١٦ .
(١١) سورة النساء الآية ٧٤ .
(١٢) سورة الرعد الآية ٥ .
(١٣) الكتاب ٤/٤٤٨ والتيسير ٤٣ .
(١٤) سورة البقرة الآية ٢٨٤ .

ومثله : (يا بنى اركب معنا)[1] أظهره ورش وابن عامر وخلف وأدغمه الباقون .

٣ ـ الفاء قبل الباء مثل قوله تعالى : (نخسف بهم)[2] أدغمه الكسائى وأظهره الباقون .

والإظهار فى ذلك أحسن لأنهما منفصلان ولأن التفشى الذى فى الفاء يذهب مع الإدغام ولأن الفاء تخرج من الشفتين إلى الفم ولها اتصال بالثنايا العليا فخالفت الباء فى المخرج بعض المخالفة[3] .

وتوصف قراءة الإدغام بالشذوذ ـ فى نظر النحاة ـ لأن الفاء لا تدغم فى الباء لأنها من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا وانحدرت إلى الفم وقد قاربت من الثنايا مخرج الثاء وإنما أصل الإدغام فى حروف الفم واللسان لأنها أكثر الحروف وكما أن الثاء لا تدغم فى الباء فلا تدغم الفاء فيها[4] .

٤ ـ اللام قبل الذال فى ستة مواضع فى القرآن منها قوله تعالى :
(ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه)[5] ، (ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء)[6] .

أدغم الجميع أبو الحارث الليث بن خالد البغدادى من أصحاب الكسائى[7] وأظهر الباقون .

٥ ـ الثاء قبل الذال مثل : يلهث ذلك[8] أظهره الحرميان وهشام بخلاف عن قالون وأدغم الباقون .

---

(١) سورة هود الآية ٤٢ . (٢) سورة سبأ الآية ٩ .
(٣) الكشف ١/١٥٥ بتصرف . (٤) الكتاب ٤/٤٤٨ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣١ . (٦) سورة آل عمران الآية ٣٠ .
(٧) ت ٢٤٠ هـ وانظر إدغام القراء ص ٥٣ حيث روى أبو الحارث ذلك عن الكسائى . (٨) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

قال مكي : وعلة الإدغام هي أن الذال أقوى من الثاء كثيرا لأن الذال مجهورة والثاء مهموســـة رخوة فحسن انتقال الأول إلى القوة بالإدغام والإظهار حسن لأنه الأصل[1] .

٦ ـ الدال قبل الثاء : (ومن يرد ثواب) فى موضعين فى آل عمران[2] أظهر الحرميان وعاصم وأدغم الباقون .

٧ ـ الراء قبل اللام وهو كثير فى القرآن كقوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك)[3] ، (ويسر لى)[4] . (ينشر لكم)[5] .
اختلف فيه القراء ،(واصطبر لعبادته)[6] .

ويرى اللغويون أن الراء لاتدغم فى اللام لأنها مكررة وهى تفشى إذا كان معها غيرها فكرهوا أن يجحفوا بها فتدغم مع ماليس يتفشى فى الفم مثلها ولا يكرر مثل اجهر لبطة والعكس جائز بأن تدغم اللام فى الراء لأنك لاتخل بها كما كنت تخل بها لو أدغمتها فيها ولتقاربهما مثل : هرأيت[7] .

٨ – ومن ذلك : الدال قبل الذال مثل (كهيعص ذكر)[8] أدغمها أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائى وخلف وقرأ الباقون بالإظهار .

٩ – والنون قبل الواو مثل (يس والقرآن) أدغمها الكسائى ويعقوب

---

(١) الكشف ١ / ١٥٧ والنشر ٢/١٥ وتحبير التيسير ٤٤ وانظر شرح المفصل ١٠/١٢١ .

(٢) الآية ١٤٥ .
(٣) سورة القلم الآية ٤٨ .

(٤) سورة طه الآية ٢٦ .
(٥) سورة الكهف الآية ١٦ .

(٦) سورة مريم الآية ٦٥ وإدغام اللام فى الراء جائز حسن مثل : اشغل رحبة لقرب المخرجين ولأن فى الراء انحرافا نحو اللام قليلا وقاربتها فى طرف اللسان ، وهما فى الشـــدة وجرى الصوت سواء ، وليس بينهمـــا فاصل من المخارج الأخرى . انظر الكتاب ٤/٤٤٨ ، ٤/٤٥٢ .

(٧) الكتاب ٤/٤٤٨ .
(٨) سورة مريم الآية ١ .

وخلف وهشام وقطع بالإدغام عنـــد جمهور العراقيين وقرأ بعضهم بالإظهار[1] .

وكذلك النون قبل الياء مثل (فمن يعمل)[2].

وتدغم النون فى الواو بغنة وبلاغنة لأن مخرج الواو فى رأى القدماء من الشفتين وهى أقرب إلى الحروف التى تدغم فيها النون وهى اللام والراء فاحتملت الإدغام كما احتملته اللام والراء .

وتدغم النون مع الياء بغنة وبلا غنة لأن الياء أخت الواو ولقرب مخرج الياء إلى مخرج الراء من طرف اللسان ولذا نرى الألثغ يبدل الراء أو اللام ياء لقربها منها[3] .

وسكون الحرف المدغم هنا عارض فما ورد هنا من صيغ الفعل المـاضى أصله البناء على الفتح وإنما سكن لاتصال ضمير الرفع به ، وما جاء من صيغ المضارع أصله التحريك بالرفع وسكن أحيانا للجزم ، وما جاء بصيغة الأمر وإن كان مبنيا على السكون هو فى حكم المغير من لفظ المضارع الذى أصله الرفع[4] فهو فى حكم المتحرك ثم غير فلزمه السكون .

وليست ذال إذ ودال قد وتاء التأنيث ولام هل وبل مما أصله الحركة ولا فى حكم ما أصله الحركة.

---

(١) سورة يس الآية ١، وانظر النشر ٢/١٧ ، ١٨ وقد جاء هذا النوع من الإدغام فى الحروف التى قربت مخارجها فى غير ما ورد من ذلك .

(٢) سورة الزلزلة الآية ٧ .

(٣) الـكتاب ٤/٤٥٣ .

(٤) انظر النشر ١/١٢ .

أحكام الإدغام الكبير

إذا كان الحرفان المتجاوران محركين فإن القراء يظهرون الحرفين دون إدغام ماعدا أبا عمرو بن العلاء فقد اشتهر عنه الإدغام في هذه الحال، فهو المنسوب إليه والمختص به من الأئمة العشرة .

وليس الإدغام الوارد عنه على سبيل الوجوب بل على سبيل الجواز فالإدغام رواية من رواياته ووجه من وجوه قراءاته فمن شاء قرأ به ومن شاء قرأ بالإظهار(١) .

وليس أبو عمرو منفردا به، بل قد ورد أيضا عن الحسن البصرى وابن محيصن والأعمش وطلحة بن مصرف وعيسى بن عمر و مسلمة بن عبدالله الفهرى ومسلمة بن محارب السدوسى ويعقوب الحضرمى وغيرهم(٢) .

---

(١) ولمؤلفى الكتب وبعض أئمة القراءة فى ذكره طرقا منهم من لم يذكره البتة كابن مجاهد فى السبعة ومكى فى التبصرة ومنهم من ذكره فى أحد الوجهين عن أبى عمرو بكماله من جميع طرقه وهم جمهور العراقيين وغيرهم ومنهم من ذكره عن الدورى والسوسى معا كأبى معشر الطبرى فى تلخيصه ومنهم من خص به السوسى وحده كصاحب التيسير ومنهم من ذكره عن غيرهما من أصحاب اليزيدى وشجاع عن أبى عمرو كصاحب التجريد ، وثبت عن أبى عمرو مع الإدغام وعدمه ثلاث طرق :

الأولى : الإظهار مع الإبدال ـ وهو أحد الأوجه الثلاثة عند جمهور العراقيين عن أبى عمرو بكماله وأحد الوجهين عن السوسى فى التجريد والتذكار .

الثانية : الإدغام مع الإبدال وهو الذى فى جميع كتب أصحاب الإدغام من روايتى الدورى والسوسى جميعا وهو الذى عن السوسى فى التذكرة وقال أبو الفتح فارس بن أحمد : وكان أبو عمرو يقرىء بهذه القراءة الماهر النحرير الذى عرف وجوه القراءات ولغات العرب .

الثالثة : الإظهار مع الهمز وهو الأصل عن أبى عمرو والثابت عنه عن جميع الطرق وقراءة العامة من أصحابه وهو الوجه الثانى عن السوسى فى التجريد . النشر ٢٧٦/١ .

(٢) النشر ١٥٧/١ .

ووافق بعضهم أبا عمرو فى مواضع كحمزة فقد وافق أبا عمرو على إدغام التاء فى أربعة مواضع واختلف عن خلاد عنه وإن قرأ الدانى عليه ووافقه يعقوب على إدغام الباء فى موضع واحد وكذلك رويس على إدغام أربعة أحرف بلا خلاف(١).

ويعرف هذا الإدغام لدى علماء الأداء باسم (الإدغام الكبير) ويأتى فى المتماثلين والمتجانسين والمتقاربين فى كلمة وفى كلمتين .

المثلان :

فى كلمة واحدة(٢) :

يأتى المثلان حقيقة ومجازا .

فالحقيقة كالباءين فى (سببا)(٣) والراءين فى (بررة)(٤) والقافين فى (يشاقق)(٥) والصادين فى (القصص)(٦) .

فالمثلان فى جميع ذلك فى كلمة واحدة والمكرر حرفان هما عين الكلمة ولامها.

والمجاز مثل الباءين فى (قد جئتكم ببينة من ربكم)(٧) والكافين فى (سلككم)(٨) و (مناسككم)(٩) والنونين فى (يعبدوننى)(١٠) والهاءين فى (وجهه)(١١) فالأول من المثلين هو لام الكلمة ومن تمامها والثانى ضمير متصل

---

(١) النشر ١/٣٠٠ .

(٢) يشترط فيما يقع فى كلمة أن يكون المدغم فيه أكثر من حرف فإذا كان واحدا امتنع الإدغام مثل (الذى خلقك ـ نحن نرزقك) .

(٣) سورة الكهف الآية ٨٤ .

(٤) سورة عبس الآية ١٦ .

(٥) سورة الأنفال الآية ١٣ .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

(٧) سورة الأعراف الآية ١٠٥ .

(٨) سورة المدثر الآية ٤٢ .

(٩) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

(١٠) سورة النور الآية ٥٥ .

(١١) سورة البقرة الآية ١١٢ .

به ولو فصلته منه لم تختل الكلمة : مناسك ـ سلك ـ يعبدون ـ وجه ـ بينة والباء الأولى في (بينة) حرف جر اتصلت بفاء الكلمة فأشبهت المثلين في كلمة .

أدغم أبو عمرو من ذلك : مناسككم ـ في البقرة و ـ ماسلككم ـ في المدثر ، ووجه الإدغام في ذلك : أنه استثقل اجتماع المثلين مع ما في ذلك من الطول بلحاق ضمير الجمع وتحريك ما قبل الكاف الأولى ، واختلفت الروايات عنه في إدغام بشرككم في فاطر(١) وأظهر ما عداها نحو : جباههم(٢) ـ وجوههم ـ(٣) أتحاجوننا وشبهه(٤) وروى أن ما التقت فيه الهاءان هو ما يدغم فيه أبو عمرو ويظهر (١) .

وقيل : إن رواية الإدغام في المثلين جاءت في تسعة وعشرين موضعا في القرآن الكريم وما التقى فيه المثلان في كلمة غيرها فلا إدغام فيه نحو : يعبدونني ـ يهدوننا(٥) و ـ ما اقتتلوا ،(٦) ويقتتلان(٧) لعدم الرواية ولأن الإظهار هو الأصل(٨) .

المثلان في كلمتين :

يأتي ذلك في حرفين : أحدهما في آخر الكلمة الأولى والثاني في أول الكلمة التي بعدها وهما متحركان ـ على شرط هذا النوع من الإدغام ـ مثل : الرحيم مالك(٩) ـ يشفع عنده(١٠) .

---

(١) الآية ١٤ وانظر الدر النثير الورقة ١٥ (باب بيان مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير) . (٢) سورة التوبة الآية ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٠٦ ١٠٧ وانظر المعجم المفهرس ٢/٨٢٨، ٨٢٩ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٩ . وانظر النشر ١/٢٨٠ . .

(٥) سورة التغابن الآية ٦ . (٦) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٧) سورة القصص الآية ١٥ .

(٨) لأنه أكثر ولأنه يحدث حال الوقف ولإخراج كل حرف وحده . الكشف ٣٥٨ .

(٩) سورة الفاتحة الآية ٣ ، ٤ . (١٠) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

والواقع أن بعض الحروف اتى مثله فى القرآن وبعضها لم يأت مثله فيه .

فالضرب الذى لم يأت مثله من الحروف فى كلمتين فى القرآن عشرة أحرف هى :

الطاء والدال والصاد المهملات والخاء والضاد والشين والظاء والذال المعجمات والجيم والزاى(١) .

والضرب الذى اتى مثله من كلمتين باقى الحروف وهى ثمانية عشر حرفا يجمعها قولك : « حسن فعلك أثبته غير قوم » :

١ ـ الهمزة : التقى المثلان فيها فى القرآن فى مواضع كثيرة ـ مع اتفاقهما فى الحركات واختلافهما ـ نحو : جاء أجلهم(٢) و ـ هؤلاء إن كنتم(٣) و ـ أولياء أولئك(٤) و ـ شهداء إذ حضر(٥) و ـ من وعاء أخيه(٦) و ـ كلما جاء أمة(٧) والسفهاء ألا(٨) و ـ يشاء إلى(٩) ولم يدغم شيء من ذلك .

وبعض العرب والقراء يحققهما معا وهؤلاء يحتملون ثقل اجتماعهما وبعضهم استثقلهما فعدل إلى تسهيل إحداهما وإلى ذلك عدل أبو عمرو بقراءة التسهيل .

ويقول سيبويه : « ليس من كلام العرب أن تلتقى الهمزتان فتحققان فإن كانتا متحركتين فمنهم من يخفف الأولى دون الثانية لكونها آخر الكلمة والأواخر محل التغيير وهو قول أبى عمرو(١٠) .

وقال ابن جنى : « الهمزة المخففة هى التى تسمى همزة بين بين ومعنى قول

---

(١) الدر النثير الورقة ١٦ وانظر النشر ١/٢٨٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٣١ .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٢ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٣٣ .

(٦) سورة يوسف الآية ٧٦ .

(٧) سورة المؤمنون الآية ٤٤ .

(٨) سورة البقرة الآية ١٣ .

(٩) سورة البقرة الآية ١٤٢ .

(١٠) شرح الشافية ص ٢٧٣ .

سيبويه بين بين أى بين الهمزة وبين الحرف الذى منه حركتها إن كانت مفتوحة فهى بين الهمزة والألف وإن كانت مكسورة فهى بين الهمزة والياء وإن كانت مضمومة فهى بين الهمزة والواو إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحققة وهى مع ماذكرنا من أمرها فى ضعفها وقلة تمكنها بزنة المحققة ولا تقع الهمزة المخففة أولا أبدا »(١) .

وإذا سهل أبو عمرو إحدى الهمزتين حذف الأولى إن كانتا متفقتى الحركة فيندفع بذلك اجتماع المثلين ويسهل الثانية بين الهمزة والحرف الذى منه حركتها ويستغنى بذلك عن الإدغام .

الباء فى الباء : تدغمان فى سبعة وخمسين موضعا منها : الكتاب بأيديهم(٢) ـ ونزل الكتاب بالحق(٣) ـ لذهب بسمعهم(٤) ـ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق(٥) ـ العذاب بما(٦) ـ نصيب برحمتنا من نشاء(٧) ـ فيصيب بها من يشاء(٨) ـ زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون(٩) ـ إلا أن كذب بها (١٠) ـ إلى غير ذلك .

التاء فى التاء :

تدغم التاء فى مثلها كيف ما كانت حركتها سواء سكن ما قبلها أو تحرك وسواء كانت متصلة بالاسم للتأنيث ، وتبدل فى الوقف هاء أو لم تكن كذلك مالم تكن ضمير المتكلم أو المخاطب متصلا كان الضمير أو منفصلا .

وجملة ماورد فى القرآن من التاءات المذكورة أربعة عشر موضعا منها

(١) سر الصناعة ١/٥٣ ، ٥٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٧٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٧٦ .
(٤) سورة البقرة الآيات ٢١، ٧٩، ١٧٦ .
(٥) سورة النساء الآية ١٠٥ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٣٥ .
(٧) سورة يوسف الآية ٥٦ .
(٨) سورة الرعد الآية ١٣ .
(٩) سورة النحل الآية ٨٨ .
(١٠) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

فى المائدة «فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة»(١) وفى الأنعام «الموت توفته»(٢) وفى الأنفال «الشوكة تكون»(٣) وفى يوسف «والآخرة توفنى»(٤) وفى مريم «النخلة تساقط»(٥) وفى المؤمنون «يوم القيامة تبعثون»(٦).

الثاء فى الثاء :

جملته فى القرآن ثلاثة مواضع هى :

حيث ثقفتموهم(٧)، و ثالث ثلاثة(٨).

الحاء فى الحاء :

ليس فى القرآن إلا موضعان : أحدهما فى البقرة «عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله»(٩)، والثانى فى الكهف : «لا أبرح حتى»(١٠).

الراء فى الراء :

سواء تحرك ماقبلها أو سكن تدغم عند أبى عمرو وجملته فى القرآن خمسة وثلاثون موضعا منها :

فى البقرة : شهر رمضان(١١) وفى المائدة : أو تحرير رقبة(١٢) وفى النحل : أو يأتى أمر ربك(١٣) وفى الزمر: بنور ربها(١٤) وفى غافر : لننصر رسلنا(١٥) إلخ ...

السين فى السين :

جملتها فى القرآن ثلاثة مواضع :

(١) الآية ١٠٦ . (٢) الآية ٦١ . (٣) الآية ٧ .
(٤) الآية ١٠١ . (٥) الآية ٢٥ . (٦) الآية ١٦ .
(٧) سورة البقرة الآية ١٩١ والنساء الآية ١٩١ .
(٨) سورة المائدة الآية ٧٣ . (٩) الآية ٢٣٥ . (١٠) الآية ٦٠ .
(١١) الآية ١٨٥ . (١٢) الآية ٨٩ . (١٣) الآية ٣٣ .
(١٤) الآية ٦٩ . (١٥) الآية ٥١ .

فى الحج : «الناس سكارى»[1] ـ «للناس سواء»[2] وفى سورة نوح «الشمس سراجا»[3] .

العين فى العين :

جملته فى القرآن ثمانية عشر موضعا منها فى البقرة : يشفع عنده[4] ، وفى آل عمران : «لا أضيع عمل عامل»[5] وفى المائدة : «تطلع على خائنة»[6] ـ وفى الأعراف «ينزع عنهما»[7] ـ «قد وقع عليكم»[8] ـ ويطبع على قلوبهم[9] ـ ولما وقع عليهم[10] ـ وفى يونس : نطبع على[11] وفى الكهف : تطلع على قوم[12] وفى الحج : يدافع عن[13] ـ أن تقع على الأرض[14] ـ وفى القيامة : نجمع عظامه[15] .

الغين فى الغين :

مثلها فى آل عمران خاصة «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه»[16] وهو من المعتل أى الذى التقى فيه مثلان بسبب حذف وقع فى نهاية الكلمة الأولى فاصل (يبتغ) : يبتغى فحذفت لام الفعل حال الجزم ما لتلقى مثلان .

الفاء فى الفاء :

وجملته فى القرآن ثلاثة وعشرون موضعا ، منها فى البقرة (وما اختلف فيه)[17] ـ ويونس : خلائف فى الأرض[18] وإبراهيم : كيف فعلنا بهم[19]

---

(١) الآية ٢ . (٢) الآية ٢٥ . (٣) الآية ١٦ .
(٤) الآية ٢٥٥ . (٥) الآية ١٩٥ . (٦) الآية ١٣ .
(٧) الآية ٢٧ . (٨) الآية ٧١ . (٩) الآية ١٠٠ .
(١٠) الآية ١٣٤ . (١١) الآية ٧٤ . (١٢) الآية ٩٠ .
(١٣) الآية ٣٨ . (١٤) الآية ٦٥ . (١٥) الآية ٩ .
(١٦) الآية ٨٥ . وانظر النشر ٢٨١/١ والدر النثير الورقة ٢١ .
(١٧) الآية ٢٠٣ . (١٨) الآية ١٤ . (١٩) الآية ٤٥ .

والإسراء : كيف فضلنا(١) ـ والكهف: إلى الكهف فقالوا(٢)ـ والأحزاب : وقذف فى قلوبهم(٣) والمطففين : تعرف فى وجوههم(٤)

القاف فى القاف :

جملته فى القرآن خمسة مواضع : منها فى الأعراف « والطيبات من الرزق قل »(٥) ـ فلما أفاق قال سبحانك(٦) ـ وفى التوبة : « ينفق قربات »(٧) ـ ويونس : حتى إذا أدركه الغرق قال(٨) ـ والجن : طرائق قددا(٩) .

الكاف فى الكاف :

سواء تحرك ماقبلها أو سكن تدغم عند أبى عمرو وجملته فى القرآن ستة وثلاثون موضعا ، منها فى سورة آل عمران : واذكر ربك كثيرا(١٠) ويونس : كذلك كذب(١١) والنحل : أمر ربك كذلك(١٢) والحج : عند ربك كألف(١٣) والعنكبوت : إلا امرأتك كانت(١٤) .

اللام فى اللام :

جملته فى القرآن مائتا حرف وخمسة عشر حرفا سوى المختلف فيه مثل : يخل لكم(١٥) ومن المتفق عليه فى سورة إبراهيم : ويضرب الله الأمثال للناس(١٦)، والحجر: قال لم أكن لأسجد(١٧) والروم: لا تبديل لخلق الله(١٨)

(١) الآية ٢١ .
(٢) الآية ١٠ .
(٣) الآية ٢٦، وسورة الحشر الآية ٢
(٤) الآية ٢٤ .
(٥) الآية ٣٢ .
(٦) الآية ١٤٣ .
(٧) الآية ٩٩ .
(٨) الآية ٩٠ .
(٩) الآية ١١ .
(١٠) الآية ٤١ .
(١١) الآية ٣٠٩ .
(١٢) الآية ٣٣ .
(١٣) الآية ٤٧ .
(١٤) الآية ٢٣ .
(١٥) سورة يوسف الآية ٩ . فكل موضع التقى فيه مثلان بسبب حذف حرف من آخر الكلمة الأولى يجوز فيه عند أهل الأداء عن السوسى الوجهان الإظهار والإدغام.
(١٦) الآية ٢٥ .
(١٧) الآية ٣٣ .
(١٨) الآية ٣٠ .

وفاطر : فلا مرسل له[١] ، والقتال : سول لهم[٢] . والذاريات : إذ قيل لهم[٣] ، والمجادلة : إذا قيل لكم تفسحوا[٤] .

الميم فى الميم :

يدغمان مطلقا ـ عند أبى عمرو ـ وجملته فى القرآن مائة وتسعة وثلاثون موضعا منها فى أم القرآن: الرحيم مالك[٥] والأنفال : اليوم من الناس[٦] ، ويونس : فمن أظلم ممن[٧] وإبراهيم : تعلم ماتخفى[٨] ، ولقمان : ويعلم مافى الأرحام[٩] والأحزاب : يعلم مافى قلوبكم[١٠] .

النون فى النون :

تحرك ماقبلها أو سكن تدغم عند أبى عمرو وجملته فى القرآن سبعون موضعـــا منها فى الأنفال : الفئتان نكص[١١] وإبراهيم : ويستحيون نساءكم[١٢]، والإسراء: نحن نرزقهم[١٣] وطه: نحن نرزقك[١٤]والأنبياء : لايستطيعون نصر أنفسهم[١٥] والحج : كان نكير[١٦] والزخرف : الرحمن نقيض[١٧] . والرحمن : فيهما عينان نضاختان[١٨] .

الهاء فى الهاء :

يدغمها أبو عمرو فى مثلها إذا كانت من كلمتين سواء كانت الأولى ضميرا أو غير ضمير وسواء كان قبلها حرف متحرك أو ساكن وإن كانت فى الإضمار موصولة حذف الصلة ثم أسكنها فى جميع ذلك وأدغمها نحو :فالله

---

(١) الآية ٢ . (٢) الآية ٢٥ . (٣) الآية ٤٣ .
(٤) الآية ١١ . (٥) الآية ٣ ، ٤ . (٦) الآية ٤٨ .
(٧) الآية ١٧ . (٨) الآية ٣٨ . (٩) الآية ٣٤ .
(١٠) الآية ٥١ . (١١) الآية ٤٨ . (١٢) الآية ٦ .
(١٣) الآية ٣١ . (١٤) الآية ١٣٢ . (١٥) الآية ٤٣ .
(١٦) الآية ٤٤ وسورة سبأ الآية ٤٥ وسورة فاطر الآية ٢٦ .
(١٧) الآية ٣٦ (١٨) الآية ٦٦ .

ونحو (يرزقكم(١) ـ يخلقكم(٢) ـ فيغرقكم(٣)) ولا مضارع غيرهن وجملة ذلك ثمانية وما تكرر منه سبعة وثلاثون حرفا وهى تسع كلمات تكرر بعضها .

وإنما إشترط هذان الشرطان لأن الكلمة تطول بالميم وتثقل بالحركة فيحسن التخفيف بالإدغام(٤) والذى أوجب التقارب بين القاف والكاف اشتراكهما فى الشدة واتصال مخرجيهما ، قال سيبويه :

وإنما أدغمت العرب لقرب المخرجين وأنهما من حروف اللسان وتتفقان فى الشدة(٥) .

واختلف فيما إذا كان بعدهما نون جمع فى موضع واحد : (طلقكن) فى التحريم فروى بالإظهار عن أبى عمرو كما روى عنه بالإدغام ، واختار الدانى الإدغام لأنه قد اجتمع فى الكلمة ثقلان ثقل الجمع ، وثقل التأنيث فوجب أن يخفف بالإدغام(٦) .

المتقاربان والمتجانسان فى كلمتين :

أدغم من ذلك ستة عشر حرفا جمعت فى قولهم (سنشد حجتك بذل رض قثم) بشرط انتفاء الموانع المتقدمة(٧) .

الباء : تدغم فى الميم فى قوله تعالى : (يعذب من يشاء) فقط وذلك فى خمسة مواضع فى آل عمران والمائدة والعنكبوت والفتح(٨) . وذلك موافقة لما

---

(١) سورة يونس الآية ٣١ وسورة النحل الآية ٦٤ وسورة سبأ الآية ٢٤ وسورة فاطر الآية ٣ وسورة الملك الآية ٢١ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٦٩ .

(٤) النشر ١/٢٨٦ والدر النثير الورقة ٢٥ .

(٥) الكتاب ٤/٣٥٢ .

(٦) النشر ١/٢٨٦ .

(٧) انظر ص ٥٦ ومابعدها فيما سبق من هذا البحث .

(٨) سورة آل عمران الآية ١٢٩ ، وسورة المائدة الآيتين ١٨ ، ٤٠ ، وسورة العنكبوت الآية ٢١ ، وسورة الفتح الآية ١٤ .

جاورها وهو : (يرحم من) و (يغفر لمن) وأظهر ماعدا ذلك نحو : (ضرب مثل)(١)(سنكتب مايقول)(٢) لفقد المجاور وهذا بلا خلاف .

التاء تدغم فى عشرة أحرف هى:

الثاء : إذا رأيت ثم(٣) ـ وما كنت ثاويا(٤) .

والجيم : دخلت جنتك(٥) ـ فأكثرت جدالنا(٦) .

والذال : السيئات ذلك(٧) ـ والآخرة ذلك(٨) .

والزاى : بالآخرة زينا(٩) ـ فالزاجرات زجرا(١٠) .

والسين : الصالحات سيجعل لهم(١١) ـ قد أوتيت سؤلك(١٢) .

أنت لا إله إلا أنت سبحانك(١٣) .

والشين: لقد جئت شيئا نكرا(١٤)ـالساعة شىء(١٥) بأربعة شهداء(١٦).

والصاد : والصافات صفا(١٧) ـ والملائكة صفا(١٨) .

والضاد : فى موضع واحد ، والعاديات ضبحا(١٩) .

والطاء : بيت طائفة(٢٠) وأقم الصلاة طرفى النهار(٢١) ـ وعملوا الصالحات طوبى(٢٢) ـ لمن خلقت طينا(٢٣) .

---

(١) سورة الحج الآية ٧٣ .
(٢) سورة مريم الآية ٧٩ .
(٣) سورة الإنسان الآية ٢٠ .
(٤) سورة القصص الآية ٤٥ .
(٥) سورة الكهف الآية ٣٩ .
(٦) سورة هود الآية ٣٢ .
(٧) سورة هود الآية ١١٤ .
(٨) سورة الحج الآية ١٢ .
(٩) سورة النمل الآية ٤ .
(١٠) سورة الصافات الآية ٢ .
(١١) سورة مريم الآية ٩٦ .
(١٢) سورة طه الآية ٣٦ .
(١٣) سورة الأنبياء الآية ٨٧ .
(١٤) سورة الكهف الآيتين ١٧، ١٨ .
(١٥) سورة الحج الآية ١ .
(١٦) سورة النور الآية ٤ .
(١٧) سورة الصافات الآية ١ .
(١٨) سورة النبأ الآية ٣٨ .
(١٩) سورة العاديات الآية ١ .
(٢٠) سورة النساء الآية ٨١ .
(٢١) سورة هود الآية ١١٤ .
(٢٢) سورة الرعد الآية ٢٩ .
(٢٣) سورة الإسراء الآية ٦١ .

والظاء: الملائكة ظالمي أنفسهم(١) .

والثاء تدغم في خمسة أحرف هي :

التاء : حيث تؤمرون(٢) ـ الحديث تعجبون(٣) ـ ثلاثة رابعهم(٤) وعليها : ابعث تلك وأغث تلك وثلاثة دراهم .

قال سيبويه : ـ عند حديثه عن ثلاثة دراهم ـ تدغم الثاء من ثلاثة في الهاء إذا صارت تاء والبيان فيه جيد(٥) .

وقال ابن جني : ـ عند حديثه عن قراءة ابن محيصن (ثلاث رابعهم كلبهم) بإدغام ثاء ثلاثة في الهاء بعدها : الثاء لقرب مخرجها من التاء تدغم فيها كقولك : ابعث تلك ، وأغث تلك ، وجاز الإدغام وإن كان قبل الأول ساكن لأنه ألف فصار كشابة ودابة ولم يدغمها فيها إلا ابن محيصن وحده(٦) .

والثاء متفقة مع التاء في معظم الصفات وهي : الهمس والاستفال والانفتاح والإصمات وتختلفان في الجهر مع التقارب في المخرج (فلما كانت الثاء أخت التاء في الهمس وتجاورتا في المخارج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد فقلبوها تاء وأدغموها في التاء بعدها ليكون الصوت نوعا واحدا)(٧) ويتحقق إدغام الثاء في التاء بعد انتقال مخرج الثاء الذي هو طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا إلى مخرج التاء وهو طرفه مع أصول الثنايا العليا بحيث لا يسمح للهواء بالمرور لتصير شديدة مثلها بعد أن كانت رخوة وبذلك يتحد الصوتان في المخرج والصفة ومثلها تماما : ابعث تلك وأغث تلك في كل منهما قلبت الثاء تاء وأدغمت فيها على النحو السابق .

والذال في حرف واحد : الحرث ذلك(٨) .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٧ ، وسورة النحل الآية ٢٨ .

(٢) سورة الحجر الآية ٦٥ .

(٣) سورة النجم الآية ٥٩ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٢ .

(٥) الكتاب ٤/٤٦٤

(٦) المحتسب ٢/٢٦ .

(٧) سر الصناعة ١/١٨٩ .

(٨) سورة آل عمران الآية ١٤ .

والسين: وورث سليمان[1] ـ حيث سكنتم[2] ـ الحديث سنستدرجهم[3] .

والشين : حيث شئتما[4] ـ حيث شئتم[5] .

والضاد : فى موضع واحد : حديث ضيف[6] .

والجيم تدغم فى موضعين :

فى التاء : ذى المعارج تعرج[7] .

والشين : (أخرج شطأه)[8] واختلف فى إظهاره وإدغامه[9] ، والإدغام جائز لأنهما من مخرج واحد وهما من حروف وسط اللسان .

والحاء تدغم فى العين فى حرف واحد : فمن زحزح عن النار[10] ، قال سيبويه : ولم تدغم الحاء فى العين فى قولك : امدح عرفه لأن الحاء قد يفرون إليها إذا وقعت الهاء مع العين وهى مثلها فى الهمس والرخاوة مع قرب المخرجين فأجريت مجرى الميم مع الباء ولم تقو العين على الحاء إذ كانت هـــذه قصتها وهما من المخرج الثانى للحلق وليست حروف الحلق بأصل للإدغام ولكنك لو قلبت العين حاء فقلت فى (امدح عرفه) : (امدحرفه) جاز[11] .

وقال السيرافى : روى عن أبى عمرو فى إدغام الحاء فى العين روايتان :

---

(١) سورة النمل الآية ١٦ .

(٢) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٣) سورة القلم الآية ٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٣٥ ، وسورة الأعراف الآية ١٩ .

(٥) سورة البقرة الآية ٥٨ ، وسورة الأعراف الآية ١٦١ .

(٦) سورة الذاريات الآية ٢٤ .

(٧) سورة المعارج الآيتين ٣ ، ٤ .

(٨) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٩) لكن الشين لاتدغم فى الجيم لأن الشين استطال مخرجها لرخاوتها وفيها تفش فلا تدغم فى الجيم حتى لايضيع ذلك فى مثل افرش جبلة وقد تدغم الجيم فيها كما فى الآية ومثله فى اللغة قولك : أخرج شيئا ، الكتاب ٤/٤٤٩ ، ٤٥٢ .

(١٠) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

(١١) الكتاب ٤/٤٥١ .

إحداهما : إدغامها فى العين وروى اليزيدى عنه أنه لم يكن يدغم الحاء فى العين إلا فى قوله تعالى فى سورة آل عمران « فمن زحزح عن النار » .

والرواية الأخرى : مارواه اليزيدى عن أبى عمرو قال : من العرب من يدغم الحاء فى العين قال : وكان أبو عمرو لا يرى ذلك وهذا أصح(١) .

وقيل: إنه أدغم فى (فمن زحزح عن النار) وأظهر فيما عدا هذا الموضع مثل :(فلا جناح عليهما)(٢)- (المسيح عيسى)(٣) - (ذبح على)(٤) .

وإدغام الحاء فى العين ليس بقياس بل مقصور على السماع(٥) .

والدال تدغم فى عشرة أحرف :

التاء : المساجد تلك(٦) ـ من الصيد تناله(٧) .

الثاء : يرد ثواب(٨) ـ لمن نريد ثم(٩) .

الجيم : دواد جالوت(١٠) ـ دار الخلد جزاء(١١) .

الذال : من بعد ذلك(١٢) ـ والقلائد ذلك(١٣) ـ كهيعص ذكر رحمت ربك عبده زكريا(١٤) .

---

(١) إدغام القراء للسيرافى ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة البقرة الآيات ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٣ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣ .

(٥) النشر ١/ ٢٩٠ ، ٢٩١ ، وقال ابن الجزرى : « روى إدغامه عامة أهل الأداء وبه قرأ الدانى . وروى إظهاره جمهور العراقيين والوجهان صحيحان مأخوذ بهما » وانظر الحديث عن إدغام حروف الحلق ص ٢٤١ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٧) سورة المائدة الآية ٩٤ .

(٨) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

(٩) سورة الإسراء الآية ١٨ .

(١٠) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

(١١) سورة فصلت الآية ٢٨ .

(١٢) سورة البقرة الآية ٥٢ .

(١٣) سورة المائدة الآية ٩٧ .

(١٤) سورة مريم الآية ١٦٤ .

الزاى : تريد زينة الحياة الدنيا(١) ـ يكاد زيتها يضىء(٢) .

السين : فى الأصفاد سرابيلهم(٣) ـ كيد ساحر(٤) ـ عدد سنين(٥) .

الشين : شهد شاهد(٦) .

الصاد : نفقد صواع الملك(٧) ـ فى المهد صبيا(٨) .

الضاد : من بعد ضراء(٩) ـ من بعد ضعف(١٠) .

الظاء : يريد ظلما(١١) ـ من بعد ظلمه(١٢) .

والذال تدغم فى :

السين : فاتخذ سبيله(١٣) .

والصاد : ما اتخذ صاحبة(١٤)

والراء تدغم فى اللام(١٥) : أطهر لكم(١٦) ـ ليغفر لك(١٧) .

فإن سكن ماقبلها وتحركت هى بضمة أو كسرة أدغمت وماجاء من ذلك (المصير لايكلف)(١٨) ـ النهار لآيات(١٩) .

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٢) سورة النور الآية ٣٥ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) سورة طه الآية ٦٩ .

(٥) سورة المؤمنون الآية ١١٢ .

(٦) سورة يوسف الآية ٢٦ .

(٧) سورة يوسف الآية ٧٢ .

(٨) سورة مريم الآية ٢٩ .

(٩) سورة فصلت الآية ٥٠ .

(١٠) سورة الروم الآية ٥٤ .

(١١) سورة آل عمران الآية ١٠٨ ، وسورة غافر الآية ٣١ .

(١٢) سورة المائدة الآية ٣٩ .

(١٣) سورة الكهف الآية ٦١ .

(١٤) سورة الجن الآية ٣ .

(١٥) هذا فى الإدغام الكبير فيما تقدمت فيه الراء .

(١٦) سورة هود الآية ٨٧ .

(١٧) سورة الفتح الآية ٢ .

(١٨) سورة البقرة الآيتين ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(١٩) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

وأجمعوا على إظهارها إذا فتحت وسكن ماقبلها (الحمير لتركبوها)(١) و (البحر لتأكلوا)(٢) و (الخير لعلكم)(٣) .

ويختلف موقف اللغويين من هذا الإدغام عن موقف القراء فعلى حين ورد ذلك الإدغام فى القراءات الصحيحة نرى اللغويين لايجيزونه .

قال ابن جنى : (واعلم أن الراء لما فيها من التكرير لايجوز إدغامها فيما يليها من الحروف لأن إدغامها فى غيرها يسلبها مافيها من الوفور والتكرير فأما قراءة أبى عمرو : (يغفر لكم)(٤) بإدغام الراء فى اللام فمدفوع عندنا وغير معروف عند أصحابنا، إنما هو شىء رواه القراء ولاقوة له فى القياس)(٥) .

وعليه قال أبو السعود عند قوله تعالى (فيغفر لمن يشاء)(٦) إدغام الراء فى اللام لحن(٧) قال الدمياطى : وأدغم الراء فى اللام السوسى والدورى بخلفه وهو من الإدغام الصغير (٨) .

وعلى ذلك رأينا اللغويين يختلف موقفهم عما ورد فى صحيح القراءات ، ولعل الأصل أن القراءة إذا صحت اعتمدت أصلا يقاس عليه وتجرى عليه القواعد .

وعكس ذلك صحيح من إدغام اللام فى الراء مثل : هرأيت (٩) لأن الراء أقرب الحروف إلى اللام وأشبهها بها فضارعتا الحرفين اللذين يكونان من مخرج واحد إذ كانت اللام ليس حرف أشبه به منها ولا أقرب ، وإن لم تدغم فقلت هل رأيت فهى لغة لأهل الحجاز وهى عربية جائزة(١٠) .

---

(١) سورة النحل الآية ٨ . (٢) سورة النحل الآية ١٤ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٧ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٧١ وسورة الحديد الآية ٢٨ وسورة الصف الآية ١٢ وسورة نوح الآية ٤ .

(٥) سر الصناعة ١/٢٠٦ وانظر الكتاب ٤٤٨/٤ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٨٤ . (٧) أبو السعود ٢٨٣/١ .

(٨) الإتحاف ٤٦١/١ (٩) الكتاب ٤٤٨/٤

(١٠) الكتاب ٤٥٧/٤ ، وانظر ص ٧٢ من هذا البحث .

والسين : تدغم فى الزاى فى موضع واحد فى قوله تعالى (وإذا النفوس زوجت)(١) لاغير .

وفى الشين : (واشتعل الرأس شيبا)(٢) وقد اختلف فيه ، وأجمعوا على إظهار : (لا يظلم الناس شيئا)(٣) .

والشين : تدغم فى السين فى موضع واحد (إلى ذى العرش سبيلا)(٤) لاغير واختلف فيه وفى إدغامه وروى إظهاره سائر أصحاب الإدغام عن أبى عمرو(٥).

والضاد تدغم فى الشين فى موضع واحد : (لبعض شأنهم)(٦) فى النور لاغير واختلف فيه(٧) .

قال سيبويه : إن الضاد لاتدغم فى الشين لأن لكل منهما صفة ليست فى الأخرى فالضـــاد من صفاتها : الاستطالة والشين من صفاتها : التفشى فكل منهما لها حاجز(٨) وقد أدغمت فى هذه القراءة الصحيحة مخالفة للقاعدة المشهورة .

والقاف: تدغم فى الكاف إذا تحرك ماقبلها:(ينفق كيف)(٩). فإن سكن ماقبلها لم تدغم نحو (وفوق كل ذى علم عليم)(١٠) .

والكاف : تدغم إذا تحرك ماقبلها فى القاف (ونقدس لك قال)(١١) فإن سكن ماقبلها لم تدغم نحو :(إليك قال)(١٢) (يحزنك قولهم)(١٣) (تركوك قائما)(١٤) .

---

(١) سورة التكوير الآية ٧ .
(٢) سورة مريم الآية ٤ .
(٣) سورة يونس الآية ٤٤ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٤٢ .
(٥) النشر ١/٢٩٣ والتيسير ص٢٣ .
(٦) الآية ٧٢ .
(٧) أدغمها أبو عمرو ، انظر النشر ١/٢٩٣ والتيسير ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٨) الكتاب ٤/٤٦٦ .
(٩) سورة المائدة الآية ٦٤ .
(١٠) سورة يوسف الآية ٧٦ .
(١١) سورة البقرة الآية ٣٠ .
(١٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦ .
(١٣) سورة يس الآية ٧٦ .
(١٤) سورة الجمعة الآية ١١ .

واللام[1]: تدغم إذا تحرك ماقبلها فى الراء بأى حركة تحركت هى نحو: (رسل ربك)[2] - (كمثل ربـ)[3] - (أنزل ربكم)[4]، فإن سكن ماقبلها أدغمها، مضمومة كانت أو مكسورة نحو: (يقول ربنا)[5] - (سبيل ربك)[6]، فإن انفتحت بعد الساكن لم تدغم نحو: (فعصوا رسول ربهم)[7] إلا لام قال فإنها تدغم حيث وقعت لكثرة ورودها نحو: (قال رب)[8] - (قال ربكم)[9] - (قال رجل)[10] - (قال رجلان)[11].

والميم تسكن عند الباء إذا تحرك ماقبلها تخفيفا لتوالى الحركات فتخفى إذ ذاك بغنة نحو (يحكم بينهم[12] - بأعلم بالشاكرين[13] - مريم بهتانا[14]) هذا على مذهب أبى عمرو فى الإدغام، فإن سكن ماقبلها أجمعوا على ترك ذلك إلا ماروى من الإخفاء بعد حرف المد أو اللين نحو: (الشهر الحرام بالشهر الحرام)[15] (اليوم بجالوت)[16] وقد عبر بعض المتقدمين عن هذا الإخفاء بالإدغام والصواب أن الإخفاء غير الإدغام.

---

(١) هذا فيما تقدمت فيه اللام فى الإدغام الكبير.

(٢) سورة هود الآية ٨١.　(٣) سورة آل عمران الآية ١١٧.

(٤) سورة النحل الآية ٢٤.

(٥) سورة البقرة الآيتين ٢٠٠، ٢٠١　(٦) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٧) سورة الحاقة الآية ١٠.

(٨) سورة المائدة الآية ٢٥ وسورة الحجر الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٩ وسورة القصص الآيتين ١٦، ١٧.　(٩) سورة غافر الآية ٦٠.

(١٠) سورة غافر الآية ٢٨.　(١١) سورة المائدة الآية ٢٣.

(١٢) سورة البقرة الآية ١١٣.　(١٣) سورة الأنعام الآية ٥٣.

(١٤) سورة النساء الآية ١٥٦.　(١٥) سورة البقرة الآية ١٩٤.

(١٦) سورة البقرة الآية ٢٤٩.

الميم الساكنة ـ لها حالات :

١ ـ الميم تدغم بالغنة عند ميم مثلها وذلك فى كل ميم مشددة نحو : دمر[١] ويعمر[٢] ـ حمالة[٣] ـ طسم[٤] ـ الم[٥] ـ وهم[٦] ـ أم من أسس[٧] .

٢ ـ تخفى عند الباء على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الدانى وغيره من المحققين وهو مذهب أبى بكر بن مجاهد وغيره وهو الذى عليه أهل الأداء بمصر والشام والأندلس وسائر البلاد الغربية وذلك نحو : ومن يعتصم بالله[٨] ـ يوم هم بارزون[٩] ـ ربهم بهم[١٠] للإجماع على إخفائها عند القلب فى مثل : أنبئهم[١١] ـ من بعد[١٢] .

ويرى جماعة كأبى الحسن أحمد بن المنادى وغيره إظهار الميم الساكنة عند الباء إظهارا تاما وهو اختيار مكى القيسى وغيره وهو الذى عليه أهل الأداء بالعراق وسائر البلاد الشرقية وحكى إجماع القراء عليه وتظهر عند باقى الأحرف مثل : الحمد وأنعمت[١٣] ولا سيما إذا أتى بعدها فاء أو واو مثل : هم فيها[١٤] ـ عليهم ولا[١٥] ، والوجهان صحيحان[١٦] مأخوذ بهما إلا أن الإخفاء أولى للإجماع على إخفائها عند القلب وعلى إخفائها فى المتحركة فى مذهب أبى عمرو بالإدغام[١٧] .

---

(١) سورة محمد (عليه الصلاة والسلام) الآية ١٠ .
(٢) سورة فاطر الآية ١١ .
(٣) سورة المسد الآية ٤ .
(٤) سورة القصص الآية ١ .
(٥) سورة العنكبوت والروم ولقمان والسجدة الآية ١ .
(٦) سورة يوسف الآية ٢٤ .
(٧) سورة التوبة الآية ١٠٩ .
(٨) سورة آل عمران الآية ١٠١ .
(٩) سورة غافر الآية ١٦ .
(١٠) سورة العاديات الآية ١١ .
(١١) سورة البقرة الآية ٣٣ .
(١٢) سورة البقرة الآية ٢٧ وغيرها .
(١٣) سورة الفاتحة الآيتين ٢ ٧ .
(١٤) سورة البقرة الآية ٢٥ وغيرها .
(١٥) سورة الفاتحة الآية ٧ .
(١٦) حال وقوع الميم قبل الباء .
(١٧) النشر ١/٢٢٢ .

قال اللغويون : الميم لا تدغم فى الباء لأن الميم هى الحرف الذى يفرون إليه من النون حين تقترن بالباء مثل العنبر ومن بدا لك ولذا لا تغير الميم إذا وليها الباء[١] ، وإدغام الباء فى الميم صحيح كما فى اصحب مطرا تقول اصحمطرا .

والنون تدغم فى الراء واللام إذا تحرك ماقبلها ففى الراء: (وإذ تأذن ربك)[٢] - (خزائن رحمة)[٣] .

وفى اللام : (لن نؤمن لك)[٤] - (تبين له)[٥] - (زين للذين)[٦] .

فإن سكن ماقبلها لم تدغم إلا فى كلمة (نحن) حيث وقعت وجملته عشرة مواضع مثل : ونحن له مسلمون - فى البقرة وآل عمران[٧] - ونحن له عابدون[٨] - ونحن له مخلصون[٩] وفى الأعراف : فما نحن لك[١٠] - وفى المؤمنون : وما نحن له[١١] ، وعللوا لذلك بتعليلات منها : ثقل الضمة ولزوم حركتها وامتناعها من الانتقال من الضم إلى غيره أو لتكرار النون وكثرة ورودها . وهذا جميع ما أدغمه أبو عمرو من الحروف المتحركة[١٢] .

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٧ . (٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .
(٣) سورة الإسراء الآية ١٠٠ وسورة ص الآية ٩ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٩٠ . (٥) سورة التوبة الآية ١١٤ .
(٦) سورة البقرة الآية ٢١٢ .
(٧) سورة البقرة الآيتين ١٣٣ ، ١٣٦ وسورة آل عمران الآية ٨٤ .
(٨) سورة البقرة الآية ١٣٨ . (٩) سورة البقرة الآية ١٣٩ .
(١٠) الآية ١٣٢ . (١١) الآية ٣٨ .
(١٢) النشر ١/٢٨٦ - ٢٩٦ .

الإدغام فى حروف العربية

الحروف نوعان :

١ ـ ما يوجد فيه إدغام المثلين ولا يصح فيه إدغام المتقاربين .

٢ ـ ما يصح فيه إدغام المثلين والمتقاربين .

فن النوع الأول : الهمزة فأمرها دائر بين التحقيق والتخفيف بالإبدال والحذف وبين بين (أى بينها وبين حرف حركتها أو حرف حركة ماقبلها) وبين بين تكون بين الهمزة والواو ـ إن كانت مضمومة ـ وبينها وبين الألف ـ إن كانت مفتوحة ـ وبينها وبين الياء ـ إن كانت مكسورة ـ وبعضهم يجعلها بينها وبين حرف حركة ماقبلها فى مثل : سئل ومستهزئون وفى بدء الكلمة تخفف بالحذف نحو (قد أفلح المؤمنون) والطلب مثل : ائتنا ونحوه ، وفى بدء الكلمة ووسطها وآخرها لها أحوال فى التخفيف معروفة فى فن التصريف ، ولكن وجد منها إدغام المثلين إذا وقعت الهمزة عينا للكلمة مثل : سآل وسؤال جمع سائل ويلزم الإدغام بتضعيفها لتكون بلفظ واحد أما فى غير وقوعها عينا ففيها التخفيف المشار إليه دون الإدغام .

قال الرضى : وإن سكنت الأولى وتحركت الثانية فإن كان ذلك فى صيغة موضوعة على التضعيف كسآل وسؤّال وجب الإدغام محافظة على وضع الصيغة ولا يكون ذلك إلا إذا اتصلت الأولى بالفاء وذلك أن الهمزة ثقيلة ولاسيما ماضعف منها فإذا وليت الأولى أول الكلمة خفت وأما فى غير ذلك فلايجوز)[1] ولم ترد العين همزة فى القرآن .

والألف لا تدغم فى الألف كذلك ولا تدغم فيما يقاربها كالهاء لأن الإدغام يقتضى تحريكها وهى لا تقبل الحركة وكذلك شأن مقاربها ، إذ إن الإدغام هو الإتيان بحرفين ساكن فتحرك والألف لا يكون متحركا[2] .

---

(١) شرح الشافية ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٢) شرح الشافية ص ٢٤٠ وهذا إذا التقى الفان كما فى نحو السماء والبناء إذا وقفت عليها بالاسكان .

ويقتضى ذلك تغييرهما فيصبحان غير ألفين فإذا التقت ألفان لا يمكن تحريك إحدهما وإذا التقت مع خلافها فلا يمكن إدغامها فيه لأن ذلك يقتضى قلبها .

قال سيبويه : (الألف لا تدغم فى الهاء ولا فيما تقاربه لأن الألف لاتدغم فى الألف لأنهما لو فعل ذلك بهما فأجريتا مجرى الدالين والتاءين تغيرتا فكانتا غير ألفين فلما لم يكن ذلك فى الألفين لم يكن فيها مع المتقاربة فهى نحو من الهمزة فى هذا فلم يكن فيهما الإدغام كما لم يكن فى الهمزتين[١] .

والياء لاتدغم كذلك ولا الواو مع شىء من الحروف المقاربة لأن فيهما لينا ومدا فلا يقوى عليهما ماليس فيه مد ولا لين من الحروف كالباء والجيم إذ إدغام ماليس فيه مد ولين فيما فيه مد ولين يخرج الآخر من طبيعته وحتى إذا لم تجانسهما الحركة فهما أشباه أصوات اللين فى مثل رأيت قاضى جابر ورأيت دلو مالك ورأيت غلامى جابر فلا تدغم فى هذه الياء الجيم وإن كانت لاتحرك لأنك تدخل اللين فى غير مايكون فيه اللين والمد أبعد شىء عن الادغام .

والنوع الذى يقبل إدغام المثلين وإدغام المتقاربين هو باقى الحروف فإدغام المثلين نحو[٢] : أكرم محمدا وهو عام فى باقى الحروف .

وإدغام المتقاربين له ثلاثة أقسام :

الأول : يدغم فى مقاربه ولا يدغم مقاربه فيه .

وهو : الحاء والعين والباء يجمعها قولك (بعه) .

الهاء والعين : تدغمان فى الحاء والحاء لاتدغم فى العين ولا فى الهاء إلا بعد أن تبدل العين والهاء حاء .

الباء : تدغم فى الفاء والميم ولا تدغمان فيها[٣] .

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٦ وشرح المفصل ١٠/١٣٦ .

(٢) الكتاب ٤/٤٤٧ .

(٣) انظر ص ٧٠ ، ٧١ وانظر أمثلة ما يأتى أيضا متفرقة فى هذا البحث .

الثانى : يدغم مقاربه فيه ولا يدغم هو فى مقاربه وهو ستة أحرف يجمعها قولك (شرف محض) ولم يذكر سيبويه بينها الحاء والضاد[1] .

الحاء : يدغم فيها الهاء والعين .

الشين : يدغم فيه الجيم والطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء واللام.

الضاد : يدغم فيه سبعة أحرف هى : الطاء والتاء والدال والظاء والذال والثاء واللام .

الراء : يدغم فيه اللام والنون .

الفاء : يدغم فيها الباء .

الميم : يدغم فيها الباء والنون .

الثالث : الذى يدغم فى مقاربه ويدغم مقاربه فيه وهو باقى الحروف وهى ثمانية عشر حرفا يجمعها قولك :

ظن زكوت خاطب   سذج غيث قصد

الإدغام فى حروف الحلق

أصل الادغام فى حروف الفم ، وحروف الحلق ليست أصلا للإدغام فى كلمة واحدة وجاء تضعيف الحاء فى مثل : دح ومح ، ولهذا كان تضعيف الهاء نحو فه وكه السكران والعين نحو دع وكع قليلا جدا ولم يدغم بعضها فى بعض فى كلمتين ـ أيضا ـ فى الأغلب وجاء الإدغام فى كلمتين قليلا[2] ، وهى لاتدغم فى غيرها ولكن يلتقى بعضها مع بعض على سبيل الإدغام والإظهار.

والقاعدة : أنه لايدغم الأدنى مخرجا فى الأبعد لأن الأدنى أخف والأبعد أثقل فأنزلها فى الحلق أثقلها ، فأثقلها الهمزة ثم الهاء ثم العين ثم الحاء ثم الغين ثم الخاء وقياس إدغام الأنزل (يعنى الأبعد فى الحلق) فى الأعلى (يعنى الأدنى إلى الفم) بقلب الأول إلى الثانى قياس مطرد غير منكر .

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٧ .

(٢) شرح الشافية ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

ولا يدغم حرف حلق فى نظيره مما هو أدخل منه مخرجا وما حدث من ذلك يعد شاذا أو قليلا .

١ — الهاء مع الحاء :

إذا التقت الهاء مع الحاء مع تقدم الهاء مثل : اجبه حملا - وجه حجتك جاز الاظهار والادغام والبيان أحسن لاختلاف المخرجين والادغام عربي حسن لقرب المخرجين ولأنهما صوتان مهموسان رخوان فقد اجتمع فيهما قرب المخرجين والهمس .

فإذا تأخرت الهاء لا يجوز إدغام الحاء فى الهاء لأن ما كان أقرب إلى حروف الفم كان أقوى على الإدغام كما فى امدح هلالا واذبح هذا[(١)] .

وقد تدغم الحاء فى الهاء بعد قلب الهاء حاء فيقال : امدحلالا واذبحاذا ، على خلاف الأصل ، لأنه قلب الثانى إلى الأول ولأن الهاء أدخل من الحاء والأدنى لا يدغم فى الأبعد وقد أدغم الحاء فى الهاء بعد قلب الهاء حاء .

قال الرضى : فالهاء فى الحاء وإنما كان القياس قلب الأول إلى الثانى دون العكس لأن الإدغام تغيير الحرف الأول بإيصاله إلى الثانى وجعله معه كحرف واحد فلما كان لابد للأول من التغيير بعد صيرورة المتقاربين مثلين ابتدأت بتغييره بالقلب[(٢)] .

ولقيت الهاء الحاء فى القرآن الكريم مثل (إنه حكيم)[(٣)] « ومن أحسن من الله حكما »[(٤)] « أهله حاضرى المسجد الحرام »[(٥)] - « وجاهدوا فى الله حق جهاده »[(٦)] . ولم يقرأ بإدغام شىء منه فى القرآن .

---

(١) الكتاب ٤٤٩/٤ وشرح المفصل ١٣٦/١٠ .

(٢) شرح الشافية ص ٣٥٦ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٣٩ .

(٤) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٥) سورة البقرة آية ١٩٦ .

(٦) سورة الحج آية ٧٨ .

٢ ـ الهاء مع العين :

لا تدغم الهاء فى العين سواء تقدمت الهاء على العين أو تأخرت عنها لأن كل واحدة مستثقلة لنزولها فى الحلق فكيف بهما مجتمعتين مع تنافرهما ؟ والمخرج مختلف فالهاء من المخرج الأول والعين من المخرج الثانى ولكن يمكن الإدغام بتحويل الهاء حاء والعين حاء ثم تدغم الحاء فى الحاء لأن الأقرب إلى الفم لا يدغم فى الذى قبله فيبدل مكانها أشبه الحرفين بها ثم يدغم فيه وهو الحاء الأخف منهما لأنه أدنى منهما فى الحلق ولا يجوز هنا قلب الأول إلى الثانى ولا قلب الثانى إلى الأول فقلبنا حاء، فالتقاء الحاءين أخف من التقاء العينين أو الهاءين والمهموس أخف من المجهور وذلك مثل اجبه عقبة وامدح هلالا والبيان أحسن قال سيبويه :

« إن التقاء الحاءين أخف فى الكلام من التقاء العينين ألا ترى أن التقاءهما فى باب رددت أكثر والمهموس أخف من المجهور فكل هذا يباعد العين من الإدغام إذ كانت هى والهاء من حروف الحلق ومثل ذلك : اجبه عقبة فى الإدغام والبيان وإذا أردت الإدغام حولت العين حاء ثم أدغمت الهاء فيها فصارتا حاءين ولأن الأقرب إلى الفم لا يدغم فى الذى قبله كيلا يكون الإدغام فى الذى فوقه ولكن ليكون فى الذى هو من مخرجه والبيان أحسن »[1] .

ومما قالت العرب تصديقا لهذا فى الإدغام قول بنى تميم : محم يريدون : معهم ومحاؤلاء يريدون : مع هؤلاء[2] ومثله : دحا محا أى : دعها معها[3] وعليها قراءة : ألم أحد إليكم يابنى آدم[4] .

(١) الكتاب ٤/٤٥٠ . (٢) الكتاب ٤/٤٥٠ .

(٣) الكشاف ٣/٢٦٠ .

(٤) سورة يس الآية ٦٠ ، والكشاف ٣/٢٩٠.

وقال الرضى: (فى محم فى معهم ضعيف كان القياس الأول (أى قلب الأول إلى الثانى) أن يقال مهم بقلب العين هاء وقياس العارض ـ وهو كون الثانى أى الهاء أدخل فى الحلق

٣ ـ العين مع الحاء :

هنا تدغم العين فى الحاء حال تقدم العين كقولك : اقطع حملا ـ اسمع حديثا ـ والإدغام حسن والبيان حسن لأنهما من مخرج واحد والعين صوت مجهور على حين أن الحاء صوت مهموس يقول سيبويه : إن التقاء الحاءين أخف فى الكلام من التقاء العينين ألا ترى أن التقاءهما فى باب رددت أكثر والمهموس أخف من المجهور فكل هذا يباعد العين من الإدغام » .

ولم تدغم الحاء فى العين ـ حال تقدم الحاء ـ فى قولك : امدح عرفه واذبح عتودا لأن الحاء قد يفرون إليها إذا وقعت الهاء مع العين وهى مثلها فى الهمس والرخاوة مع قرب المخرجين فأجريت مجرى الميم مع الباء فجعلتها بمنزلة الهاء كما جعلت الميم بمنزلة النون مع الباء ولم تقو العين على الحاء إذ كانت هذه قصتها وهى من المخرج الثانى من الحلق والحاء أخف من العين فلو قلب الأولى التى هى أخف إلى الثانية التى هى أثقل لمشت خفة الإدغام بثقل الحرف المقلوب إليه فكأنه لم يدغم شىء فى شىء[1] .

ويجوز ـ بعد قلب العين حاء ـ إدغامها فيها كأن تقول : امدحرفه[2] واذبحتودا وهذا على خلاف الأصل بأن يقلب الثانى إلى الأول لأن العين أدخل من الحاء وقد أدغم الحاء فى العين بعد قلب العين حاء والأدنى لا يدغم فى الأعلى ولم تلق العين الحاء فى القرآن إلا فى قوله تعالى (من الدمع حزنا)[3] أو تكون العين منونة كقوله تعالى (وكان الله واسعا حكيما)[4] دون إدغام لكن وردت قراءة أبى عمرو (فمن زحزح عن النار) بقلب الحاء عينا والإدغام[5] .

= وأثقل أن يقلب الثانى إلى الأول فيقال : (ممم) فاستثقل كلاهما . شرح الشافية ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٢٦٣ .

(١) شرح الشافية للرضى ص ٣٥٦ .

(٢) الكتاب ٤/٤٥١ .

(٣) سورة التوبة الآية ٩٢ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٠ .

(٥) شرح الشافية للرضى ص ٣٦٣ .

٢ ـ الغين مع الخاء : حال تقديم الغين على الخاء أو تأخرها :

فنى تقديم الغين مثل : ادفع خلفا ، البيان أحسن ، والإدغام حسن بقلب الغين خاء ، وإدغامها فى الخاء ، فالغين والخاء مختلفان فى الهمس والجهر ، وجاز الإدغام لأنهما المخرج الثالث ، وهو أدنى المخارج من مخارج الحلق إلى اللسان(١) .

وإذا تقدمت الخاء مثل : اسلخ غنمك أدغمت الخاء فى الغين فتقول : اسلغنمك(٢) ، ولكن ليس كحسن إدغام الغين فى الخاء ، وذلك لأن الخاء أدنى من الغين مخرجا ، وتضعيف الخاء كثير ، وتضعيف الغين لم يأت إلا مع الفصل .

وعلى هذا نرى أن صور الإدغام فى المتقاربين من حروف الحلق قليلة وهى تتمثل فى إدغام الهاء فى الحاء والحاء فى الهاء ـ بعد قلب الهاء حاء ـ والهاء فى العين بعد قلبهما حاءين .

وإدغام العين فى الحاء والحاء فى العين ـ بعد قلب العين حاء كذلك ـ وإدغام الغين فى الخاء والخاء فى الغين ـ بعد قلب إحداهما إلى الأخرى .

أما الحالات التى لا تدغم فيهـــا حروف الحلق المتقاربة فهى كثيرة وتتلخص فى امتناع إدغام الهمزة فى أخواتها الخمس من حروف الحلق (الهاء ـ العين ـ الحاء ـ الغين ـ الخاء) وكذلك امتناع إدغام الهاء فى العين أو الغين أو الخاء وامتناع إدغام العين فى الغين أو الخاء ، كذلك إدغام الحاء فى الغين والخاء ، وإدغام الغين فى الهاء أو العين أو الخاء ، وإدغام الخاء فى الهاء أو العين أو الحاء .

ولم يقع فى القرآن الكريم إدغام حروف الحلق بعضها فى بعض ، وهو قليل فى الأساليب العربية ، ولا يدغم حرف حلق فى شىء من حروف الفم

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٩ ـ ٤٥١ .   (٢) شرح الشافية للرضى ص ٢٦٣ .

لسانيا كان أو شفويا ولم يحدث عكس ذلك أيضا ، فلم تدغم حروف اللسان أو الشفة فى شىء من حروف الحلق ، والإظهار فى حروف الحلق أحسن ، ويجب تقوية بعض الحروف لتخرج سليمة من مخارجها مثل :

الهاء قبل الحاء أو بعدها كقوله تعالى (وسبحه ليلا طويلا)(١) وقوله (وماقدروا الله حق قدره)(٢) .

الهاء بعد الحاء كقوله تعالى (والشمس وضحاها)(٣) .

الهاء مع العين سبقت الهاء أو تأخرت مثل (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)(٤) ـ (فبايعهن)(٥) فيجب إظهار الهاء .

إذا وقعت العين بعد الحاء وجب إظهار الحاء مثل (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا)(٦) وقوله سبحانه (فمن زحزح عن النار) .

الغين إذا وقعت بعدها عين أو قاف مثل قوله عز وجل : (ربنا أفرغ علينا صبرا)(٧) ـ (ربنا لا تزغ قلوبنا)(٨) .

وكذلك إذا تكررت الغين مثل قوله سبحانه : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)

وهكذا .

الإدغام فى حروف الفم واللسان

عرفنا أن الادغام يمتنع أو يقل فى حروف الحلق ، فالبيان أحسن فيها .

وهنا نقول : إن الإدغام يكثر فى حروف الفم واللسان فأصل الإدغام لحروف الفم ، وقد قيل : إنها أكثر عددا من حروف الحلق والشفتين ،

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢٦ . (٢) سورة الزمر الآية ٦٧ .
(٣) سورة الشمس الآية ١ . (٤) سورة القارعة الآية ٥ .
(٥) سورة الممتحنة الآية ١٢ . (٦) سورة النساء الآية ١٢٨ .
(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٠ وسورة الأعراف الآية ١٢٦ .
(٨) سورة آل عمران الآية ٨ .

ويظهر أن السبب فى كثرة الإدغام فيها يرجع إلى سهولة النطق بالحروف الخارجة من الفم ، فاللسان ينطق بالحروف، وأقصى الحنك ووسطه ومقدمه يساعد اللسان فى إخراج الحروف ، يقول شادة « إن المعول عليه فى آلات النطق ليس الإحصائيات للحروف الصادرة عنها بل بكثرة الحركة والانطلاق والتقلب واللسان هو أكثر أعضاء النطق انطلاقا وحركة وكذلك الجزء المؤخر من الحنك، فحال وضع طرف اللسان على موضع الراء يمكن الانتقال إلى مخرج اللام من جانبي اللسان بسهولة وحال رفع طرف اللسان تخرج راء ، وعند ارتخاء مؤخر الحنك تخرج النون فالمعول عليه هو سهولة نطق حروف الفم واللسان وسهولة إدغام حرف منها فى حرف آخر لشدة تحركها وتقلبها »[١] .

والقاعدة العامة أن الإدغام فى هذه الحروف يتم بعد تماثل الصوتين فإذا تجاور حرفان متقاربان من مخرج واحد أو من مخارج مختلفة فإن الإدغام جائز لا واجب ويدغم - عادة - الأدخل مخرجا فى الأقرب إلى الفم - عكس مايجرى فى حروف الحلق ، وأحيانا يكون البيان أحسن وأحيانا أخرى يكون الإدغام أحسن ويقل الإدغام حسنا كلما قرب المخرج من حروف الحلق ، وكلما بعد المخرج عن الحلق كان إدغام الحروف حسنا .

ويراعى حال الإدغام الحروف ذات الصفات التى لها طابع مميز قد يضيع بالإدغام . فهنا يدغم الصوت ذو الخصيصة فى غيره لا العكس .

وجاء الإدغام على غير القياس فى بعض هذه الحروف التى لها خصائص بارزة[٢] .

وجعل بعض العلماء ذلك الذى خرج عن القياس من باب إخفاء واختلاس

(١) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا لشادة ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) الممتع لابن عصفور ٢/٢٢٧ باب ما أدغمه القراء على غير القياس .

الحركة لا من الإدغام التام(١) حتى تتحقق القاعدة التى وضعها النحاة واللغويون ، ولا تخالف الأصول الموضوعة فى هذا الصدد .

وفى اللسان مناطق لإخراج الحروف هى :

١ — أقصى اللسان .

٢ — وسط اللسان .

٣ — طرف اللسان .

وسنتكلم عن حروف كل منها :

١ — حروف أقصى اللسان

القاف والكاف : مثل الحق كندة ، وانهك قطنا ـ مع تقدم القاف تارة والكاف تارة أخرى .

هنا البيان أحسن بإظهار كل من الصوتين دون إدغام لقربهما من الحلق فمخرجهما أقرب مخارج اللسان إليه فأشبهتا الخاء والغين .

والإدغام حسن أيضا ـ بأن ندغم القاف فى الكاف وفق القاعدة المشار إليها فيما سبق بإدغام الأدخل مخرجا فى الأقرب إلى الفم .

والإدغام هنا سائغ لأنهما من حروف اللسان ، والمخرجان متقاربان ، والصوتان متفقان فى الشدة .

٢ — حروف وسط اللسان

الجم : ندغم الجيم فى الشين ولا تدغم فيها الشين :

قال سيبويه : والشين لاتدغم فى الجيم لأن الشين استطال مخرجها لرخاوتها حتى اتصل بمخرج الطاء ، وفيها ـ أيضا ـ التفشى فكرهوا أن

(١) التيسير ص ٢٨ .

يدغموها فى الجيم وقد تدغم الجيم فيها ومن أمثلة ذلك : افرش جبلة[١] وأخرج شيئا وابعشيئا والإدغام والبيان حسنان :

الشين : مع الطاء والدال والتاء :

وإذا اجتمعت الشين مع هذه الحروف (الطاء والدال والتاء) فى كلمة أو كلمتين فالبيان عربى جيد[٢] ومن أمثلة ذلك فى القرآن الكريم : البطشة[٣] و (بالقسط شهداء)[٤] ولم يقرأ بالإدغام .

ويجوز إدغام الطاء والدال والتاء فى الشين بأن تنقل هذه الحروف إلى مخرج الشين حتى لا تضيع صفتا الاستطالة والتفشى الخاصتان بالشين .

فتقول ، فى : اضبط شيئا : اضبشيئا

وفى : انقد شيئا : انقشيئا

وفى : انعت شيئا : انعشيئا

الشين مع الظاء والذال والثاء :

إذا اجتمعت الشين مع هذه الحروف (الظاء والذال والثاء) فالبيان عربى جيد لبعد مخرج هذه الحروف ومخرج الشين .

ويجوز نقل هذه الحروف إلى مخرج الشين وإدغامها فيها فتقول فى : احفظ شنباء : احفشنباء .

وفى : خذ شنباء : خشنباء .

وفى : ابعث شنباء : ابعشنباء .

ولم تلتق الظاء والذال والثاء فى القرآن .

---

(١) الكتاب ٤/٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤/٤٤٦ .

(٣) سورة الدخان الآية ١٦ .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٥ .

٣ — حروف اللسان

(١) مايدغم بعضها فى بعض :

الطاء والدال والتاء :

تلتقى هذه الحروف بعضها مع بعض فيجوز الإظهار لأنها أصوات وإن اتحدت مخارجها مختلفة فى بعض الصفات كالاستعلاء والإطباق فى الطاء ، والاستفال فى التاء والدال ، وجهر الطاء والدال ، وهمس التاء .

ويثقل التكلم مع الإظهار لصعوبة الانتقال من المطبق إلى المستفل ومن المجهور إلى المهموس ، ولشدة هذه الحروف ، ولزوم اللسان موضعا واحدا لا يتجافى عنه ولذا جاز الإدغام .

فإذا التقت التاء والدال مع الطاء وكانت التاء والدال أولا فإنهما يصيران طاء ويدغمان فى الطاء هذا هو الأمر الطبيعى تقول فى : انعت طالبا . انعطالبا .

وفى : انقد طالبا : انقطالبا لأنك تقلب غير المطبق مطبقا وفى هذا زيادة لا إجحاف ، وإذا كانت الطاء أولا فالبيان أحسن ، لإبقاء الإطباق على حاله وعدم إذهابه .

وقد سمع عن بعض العرب فى هذه الحال إدغام المطبق فى غيره بإذهاب الإطباق حتى يجعل الطاء كالتاء والدال ومما أخلصت فيه الطاء تاء سماعا عن العرب قولهم فى : حططتم : حطتم ، وقولهم فى : انقط توأما : انقتوأما .

وآثر بعض العرب قلب الطاء دالا فقالوا فى : اضبط دلما : اضبدلما .

وفى كل ذلك إجحاف لأن المطبق أفشى فى السمع من غير المطبق فكيف تغلب التاء والدال على الطاء ، إلا أن إذهاب الإطباق مع الدال أمثل قليلا ، لأن الدال كالطاء فى الجهر والتاء مهموسة .

وهذا الإدغام عربى مسموع .

وإذا التقت التاء مع الدال أو العكس وأردت الإدغام جاز لك أن تدغم كل واحدة منهما فى صاحبتها حتى تصير التاء دالا والدال تاء لأنهما

من موضع واحد ، وهما شـــديدتان وليس بينهما شيء إلا الجهر والهمس وذلك كقولك فى : انعت دلما : انعد لما وفى : انقد تلك : انقتلك فتدغم .

ـ الظاء والذال والثاء :

ذا التقت هذه الحروف بعضها مع بعض جاز البيان لاتحاد المخرج والرخاوة .

ويجوز الإدغام .

فإذا تقدمت الظاء على الذال والثاء أدغمت الظاء فيهما لأنها كلها مجهورة ومن مخرج واحد ولا يفرق بين الظاء وأختيها إلا الإطباق فلك أن تدغم وتدع الإطباق أو تذهبه .

مثال إدغام الظاء فى الذال قولك فى احفظ ذلك . احفذ ذلك ومثال إدغامها فى الثاء قولك فى : احفظ ثابتا احفثابتا وإذا تقدمت الذال أو الثاء جاز لك إدغامهما فى الظاء ومن ذلك قولك فى خذ ظالما : خظالما ، وفى : ابعث ظالما : ابعظالما .

والإدغام فيهن أكثر وأجود لأن أصل الإدغام لحروف اللسان والفم ، وأكثر حروف اللسان من طرف اللسان وما يخالط طرفه .

وهذان النوعان من الحروف (ط ـ د ـ ط) ، (ظ ـ ذ ـ ث) يتبادلان الإدغام بعضها مع بعض ، لأنهن من حيز واحد وليس بينهن إلا مابين طرف الثنايا وأصولها .

فتقول فى : اهبط ظالما : اهبظالما وفى : ابعد ذلك : ابعذلك ، وفى : انعت ثابتا : انعثابتا .

ومن عكس ذلك قولك فى احفظ طالبا : احفطالبا ، وفى : خذ داود : خداود ، وفى ابعث تلك : ابعتلك .

(ب) مايدغم بعضها فى بعض ويدغم غيرها فيها :

ص ـ ز ـ س

إذا التقت هذه الحروف بعضها مع بعض جاز الإظهار لكونها من مخرج واحد وتختلف فى بعض الصفات فالصاد مطبقة والآخريان لهما صفة الاستفال والزاى مجهورة والآخريان مهموستان .

ويجوز الإدغام .

فإذا تقدمت الصاد جاز إدغامها فى الزاى والسين مع إذهاب الإطباق ، فتقول فى : افحص زردة : افحز زردة وفى : افحص سالما : افحسالما .

وإذهاب الإطباق مع السين أمثل قليلا لأنها مهموسة مثل الصاد وكله عربى .

وقد تدغم الزاى والسين فى الصاد — إذا تقدمتا عليها — كقولك فى : أوجز صابرا . أوجصابرا ، وفى : احبس صابرا : احبصابرا .

وهذا جائز(١) .

والصاد والزاى والسين إذا التقت مع (ط ـ د ـ ت) أو مع (ظ ـ ذ ـ ث) فإن هذه الحروف تدغم فى الصاد والزاى والسين لا العكس لأن هـــذه الأخيرة تشترك مع نوعى الحروف السابقة فى طرف اللسان والثنايا فالطاء وأختاها من أصل الثنايا والصاد والزاى والسين من أسفله قليلا مما بين الثنايا والظاء والذال والثاء من أطراف الثنايا والذى بينها وبين الصاد والزاى والسين من الثنيتين يسير وحفاظا على صفة الصفير التى تعد مزية لهذه الأصوات وأدغم غيرها فيها حتى لا تضيع هذه الصفة وتتلاشى .

فتدغم فيها الطاء والدال والتاء فتقول فى : اضبط زردة : اضبز زردة ، وفى : ذهبت سلمى : ذهبسلمى ، وفى : انعت صابرا : انعصابرا — كما سمع من العرب وقال ابن مقبل :

فكأنما اغتبقصبير غمامة بعرا تصفقه الرياح زلالا(٢)

وتدغم فيها الظاء والذال والثاء ، فتقول فى : احفظ سلمة : احفسلمة ،

---

(١) الكتاب ٤٦٠ — ٤٦٤ .

(٢) أصله ، اغتبقت ، والصبير ، ما تراكب من السحاب كأن بعضه يصبر بعضا أى يحبسه ، والعرا : مقصور العراء وهو الفضاء ، وصف امرأة بأن رضابها طيب .

وفى ، احفظ زردة : احفزردة ، وفى : ابعث سلة : ابعسلة ، وفى : خذ صابرا : خصابرا .

ويقول سيبويه : سمعناهم يقولون : مزمان (أصله مذزمان) فيدغمون الذال فى الزاى ، ويقولون : مساعة أى مذ ساعة فيدغمون الذال فى السين ، والبيان فى الذال أمثل .

(ح) الضاد لما للضاد من صفة الاستطالة والمخرج الخاص فإظهارها حسن .

ويجوز إدغام غيرها فيها لا العكس حتى لا تضيع صفتها وقد ورد مسموعا إدغام الطاء والدال والتاء فيها وكذلك الظاء والذال والثاء .

فالضاد تخالط مخارج الحروف التى فوق اللام قريبة من الأسنان وهى قريبة من الطاء وتشترك معها ومع الظاء فى الإطباق وتشترك مع الظاء وأخواتها فى الرخاوة .

فإذا تقدمت الطاء والدال والتاء على الضاد جاز إدغامها فى الضاد ومن ذلك قولك فى اضبط ضرمة : اضبضرمة ، وفى انعت ضرمة : انعضرمة .

وقال سيبويه : سمعنا من يوثق بعربيته قال :

ثار فضجضجة ركائبه[١]

ووقع هذا الإدغام مع الدال والتاء فى القرآن الكريم كقوله تعالى : فقد ضل[٢] ، وقوله سبحانه : والعاديات ضبحا[٣] .

وهذا الإدغام قوى لاستطالة الضاد وإطباقها .

وإذا تقدمت الظاء والذال والثاء جاز إدغامها فى الضاد ، ومن ذلك قولك فى : احفظ ضرمة : احفضرمة ، وفى : احفظ ضأنك : احفضأنك ، وفى : خذ ضرمة ، خضرمة ، وفى : انبذ ضغنك : انبضغنك ، وفى : ابعث ضرمة : ابعضرمة[٤] .

---

(١) أصله : فضجت ضجة ، نحر ركائبه للأضياف بسيفه ، فصرخت وصاحت . المقرب لابن عصفور ص ٧٣ .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٠٨ .

(٣) الآية ١ من سورة العاديات

(٤) انظر الكتاب ٤/٤٦٣ — ٤٦٥ .

ولم يقع فى القرآن من ذلك شىء فى الظاء والذال ، وجاء مع الثاء مثل قوله تعالى : حديث ضيف إبراهيم[١] .

(د) النون :

تدغم النون فى الميم لا العكس مثل امحى ، واماز لأن صوتهما واحد وهما مجهوران يخرجان من الخياشيم وبينهما صلة تجعلك تسمع النون كالميم ، والميم كالنون لا تدرك الفرق بينهما إلا بالتأمل والتبيين وإن كان المخرجان متباعدين .

وتدغم ـ كذلك ـ فى الراء واللام بغنة وبلاغنة مثل : من راشد ومن رأيت ، وهذا الإدغام بغنة لأن للنون صوتا من الخياشيم ، ومابعده ليس كذلك فتغلب الغنة ، ويمكن أن تجعله بلاغنة فتكون النون بمنزلة حروف اللسان .

وحين تدغم بغنة يتغير مجرى الهواء معها فلا يجر من الخياشيم بل يأخذ طريق الحرف الذى إدغمت فيه من الراء واللام ـ وكذلك الواو والياء حال إدغامها منهما ـ ويشرب صوت الفم غنة وتصير النون مثلهن فى كل شىء .

وللنون الساكنة حالات أخرى من الإخفاء والإقلاب والإظهار تدرس فى حكم النون الساكنة والتنوين مع مايليهما من الحروف[٢] .

ويمتنع الإدغام عند اللبس مثل شاة زنماء وغنم زنم وقنواء وقنية وكنية، ومنية إذ عند الإدغام يصير كأنه من المضاعف وعليه جاءت دنيا وقنوان وصنوان دون إدغام مما جاء فى كلمة واحدة محتملا للبس .

ولم تأت النون ساكنة قبل راء ولا لام،فى كلمة واحدة مثل : قنر ،وعنل، لأن ذلك إذا جاء دون إدغام فهو ثقيل لقرب المخارج ، وإذا جاء مدغما التبس بالمضاعف فذاك موضع قد تضاعف فيه الراء وقد أتت النون ساكنة قبل الواو والياء لبعد المخرجين فخف ذلك على اللسان[٣] .

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٤ .

(٢) الكتاب ٤/٤٥٢ – ٤٥٤ .   (٣) الكتاب ٤/٤٥٦ .

أمثال سورة النـــور

بقـــلم

أ. د/ محمد محمد أبو موسى

لاشك أن دراسة تشبيهات سورة من سور القرآن دراسة متأنية جديرة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات ، لأنها مادامت قد جرت فى سورة واحدة ، ذات سياق واحد فلابد أن تكون فيها جامعة تجمعها وهذه الجامعة قد تخفى وتدق ولكنها رقيقة ورائعة كهذه الطباع الخفية الحية التى تراها تجرى فى أبناء العشيرة الواحدة ، أو كهذه السيما والملامح الدقيقة التى تراها فى القوم يرجعون إلى أب واحد ، لأن كل رموز السورة وصيغها وصورها ترجع إلى مايشبه أن يكون أبا واحدا هو المحور الذى تدور حوله ، ولابد أن يكون فى كل هذه الصيغ وهذه الرموز وهذه الصور نفس واحد يجمعها ويؤلف بينها . ويجعلها (عائلة) واحدة ذات سيما وملامح متقاربة ، والبحث الواعى الفطن هو الذى يقع على هذا ، وهو قائم أيضا فى القصيدة كما هو قائم فى الديوان ، وقائم فى البقاع أعنى فى البيئة المكانية للأدب وكذلك فى البيئة الزمانية والحضارية إلى آخر هذا الأمر الذى لم نعطه إلى الآن حقه من العناية ومن الواجب أن نخصه بالدرس والاستنباط وأن نمنحه من الجد والدقة والروح العلمية مايجعل نتائجه أقرب إلى الإصابة والسداد ، وأبعد عن شوائب التعميم والتهويم المجازى الذى جرى فى كثير من الدراسات البلاغية والنقدية وأسقط كثيرا من نتائجها .

وهذه الدراسة لاتستطيع أن تصل إلى غاية المراد أو إلى مايقارب هذه الغاية وإنما تسعى فى جد ودأب وهى مقتنعة بأن اقتحام المخاطرة والسير فى

الطرق غير المعبدة باب عظيم النفع لأن خطأ السابق فيه يهدى إلى صواب اللاحق ولولا تقبلنا لأن نخطىء ماوضعنا أيدينا على صواب وإنى لأرضى أن أخطىء مائة مرة وأنا أبحث عن صواب واحد بشرط أن يكون عما لم يدرك بعد .

جاء التشبيه فى آيات ثلاثة فى سورة النور بدأ بقوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » (آية ٣٥) .

والتشبيه الثانى ، والثالث جاء متلاحقين يكشفان حقيقة واحدة هى أعمال الذين كفروا وقد جاء بعد المثل الأول بثلاث آيات قال تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » آية ٣٩ ، ٤٠ .

وهذه التشبيهات مبسوطة ومتنوعة يجد النظر فيها متقلبا ولهذا جعلناها موضوع هذا المقال ، مع أن السورة فيها تشبيهات أخرى ليست على هذا الحد من السعة والغزارة وإنما هو ربط أمر بأمر ربطا سريعا مثل قوله سبحانه « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » (آية ٦٣) .

ومثل قوله سبحانه « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته » آية ٥٩ وفيها تشبيهان

ومعرفة معانى هذه الألفاظ والصيغ الجارية فى هذه التشبيهات متوقفة على معرفة السياق الذى جرت فيه لأن السياق هو الجذر الذى أمدها بالحياة والأسرار

وهو الأرومة والمعدن الذي إليه يرد الأمر . والسياق هو موضوع سورة النور وهي من السور القرآنية التي يظهر فيها وحدة الموضوع ظهورا لا يلتبس لأنها تدور من أولها إلى آخرها حول تنظيم وتقنين الآداب الواجب توافرها في علاقات الرجال بالنساء ، وإلى أي مدى تجب مراعاة الحدود التي حددتها الشريعة حتى يظل تسلسل الوجود الإنساني الممثل لخلافة الله في الأرض والنابع من هذين الجنسين نابعا من منبع الطهر بعيدا عن الريبة واللبس ويظل الإنسان من بين الخليقة كلها مكرما بنسبه ومعرفة آبائه الذين ينتمي إليهم « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » (الأحزاب آية ٥) .

وهذا الجانب من حياة الجماعة بالغ الدقة والحذر ومظنة الظنون والريب، وقد تناولته السورة بشكل ظاهر وحاسم وحددت حدوده ، وأحلت حلاله، وحرمت حرامه ، وقد بدأت السورة بذروة المأساة حين تنهدم الحدود في هذا الأمر فذكرت أم خبائث هذا الشأن ووضعت حدها بصرامة وبسرعة عجيبة تأمل « الزانية والزاني فاجلدوا » .

وربطت القسوة على الخارج عن حدود الله بالإيمان بالله ، حتى لا يكون هنا مجال للمشاعر الكاذبة الناعمة ، وهذا رمي في وجوه حماة الخنا في المجتمع الإسلامي والذين يصفون الحدود بالغلظة والقسوة ومجافاة التحضر ، ثم تناولت السورة ما يلي هذه الجريمة الأم في سلسلة الآداب التي شرعتها وهو وضع الناس ألسنتهم في أعراض بعضهم ، وجعلت السورة الشريفة رمي الأعراض بهذه الجريمة من غير بينة في حجم فعلها فالزنى حده مائة والقذف حده ثمانون ، وكررت السورة خسيسة الرمي هذه في مواضع ثلاثة وبصيغة واحـــدة لتثبيت بشاعتها « والذين يرمون المحصنات » (آية ٤) « والذين يرمون أزواجهم » (آية ٦) « إن الذين يرمون الغافلات » (آية ١٣) وجعلت ذلك الخوض واللغو رميا لأنه يصيب مقاتل الأعراض كما تصيب السهام مقاتل الصيد ثم نحت السورة نحا رائعا بذكر حديث الإفك في هذا

السياق هذا اللمح هو بيان أن ألسنة أهل اللغو قد تصيب أعراضا طهرها كأنه من طهر السماء الذى لم تدنسه الأرض بآثامها ، ولمح آخر هو أن وضع الألسنة فى أعراض الناس باب فيه إغراء وتكاثر فيه غفلة أهل التقوى فتقع فيه ألسنتهم غافلين عن مقتضيات المعقول فى هذا الشأن تأمل قوله تعالى يخاطب الجيل الذى نزل فيه القرآن لما وضع الناس ألسنتهم فى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قال تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهن خيرا » . « لولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا » ثم مضى الحديث فى هذه السلسلة إلى شىء آخر هو آداب الاستئذان حتى لا تقع العيون على عورات الناس ثم غض البصر وطلب العفاف بالنكاح فإن لم يكن فى الوسع فبالصبر والاستعفاف والاستعصام حتى يغنيهم الله من فضله .

ثم جاءت آية التشبيه الأولى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » ...

وقد فصلت آية كريمة بين التشبيه وبين هذه الحدود وهذا التشريع وكانت بمثابة تلخيص لكل الذى مضى هذه الآية هى قوله تعالى « ولقد أنزلنا إليكم آيات بينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » (آية ٣٤) وقد ذكر المفسرون أن الآيات البينات هى هذه الحدود والموعظة قصة عائشة رضى الله عنها وقوله سبحانه فى شأنها « يعظكم الله أن تعودوا لمثله » .

وكان وصف هذه الحدود بأنها آيات أى علامات ظاهرة على طريق السلوك الإنسانى مقدمة لوصف شرع الله ونظامه وأنه نور السموات والأرض أى موضح لمعالم الحياة الإنسانية شارع لها طريقها ومنهاجها شرعا لايلتبس بها ، وقد قال على كرم الله وجهه فى بيان معنى « الله نور السموات والأرض » أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها به ، فالنور المضروب له المثل بالمشكاة إلى آخره وصف لشرع الله وحدوده

وحلاله وحرامه ، وقد جاء النور فى القرآن مثلا لهذا قال تعالى «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره» (الصف آية ٨) وإتمام النور هو تثبيت هذه العقيدة فى نفوس الصالحين من عباده تثبيتا يكونون به حماة لها حراسا على حياضها .

والمثل الذى هو مثل لشرع الله فى هذا الشأن الذى هو نظام علاقات الرجال بالنساء فى المجتمع الإسلامى جاء هكذا كمشكاة أى كوة ضيقة ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعل نورها أكثر توهجا والمشكاة فيها مصباح ، والمصباح فى زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب درى ، تأمل المتابعة والتداخل المؤذن بغاية التوهج وفرط النور وأن هذا المثل هو مثل شرع الله وأن ضوابط الشرع وحدوده تنشر الحق والعدل والمرحمة والنور حتى تصير حياة الناس مغمورة بفيض النور الذى ترى وكأن النور هنا طبقات ودوائر تدخل كل واحدة فى التى تليها ثم هو نبع لا يغيض يستمد توهجه من شجرة مباركة وأنه بهذا التداخل وهذا المدد المتدفق صالح لأن يمد حياة الإنسان طبقة بعد طبقة وطورا بعد طور مهما اتسعت وتداخلت وتعقدت ودخل بعضها فى بعض وكأن هذا التداخل فى وصف النور فيه لمح إلى أنها بسماتها وتداخلها هى مشكاة لحياة الإنسان فى أطوارها وبساطتها وتعقيدها ثم إذا التفت إلى السياق المحدد للسورة وهو تنظيم علاقات الرجال بالنساء فى دنيا المعاش المزاحمة بالمناكب رأيت حدود الله فى هذا الشأن هى الضمان الأكيد لبقاء هذا الجانب الدقيق فى بؤرة الضوء والطهر والبعد عن الريبة ، وهذه العلاقات حية ومعاشة فى كل ساعة ولذلك كانت عرضة للتغيير والتعديل والتحوير وشرع الله إنما وضع لها ثوابت وحدودا لا تحول هذه الثوابت والحدود بين هذه العلاقات وبين التطور الحى المستنير بل تضمن لها هذه الحدود سلامة التطور والرقى النقى السديد . لأن الخطوط العامة كأنها حصون حامية تأمل غض البصر ، وعدم إبداء الزينة ، والحسم فى العقوبات ، وطهارة اللسان عن الخوض

فى الأعراض إلى آخر الآداب المذكورة نجد هذا حين يتأصل فى حياة الناس و يصير قيما ثابتة يفيض على الحياة فى هذا الجانب النور الساطع الذى لا خداع فيه ولا مواربة ولا كذب على النفس .

ثم جاء التشبيه الثانى يصف الوجه المقابل لهـذا الوجه يصف الحياة التى تهمل هذه الحدود وتنطفىء فيها هـذه المعالم المشرقة ، وتعيش خارج دائرة التدين .

قال سبحانه : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » حياة الإنسان فى دائرة التدين تضيئها مصابيح توقد من شجرة مباركة لا ينضب معينها يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار يعنى هـــو صفو الصفو وخالص الخالص ، والإنسان فى هذا المحيط آمن يعرف طريقه لا يضل ولا يخدع ولا تذهب نفسه بددا إذا ألمت به العواصف النكباء ، وإنما هو حاضر فى الحياة بقلبه وعقله وعطائه حتى يمضى على طريقه الواضح المستنير بخطوات واعيـة محكمة .

وفى المقابل تأتى ممارسات الحياة الإنسانية المقطوعة عن الوحى فتوصف بأنها سراب ، وضلال ، وخداع ، وأن الروح معها تعيش فى غربة متقطعة ، ظامئة إلى ما يروى غلتها ، ولكن العناد والكفر يحرق هذه الروح بظمئها ، والتشبيه يصور الحالة فى صورة سراب يركض من ورائه الإنسان الظامىء ، والسراب هنا هو صالح أعمال الذين كفروا كالإحسان وصلة الأرحام ، ومعونة المحتاج ، وإذا كان هذا سرابا فغيره من أعمال الذين كفروا من باب أولى ، وهذا يعنى أن السلوك الإنسانى فى هذا الجانب الأخلاقى والاجتماعى الحيوى من حياة الإنسان لا بد أن يكون موصولا بالإيمان بالله ومخافته ماضيا على ما شرع الله يحل حلاله ويحرم حرامه وهذا هو النور .

وإذا كانت أعمال الذين كفروا سرابا فأعمال الذين آمنوا نور يسعى بين

يديهم وبأيمانهم لأنهم حصلوها بنور الشريعة ، وقد قال العلماء إن نور الذين آمنوا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم لأنهم يتسلمون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين فالنور هو أعمالهم ولك أن تتأمل التداخل بين النور الذي هو نور الله والنور الذي هو أعمال المؤمنين ثم تأمل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » والمشي هو كل ما تعالجه من شئون الحياة ، يعني الممارسات اليومية بدءاً من حركة الخواطر داخل النفس وانتهاء بكل ما يعالجه الناس ملوكا وسوقة حتى الكلمة تخطها الأنامل على الورق فهناك كاتب جعل الله له نورا يكتب به فيكتب الحق والصدق والكلمة الطيبة وهناك كاتب لم يجعل الله له نوراً يمشي به لأنه قطع صلته بالله وسقط في الزيف والنفاق والكذب والزور ، خدعه عقله في ذلك أو خدع هو عقله فيه ، وهذا هو السراب الذي إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الحقيقة الغراء التي عاش حياته يروغ منها « فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

وفي هذا المثل لمح آخر هو أن ركض الظامىء وراء السراب في الصحراء الحارقة المتوقدة يصف قصة الحياة المقطوعة عن الله ترى الإنسان فيها تائها ظامئا لأن الفطرة في داخله تدعو إلى الله ثم هو مخدوع وراء سراب من الأباطيل والفلسفات وخدع العقول وضلال الحكمة تحرقه رمضاء هذا كله وهو تائه عن النبع الذي يروي والذي أنبطه الله في قلب أبينا الأول ، وجعلها وصاة في عقبه من بعده أن أقيموا الدين .

وشيء آخر يلتفت إليه في هذا التشبيه وهو أن ذكر الماء والظامي تكرر في هذا السياق يعني وصف الذين كفروا وتوجههم إلى غير الله سبحانه وأنهم حينما ينصرفون عن الله الذي له دعوة الحق إلى غير الله يكون مثلهم كمن يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه قال سبحانه في سورة الرعد « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه » آية ١٤ .

تأمل الصورة تجد ظامئا كالذى فى سورة النور وهو هناك يجرى وراء سراب بقيعة وهنا على شاطىء نهر وهذا فارق كبير ثم إن مطلوبه هنا وهو الماء بين يديه ولكنه لم يحكم الوسيلة التى تمكنه من الانتفاع بالماء فهو يبسط كفيه أى يوسع بين أصابعه كما قال المفسرون ليبلغ الماء بذلك فاه وهذا خطأ لأن الماء يغترف باليد ، وبسط اليدين إلى الماء إشارة إلى الخطأ فى طريقة النظر ومنهج التعقل والتدبر والتذكر الذى أمرنا الله به وجعل سداده واستقامته طريقا إلى الإيمان واليقين .

والصورة المكانيه هناك صحراء قيعه لا حياة فيها وإنما فيها ركض وراء الوهم ، والصورة المكانية هنا شاطىء نهر والمثـال المذكور باسط يده إليه .

وصورة السراب الذى يحسبه الظمآن ماء قريبة من صورة جاءت فى سورة إبراهيم عليه السلام مثلا لأعمال الذين كفروا ، قال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » آية والجامع بين الصورتين هو خلو كل منهما من الماء وفى هذه الصورة الرماد المحترق والذى تذهب به الريح فى مهابها فى يوم عاصف ، وتأمل صياغة الكلام تأمل حرف التعدية (اشتدت به) ولم يقل اشتدت عليه ليؤذن باقتلاعه وإثارته ، واهاجته ثم تأمل إسناد العصف إلى اليوم والأصل أن يسند إلى الريح ، وأحكم دلالة إسناد الحدث إلى مائه وهو باب يبلغ من أبواب المجاز ، الصورة هنا مركزة على الأعمال وتبددها وضياعها واحتراقها ، وأما صاحب الأعمال فلا وجود له إلا فى التعقيب على الصورة فى قوله تعالى « لا يقدرون مما كسبوا على شىء » .

وهو تعقيب حكيم لأن كلمة (لا يقدرون) فيها محاولة واستنفار أقصى الطاقة لتبلغ القدرة مبلغا يصل بها إلى اقتناص ما كسبت ثم إخلادهم إلى التسليم والعجز ، وهذا وصف خفى للهول الذى لا يحاط به ، وهذا التشبيه

الذى يلخص ويكثف حالة الضياع للشىء المرجو نفعه فى وقت الحاجة إلى الانتفاع به جاء مغروسا فى موضعه من السورة كما يغرس العضو من أعضاء الإنسان فى موضعه الذى هو فيه ، بيان ذلك أن هذا التشبيه جاء متمما لوصف عذاب صاحب العمل وقد وصف القرآن ذلك وصفا يخلع القلب تأمل : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ... » تأمل اللغة والصور التى وراء اللغة . تأمل قوله « وخاب كل جبار عنيد » وكيف أسقطت هذه الكلمات صروح الطواغيت فى مستنقع الخيبة والضياع ، ثم تأمل هذه الصورة الصارخة « ويسقى من ماء صديد » وكيف دل البناء للمجهول على أن هناك سقاة غلاظا يعالجون سقيه وهو كاره رافض وهم يصبون فى فمه ماء الصديد صبا بعد معالجة ، ثم تأمل قوله « ويأتيه الموت من كل مكان » والمراد أسباب الموت ولكن العبارة جعلت الموت جيشا يقتحم بحشوده يحيط بهذا البائس التعس وقوله من « كل مكان » يعنى أشباح الموت المخيفة المفزعة قد تزاحمت بها جنبات الأرض من حوله .

هذا تحليل لمساحة لغوية محدودة قبل التشبيه، وجاء التشبيه امتدادا لخيوط ونسج اللغة والمعانى والأحوال التى وصفها هذا الحيز اللغوى المحدود الذى يبناه ، وبيان الامتداد والاتساق ظاهر لأن مقتضى المعقول أن يفكر هذا المعذب الذى يسقى من ماء صديد فى أى أمل يخرجه مما هو فيه ، ومن الطبيعى أن يذكر صالح أعماله التى تخفف عنه بعض البلوى ، وقد جاء وصف الأعمال بالرماد ليبين المدى الذى صارت إليه أعمـــاله من الاحتراق والتبديد والضياع .

ولا يمكن أن يوضع تشبيه سورة النور هنا ، لا يمكن أن يكون الكلام فى سورة إبراهيم بعد عرض حالة هذا الذى يأتيه من كل مكان وماهو بميت هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، وذلك لأمر ظاهر هو أن كل تشبيه

إنما هو امتداد للأنسجة اللغوية التى صاغت السياق كله . وهذا يعنى ضروبا من الانساق الخفى المكين ، فصاحب الأعمال فى سورة النور حى طليق يركض وراء السراب ، وهذا متلائم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك فى جانب حيوى من جوانب الحياة فليس هنا موت ولا عذاب فى جهنم وإنما هنا حياة فسيحة متسعة وفريق من الناس يستضىء بنور الشريعة التى هى كمشكاة فيها مصباح إلى آخره ، وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة فضل فى أوهام الفكر وسراديب الضلال ، ولهذا كان وجود صاحب الأعمال فى المثل حيا يسعى سعيه ويركض جهده أمرا طبيعيا .

وفى سورة إبراهيم « كرما واشتدت به الريح فى يوم عاصف » بنى المثل على العناية بالأعمال وأغفل صاحبها أليس له وجود وذلك لأن صاحب الأعمال انقطع عنها بموته وهو بين الزبانية يسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه فكيف يكون راكضا وراء السراب ؟!

وهذه لمحة سريعة تدل على ماتريده بقولنا إن التشبيه من حيث لغته ، وصوره ، ولونه ، وطبعه ، امتداد الأحوال الجارية فى السورة لأنه جزء منها يجرى فيه مايجرى فيها ، بل هو جزء من كل له طبع واحد وفيه ماء واحد فلابد أن تكون العلاقات بمثابة الشرايين الجارية فى الجسد أو الدم الجارى فى الشرايين فكما لا يكون الدم الجارى فى بعض أجزاء الجسد من فصيلة مخالفة للدم الجارى فى البعض الآخر كذلك لاتكون الأنسجة اللغوية والصور النفسية والرموز المعنوية الجارية فى التشبيه معزولة عن الحركة اللغوية العامة الجارية فى السورة كلها أو القصيدة كلها .

ثم ننتقل إلى المثل الثانى فى بيان أعمال الذين كفروا فى سورة النور وهو قوله سبحانه : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

وقد جاء هذا المثل رادفا للمثل الأول كسراب بقيعة وهو من الباب الذى ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه وهو قليل فى القرآن كثير فى الشعر الجاهلى ، وخاصة فى الصور المتسعة المتحركة فى أوصاف الناقة أو حمار الوحش أو غير ذلك ترى الشاعر يقول بعد الفراغ من تشبيه أفتلك أم وحشية مسبوعة ، وما يشبه ذلك مما تراه فيه يبدأ فى تشبيه آخر ، كذلك الحال فى سورة النور جاء المثلان هكذا «حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى».

وكما أننا لم نوف تشبيهات الجاهليين حقها كذلك لم نوف تشبيهات القرآن حقها يعنى لم نجب عن أول الأسئلة وأقربها فى هـــذا الباب وهو مامقصود الشاعر من هذا الانتقال ؟ وأى فرق بين الصورتين ؟ وأى معنى فى الثانى ليس فى الأول ؟ هذه الأسئلة القريبة لم نجب عليها فى أى قصيدة فى الشعر الجاهلى ، نعم أجاب المفسرون عن بعض هذه الأسئلة فى تحليل تشبيهات القرآن ، وقالوا أنه يكون انتقالا من البليغ إلى الأبلغ ، وهذه إجابة سديده وإن كانت قائمة على التعميم والتشبيه فى الحقيقة انتقال من البليغ إلى الأبلغ والتعميم فى هذا نفسه لأننا نريد أن نعرف البليغ والأبلغ معرفه محددة فنقول مثلا إن هذا التشبيه الأول كشف عن كذا والتشبيه الثانى كشف عن كذا وهذا الثانى فيه ماليس فى الأول وهو كذا ولهذا كان أبلغ ، وذلك لم يحدث ، كما أننا لم نحلل رموز التشبيهات ولمحاتها اللغوية وأنساقها الخفية ، ولندع هذا ولننظر فى التشبيه ونقول من غير تواضع أننا عاجزون عن الوصول إلى حاق القول فى هذا الشأن وإنما نطمح فى أكثر مما نستطيع أو نحاول فنخطىء ليحاول غيرنا فيصيب .

وأول مايدوقك فى هذا التشبيه أنه قابل الذى قبله مقابلة ظاهرة من حيث العناصر المكونة للصورة فالذى قبله صحراء مستوية (قيعة) يرتفع فيها الآل ، وهذا بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، هذا

فى البر وذاك فى البحر والبر فى الأول خراب ليس فيه إلا الصحراء وأهوالها فلا زرع ولا ضرع ولا حياة والبحر فى الثانى ليس فيه إلا مكونات البحار موج فوق موج فوقه سحاب ، والبر الخرب هناك ليس فيه إلا الإنسان الظامى الذى يركض وراء الوهم ، والبحر هنا ظلمات مطبقة لحسب ، وهذا للفارق مما يتبادر إلى الذهن من غير تأمل .

ثم إن هذا التشبيه الثانى بينه وبين التشبيه الأول « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المقابلة التى بينه وبين السراب . ولكنها مقابلة من حيث النور والظلمة فالأول نور على نور ، والثانى ظلمات بعضها فوق بعض ، وشىء آخر هو تقارب البناء اللغوى فى المثلين فقد احتشد المثل الأول لبيان وهج النور فذكر مشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة ، واحتشد المثل الثانى لتداخل الظلمات وأطباقها وتكاثفها حاذيا فى الصياغة حذو الأول تأمل « يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » ثم أن كل صورة من الصورتين لها مدد بعدها ولا ينضب ففى الأولى شجرة مباركة يوقد منها ، وفى الثانية سحاب مطبق فوق موج من تحته موج فى بحر لجى . وكما قال هناك أيضا يهدى الله لنوره من يشاء . قال هنا « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » . وهذه روابط أسلوبية لا تهمل وكأنها ضرب من التلاحم أو التناغى بين المثلين . وقد ترى هذا التشابه يتجاوز الأمثال إلى السورة كلها فلا تخلو سورة من سور القرآن من هذا الضرب من التناغى والتقارب فى الصيغ والكلمات ونذكر فى هذا المقام بالصيغ المكررة فى مثل والذين يرمون المحصنات وما بنيت عليه سورة مريم من قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب » فقد تكررت مع كل قصة وكيف كان هذا متسقا مع مطلعها « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » إلى آخر هذا الباب الحافل بالبلاغة العالية والتى لا تزال هاجعة فى أوصال الكلام الرفيع ، وندع هذا لنقول إن هذه الروابط الاسلوبية بين المثلين لا يجوز لنا أن نهمل إدراكها واستخراجها

والإشارة إليها ، وهذا متوقف على ضرب من التدقيق اللازم فى القراءة ، ثم إن الوقوف عند إدراكه والإشارة إليه تقصير لا يحمد وذلك لأنه لابد من تفسير ذلك واستخراج سره وهذا لا يتأتى إلا بمزيد من الفقه والاجتهاد وهو مما تختلف فيه الأفهام ودلالته هنا أن المثلين من باب واحد يتناولان حقيقة واحدة من جهتيها المتقابلتين الإيمان والكفر ، فالمشكاة مثل أعمال المؤمنين الواقعة على الوجه الشرعى والظلمات مثل أعمـــال الكافرين غير الموصولة بالله، وهذه الظلمات التى فوقها ظلمات هى العالم البهيمى الذى تدخله البشرية حين تنقطع صلتها بالله ، وبمقدار ما فى عالم الظلمات هذا من وحشة وغدر تجد العالم الذى تدخله البشرية آخذه بشرع الله نورا ساطعا يجعل كل ما فى الحياة إشراقة ضياء تفيض من كوكب درى يوقد من شجرة مباركة .

وشىء أخير فى هذين المثلين هو أنهما بمثابة تلخيص وتصوير لمعان جرت فى القرآن كثيرا تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات والإيمان والوحى بالنور فالمؤمنون يخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور ، وأصحاب الجبت والطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات والرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسله ربه داعيا بإذنه وسراجا منيرا وهكذا تجد هاتين الكلمتين فى القرآن تدوران حول هذين الأصلين .

وليس فى القرآن تشبيه حشد كل هذه الظلمات وكل هذه الأمواج وكل هذه السحب فى صورة واحدة إلا هذا التشبيه ، وليس فى الشعر الجاهلى صورة تقارب هذه الصورة من حيث كثافة الظلمات والسحب رغم ما فى الشعر الجاهلى من روائع فى وصف المطر ، بل إن هذه الصورة أشبه بصور الشمال الأوربى ولذلك عقب عليها مالك بن نبى رحمه الله وذكر أنها قاطعة فى أن القرآن ليس من كلام محمد صلوات الله عليه لأن من عاش فى جزيرة العرب لا يستطيع خياله نسج هذه التصوير .

وهذا المثل له رجع وصدى فى موضع آخر من السورة الشريفة فقد جاء

بعد ذلك بآية واحدة قوله تعالى « ألم ترى أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد» وهذا من جنس المثل الذى معنا تأمل يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وتأمل « مشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة » تجد الكلام بنى على حذو واحد وكأنه من عشيرة واحدة وقد وجدت مثل هذا كثيرا فى قصائد الشعر حتى كأن كل قصيدة بنية واحدة متميزة تجرى فيها هذه التشابهات فى نسج الكلام وهذا من أسرار الفن وخفايا الصنعة فيه ومرجعه إلى امتداد نسج لغوى واحد فى السورة كلها وكأن إيقاع الكلمات إنما وقعت وتتابعت على خيوط واحدة ، ولاشك أن آية «ألم ترأن الله يزجى سحابا» امتداد طبيعى لآية أو كظلمات فى بحر لجى وكأنه نمو الكائن الحى ، وقد زاد هنا جبال الثلج التى لا وجود لها فى أرث بيان العربية التى نزل بها القرآن وتكلم بها النبى صلى الله عليه وسلم وكأن هذا حين يتقابل مع (سراب بقيعه) مؤذن بجمع أطراف الدنيا من أقصى شمالها وربط ذلك بالصحراء التى انفجرت من صخورها ينابيع النور »

وهذه العناصر التى هى الماء والظلمات وما يتعلق بها من أمواج وسحاب ورعد وبرق جاءت فى سورة البقرة تشبيها ثانيا متصلا بتشبيه أول على طريقة أو كظلمات فى بحر لجى .. وذلك مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » التشبيه الثانى هنا قريب جدا من التشبيه الثانى فى سورة النور ، فالظلمات التى فى الصيب قريبة من ظلمات البحر اللجى وإن كانت الصورة فى النور قد تواترت فيها الكلمات والجمل لتصوير جبال من الظلمات بعضها فوق

بعض من غير أن يكون فى داخل هذه الظلمات إنسان يعالج كروبها ، والصورة فى البقرة تنوعت عناصرها فهناك الصيب والظلمات والرعد والبرق وفى داخل هذا كله إنسان مكروب يعانى هذه الأهوال بل إنه هو قطب الرحى فى الصورة ، والمنوال الذى نسجت عليه الصورة بكل عناصرها وخواطرها ورموزها ، ويقول المفسرين فى تفسير أو كصيب إن التقدير أو كذوى صيب لأن المشبه به هو الإنسان الذى هذا حاله كما جاء فى التشبيه الأول « كمثل الذى استوقد نارا » .

تأمل كلمات تشبيه سورة البقرة : يجعلون .. أصابعهم .. آذانهم .. أبصارهم .. هم .. مشوا .. عليهم .. قاموا .. سمعهم .. تجد الضمير العائد على الجماعة الإنسانية الضالة منبثا فى الكلام كله والأحداث والأحوال منسوجة عليه ، وليس الأمر كذلك فى سورة النور لأن المثل هنا مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والمثل هناك أعمال الذين كفروا .

والتشبيه السابق فى سورة البقرة « مثل الذى استوقد نارا .. ليس فيه ماء ولا سحاب وإنما عقد المثل على صورة رجل يبحث عن الضوء ويكدح تأمل كلمة (استوقد) فلما أمكنه أن يستخرج مايضىء به ذهبت يد الله التى لا تغالب بهذا الضوء وأطبقت الظلمات حول هذا المخذول .

وهذا المثل هو المقابل للسراب يحسبه الظمآن ماء فى سورة النور والفرق هو أن المثل هنا يدور حول الإنسان والمثل هناك يدور حول السراب .

ويلاحظ أن هناك إيماضات من النور فى أمثال سورة البقرة نجد هذا فى قوله (فلما أضاءت ماحوله) وفى قوله سبحانه « كلما أضاء لهم مشوا فيه » ليس شىء من هذا فى سورة النور وهذه الإشارات دالة على أن الذين اشتروا الضلاله بالهدى أدركوا الهدى وأضاء لهم ولكنهم ابتاعوا الضلالة وآثروها وقد ذكر المفسرون أن الاشتراء هنا مجاز عن الاختيار والاختيار لا يأتى

إلا بالمعرفة فالذين اختاروا الضلالة وآثروها على الهدى لاشك أنهم عرفوا الهدى وإلا فلا يصح أن يكون اختيارا ، والهدى الذى أدركوه كان إيماضا سرعان مايغوص فى أعماق ظلمات الضلال والعناد .

والمثل الثانى فى سورة البقرة أبلغ من المثل الأول كما قال الزمخشرى ولا حرج علينا حين نقول إن فى القرآن بليغ وأبلغ لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز ، وإن كان البعض يرى أن الاختلاف فى ظهور البلاغة يعنى أنها فى بعض الآيات أظهر منها فى البعض الآخر أما البلاغة فهى فى الكل على حد واحد لا تفاوت فيها ، وفى المسألة كلام آخر والمهم أننا نرى فى المثل الثانى مزيدا من التنوع والغزارة فى العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال ونرى المثل بهذا أفسح مدى من المثل الأول .

تأمل المحيط الذى تتحرك فيه الأحداث تجد الصيب والظلمات والرعد والبرق وخطف الأبصار ثم تأمل الاشارات اللغوية ذات الدلالات المتسمة على الأحوال النفسية تأمل يجعلون أصابعهم والأصل أناملهم وقد دل هذا على أن القوم انخلعت قلوبهم وطاشت من هول المخافة لأنهم صاروا فى فم الموت ثم تأمل كلمة الخطف وما فيها من حدة وشراسة وقسوة ، وتأمل كلما أضاء لهم مشوا ، وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعا من الضوء ليفلتوا من هول الهلاك وهكذا .

أما المثل الأول فليس فيه إلا المستوقد وحالته المخذولة من حيث تراه يكدح حتى يستخرج نارا أى نار تقطع هذه الوحشة المطبقة على النفس حتى إذا أضاءت ماحوله وآنه الهدى ضربه الخذلان وذهب الله بهذا النور وبقى مغروسا فى جوف الظلمات ، وهنا إشارة لماحة فى إسناد الذهاب بالنور إلى الله الرحيم الرحمن هذه الإشارة هى فيض الخذلان الذى أصابه وما آل إليه من ضلال وفساد وجفوة . حتى إن الله سبحانه الذى وسع كل شىء

رحمة وعلما يذهب بنورهم ويتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتتنوع وتتفق وتختلف .

والمثل الثانى فى سورة النور : ظلمات فى بحر لجى إلى آخره تصوير لأعمال الفجور والفسوق والغدر وماهو من هذا الباب وليس فى المثل ما يدل على أن لهم فيها مطمعا فى الآخرة بخلاف السراب فإنه نوع من الأمل وإن كان وهما ولهذا قلنا إنه مثل لأعمال البر كصلة القربى والإحسان .

وهذا سر اختلاف المثلين فيما ترى وكذلك اختلف المثلان فى سورة البقرة وقد ضرب لجماعة واحدة هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ويبدو أن المثل الأول تصوير لضلالة أهل الضلالة حين لا يخوضون صراعا مع الحق وأهله يعنى تصويرا لضلالهم فى أنفسهم من غير أن تحتشد هذه النفوس لمواجهة الحق ، والمثل الثانى تصوير لضلالتهم وقد خاضوا المواجهة مع أهل الحق ، وهذه الحركة وتلك الأحداث وهذا الصراع القائم بينهم وبين الطبيعة (الصيب والظلمات والرعد والبرق الذى يخطف أبصارهم) رمز لهذا الصراع الذى يخوضونه مع أهل الحق ولا تجد شيئا من هذا فى المثل الأول وإنما تجد رجلا يستوقد نارا ثم تنطفىء ويبقى فى ظلماته من غير أن يكون حوله رعد وبرق يخطف أبصاره ، ومن غير أن ينخلع قلبه من هول المخافة فيضع أصابعه فى أذنه وهكذا .

وأذكر بما قلته من أننا نحاول فنخطىء ليحاول غيرنا فيصيب وأرجوا أن يغفر الله لنا بهذا القصد ما يقع فيه من فساد الرأى ولإنما غايتنا أن تحرك العقول نحو هذا الباب الزاخر بالبلاغة العالية والتى لا تزال فى أكمامها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن يتبعهم بإحسان ؟

من أسرار الحذف فى بعض آيات القرآن الكريم

بقلم
د / فتحى أحمد إسماعيل حسن
مدرس فى قسم البلاغة والنقد

تقديم :

الذكر والحذف من أحوال الكلام التى لا يخلو منها بحال ، فقد يذكر المتكلم جميع أجزاء الكلام غير منقوصة ، إذا اقتضى المقام ذلك ، وكان فى الذكر فائدة تعود على المعنى والمخاطب كتثبيت المعنى وتأكيده فى ذهن مستقبله ، عند ذاك لا يسأل عن سبب الذكر لأنه جاء على أصل تركيب الكلام ، أما إذا كان فى سياق الكلام من القرائن والأدلة مايغنى عن ذكر بعض أجزائه ، فالحذف آنئذ بلاغة يبحث عن أسراره ودقائقه ، والوقوف على جليل المعانى التى ظهرت من خلال حبك الكلام وتصفية عباراته عن طريق حذف بعض أجزائه .

ويبين الشيخ عبد القاهر الجرجانى أهمية هذا المبحث فى الكلام فيقول :

« هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بيانا إذا لم تبن »[1] ...

(١) دلائل الإعجاز /١٤٦ . ط . الخانجى تحقيق محمود شاكر .

فإذا ما أحسن المتكلم تخير مقاماته ، وسوقه فى مجالاته ، أتى بالعجب العجاب ، من البيان الساحر ، والمعانى الفياضة واستخرج الكنوز من غير مظانها فى ظاهر الأمر ، والأشياء من نقائضها وها نحن نعرض من القرآن صورا ، ترى فيها ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وعدم النطق أشد إعرابا من النطق ، والسكوت عن البيان أتم من البيان وهى :

حذف الحرف

الحرف نوعان :

الأول : هو جزء الكلمة ومتمم لبنيتها الأساسية ومكمل لصورتها النهائية وذلك النوع يطوى تحته جميع الكلمات العربية وما تحويه من حروف.

والثانى : هو الحرف النائب عن الفعل وفاعله ، وذلك مثل حروف النفى والعطف والنهى والاستثناء والتوكيد والاستفهام ، والنداء ، إلخ وهى حروف المعانى .

فعندما نقول مثلا : ماقام زيد فالمعنى : أنفى قيام زيد ، وعندما أقول حضر محمد وعلى ، فالمعنى : أعطف حضور على حضور محمد ، وقولنا : لاتفعل كذا ، معناه : أنهاك عن فعل كذا ، وقولنا : جاء القوم إلا زيدا ، تقديره : استثنى زيداً ، قولنا : هل حضر محمد ؟ معناه : استفهم عن حضور محمد ... وقولنا : يامحمد ، معناه أدعو محمدا .. الخ .

فهذا النوع من الحروف مختصر عن الفعل والفاعل — كما رأينا — ولو حذف من الكلام لأدى ذلك إلى الإجحاف به ، لأن المختصر لا يختصر وكما قالوا : المصغر لا يصغر ، إلا إذا صح التوجه إليه ، وكان معناه ملحوظا لقوة الدلالة عليه ، فحينئذ يجوز حذفه من اللفظ ، إذا كان المقام يطلب هذا

الحذف ويرقى به الكلام ، حينئذ يكون الحذف بلاغة للمعنى ، وثقة بفهم السامع أو القارىء بالإحالة إلى عقله وذكائه ، وخاصة إذا كان فى الحذف من الدلالات ، والإشارات ما لا يوجد أولا يلحظ بسهولة مع ذكر المحذوف .

ومثل هذا المعنى يتحقق عند حذف بعض حروف الكلمة الأصلية — غير حروف المعانى — إذا أفاد الحذف مالا يستفاد عند الذكر .

ونسوق فى هذا المقام آيات قرآنية وقع فيها حذف لبعض حروفها ، لنقف على ما يوحى به هذا الحذف من بعض أسرار التراكيب فى الذكر الحكيم .

وهذا النوع من الحذف نجده نادرا فى دراسات البلاغيين وكتاباتهم ، إذ لم يلتفت إليه الكثرة الكاثرة منهم ، ولم يفردوه بدراسة خاصة ، لأن طبيعته لا تخضع لقواعد وأسس ثابتة ، ولكنها إشارات وقبسات يدركها العقل الذكى من سياق الكلام ووحى الألفاظ ومعطيات المقام ، وتقوم على الحذر التام من الانسياق وراء فكرة شاردة ، أو استنباط متعجل يأخذ المعنى إلى بعد سحيق ، فيحمل العبارات مالا تطيق مما يقع فى الاوهام وتتخيله العقول .

وهى إشارات يجب على المشتغل بأسرار اللغة وبلاغتها أن ينبه إليها ، وهذا التنبيه لا يصدر من فراغ ، ولا هو بدع من القول ، بل هو جمع لشتات مسائل هذا الباب المتناثرة فى ثنايا كتب التفسير ، وأقوال العلماء السابقين ، واللاحقين والمعاصرين ، ففى كلامهم إشارات تمس الجانب البلاغى فى هذا النوع من الحذف .

وعلى فطنة القارىء — أو السامع — ودقة حسه معول كبير فى سلوك هذا الدرب الوعر من الدراسات البلاغية[1] .

---

(١) خصائص التراكيب ص ١١٢ بتصرف .

١ — فمن حذف الحرف مانجده فى قول الله تعالى :

(يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين)
سورة يوسف آية ٢٩. حيث حذف حرف النداء . والتقدير : يا يوسف .

ومن أسرار حذف الحرف هنا أن المنادى - بفتح الدال - قريب من المنادى - بكسرها - فطبيعة هذا الحديث هى المسارة التى تقترب من الهمس، فقام الكلام وسياقه أغنى عن ذكر المحذوف،فجاءت العبارة مصفاة موجزة، دلالة على المراد أبلغ دلالة ، « وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بيانا إذا لم تبن »(١) .

فهذا الحذف حقق أول أغراضه وهو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، وفيه تقريب المنادى وملاطفة له، وإشاعة جو الإيناس والاطمئنان حوله حتى يصغى إلى مايقال ويأنس به ، خاصة وأن من يلاطفه صاحب سلطان وولاية عليه - فى ذلك الحين - وهذا أمر نادر من الملوك وأصحاب القيادة والسلطان مع أتباعهم وملحقيهم،وهذا يجعل هؤلاء الأتباع منشرحى الصدور ، فيقع القول لديهم موقع القبول التام ولاسيما إذا كانوا من أصحاب النفوس الكريمة والهمم العالية ، والمروءات النادرة والحلم وسعة الصدور والعفو الجميل كيوسف عليه السلام .

كما أن الموقف كان بالغ الحرج ، فالأمر متعلق بالعرض والشرف ، وسمعة بيت الرئاسة ، وهيبة الملك ، فيحتاج إلى الحكمة والتريث والملاطفة ، وتقريب طرفى الخصومة ، حتى يمكن الإحاطة بهذا الأمر الشائن ، وحصره داخل نطاق محدود لايتعدى جدران البيت الذى حدثت فيه تلك المحاولة - المراودة - ، والأفراد أبطال هذه الواقعة .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٦

كان هذا أملا يراود العزيز وصاحبه من هـــذا التصرف اللطيف مع يوسف عليه السلام حتى لايذاع الأمر ، وتزلزل أركان هذا البيت، ولكن أنى لهم ذلك وهيهات هيهات ، فأحاديث العشق والغرام تنفذ إلى الآذان كما ينفذ الهواء إلى الصدور، ويصبح للجدران آذان تصغى وعيون ترى ،وألسنة تذيع مايدور وراءها ، وخاصة هذه الجدران العالية ، وهذا المستوى الراق من الخلائق الذين لاتشغلهم ضرورات الحياة فينقبون عن أشياء يقطعون بها مللهم ويقضون بتسليتها أوقاتهم ، وما أنسب مثل هذه الأحاديث لمثل هذه الطبقات من الناس .

وهذا ما أشار إليه الزمخشرى فى تفسير الآية بقوله :

« (يوسف) حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث ومنه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هـــذا) الأمر واكتمه ، ولا تحدث به . . »[1] .

وهو ما أوضحه صاحب خصائص التراكيب أيما إيضاح بقوله :

« أراد بقوله : (يوسف أعرض عن هذا) أكتم هذا الأمر ولاتتحدث به صيانة لعرضنا وشرفنا فى قومنا ، ثم قال لامرأته : (استغفرى لذنبك) وكان رجلا حليما ، وقيل كان قليل الغيرة ، والشاهد حذف حرف النداء ، وله هنا رمز لطيف ، وكأنه يهمس بهذا الخبر فى أذن يوسف محاذرا أن يسمعه أحد ، ثم فيه تقريب وملاطفة ليوسف عليه السلام ، وإيماء خفى بأن الخبر كله يجب أن يضمر فى السرائر ، وألا يجرى به لسان »[2] .

ومن أسرار الحذف أيضا فى هذه الآية ، أن الجملة تحمل فى طياتها دليلا قوياً آخر على براءة يوسف عليه السلام من التهمة الظالمة التى أرادت أن تلصقها به امرأة العزيز ، فالهمس والتقريب والملاطفة ، والرجاء المكلل

---

(١) الكشاف ٢/٣١٥ .   (٢) خصائص التراكيب ص ١١٥ .

بالاسترحام بأن يكتم يوسف هـذا الأمر ويعرض عنه ، لم يكن ليحدث. لولم يكن يوسف عليه السلام بريئا وظهرت دلائل واضحة على بياض صفحته وسلامة طويته ، وعلى ترفعه عن هذا الدرك المهين، وإذلال النفس وإرغامها في مهوى الرذيلة السحيق ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لكان الحديث جهراً والصوت عاليا ، ولاقتيد يوسف عليه السلام مكبلا بالقيود، ومجللا بالفضائح على رؤس الأشهاد ، ولنفذ فيه حكم يناسب الجرم ، ويرد الاعتبار لأهل البيت بما يناسب مكانهم ومكانتهم .

وهكذا يكون أسلوب القرآن المعجز الذى لاتنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد .

٢ — ومن شواهد حذف الحرف قوله تعالى :

« قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » سورة يوسف آية ٨٥ .

وأصل الكلام : « لا تفتؤ تذكر يوسف » .

والدليل على أن فى الكلام حرفا محذوفا هو جواب القسم «تفتؤ» الخالى من التأكيد لأن جواب القسم يؤكد إذا كان مثبتا ، ويترك التأكيد فى حالة النفى ، فخلو الجواب من التأكيد دليل على الاعتبار بحرف النفى المحذوف.

ويعلق ابن أبى الأصبع على هذه الآية فى باب ائتلاف اللفظ مع المعنى(١) مبينا أن الله سبحانة أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى الألفاظ الأخرى الأكثر دورانا واستعمالا عند الكافة ، مثل : والله ، وبالله ، كما أن الفعل المجاور للقسم أغرب صيغ الأفعال فى بابه ـ وهو باب كان وأخواتها ـ فكان وبقية أخواتها أكثر استعمالا من « تفتؤ » هذه وأعرف عند الناس ، وحتى يتم سياق الغرابة والوحشة أتى بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك وهو لفظ

(١) تحرير التحبير ص ١٩٥ .

« الحرض » ، وهذا كله مناسب المقام الذي يمتلىء بالوحشة والجفوة والأثرة، وغريب المطالب ، فما أغرب ولا أعجب من أن يطلب من والد أن ينسى فلذة كبده ، وقطعة منه - بل هي أغلاها وأنفسها عنده - وهي ولده الحبيب الذي لا يعرف حقيقة مصيره فلا هو حي فيطمئن عليـــه ، ولا هو ميت حقيقة فيستريح من عناء الفكر فيه ، فليس في الوجود أغرب ولا أعجب ولا أنكر من هذا الذي يريدونه من أبيهم وحذف حرف النفي - وهو خلاف الأصل - يأتي متلائما مع هذا السياق الغريب ، ويرمز في خفاء إلى حاجتهم ، وهي نسيان يوسف وإبعاده من قلب أبيهم ، الذي ضاق بهم ، وتولى عنهم من أجل يوسف »(١) .

٣ ـــ ومن شواهد حذف الحرف قوله تعالى :

« قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » سورة الكهف آية ٦٤ .

قراءة الجمهور « نبغ » بحذف الياء في حالتي الوقف والوصل .

وأثبتها ابن كثير في الحالتين ، وحذفها نافع وأبو عمرو والكسائي في الوقف وأثبتوها في الوصل .

وقراءة الحذف لهذا الحرف يكمن وراءها سر بلاغي يعود على المعنى المستفاد من سياق الكلام .

فسياق الأحداث يفيد أن موسى عليه السلام وفتاه خرجا للبحث عن العبد الصالح وهو الخضر الموقوف منه على بعض أسرار علم الله عز وجل الذي علمه إياه كما أوحى الله إلى موسى بذلك ، وجعل لهما علامة ذلك أن يفقدا الحوت الذي أعداه لغدائهما ، فنسياه عند بلوغهما مجمع البحرين ، ولم يتذكراه إلا بعـــد إحساسهما بالجوع وحاجتهما إلى الطعام ، فتذكر الفتى أنه نسي الحوت بجوار صخرة عند مجمع البحرين .

---

(١) خصائص التراكيب ص ١١٤ - ١١٥ . أ . د / محمد أبو موسى .

وكانت هذه أمنية موسى عليه السلام التى تمنى أن يظفر بها ، وخرج من أجلها مشتاقا متلهفا ، فعندما أخبره الفتى أسرع بالعودة لتوه ، ولم يضيع وقتا فى الحوار والجدل مع فتاه ، فكانت غايته أن يصل بسرعة إلى مكان الصخرة ، وتم له ما أراد فى أسرع وقت .

وقد جاء التعبير القرآنى الدال على هذا متطابقاً مع هذه الغاية ودالا عليها أوضح دلالة ، فجاء العطف بالفاء «فارتدا» الدالة على التعقيب وسرعة ملاحقة مابعدها لما قبلها زمانا وإحداثا .

ثم جاء الحذف لحرف الياء من كلمة « نبغ » وإسقاطه من اللفظ ليدل على اختصار المسافة ، والدلالة على أنه لسرعة رجوعهما كأن المسافة أسقطت لهما إسقاطا ، ولم يقطعاها سعيا .

وقد أشار العلامة الجمل فى حاشيته على تفسير الجلالين إشارة لطيفة إلى سبب الحذف فقال : « وإنما حذفت تشبيها بالفواصل »(١) .

فقد كانت هذه الجملة فاصلا بين حالتين من أحوال موسى وفتاه ، حالة البحث الجاد عن العبد الصالح ، وحالة العثور على أمارات وجوده ، والمسارعة إلى الوصول للأمل المنشود ، حتى إنه لم يعد لديه وقت لإتمام الكلام ، كمن أخبر بمقـــدم حبيب غائب غيبة طويلة فى الطريق فيترك كل ما فى يده ويسرع لملاقاته ، فلا يتكلم الناس حوله إلا رمزا ، ولا يمشى على الأرض إلا قفزا .

فدلت فواصل الألفاظ على فواصل المعانى لتحقق الفائدة المذكورة ، ويؤيد ماقلناه ، ويؤكده أيضا أن فى هذه الكلمة - نبغ - حذفا آخر وهو حذف صلة الموصول ، لأن « ما » موصولة حذف عائدها والتقدير : ذلك ماكنا نبغيه ، وأرى أن الحذفين تكاتفا فى إبراز المعنى المأخوذ من

(١) الفتوحات الإلهية ٣/٣٤ - ٣٥ .

سياق الكلام ، وهو إثبات سرعة الارتداد خوفا من ضياع الفرصة أو بعد الوصول إليها .

ولله در العلامة الجمل - أيضا - فقد أشار إلى هذا المعنى عندما قال عن سبب حذف الياء من « نبغ » :

« وإنما حذفت تشبيها بالفواصل ، أو لأن الحذف يأنس بالحذف ، فإن «ما» موصولة حذف عائدها »(١) .

٤ — ومن هذا النوع من الحذف ما نجده فى قوله تعالى :

« ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون » سورة الزخرف آية ٧٧ .

قرأ سيدنا عبد الله بن مسعود « يامال » بحذف الكاف للترخيم .

وإذا كان ترخيم الكلام يدل على رفاهية المتكلم أحيانا ، وعلى رقة الحديث أحيانا ، وعلى التدلل على المخاطب أحيانا - الأمر الذى دعا سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن يقول عندما سمع بقراءة ابن مسعود : « ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم » - إلا أنه - أى الترخيم - يأتى أحيانا ليدل على شدة الهول ، وضيق الصدر ، مما يصعب معه على المتكلم أن يكمل الكلمات فيقتطع بعضها ، ليدل بهذا الحذف على يأسه وانقطاع أمله وخيبة رجائه فى تحصيل أمنيته .

هـذا فحوى الجواب على اعتراض ابن عباس على قراءة ابن مسعود - رضى الله عنه - .

وإنما حسن هذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا فى الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها(٢) .

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣٤/٣ - ٣٥ .

(٢) التفسير الكبير للرازى ٢٢٨/٢٧ ، والكشاف ٤٩٦/٣ .

وهم لشدة ماهم فيه عجزوا عن إتمام الكلام ، وهذا توجيه بلاغى جيد القراءة من قراءات القرآن الكريم المتعددة ، وقد كمن فيها من الأسرار والدقائق مالا ينجلى فى غيرها بوضوح إلا بعد تعمق فى الفهم ونظر متدبر .

وهو ما نستشفه من القراءة المتواترة ؛ فالدعاء على أنفسهم بالهلاك — « ليقض علينا ربك » — يدل على ضيق الصدور ، ويأس تام من الخلاص من هذا العذاب ، فالمركوز فى الطباع أن الإنسان الحى لايدعو على نفسه بالهلاك إلا إذا كان العيش نكدا ، وكانت حياته مصدر أذى دائم ، وألم لا ينقطع ، وعذاب أليم ، عند ذلك يتمنى الموت حتى يستريح ، وهذا لن يتحقق لأهل النار حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

فهذا المعنى الذى أوضحناه مأخوذ من طبيعة الجمل المعبر بها فى هذا السياق أما فى القراءة موضع الاستشهاد لحذف الحرف هو الذى كشف ستر هذا المعنى وقربه ، وأقام الدليل اللفظى عليه ، لينضم إلى المعنى المستفاد من الجملة الدعائية — « ليقض علينا ربك » — فتلتقى القراءتان فى تأكيد المعنى المراد وإفهامه للمخاطبين ، إحداهما أفادته بالحذف والأخرى أفادته بالإثبات . وهذا من وجوه الإعجاز فى النظم الكريم ، ومن خصائص أسلوب القرآن الحكيم ، التى لايشاركه فيها غيره ، ولاعجب فى ذلك فهو تنزيل من حكيم حميد .

٥ — ومنه قول الله تعالى :

« وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » المطففين آية ٣ .

فالضمير فى « كالوهم أو وزنوهم » يرجع إلى الناس ، وهو منصوب ، وفى نصبه وجهان ، إما بنزع الخافض . والأصل : كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل .

وأما على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والأصل : كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم .

والحذف على الوجه الأول ملحظ هام وسر بلاغي يكمن وراءه ، فحذف اللام الجارة هنا وتعدي الفعل إلى المفعول ـ المجرور أصلا ـ يرمز في دقة إلى شيئين :

أولا : ـ أن هؤلاء القوم ـ المطففين ـ قد تعدوا حدود حقهم إلى سلب حقوق الغير ، وأن هذا التعدي أصبح عادة مألوفة لهم إلى حد أنهم لا يجدون فيها غضاضة ولا إنكارا من أحد لإلفهم هذا العمل واشتهارهم به ، واكتفى الناس بإضمار السخط ، وطي الإنكار في قلوبهم ، لعدم فائدة إظهاره مع من عميت بصائرهم ، وطمست معالم الحق في قلوبهم واستولى عليهم الطمع والجشع المهلكان ، حتى يخيل إلى من يراهم أنهم يكادون أن يضعوا الناس في كفاف الموازين وأواني الكيل ، دل على هذا تعدى الفعل « كال » إلى المفعول بنفسه وحذف حرف الجر ، ولا سيما إذا علمنا أن هذا الفعل يكون متعديا ولازما ، وتوجيه كونه لازما متعـــديا بحرف جر محذوف ليدل على ماقدمنا .

ويؤيد هذا توجيه التعبير بـ « على » مكان « من » في الآية السابقة « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون » ، فقد قيل فيه : « لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ، ويتحامل فيه عليهم ، أبدل « على » مكان « من » للدلالة على ذلك(١) .

فإذا كان الضرر واقعا منهم عندما يأخذون ، فهم عندما يعطون أشد إضرارا وأذى المتعاملين معهم .

ثانياً : الحذف هنا يشير إسقاط جزء من الحق ، والمحذوف هنا جزء

---

(١) الكشاف ٤/٢٣٠ .

أصيل فى الكلام ، وكذلك الساقط فى التعامل - المحذوف - والمأخوذ غبنا جزء أصيل من حق صاحبه .

والخلاصة : أن إسقاط الحرف الذى هو حق الفعل وحق الكلام ، متناسق مع إسقاط الحق الذى عبرت عنه الآية ، وتعدية الفعل بغير الوسيلة اللغوية المألوفة - المشروعة - يشير إلى تعدية القوم حدود الشرع المألوف ، ووصول أيديهم إلى مايجب أن تكف عنه ، كالفعل الذى وصل ظالما إلى مايجب ألا يصل إليه إلا بالطريق المألوف .

من أسرار حذف المضاف :

فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : « وآتنا ماوعدتنا على رسلك . . . » الآية ١٩٤ وقوله تعالى فى سورة الأعراف : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم . . » الآية ٦٣ فى الآيتين مضاف محذوف وتقدير أصل الكلام : على لسان رسلك فى الأولى ، على لسان رجل منكم فى الثانية ، فحذف المضاف « لسان » فى كل منهما وهذا الحذف له غرض بلاغى اقتضاه معنى الكلام وتمام الفائدة وتربيتها ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا أن منهج الله مهمة صعبة يحملها رسله ، ومشاق تبليغ هذا المنهج لا تقف عند البلاغ بلسان الرسول ، ولكن متاعب حمل الرسالة ومشاقها تشمل كل حياة الرسول - لسانه ويديه ورجليه ، وعقله وخواطره وكل جوارحه ، ليله ونهاره ، حله وترحاله ، ماله ومتاعه ، حربه وسلمه ، رضاه وغضبه ، ... الخ بمعنى أن الرسول يكون تطبيقاً شاملا لمنهج رسالته بدقة وأمانة وإخلاص وتضحية وبذل ، يصدق هذا ماروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن ، أى أنه يتخلق بمنهج رسالته بما يستتبعه من متاعب ومشاق ، وهذا توجيه حى لكل صاحب دعوة خير وإصلاح أن يتقلدها أولا ويطبق مبادئها على نفسه ثم يدعو غيره إليها فيستجاب له آنذاك .

والله سبحانه وتعالى حينما يختار رسولا ، لا يختار شخصا ليدلله على رقاب الناس ولكنه يختاره لمهمة شاقة متعبـــة ، فكل الرسل عاشوا على الكفاف ، وكانت حياتهم بعيدة عن أي نوع من أنواع الترف والرفاهية ، ولذلك لم يقل الحق: على لسان رجل منكم ، ولا على لسان رسلك، لأن المسألة ليست بلاغا باللسان ولكنها دعوة تشمل حياة الرسول كلها في كل لحظة من عمره ، وكل حركة أو سكون وكل لحظ أو لفظ(١) « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »(٢) .

وهكذا نجد أن الحذف هنا وقع موقعه الصائب ونبه على أشياء بينها لم تكن لتتضح وتبين لو ذكر المحذوف « لله در القائل في بيان الحذف :

« .. فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر . والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن(٣) » .

حذف المسند

ومنه قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » التوبة آية ٦ .

في هذه الآية الكريمة حذف المسند من قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ... » ، والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين. فالفعل المحذوف — أو المضمر — يفسره المذكور .

أو يكون التقدير : وإن طلب أحد من المشركين أن تجيره من القتل إلى أن يسمع كلام الله فأجره ، وقد تعين حذف الفعل هنا لأن « إن » الجازمة

---

(١) من خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي اللواء الإسلامي العدد (٣٤٥) ص ١٢ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ٤٠٩ هـ — بتصرف .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٠ . (٣) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

الشرطية تختص بالدخول على الأفعال ـ المذكورة أو المقدر ذكرها ـ فهى الدليل على حذف الفعل بعدها .

ولبيان الغرض من حذف المسند لابد من عرض سياق الكلام فى هذا الموطن يقول الإمام الرازى فى تقرير هذا الكلام :

« .. إنه تعالى لما أوجب ـ بعد انسلاخ الأشهر الحرم ـ قتل المشركين دل ذلك على أن حجة الله قد قامت عليهم ، وأن ماذكره الرسول قبل ذلك من أنواع الدلائل البينات كفى فى إزاحة عذرهم وعلتهم ، وذلك يقتضى أن أحدا من المشركين لو طلب الدليل والحجة لا يلتفت إليه ، بل يطالب إما بالإسلام وإما بالقتل ، فلما كان هذا الكلام واقعا فى القلب لا جرم ذكر الله هذه الآية إزالة لهذه الشبهة ، والمقصود منه بيان أن الكافر إذا جاء طالبا للحجة والدليل ، أو جاء طالبا استماع القرآن ، فإنه يجب إمهاله ، ويحرم قتله ، ويجب إيصاله إلى مأمنه ، وهذا يدل على أن المقصود من شرع القتل قبول الدين والإقرار بالتوحيد ، ويدل أيضا على أن النظر فى دين الله أعلى المقامات وأعلى الدرجات ، فإن الكافر الذى صار دمه مهدرا لما أظهر من نفسه كونه طالبا للنظر والاستدلال ، زال ذلك الإهدار ، ووجب على الرسول أن يبلغه مأمنه (١) .

ولما كان ظاهر الأمر يقتضى إباحة دم المشركين بعد انقضاء الأشهر الأربعة وكان الذى يهم أى واحد منهم ـ أى من المشركين ـ الحفاظ على حياته وصون دمه عن الإهدار ، اقتضى المقام أن يطوى الفعل ، ويتقدم الفاعل على المفسر رعاية لهذا المعنى ، وكما قال سيبويه : إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ومعنى هذا : أن إبراز الفاعل عاريا من الفعل بعد أداة ليس احتضان هذا الفاعل من شأنها ، فيه إشارة إلى أنك يا محمد عليك أن تقبل

---

(١) التفسير الكبير ١٥/٢٣٥ .

إجارته وأن تضمه إلى جناحك ، وهو سالم آمن ، مع أن الشأن ألا يضم مثله إلى جناحك لكفره وعناده ، ولكن مادام استجار فاقبل هذه الإجارة ، متغاضيا عن أصل القاعدة التى هى إهدار دمه .

والخلاصة :

أن الكلمة « إن » جاورت الاسم وما كان لها أن تجاوره ، وقبلته فى حيزها وهى سيدة الجملة ومعقد نظامها ، وكان الشأن فيها ألا تقبله إلا بعيدا عن جنابها مفصولا بينه وبينها ، وهذا الحال ليس بعيدا عن المعنى المقصود ، لأن المراد هو أن يدخل هذا المستجير فى حيزك يا محمد وهو آمن ، وكان الشأن فيه ألا يدخل فى هذا الحيز ، لأن قاعدته إهدار دمه ، وإنما طلبه الإجارة أخرجه من القاعدة .

ومن أسرار الحذف هنا أيضا المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ ، إذ لو قال وإن استجارك أحد من المشركين فأجره ، لفصل بين الاستجارة والأمر بقبولها (فأجره) بفاصل هو (أحد المشركين) ، والمطلوب أن يكون الجواب عقب الإجارة بلا ريث (استجارك فأجره) وللفاء هنا موقع جليل إذ وصلت الفعلين وهما طلب المشرك أن يجار وقبول الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الجوار وجعلتهما كأنهما فعل واحد .

وهكذا نجد أن حذف المسند هنا « استجارك » أعطى من الأسرار مالم يكن يظهر لولا هذا الحذف ، وصدق من قال عنه : « .. فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين »[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٦ .

وقد يقع المسند صدراً لجملة تكون صلة فيحذف مع المسند إليه والاسم الموصول ، أو تكون صفة لنكرة موصوفة فتحـــذف جملة الوصف مع الموصوف ، ومنه قوله تعالى :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . . . » آل عمران آية ١٣٣ ، فى الكلام حذف وتقديره وسارعوا إلى مايوجب مغفرة من ربكم .

فلا شك أن المسارعة إلى المغفرة لا تكون مباشرة إليها . بل إلى سببها ، فهى مسببة عن هذا السبب المحذوف ، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات التى تؤدى إلى مغفرة من الله تفضلا منه على عباده .

وتقدير المحذوف بأنه مايوجب مغفرة - بحذف المسند والمسند إليه - ليس معناه إلزام الله - سبحانه - بهذه المغفرة ، لأنه لا يجب عليه شىء إلا تفضلا منه ونعمة ورحمة بعباده ، ولكن معنى الوجوب هنا هو التلازم والارتباط بين الأسباب والمسببات ، فالمغفرة سببها فعل الطاعات وترك الموبقات ، فإذا مافعل العباد هذا استحقوا المغفرة من الله والفوز بجنته تفضلا منه وإنعاما فهو سبحانه إن عفا فبمحض الفضل وإن عاقب فبمحض العدل . « ولا يظلم ربك أحدا » الكهف آية ٤٩ .

ومن أغراض الحذف هنا أنه يدعو إلى الفور ويمنع التراخى فى فعل مايوجب هذه المغفرة وفيه إغراء المخاطبين وحث لهم على تحصيل ماينفعهم ويوصلهم إلى رضوان الله عز وجل فهم فى الحقيقة لا يسارعون إلى أفعال الخير التى توجب المغفرة ، بل هم يسارعون إلى المغفرة نفسها عندما يفعلون مايوجبها ، وفى هذا إدخال للطمأنينة فى قلوبهم بأن ثمرة عملهم مضمونة ومرجوة لشدة ارتباطها بعملهم هذا ولأنها نتيجة طبيعية له .

وفى هذا الحذف غرض آخر هو إعمال العقل والفكر فى تحديد المحذوف والمراد منه ولذلك أوله المفسرون بتأويلات كثيرة منها :

أن المراد به الإسلام ، وهو رأى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ووجهته أنه نكر المغفرة والتنكير هنا يفيد التعظيم المتناهى فى المقام، وليس ذلك إلا المغفرة التى سببها الإسلام .

وقيل : هو أداء الفرائض ، وهو مروى عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ووجهه أن اللفظ مطلق فيجب أن يعم الكل .

وقيل . هو الإخلاص لأنه المقصود من جميع العبادات فبدونه لا يصح أية عبادة وهو رأى سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ... » البينة آية ٥ .

وقيل : هو الهجرة ، وقيل : الجهاد ، وقيل : الصلوات الخمس ، وقال عكرمة : هى جميع الطاعات ، وقيل : هى التوبة من الربا والذنوب ووجهه : أن الله نهى أولا عن الربا فى الآيات قبلها « ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » آل عمران آية ١٣٠ .

ثم نهى عن الذنوب وأمر بطاعة الله ورسوله فى كل شىء « واتقوا النار التى أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » آل عمران آية ١٣١ ، ١٣٢ .

ثم قال : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم »(١) .

فهذه الأقوال وغيرها ، كانت وليدة إعمال الفكر فى تحديد المراد بهذا المحذوف ـ سواء كان صدر صلة أو صدر جملة صفة ـ وفى ذلك إثراء للفكر وإذكاء للعقل، لم يكن ليحدث لولا ورود النظم الكريم على هذه الصورة الرائعة.

ويمكن أن يكون المحذوف من هذه الجملة المجرور المضاف ، ويكون التقدير : وسارعوا إلى أسباب مغفرة من ربكم ، وهى الطاعات أيضا ، ويقال فيه ما قيل فى الوجه السابق من بعض أغراض الحذف التى ذكرناها .

(١) التفسير الكبير ٩/٥ .

حذف المسند إليه

المسند إليه ركن أساسى من أركان الجملة ـ فعلية كانت أو اسمية ـ التى لاتقوم إلا به ، ولا يسقط منها بحال من الأحوال إلا إذ دل عليه دليل ، وقامت قرينة تدل على مكانه ، لأنه إما أن يكون فاعلا ، أو مبتدأ ، وكلاهما يكون نصف جملته .

ومع أهمية هذا الركن من الجملة إلا أنه تعترى الكلام أحوال وملابسات يكون حذف هذا الجزء أبلغ من ذكره وأدل على المعنى وتحقيق الغرض المطلوب من سياق الكلام وبنائه .

وفى موضوع بحثنا نجد أن حذف المسند إليه فى بعض آيات القرآن الكريم له أسرار بلاغية ودلالات معنوية هامة تظهر بعض لمحاتها فى دراسة الآيات الآتية :

١ — فى قوله تعالى : « فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين .... » . الأعراف آية ١١٩ ـ ١٢٠ حذف المسند إليه ـ الفاعل ـ من قوله : « فغلبوا هنالك » وبنى الفعل للمجهول ، لأن الغرض الأساسى الذى يهم السامع أن يعرفه ، بعد ماسمع جو هذا التحدى الخطير لموسى عليه السلام واجتماع الملأ من قوم فرعون . والسحرة الواثقين من سحرهم وتأثيره ، حتى إنهم طلبوا أجرا على تغلبهم وتفوقهم « أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين » الشعراء آية ٤١ .

ومن فرط ثقتهم خولوا موسى عليه السلام أن يختار من يبدأ بإلقاء ما معه . « قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .... » . الأعراف آية ١١٥ .

فيعيد الكرة عليهم ويطلب منهم أن يلقوا أولا ثقة بعونة الله وتأييده ،

« قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » الأعراف آية ١١٦ .

بعد هذا كله من الجمع الحاشد من الملأ والسحرة وأدوات سحرهم الكثيرة، والتحدى الخطير لموسى عليه السلام ، والتأييد الكبير من فرعون لجنده والوعـــد بمكافأة سخية فى حالة الفوز ، فى مواجهة موسى ، الذى يلاقيهم بمفرده - كما يظهر لهم - ليس معه إلا عصا واحدة لم يخطر على بالهم أن تصنع شيئا أو تصمد فى مواجهة سحرهم العظيم .

كان المتوقع - فى ظاهر الحال - أن تكون هزيمة موسى مؤكدة لاجدال فيها ، والنصر الساحق للسحرة وأدواتهم ، وأنه سيكون يوما مشهودا لهم ، ولكن حدث مالم يكن متوقعا ولا فى حسبانهم ، وكانت النتيجة مفاجأة لم تخطر لهم على بال فاختفت حبالهم وعصيهم وذهبت إلى المجهول فى بطن العصا ، وهوى صرح هؤلاء القوم الذى بنى على خيالات وأوهام .

فكان الغرض الأول من هذه الجملة منصبا على بيان أن السحرة غلبوا ، وعلى إبطال سحرهم الذى كانوا فيه مشاهير .

وفى هذا التعبير القرآنى - أيضا - إشارة إلى أن موسى عليه السلام ليس هو الغالب لهم فى الحقيقة ، وإنما الغالب لهم قوة هائلة خفيت عن إدراكهم أيدت موسى عليه الســـلام وجعلت العصا اليابسة حية تسعى تلقف ما يأفكون عندما ألقاها موسى على جمعهم ، ولو أنه قال : فغلبهم موسى ، لكان نصا على غلبة موسى عليه السلام لهم ، وأن له فعلا مؤثرا غلب به ، وليس كذلك ، فإن سيدنا موسى عليه السلام أوجس خيفة فى نفسه لما رأى حبالهم وعصيهم وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى[1] ، « قال بل ألقوا

---

(١) خصائص التراكيب ص ١٣٢ .

فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . . . » طه ٦٦ - ٦٨ .

وفى قوله تعالى : « وألقى السحرة ساجدين » .

حذف منه المسند إليه وبنى الفعل للمجهول ، وقد قيل فى الغرض من هذا الحذف إنه « للإشارة إلى السرعة الفائقة فى وقوع الحدث ، وتصوير أن قوة مجهول استلبت عنادهم وكفرهم فخروا فى ساحة الحق ساجدين »(١) .

وهذا التوجيه هو ما أشار إليه الزمخشرى عند تفسير هذه الآية بقوله : (« وخروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم ، وقيل لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا »(٢) .

وهذا التفسير تعززه نظرة اعتزالية ـ وقد كان جار الله من المعتزلة وهى الفرقة الإسلامية التى تنسب أفعال العباد الاختيارية إلى العباد أنفسهم وتقول بخلقهم لهذه الأفعال ـ ولذلك قال : « كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم » ، فالتشبيه أفاد تصوير فعلهم الصادر منهم فى شدة وسرعة بفعل من ألقاه غيره فى قوة وسرعة فلم يتمالك نفسه فواضح أن الغرض من هذا التشبيه هو التصوير الدقيق لهذا العمل السريع الصادر منهم .

بيد أن هناك تأويلا آخر لا ينسب هذا الفعل إليهم ، بل ينسبه إلى الله عز وجل ، احتجت به جماعة أهل السنة ـ وهى الجماعة التى تنسب جميع أعمال العباد إلى الله عز وجل سواء منها الاضطرارية أو الاختيارية وللعباد من أعمالهم الاختيارية الكسب فقط ـ ولذلك يقول الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية « احتج أصحابنا بقوله تعالى : « وألقى السحرة ساجدين » قالوا : دلت الآية على أن غيرهم ألقاهم ساجدين ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ، فهذا

(١) السابق نفسه .

(٢) الكشاف ٢/١٠٢

يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، قال تعـالى ، قال مقاتل : ألقاهم الله تعالى ساجدين »[١] .

وكأنى بهم ينظرون إلى قول الله تعـالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض المـاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » هود/ ٤٤ .

فـكما أنه ليس هناك فاعل لهـــذه الأمور الهائلة إلا الله فـكذلك هنا لا يوجد فاعل لهذا الخرور السريع إلا الله عز وجل ، ويثاب السحرة على ثمرة هذا العمل ونتائجه وهو ما يسمونه بالـكسب فعلى هذا التأويل ليس هنا تصوير ، لـكنه تعبير عن الواقع تعبيرا حقيقيا ، وحذف الفاعل هنا للعلم الجازم به حيث لا يقدر على هذا الفعل إلا الله تعالى الذى استلب منهم الـكفر والعناد بقدرته فخروا فى ساحة الحق ساجدين مستسلمين لدلائل قوته القاهرة وسلطان الحق الواضح غير مبالين بمـا يحدث لهم بعد ذلك بعد أن ذاقوا حلاوة اليقين ورأوا نور الحقيقة الساطع .

فانظر كيف أثار حذف الفاعل هنا هـذا الفيض من البحث والدرس واختلاف وجهات النظر والتأويل ، وبنيت على كل وجهة مبادىء وأفـكار تمسك بها معتنقوها وليس هذا إلا لأسلوب القرآن الـكريم الذى لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .

والخلاصة أن الحذف على مذهب أهل السنة حذف حقيقى للفاعل المعلوم وهو الله عز وجل وعلى مذهب المعتزلة حذف تخييلى . لأن السحرة ـ على هذا المذهب ـ ألقوا أنفسهم إلا أنهم لشدة الإلقاء وسرعته كان ملقيا ألقاهم .

٢ ـ فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض

---

(١) التفسير الـكبير ١٤/ ٢١٤ ـ ٢١٥ .

الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين .. » هود / ٤٤ .

جاء الإخبار فى هذه الآية على طريق حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول لأغراض بلاغية استدعاها المقام ، وكانت موضع بحث علماء البلاغة قديما وحديثا ، فهى شاهد أصيل وقاسم مشترك بينهم فى شواهد حذف المسند إليه.

ويمكن أن نستخلص مما ذكروه فى سر الحذف فيها ما يلى :

(أ) الدلالة على الجلال والكبرياء وعلى القوة القاهرة التى لا تدانيها قوة ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، ومكون قاهر(١) .

لأن السماء على علوها واتساعها . والأرض على عمقها وطبقاتها وأرجائها ، وهذا الماء الكثير الذى ملأ الدنيا كلها ، وإبعاد الظالمين العتاه من ساحة الرضوان والقبول والقرب من الله عز وجل ، كل هذه أمور عظيمة . وهى مع هذه العظمة رهن إشارة الحق وطوع إرادته وأمره فهى أسرع إلى تنفيذ مراده من البرق الخاطف ، فمع بدء القول تكون سرعة التنفيذ والامتثال .

ولا شك أنه لا يقدر على هذا إلا من بيده ملكوت السموات والأرض ذو العظمة والجلال ، وهو الله عز وجل .

(ب) الدلالة على وحدانية الله عز وجل ، المطلقة ، حيث لا يشارك أحد فى أفعاله فهو المؤثر الواحد ، فبناء هذه الأفعال للمفعول دل على (أن فاعلها واحد لا يشارك فى أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » ، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل

---

(١) الكشاف ٢/٢٧١ بتصرف

غيره ، ولا أن تستوى السفينة على متن الجودى ، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره)[١] .

(جـ) الدلالة على اختصاصه جل شأنه بهذه الأعمال الجليلة ، والإشارة إلى قوة ظهور الفاعل ، وفى هذا يقول الرازى :

(.. قوله : « وقيل » وذلك لأن هـذا يدل على أنه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة بحيث أنه متى قيل : « قيل » لم ينصرف العقل إلا إليـه ، ولم يتوجه الفـكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو ، وهذا تنبيه من هـذا الوجه على أنه تقرر فى العقول أنه لا حاكم فى العالمين ، ولا يتصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى إلا هو)[٢] حقا عندما تسمع صيغ هذه الأفعال فى مثل هذه المقامات لا يسبق إلى الوهم أحد على أنه الفاعل إلا المختص بها وحده ، وهو الله عز وجل ، فلا يتصور أن يقوم أحد غيره بعظائم هذه الأمور .

أما قوله تعالى : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » ، بحذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فتقدير الفاعل فيه احتمالان :

الأول : أن يكون هذا القول من الله عز وجل على سبيل اللعن والطرد من رحمته جزاء كفرهم وعنادهم وعقوقهم ، ولا يملك هذا إلا الله وحـده . فلا يملك أحد إبعاد أحد عن رحمته وهدايته سواه ، كما لا يملك أحـد لأحد قربا من ساحة الرحمة ، ونعيم القبول ، إلا من وسعت رحمته كل شىء ، ومن لو شاء لهدى الناس جميعاً ، وخوطبوا بالبناء للمفعول دلالة على بعدهم ، وعـدم أهليتهم لشرف الخطاب منه سبحانه ، وفيه أيضا الدلالة على سرعة الإبعاد والطرد .

الثـانى : أن يكون هذا القول من كلام نوح عليـه السلام وأصحابه ، جرى مجرى الدعاء عليهم ، لأن الغالب على من يسلم من الأمر الهائل النازل

(١) الـكشاف ٢/٢٧١ .
(٢) التفسير الـكبير ١٧/٢٤٣ — ٢٤٤ .

عقابا لظلم بين فادح ، تعالى عليهم الظلمة من القوم حتى أصبح شغلهم الشاغل ، ووصفهم الغالب ، أن يقول هذا الكلام ، ودلت صيغة البناء للمفعول على كراهة القائلين أن يسلكوا مع الظالمين فى أى سياق ، ولو كان سياق الألفاظ ، وأن لا يجاورهم ، ولو كانت المجاوره فى تراكيب الكلام ، فيلق إليهم القول من بعيد .

ورجح الإمام الرازى هذا الاحتمال - الثانى - ورأى أن جعله من كلام البشر أليق ...(١) .

ورد الآلوسى هذا الاحتمال . لأنه مخالف لظاهر الكلام . ولا يحتمله فقال : « ... وزعم بعضهم أن القائل : (بعدا) نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر ولا أثر فيه يعول عليه(٢) .

وهو ما أميل إليه لقوته ، ولأن نوحا عليه السلام بعد انقضاء الأمر بهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين ، رق قلبه على ولده الكافر ، وطلب من الله أن يجعله فى عداد أهله الموعود بنجاتهم ، وكان يعلم كفره قبل الطوفان ، وأثناءه « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .. » هود آية ٣٦ .

فكيف يدعو عليه بالبعد — لأنه كان مع القوم الظالمين — ثم يطلب من الله نجاته بعد ذلك ؟ « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .. » هود آية ٤٥ .

بل إن الآلوسى يذهب إلى أن الحذف فى هذه الجملة سببين تعين الفاعل ، وأن الإسناد على هذا الوجه كناية عن تخصيص صفة - هى الفعل - بموصوفها ، يقول فى هذا « والحاصل أن الفعل إذا تعين لفاعل بعينه استتبع ذلك أن

---

(١) التفسير الكبير ٢٤٤/١٧ بتصرف .

(٢) روح المعانى ٦٥/١٢ ، ط . مكتبة دار التراث بمصر .

يترك ذكره ويبقى الفعل لمفعوله ، أو يذكر ماهو أثر لذلك الفعل على صيغة المبنى للفاعل ويسند إلى ذلك المفعول ، فيكون كناية عن تخصيص الصفة التى هى الفعل بموصوفها . . »[١] .

(د) ويدل حذف الفاعل هنا — أيضا — على السرعة الفائقة فى تلاحق الأحداث وتتابعها ، يشير إلى هذا أحد علماء البلاغة المعاصرين بقوله : « وحذف المسند إليه الحقيقى فى قوله : (وقيل يا أرض . .) يشير إلى قوة ظهوره وأن ذلك الفعل الهائل — أعنى مخاطبة الأرض وتوجيه الأمر المستعلى عليها — لا يكون إلا من الذى خلقها فسواها ، وكذلك السماء ، وحذف الفاعل فى قوله : (وغيض الماء) للإشارة إلى الإجابة السريعة ، فما إن أمرت الأرض بأن تبلع ، والسماء بأن تقلع إلا وقد غيض الماء ، وكأن قوة هائلة مجهولة اختطفته وابتلعته ، فذهب معها إلى المجهول »[٢] . .

ومن حك الكلام بيا فوخ رأسه أخرج الكثير من الأسرار التى لا يعلمها على وجه الإحاطة إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

وهذه الآية وحدها استخرج منها ابن أبى الأصبع أكثر من عشرين نوعا من أنواع البديع ، مع أن ألفاظها سبع عشرة لفظة .

وهذه الآية — خاصة — كانت سببا فى صرف همة من حاولوا معارضة القرآن الكريم من الكافرين والمؤمنين جميعا ، لما اشتملت عليه من روعة البيان ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، فعندما سمعها كفار مكة — وكانوا قد فرغوا أنفسهم للمعارضة — قالوا : هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين ، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا .

ويروى أن ابن المقفع — وكان أفصح أهل زمانه — نظم كلاما وجعله

(١) السابق نفسه .

(٢) خصائص التراكيب ا . د / محمد أبو موسى / ١٣١ .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

فبنى الأول للمجهول لمناسبته لما قبله وهو قوله تعالى : « وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » التوبة آية ٨٦ .
فناسب البدء الانتهاء والمطلع الختام .

أما ذكره فى الآية الثانية « وطبع الله على قلوبهم » ، فلمناسبة ذكره جل شأنه مرات قبلها ، فكان المناسب أن يذكر ليحدث التناسب والانسجام بين أجزاء الكلام ، ولذا يقول الكرمانى فى تعليل الاختلاف بين الصيغتين :

« لأن قوله (وطبع) محمول على رأس المائة[1] وهو قوله « وإذا أنزلت سورة .. » آية ٨٦ مبنى للمجهول ، والثانى محمول على ماتقدم من ذكر الله تعالى مرات ، فكان اللائق « وطبع الله » ثم ختم كل آية بما يليق بها فقال فى الأولى : (لايفقهون) وفى الثانية (لا يعلمون) ، لأن العلم فوق الفقه ، والفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى المجهول[2] .

وتعيين الفرض هنا بأنه المناسبة لما تقدم ، لأن الفعل فى الحالتين لا يمكن إيقاعه وحدوثه إلا من الله عز وجل ، فلا يقدر على طبع القلوب وختمها حتى تنغلق على جهلها وغباشها فلايصل إليها نور العلم ولا ذكاوة العقل إلا الله وحده مقلب هذه القلوب والهادى - من يشاء من أصحابها - إلى سواء السبيل .

هـــذا ورعاية التناسق والتناسب بين الألفاظ والعبارات والمبادىء والنهايات أمر يحرص عليه ويعمل على تحقيقه فى الكلام الراقى ، وقد يكون هو المطابق لمقتضى الحال فيجب رعايته كما فى النظم الكريم .

---

(١) لفظ « المائة » غير واضح الدلالة هنا . ولعله تصحيف لكلمة « الآية » .

(٢) البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى . ط بيروت الأولى سنة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦ م بتحقيق عبد القادر عطا .

٥ — ويطوى ذكر الفاعل من اللفظ إذا دل عليه دليل معنوى وتعين أن يكون واحدا بعينه ومن ذلك :

(ا) قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » يوسف آية ٣٥ فأصل بناء الجملة : ثم بدا لهم أمر ، فحذف الفاعل وهو لفظ « أمر » ، لأن فى الكلام ما يغنى عن ذكره ، وهو جملة « ليسجننه » بما تشتمل عليه من التوكيد القوى ، فهى تصور ما حدث من هؤلاء القوم ، وتعبر عما كان من أمرهم وهم يتشاورون فى أمر يوسف عليه السلام مقلبين الأمر على وجوه الرأى بينهم ، ثم أصدر هذا القرار الحاسم « ليسجننه حتى حين » . فكانت الآيه حاكية لما حدث ومصورة له(١) .

كما أن النظم القرآنى أسقطه من عبارته استخفافا به ، لأنه أمر ساقط جائر ، والدليل على سقوطه وجوره أن هذا القرار جاء بعد ظهور الآيات والدلائل الواضحة على براءة يوسف عليه السلام ، فكان منطق العدل والحق ، أن تعلق براءته ، ويجازى على نزاهته وعفته جزاء حسنا ، إلا أن هيبة الملك وسمعة بيت الرئاسة ، التى ستلوكها الألسنة بعد إذاعة الحقائق فى هذه القضية منعتهم من الإقدام على هذا التصرف العادل فأمروا بأن يسجن بعد ظهور براءته ووضوحها ، فلما سقط الحكم فى نظر العدل والحق أسقط من اللفظ دلالة على هذا المعنى(٢) .

وإن كان الأمر بسجنه قد كشف للناس ما حاولوا طيه وكتمانه عنهم عندما خاطبوه همسا بـ « يوسف أعرض عن هذا » بإسقاط حرف النداء كما سبق بيانه فى حذف الحرف .

(ب) ومن هذا النوع من الحذف قوله تعالى :

« كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق .. » القيامة آية ٢٦ - ٢٧ .

---

(١) من بلاغة القرآن د. أحمد بدوى ص ١١٩ — ١٢٠ بتصرف .

(٢) خصائص التراكيب ص ١٣٣ .

القرينة الواضحة عليه حتى أصبح كالمتعين الذى تنصرف إلية النفس لأول وهلة[١] ، فالآية فى ذكر الموت ، ولا يبلغ التراقى عنـــد الموت إلا النفس أو الروح ، وكان فى إسقاطها من العبارة إشارة إلى ماهى عليه من وشك المفارقة[٢] .

(جـ) ومن ذلك قوله تعالى :

« إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » سورة ص آية ٣٢ .

حذف فاعل الفعل « توارت » وهو الشمس ، لتعينه وبيان أنه المراد من سياق الكلام وجو الحديث ، ولأنها توارت فقد لاءم الحذف دلالة الكلام[٣] .

(د) ومنه ما حذف فى قوله تعالى :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » سورة الأنعام آية ٩٤ بنصب « بينكم » .

نجد فى هذه أن فاعل « تقطع » محذوف ، والتقدير : لقد تقطع الأمر ، ووجود الفعل دليل على الفاعل المحذوف ، ويكمن فى هذا الحذف أغراض بلاغية منها :

١ — الدلالة على وقوع الحدث والمبالغة فيه ، فيكون المرادأن التقاطع حل بينهم مكان التواصل ، فيكون المعنى : لقد وقع التقطع بينكم ، وعلى هذا التقدير يكون الفعل « تقطع » مسندا إلى مصدره المحذوف لدلالة الفعل عليه ،

---

(١) خصائص التراكيب ص ١٣٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٣) من بلاغة القرآن ص ١١٩ .

والغرض منه المبالغة فى حدوث هذا الفعل(١) .

٣ — الإشارة إلى أنه أمر منقطع ساقط، والفاعل المحذوف هنا الأمر، يراد به العلاقة الموهومة بينهم وبين شفعائهم الذين زعموا أنهم فيهم شركاء(١).

فانقطاع الفعل عن الارتباط بفاعله فى اللفظ تصوير لانقطاع هذا الأمل الموهوم والأمانى الكاذبة بين المشركين ومن أشركوهم فى عقيدتهم ، أو فى التأثير على مجريات حياتهم فى الدنيا والآخرة .

٦ — وقد يحذف الفاعل الحقيقى فى بعض الآيات القرآنية الكريمة إذا كانت الأفعال من الأمور الشاقة الثقيلة على النفوس فيكون المناسب لجلال الله عز وجل ألا تنسب إليه لفظا — وإن كان هو فاعلها الحقيقى — رعاية لحسن الأدب معه سبحانه ، وذلك كما فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنو كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فإتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » سورة البقرة آية ١٧٨ .

وقوله : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » سورة البقرة آية ١٨٠ .

وقوله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » سورة البقرة آية ١٨٣ .

وقوله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» سورة البقرة آية ٢١٦ .

---

(١) الكشاف ٣٦/٢ بتصرف ، من بلاغة القرآن ص ١١٩ — ١٢٠ .

وقوله : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » سورة آل عمران آية ١٥٤ .

وقوله : « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » سورة النساء آية ١٢٧ .

الفعل « كتب » فى الآيات السابقة مبنى للمجهول ومسند إلى غير فاعله الحقيقى وهو الله عز وجل ، والمكتوب فى هذه الآيات من الأمور الشاقة على النفوس ، فالقصاص وهو إتلاف النفوس ، والقتل وهو إزهاق الروح وإخراجها من الجسد عنوة ، والقتال وهو ميدان يمكن أن يفقد الإنسان فيه حياته وروحه فى أى لحظة ، كل هذه الأمور من أشق التكاليف وأصعبها على النفس(١) .

وكذلك نجد أن الوصية ببعض الأموال وإعطائها من الأمور الثقيلة على النفس أيضا لدرجة تجعل البعض من الناس يضن بها على أصحابها والمستحقين لها ، كحقوق النساء من النفقات مثلا ، التى لا يعطيها البعض إلا بإلزام وقهر من الحاكم وما ذاك إلا لأن المال عديل الروح وعدة الحياة ، فإخراجه أو التوصية به شاق على النفس ، وإن كان حقا واجب الأداء كمال اليتيم - المحتاج للعون والرحمة - فى ذمة ولى أمره .

وكذلك الصيام منهك للبدن ومضعف له وشاق على النفس ، لأنه يقطع عليها عادتها ، ويحرمها ما اعتدته من الطعام والشراب ، والملذات المباحة فى كل وقت من النهار والليل ويحملها على تحديد هذه العادات وضبطها فى هذا الشهر

---

(١) من هدى القرآن لأمين الخولى ١/١٦٣ بتصرف .

الكريم ، وحمل النفس على مايخالف عادتها فيه قهر لها ومشقة عليها تحتاج معها إلى جهاد ومعاناة حتى تألفها .

ولما كان الشأن كذلك فى هذه الأمور السابقة أوثر التعبير بلفظ «كتب» المبنى للمجهول دون ذكر الفاعل المعروف ـ وهو الله عز وجل ـ ودون أن تنسب إليه تأدبا مع المولى ـ سبحانه ـ أن ينسب إليه عمل تتبرم بعض النفوس من أدائه وتألم من تنفيذه لصعوبته عليها .

وهذا المعنى الشريف ـ وهو رعاية حسن الأدب مع الله عز وجل من عدم نسبة المكروه إليه ولو فى اللفظ ـ هو مالفت النظم الكريم الأذهان إليه فى سورة الكهف عندما عرض علينا مشاهد من قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام ، وكان منها وقائــــع خرق السفينة فى عرض البحر ، وقتل الخضر لغلام صغير ، وبنائه جدارا آيلا للسقوط فى مدينة بخل أهلها عليهم بالطعام الذى كانوا فى مسيس الحاجة إليه بدليل طلبهم له .

ولما استنكر موسى عليه السلام هذه الأعمال التى تبدو فى ظاهرها شرا محضا فى بعضها وخيراً فى غير محله فى البعض الآخر ، بين له الخضر وجه الحكمة فى هذا الشر الظاهر ـ كما علمه الله من لدنه علما لم يعط لموسى عليه السلام وهو نبى رسول ـ وأنه ينطوى على خير كثير لمن فعل من أجلهم .

فقال سبحانه مبينا ماسبق :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا» سورة الكهف آية ٧٩-٨٢ .

فقد أضاف إلى الله سبحانه كل مافيه خير ، وأضاف إلى نفسه عيب السفينة رعاية لحسن الأدب ، لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما كان يعدد لقومه نعم الله المتعددة عليه والتي أوجبت توحيده وعبادته سبحانه ، من الخلق والهداية إلى الرشاد ، والإطعام والإسقاء والإماتة والإحياء ، ثم قال «وإذا مرضت فهو يشفين » الشعراء آية ٨٠ .

فنسب المرض الذي هو نقمة إلى نفسه ، والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب ، فالفعل قبله وبعده مسند إلى الله تعالى ، والمرض أسنده إلى نفسه ، لأنه نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا مايستحسن منها ، دون ما يستقبح(١) .

بهذا يتبين لنا سر التعبير القرآني ببناء الفعل « كتب » للمجهول في الآيات التي ذكرناها بأنها مشاق فناسب ألا تنسب إلى الله تعالى ، بدليل أننا نجد هذا الفعل نفسه قد بني للفاعل الحقيقي وهو الله وأسند إليه لفظا ومعنى لما كان المكتوب رحمة ولطفا ، وفيه خير ظاهر يعود على المؤمنين المتحدث إليهم أو عنهم .

وذلك كما في قول الله تعالى :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم .. » البقرة آية ١٨٧ .

وقوله تعالى :

« قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم

---

(١) ينظر الجامع لاحكام القرآن القرطبي ص٤٠٧٨ ط . دار الشعب بمصر، وروح المعاني للألوسي ١٩/٩٦ بتصرف .

إلى يوم القيامة لاريب فيـــه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ... » الأنعام آية ١٢ .

وقوله تعالى :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم .. » الأنعام آية ٥٤ .

وقوله تعالى :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز .. » المجادلة آية ٢١ .

وقوله :

« أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها .. » المجادلة آية ٢٢ .

فالمكتوب فى الآيات السابقة خير ظاهر فنسب إلى الله تعالى لفظا ومعنى ومثل ماسبق ماورد فى قول الله تعالى فى سورة الأحزاب :

« يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما » الآيتان ٣٠ - ٣١ .

فى مقام إيصال الخير وإجزال العطاء وتعظيم الثواب أسند الفعل « نؤتها » إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه الفاعل الحقيقى وهو الله عز وجل .

وفى مقام التهديد بإنزال العذاب الشديد المضاعف عند المخالفة الواضحة لمنهج الله ورسوله طوى ذكر الفاعل فى اللفظ وبنى الفعل للمفعول وذلك تكريما وتقديسا للفاعل الحقيقى - وهو الله عز وجل - أن يصرح باسمه أو ضميره فى مقام إنزال العذاب ، وذلك على قراءة « يضاعف » ببناء الفعل للمفعول .

ويقول الإمام فخر الدين الرازى معلقا على الآيتين :

« .. (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى : (يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة ، وهى : أن عند إيتاء الأجر ذكر المؤتى وهو الله، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب (يضاعف) ، إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه ... »(١) .

وتعليق الإمام الكبير وإيضاحه لهذه اللطيفة لا مزيد عليه ولا يحتاج إلى زيادة بيان ولا إلى تعليق آخر وكما قيل :

« قطعت جهيزة قول كل خطيب »(٢) .

حذف الجملة

يقع حذف الجمل كثيرا فى القرآن الكريم اعتمادا على ذكاء القارىء وفطنته فى إدراك ما يستلزمه السياق ويستدعيه فيعمد النظم الكريم — حينذاك — إلى الاختصار وحبك الكلام وقوة سبكه ، والمسارعة إلى ذكر الغاية التى انتهى عندها المعنى ، وهو ما يهم السامع أن يعرفه دون الخوض فى تفاصيل تفهم من سياق الكلام .

هذا إلى جانب ما يتضمنه من إشارات أخرى إلى دقائق المعانى ولطائفها فمن ذلك قول الله تعالى :

« .. اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » ثم أعقبه بقوله : « قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم » النمل آية ٢٨-٢٩ .
فبين أمر الهدهد بإلقاء الكتاب إليهم ، وبين إخبار بلقيس قومها بذلك تفاصيل كثيرة تضمنتها جمل كثيرة محذوفة وتقديرها : فأخذ الكتاب ، فألقاه إليهم ، فرأته بلقيس ، وقرأته ، وقالت يا أيها الملأ ..

(١) التفسير الكبير ٢٠٩/٢٥ .

(٢) مجمع الامثال ٤٧٤/٢ .

فقد حذفت هذه التفاصيل الكثيرة لإمكان فهمها من سياق الكلام المذكور وما يفهم من السياق يكون ذكره عبثا – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وفي طي هذه الجمل الكثيرة من سياق الكلام إشارة إلى طي الهدهد لهذه المسافة البعيدة بين مكان الانطلاق ومكان الوصول الذي وصله بسرعة فائقة، وفي زمن قليل جدا وهي إشارة جعلت المسافة بين انطلاق الهدهد من عند سيدنا سليمان عليه السلام ووصوله إلى مقر بلقيس كالمسافة بين نطق كلمة «اذهب بكتابي هذا»، وكلمة «قالت يا أيها الملأ».

وفي ذلك أيضا إظهار لأثر من آثار نعمة الله على نبيه سليمان عليه السلام بتسخير الطير له وجعله جندا من جنوده يقطع المسافات الطويلة في وقت قليل.

ومنه قوله تعالى في سورة مريم:

«يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا» إلى قوله تعالى: «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا» الآيات من ٧ : ١٢ من سورة مريم.

ففي هذا النظم الكريم جمل محذوفة، وتقدير الكلام: فلما ولد يحيى ونشأ وترعرع قلنا له:

«يا يحيى خذ الكتاب بقوة»، «فقد أغفل القرآن الكريم الحديث عن مجيء الغلام ونشأته وترعرعه مما ليس بعنصر أساسي في القصة مادامت مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه[1]».

وهذا ما ارتآه الإمام الرازي في بيان سر حذف هذه الجمل. فما دل السياق عليه يعتبر وجوده عبثا بناء على الظاهر – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

(١) من بلاغة القرآن. د/أحمد بدوى/١٢٧

هذا غرض جليل من أغراض الحذف عموما ، يقول الرازى مشيرا إلى هذا الرأى : « أن قوله (يايحيى خذ الكتاب) يدل على أن الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذى يجوز أن يخاطبه بذلك ، فحذف لدلالة الكلام عليه[1] .

ويلمح الألوسى سرا آخر من أسرار حذف الجمل فى هذا المقام وهو المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم لزكريا عليه السلام ، يقول:

« .. (يايحيى) ، على تقدير القول وكلام آخر حذف مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم ، أى فلما ولد وبلغ سنا يؤمر مثله فيه قلنا : (يايحيى خذ الكتاب)[2] » . ولا تناقض فى المعنى بين ما رآه العالمان الجليلان ، فالتنزه عن العبث كما رأى الرازى لا ينافى المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم لزكريا عليه السلام ، بل الغرض الذى وجه الإمام الرازى الحذف إليه هو الذى هيأ المعنى لما ذهب إليه الألوسى من المسارعة المذكورة ، فالإيجاز بحذف ما يدل عليه السياق أسرع إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم من بسط الكلام ونشره ، والنكات البلاغية لا تتزاحم كما يقول البلاغيون .

— تحذف الجمل المطلولة من الكلام - أحيانا - اكتفاء بالأسباب عن المسببات إذا كان المذكور منها سببا للمحذوف ، مثل قول الله تعالى :
(وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين) القصص / ٤٤ - ٤٥ .

يقول بن الأثير مبينا موطن الحذف فى النظم الكريم :

« .. كأنه قال: وما كنت شاهدا لموسى وما جرى له وعليه، ولكنا أوحيناه إليك. فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب الذى هو الوحى على عادة اختصارات القرآن ، لأن تقدير الكلام: ولكنا أنشأنا بعد عهد

(١) التفسير الكبير ٢١/١٩٢ . (٢) روح المعانى ١٦/٧٢ .

الوحى إلى موسى إلى عهدك قرونا كثيرة ، فتطاول على آخرهم - وهو القرن الذى أنت فيهم - العمر ، أى أمد انقطاع الوحى ، فاندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ، فالمحذوف إذا جملة مفيدة وهى جملة مطولة دل السبب فيها على المسبب »[١] .

ويقول البيضاوى :

« ... فحذف المستدرك وأقام سببه مقامه ... »[٢] .

ثم بين الإمام فخر الدين الرازى سرا من أسرار حذف المسبب وذكر السبب فى هذا المقام فقال : « ... واعلم أن هذا تنبيه على المعجز ، كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ، ولا تعلم من أهله ، دلالة ظاهرة على نبوتك ، كما قال : (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) ... »[٣] .

فالغرض من الحذف - كما يراه الرازى - إظهار وجه من وجوه الإعجاز القرآنى أو من وجوه المعجزة التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو : الإخبار بالغيب الذى لم يشاهده صلى الله عليه وسلم ولم يحضره أصالة ولا إنابة ، وهو الإخبار الذى لم تكذبه اليهود وهم المتربصون بالرسالة الخاتمة وصاحبها والحريصون على هدمها بكل الأساليب والوسائل ، وفى هذا التنبيه ردع لكل من ساوره - أو يساوره - أدنى شك فى صدق الرسول ورسالته .

وهذا الذى أشار إليه الإمام الرازى هو بعض ما تضمنه تفسير البيضاوى - الموجز - لسبب الحذف حيث إن السبب لا يقوم مقام المسبب إلا إذا كان سببا قويا وفاعلا فى مجرى الأحداث فعل مسببه وبحيث يمكن الاكتفاء به عن بقية الأسباب إن وجدت ، وما نبه إليه الرازى يدل على ما بيناه .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٧٢ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/١٩٥ .

(٣) التفسير الكبير ٢٤/٢٥٧ .

ـ ثم يذكر القرطبي وجها آخر من وجوه المعنى فى هذا المقام فيقول :
« .. وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر فى ذلك الوقت ، وأن الله سيبعثه ، ولكن طالت المدة وغلبت القسوة فنسى القوم ذلك ، وقيل : آتينا موسى الكتاب ، وأخذنا على قومه العهود ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمدا مجددا للدين ، وداعيا الخلق إليه .. »(١) .

وبعد .. فما هو واضح كل الوضوح أن فى هذه الآيات الكريمة حذفت جملة المسبب وأقيم السبب مقامها ، وذلك يدل على أهمية هذا السبب فى سياق الأحـــداث ، والإيحاء بأنه من الأسباب الرئيسية التى يتوقف عليها الفعل المسبب .

وفى هذا الحذف من الإشارات :

أن فيه إعجازاً للنبى صلى الله عليه وسلم ودليلا على صدق نبوته ، حيث لم يكن حاضرا لهذه الأشياء ولم يشهد الأمر الذى قضى إلى موسى عليه السلام ومع ذلك أخبر عنها كما وقعت تماما ، فلم تستطع يهود ـ وهم أشد الناس عداوة له وأحرصهم على تكذيبه ـ أن تكذب هـــذه الأخبار عن أسلافهم ، لأنها صادفت صادق ما معهم من التوراة الصحيحة .

كما لم يستطع أهل مكة من المشركين أن يكذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت عليه سورة الفيل تخبره بالحادثة التى وقعت عام ولادته عليه السلام ولم يشهدها ، وهى تعرض البيت الحرام للعدوان ومحاولة الهدم والتدمير من أبرهة الأشرم ، وحماية الله لبيته الحرام بجنود من عنده دحرت الأعداء وردتهم خائبين « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/٧ ، ٥٠٠ ط دار الشعب بمصر .

وفى هذا الحذف أيضا إشارة إلى أن تطاول العهد على الناس ، وتركهم أزمانا طويلة دون إرسال من يذكرهم بما نسوه ، أو يصحح لهم ما أخطؤه أو يردهم إلى حمى الإيمان الصادق عندما تزيغ بهم الأهواء فتفسد عقيدتهم لما يتعرضون له من إغراء على التمرد والعصيان ، وما يزين لهم من سوء أعمالهم ، كل هذا كان جديرا بأن يرسل إليهم - أو يبعث فيهم - من يجدد لهم أمر دينهم ويذكرهم عهد ربهم ويحيى بينهم سنة نبيهم وسيرة أسلافهم ، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم .

ولهذا يجب أن يذكر الناس بربهم بين الحين والآخر ، وألا يترك العامة دون وعظ وإرشاد ، حتى لا تتفرق بهم الأهواء ، وتتخطفهم الشياطين فيتيهون فى صحراء الخرافة والجهالة والضلالة .

ولهذا أيضا كان من محاسن ديننا الحنيف ما شرع لنا من شعائر ومناسبات دينية يتخللها النصح والإرشاد والتوجيه ، كصلاة الجمعة والعيدين ، وإحياء شهر رمضان الكريم بالصلاة ومدارسة كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، ومن رحمة الله بهذه الأمة أنه يبعث إليها - وفيها - على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .

هذه المعانى وتلك الإشارات أوحى بها حذف جملة المسبب وذكر السبب فى الآيات ، وصدق من قال عنه : « لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ... » .

ومن الدلالات البلاغية الدقيقة لحذف الجمل ما وقع فى قول الله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » سورة نوح آية ٢٥ .

فالآية الكريمة عرضت موقف قوم نوح عليه السلام من رسالته حيث قابلوها بالإعراض والعصيان والتمرد ، واتبعوا كبراءهم الذين أضلوهم وأغروهم

بإيذائه ، فلم يستمع إليه أحد منهم « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا» سورة نوح آية ٧ .

فكان جزاؤهم على تلك الخطايا أن عاقبهم الله بالإغراق فى الطوفان فاستأصل شأفتهم من الدنيا فلم يبق منهم أحدا ، إستجابة لدعوة نوح عليه السلام « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا .. » سورة نوح آية ٢٦ .

وهناك فى الآخرة ينتظرهم عذاب عظيم ونار هائلة فى سعيرها ، يصلونها وليس لهم من الله قوة ولا ناصر، ولا يجدون من يغنى عنهم من الله من شىء، أو يفديهم من عذابه ، ولو كان الثمن ملء الأرض ذهبا .

وفى قوله : « أغرقوا فأدخلوا نارا » نلحظ حذفا ظاهرا بين الجملتين، حيث أسقطت بينهما جمل متعددة لأن إدخالهم النار كان بعد إنتقالهم - هالكين - من دار الدنيا التى أغرقوا فيها بالطوفان إلى الدار الآخرة التى يعذبون فيها بالنيران ، وتقدير المحذوف : هلكوا ، وبعثوا يوم القيامة ، وحوسبوا على معاصيهم ، فأدخلوا نارا .

وفى القصص مجال فسيح لمثل هذا الحذف الذى يسهل معه ربط مواقف القصة بعضها ببعض ، مـــع استثارة الذهن والخيال إلى تصور ماحذف من تفاصيل .

ومن جمال الحذف هنا أنه جمع بين الإغراق والإحراق ، وفاجأ بذكر عذاب الآخرة مع عذاب الدنيا حتى كأنهما مقترنان ، وفى ذلك إيقاظ للعقول وتخويف من تلك النهاية الأليمة ، وقـــد أكتملت عناصر الصورة المعبرة عن هذا العذاب الأليم بالتعبير بالفعل الماضى الدال على تحقق الوقوع مع الفاء المفيدة للتعقيب ، « فأدخلوا نارا » ، وهو يوحى باقتراب العذاب

حتى كأنه واقع فعلا ، وذلك « لاقترابه ، ولأنه كائن لامحالة ، فكأنه قد كان »[١] .

لحذف قد طوى مدة البرزخ بين الإغراق وإدخالهم العذاب ، وأسقطت من اللفظ الدلالة على قرب وقوع العذاب .

ولهذا نرى الآلوسى ـ بعد أن ذكر رأى من ذهب إلى أن المراد بالنار هنا نار البرزخ وهى تأتى عقب الهلاك مباشرة ـ يقول :

« ويجوز أن يراد بها نار الآخرة ، والتعقيب على الأول[٢] ظاهر ، وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال ، فكأنه شبه تخلل مالا يعتد به بعدم تخلل شىء أصلا .. »[٣] .

وذلك لعدم فائدته لهم وعدم غنائه فى دفع العذاب عنهم .

وقد سبقه الإمام البيضاوى إلى هذه اللفتة الدقيقة عندما علل هذا التعقيب بعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال[٤] .

ونلحظ فى الآية حذفا آخر لجزء من أجزاء الجملة وهو الفاعل فى قوله « أغرقوا فأدخلوا نارا » وبناء الفعل فيهما للمفعول ، وذلك للعلم اليقينى به ، حيث لا يقدر على إغراق هؤلاء الفراعين وإطباق المياه عليهم من الأرض والسماء ، وإقبارهم فى هذا الطوفان الشامل إلا جبار السموات والأرض القهار لكل من نازع مالك الملك فيما يجب تركه لمالكه وخالقه ومن تسول له نفسه ارتداء ثوب العظمة والكبرياء والعناد والإشراك بالواحد الأحد

---

(١) الكشاف ١٦٥/٤ ط . الحلبى .

(٢) الأول هو الرأى القائل بأنها نار البرزخ .

(٣) روح المعانى ٧٩/٢٩ .

(٤) أنوار التنزيل للبيضاوى ٥٠٨/٢ ط الحلبى .

جل جلاله ، أو ادعاء الألوهية ، والعيث فى الأرض فسادا « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » سورة هود آية ١٠٢ .

وحذف الفاعل هنا شبيه بحذفه فى قوله تعالى فى نفس القصة أيضا « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » سورة آية هود ٤٤ .

فلا يوجد من يقــدر على الأفعال السابقة المحذوفة الفاعل إلا الفاعل الواحد الذى لا ينصرف الذهن إلا إليه وهو الله جل وعلا .

وكذلك إدخالهم العذاب يوم القيامة أو فى القبر ليس له إلا فاعل واحد متعين وهو الله الواحد القهار ، فعندما تذكر هذه الأمور الهائلة لا ينصرف الذهن إلا إلى من بيده ملكوت السموات والأرض بإشارة الدلائل كلها إليه عز شأنه .

عندئذ يكون النص على الفاعل فى اللفظ لا ضرورة له ويقتضى المقام حذفه ، ولهذا يقول الآلوسى : « ولا يخفى ما فى (أغرقوا فأدخلوا) من الحسن الذى لا يجارى ولله تعالى در التنزيل »(١) .

والتنكير فى « نارا » إما للتهويل ، أى نارا هائلة ، لا يعلــم كنهها إلا خالقها ، وإما للنوعية أى أدخلوا نوعا مخصوصا من النار أعد خصيصا لهم متلائما مع نوع خطاياهم .

هذا وبالله التوفيق ؟

---

١) روح المعانى ٢٩/٧٩ .

أهم مراجع البحث

١ ـ الإشارة إلى الإيجاز : عز الدين بن عبد السلام .
٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوي ـ ط : الحلبي الثانية سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .
٣ ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن : للكرماني ـ ط : دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان .
٤ ـ البرهان في علوم القرآن : الزركشي ـ ط : مكتبة التراث .
٥ ـ بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدي ـ ط مكتبة الآداب .
٦ ـ تحرير التحبير : ابن أبي الإصبع .
٧ ـ الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ـ ط : دار الشعب بمصر .
٨ ـ خصائص التراكيب : أ . د/ محمد أبو موسى ـ ط : مكتبة وهبة .
٩ ـ خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي : جريدة اللواء الإسلامي العدد (٣٤٥) .
١٠ ـ دلائل الإعجاز : الشيخ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق محمود شاكر ط : الخانجي .
١١ ـ روح المعاني : الآلوسي ـ ط : مكتبة التراث .
١٢ ـ الفتوحات الإلهية : الجمل ـ ط : الحلبي .
١٣ ـ الكشاف : الزمخشري ـ ط : الحلبي .
١٤ ـ المثل السائر : ابن الأثير ـ ط : دار نهضة مصر .
١٥ ـ مجمع الأمثال : الميداني ـ ط : الحلبي .
١٦ ـ المطول : سعد الدين التفتازاني .

١٧ ـ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير : الفخر الرازى ـ ط : دار الفكر .

١٨ ـ من بلاغة القرآن : أ . د/ أحمد أحمد بدوى ـط : دار نهضة مصر .

١٩ ـ من هدى القرآن : أمين الخولى ـ ط : الهيئة المصرية للعامة للكتاب سنة ١٩٧٨ م .

القسم الثاني

الدراسات اللغوية

١ ـ الدكتور عبد العزيز أحمد علام
٢ ـ الدكتور سمير أحمد عبد الجواد

النمو اللغوى والطفولة(*)

بقـــلم
دكتور / عبد العزيز أحمد علام

إن الحديث عن نمو اللغة فى مرحلة الطفولة يقتضينا أن نلمح إلى :

ماهى اللغة ؟ وما وظائفها ؟ وما العلاقة بين اللغة والكلام ؟ وبين اللغة والفرد ، ثم بين اللغة والمجتمع ؟ وكيف تتم عملية التكلم ؟ وكيف ينتقل الكلام إلى السامع ؟ ثم كيف تتم عملية السمع والإدراك ؟ إلى آخر ما يوضح لنا حقيقة تلك اللغة التى تؤدى دوراً هاما فى حياة الأفراد والجماعات ، والتى هى من أجل نعم الله عز وجل على الإنسان : فبها يبين الإنسان عما فى نفسه ، وعما يريد ، وبها يمارس وظائفه وألوان نشاطه ، وصـــدق الله إذ يقول : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان[1] » فكانت وسيلة البيان والإفصاح عما يريده الإنسان آية من آيات الخالق عز وجل ، ونعمة من نعمه التى لا تحصى ، كما قد كانت معرفة وسيلة التفاهم للكائنات الأخرى من نعم الله التى أنعم بها على سليمان عليه السلام ، قال تعالى : « وورث سليمان داود وقال : ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين[2] » . كذلك كانت حكمة الله عز وجل ومنته على عباده فى أن

(*) بحث ألقى فى دورة الأمومة والطفولة فى كلية التربية للبنات بالقصيم وذلك بالتعاون بين رئاسة تعليم البنات وفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم فى المملكة العربية السعودية فى عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

(١) سورة الرحمن آية ١ – ٤ .   (٢) سورة النمل آية ١٦ .

يرسل رسله عليهم السلام كل بلغة قومه وبلسانهم ، قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم[١] » فتتم النعمة ، وتقوم الحجة .

معنى اللغة : اهتم العلماء باللغة على اختلاف العصور ، وعلى اختلاف تخصصاتهم من لغويين، وفلاسفة ، ومناطقة ، ومن علماء النفس، والاجتماع والأنثروبولوجيا ، والفيزياء ، والطب ، والهندسة ، وذلك بناء على أهمية اللغة في حياة الإنسان . وحاولوا تعريفها ، كما حاولوا الكشف عن نشأتها ووظائفها ..

لقد عرفها علماء الاجتماع بأنها ظاهرة اجتماعية ، وضرب من سلوك الإنسان ، وحلقة في سلسلة النشاط البشرى[٢] . ولكنه - كما يبدو - تعريف بالتصنيف ، أى أنهم صنفوا اللغة ووضعوها في قوائم الظواهر الاجتماعية .

كما عرفها الفلاسفة والمناطقة بأنها : وسيلة للتفاهم والتخاطب ، والتعبير عن العواطف والرغبات والانفعالات، وأنها عون آلى على التفكير، ووسيلة للتسجيل ، حتى يمكن الرجوع إلى ما سجل وقت الحاجة .[٣] وهو تعريف بالوظيفة ، حيث إنهم بينوا لنا وظيفة اللغة .

أما اللغويون فقد عرفوها تعريفا علميا، فكشفوا عن حقيقتها وماهيتها؛ فهذا ابن جنى يقول: « اللغة : هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[٤]، فبين لنا ماهيتها حين يحدد أنها أصوات ، كما يضع أيدينا على عرفية اللغة و

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤ .

(٢) انظر : الدكتور محمود السمران : اللغة والمجتمع رأى ومنهج ، ط ١٩٦٣م ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥ ، وانظر أيضا : يسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ترجمة الدكتور / عبد الرحمن أيوب ص ٨ ، ٩ .

(٤) الخصائص : ١/٣٣ ط دار الكتب المصرية .

وعلى اجتماعيتها ، وأخيرا على وظيفتها ، ويظل هذا التعريف الجامع المانع محل اتفاق من علماء العربية ، إلى أن يأتى علماء اللغة المحدثون ، فيعرفون اللغة تعريفا لا يزيد عن تعريف ابن جنى لها ، وعن تصور العرب لها إلا فى توسيع دائرة اللغة حين استبدلوا كلمة « أصوات » بعبارة « نظام من رموز » يقول « إدوارد سابير » : اللغة : « وسيلة إنسانية خالصة لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة إرادية »[1] .

وقد كان « سابير Sapir » موفقا فى هذا التعبير : « عن طريق نظام من الرموز » لأنه نظر إلى الوظيفة اللغوية التى تؤديها الأصوات فى داخل الكلمة ، والكلمات فى داخل الجملة ، فوجد أن هناك أشياء أخرى تحدث فى أثناء عملية التخاطب تقوم بوظيفة لغوية ، فتؤدى ما تؤديه الأصوات والكلمات ، مثل : الإشارات اليدوية والجسمية ، والإيماءات ، وملامح الوجه من تقطيب أو انفراج ، ومثل الذى يحدث من الإشارات الضوئية كإشارات المرور ، إلى آخر مايعد رمزاً يعطى دلالة لغوية وليس بصوت . . من هنا اختار كلمة « الرموز » بدلا من « الأصوات » .

وظائف اللغة : للغة أكثر من وظيفة بناء على الدور الذى تؤديه على المستوى الاجتماعى ، والمستوى النفسى ، والمستوى العقلى :

أما الوظيفة الاجتماعية فتبرز فى جوانب كثيرة من حياة المجتمع ، فهى وسيلة من وسائل المجتمع فى الترابط بين جمع أبنائه ، وتكوين مايسمى بالوحدة الاجتماعية ، وهى وسيلته كذلك فى تحقيق الشعور بالانتماء ، وفى تبادل المنافع والمصالح المشتركة ، بها يمارس التعليم ، ويقوم القضاء ، ويتم البيع والشراء ، وتعقد الصفقات ، وتدار المؤتمرات ، وبها تنشر نتائج

---

(١) انظر : الدكتور محمود السعران : اللغة والمجتمع ط ١٩٦٣ ص ١٠ .

البحوث العلمية والعملية ، ولا عجب : فباللغة يمارس المجتمع جميع أنشطته الثقافية ، والفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والتربوية ، وبدونها لا يمكن تصور مجتمع يعيش بلا لغة .

الوظيفة النفسية : للغة وظائف نفسية عدة منها :

١ — التأثير والإقناع : فهى تستخدم لإثارة الوجــدان ، وتحريك العواطف ، فإذا أردت أن تستميل والدك نحو فكرة معينة ، أو أن تستميل طلابك تجاه سلوك معين ، فإن وسيلتك فى ذلك هى اللغة ، وكذلك إذا أردت أن تقوم سلوكا معينا عند طفلك ، فإن كلمات اللغة وأساليبها هى الأداة الفعالة فى ذلك ، ومن ثم كانت الرسالات السماوية ، وكان تبليغ الرسل عليهم السلام لرسالات الله باللغة التى أرسلوا بها ، ولا عجب أن كان سلاح الدعوة الإسلامية الذى امتلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين طيلة العهد المكى الذى بلغ ثلاث عشرة سنة هو الكلمة ، والكلمة فقط ، وصدق الله إذ يقول لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »(١) ويقول عز وجل مبينا لرسوله صلى الله عليه وسلم منهج الدعوة : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »(٢) ويقول : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٣) . وهنا تبرز أهمية اللغة فى وقتنا الحاضر فى الدعوة إلى الله .

٢ — وسيلة الفهم والإدراك : إن فهم الأشياء وإدراكها فى أعلى درجات الفهم والإدراك هو ما يأتى نتيجة التذوق ، وفهم الشعر — مثلا — يكون فى أحسن

(١) سورة النحل : آية ١٢٥ .

(٢) سورة يوسف : آية ١٠٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

صوره وأدقها إذا ما تذوق المرء هذا الشعر تذوقا فنيا يصل به إلى عمق الفكرة وآفاقها . أما الفهم الذى يأتى بدون تذوق للنص ، فإنه يكون بعيداً عن درجة الكمال ، وعن عمق الفكرة وأصالتها ، كما يكون عرضة للضياع والنسيان .

٣ — الاستقرار النفسى والتكيف مع البيئة والمجتمع : فالإنسان فى حاجة إلى التعبير عن الرغبات النفسية ، حتى يشبع دوافعه وغرائزه النفسية التى خلقه الله عليها ، ولا يجد إلا اللغة وسيلته فى هذا التعبير ، وبذلك يتحقق له الاطمئنان والراحة النفسية ، ويصبح قادراً على التكيف مع من حوله : يعطى ويأخذ ، ويؤثر ويتأثر . أما إذا فقد وسيلة التعبير باللغة عما فى نفسه فإنه يصبح إنسانا مريضا ، يعانى من القلق والاضطراب ، ويركن إلى العزلة ، ويعيش فى ضيق وألم .

٤ — التعبير عن الجانب الانفعالى : إن الكلمة تحمل إلى جانب معناها اللغوى شحنة انفعالية تصدر من المتكلم ، أو تحدث عند السامع نتيجة للتجارب والخبرات السابقة ، فتحدث أثراً انفعالياً علاوة على الأثر اللغوى ، وناهيك عما تحدثه كلمة « نار » وكلمة « ثلج » فى نفسية سكان الإسكيمو ، من البشر والتشوق مع الأولى التى تذهب معها المعاناة من البرد الشديد ، ومن الضيق والنفور مع الثانية[1] . كذلك يظهر هذا الجانب الانفعالى فى طبيعة الشعر الذى يخاطب العاطفة والوجدان والشعور علاوة على مخاطبته العقل ، بخلاف « النظم » الذى هو شعر ، لكنه خال من ذلك حيث يخاطب العقل فقط ، كقول ابن مالك فى ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف الكلم

---

(١) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ، ط الأنجلو المصرية ص
وانظر أيضا : فن التدريس ، ص ١٥ ومابعدها .

واحده كلمة ، والقول عم   وكلمة بها كلام قد يؤم
بالجر والتنوين والندا وأل   ومسند للاسم تمييز حصل

ولهذا كانت ترجمة النص من لغته إلى لغة أخرى انتقاصاً لدلالة الكلمة أو لمعنى الجملة ، لأنها تهمل الدلالة الانفعالية أو النفسية ، ولا تستطيع التعبير عنها .

– الوظيفة العقلية للغة : اللغة وعاء الفكر ، وأداة التفكير ووسيلته ، بل هى جوهره فى نظر علماء النفس ، والإنسان يصل إلى المدركات عن طريق اللغة . ولا يستطيع التفكير الكامل حين لا يمتلك الكلمات التى تعبر عن المعانى ، لأن التفكير عملية ذهنية لا تتم إلا باستخدام الألفاظ الدالة على المعانى المحددة ، ومن هنا ناقش العلماء قضية أن الإنسان يفكر باللغة ، أو فى غيبة اللغة بمعنى أنه لا علاقة للغة بالتفكير ، واستقر رأيهم على أن الإنسان لا يفكر إلا بمساعدة الألفاظ والتراكيب اللغوية ، وقد قيل : التفكير كلام نفسى ، والكلام تفكير جهرى(١) ، وقال الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وتدرك العلاقة بين اللغة والفكر فى أنها تنميه وتغذيه ، فحين تقارن بين أخوين : أحدهما نال القسط الوافر من التعليم ، ووصل فيه إلى أرقى الدرجات ، والثانى وقد حرم من التعليم ، وظل قابعاً بين بيته ومزرعته ، إن الفارق الفكرى والثقافى بين هذين الأخوين نابع من تأثير اللغة فى الفكر . والمجتمع الذى ينتشر فيه التعليم ، وتتعدد معاهده ، وتتوزع مؤسساته فى جميع مناطقه مجتمع متقدم ، لأنه امتلك فكرا جديدا ، وامتلك وسيلة التفكير الراقية وهى اللغة .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ وما بعدها .

واللغة هي التي تساعد الفكر في إدراك الكليات عن طريق الجزئيات التي يلاحظها ثم يجرد منها المعنى ، وهذا ما يعرف بعمليتي : « الملاحظة والتعميم والتجريد » كذلك فإن الأفكار لا تستقر في الذهن ، وتثبت فيه إلا إذا رمز لها بألفاظ اللغة ، وتصور معنى « المصطلح العلمي » ، فهو عبارة عن دلالة أو فكرة معينة ، أو مفهوم خاص رمزنا له بكلمة معينة ، فإذا أردنا أن نتذكر هذا المفهوم تذكرنا اللفظ الذي يرمز إليه ، وهكذا سائر اللغة .

واللغة أيضاً هي التي تساعد العقل في تحليل الصورة الذهنية أو في تركيبها، فإذا قلت لأبيك : (إن الشتاء قادم ، وإني أحتاج إلى مال لأشتري به ملابس الشتاء) : فهذا القول يمثل صورة ذهنية،وأنت قد حللتها إلى جزئياتها وهي : الشتاء ، المال ، الشراء ، الملابس ، وكون الشتاء قادماً ، وكون المال في حاجة إليه ، والشراء للملابس ، ثم ألفت وركبت من الكلمات الدالة على هذه الجزئيات هذا القول ، فقلته لأبيك ، وأبوك قد استقبل منك عبارتك ، وتكون لديه عند سماعها صورة ذهنية مركبة من أجزاء ، فقام بتحليلها إلى جزئياتها وأدركها مع الكلمات الدالة على الجزئيات ، وهكذا نرى عملية التحليل والتركيب للصورة الذهنية عند كل من المتكلم والسامع تقوم على أساس وضع الرموز اللفظية (الكلمات) للمعاني الجزئية ،ثم ربط هذه الرموز اللفظية بعضها ببعض فيما يسمى بالتركيب اللغوي أو بالجملة .

أنواع التعبير الإنساني : إن لغة التخاطب بين الناس يمكن التمييز فيها بين نوعين :

لفظي : ويتمثل في الأصوات والمقاطع والكلمات والجمل وفق القواعد النحوية والصرفية للغة .

غير لفظي : ويظهر ـ كما قلنا سابقا ـ في الإشارات اليدوية والجسمية ، وملامح الوجه[1] .

---

(١) د/ نوال عطية : علم النفس اللغوي مكتبة الأنجلو المصرية ص ٣٢ .

وكذلك الرموز غير اللفظيـــة كإشارات المرور ، وكرؤيتك للوحة مرسوم عليها شكل الأشجار الخضراء على شاطىء البحر ، وكأن تومىء برأسك لحدثك ، فيفهم أنك موافق ، أو تومىء إيماءة أخرى معينة ، فيفهم أنك غير موافق ، أو إيماءة ثالثة فيفهم منك أنك تحييه ، فيرد عليك التحية قائلا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وكأن ترى فى حياتك اليومية حادثاً مؤلماً ، فتستجيب لهذا المنظر ، وتتأثر به أكثر من تأثرك له بالكلمات والجمل .

اللغة الانفعالية : سبق أن عرفنا أن الكلمات والجمل قد تحمل مع دلالتها اللغوية دلالة أو شحنة انفعالية ، فإذا قرأت فى إحدى الصحف اليومية نبأ وفاة صديق عزيز ، فإن نطقك لكلمات الخبر وجمله لن يكون نطقا عادياً ، وإنما نطقا مملوءاً بشحنات انفعالية تعبر عن الشعور بالأسى والحزن ، وهذا ما ينعكس أثره فى الصوت ، وإذا ألقيت التحية على زميلك فى الصباح ، وكان يعانى من حالة نفسية كالحزن على ما أصابه بالأمس ، فإنك تفهم ذلك من صوته حين يرد عليك التحية ، فتسأله على الفور عما به ، وما الذى حدث؟

وإن جملة مثل : «يصرخ الطفل من الألم» إذا قالتها أم هذا الطفل ، فإنها تنطقها نطقاً يفيض شعوراً وإحساساً وعاطفة ، بخلاف ما لو نطقها شخص آخر ، ومن هنا فإن لغة الحوار المسرحى على خشبة المسرح تعطى دلالات انفعالية بخلاف ما لو قرىء نص المسرحية ، فإن القارىء لا يستمتع بلغتها استمتاعه بها من فوق خشبة المسرح(١) .

---

(١) أنظر : الدكتور إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ص

العلاقة بين اللغة والكلام

لقد أفاض علماء اللغة فى تحديد مفهوم كل من اللغة والكلام ، وحاولوا الكشف عن العلاقة بينهما : هل هما مترادفان ؟ أو متضادان ؟ أو مختلفان ؟ ونسوق هنا رأى كل من « دى سوسير » و « يسبرسن » :

يعرف الأول اللغة بأنها : « مجموعة من الصور الذهنية المستقرة فى العقل الجمعى »[1] فاللغة العربية ـ مثلا ـ مجموعة صور ذهنية تعلمها العرب واستقرت فى عقلهم الجمعى ، وعلى أساس من هذه الصورة المحفوظة فى الذهن يتعاملون باللغة . والكلام عنده هو تلك الصورة الصوتية التى ينطقها كل فرد من أفراد اللغة ، وعلى ذلك فما يتكلمه الشخص المعين لا يسمى لغة ، وإنما يسمى كلاماً .

وعلى ذلك يتضح الفرق بينهما على أنهما شيئان مختلفان : فاللغة أمر ذهنى ، والكلام أمر مادى محسوس نسمعه وندركه ، واللغة صور ذهنية ، والكلام أصوات منطوقة ، واللغة مرتبطة بالجماعة ، والكلام مرتبط بالفرد .

أما « يسبرسن » فاللغة عنده ذات مظهرين : ذهنى ومادى ، أى صور ذهنية تتحول إلى صور صوتية عند إرادة التعبير ، والنوعان لا ينفكان ، فهما جزءان فى شىء واحد هو اللغة ، وهما كوجهى العملة لا يستقل أحدهما ـ فى أداء وظيفته ـ عن الآخر ، واللغة على هـــذا موجودة عند الفرد بمظهريها الذهنى والمادى ، كما أن هناك لغة الجماعة ، ولكنه يتوصل إليها بالمنهج الآتى :

تدرس لغة كل فرد من أفراد الجماعة ، فتبرز فيما يسمى بالأنواع اللغوية ،

---

(١) انظر : يسبرسن . اللغة بين الفرد والمجتمع ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب ص ١٥ وما بعدها .

ومن هذه الأنواع أو اللغات تستخرج لغة الجماعة ، وذلك بإسقاط الفوارق اللغوية بين الأفراد ، والإبقاء على الخصائص اللغوية المشتركة بين الجميع[١] .

وعلى هذا تكون اللغة ليست أمراً ذهنياً فقط — كما رأى دى سوسير — وإنما هى أمر ذهنى وأمر مادى معاً لا ينفصلان ، وهى موجودة عند الفرد ، أى أن ما ينطقه الفرد الواحد من أبناء اللغة لا يسمى كلاماً فقط — كما ذهب دى سوسير — وإنما يسمى « لغة » ثم ، إن هناك لغة الجماعة ، ويتوصل إليها بالمنهج السابق ذكره .

وهكذا تتضح علاقة الكلام باللغة على أنه جزء منها والمظهر المادى لها ، وهذا ما يتفق مع نظرة علماء العربية ، فقد عرف النحويون واللغويون الكلام بأنه : اللفظ المفيد ، وفسروا « اللفظ » بمعنى الملفوظ والمنطوق ، و « المفيد » بأنه ما يؤدى معنى يحسن السكوت عليه ، مثل : محمد ناجح ، وقد يستعملون الكلام مرادفا للغة ، فيقولون : ليس هذا من كلام العرب ، وهذا كلام جيد ، أى لغة جيدة .

اللغة والفرد

إن الفرد من بين أبناء اللغة هو المستعمل الفعلى للغة ، فبجهازه النطق ينتجها ، وبواسطة جهازه السمعى يستقبلها ، وبعقله يدركها ويفهمها . ومن هنا ، فإنه يعبر بها عن عواطفه وأفكاره ورغباته ، ويحملها أحاسيسه وانفعالاته .

ولهذا ، فإن العلاقة بينهما قوية ومتبادلة ، فكل منهما يؤثر فى الآخر ، ويتأثر به . ومن مظاهر تأثير اللغة فى الفرد :

= أنها تعد سمة مميزة له عن الآخرين من أبناء لغته ، ولذا يقال : عرفته

---

(١) انظر : الدكتور عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، ص ١٦ ، ١٧ .

من كلامه أو من صوته ، فقد أصبحت اللغة جزءاً من شخصيته ، وهذا ماتشاهده فى طريقة نطق كل منا : فقد يكون نطقه بطيئا هادئا ، على حين يكون الآخر سريعا متعجلا بطبعه ، وإذا تعمقنا فى تحليل ظاهرة اختلاف الأصوات التى تعنى أنه لا يتفق اثنان من خلق الله فى صوتيهما تحليلا علميا وعمليا بواسطة أجهزة التحليل العلمية فإننا نرى أن المكونات الذبذبية لكل فرد تختلف عنها عند الآخرين ، وذلك راجع إلى اختلاف صناديق الرنين أى الفراغات الموجودة فى جهاز النطق بدءاً من الحنجرة والحلق والفم والأنف ، وهى التى تختلف فى أحجامها وأشكالها وسعتها وعددها من شخص إلى آخر ، ومن هنا كان لكل شخص خصائص صوتية معينة لا يشاركه فيها أحد ، وقد أفادت علوم الأمن والإجرام من هذه الحقيقة الصوتية واتخذت منها مايسمى ببصمات الصوت بدلا من بصمات أصابع اليد .

وهذه آية من آيات الله فى خلقه « خلق فسوى وقدر فهدى » تجعلنا نقف أمام الآية القرآنية « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » فنفهمها فهماً جديدا على أنه ليس المقصود باختلاف الألسنة اختلاف اللغات من عربية وحبشية وفارسية وألمانية ، وإنما الاختلاف كذلك فى داخل اللغة الواحدة بين أبنائها الذين وإن كانوا يتكلمون لغة واحدة إلا أن لكل واحد منهم خصائص صوتية خاصة فليسوا موضع اتفاق أو اتحاد فيها .

= وتؤثر اللغة فى الفرد فتصبح أداته فى تنمية فكره ، وإمداده بالمدركات التى ارتبطت بألفاظها وكلماتها ، وكلما تقدم به العمر كلما زاد قاموسه اللغوى الذى يعنى زيادة الأفكار والمعانى لديه ، وبذلك تصير اللغة أمام الفرد من أهم القنوات التى يستمد منها أفكاره ، وثقافته ، وألوان المعرفة ، وفنون القول ، وهذا مايلفت نظرنا نحن المربين والمربيات والقائمين على تربية أطفالنا إلى ضرورة اللغة بالنسبة للنمو الفكرى والعقلى عند الطفل ، فيجب

علينا أن نقدم له هذه اللغة بطريقة محسوبة ، وبعملية مخططة وفق مراحل نموه ، لتواكب تطور مظاهر النمو المختلفة فيه .

= كما أن اللغة من بين وسائل الانتماء لدى الفرد : فبها يحقق انتماءه لأسرته، وانتماءه لمجتمعه ، وانتماءه لدينه وعقيدته ، فباللغة يعيش مع أسرته ويتواءم معها ، وبها يتكيف مع مجتمعه ، ويتفاعل مع الآخرين ، ويتم تبادل المنافع والمصالح المشتركة ، وبها يعيش عقيدته ويتفاعل مع دينه ، ويمارس العبادات التى فرضها الله علينا .

والفرد كذلك يؤثر فى اللغة ، ومن مظاهر ذلك :

= أن اللغة وإن كانت أداة التفكير ووسيلته ، فإنها تتأثر بالنضج الفكرى والتقدم الحضارى والثقافى ، ومن هنا فإن الفرد بما يحققه من تقدم فكرى ، وازدهار ثقافى يؤثر فى اللغة . فلا يستعمل إلا العبارات القوية الراقية ، والأساليب اللغوية السليمة ، ويمكننا أن نلاحظ أثر ذلك على أطفالنا حينما نلحقهم بروضة الأطفال فى سن مبكرة ، فنجدهم يرددون العديد من الأناشيد والنصوص المتنوعة ، بينما نرى الأطفال الذين لم يتيسر لهم دخول هذه المدارس ، وينتظرون دورهم فى المدارس الابتدائية محرومين من ذلك ، وهذا بلاشك يؤثر على مستواهم الفكرى ونموهم العقلى ، كذلك نلحظ هذا الفرق بين الأطفال الذين يتعلمون فى المرحلة الابتدائية مثلا حين يختلف مستوى التعليم فى دقته ، وجديته ، وتوفر أدواته ووسائله : فالأطفال الذين يتعلمون فى مدارس راقية يتميزون فى تفكيرهم عن الذين يتعلمون فى مدارس متأخرة ، ومن هنا كانت الفكرة الاستعمارية فى إنشاء مدارس أجنبية فى بلادنا ، ويرتقون بالتعليم فيها إلى أعلى مستوى ، فتشدنا العاطفة تجاه أولادنا إلى إدخالهم فى هذه المدارس تاركين مدارسنا الوطنية أو العربية ، وبذلك يصبح أطفالنا لقمة سائغة فى فم هذا المستعمر ، وأداة طيعة فى أيديهم ، يشكلونها

وفق أغراضهم وأفكارهم المسمومة ، وهذا ما تستغله اليوم حركة التبشير في الوطن العربي ، وفي إفريقيا ، وغيرهما .

وهناك تجربة واقعية في مصر نلمس أثرها في النمو اللغوي بصورة واضحة وقد بدأت في النصف الأول من هذا القرن وهي : أن الآباء وأولياء الأمور كانوا يدخلون أولادهم « الكتاب » الذي كان يتوفر على تحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم التجويد القرآني في سن مبكرة تبدأ من الرابعة أو الخامسة ، ويستمر الطفل في هذا الكتاب حتى ينتهي من حفظ القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، ويحدث ذلك في سن الحادية عشرة أو العاشرة ، ولا يتأخر عن الثانية عشرة ، ثم بعد ذلك يدخلون الأزهر الشريف ، ومنهم من يدخل التعليم العام الابتدائي (المتوسط) ثم الثانوي ثم الجامعة ، ويتخرج الواحد فيعمل طبيبا أو مهندساً أو محامياً أو مدرساً ، وكان الملاحظ على هؤلاء الذين دخلوا التعليم العام أن مستواهم اللغوي أعلى بدرجة كبيرة من أقرانهم وزملائهم الذين لم يدخلوا الكتاب ولم يحفظوا القرآن الكريم : انهم أكثر نمواً في أسلوبها ، وفي مفرداتها ، وفي طريقة أدائها ، وفي كيفية نطق أصواتها وكانت تختفي بينهم ظاهرة أمراض الكلام في مراحل الطفولة المتوسطة من الفأفأة ، والتأتأة ، والثأثأة .. والسبب في كل هذا أن القرآن الكريم ـ وهو أعلى وأرقى مستوى لغويا عرفته العربية إلى يوم القيامة ـ قد جاءهم وهم في أهم مراحل النمو ، فحسن نطقهم ، وأكسبهم مرونة ودقة ، وزاد في رصيدهم اللغوي ، فكثرت مفرداتهم ، وتنوعت أساليبهم ، وارتقى تفكيرهم ، ونما نمواً كبيراً ، وانطبع هذا النمو اللغوي بكل صوره فيهم ، وظل ينمو ويزيد حتى نهاية مراحل الطفولة (سن الثانية عشرة) .

ويظهر أثر هذا التكوين اللغوي السليم الذي اكتسبوه من القرآن الكريم في مراحلهم التعليمية التالية ، ويحققون نجاحاً ، وتفوقا كبيرا ، في علوم اللغة العربية بخاصة ، وفي العلوم الأخرى بعامة ، وما زال هذا التفوق ملحوظا عليهم بعد تخرجهم من الجامعة ، وشغلهم أعلى المناصب .

فيا حبذا لو أفدنا من هذه التجربة، وحاولنا أن ندخل أبناءنا فى مدارس تحفيظ القرآن الكريم، لاسيما أن حكومة المملكة الرشيدة قد أولت هذا الأمر عناية خاصة فى السنوات الأخيرة، فأنشأت هذه المدارس فى جميع مناطق المملكة، وأصبحت هذه المدارس فى متناول أبنائنا وأولياء الأمور بلا معاناة ولا كلفة، بل إنها يسرت هذا الأمر، وشجعت على الالتحاق بهذه المدارس، فأعدت المكافآت المالية الشهرية للطالب فى مدارس تحفيظ القرآن الكريم فليتنا نتجه بأطفالنا إلى هـــذه المدارس؛ ليزداد نموهم اللغوى والعقلى والإسلامى.

وإذا ما تكون أطفالنا فى هذه المدارس، ونموا هذا النمو الواسع، فإنهم سوف يؤثرون فى اللغة؛ وسيؤدونها أداء سليما، ويكونون جيلا يحافظ على اللغة ويرفع من شأنها.

= ومن مظاهر تأثير الفرد فى اللغة أنه لظروف معينة قد يغير فى طريقة نطق صوت من أصواتها، ومع عدم التربية اللغوية، وعدم تصويب أخطائه وهو فى مراحل الطفولة يبقى هذا التغيير، ويتأصل فى لغة هـذا الفرد، وينتشر إلى الآخرين، ومع مرور الزمن يصبح هذا الخطأ جزءاً من اللغة، ويتوارثه الأجيال على أنه من اللغة.

وكثير من كلمات الإبدال والترادف يرجع أصلها إلى أخطاء الأطفال، وعدم الرقابة اللغوية من المشرفين على تربيتهم، فمثلا: قد تنطق الراء عند بعض الأطفال (غينا) فى مثل: «تسربل الدرع» بمعنى لبسه بالصورة المعروفة، ويهمل هذا العيب النطقى، وينتشر فيصبح هناك صورة جديدة هى «تسغبل الدرع»، ومع مرور الزمن تصير جزءاً من اللغة، فليس هـذا من قبيل الإبدال؛ لأن شرط الإبدال وجود علاقة صوتية بين الصوتين اللذين وقع فيهما الإبدال، وإنما هذا من قبيل عيوب النطق(١).

(١) انظر: الدكتور إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، الطبعة الثالثة ص ٦٩ وما بعدها.

وإذا كان جهلنا بتاريخ الكلمة العربية لا يعطينا حكما دقيقا على التغيير الذى أصاب أصواتها، فإن ذلك لا يمنعنا من القول بأن كثيرا من الأصوات اللغوية التى اختلف نطقها اليوم عما كانت عليه قديما – كأصوات الضاد ، والدال ، والقاف ، والجيم – يرجع إلى استعمالات فردية نسيها التاريخ .

كذلك ، فإن كثيرا من المفردات اللغوية التى نراها فى حياتنا الحاضرة يظهر فيه الآثار الفردية الواضحة ، فقد صنع بعض الناس كلمات لا عهد لنا بها من قبل بتأثير دافع الحاجة إلى استعمالها ، وأوضح مثال على ذلك : تلك الكلمات الأجنبية التى تسرى على الألسنة اليوم، ويتلقاها الناس بالقبول مثل : « كهروميكا » بمعنى : « كهربائية ميكانيكية » و « كيما » بمعنى : كيمائية ، ومثل : « أتوماتيك » بمعنى آلى ، ومثل : « فول » بمعنى : املأ خزان السيارة بالبنزين .. إلخ .

وإن كلمة « نكسة » بالمعنى الذى حدث فى سيناء سنة ١٩٦٧ من هذا القبيل ، فقد أخرجها بهذا المعنى الجديد شخص أو أشخاص ، ورددها الناس ، وانتشرت ، ومازالت فى وعينا وعلى ألسنتنا نحن العرب إلى اليوم، ولم تستطع انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ م أن تغير هذا المعنى أو تزيله من الاستعمال .

اللغة والمجتمع

اللغة – كما يقولون – ظل المجتمع ، تنمو بنموه ، وتجمد بجموده ، وأيضا تضعف بضعفه ، ومن هنا فإن العلاقة بينهما قوية ومتبادلة ، فكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به .

ومن مظاهر تأثير اللغة فى المجتمع :

= أنها علامته التى تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى ؛ لأن لكل مجتمع لغته الخاصة به .

= إنها ظاهرة اجتماعية من بين ظواهر المجتمع العديدة، ووسيلة لتجميع أفراده، والربط بينهم .

= أنها هي التي تبني حياته الفكرية ، وتنميها، فباللغة يتقدم فكر المجتمع، وبها يتم تسجيل أفكاره وآراء المصلحين ، ونظريات العلماء ، ثم يمكن نقلها من مكان إلى مكان، ومن عصر إلى آخر ، ولولا الكلمة المنطوقة والمحفوظة للشعر العربي في الجاهلية لما وصلنا شيء من أدب العرب قبل الإسلام ، ولفقدنا عنصراً مهما من العربية الفصحى هو الشعر ، بل الأدب الجاهلي كله ، وكذلك لولا تدوين العلوم الإسلامية والعربية ، أو بعبارة أخرى ، لولا اللغة المكتوبة لما وصلنا تراث السابقين .. إلخ .

= كذلك فإن اللغة هي أداة المجتمع في ممارسة حياته الثقافية، والاقتصادية، والدينية ، والسياسية، والاجتماعية، ولو أمكننا ان نتصور مجتمعاً بشريا بدون لغة كيف يكون حاله ؟ إنه سيكون أشبه بالمريض المشلول لا يستطيع حراكاً .

ومن مظاهر تأثير المجتمع في اللغة :

= أن صورة الطبقات الاجتماعية من عمال وصناع ومثقفين وأميين وحكام ومحكومين تنعكس على اللغة ، فنجد في مثل هذا النوع من المجتمعات ما يسمى « اللغات أو اللهجات الاجتماعية أو الطبقية » . ومن هنا فهناك اختلاف ما بين استعمال الحرفيين للغة واستعمال الأمراء لها ، وكذا بين استعمال البدو واستعمال الحضر وهلم جرا .

إذا أصيب المجتمع باحتلال مستعمر غاشم مدة طويلة من الزمن ، فإن هذا ينعكس بصورة سيئة على اللغة ، وإذا أنجز تحررا منه ، وأصبحت حريته بيده فسرعان ما ينعكس ذلك على اللغة .

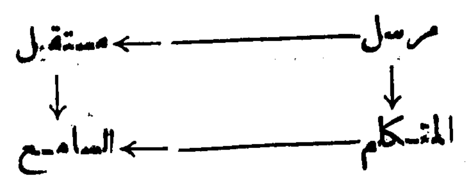
وإذا حقق المجتمع نضجا فكريا ، وتقدما حضاريا انعكس ذلك على اللغة انعكاساً إيجابياً .

وأى تغيير - بالإيجاب أو بالسلب - تبرز صورته سريعاً على اللغة ، لأن اللغة هى مرآة المجتمع ، تنطبع فيها كل بصماته . وأقرب الأمثلة على ذلك هذا التغيير الذى أحدثه الإسلام الحنيف فى المجتمع العربى فكرياً ، وثقافياً ، وعلمياً ، وخلقيا ، وعقديا ، واجتماعيا .. إلخ ، فسرعان ما انعكس هذا التغيير الشامل على اللغة العربية ، فنمت ألفاظها ، وتنوعت أساليبها ، وارتقت فى معانيها وصورها . ويكفينا مثالا على ذلك : تلك الثروة اللفظية التى أضافها الإسلام إلى اللغة ، ألا وهى « المصطلحات » سواء أكانت فقهية ، أم نحوية ، أم صرفية ، أم بلاغية ، وسواء أكانت تنتمى إلى التفسير وعلومه ، أم إلى الحديث وعلومه ، أم إلى غير ذلك .

* * *

كيف تتم عملية الكلام ؟

اللغة يتم التفاهم بها بين طرفين :



ويكون بينهما الوسط الناقل الذى غالباً ما يكون الهواء ، ومن هنا فعلينا أن نقف وقفة سريعة مع كل مرحلة من المراحل الثلاث : مرحلة النطق ، وتتصل بالمتكلم أو المرسل . ومرحلة الانتقال ، وتتصل بالوسط الناقل للرسالة التى أصدرها المتكلم ، ومرحلة الإدراك والسمع ، وتتصل بالمستمع أو المخاطب ، ولكى يكون التوصيل جيدا فلابد وأن تكون اللغة فى هذه المراحل سليمة صحيحة تامة ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان المتكلم صحيحا سليما خاليا من العيوب النطقية ، والأمراض الكلامية ، وإلا إذا كان الوسط

الناقل للكلام جيدا وخاليا من العوائق والعيوب ، وأن يكون المخاطب صالحاً لاستقبال الكلام أو اللغة المنطوقة ، بمعنى سلامته من العيوب السمعية والإدراكية ، وقادراً على الإجابة على الرسالة الواردة إليه ، فيكون جهازه النطق كذلك سليما .

وتحدث عملية الكلام بأن تكون الرئتان مملوءتين بهواء الشهيق ، ثم يصدر الأمر من المخ ـ بعد عملية مركبة من التفكير ، واتخاذ قرار التكلم بالعبارة المعنية ـ إلى الحجاب الحاجز والقفص الصدرى بالضغط على الرئتين، فيندفع الهواء منهما مارا بالقصبة الهوائية ، فالحنجرة ، وإن كان الصوت الذى ينطق مجهورا صدر الأمر من المخ إلى الوترين الصوتيين فى الحنجرة بالاهتزاز ، وباهتزازهما يهتز الهواء ، وإن كان الصوت مهموساً جاءهما الأمر من المخ بالابتعاد ، وتكوين فتحة على شكل مثلث متساوى الساقين ، فيمر الهواء منها دون أن يحدث له اهتزاز ، ثم يمر ببقية جهاز النطق ، حتى يصل إلى المكان الذى ينطق منه : فإن كان الصوت الذى يراد نطقه هو «الكاف» مثلا فعندما يصل الهواء الذى لم يحمل باهتزازات الوترين إلى أقصى اللسان وأقصى الحنك الأعلى يكون الأمر قد صدر من المخ لهذين العضوين بإحداث الغلق المحكم الذى يحبس معه الهواء ، وبعد انتهاء فترة الغلق ، يأتيهما الأمر بالابتعاد ، فيحدث مايسمى بالفك أو الانفجار ، ثم يمر الصوت بعد ذلك من الفم إلى خارج الشفتين ، فيسمع المخاطب صوت الكاف ، ومع الأصوات الأنفية يخرج الصوت ـ بعد تكوينه فى مخرجه ـ من الأنف ، وذلك مع الميم والنون .

ويلاحظ أن عملية الضغط على الرئتين من قبل الحجاب الحاجز الذى يضغط من أسفل الرئتين إلى أعلى ، والقفص الصدرى الذى يضغط عليهما من الأمام والجانبين تحدث على شكل ضغطات متتابعة بحسب عدد المقاطع التى

توجد فى الكلمة ، فكلمة « مستقر » يحتاج فى نطقها إلى ثلاث ضغطات ، لأن بها ثلاثة مقاطع هى :

مُسْ + تَ + قِرّْ
↓ ↓ ↓
متوسط قصير طويل

كما يلاحظ أن كمية الهواء مع كل مقطع تختلف باختلاف كمية المقاطع(١) ، فهناك المقطع القصير ، والمتوسط ، والطويل ، والطويل جدا - والكلمة التى معنا تبدأ بمقطع متوسط (مس) ، ثم المقطع القصير (ت) ، ثم المقطع الطويل (قرْ) ، وكمية الهواء مع الأول أكثر منها مع الثانى ، ومع الثالث أكثر من الأول ، وهذا يتم بطريقة محسوبة بدقة ، ومن منا فكر فى هذا ، وفى كيف ينطق ويتكلم !! وصدق الله العظيم إذ يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

* * *

---

(١) إن تقسيم المقاطع فى اللغة العربية حسب الكمية على النحو التالى :

ا - مقطع قصير ، ويتكون من :
صامت + حركة ، مثل « كَ » من « كتب » .

ب - مقطع متوسط ، ويتكون من :
- صامت + حركة + صامت ، مثل «من - لن» .
- صامت + حركة طويلة ، مثل ما - لا .

ج - مقطع طويل ويتكون من :
- صامت + حركة + صامتان ، مثل : مصر - شهر .
- صامت + حركة طويلة + صامت ، مثل : باب - ناب .

د - مقطع طويل جداً ويتكون من :
صامت + حركة طويلة + صامتان ، مثل : حاد - ضال .

كيف يتم انتقال الصوت وإدراكه؟

إن الأصوات المنطوقة بمجرد أن تغادر فم المتكلم تتحول إلى أصوات فيزيائية لها خصائصها الطبيعية من الشدة والنغمة والزمن واللون ، وتنتقل عبر الوسط الناقل الذى غالبا ما يكون الهواء على شكل تضاغط وتخلخل، بمعنى أن الهواء الخارج من فم المتكلم يضغط على جزئيات الهواء الملاصقة للفم ، فتستجيب لهذا الضغط ، فتهتز هى الأخرى ذرات الهواء المجاورة ، ثم تعود إلى صورتها الأولى ، ووضعها السابق ، وهكذا تستمر عملية التضاغط والتخلخل ، حتى تصل إلى أذن السامع ، ومعنى ذلك أن الصوت الخارج من فم المتكلم لايخترق الهواء بذاته حتى يصل إلى السامع ، وإنما بالاهتزاز ، كل جزئيات من الهواء تهتز وتضغط على الجزئيات المجاورة لها ، وهذا مايسمى بالموجة الصوتية ، وهى تشبه تماما الموجة المائية عندما تلقى بحجر فى ماء هادىء أو راكد ، فإننا نلاحظ تكون دوائر سريعة تبدأ ضيقة ، ثم تتسع حتى تصل إلى نهايتها .

يصل الصوت إذن إلى أذن السامع على شكل اهتزازات ذات شدة ، ونغمة وذات زمن معين ، ولون خاص ، فيجمعها صيوان الأذن ، وتدخل منه إلى الصماخ، ثم طبلة الأذن ، فتهتز الطبلة بنفس الصورة والقوة التى عليها اهتزازات الصوت ، فتهز الركاب ، الذى يهز بدوره السندان ، ثم تنتقل الاهتزازات إلى الأذن الوسطى ، فتمر بالقنوات الهلالية ، ثم بالسائل التيهى، الذى يهتز، فيهز معه أعصاب السمع المغموسة فى هذا السائل ، ثم تنقل هذه الأعصاب الاهتزازات إلى المخ ، فيدركها المخ ، ويتعرف عليها : هل هذه اهتزازات السين أو اللام ، وبعد أن يتم التعرف على اهتزازات أصوات الكلمة الواحدة يدرك معناها ، وهكذا حتى ينتهى من إدراك الجملة المنطوقة ، والرسالة الصوتية التى أرسلها المتكلم ، فيبدأ المخ بعد ذلك فى خطوات الرد والاستجابة ، وبعد أن يحدد الفكرة التى سيرد بها على الرسالة ، يصدر

أوامره للأعصاب التى تحرك العضلات المعينة فى أعضاء النطق ، ليأخذ دوره فى عملية نطق جديدة ، ثم بعد نطقها تنتقل عبر الوسط الناقل إلى المتكلم الأول ، وهنا يتحول المتكلم إلى مستمع ، والمستمع إلى متكلم ، وهكذا تدور عملية التخاطب . .

وإذا عرفنا هذه المراحل الدقيقة فى عمليتى الكلام والسمع أدركنا خطورة الأمراض التى تكون فى جهاز النطق ، أو جهاز السمع لدى الأطفال وهم فى أول مرحلة من مراحل التعلم اللغوى ، واللغة تنشأ لديهم – كما سيأتى توضيح ذلك – بواسطة وقوع الرسائل الصوتية على آذانهم ، ثم بعد الإلف بهذه القوالب الصوتية ، تبدأ عندهم مرحلة الربط بين الصورة الصوتية – التى أحستها الأذن وأدركها المخ – وبين المعنى الذى تدل عليه ، وهذا مايعرف باللفظ والمعنى ، أو الدال والمدلول . ويخزن ذلك فى المخ ، ثم تتكرر هذه العملية مع الكلمة الثانية ، وكل مرة يزيد رصيده اللغوى من الكلمات المتعلمة بلفظها ومعناها ، أو بصورتها الصوتية والمعنى الذى ارتبطت به .

فأى خلل لدى الطفل يعوق إنتاج الأصوات سيكون له أثره البالغ على لغة الطفل مستقبلا ، وأى خلل فى جهازه السمعى سيشوه الصورة المسموعة للأصوات ، فيؤثر ذلك عليه مستقبلا ، كما أن أى خلل فى عملية توصيل الكلام إلى الطفل يضر بلغته كذلك . ولذا يجب الالتفات فى الشهور الأولى للطفل إلى مثل هذه العيوب النطقية أو الأمراض الكلامية ، كما يجب أن يطب الوالدان إلى العلاج سريعا على أيدى المتخصصين ، حتى لا يحرم أبناؤنا القدرة على النطق الصحيح ، أو السمع السليم .

• • •

النمو اللغوى

إن الحديث عن النمو اللغوى أحوجنا - كما سبق - إلى تلك المقدمة التى طالت نسبيا ، لكى يقف القارىء على تصور مترابط وإن كان سريعا عن :

= أهمية اللغة التى هى من أجل نعم الله على الإنسان - فى حياة الإنسان .

= اهتمام العلماء بها على اختلاف العصور والأزمان ، وعلى اختلاف تخصصاتهم .

= الوظائف الاجتماعية للغة من خلال تلبيتها لأغراض المجتمع فى مختلف نشاطاته .

= الوظائف النفسية لها من واقع ارتباطها بالنفس البشرية وبرغباتها وانفعالاتها .

= الوظائف العقلية للغة من حيث أهميتها فى بناء الفكر وتنميته لكل من الفرد والجماعة .

= العلاقة بين اللغة والفرد ، وبينها وبين المجتمع ، ثم بينها وبين الكلام .

= كيف تتم العمليات اللغوية الثلاث : عملية النطق ، وعملية انتقال الكلام ، ثم عملية الإدراك .

وبهذا يستطيع القارىء أن يعيش مع مراحل النمو اللغوى ، ويفيد منه فى تربية أطفالنا .

إن اللغة - كما سبق - لها مظهران : ذهنى ، وهو عبارة عن الصور الذهنية المستقرة فى عقل الجماعة ، ومظهر مادى يتمثل فى الكلام الذى هو أصوات منطوقة للتعبير عن هذه الصور الذهنية .

والحديث عن نمو اللغة عند الطفل يدور حول أمرين هامين : اكتساب اللغة ، ثم التعليم اللغوى ، وما يستتبع ذلك من المراقبة النطقية ، والتربية اللغوية .

أولا : اكتساب الطفل للغة :

يمر الطفل فى اكتساب لغته بمراحل :

الأولى : مرحلة الوليد ، أو التى تسمى «مرحلة الصراخ» ، وتبدأ بصيحة الميلاد التى هى بداية التنفس ، ثم الصراخ الذى يصل مجموع زمنه إلى ساعتين فى اليوم ، وفى هذا الصراخ تعبير عن حالته الانفعالية ، فقد أثبت علماء النفس بناء على التجارب العملية أن الصرخة الرتيبة تدل على الضيق ، والحادة تدل على الألم ، والصرخة الطويلة تدل على الغيظ(١) .

وعلى هذا فإن صراخ الطفل أمر ضرورى له ، حيث يتخذه وسيلة للتعبير عما يحس به ويعانى منه ، ولهذا فإن من الخطأ الحيلولة بين الوليد وبين صراخه ، كما أن الصراخ له أثره فى تقوية الجهاز النطق ، ومن المظاهر اللغوية فى هذه المرحلة أيضا إصدار الأصوات العشوائية التى لا تعبر عن معنى لأنها بطريقة غير إرادية ، غير أنها تعد المادة الخام التى تتكون منها الأصوات والمقاطع والكلمات فيما بعد .

وفى هذه المرحلة يؤثر كل من النضج والبيئة فى سرعة تشكيل هذه الأصوات العشوائية إلى النمط اللغوى ، ومن هنا فإن على الأسرة أن تلحظ ذلك ، وتحاول تهيئة الجو للنمو اللغوى ، ومراقبة الطفل لغويا ، وتشجيعه على استخدام الأصوات اللغوية بتكرارها بصورة واضحة على سمعه .

المرحلة الثانية : مرحلة الرضيع ، أو مرحلة الأصوات اللغوية التلقائية : وفيها تتحول الأصوات العشوائية إلى أصوات لغوية تفهمها الأم ، ويبدأ الرضيع فى تقليد الأصوات اللغوية التى تقع على سمعه عن يحيطون به ، وتبدأ هذه المرحلة فى الشهر الخامس تقريبا ، وفيها يستجيب الرضيع لهذه الأصوات اللغوية المسموعة فينطقها معبرا عن سروره أو ألمه .

---

(١) انظر : علم نفس النمو ص ١١٤ .

ويأخذ الرضيع فى نطق الأصوات ، وبناء على تنوعها بالنسبة لمخارجها وكذا لصفاتها ، فإن الأصوات الحلقية (أ ـ هـ ـ ع ـ ح ـ غ ـ خ) تكون أول الأصوات التى ينطقها ، وقد تكون الصعوبة الموجودة فى هذه الأصوات مناسبة لبذل الجهد فى محاولة التعبير عن انفعالاته وآلامه ، ثم تظهر الأصوات الشفوية (م ـ ب ـ ف) حيث تكون عضلات الشفتين وأعصابهما قد مرنت عن طريق الرضاعة ، ثم يمزج الرضيع بين النوعين مثلا : (أب ـ أم) ، ثم تظهر الأصوات الأسنانية (Dental) كالدال والتاء ، ثم الأصوات الأنفية (م ـ ن) ، وهكذا حتى يمتلك طريقة نطق الأصوات اللغوية جميعها(١) .

وينتقل الرضيع بعد نطق الأصوات اللغوية إلى نطق المقاطع الصوتية مثل : (با) و (ما) و (را) و (آ) ويكررها سعيدا بنجاحه فى نطقها فتتكون من تكرارها كلمات مثل : (بابا) و (ماما) . . . وهنا يدخل الرضيع مرحلة تكوين الكلمة من المقاطع الصوتية ، وتظهر الكلمة الأولى فى الشهر التاسع تقريبا ، وقد تتأخر إلى الشهر الخامس عشر عند الطفل العادى وتعد السنة الأولى من عمر الرضيع « مرحلة الكلمة الواحدة » حيث إنه يكون قد تمت عملية الربط بين الكلمة الصوتية ومدلولها ، وهذه بداية التعلم الفعلى والعملى للغة ، وذلك عن طريق التقليد للغة أبويه ، وفيه يتعرف على المعانى وعلى الألفاظ ثم على الربط بينهما .

ويلاحظ حين استعماله للكلمات أنه يدرك الأسماء ويستعملها قبل الأفعال وأن هذه الكلمات تأخذ لديه صفة العموم ، فتراه يطلق كلمة (بابا) مثلا على كل رجل يراه ، ويطلق كلمة (لبن) على كل طعام ، وبعد نمو الإحساس والانتباه تبدأ مرحلة التمييز الفكرى والتخصيص ، فيصبح قادراً على التمييز بين الأشياء ، والأنواع « والأشخاص ، فلا يطلق كلمة (بابا) إلا على أبيه

(١) انظر المرجع السابق ص ١٤٢ وما بعدها .

فعلا . ثم يصل الرضيع إلى (الإدراك) الذى هو عملية عقلية ، وأول خطوة من خطوات التفكير . ثم يقوم بعملية (التعميم) تلك التى توصله إلى عملية (التجريد) وهنا يصل إلى (الإدراك الكلى) . وعندما يحاول التعبير عن المدرك الكلى فإنه لا ينطق إلا كلمة واحدة ، فلم يصبح قادراً بعد على نطق الجملة وتكوينها ، فعندما ينطق الرضيع كلمة (محمد) مثلا ، فقد يقصد بها التعبير عن جملة مثل: محمد ضربنى ، أو : محمد أخذ لعبتى ، أو : أريد أن ألعب مع محمد وهذا هو ما يطلق عليه (الكلمة الجملة) .

وبعد أن يدخل نموه العقلى خطوة جديدة من خطوات التفكير - يتمكن فيها من تكوين المقدمات واستنتاج النتائج - يصبح حينئذ قادرا على تكوين العلاقة بين الكلمتين فيكون الجملة . وهنا تبرز عدة عوامل ، يكون لها الأثر الفعال فى النمو اللغوى لابد من الانتباه إليها ، والعمل على توفيرها : منها : الذكاء ، وسلامة الجهاز العصبى ، وثراء البيئة الثقافية والاجتماعية والفروق الفردية ، والفروق بين الجنسين، إلى آخره .

وعلى الأسرة فى هذه المرحلة التى تنتهى ببلوغ الرضيع عامين أن تقوم بمساعدات هامة وبوسائل التربية اللغوية، حتى يجتاز الرضيع هذه المرحلة الصعبة فى حياته اللغوية ، فمثلا : عند بداية نطقه للأصوات اللغوية تنطق أمامه حتى يقلدها تقليداً صحيحا ، وإذا كان هناك بعض الأصوات يخطىء فى نطقها بسبب أنه لم يوفق فى وضع أعضاء النطق الموضع الصحيح ،فلا يترك هذا بلا علاج،وقد يخطىء الأبوان حين يريان رضيعهما ينطق نطقا خاطئا فيكرران على سمعه هذه الصورة الصوتية الخاطئة كما نطقها ،ظنا منهما أن ذلك يساعده على النمو اللغوى ، إن ذلك يضلل الرضيع ، ويوصل له الخطأ ، فيصبح تخلصه منه فى المراحل اللاحقة من الصعوبة بمكان .

كذلك عندما يدخل الرضيع فى مرحلة تكوين المقاطع الصوتية ، فعلى

الأسرة مساعدته ليتقنها ، ويدخل إلى تكوين الكلمة ، فعندما ينطق المقطع (با) مثلا ، فعلى الأم أن تشجعه بتكرار هذا المقطع . ثم تحاول بعد ذلك أن تنطق له المقطع نفسه بكلمة تبتدىء به ، وتشير له إلى مدلوله ، فتقول : « بابا » ، وبتكرار هذه العملية عند دخول الأب يستعمل الرضيع كلمة « بابا » وهنا يتم ميلاد الكلمة ، وهكذا حتى يتعلم نطق العديد من الكلمات ، ويصبح لديه قاموسه اللغوى . ثم تساعده الأسرة فى تحقيق عملية التمييز والفصل بين الأشياء والأنواع والأشخاص ، ثم عملية تكوين الجمل . ثم فى عملية تنمية الثروة اللفظية .

ويلاحظ أن هنا عقبة أمام الطفل العربى ، وهى مواجهة نمطين من اللغة : الفصحى والعامية . لكن الذى يتعلمه هو « العامية » . ولو قدمنا الفصحى للرضيع فى مرحلة تكوين الكلمات ، وتكوين الجمل ، لتعلمها بسهولة ، ولنشأ عليها ، وهذا هو السبيل فى القضاء على الازدواجية اللغوية وعلى المعاناة التى يبذلها أبناؤنا فى تعلم الفصحى لأول مرة فى السنة الأولى بالمدارس الابتدائيـــة .

كما أنه من الممكن ألا نغفل عامل « وسائل الإعلام » وبخاصة الإذاعة والتليفزيون ، وليت البرامج الإذاعية والتليفزيونية تتسع لتقديم برامج لتنمية اللغة لدى الأطفال ! !

المرحلة الثالثة : مرحلة الطفولة المبكرة من ٢ - ٦ سنوات :

إن هذه المرحلة أسرع مراحل النمو اللغوى عند الطفل ، ففيها يحصل أكبر قدر ممكن من معجمه اللغوى ، ويتمكن من التعبير عن الأفكار تعبيراً سليما ، ويفهم لغة التخاطب فهماً دقيقا ، ويعبر عن نفسه أصدق تعبير ، ويحقق التوافق الشخصى والاجتماعى والنفسى ، ويكتمل نموه العقلى إلى درجة ملحوظة : ففى العام الثالث تبرز مظاهر النمو اللغوى فى زيادة المفردات زيادة كبرى ، وفى معرفة الصفات الكثيرة ، وبعض القواعد اللغوية مثل : الجمع

والمفرد . وفى العام الرابع يصبح قادرا على تبادل الحديث مع الكبار ، وعلى وصف الأشياء وصفا بسيطا ، وعلى الإجابة عن الأسئلة . أما فى العام الخامس فإنه يكون قادرا على تكوين الجمل الكاملة المشتملة على كل أنواع الكلام، أى أنه يكون الجملة من الفعل والفاعل ومتعلقاتها بما يتراوح عدد كلماتها من ٤ ـ ٦ كلمات . كما أن النمو اللغوى فى العام السادس يصل بالطفل إلى إدراك معانى الأرقام، ومعرفة الأوقات ومعانيها من الصباح، والمساء، والليل، والنهار والصيف، والشتاء، إلى آخره .

وهكذا يظهر النمو اللغوى فى هذه المرحلة بمظهرين :

(ا) الجمل القصيرة التى تتكون كلماتها من ٣ ـ ٤ كلمات ، وتأتى سليمة من الناحية الوظيفية ، إلا أنه قد يكون بها خطأ من ناحية التركيب اللغوى ، وهذا ما يحدث فى العام الثالث .

(ب) الجمل الطويلة التى تتكون كلماتها من ٤ ـ ٦ كلمات وتكون، كاملة مفيدة ، تامة الأجزاء، وأكثر تعقيدا ودقة فى التعبير . وهذا ما يبدأ ظهوره من العام الرابع .

وإليك هذا الجدول الذى يبين عدد كلمات الجملة مرتبطا بعمر الطفل(١) :

العمر بالسنة	عدد كلمات الجملة
٢ر٥	٣
٣ر٥	٤
٦ر٥	٥

(١) انظر علم نفس النمو ص ١٨٠ جدول « ١٦ » .

وفى هذه المرحلة يجب أن توظف العوامل التى تدفع النمو اللغوى قدماً إلى الأمام، مثل :

١ – توجيه البرامج الإذاعية والتليفزيونية، وغيرهما من وسائل الإعلام إلى النمو اللغوى .

٢ – التبكير بالتعليم وإلحاق الأطفال بروضة الأطفال، التى يجب أن تمارس التعليم بنظرياته الحديثة .

٣ – تجنب الطفل للاضطرابات الانفعالية والاجتماعية، حتى لا تؤثر على نموه اللغوى تأثيرا سيئاً .

٤ – تجنب الطفل مخالطة أقرانه الذين لم يتلقوا الرعاية اللغوية، أو الذين يستعملون الكلمات الفاحشة .

٥ – تحسين علاقة الأم بطفلها وكذا الجدة، وتهيئة الجو الأسرى بعامة بما يساعد على النمو اللغوى .

٦ – التأكد من سلامة الجهاز النطقى لدى الطفل، والمحافظة على بقائه سليما .

٧ – التأكد من سلامة جهاز السمع، وضرورة المسارعة بالعلاج إذا ظهرت أمراض سمعية .

٨ – الاهتمام بإصلاح عيوب النطق وأمراض الكلام، حتى لا يكون من العسير معالجتها فى الكبر .

٩ – الإكثار من سرد القصص الهادفة، والحكايات المفيدة، مع الحرص على الإلقاء الجيد، وحبذا لو ركزنا على القصص الخاص بالأنبياء والرسل، والحكايات الإسلامية، كغزوات الرسول عليه الصلاة والسلام، أو تاريخ صحابى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٠ - العمل على زيادة المحصول اللغوى من المفردات ، وقد دلت الإحصاءات والتجارب على أن معدل نمو المفردات لدى الطفل على نحو ماهو موضح فى الجدول الآتى[1] :

العمر بالسنة	عدد المفردات	الزيادة
٢ر٥	٤٤٦	١٧٤
٣	٨٩٦	٤٥٠
٣ر٥	١٢٢٢	٣٢٦
٤	١٥٤٠	٣١٨
٤ر٥	١٨٧٠	٣٣٠
٥	٢٠٧٢	٢٠٢
٥ر٥	٢٢٨٩	٢١٧
٦	٢٥٦٢	٢٧٣

رابعا : مرحلة الطفولة الوسطى من ٦ - ٩ سنوات :

وتوصف هذه المرحلة بأنها مرحلة التعبير التحريرى ، ويتعلم الطفل فى هذه المرحلة « الجمل المركبة الطويلة » ، وتنمو قدرته على التعبير التحريرى بانتقاله فى المدرسة من صف إلى صف ، ويلاحظ أن هذا النمو بطىء ، لأن عملية التعبير التحريرى معقدة .

وهنا تتضاعف مسئولية الأسرة ، فلابد من توفير الجو الملائم للطفل ، فتتم المحافظة عليه من الاختلاط بالأوساط الاجتماعية الفقيرة أو غير المثقفة ،

(١) المرجع السابق ، جدول « ١٧ » .

وذلك ، لأن الأطفال أو التلاميذ الذين يعيشون فى هذه الأوساط فى لغتهم استعمالات لغوية خاطئة أكثر من الذين يعيشون فى أوساط مثقفة راقية .

كما يأخذ الطفل فى الدخول إلى دور « القراءة » التى تقتضى التعرف على الجمل ، وربط مدلولاتها بأشكالها، وتحليل أجزائها من الكلمات والأصوات ، وتزيد سرعة الطفل فى القراءة الجهرية مع انتقاله من صف إلى صف ، أى مع نموه العقلى .

وتمتزج مسئولية الأسرة مع مسئولية المدرس بالنسبة لنمو اللغة عند التلميذ فى مراعاة ما يأتى :

١ — تشجيع التلميذ على الكلام والتحدث ، والتعبير الحر ، بعيدا عن الخوف والخجل .

٢ — تنمية عادة الاستماع من التلميذ ، وكذا تعويده على القراءة الجهرية .

٣ — مراقبة الاستعمال اللغوى ، واستعمال الكلمات ، ثم الجمل استعمالا صحيحا .

٤ — عرض النماذج اللغوية الجيدة على الطفل ، ليتأثر بها فى المنزل وفى المدرسة .

٥ — إعداد مكتبة له تتناسب مع مستواه الفكرى، وتنسيق قراءته فيها بصفة منتظمة .

٦ — المراقبة اللغوية وتصحيح الاستعمالات الخاطئة عند الطفل تدريجيا حتى لا يؤدى الإسراف فى التصحيح إلى شعور بالخوف من الخطأ ، فيهرب نفسيا من القراءة ، ويضيع الهدف التربوى .

خامسا : مرحلة الطفولة المتأخرة : من ٩ - ١٢ سنة :

وفى هذه المرحلة يزداد فهم الطفل للمفردات ، التى تزداد لديه بشكل ملحوظ

كما أنه يتمكن من إدراك العلاقة بين الكلمات المتشابهة، والمترادفة، والمشتركة والمتضادة، كذلك يدرك تماماً معانى المجردات كالكذب، والصدق، والعدل والظلم، والحرية ... إلخ. وأيضا يمتلك القدرة على النقاش والحاجة، ويتذوق ما يقرأ، ويفهمه جيدا.

وهنا تتضاعف جهود البيت مع جهود المدرسة، فى رعاية الطفل من جميع النواحى، وبخاصة من الناحية اللغوية حيث، إنه على أبواب مرحلة جديدة وخطيرة هى « المراهقة ».

والتعاون مع المدرسة أمر ضرورى يجب أن تدركه الأسرة، وتذكر نفسها بهذا الواجب دائما، وعلى ولى الأمر أن يتابع ابنه، ويكون قريبا دائما من المدرسة؛ ليقف على سلوك ابنه، وليكتشف مبكرا أى مظهر سلبى فى حياته. فيطب لعلاجه، وهذا ما تنادى به مدارسنا ومعاهدنا، وتناشد أولياء الأمور فى أن يتخلصوا من هذه السلبية، وهذا ما أقرته النظريات والتجارب التربوية، حتى يؤدى التعليم رسالته، ويصل أبناؤنا وبناتنا إلى الصورة المثلى فى أخلاقهم، وسلوكهم، وتفكيرهم، ولغتهم.

• • •

ثانيا: التعلم اللغوى:

بعد هذا الحديث عن عملية اكتساب الطفل للغة، ومراحل نموها يأتى دور الحديث عن النظريات التربوية واهتمامها بمسألة التعلم اللغوى، من حيث إنه طريق يسهم فى اكتساب اللغة، عن طريق المناهج المقننة فى مراحل التعليم الابتدائية والمتوسطة، وكذا الثانوية.

لقد ظهرت طرق عديدة فى التعلم اللفظى، وبخاصة فى بداية القرن العشرين للتوصل إلى النمو اللغوى السليم، منها:

= الحفظ الصم ، وهو يعتمد على المادة اللغوية التى يصبح اللفظ فيها كمثير ، وإدراك المعنى كاستجابة لهذا المثير .

= النظرية الكلية التى تدعو إلى إدراك المعنى الكلى ، عن طريق الجملة اللغوية ، كصورة لفظية كلية دون تحليلها فى بداية الأمر إلى كلمات ، والكلمات إلى مقاطع ، والمقاطع إلى أصوات ، وإنما يتم هذا بعد أن يقطع الطفل شوطا فى التعلم اللغوى .

وقد زاد اهتمام العلماء بالتعلم اللفظى ، فحاولوا اكتشاف طرق أكثر جدوى وكان منها :

(ا) طريقة الارتباط الثنائى : تلك التى بدأت بالاعتماد على تقديم المادة اللغوية للطفل ، فى شكل قوائم من الألفاظ ، مرتبة زوجيا ، ليسهل تعلمها واستذكارها ، ثم تطورت بما يخدم عملية التعلم بسرعة أكثر ، مثل : البحث عن الوسائل الجيدة التى تساعد على تذكر الربط بين الكلمات المتعلمة ، كتقسيم قائمة الألفاظ إلى مجموعات متجانسة من حيث المجموعات السهلة ثم الصعبة ، أو المجموعات التى سبق تعلمها ، ثم المجموعات الجديدة التى يتعلمها الطفل لأول مرة ، أو أن تنظم القائمة تنظيما خاصا ، كالتنظيم الرأسى للكلمات أو الأفقى ... إلخ .

(ب) طريقة التسلسل اللفظى : وذلك بإعداد قائمة من الكلمات فى سلسلة معينة ، بحيث إن الكلمة الأولى تقود إلى الثانية ، والثانية تقود إلى الثالثة ، وهكذا ، فمثلا « ذهب محمد إلى المدرسة » نرى أن الفعل « ذهب » يثير فى عقلية المتعلم من الذى ذهب ؟ فتقدم له السلسلة اللغوية كلمة « محمد » ، وهذا بدوره يثير سؤالا ، إلى أين ذهب ؟ فتقدم له السلسلة اللغوية ذلك (إلى المدرسة) ، ويمكن أن يدعم هذا التسلسل بتعريف الطفل ببعض القواعد العامة للغة ، مثل : أين يكون موقع الفعل فى اللغة بعامة ؟ وأين يكون موقع الفاعل والمفعول ؟ .. إلخ .

(ج) طريقة الاستدعاء الحر : وذلك بأن نعرض على الطفل قائمة من الكلمات على فترات زمنية معينة ، ثم يطلب منه تذكر مايستطيعه منها دون ترتيب ، ثم تتكرر هذه العملية ، مع تغيير الترتيب للكلمات فى المرة الأولى حتى يتم حفظها واسترجاعها .

وهناك محاولات كثيرة من علماء اللغة ، وعلماء النفس ، فى الوصول إلى أمثل الطرق المجدية فى تعليم اللغة ، وهناك العديد من البحوث والتجارب التى تهدف إلى تطوير التعلم اللفظى ، وتحقيق النمو اللغوى على أكمل وجه .

وهذه القضية - أعنى قضية تعليم اللغة - يجب أن نوليها عناية خاصة فى مدارسنا ومعاهدنا ، وخاصة المرحلة الابتدائية ، حتى يتعلم أبناؤنا اللغة العربية الفصحى بمنهج سليم ، وطريقة ناجحة ، فإلى متى تظل العشوائية مسيطرة فى تعليم العربية ؟ إن تعلم أطفالنا للعربية يحتاج إلى تحديد طريقة تربوية صالحة ، يلتزم بها المدرسون جميعاً فى الوطن العربى ، بدلا من الاعتماد على خبرة المدرس ومهاراته أو عدم مهارته ، وعلى نجاح طريقته أو عدم نجاحها .. هـــذا وبالله التوفيق ؟

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد .

من أهم المراجع

١ - الدكتور / إبراهيم أنيس :

= من أسرار اللغة - الطبعة الثالثة، ط الأنجلو المصرية.

= دلالة الألفاظ " "

= اللهجات العربية " "

٢ - ابن جنى :

= الخصائص : تحقيق الشيخ محمد على النجار ، ط دار الكتب المصرية .

= سر صناعة الإعراب تحقيق الدكتور حسن هنداوى.

٣ - الدكتور / أحمد أبو زيد :

= عالم الفكر ، المجلد الثانى ، العدد الأول .

٤ - الدكتور / تمام حسان :

= مناهج البحث فى اللغة - الطبعة الأولى .

= اللغة مبناها ومعناها - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٥ - الدكتور / عبد الرحمن أيوب :

= أصوات اللغة - الطبعة الثانية ١٩٦٨م .

٦ - فندريس :

= اللغة : ترجمة الدكتورين القصاص والدواخلى .

٧ ـ الدكتور / كمال محمد بشر :
= قضايا لغوية ، الطبعة الأولى .
= علم اللغة العام ـ الأصوات ـ دار المعارف ١٩٧٠م
٨ ـ الدكتور / محمود السعران :
= اللغـــة والمجتمع رأى ومنهج . دار المعارف . الطبعة الأولى .
= علم اللغة مقدمة للقارئ العربى ، دار المعارف ١٩٦٢م
٩ ـ الدكتورة نوال محمد عطية :
= علم النفس اللغوى ـ دار المعارف .
١٠ ـ يسبرسن : = اللغة بين الفرد والمجتمع ، ترجمة الدكتور / عبد الرحمن أيوب .
١١ ـ = علم نفس النمو .
١٢ ـ = فن التدريس .
١٣ ـ الدكتور مصطفى فهمى :
= سيكولوجية التعلم .

(الكف اللفظي في ضوء الدراسات النحوية)

بقلم
د/ سمير أحمد عبد الجواد
أستاذ مساعد بقسم اللغويات

معنى الكف :

للكف في لغة العرب معنيان : الجمع والمنع .

يقال : كف الشيء يكفه كفا : جمعه. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « المؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته »[1] أي : يجمع عليه معيشته ويضمها إليه .

وكففت الرجل عن الشيء كفا : منعته : فكف هو ، يتعدى ولا يتعدى والمصدر واحد . وقولهم : لقيته كفة كفة - بفتح الكاف - أي : كفاحا، وذلك إذا استقبلته مواجهة ، وهما اسمان جعلا اسما واحداً وبنيا على الفتح ، كأن كل واحد منهما قد كف صاحبه عن مجاوزته إلى غيره ، أي : منعه[2] .

ويحتمل المعنيين قوله عليه الصلاة والسلام « أمرت ألا أكف شعراً ولا ثوبا »[3] يعني في الصلاة .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/١٩٠ ت / محمود محمد الطناحي ط / دار إحياء التراث العربي .

(٢) انظر : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري (ك ف ف) ت / أحمد عبد الغفور عطار ط / دار العلم للملايين - بيروت - لسان العرب : لابن منظور (ك ف ف) ط : دار المعارف .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/١٩٠ .

قال ابن الأثير : « أى لا أضمهما من الاسترسال حال السجود ليقعا على الأرض ، ويحتمل أن يكون بمعنى الجمع : أى : لايجمعهما ويضمهما »[1].

أما الكف فى الاصطلاح فلم أقف على تعريف له فى كتب النحو ، ويمكن تعريفه بأنه (منع العامل من التسلط على المعمول) والعلاقة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى واضحة .

النقاط التى يتناولها البحث :

يتناول البحث النقاط الآتية :

١ ـ الكف بالألف .

٢ ـ الكف بما .

(ما الكافة عن عمل الرفع ـ ما الكافة عن عمل النصب والرفع ـ ما الكافة عن عمل الجر) .

٣ ـ الأشياء التى تكف ما بعدها عن العمل فيما قبلها .

١ ــ الكف بالألف

من الظروف اللازمة للإضافة إلى المفرد (بين) ، وقد يقال (بينا) بالألف كقول العربى :

فبينا نحن نرقبه أتانا معلق وفضة وزناد راع[2]

---

(١) المرجع السابق ٤/١٩٠ .

(٢) للبيت من شواهد الكتاب لسيبويه ١/٨٦ ط / بولاق ، المحتسب فى تبين وجوه شواذ القراءات / لابن جنى ٢/٧٨ ت / على النجدى ناصف ، ط / دار التحرير ـ شرح المفصل لابن يعيش ٤/٩٧ ، ٦/١١ ط / الطباعة المنيرية ـ اللسان (بين) ط / دار المعارف .

واختلف فى هذه الألف : فذهب ابن جنى إلى أنها إشباع ، وإلى أنه أراد (بين نحن نرقبه أتانا) فأشبع الفتحة فحدثت بعدها ألف .

فإن قيل : فإلام أضاف الظرف الذى هو (بين) وقد علمنا أن هـذا الظرف لا يضاف من الأسماء إلا إلى ما يدل على أكثر من الواحد ، أو ما عطف عليه غيره بالواو دون سائر حروف العطف نحو : المال بين القوم ، والمال بين القوم ، والمال بين زيد وعمرو ، وقـوله (نحن نرقبه) جملة ، والجملة لا مذهب لها بعد هذا الظرف ؟

فالجواب : أن ههنا واسطة محذوفة ، وتقدير الكلام (بين أوقات نحن نرقبه أتانا) أى : أتانا بين أوقات رقبتنا إياه ، والجمل مما يضاف إليها أسماء الزمان نحو : أتيتك زمن الحجاج أمير وأوان الخليفة عبد الملك ، ثم إنه حـذف المضاف الذى هو (أوقات) وأولى الظرف الذى كان مضافا إلى المحذوف الجملة التى أقيمت مقام المضاف إليها ، كقوله تعالى ذكره (واسأل القرية)(١) أى : أهلها »(٢) .

ويرى الفراء أن أصل (بينا) : بينما فحذفت الميم ، قال أبو على : هذا لا يعرف إلا بوحى أو خبر نبى(٣) .

وذهب السكاكى إلى أصله (بيناً) بالتنوين ، والتنوين فيه للعوض عن المضاف إليه المحذوف وهو (الأوقات) ثم أبدل الألف من التنوين فى الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف ، فثبتت الألف فيه ثبوتها فى الوقف بدل التنوين(٤) .

---

(١) سورة يوسف الآية ٨٢ .

(٢) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١/٢٤ ت / د . حسن هنداوى ط / دار القلم ـ دمشق ـ خزانة الأدب للبغدادى ٣/١٧٩ ت / عبد السلام هارون ط / الهيئة العامة للكتاب .

(٣) خزانة الأدب ٣/١٧٩ .

(٤) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١١٤ تعليق زرزور ط / دار الكتب العلمية ـ بيروت وانظر : الخزانة ٣/١٧٩ .

وعلى هذا فألف (بينا) عوض العوض ، ومثله غير معروف ، ويقتضى أيضا أن يكون (بينا) غير مضافة إلى الجملة(١) .

وذهب ابن مالك إلى أن الألف زائدة من غير إشباع ، وعند زيادتها يجوز وجهان : بقاء الإضافة وانكفافها ، إلا أن الانكفاف قبل اسم عين أكثر من بقاء الإضافة(٢) .

ويرى الرضى أن الألف إشباع وهى كافة لبين عن الإضافة إلى المفرد حيث قال : « ولما قصد إلى إضافة (بين) اللازم إضافته إلى المفرد إلى جملة - والإضافة إلى الجملة كلا إضافة - زادوا عليه (ما) الكافة ، لأنها التى تكف المقتضى عن الاقتضاء ، أو أشبعوا الفتحة فتولدت ألف ، لتكون الألف دليل عدم اقتضائه للمضاف إليه ، لأنه كأنه وقف عليه ... وأصل (بين) أن يكون مصدراً بمعنى الفراق ، فتقدير : جلست بينكما ، أى : مكان فراقكما، وتقـــدير : فعلت بين خروجك ودخولك ، أى : زمان فراق خروجك ودخولك ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبين مستعمل فى الزمان والمكان ، وأما إذا كف بما أو الألف وأضيف إلى الجمل فلا يكون إلا للزمان »(٣) .

فما والألف - عند الرضى - كفتا (بين) عن الإضافة إلى المفرد وهيأتها للإضافة إلى الجملة .

---

(١) الخزانة ٣/١٧٩ .

(٢) شرح الكافية الشافية لابن مالك ٢/٩٣٦ ت : د/ عبد المنعم هريدى ط : دار المأمون للتراث .

وانظر : مغنى اللبيب لابن هشام ١/٣٤٥ ، ٤١١ ت : د/ مازن المبارك وآخر ط : لاهور - الخزانة ٣/١٧٩ :

(٣) شرح الكافية للرضى ٢/١١٣ ط : دار الكتب العلمية - بيروت - الخزانة ٣/١٧٩ .

وعلى هذا حمل قول هند بنت النعمان :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس ننصف[١]

وأجاز بعض النحاة كون الألف بعض (ما) الكافة ، وهذا أبعد الأقوال[٢] .

والأولى بالقبول من هذه الآراء ماذهب إليه المحقق الرضى ، ويؤيده أن (بين) قد أضيفت إلى المفرد فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

بينا تعانقه الكماة وروغه يوماً أتيح له جرىء سلفع[٣]

فلا مانع من إضافتها إلى الجملة الاسمية أو الفعلية[٤] ، وإلى هذا مال ابن مالك[٥] وابن عقيل[٦] .

٢ — الكف بما

تنقسم (ما) الكافة ثلاثة أقسام :

(أ) ما الكافة عن عمل الرفع

(ب) ما الكافة عن عمل النصب والرفع

---

(١) البيت فى : أمالى ابن الشجرى ٢/١٧٥ ط : دائرة المعارف العثمانية — المغنى ١/٣٤٥ ، ٤١١ الخزانة ٣/١٧٨ . (٢) المغنى ١/٣٤٥،٤١١ — الخزانة ٣/١٨٠ .

(٣) البيت فى شرح الكافية الشافية ٢/٩٣٦ — شرح الكافية للرضى ٢/١١٥ — الخزانة ٣/١٨٣ المغنى ١/٤١١ — شرح أبيات المغنى للبغدادى ٥/٢٧٣ ت: عبدالعزيز رباح وآخر ط : محمد هاشم الكتبى . (٤) المغنى ١/٤١١ والخزانة ٣/١٨٠ :

(٥) التسهيل لابن مالك ص ٩٣ ت : محمد كامل بركات ط : الهيئة العامة للكتاب وشرح الكافية الشافية ٢/٩٣٦ .

(٦) المساعد شرح تسهيل الفوائد لابن عقيل ١/٥٠٤ ت : د/ محمد كامل بركات ط : دار الفكر . دمشق .

(ج) ما الكافة عن عمل الجر .

وإليك تفصيل ذلك :

(أ) ما الكافة عن عمل الرفع :

تدخل (ما) على الفعل فتجعله يلي ما لم يكن يليه قبل دخولها ، ولا تتصل إلا بثلاثة أفعال هي : قل وكثر وطال، فتكفها عن طلب الفاعل ، وعلة ذلك شبههن برب(١) ، فلا يدخلن حينئذ إلا على جملة فعلية صرح بفعلها كقول العربي :

قلما يبرح اللبيب إلى ما   يورث المجد داعيا أو مجيبا(٢)

والأصل في (قل) أنها للنفي المحض « فترفع الفاعل متلوا بصفة مطابقة له ، نحو : قل رجل يقول ذاك ، وقل رجلان يقولان ذاك ، بمعنى : مارجل » فإذا دخلت عليها (ما) وليها الفعل ولا فاعل لها لإجرائها مجرى حرف النفي فتقول : قلما يقوم زيد(٣) .

قال المبرد : « وكذلك قل ، تقول : قل رجل يقول ذلك ، فإن أدخلت (ما) امتنعت من الأسماء وصارت للأفعال ، فقلت : قلما يقوم زيد ، ومثل

---

(١) انظر : الخصائص لابن جني ١/١٦٧ ت : محمد على النجار ط : دار الكتب المصرية ، المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات ، لأبي علي الفارسي ص / ٢٩٥ ت : صلاح الدين عبد الله السيكاوي ط : العاني ، بغداد ، شرح الكافية للرضي ٢/٣٤٥ ، المغني ١/٣٣٩ .

(٢) البيت من شواهد : المغني ١/٣٣٩ ، شرح أبيات المغني ٥/٢٤٥ ، التصريح ١/١٨٥ للشيخ خالد الأزهري ط : المطبعة الأزهرية .

(٣) التسهيل ص ٢٤٦ ، المساعد ٣ / ٢٤٢ ، همع الهوامع ، للسيوطي ٥ / ٢١ ت : د . عبد العال سالم وآخر ، ط : دار البحوث العلمية بالكويت .

هذا كثير »(١) .

وقد يليها الاسم كقول المرار الفقعسي :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم(٢)

وفيه تأويلان :

أحدها : أن وصالا فاعل تقدم على (يدوم) ضرورة .

والثاني : أنه مرفوع فعل مضمر يفسره (يدوم) أي : وقلما يدوم أو يبقى وصال ، نحو (وإن أحد من المشركين استجارك)(٣) .

قال سيبويه في باب الحروف التي لا يليها بعدها إلا الفعل : « ومن تلك الحروف : ربما وقلما وأشباههما ، جعلوا (رب) مع (ما) بمنزلة كلمة واحدة ، وهيئوها ليذكر بعدها الفعل ، لأنهم لم يكن لهم سبيل إلى رب يقول ، ولا إلى: قل يقول ، فألحقوهما (ما) وأخلصوهما للفعل ...

وقد يجوز في الشعر تقديم الاسم . قال :

صـــددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم(٤)

هذا وقد نسب ابن هشام والبغدادي إلى المبرد القول بأن (ما) في البيت زائدة ، وليس كذلك إذ أنه يوافق سيبويه في كونها كافة(٥) .

ويدلك على إجرائهم (قلما) مجرى الحرف ، وأنه لذلك يحسن ألا يقتضى فاعلا - كما يقتضيه سائر الأفعال - لمشابهته حرف النفي قولهم : قلما سرت حتى

---

(١) المقتضب ، للمبرد ٢/٥٤ ، ت : الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) البيت من شـــواهد : الـكتاب ١/١٢ ، ٤٥٩ ، المقتضب ١/٨٤ ، المساعد ٢٤٢/٣ ، المغنى ١/٣٣٩ ، ٢/٦٥٢ ، الخزانة ٤/٢٨٧ ، الهمع ٥/٢١ .

(٣) سورة التوبة آية ٦ . (٤) الـكتاب ١/٤٥٩ وانظر الـكتاب ١/١٢ .

(٥) المغنى ١/٣٤٠ - الخزانة ٤/٢٨٧ . وانظر : المقتضب ١/٨٤ ، ٢/٥٤ .

أدخلها ، ألا ترى أنهم لم يرفعوا الفعل بعد (حتى) كما لم يرفعوه بعد النفي في قولك : ماسرت حتى أدخلها ، فإجراؤهم هنا (قلما) مجرى الحرف يقوى أيضا إجراءها مجراه في ألا تقتضي فاعلا ، ويحسن ذلك فيها في القياس ، فهذا وجه مذهب سيبويه فيه وهو الجيد[1] .

وأما : كثر ما يقولون ذاك ، فلما كان خلافه أجرى مجراه كصديان وريان وشبعان وطيان ونحو ذلك مما يكثر تعداده مجرى خلافه ، فكذلك : كثر مايقولان ذاك[2] .

(ب) ما الكافة عن عمل النصب والرفع [3] :

إذا اتصلت (ما) بإن أو أن أو لكن أو كأن أو لعل أهملت وصارت صالحة لأن يليها الأسماء والأفعال ، لأن عمل هذه الحروف العمل المخصوص إنما كان لأجل شبهها بكان في الاختصاص بالمبتدأ والخبر ، وحين ركبت مع (ما) صار الاختصاص مفقودا ، فبطل عملها لشبهها حينئذ بالحروف المهملة لعدم اختصاصها[4] .

وذلك مثل قوله تعالى « إنما الله إله واحد »[5] وقوله سبحانه « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا »[6] ، وقول ساعدة بن جؤية :

---

(١) المسائل المشكلة (البغداديات) ص٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) المسائل المشكلة (البغداديات) ص ٣٠٠

(٣) راجع : الأصول في النحو ، لابن السراج ٢٣٢/١ ، ت : د . عبد الحسين الفتلي ، ط : مؤسسة الرسالة : بيروت . الإيضاح العضدي ، لأبي علي الفارسي ص١٢٧ ت : د حسن شاذلي فرهود ، ط : دار التأليف بمصر ، شرح الكافية الشافية ٤٧٩/١ البغداديات ص/٢٨٦ . الرضي على الكافية ٣٤٨/٢ ، المغني ٣٤٠/١ ، العباب في شرح اللباب ١٠٤٧/٢ لجمال الدين عبد الله الحسيني المعروف بنقره كار ، ت : د سمير أحمد عبد الجواد رسالة دكتوراه بالكلية .

(٤) شرح الكافية الشافية ٤٧٩/١ .

(٥) سورة النساء آية ١٧١ .

(٦) سورة المؤمنون آية ١١٥ .

ولكنما أهلي بواد أنيسه ذئاب تبغى الناس مثنى وموحد(١)

وقول امرىء القيس :

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي(٢)

وقوله جل ذكره « كأنما يساقون إلى الموت »(٣) وقول امرىء القيس:

وكأنما بدر وصيل كتيفة وكأنما من عاقل أرمام(٤)

وقول سويد بن كراع العكلي :

تحلل وعالج ذات نفسك وانظرن أبا جعل لعلها أنت حالم(٥)

وتسمى المتلوة بفعل مهيئة .

قال سيبويه : « هذا باب الحروف التي يجوز أن يليها بعدها الأسماء ، ويجوز أن يليها بعدها الأفعال وهي : لكن وإنما وكأنما وإذ ونحو ذلك ، لأنها حروف لا تعمل شيئا ، وتركت الأسماء بعدها على حالها »(٦) .

وقال في (هذا باب إنما وأنما) : « اعلم أن كل موضع تقع فيه (أن) تقع فيه (أنما) وما ابتدىء بعدها صلة لها . كما أن الذي ابتدىء بعد الذي صلة له ، ولا تكون هي عاملة فيما بعدها كما لا يكون الذي عاملا فيما بعده »(٧)

---

(١) انظر : الكتاب ٢ / ١٥ ، المقتضب ٣ / ٣٨١ ، ابن يعيش ٨ / ٥٧ ، ديوان الهذليين ١/٢٣٧ ، ط : دار الكتب المصرية .

(٢) انظر : ابن يعيش ١/٧٩ ، ٨/٥٧ التصريح ١/٢٢٥ ، ديوانه ٣٩ .

(٣) سورة الأنفال آية ٦ .

(٤) البيت في : رصف المباني في شرح حروف المعاني ، المالقي ص ٣١٨ . ت : أحمد محمد الخراط ط: زيد بن ثابت ، ديوانه ص١١٦ .

(٥) البيت من شواهد الكتاب ١/٢٨٢ ، الأصول ١/٢٣٣ ، البغداديات ، ٢٧٧ الخزانة ٤/٢٩٧ .

(٦) الكتاب ١/٤٥٩ . (٧) الكتاب ١/٤٦٠ .

وقال : « وأما لعلما فهو بمنزلة كأنما ... وقال الخليل : إنما لا تعمل فيما بعدها كما أن أرى إذا كانت لغواً لم تعمل »(١) .

وقال المبرد : « ونظيرهما قولك : إنما زيد أخوك ، منعت (ما) (إن) عملها »(٢) .

أما (ليتما) فإن اختصاصها بالمبتدأ والخبر باق ، فلذا جاز إعمالها وإهمالها ، فمن أعملها فلبقاء الاختصاص ومن أهملها فإلحاقا بأخواتها ، ولأنها باينت (كان) حين قارنها مالا يقارن (كان) كما أهملت (ما) حين وصلت بان . لأنها باينت (ليس) بمقارنتها مالا يقارنها(٣) .

وقد روى بيت النابغة الذبياني :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد(٤)

بنصب (الحمام) ورفعه .

فمن نصب (الحمام) ـ وهو الأرجح ـ فما زائدة غير كافة و (هذا) اسمها و (لنا) الخبر .

ومن رفع فيحتمل أن تكون (ما) كافة و (هذا) مبتدأ ، ويحتمل أن تكون (ليت) عاملة و (ما) موصولة وهي اسمها ، (وهذا) خبر مبتدأ محذوف ، والحمام صفة (هذا) أي : ليت الذي هو هذا الحمام ، و (لنا) خبر (ليت) ، وهذا ضعيف لحذف الضمير المرفوع في صلة غير (أي) مع عدم الطول ، وسهل ذلك لتضمنه إبقاء العامل ،

---

(١) الكتاب ٢٨٢/١ .   (٢) المقتضب ٥٣/٢ .

(٣) راجع : التسهيل : ٦٥ ، شرح الكافية الشافية ٤٨٠/١ ، الأمالي الشجرية ٢٤١/٢ الرضي على الكافية ٣٤٨/٢ .

(٤) انظر : الكتاب ٢٨٢/١ ، الأصول ٢٣٣/١ ، المساعد ٣٢٩/١ ، ابن يعيش ٥٨/٨ ، المغني ٣٤١/١ ، ديوانه ص ٤٥ .

قال سيبويه : « وأما ليتما زيداً منطلق ، فإن الالغاء فيه حسن (أي إلغاء ما فيرجح النصب) ـ وقد كان رؤبة بن العجاج ينشد هذا البيت رفعا ، وهو قول النابغة الذبياني :

قالت الا ليتما هذا الحمام لنا
إلى حمامتنا أو نصفه فقـــد

فرفعه على وجهين : على أن يكون بمنزلة قول من قال (مثلاما بعوضة)[١] أو يكون بمنزلة قوله : إنما زيد منطلق[٢] .

هذا وقد بين ابن جنى اختصاص ليت بجواز الإعمال والإهمال حيث قال : « ومن ذلك (ليتما) ألا ترى أن بعضهم يركبهما جميعا فيسلب بذلك (ليت) عملها ، وبعضهم يلغى (ما) عنها فيقر عملها عليها . فمن ضم (ما) إلى (ليت) وكفها بها عن عملها ألحقها بأخواتها من (كأن) و(لعل) و(لكن) » وقال أيضا : لا تكون (ليت) فى وجوب العمل بها أقوى من الفعل ، وقد نراه إذا كف بما زال عنه عمله ، وذلك كقولهم : قلما يقوم زيد، فما دخلت على (قل) كافة لها عن عملها ، ومثله كثرما وطالما ، فكما دخلت (ما) على الفعل نفسه فكفته عن عمله وهيأته لغير ما كان قبلها متقاضيا له ، كذلك تكون (ما) كافة لليت عن عملها ومصيرة لها إلى جواز وقوع الجملتين جميعا بعدها .

ومن ألغى (ما) عنها وأقر عملها جعلها كحرف الجر فى إلغاء (ما) معه نحو قول الله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم)[٣] .. وفصل بينها وبين كأن ولعل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦ . الرفع قراءة الضحاك وإبراهيم بن أبى عبلة ورؤبة ابن العجاج ، وقرأ الجمهور بالنصب ، و (ما) فى قراءة الرفع موصولة بمعنى الذى (انظر : البحر المحيط ١/١٢٢) (٢) الكتاب ١/٢٨٢ .

(٣) سورة النساء آية ١٥٥ ، سورة المائدة آية ١٣ .

بأنها أشبه بالفعل منهما ، ألا تراها مفردة وهما مركبتان، لأن الكاف زائدة واللام زائدة »(١) .

وجوز قوم إعمال (لعلما) حملا على(ليت) لاشتراكهما فى أنهما يغيران معنى الابتداء ، وكذا قالوا فى (كأن) وبعضهم خص (لعل) بذلك لأشدية التشابه لأنها وليت للانشاء ، وأما كأن فللخبر(٢) .

وروى أبو الحسن الأخفش فى إنما وأنما الإعمال والإلغاء ، والإعمال قليل فيهما لضعف معنى الفعل فيهما ، لأن التأكيد الذى هو معناهما تقوية الثابت لا معنى آخر متجدد : وعدم سماع الإعمال فى كأنما ولعلما ولكنما ، وقياسها فى الإعمال على (ليتما) سائغ عند الكسائى وأكثر النحاة إذ لا فرق بينها وبين ليتما ، وإذا سمع فى (إنما) مع ضعف معنى الفعل فيه فما ظنك بهذه الحروف ، لكن الإلغاء أولى بالاتفاق لعـــدم السماع وفوات الاختصاص بسبب ما ، وسيبويه يمنع الإعمال فى غير ليتما للسماع المشهور فيه دون غيره(٣) .

وكون (ما) مع هذه الحروف كافة هو مذهب الجمهور ، وزعم ابن دستوريه وبعض الكوفيين أن (ما) اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن فى التفخيم والإبهام وفى أن الجملة بعده مفسرة له ومخبر بها عنه ، ويرده أنها لا تصلح للابتداء بها ولا لدخول ناسخ غير إن وأخواتها(٤) .

هذا وقد تجىء (ما) مع (إن) محتملة للكف والموصولية كقوله تعالى

---

(١) الخصائص ١٦٧/١ ، ١٦٨ . (٢) المغنى ٣١٨/١ .

(٣) راجع : التسهيـــل ص ٦٥ ، شرح الكافية ٤٨٠/١ ، المساعد ٣٢٩/١ ، الرضى على الكافية ٣٤٨/٢ .

(٤) الرضى على الكافية ٣٤٨/٢ ، المغنى ٣٤٠/١ .

(إنما حرم عليكم الميتة)(١) . فمن نصب (الميتة) فما كافة ، ومن رفعها ـ وهو أبو رجاء العطاردي ـ فما اسم موصول والعائد محذوف (٢) .

كما تجيء معهما محتملة للكف والموصولية والمصدرية كقوله تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات)(٣) فما فى (أنما) إما بمعنى الذى أو مصدرية أو كافة . فان كانت بمعنى الذى فخبر (أن) (نسارع) والرابط محذوف لفهم المعنى تقديره : نسارع لهم به فى الخيرات، وإن كانت (ما) مصدرية فالخبر (نسارع) على تقدير (مسارعة) فيكون الأصل : (أن نسارع) لحذفت (أن) وارتفع الفعل ، وإن كانت (ما) مهيئة وكافة فهو مذهب الكسائى فيها هنـــا ، فلا تحتاج إلى ضمير ولا حذف(٤) .

وقد ذكر الفراء ضابطا يمكن الاستعانة به فى تحديد نوع (ما) حيث قال : « فإذا رأيت (إنما) فى آخرها اسم من الناس وأشباههم مما يقع عليه

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٣ .

كذلك هى فى الآيات الآتية تحتمل الكف والموصولية : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر آية ٢٨ ، انظر : البحر ٣١٢/٧ ، المغنى ٣٤١/١ .

« إنما صنعوا كيد ساحر » سورة طه آية ٦٩ ، انظر : معانى الفراء ١٠١/١ ، البحر ٢٣/٦ « قل إنما يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد » سورة الأنبياء آية ١٠٨ . انظر : البحر ٣٤٤/٦ .

(٢) معانى الفراء ١٠٠/١ ، ١٠٢ ، البيـــان فى غريب القرآن ١٣٦/١ ، البحر ٤٨٦/١ ، المغنى ٣٤١/١ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .

كذلك هى فى قوله تعالى « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » سورة طه آية ٧٢ . انظر : البحر ٢٦٢/٦ « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم » سورة العنكبوت آية ٢٥ . انظر : البحر ١٤٨/٧ ، البيان ٢٤٢/٢ .

(٤) معانى الفراء ٢٣٨/٢ ، البيان ١٨٦/٢ ، البحر ٤٠٩/٤ ، دراسات لأسلوب القرآن ٥٠٨/١ ، ٥١٣ ، القسم الأول .

(من) فلا تجعلان (ما) فيه على جهة (الذى) لأن العرب لا تكاد تجعل (ما) للناس . من ذلك : إنما ضربت أخاك ، ولا تقل : أخوك ، لأن (ما) لا تكون للناس ، فإذا كان الاسم بعد (إنما) وصلتها من غير الناس جاز لك الوجهان فقلت :إنما سكنت دارك (بالنصب) و إن شئت دارك(بالرفع)(١).

ما الذى تفيده إنما ؟

قال ابن السيد : إنما عند البصريين لها معنيان : أحدهما تحقير الشيء وتقليله والثانى الاقتصار عليه ..

فأما احتقار الشيء وتقليله فكرجل سمعته يزعم أنه يهب الهبات ويواسى الناس بماله فتقول له : إنما وهبت درهما ، تحتقر ماصنع ولا تعده شيئا .

وأما الاقتصار على الشيء فنحو رجل سمعته يقول : زيد شجاع وكريم وعاقل وعالم ، فتقول : إنما هو شجاع ، أى : ليس له من هذه الصفات غير الشجاعة .

وتستعمل (إنما) أيضا فى رد الشيء إلى حقيقته إذا وصف بصفات لاتليق به كقوله تعالى (إنما الله إله واحد)(٢)وقوله (إنما أنا بشر مثلكم)(٣) وهذا راجع إلى معنى الاقتصار .

وذكر الكوفيون أنها تستعمل بمعنى النفى ، واحتجوا بقول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى(٤)

(١) معانى الفراء ١٠٢/١ ت : محمد على النجار ط : الدار المصرية للتأليف .

(٢) سورة النساء آية ١٧١ .

(٣) سورة الكهف آية ١١٠ ، سورة فصلت آية ٦ .

(٤) البيت فى : المحتسب ١٩٥/٢ ، ابن يعيش ٩٥/٢ ، ديوانه ٧١٢/٢ .

قالوا : « معناه مايدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلى »[1] .

وقال أبو على الفارسى : « يقول ناس من النحويين فى نحو قوله تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن)[2] : إن المعنى ماحرم ربى إلا الفواحش ، وأصبت مايدل على صحة قولهم فى هذا ، وهو قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فليس يخلو هذا الكلام من أن يكون موجبا أو منفيا ، فلو كان المراد به الايجاب لم يستقم ، ألا ترى أنك لا تقول : يدافع أنا ولا يقاتل أنا ، وإنما تقول : أدافع وأقاتل ، إلا أن المعنى لما كان : مايدافع إلا أنا ، فصلت الضمير كما تفصله مع النفى إذا ألحقت معه (إلا) حملا على المعنى .

قال الزجاج : إنما تأتى إثباتا لما يذكر بعدها ونفيا لما سواه »[3] .

وكون (إنما) تفيد الايجاب والنفى هو رأى ابن الشجرى[4] والسهيلى أيضا ، وهذا هو السبب فى إفادتها معنى الحصر .

قال السهيلى : « وأما قولك : إنما زيد قائم فقد انتظمت — يعنى ما — بأن وامتزجت معها وصارت كلمة واحدة ، و (إن) تعطى الايجاب الذى تعطيه (إلا) و (ما) تعطى النفى ، ولذلك جاز : إنما يقوم أنا ، وأنالا تكون

---

(١) الاقتضاب : لابن السيد البطليوسى ص ١٧ ، ١٨ ط : دار الجيل — بيروت وانظر : البرهان فى علوم القرآن : للزركشى ت : محمد أبو الفضل ط : دار المعرفة — بيروت ٤/٢٣١ .

(٢) سورة الأعراف آية ٣٣ .

(٣) المسائل الشيرازيات ، لأبى على الفارسى ٢/٢٣٠ ، ت : على جابر منصور ، رسالة دكتوراه دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى ص ٢١٤ ، ٢١٥ تعليق : أحمد مصطفى المراغى ، ط : المطبعة العربية .

(٤) الأمالى الشجرية ٢/٢٤٣ .

فاعلة إلا إذا فصلت بإلا ، تقول : مايقوم إلا أنا ، ولا تقول : يقوم أنا. فإذا قلت : (إنما) صرت كأنك قد لفظت بها مع إلا . قال الشاعر :

أدافع عن أعراض قومى وإنما   يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلى[1]

وقال : « تقول : إنما يأكل زيد الخبز فحققت ما يتصل ومحقت ماينفصل .. وتلخيص هذا الكلام : أنها نفى وإثبات فأثبت لزيد أكل الخبز المتصل به فى الذكر ونفيت ماعداه ، فمعناه ما يأكل زيد إلا الخبز .. ومما يوضح لك ماذكروا من النفى والاثبات فى (إنما) قول همام :

أدافع عن أعراض قومى وإنما   يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلى

فجعل الضمير المنفصل وهو (أنا) فاعلا وهو متصل فى اللفظ بالفعل ، وماذلك إلا أن بينه وبين الفعل حاجزا فى المعنى وهو (إلا) فكأنه قال : مايدافع عن أعراضهم إلا أنا أو مثلى .

فقد وضح لك النفى والإثبات المذكوران فى (إنما)[2] » .

وليس معنى أن (إنما) تفيد الايجاب والنفى أن المعنى فى هذا هو المعنى فى ذلك بعينه وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد ، وفرق بين أن يكون فى الشىء معنى الشىء وبين أن يكون الشىء الشىء على الاطلاق، ومما يبين أنهما لا يكونان سواء أنه ليس كل كلام يصلح فيه (ما) و (إلا) يصلح فيه (إنما)

وأيضا : (إنما) تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أولما ينزل هذه المنزلة من ذلك قول المتنبى لكافور :

إنمـــا أنت والد والأب القا   طع أحنى من واصل الأولاد[3]

(١) نتائج الفكر ص ١٤١، ١٢٤ ت ، د . محمد إبراهيم البنا ط : منشورات جامعة قار يونس .

(٢) نتائج الفكر ص ١٧٥ ، ١٧٦ وانظر الإيضاح للقزوينى ص ١٢١ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٦ – ديوانه ١ /٢٥٧ .

أما الخبر بالنفى والاثبات نحو : (ماهذا إلا كذا) فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه[١] .

وإفادة (إنما) الايجاب والنفى هو سبب إفادتها الحصر .

يقول الزمخشرى ـ عند تفسير قوله تعالى « قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون »[٢] : « إنما تقصر الحكم على شىء أو لقصر الشىء على الحكم كقولك : إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد ، وقد اجتمع المثلان فى هذه الآية لأن (إنما يوحى إلى) مع فاعله بمنزلة : (إنما يقوم زيد) و (أنما إلهكم إله واحد) بمنزلة زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية[٣] .

وذكر السكاكى وجها لطيفا فى إفادة (إنما) الحصر يسند إلى على بن عيسى الربعى ، وهو : أنه لما كانت كلمة (إن) لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ثم اتصلت بها (ما) المؤكدة ـ لا النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو ـ ناسب أن يضمن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيدا على تأكيد ، فإن قولك : زيد جاء لا عمرو ـ لمن يردد المجىء الواقع بينهما ـ يفيد إثباته لزيد فى الابتداء صريحا وفى الآخر ضمنا »[٤] .

هذا وقد اضطرب أبوحيان فى إفادة (إنما) الحصر ، فبينما يرد على الزمخشرى رأيه فى إفادتها للحصر بقوله « أما ماذكره فى (إنما) أنها لقصر ماذكر فهو مبنى على أن (إنما) للحصر ، وقد قررنا أنها لا تكون للحصر ، وأن (ما) مع (إن) كهى مع (كأن) ومع (لعل) فكما أنها لا تفيد

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٢) الأنبياء آية ١٠٨ . (٣) الكشاف ٢/٥٨٦ ط : دار المعرفة ـ بيروت .

(٤) انظر : مفتاح العلوم ص ٢٩١ ، الإيضاح فى علوم البلاغة ص ١٢١ ، ١٢٢ ط : السنة المحمدية .

الحصر فى التشبيه ولا الحصر فى الترجى فكذلك لا تفيده مع (إن)[١] . إذ نراه فى موضع آخر يقرر إفادتها للحصر[٢].

ونازع ابن هشام فى إفادة (إنما) النفى والإيجاب والحصر حيث قال : « وزعم جماعة من الأصوليين والبيانيين أن (ما) الكافة التى مع (إن) نافية وأن ذلك سبب إفادتها الحصر . قالوا : لأن (إن) للاثبات و (ما) للنفى فلا يجوز أن يتوجها معا إلى شىء واحد لأنه تناقض ، ولا أن يحكم بتوجيه النفى للمذكور بعدها لأنه خلاف الواقع باتفاق ، فتعين صرفه لغير المذكور وصرف الإثبات للمذكور فجاء الحصر .

وهذا البحث مبنى على مقدمتين باطلتين بإجماع النحويين ، إذ ليست (إن) للاثبات وإنما هى لتوكيد الكلام إثباتا كان مثل : إن زيداً قائم ، أو نفيا مثل : إن زيداً ليس بقائم ، ومنه (ان الله لا يظلم الناس شيئا)[٣]، وليست (ما) للنفى بل هى بمنزلتها فى أخواتها ، ليتما ولعلما وكأنما ولكنما .

وبعضهم ينسب القول بأنها نافية للفارسى فى الشيرازيات ، ولم يقل ذلك الفارسى فى الشيرازيات ولا فى غيرها ولا قاله نحوى . وإنما قال الفارسى فى الشيرازيات : إن العرب عاملوا إنما معاملة النفى وإلا فى فصل الضمير كقول الفرزدق :

. . . . وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

---

(١) البحر ٣٤٤/٦ ، وانظر : البحر ٨٨/٥ ، ١٤٢ .

(٢) البحر ٥٧/٥ ، ٤٤٨ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، دراسات لأسلوب القرآن ١ / ٥١٤ القسم الأول

(٣) سورة يونس آية ٤٤ .

فهذا كقول الآخر :

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا(١)(٢)

وقد سبق كلام أبي على الفارسي في الشيرازيات والذي يفيد أن (إنما) فيه معنى ما وإلا(٣) .

وقول ابن هشام (ولا قاله نحوي غيره) فيه تساهل ، فقد قال بذلك ابن الشجري والسهيلي كما تقدم(٤) .

(ج) ما الكافة عن عمل الجر :

ا ـ ما تكف سي عن الإضافة :

يجوز في الاسم الواقع بعد (لاسيما) الجر والرفع مطلقا والنصب إذا كان نكرة(٥) . فإن جر فبإضافة (سي) إليه و (ما) زائدة ، ويحتمل أن تكون نكرة غير موصوفة والاسم بعدها بدل منها ، وإن رفع ـ وهو أقل من الجر ـ فخبر مبتدأ محذوف و (ما) بمعنى الذي أو نكرة موصوفة بجملة إسمية ، وإنما كان الرفع أقل لأن حذف أحد جزأي الجملة الإسمية التي هي صلة أو صفة قليل . وذلك كقولك : أحب العلماء لا سيما العاملين بالجر أو العاملون بالرفع .

---

(١) لعمرو بن معديكرب ، انظر : الكتاب ٢٧١/١ ، دلائل الإعجاز ص٢٢١ ، ابن يعيش ١٠١/٣ ، ٣ ، ١ ، المغني ٣٤٢/١ ، اللسان (قطر) .

(٢) المغني ١ / ٣٤١ ، ٣٤٢ ، وانظر : الشيرازيات ٢٣٥/٢ ، دلائل الإعجاز ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٣) انظر ص ٢٢٦ من البحث . (٤) انظر ص ٢٢٦ من البحث .

(٥) انظر أسلوب لاسيما في الكتاب ٣٥٠/١ ، التسهيل ص١٠٧ ، ابن يعيش ٨٦/٢ ، شرح الكافية الشافية ٧٢٤/٢ ، الرضى على الكافية ٢٤٩/١ ـ المساعد ٥٩٦/١ ، المغني ١٤٩/١ .

أما النصب فعلى التمييز كما يقع التمييز بعد (مثل) فى نحو (ولو جئنا بمثله مددا)(١) و (ما) كافة لسى عن الإضافة .

وقد روى بالأوجه الثلاثة قول امرىء القيس :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل(٢)

واختلف فى توجيه نصب (يوم) فالجمهور على أنه تمييز لسى وما كافة لسى عن الإضافة فأشبهت الإضافة فى : على التمرة مثلها زبدا(٣) ، وقيل : النصب على التمييز لما ، وهى نكرة تامة كأنه قال : ولا مثل شئ ثم فسره بالنكرة(٤) .

وقيل : « يوما » منصوب بإضمار فعل تقديره : أعنى يوما(٥) .

وقيل : منصوب على الظرفية بما فى « بدارة » من معنى الاستقرار وبهذا قال ابن مالك(٦) .

هذا عن انتصاب النكرة بعد « لاسيما » ، أما انتصاب المعرفة بعدها نحو : لاسيما زيداً فمنعه الجمهور .

وقال ابن الدهان : لا أعرف له وجها ، ووجهه بعضهم بأن « ما » كافة وأن « سيما » نزلت منزلة « إلا » فى الاستثناء . ورد بأن المستثنى مخرج ومابعدها داخل من باب أولى . وأجيب بأنه مخرج عما أفهمه الكلام السابق من مساواته لما قبلها ، وعلى هذا يكون استثناء منقطعا(٧) .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٢) شرح الكافية الشافية ٧٢٤/٢ ، المساعد ٥٩٧/١ ، شواهد التوضيح ١٠٦ ، البحر ٦١/١ الرضى على الكافية ٢٤٩/١ ، المغنى ١ / ١٤٩ الخزانة ٦٣/٢ ، ديوانه ص ١٠٢

(٣) الخزانة ٦٣/٢ . (٤) المساعد ٥٩٧/١ .

(٥) الرضى على الكافية ٢٤٩/١ ، الخزانة ٦٣/٢ .

(٦) شرح الكافية الشافية ٧٢٤/٢ .

(٧) المغنى ١٥٠/١ ، الخزانة ٦٣/٢ .

ب — ما تكف بعض أحرف الجر عن العمل :

قد تكف « ما » بعض أحرف الجر عن العمل ، وهذه الأحرف هي :

(أ) رب : رب حرف جر مختص بالدخول على النكرات ، فإن كفت صارت مهيئة للدخول على الجمل الإسمية والفعلية(١) .

قال المبرد : « وكذلك (رب) تقول : رب رجل ، ولا تقول : رب يقوم زيد ، فإذا ألحقت (ما) هيأتها للأفعال فقلت ربما يقوم زيد و (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين)(٢)(٣) .

وأكثر ما تدخل (ربما) المكفوفة على الماضي كقول جذيمة الأبرش :

ربما أوفيت في علم ترفعن ثوبي شمالات(٤)

وقول أبي عطاء السندي :

فإن يمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود(٥)

والزم ابن السراج وأبو على الفارسي في الايضاح كون الفعل ماضيا(٦)، لأن رب إنما تأتي لما مضى فوجب أن تكون ربما كذلك أيضا تدخل على الماضي . والعذر عندهما في نحو قوله تعالى « ربما يود الذين كفروا »(٧) أن مثل هذا المستقبل - أي الأمور الأخروية - غالب عليها في القرآن ذكرها بلفظ الماضي .

---

(١) الأمالي الشجرية ٢/٢٤٣ ، شرح الكافية الشافية ٢/٨١٨ . تذكرة النحاة لأبي حيان ص ٨ ت ، د . عفيف عبد الرحمن ط : مؤسسة الرسالة بيروت ، المغني ١/٣٤٣ .

(٢) سورة الحجر آية ٢ .

(٣) المقتضب ٢/٥٤ .

(٤) انظر الكتاب ١/١٥٣ ، الأمالي الشجرية ٢/٢٤٣ ، إيضاح الفارسي ص٢٥٣ .

(٥) انظر مفتاح العلوم ص ١٢٠ ، الخزانة ٤/١٦٧ ، الأشباه والنظائر ٢/٨٣ .

(٦) الأصول ١/٤١٩ ، الإيضاح ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٧) سورة الحجر آية ٢ ، انظر : الأصول ١/٤١٩ .

أو على تأويل الحكاية ، وقال الربعى : أصله (ربما كان يود) فحذف كان لكثرة استعماله بعد (ربما) وتكون (كان) هذه شأنية ، وليس حذف (كان) بدون (إن) و (لو) الشرطيتين سهلا ، ثم الخبر حينئذ وهو (يود) مخرج على حكاية الحال الماضية ، فلا حاجة إلى تقدير كان . والمشهور جواز دخول (ربما) على المضارع بلا تأويل(١) .

قال أبو على الفارسى مبينا أن (ما) فى (ربما يود الذين كفروا)(٢) كافة وليست زائدة ولا مصدرية ولا نكرة موصوفة : « والدليل على أن (ما) فى قوله (ربما يود الذين كفروا)(٣) لا يجوز أن تكون لغواً ، ولا التى مع الفعل بمنزلة المصدر ، أنها لو كانت زائدة لوجب أن يضمر بعد (ربما) (أن) ولو أضمرت لنصبت الفعل كما نصبت بعد سائر حروف الخفض ، ولو نصبت الفعل بعده كان غير جائز لأن (أن) مع الفعل بمنزلة المصدر المخصوص المعروف فإن (يود الذين كفروا) بمنزلة ود الذين كفروا ، وإذا تعرف الاسم لم يدخل عليه (رب) لأنها لا تعمل إلا فى اسم شائع غير مختص لوقوع المذكور بعدها دالا على أكثر من واحد ، وهذا مما تختص به النكرات دون المعارف .

فلا يجوز لهذا أن تكون (ما) فيه زائدة ، ولهذا بعينه لا يجوز أن تكون التى مع الفعل بمنزلة المصدر ، لأن تلك مع الفعل مختص ، كما أن (أن) مع الفعل كذلك .

ويبعد أن تجعلها التى هى اسم منكور أيضا ، على أن يكون التقدير : رب شيء يوده الذين كفروا ، لأن المعنى ليس على أنهم يودون شيئا ، إنما

---

(١) الرضى على الكافية ٢/٣٣٣ ، وانظر : الكتاب ١/٤٥٩ ، والمقتضب ٢/٤٨ ، ٥٤ ، ابن يعيش ٨/٢٩ ، البحر ٥/٤٤٢ ، المغنى ١/٣٤٣ .

(٢،٣) سورة الحجر آية ٢ .

الذى يودونه الإسلام لو كانوا منهم ، ويودون لو كانوا مسلمين .. فإذ لم يجز أن تكون الزائدة ولا التى مع الفعل بمعنى المصدر ولا النافية ولا المنكورة ثبت أنها الكافة(١).

هذا وقد يحذف الفعل الواقع بعد «ربما» عند القرينة كقول حاتم الطائى:

فذلك إن يلق الكريهة يلقها حميداً وأن يستغن يوما فربما(٢)

أى : ربما يتوقع ذلك(٣) .

ولا يمتنع دخولها على الجملة الإسمية خلافا للفارسى وابن عصفور(٤) ، ولهذا قالا فى قول أبى دؤاد الإيادى :

ربما الجامل المؤبل فيهم وعناجيج بينهن المهار(٥)

ان «ما» نكرة موصوفة بجملة حـــذف مبتدؤها ، أى : رب شىء هو الجامل .

قال ابن مالك : «وان ولى ربما اسم مرفوع فهو مبتدأ بعده خبره لاخبر مبتدأ محذوف وما نكرة موصوفة بهما خلافا لأبى على(٦) .

أما قول العربى :

لقد رزئت كعب بن عوف وربما فتى لم يكن يرضى بشىء يضيمها(٧)

---

(١) المسائل المشكلة (البغداديات) ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) انظر الرضى على الكافية ٢/٣٣٣ ، الخزانة ٤/١٩٤ ، الدرر ٢/٤٢ ، ليس فى ديوانه .

(٣) الرضى على الكافية ٢/٣٣٣ .

(٤) انظر : التسهيل ص ١٤٧ ، المساعد ٢/٢٨٢ ، المغنى ١/٣٤٣ .

(٥) انظر : الأمالى الشجرية ٢/٢٤٣ ، شرح الكافية الشافية ٢/٨١٩ ، الرصف ص ٣١٨ ، ابن يعيش ٨/٢٩ ، الخزانة ٤/١٨٨ ، ديوانه ص ٣١٦ .

(٦) التسهيل ص ١٤٧ .

(٧) الأشباه والنظائر ٢/٨٣ .

فما محتملة لأن تكون كافة و « فتى » مرفوع ، أو مفعول بإضمار فعل تقديره : وربما رزئت فتى لم يكن يرضى .

ويحتمل أن تكون زائدة و « فتى » مجرور ، أو تكون نكرة موصوفة أي : رب شيء فتى لم يكن يرضى[1] .

٢ — الكاف : تزاد « ما » بعد الكاف فتمنعها من عمل الجر[2] ، وتهيئها للدخول على الجمل الإسمية والفعلية كقول نهشل بن حري :

أخ ماجد لم يخزني يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه[3]

وقول العربي :

تحالف يشكر واللــؤم قدما كما جبلا قسا متحالفان[4]

وقول زياد الأعجم :

واعلم أنني وأبا حميـــد كما النشوان والرجل الحليم[5]

وبدخول « ما » الكافة على الكاف يكون لكما ثلاثة معان[6] :

أحدها : تشبيه مضمون جملة بمضمون أخرى كقوله تعالى « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة »[7] وقول زياد الأعجم :

---

(١) الأشباه والنظائر ٢/٨٣ .

(٢) راجع التسهيل ص١٤٧ ، شرح الكافية الشافية ٢/٨١٨ ، المساعد ٢/٢٧٨ .

(٣) انظر : شرح الكافية ٢/٨١٨ ، المساعد ٢/٢٧٨ ، المغنى ١/٣٤٣ .

(٤) مجهول القائل .   انظر شرح الكافية الشافية ٢/٨١٨ .

(٥) انظر : البحر ٢/٩٧ ، المغنى ١/١٩٤ ، شرح أبيات المغنى ٤/١٢٥ .

(٦) الرضى على الكافية ٢/٣٤٤ .

(٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ . انظر الكشاف ٢/١١٠ ، البحر ٤/٣٧٨ ، المغنى ١/٣٤٣ .

فإن الحمر من شر المطايا ... كما الحبطات شر بني تميم(١)

فلا يقتضي الكاف ما يتعلق به لأن الجار إنما كان يطلب ذلك لكون المجرور مفعولا، وذلك لأن حروف الجر موضوعة لأن تفضي بالفعل القاصر عن المفعول به إليه، والمفعول به لا بد من فعل أو معناه، فإذا لم تجر فلا مفعول هناك حتى تطلب فعلا.

ومن ذلك قول العرب: كن كما أنت(٢) أي كن في المستقبل كما أنت كائن الآن فأنت مبتدأ محذوف الخبر، فأنت تشبه الكون المطلوب بالكون الحاصل له الآن.

وثانيها: أن يكون كما بمعنى لعل.

قال سيبويه: « سألت الخليل عن قول العرب، انتظرني كما آتيك فزعم أن « ما » والكاف جعلتا بمنزلة حرف واحد، وصيرت للفعل كما صيرت للفعل « ربما » والمعنى: لعلي آتيك، فمن ثم لم ينصبوا به الفعل كما لم ينصبوا بربما. قال رؤبة:

لا تشتم الناس كما لا تشتم(٣)

وأنشد لأبي النجم العجلي:

قلت لشيبان أدن من لقائه ... كما تغدى القوم من شوائه(٤)

وجعل « كما » في هذا البيت كالتي في البيت الأول »(٥).

---

(١) انظر: الأمالي الشجرية ٢/٢٣٥، شرح الكافية الشافية ٢/٨١٩، الرضي على الكافية ٢/٣٤٤، الخزانة ٤/٢٨٢.

(٢) الأمالي الشجرية ٢/٢٤٣، البغداديات ص ٢٩١، الرصف ص ٢٠٠، المغني ١/٣٤٣.

(٣) البغداديات ص ٢٨٩، الخزانة ٤/٢٨٢، ديوانه ١٨٣.

(٤) البيت في الكتاب ١/٤٦٠، مجالس ثعلب ١/١٢٧ ت عبد السلام هارون ط: دار المعارف، البغداديات ص ٢٩٠.

(٥) الكتاب ١/٤٥٩، ٤٦٠.

وثالثا : أن تكون بمعنى قران الفعلين فى الوجود ، نحو قولك : ادخل كما يسلم الإمام ، وكما قام زيد قعد عمرو .

وهذا وقد جعل السهيلى « ما » فى قول النبى – صلى الله عليه وسلم – « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[1] كافة للكاف ، حيث قال : « وأما قولهم : اجلس كما جلس زيد و (صلوا كما رأيتمونى أصلى) فقد ظن أكثر الناس أنها بمعنى المصدر هنا ، وقد تبين فساد هذا المذهب ، لأن الفعل هنا خاص غير عام[2] ، ولكنها كافة للخافض ومهيئة لكاف التشبيه أن يقع بعدها الفعل ، كما كانت كذلك فى (رب) من قوله تعالى « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »[3] وفى (إن) من قولك : إنما يقوم زيد ، كفتها عن العمل وهيأتها لوقوع الفعل بعدها ، وكذلك كفت (رب) و (كاف) التشبيه عن العمل وهيأتها لوقوع الجمل بعدها »[4] .

وزعم على بن مسعود بن محمود الفرخان صاحب المستوفى أن الكاف لا تكف بما[5] ، وهو محجوج بما سمع عن العرب كالأبيات السابقة .

٣ — الباء : ذكر ذلك ابن مالك[6] ، كقول مطيع بن إياس :

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان ١/١٦٢ ، ١٦٣ ، تصوير دار الشعب .

(٢) يذهب السهيلى إلى أن مدخول (ما) المصدرية لابد أن يكون عاما غير خاص انظر : نتائج الفكر ص ١٨٦ ، بدائع الفوائد : لابن قيم الجوزية ١/١٤٢ ط : دار الكتاب العربى – بيروت .

(٣) سورة الحجر آية ٢ .

(٤) نتائج الفكر ص ١٨٧ .

(٥) المستوفى فى النحو ٢/٧١٨ ت : سعد أحمد جعا – رسالة دكتوراه بالكلية وانظر : البحر ٢/٩٧ ، المغنى ١/١٩٤ .

(٦) التسهيل ص ١٤٧ ، شرح الكافية الشافية ٢/٨١٧ .

فلئن صرت لا تحير جوابا لبما قد ترى وأنت خطيب(١)

قال ابن مالك : ان «ما» الكافة أحدثت مع الباء معنى التقليل كما أحدثت مع الكاف معنى التعليل(٢) فى نحو «واذكروه كما هداكم»(٣) .

والظاهر أن الباء والكاف للتعليل وأن «ما» معهما مصدرية ، وقد سلم أن كلا من الكاف والباء تأتى للتعليل مع عدم «ما» ، كقوله تعالى «فبظلم الذين هادوا حرمنـــا عليهم طيبات أحلت لهم»(٤) و «ويكأنه لا يفلح الكافرون»(٥) .

ثم المناسب فى البيت معنى التكثير لا التقليل(٦) .

٤ — من : تستعمل (من) مكفوفة بما نحو قولهم : إنى مما أفعل ذاك، قال أبو حية النميرى :

وإنا لمما نضرب الكبش ضربة على رأسه تلقى اللسان من الفم(٧)

قال المبرد : «وتقول : إنى مما أفعل على معنى ربما أفعل وأنشد البيت(٨)» ، وقوله (أنى مما أفعل على معنى ربما أفعل) إن أراد به أن (ما) كافة لمن. كما أنها كافة لرب فهو كما قال سيبويه(٩) ، وان أراد أنه للتقليل كما أن ربما للتقليل كان ذلك مسوغا إذا ثبت مسموعا ، ويبعد ذلك فى البيت فإنه ينبغى أن يكون غير مقلل لضربة الكبش على رأسه(١٠) .

(١) انظر : أمالى القالى ١/٢٧٠ ، شرح الكافية ٢/٨٤٢ ، المساعد ٢/٢٨٠ ، العينى ٣/٣٤٧ ، المغنى ١/٣٤٣ ، الدرر ٢/٤١ .

(٢) التسهيل ص ١٤٧ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٨ .

(٤) سورة النساء آية ١٥٩ .

(٥) سورة القصص آية ٨٢ .

(٦) المغنى ١/٣٤٤ .

(٧) انظر : الكتاب ١/٤٧٧ ، المقتضب ٤/١٧٤ ، الأمالى الشجرية ٢/٢٤٤ ، المغنى ١/٣٤٤ ، الخزانة ٤/٢٨٢ .

(٨) المقتضب ٤/١٧٤ .

(٩) الكتاب ١/٤٧٧ .

(١٠) البغداديات ص ٢٩٣ .

وذهب ابن هشام إلى كون (ما) فى البيت مصدرية[1] .

ومن ذلك قول ابن عباس رضى الله عنهما : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه »[2] بمعنى : ربما[3] .

(ح) ما تكف بعض الظروف عن الإضافة إلى المفرد : وهذه الظروف هى :

١ — بعد : تأتى (ما) مع (بعد) لكفها عن الإضافة إلى المفرد وتهيئتها لوقوع الجمل بعدها كقول المرار الفقعسى :

أعلاقة أم الوليـــد بعدما أفنان رأسك كالثغام المخلس[4]

وكون (ما) كافة لبعد فى البيت هو مذهب سيبويه[5] والمبرد[6] وابن الشجرى[7] والفارسى[8] والسهيلى[9] .

وذهب جماعة منهم الاسفراييني صاحب اللباب إلى أن (ما) فى البيت مصدرية .

قال الاسفراييني : « ليست ما فى البيت بكافة لبعد عن الإضافة بل مهيئة للاضافة إلى الجملة[10] .

كما قال : « وما فى البيت وأن حكم بأنها كافة إلا أن ذلك لا يعجبنى ، فإن (بعد) فى البيت على معناه الأصلى من اقتضاء الاضافة إلى شىء ، وهو

---

(١) المغنى ١/٣٤٤ . (٢) البخارى ١/٤ .

(٣) أمالى السهيلى ص ٥٢ ، ت : د / محمد إبراهيم البنا ط السعادة .

(٤) انظر : الكتاب ١/٢٨٣ ، المقتضب ٢ / ٥٣ ، الأمالى الشجرية ٢ / ٢٤٢ ، البغداديات ص ٢٩٢ ، نتائج الفكر ص ١٨٧ .

(٥) الكتاب ١ / ٢٨٣ . (٦) المقتضب ٢/٥٣ .

(٧) الأمالى الشجرية ٢/٢٤٢ . (٨) البغداديات ص ٢٩٢ .

(٩) نتائج الفكر ص ١٨٧ . (١٠) العباب فى شرح اللباب ٢ /٨١٣

فى المعنى مضاف لما بعده كأنه قيل : بعـــد حصول رأسك أشمط كالثغام المخلس ، فما ذكرت أقرب إلى الصواب »(١) .

وتبعه فى ذلك المحقق الرضى(٢) وابن هشام(٣) ، وسبقهم الأعلم وابن خلف(٤) .

ومذهب سيبويه ومن تبعه أولى بالقبول ، إذ صله (ما) المصدرية لا تكون إلا جملة فعليه عند سيبويه(٥) ، ولا توصل بالجملة الإسمية إلا قليلا(٦) .

قال السهيلى :

« فإن قيل : فما بالهم لم يفعلوا فى (قبل) مافعلوا فى (بعد) فيقولوا : جئت قبل ماذهب زيد ، كما قالوا : بعد ما ؟

قلنا : فى امتناعهم من ذلك فى (قبل) شاهد لما قدمناه من أنها ليست بمصدر لأنه يمتنع : قبل أن يقوم زيد فيكون أن مع الفعل بمعنى المصدر ، فإن قيل : فلم لا تكون كافة لقبل مهيئة لوقوع الجمل بعدها كما كانت، كذلك فى بعد ؟

قلنا : لا يصح أن توجد كافة لأسماء الاضافة ، فإنما تكون كافة للحروف وما ضارعها .

---

(١) حواشى الاسفرايينى على اللباب الورقة ص ٤٤ أ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣ / م – نحو .

(٢) الرضى على الكافية ٣٨٦/٢ . (٣) المغنى ٣٤٥/١ .

(٤) شرح أبيات المغنى للبغدادى ٢٦٩/٥ ، ٢٧٠ .

(٥) الكتاب ٤١٠/١ ، ٤٥٣ ، ٤٧٦ – الرضى على الكافية ٣٨٦/٢ .

(٦) تعليق الفرائد للدماميني ٢٨١/٢ ، الرضى على الكافية ٣٨٦/٢ ، حاشية الأمير على المغنى ١٥٢/١ ، ١٥٣ ، الخزانة ٢٧٨/٤ .

و (بعد) أشد مضارعة للحروف من (قبل) لأن (قبل) كالمصدر فى لفظها ومعناها .

تقول : جئت قبل الجمعة ، تريد الوقت الذى تستقبل فيه الجمعة ، والجمعة بالإضافة إلى ذلك الوقت قابلة ، كما قال الشاعر :

• نجح معاً ، قالت أعاما وقابله • (١)

فإذا كان العام الذى بعد عامك يسمى قابلا ، فعامك الذى أنت فيه قبل . ولفظها من لفظ قابل . فقد بان لك من جهة اللفظ والمعنى أن (قبل) مصدر فى الأصل ، والمصدر كسائر الأسماء لا يكف ولا يهيأ لدخول الجمل بعده ، وإنما ذلك فى بعض الحروف العوامل لا فى شىء من الأسماء .

وأما (بعد) فهى أبعد عن شبه المصدر ... ألا ترى أنهم لم يستعملوا من لفظها اسم فاعل فيقولون فى العام الماضى (باعد) كما قالوا فى العام المقبل (قابل) »(٢) .

٢ — بين : إذا دخلت (ما) الكافة على (بين) كفتها عن الإضافة إلى المفرد ، كقول عثير بن لبيد :

وبينما المرء فى الأحياء مغتبـــط

إذ هو فى الرمس تعفـوه الأعاصير(٣)

---

(١) عجز بيت لحميد بن ثور وصدره :

* فقلت امكثى حتى يسار لعلنا *

الكتاب ٣٩/٢ ، نتائج الفكر ص ١٨٧ ، شرح أبيات سيبويه ٣١٧/٢ ، المخصص ٦٤/١٧ .

(٢) نتائج الفكر ص ١١٧ : ١٨٩ .

(٣) انظر : سر الصناعة ٢٥٥/١ ، أمالى القالى ١٧٧/٢ ، الوصف ٣١٨/ ، اللسان (دهر) .

وقول كثير عزة :

بينما نحن بالبلاكث فالقا ع سراعاً والعيس تهوى هويا[١]

وقول جميل بثينة :

بينما نحن بالأراك معاً إذ أتى راكب على جمله[٢]

وقيل : (ما) زائدة و (بين) مضافة إلى الجملة[٣] .

٣ ـ حيث وإذ : من الظروف الملازمة للإضافة حيث وإذ إذا تجردتا ، فإن زيدت بعدهما (ما) وضمنا معنى الشرط كفتا عن الإضافة وأصبحا جازمين فعلين .

قال سيبويه : « ولا يكون الجزاء في (حيث) ولا في (إذ) حتى يضم إلى كل واحد منهما (ما) فتصير (إذ) مع (ما) بمنزلة (إنما وكأنما) »[٤] .

فلا يجزم بإذ وحيث إلا مقرونتين بما ، لأنهما إذا تجردتا لزمتهما الإضافة إلى ما يليهما ، والإضافة من خصائص الأسماء فكانت منافية للجزم ، فلما قصد جعل هاتين الكلمتين جازمتين ركبتا مع (ما) لتكفهما عن الإضافة وتهيئهما لما يكن لهما من معنى وعمل ، فصارت (ما) ملازمة لهما مادامت المجازاة مقصودة بهما[٥] .

---

(١) انظر : البغداديات ص ٢٩٢ ، ابن يعيش ١٣١/٨ ، اللسان (بلكث) ، ديوانه ص ٥٣٨ .

(٢) انظر : المساعد ٥٠٣/١ ، المغنى ٣٤٥/١ ، شرح أبيات المغنى للبغدادى ٢٧٢/٥ ديوانه ، ١٨٨ .

(٣) المساعد ٥٠٤/١ ، المغنى ٣٤٥/١ ، شرح أبيات المغنى للبغدادى ٢٧٢/٥ .

(٤) الكتاب ٤٣٢/١ .

(٥) شرح الكافية الشافية ١٦٢٠/٣ .

وذلك مثل : إذ ماتزرنى أزرك ، وحيثما تكن أكن . قال العربى :

جاز لك الله ما أعطاك من حسن وحيثما بك أمر صالح تكن(١)

وقول عبد الله بن همام السلولى :

إذ ماتريني اليوم أزجى مطيتي أصعد سيراً فى البلاد وأفرع

فإني من قوم سواكم وإنما رجالى فهم بالحجاز وأشجع(٢)

قال الفارسى - وهو يتحدث عن أقسام ما الكافة - : « ... والآخر أن تدخل على الاسم فتمنعه إضافته إلى ما كان يضاف إليه ويقع بعده فعل يعمل فيه ... مثاله حيثما تكن أكن وقوله :

إذ ما تريني مزجى مطيتي »(٣)

ومذهب سيبويه أن (إذ) إذا ركبت مع (ما) فارقتها الاسمية وصارت حرف شرط مثل (إن)(٤) .

ومذهب المبرد وابن السراج وأبى على ومن تابعهم أن اسميتها باقية مع التركيب ، وأن مدلولها من الزمان صار مستقبلا بعد أن كان ماضيا(٥) .

والصحيح ماذهب إليه سيبويه ، لأنها قبل التركيب حكم باسميتها لدلالتها على وقت ماض دون شيء آخر يدعى أنها دالة عليه ، ولمساواتها بعض الأسماء فى قبول بعض علامات الاسمية كالتنوين والإضافة إليها .

---

(١) انظر : شرح الكافية الشافية ١٥٨٢/٣ .

(٢) انظر : الكتاب ٤٣٢/١ - الأمالى الشجرية ٢٤٥/٢ ابن يعيش ٤٩/٧ - الرضى على الكافية ٢٥٤/٢ - ويروى (مزجى مطيق) .

(٣) البغداديات ص ٢٩٢ : ٢٩٤ .

(٤) الكتاب ٤٣١/١ ، ٤٣٣ .

(٥) انظر : المقتضب ٤٧/٢ ، ٥٤ ، الأصول ١٦٥/٢ ، المرتجل ص ٢٧٤ ؛ الرضى على الكافية ٢٥٣/٢ ، ٢٥٤ ، المغنى ٩٢/١ .

وأما بعد التركيب فدلولها المجمع عليه : معنى المجازاة وهو من معانى الحروف ، وهى مع ذلك غير قابلة لشىء من العلامات التى كانت قابلة لها قبل التركيب ، فوجب انتفاء اسميتها وثبوت حرفيتها كما ذهب إليه سيبويه[1] .

(ج) الأشياء التى تكف مابعدها عن العمل فيما قبلها[2] :

فى اللغة العربية أدوات تكف مابعدها عن العمل فيما قبلها ، لأن هذه الأدوات لها صدر الكلام ، كما أنها تغير معنى الكلام وتؤثر فى مضمونه : وكل ما كان كذلك وكان حرفا فرتبته الصدر لإيذان السامع من أول الأمر على ماقصد المتكلم من الكلام[3] .

وهذه الأدوات هى :

أدوات الاستفهام جميعها ، أدوات الشرط جميعها ، لام الابتداء ، أدوات العرض والتحضيض ، الموصولات ، كم الخبرية ، ما النافية إن وأخواتها ، لا النافية للجنس .

قال ابن السراج وهو يتحدث عن الحروف التى تكون صدور الكلام : « هذه الحروف عاملة كانت أو غير عاملة فلا يجوز أن يقدم ما بعدها على ما قبلها وذلك نحو : ألف الاستفهام وما التى للنفى ولام الابتداء .

لا يجوز أن تقول : (طعامك أزيد آكل) ولا (طعامك لزيد آكل) وإنما أجزنا : (إن زيداً طعامك لآكل) لأن تقدير اللام أن تكون قبل

---

(١) شرح الكافية الشافية ٣/١٦٢٢ ، ١٦٢٣ .

(٢) راجع : الأصول ١/٢٣١ ، ٢/٢٣٤ – المقتضب ٢/٦٦ ، ٣/١٩٧ ، ٤/١٢٨ الإنصاف ١/١٥٩ ، ٢١٧ – ٢/٦٢٣ – شرح الكافية الشافية ٢/٦١٦ – الرضى على الكافية ٢/٦٠ ، ٢٥٦ ، ٣٤٧ ، ٣٨٧ – المساعد ١/٤١٢ – البحر ٨/٤٤١ ، ٤٥٥ ، ٥٠٥ .

(٣) الرضى على الكافية ٢/٣٤٧ ، ٣٨٧ .

(إن) ... وإنما فرق بينهما لأن معناهما فى التأكيد واحد فلما أزيلت عن المبتدأ وقعت على خبره »(١) .

أدوات الاستفهام لايجوز أن يعمل ما بعدها فيما قبلها لصدارتها ، قال المبرد - وهو يرد على من أجاز تقديم الفاعل على فعله : .. ومن فساد قولهم أنك تقول : رأيت عبد الله قام فيدخل على الابتداء مايزيله ويبقى الضمير على حاله . ومن ذلك أنك تقول : عبد الله هل قام ؟ فيقع الفعل بعد حرف الاستفهام ومحال أن يعمل مابعد حرف الاستفهام فيما قبله »(٢) .

وكذلك لام الابتداء لايعمل مابعدها فيماقبلها لأنها تستحق الصدارة ، واستثنى من ذلك (إن) فإن لام الابتداء لاتمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها معها تقول : إن زيداً فيك الراغب ، وإن عمراً طعامك لآكل(٣) .

ومن ذلك قوله تعالى(ثم إنكم بعدذلك لميتون)(٤) فإن العامل فى (بعدذلك) هو (لميتون) (٥) .

وكذلك قوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)(٦) فعن ربهم ويومئذ متعلقان به (لمحجوبون)(٧) .

وكذلك قوله تعالى (إن ربهم بهم يومئذ لخبير)(٨) فبهم ويومئذ متعلقان به (لخبير)(٩) .

وإنما عمل ما بعد اللام هنا فيما قبلها لأنها مؤخرة من تقديم ، إذ الأصل

---

(١) الأصول ٢/٢٣٤ .
(٢) المقتضب ٤/١٢٨ وانظر : الانصاف ١/٥٩ - الرضى على الكافية ٢/٢٥٦ .
(٣) الأصول ١/٢٣١ ، ٢/٢٣٤ ، الرضى على الكافية ٢/٣٥٥ .
(٤) سورة المؤمنون آية ١٥ .
(٥) البيان ٢/٩٥١ .
(٦) سورة المطففين آية ١٥ .
(٧) البحر ٨/٤٤١ .
(٨) سورة العاديات آية ١١ .
(٩) البحر ٨/٥٠٥ .

فى هذه اللام أن تكون متقدمة فى صدر الكلام ، فكان ينبغى أن تكون مقدمة على (إن) إلا أنه لما كانت اللام للتأكيد وإن للتأكيد لم يجمعوا بين حرفى تأكيد : فكان الأصل يقتضى أن تنقل عن صدر الكلام وتدخل الاسم ، لأنه أقرب إليه من الخبر ، ألا أنه لما كان الاسم يلى (إن) كرهوا أن يدخلوها على الاسم كراهية للجمع بين حرفى تأكيد : فنقلوها من الاسم وأدخلوها على الخبر .

والذى يدل على أن الأصل فيها أن تكون مقدمة على (إن) أنها لام الابتداء ولام الابتداء لها صدر الكلام .

والذى يدل على أن الأصل فيها أن تدخل على الاسم قبل الخبر أنه إذا فصل بين إن واسمها بظرف أو حرف جر جاز دخولها عليه نحو ، إن عندك لزيداً ، وإن فى الدار لعمراً [١] .

* * *

وأدوات الشرط كذلك لا يعمل مابعدها فيما قبلها لأنها لا تكون إلا صدراً [٢] .

قال المبرد : « ولو قلت آتيك متى أتيتنى أو أقوم أين قمت على أن تجعل متى وأين ظرفين لما بعدهما كان جيداً وكانتا منقطعتين من الفعل الأول إلا أنك لما ذكرته سد مسد جواب الجزاء .

فإن أردت أن يكونا ظرفين لما قبلهما استحال لأن الجزاء لايعمل فيه ماقبله كما لا يعمل هو فيما قبله . ألا ترى أنك لا تقول : زيداً إن تأت يكرمك ، ولا زيداً متى تأته تحببه [٣] .

---

(١) الانصاف ٢١٧/١ ، ٢١٨ . (٢) الأصول ٢٣٦/٢ .

(٣) المقتضب ٦٦/٢ .

ولذا لا يجوز عند البصريين تقديم معمول الشرط على أداة الشرط نحو: زيداً إن تضرب يضربك وكذا معمول الجزاء فلا يجوز : زيداً إن جئتنى أضرب بالجزم .

وذهب الكوفيون إلى أنه يجوز تقديم المفعول بالجزاء على حرف الشرط نحو : زيداً إن تضرب أضرب ، واختلفوا فى جواز نصبه بالشرط فأجازه الكسائى ولم يجزه الفراء .

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا يجوز تقديم المنصوب بالجزاء على حرف الشرط ، لأن الأصل فى الجزاء أن يكون مقدما على (إن) كقولك : اضرب أن تضرب وكان ينبغى أن يكون مرفوعا ، إلا أنه لما أخر انجزم بالجوار وإن كان من حقـــه أن يكون مرفوعا . والذى يدل على ذلك قول جرير بن عبدالله البجلى :

يا أقرع بن حابس يا أقرع   إنك إن يصرع أخوك يصرع(١)

والتقدير فيه : إنك تصرع إن يصرع أخوك ، ولولا أنه فى تقدير التقديم لوجب أن يكون مجزوما وقال زهير :

وإن أتاه خليـل يـــوم مسـألة   يقول لا غائب مالى ولا حرم(٢)

والتقدير فيه : يقول إن أتاه خليل ، ولولا أنه فى تقدير التقديم وإلا لما جاز أن يكون مرفوعا .

وإذا ثبت هذا وأنه فى تقدير التقديم فوجب جواز تقديم معموله على حرف الشرط لأن المعمول قد وقع فى موقع العامل .

---

(١) انظر : الكتاب ١/ ٤٣١ ، المقتضب ٢/ ٧٢ ، الأمالى الشجرية ١/ ٨٤ ، التصريح ٣/ ٣٤٩ .

(٢) انظر : الكتاب ١/ ٣٤٦ ، المقتضب ٢/ ٧٠ ، المحتسب ٢/ ٦٥ ابن يعيش ٨/ ١٥٧ ، ديوانه ص ١٥٣ .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا إنه لايجوز تقديم معمول الشرط والجزاء على حرف الشرط ، لأن الشرط بمنزلة الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام ، فكما لايجوز أن يعمل مابعد الاستفهام فيما قبله فكذلك الشرط ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال زيداً أضربت ؟ فكذلك لايجوز أن يقال : زيداً إن تضرب أضرب .

والذى يدل على ذلك أن بين الاستفهام وبين الشرط من المشابهة مالاخفاء به ، ألا ترى أنك إذا قلت : أضربت زيداً ؟ كنت طالبا لما لم يستقر عندك كما أنك إذا قلت : إن تضرب زيداً أضرب كان كلاما معقودا على الشك ، فإذا ثبتت المشابهة بينهما من هذا الوجه ، فينبغى أن يحمل أحدهما على الآخر فكما لا يجوز أن يتقدم مابعد الاستفهام عليه فكذلك الشرط .

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين (إن الأصل فى الجزاء أن يكون مقدما على الشرط) .

قلنا : لا نسلم بل مرتبة الجزاء بعد مرتبة الشرط ، لأن الشرط سبب فى الجزاء والجزاء مسببه ، ومحال أن يكون المسبب مقدما على السبب . ألا ترى أنك تقول : إن أشكرك تعطنى وأنت تريد : إن تعطنى أشكرك ، لاستحالة أن يتقدم المسبب على السبب ، وإذا ثبت أن مرتبة الجزاء أن تكون بعد الشرط وجب أن تكون مرتبة معموله كذلك ، لأن المعمول تابع للعامل.

وأما قول الشاعر :

* إنك إن يصرع أخوك تصرع *

فلا حجة لهم فيه ، لأنه إنما نوى به التقديم وجعله خبراً لإن لأجل ضرورة الشعر ، وما جاء لضرورة شعر فلا حجة فيه .

وأما قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسألة   يقول لا غائب مالى ولا حرم

فلا نسلم أنه رفعه لأن النية به التقديم ، وإنما رفعه لأن فعل الشرط ماض وفعل الشرط إذا كان ماضيا نحو : إن قمت أقوم فانه يجوز أن يبق على رفعه ، لأنه لما لم يظهر الجزم فى فعل الشرط ترك الجواب على أول أحواله وهو الرفع ، وهو وإن كان مرفوعا فى اللفظ فهو مجزوم فى المعنى[١] .

* * *

كذلك (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأنها تستحق الصدارة[٢] ، ولذا منع البصريون تقديم معمول خبرها عليها فلا يجيزون : طعامك ما زيد آكلا وأجاز ذلك الكوفيون محتجين بأن (ما) بمنزلة لم ولن ولا النافية ، وهذه الأحرف يجوز تقديم معمول ما بعدها عليها نحو : زيداً لم أضرب ، وعمراً لن أكرم ، وبشراً لا أخرج .

أما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا إنه لا يجوز ذلك لأن « ما » معناها النفى ويليها الاسم والفعل فأشبهت حرف الاستفهام وحرف الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله . فكذلك ههنا « ما » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

وأما الجواب عن حجة الكوفيين أنها بمنزلة لم ولن ولا فلا نسلم لهم بذلك لأن « ما » يليها الاسم والفعل ، وأما لم ولن فلا يليهما إلا الفعل فصارا بمنزلة بعض الفعل بخلاف « ما » .

« وأما « لا » فإنما جاز التقديم معها وإن كانت يليها الاسم والفعل ، لأنها حرف متصرف فعمل ما قبله فيما بعده . ألا ترى أنك تقول : جئت بلاشىء فيعمل ما قبله فيما بعده ، فإذا جاز أن يعمل ما قبله فيما بعده جاز أن يعمل ما بعده فيما قبله ، فبان الفرق بينهما[٣] .

---

(١) الإنصاف ٢/٦٢٣ : ٦٢٨ .

وانظر : الأصول ٢/٢٣٦ ، الرضى على الكافية ٢/٢٥٦ .

(٢) الأصول ٢/٢٣٥ ، البحر ٨/٤٥٥ .

(٣) الانصاف ١/١٧٢ ، ١٧٣ — ابن يعيش ٨/٦٦ ، الرضى على ١/١٦٤ ، ١٦٥

كما منع البصريون أيضا تقديم خبر « مازال » عليها لأن « ما » للنفي والنفي له صدر الكلام فجرى مجرى حرف الاستفهام في أن له صدر الكلام، والسر فيه هو أن الحرف إنما جاء لإفادة المعنى في الاسم والفعل فينبغي أن يأتي قبلهما لا بعدهما، وكما أن حرف الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله فكذلك هاهنا، ألا ترى أنك لو قلت في الاستفهام: زيدا أضربت؟ لم يجز لأنك تقدم ما هو متعلق بما بعد حرف الاستفهام عليه، فكذلك هاهنا إذا قلت: قائما مازال زيد ينبغي أن يجوز، لأنك تقدم ماهو متعلق بما بعد حرف النفي عليه(١).

* * *

ومن الأدوات التي تستحق الصدارة « لا » التي تعمل في النكرة النصب وتبنى معها، لا يجوز أن تقدم ما بعدها على ماقبلها وهي مشبهة بإن، وإنما يقع بعدها المبتدأ والخبر، فكما لا يجوز أن تقدم ما بعد « إن » عليها كذلك هي والتقديم فيها أبعد لأن « إن » أشبه بالفعل منها. فأما لا إذا كانت تلي الأسماء والأفعال وتصرفت في ذلك ولم تشبه بليس فلك التقديم والتأخير، تقول: أنت زيداً لا ضارب ولا مكرم وما أشبه ذلك(٢).

* * *

ويرى ابن السراج أن ما بعد «إلا» الاستثنائية لا يعمل فيما قبلها فلا يجوز: ما أنا زيدا إلا ضارب تريد: ما أنا إلا ضارب زيدا(٣).

كما لا يجوز: ما الخبز إلا زيد آكل، لا يجوز أن تعمل الفعل الذي بعد « إلا » في الاسم الذي قبلها بوجه من الوجوه، لأن الاستثناء إنما يجيء بعد

---

(١) الانصاف ١/١٥٩.

(٢) الأصول ٢/٢٣٥.

(٣) الأصول ١/٢٨٤.

معنى الابتداء ، لأن المعنى : ما الخبز شيئاً إلا زيداً آكله ، فإن حذفت الهاء من « آكله » أضمرتها ورفعت الخبز لا يجوز إلا ذلك(١) .

• • •

والموصولات أيضاً لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأن الموصول وصلته كجزئي اسم وقد ثبت للموصول التقدم لكون الصلة مبينة له فوجب للصلة التأخر ، فلا تتقـدم الصلة ولا جزء منها على الموصول ولا تعمل الصلة وما يتعلق بها فيما قبل الموصول ، لأن ذلك المعمول إذن جزؤها ، وجزء الصلة لا يتقدم على الموصول(٢) .

ولكون هذه الأدوات واجبة التصدر وجب رفع الاسم المشغول عنه إذا وقع قبل أداة منها ، لأنها لا تعمل فيما قبلها وما لا يعمل لا يفسر عاملا .

قال ابن مالك : وهو يتحدث عن الأشياء التي تمنع من نصب الاسم الذي شغل عنه الفعل بضميره — :

« والثاني من مانعي النصب أن يكون بين الاسم والفعل أحد الأشياء التي لا يعمل ما بعدها فيما قبلها كالاستفهام وما النافية ولام الابتداء وأدوات الشرط كقولك : زيد هل رأيته ؟ وعمرو متى لقيته ؟ وخالد ما صحبته وبشر لأحبه ، والحق ان ألفته أفلحت .

فالرفع بالابتداء متعين في زيد وعمرو وخالد وبشر والحق لتقديمها على الاستفهام وما النافية ولام الابتداء وأداة الشرط(٣) .

---

(١) الأصول ٢٩٩/١ .

(٢) انظر : المقتضب ١٩٧/٣ ، الرضي على الكافية ٦٠/٢ .

(٣) شرح الكافية الشافية ٦١٦/٢ ، ٦١٧ .

وانظر : التسهيل ص ٨٠ ، المساعد ٤١٢/١ ، الرضي على الكافية ١٦٤/١ - ١٦٥ .

أهم مراجع البحث

١ - الأصول فى النحو: لابن السراج ، ت/ د . عبدالحسين الفتلى، ط : مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٥ .

٢ - الاقتضاب: لابن السيد البطليوسى ،ط : دار الجيل بيروت ١٩٧٣ .

٣ - أمالى السهيلى : ت/ د محمد إبراهيم البنا ، ط : السعادة ١٩٧٠ .

٤ - الأمالى الشجرية : لأبى السعادات هبة الله بن على بن حمزة المعروف بابن الشجرى ، ط : دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ .

٥ - الإنصاف فى مسائل الخلاف : لكمال الدين أبى البركات الأنبارى ومعه : الانتصاف : للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط : المكتبة التجارية ١٩٦١ .

٦ - الإيضاح العضدى : لأبى على الفارسى ، ت/ د ، حسن شاذلى فرهود ، ط : دار التأليف بمصر ١٩٦٩ .

٧ - الإيضاح فى علوم البلاغة : لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى إشراف لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية ، ط : السنة المحمدية .

٨ - بدائع الفوائد : لابن قيم الجوزية ، ط : دار الكتاب العربى - بيروت .

٩ - البرهان فى علوم القرآن : الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار المعرفة - بيروت .

١٠ - البيان فى غريب إعراب القرآن : لابن الأنبارى . ت/ د . طه عبد الحميد طه ، ط : المؤسسة المصرية للتأليف ١٩٦٦ .

١١ - التبيان فى إعراب القرآن : لأبى البقاء العكبرى ، ت/ على محمد البجاوى ، ط : عيسى الحلبى ١٩٧٦ .

١٢ ـ تذكرة النحاة : لأبي حيان الأندلسي ـ المجلد الثاني ت/ د. عفيف عبد الرحمن ، ط : مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٦ .

١٣ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد : لابن مالك ، ت/ محمد كامل بركات ، ط : الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٩ .

١٤ ـ تفسير البحر المحيط : لأبي حيان ، ط : دار الفكر ـ بيروت .

١٥ ـ حواشي الأسفرايني على اللباب : للفاضل الاسفرايني ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢/ م نحو .

١٦ ـ خزانة الأدب : للبغدادي ، ت/ عبد السلام هارون ، ط : الهيئة للكتاب ـ ط : بولاق .

١٧ ـ الخصائص : لأبي الفتح عثمان بن جني ، ت/ محمد علي النجار ، ط : دار الكتب المصرية ١٩٥٢ .

١٨ ـ دراسات لأسلوب القرآن : الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، ط : السعادة .

١٩ ـ دلائل الإعجاز : لعبد القاهر الجرجاني ، تعليق / أحمد مصطفى المراغي ، ط : المطبعة العربية .

٢٠ ـ سر صناعة الإعراب : لابن جني ، ت/ د. حسن هنداوي ، ط : دار القلم ـ دمشق .

٢١ ـ شرح أبيات مغني اللبيب : للبغدادي ، ت/ عبد العزيز رباح وآخرين ، ط : محمد هاشم الكتبي .

٢٢ ـ شرح الكافية : رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ، ط : دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٣ ـ شرح الكافية الشافية : لابن مالك ، ت/ د. عبد المنعم هريدي ، ط : المأمون للتراث .

٢٤ ـ شرح المفصل : لابن يعيش ، ط : الطباعة المنيرية .

٢٥ ـ الصواب في شرح اللباب : جمال الدين عبد الله الحسيني المعروف

بنقرة كار ، ت/ د . سمير أحمد عبد الجواد ــ رسالة دكتوراه .

٢٦ ـ الكتاب : لسيبويه ، ت/ عبد السلام هارون ـ ط : بولاق .

٢٧ ـ الكشف عن حقائق التنزيل : الزمخشري ط : دار المعرفة ـ بيروت

٢٨ ـ لسان العرب : لابن منظور ، ط : دار المعارف .

٢٩ ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات : لابن جني ، ت/ علي النجدي ناصف ، ط : دار التحرير ١٩٦٩ .

٣٠ ـ المسائل الشيرازيات : لأبي علي الفارسي ، ت/ علي جابر منصور ـ رسالة دكتوراة بجامعة عين شمس رقم ٤١٥/ ع . ج .

٣١ ـ المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات : لأبي علي الفارسي ، ت/ صلاح الدين عبد الله السيكاوي ، ط : العاني ـ بغداد .

٣٢ المساعد شرح تسهيل الفوائد : لابن عقيل ، ت/ د . محمد كامل بركات ، ط : دار الفكر ـ دمشق .

٣٣ ـ معاني القرآن : لأبي زكريا الفراء ، ت/ محمد علي النجار ، ط : الدار المصرية للتأليف .

٣٤ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : لابن هشام ، ت/ د . مازن المبارك وآخر ، ط : لاهور ١٩٧٩ .

٣٥ ـ مفتاح العلوم : للسكاكي ، تعليق : نعيم زرزور ، ط : دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣٦ ـ المقتضب : للمبرد ، ت/ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣٧ ـ نتائج الفكر : للسهيلي ، ت/ د . محمد إبراهيم البنا ، ط : منشورات جامعة قار يونس .

٣٨ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر : لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، ت/ محمود محمد الطناحي ، ط : دار إحياء التراث العربي .

٣٩ ـ همع الهوامع : جلال الدين السيوطي ، ت/ د . عبد العال سالم وآخر ، ط : دار البحوث العلمية بالكويت .

القسم الثالث

قسم الدراسات البلاغية

١ ـ الدكتور أحمد محمد على

٢ ـ الدكتور إبراهيم عبدالحميد التلب

مصادر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها
الدكتور / أحمد مطلوب

بقلم
الدكتور / أحمد محمد على
الأستاذ المساعد بالكلية

عرف الدكتور أحمد مطلوب بغزارة الإنتاج وتنوعه فى تخصصه الدقيق (البلاغة العربية) منذ أن بدأ الكتابة فيها عام ١٩٥٨م[1] وحتى الآن ، وقد كان كتابه الضخم « معجم المصطلحات البلاغية وتطورها » الذى صدر الجزء الأول منه عام ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م وصدر الجزء الثالث والأخير عام ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م والذى استغرق إنجازه عشرة أعوام ، وتم طبعه وتصحيحه فى سبع سنين[2] ثمرة لجهوده السابقة فى البلاغة العربية ، وطول النظر فى مصادرها ، ودراسته لها ، وتدريسها لطلابه ، وإشرافه على تلاميذه . ومناقشاته للرسائل الجامعية . ورحلة تقرب من ثلث قرن فى خدمة البلاغة العربية ليست بالشيء القليل ، ومن حق من خدم البلاغة العربية هذا التاريخ كله أن يطمح لوضع معجم لمصطلحات البلاغة وتطورها ، وهو حلم راود الكثيرين دون شك ولكنهم تهيبوا خوض لجته أو الاقتراب من ساحله .

وحلم الدكتور مطلوب حلم قديم ، ولعل كتابه « مصطلحات بلاغية » الذى صدر عام ١٩٧٢ م والذى عالج فيه مصطلحات : الفصاحة والبلاغة

---

(١) نشر الدكتور مطلوب أول مقال فى البلاغة تحت عنوان : أثر القرآن فى نشأة البلاغة فى مجلة المعلم الجديد العدد ٣ مجلد ٢١ سنة ١٩٥٨م .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ج ٣ ص ٣٦٤ . ط العراق .

والمعاني والبيان والبديع معالجة تاريخية كان البذرة الأولى التي وضعها في حقل هذا المعجم ، يقول : « ولعل هذه المحاولة التي نقدمها اليوم تكون سبيلا تفضي إلى دراسة مصطلحات البلاغة كلها وإيضاح تطورها التاريخي »(١) .
وحلم الدكتور مطلوب هذا جزء من الحلم الكبير الذي يراود علماء اللغة العربية لوضع معجم تاريخي للألفاظ العربية، ولقد رأى في كتابه « مصطلحات بلاغية » أن هذا « أمر لا يقدر عليه أحد »(٢) ، وفي معجمه لاحظ أن « الدعوة إلى وضع معجم تاريخي للغة العربية ظلت تتردد ، وعقدت من أجل ذلك الندوات فما استطاعت أن تبدأ به »(٣) ، وعلته في الحكم بالاستحالة أولا وبعدم الاستطاعة في البدء به آخرا هو كما يقول « لأن تاريخ الألفاظ العربية يمتد في الزمن ، ولأن الكثير من النصوص ضاع في غمرة الأحداث »(٤) .

وإذا كان الحلم الكبير يستحيل تحقيقه أو يتعذر للسبب الذي ذكره فإن حلمه يمكن تحقيقه لأن البلاغة أسهل موردا وأقرب منالا(٥) لتأخر ظهورها في كتب ترصد أحوالها .

وهذا هو الذي أطمعه في تحقيق هذا الحلم ، وهو في الوقت نفسه أكبر مزاق في هذا الطريق الوعر .

إن سهولة المورد وقرب المنال التي حملت الدكتور مطلوب على تحقيق حلمه ربما كانت راجعة إلى أنه اعتاد السباحة في مصادر البلاغة في تجارب سابقة :
- في رسالة الماجستير « البلاغة عند السكاكي » (١٩٦١م) ورسالة الدكتوراه « القزويني وشروح التلخيص » (١٩٦٣ م) .

---

(١) مصطلحات بلاغية ص ٨ ط : العراق .
(٢) المرجع السابق ص ٧ .
(٣) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٦ .
(٤، ٥) مصطلحات بلاغية ص ٧ ، معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٦ .

ـ وفى كتبه : « مصطلحات بلاغية » (١٩٧٢ م) ، « ومناهج بلاغية » (١٩٧٣ م) ، « وعبد القاهر الجرجانى بلاغته ونقده » (١٩٧٣ م) .

ـ وفى تحقيقه لبعض كتب التراث البلاغى بالمشاركة مع الدكتورة خديجة الحديثى مثل : « التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكانى » (١٩٦٤ م) ، و « البرهان فى وجـــوه البيان لابن وهب » (١٩٦٧ م) و « الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى » (١٩٦٨ م) ، « البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكانى » (١٩٧٤ م) .

إن هذه التجارب من شأنها أن تغرى بتحقيق هذا الحلم الكبير .

والحقيقة أن الدكتور مطلوب لم يكن غافلا عن مشقة الطريق ، وربما تبين له أن ماظنه سهلا قريبا فى « مصطلحات بلاغية » لم يكن كذلك عندما خاض لجة المعجم « إن وضع المعجم البلاغى لم يكن هينا فهناك مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذورا أو ثمارا وكان على الباحث أن يقف عليها ويعيد النظر فيها ليأخذ منها ماينفع ويضمه إلى ما اقتبسه من كتب البلاغة والنقد »[1] . الأمر إذن ليس أسهل موردا ولا أقرب منالا ، وهناك فرق شاسع بين جمع مادة علمية لرسالة جامعية أو بحث علمى أو إعداد كتاب وبين جمع مادة علمية لإعداد معجم لتطور المصطلحات ، وكل التجارب السابقة للدكتور مطلوب كانت محصورة فى إطار معين ، حتى كتابه « مناهج بلاغية » لايخرج على هذا الإطار المحدود وإن كان أوسع مجالا من كتبه الأخرى ورسائله الجامعية .

إن وضع معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها يحتاج إلى إحاطة شاملة وعميقة للتراث العربى كله ، وإغفال شىء منه يترك ثغرة فى عمل كبير كهذا ، وكلما كان حجم المتروك أكثر كان حجم الثغرات أكبر ، ولا يغنى بعض

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٦ .

هذا التراث عن بعض فى سد هذه الثغرات ، ولقد كان الدكتور مطلوب صادقا حينما ذكر أن هناك مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذورا أو ثمارا ، والبحث فى مثل هذه المصادر ليس سهلا ، إنه بحث عن الذهب فى عروق الثرى على مسافة عميقة فى باطن الأرض وليس التقاطا للحصى على سطحها ، ولعله مما يعين على هذا أن كثيرين نظروا فى هذه المصادر وأخرجوا من أعماقها ما يتصل بالبلاغة . فمصادر اللغـــة والنحو والأدب والتفسير والحديث والأصول والجدل والكلام وغيرها لم تكن بمنأى عن دارسى البلاغة قبل الدكتور مطلوب ، ولم يكن ما توصلوا إليه فى باطن هذه الكتب بالشىء اليسير ، ولقد كان من المتوقع أن يفيد الدكتور من كل هذه الجهود وأن يوفى بما ذكره بشأن المصادر غير البلاغية والنقدية ، فهل فعل الدكتور مطلوب هذا ؟

* * *

الحق أن نظرة واحدة فى مصادر المعجم تصيبك بخيبة الأمل والحيرة فى آن.

أما خيبة الأمل فمردها إلى أن مصادر الدكتور مطلوب فى معجمه يمكن أن تكون كافية لرسالة علمية أو تأليف كتاب ، ولكنها بالقطع لا تصلح أن تخرج معجما للمصطلحات البلاغية وتطورها .

وأما الحيرة فلأن كثيراً من المصادر التى اعتمد عليها الدكتور مطلوب فى دراساته البلاغية السابقة أهملها إهمالا تاما .

لقد اعتمد الدكتور مطلوب فى إخراج معجمه على ستة وثلاثين ومائة مصدر(١) ، أحدثها فى نظره « أنوار الربيع فى أنواع البديع » لابن معصوم

---

(١) سقط من ثبت المصادر : « كتاب الحيوان » للجاحظ وقد اعتمد عليه كثيراً ، وكتاب « البلاغة » للمبرد وقد رجع إليه قليلا ، ولم يذكر فيها كتاب « الحجة على من زاد على ابن حجة » . وفى الوقت نفسه كرر بعض المصادر ، كشروح التلخيص =

المدنى المتوفى سنة ١٢١٧ هـ، أى أنه توقف عند بداية القرن الثانى عشر الهجرى، لأن ذلك آخر ماوقفت عنده البلاغة كما يرى[1]، ولكنه رجع عن ذلك حينما نظر فى كتاب « الحجة على من زاد على ابن حجة » للحاج عثمان بك الجليلى المتوفى سنة ١٢٤٥ هـ[2] وبهذا امتد الزمن بمصادره إلى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى. والحقيقة أن مصادره امتدت إلى مايقرب من هذا التاريخ من قبل النظر فى كتاب « الجليلى »، فلقد رجـــع فيما رجع إلى « حاشية الدسوقى » المطبوعة مع شروح التلخيص، وصاحبها معاصر للجليلى وتوفى قبله بخمسة عشر عاما فقط [عام ١٢٣٠ هـ]. والوقوف عند هذا الحد من المصادر فى تراث يمتد من بداية التأليف فيه إلى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى ينبىء عن تقصير كبير. واعتذار الدكتور مطلوب فى خاتمة المعجم بعد النظر فى كتاب « الحجة على من زاد على ابن حجة » بقوله : « ولعل هناك كتبا لم تقع يدى عليها وأنا أعد هذا المعجم »[3] لا يعفيه من هذا التقصير.

صحيح أن الدكتور نوع فى مصادر معجمه فلم يقصره على كتب البلاغة والنقد فقط، ولكنه فى الوقت نفسه لم يوف بما وعد من النظر فى مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذورا أو ثمارا غير كتب البلاغة والنقد، فأين هى هذه المئات من المصادر ؟ وإذا اكتفينا بالحد الأدنى لدلالة الجمع « مئات » لكان عليه أن يرجع إلى ثلاثمائة مصدر من مصادر التراث العربى على الأقل غير كتب البلاغة والنقد، فهذا هو أقل ماينطبق عليه قوله « مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذورا أو ثمارا ».

• • •

= ورسائل البلغاء ورسائل الجاحظ التى يذكرها جملة تارة ثم يذكر محتوياتها بالتفصيل مرة أخرى.

(١) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٧.

(٢) السابق ج ٣ ص ٣٦٢. (٣) نفسه ج ٣ ص ٣٦٤.

وأول : ما يلاحظ على مصادر معجمه القليلة أنه يعتمد اعتماداً كاملا على التراث المطبوع ، ولم يقترب من التراث المخطوط بمجرد اقتراب .

ولا يستطيع الدكتور مطلوب أن يزعم أن التراث المطبوع وحده مهما كان ثراؤه وغناه يكفي لإصدار معجم لمصطلحات البلاغة وتطورها حتى لو نظر في كل التراث المطبوع قبل أن يخط حرفا واحداً في معجمه ، فالمطبوع من التراث ـ محققا أو غير محقق ـ لا يمثل إلا النذر اليسير من ذلك التراث الممتد في عمق الزمان والمكان ، وعلى الرغم من ضياع الكثير من هذا التراث الفني عن حقد وعمد غالبا وعن إهمال أحيانا فإن ما بقي من هذا التراث مخطوطا في مكتبات العالم المختلفة تنوء بمراجعته مراجعة شاملة جهود الرجال . وقد كان يستطيع الدكتور مطلوب أن يراجع ما تيسر له من المصادر المخطوطة في بغداد ودمشق والقاهرة وفي خزائن كتبها نفائس من التراث كان يمكن أن تثرى معجمة وتقلل ثغراته ونقائصه .

ومن العجيب أن يرجع الدكتور مطلوب إلى بعض مخطوطات التراث في دراساته السابقة ولا يرجع إليها وهو يعد معجمه ، وإذا كانت المخطوطات ضرورة لدراساته السابقة فكيف لا تكون ضرورة لمعجمه ؟

إن الدكتور مطلوب رجع وهو يعد رسالة الدكتوراة إلى المخطوطات التالية .

١ ـ إيضاح الإيضاح للأقصرائي .

٢ ـ حل الاعتراضات التي أوردها صاحب الإيضاح على المفتاح للكاشاني .

٣ ـ روض الأذهان في علم المعاني والبيان لبدر الدين بن مالك ، وهو أحد مصادره أيضا في كتابه « مناهج بلاغية » .

٤ ـ شرح المفتاح لقطب الدين الشيرازي ، وكان قد رجع إليه في الماجستير .

٥ ـ المعيار في نقد الأشعار لمحمد بن أحمد الأندلسي .

٦ ـ طراز الحلة وشفاء الغلة للغرناطى ، وهو أحد مصادره فى « مناهج بلاغية » .

٧ ـ رجع إلى مخطوطة « المفيد فى إعراب القرآن المجيد » لابن الزملكانى وهى من فهارس البلاغة فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ـ وهو يحقق كتابيه « التبيان » و « البرهان »(١) ، وهو الكتاب الذى صدر بعد ذلك بعنوان : « المجيد فى إعجاز القرآن المجيد » بتحقيق الدكتور شعبان صلاح .

وهذه المصادر المخطوطة لاظـل لها فى معجمه ، فهل كانت رسالته للدكتوراه وكتابه « مناهج بلاغية وتحقيق « التبيان » و « البرهان » أحوج إلى هذه المخطوطات من معجمه ؟ أو أنه لم يجد فيها مايستحق الرجوع إليه فى هذه الدراسة الموسعة لمصطلحات البلاغة وتطورها ؟

* * *

وثانى : مايلاحظ على مصادر معجمه أنها تخلو خلوا كاملا من أى مصدر من مصادر علم أصول الفقه وعلم الجدل ، وإذا كان الدكتور مطلوب يجهل الصلة بين البلاغة وعلم الجدل ـ على سبيل الفرض ـ فإنه بالقطع لا يجهل صلة علم أصول الفقه بعلم البلاغة ، ولا أثره فيه وتأثيره عليه .

ففى دراسته « البلاغة عند السكاكى » التى حصل بها على درجة الماجستير عام ١٩٦١ م تعرض لأثر الأصوليين فى « مفتاح العلوم » بصفة خاصة ، وفى علم البلاغة بصفة عامة(٢) ، انتهى منها إلى أن الصلة بين البلاغة ولا سيما علم المعانى ـ وعلم الأصول وثيقة(٣) .

وفى دراسته « القزوينى وشروح التلخيص » التى حصل بها على درجة

---

(١) التبيـــان ص ١٢ والبرهان ص ٢٢ . طبعا فى العراق : الأول ١٩٦٤ م والثانى ١٩٧٤ م .

(٢) البلاغة عند السكاكى ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ . ط العراق ١٩٦٤م .

(٣) السابق ص ٢٠٦ .

الدكتوراه عام ١٩٦٣ م بين أن السبكى سيطرت عليه النزعة الأصولية ، ونقل عنه أن علمى أصول الفقه والمعانى فى غاية التداخل[1] .

وفى كتابه « مناهج بلاغية » خص فصله الثانى للمفسرين والأصوليين ، وقد تعرض فى الأصوليين إلى « الرسالة » للشافعى ، و « المعتمد فى أصول الفقه » لأبى الحسين البصرى المعتزلى ، و « والمستصفى » للغزالى ، و« الإحكام فى أصول الأحكام » للآمدى ، و « الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز » للعز بن عبد السلام ، و « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » لابن قيم الجوزية[2] . وقد أدخل الكتابين الأخيرين فى كتب الأصول بحجة ضعيفة وسنده لايقوم على ساق ، والمهم فى ذلك أن صاحب المعجم لايجهل مافى كتب الأصول من مباحث بلاغية لها أثر واضح فى نشأة البلاغة وتطورها ، وإن كان قد اكتفى منها بما لايغنيه فى بيان أثر الأصوليين فى البلاغة .

فما الذى حمله على تجاهل كتب الأصول تجاهلا تاما وهو يعد معجمه ؟ وكيف يتفق هذا التجاهل مع ماقرره فى مقدمة المعجم من أن هناك مئات المصادر التى تحمل بين سطورها بذوراً وثمارا وكان على الباحث أن يقف عليها ويعيد النظر فيها ليأخذ منها ماينفع ويضمه إلى ما اقتبسه من كتب البلاغة والنقد ؟

والعجيب أن كتب الأصول التى لم يرجع إلا إلى النذر القليل منها فى فى دراساته السابقة لاتحتاج إلى الغوص فيها وقراءة مابين السطور لاستخراج مصطلحات البلاغة ، لأن مسائل البلاغة وقضاياها ومصطلحاتها ظاهرة واضحة فيها ، فما الذى حمله على إهمالها هكذا جملة واحدة وهو يعد معجمه ؟

* * *

---

(١) القزوينى وشروح التلخيص ص ٥٣٨ وما بعدها ط العراق ١٩٦٧ .

(٢) مناهج بلاغية من ص ٦٤ إلى ٧٨ ، بيروت ١٩٧٣ م .

وثالث : ما يلاحظ على مصادر معجمه هذا أن كثيرا من مصادر البلاغة المطبوعة - أو التى لها صلة بالبلاغة - التى رجع إليها فى دراساته السابقة لانجد لها ذكرا فى معجمه ، مع أنه كان من المفروض أن يضيف إلى مصادره السابقة كل ما تصل إليه يده ويبلغه علمه وهو يعد معجمه لا أن ينتقص من هذه المصادر ويحذف منها .

ومن هـــذه المصادر المطبوعة التى رجع إليها فيما مضى من دراسات وأهملها فى معجمه .

١ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن.

٢ - المجازات النبوية .

وكلاهما للشريف الرضى ، وهما أشهر من أن يعرفا ، وقد رجع إليهما فى الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

٣ - كشف اللثام عن التورية ، الاستخدام لابن حجة الحموى . وقد رجع إليه فى الدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

٤ - الدر الدائر المنتخب من كنايات واستعارات وتشبيهات العرب للزمخشرى ، وقد رجع إليه فى « مناهج بلاغية » .

٥ - المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ، وقد رجع إليه فى الماجستير والدكتوراه ومناهج بلاغية .

٦ - شرح بديعية الباعونية ، وقد رجع إليها فى « مناهج بلاغية » ، والعجيب أنها مطبوعة على هامش « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى ، وهو من مصادره فى المعجم ، أى أنها كانت تحت عينيه وهو ينظر فى المصادر لإعداد معجمه .

٧ ، ٨ - « النقاية » و « إتمام الدراية لقراء النقاية » وكلاهما للسيوطى ، وقد رجع إليهما فى « مناهج بلاغية » ، وقد تكلم السيوطى فى هذين الكتابين

عن علوم البلاغة بإيجاز وكان فيهما يتجه اتجاه القزويني في العرض والتقسيم والأمثلة(١) .

٩ ـ مقدمة ابن خلدون ، وقد رجع إليها في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١٠ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده ، وقد رجع إليه في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وقد رجع إليه في الماجستير والدكتوراه و « مناهج بلاغية » .

١٢ ـ التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم لأبي أحمد العسكري ، وقد رجع إليه في « مناهج بلاغية » .

١٣ ـ الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، وقد رجع إليه في « مناهج بلاغية » .

١٤ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ، وقد رجع إليه في الماجستير .

١٥ ـ صبح الأعشى للقلقشندي ، وقد رجع إليه في الدكتوراه و« مناهج بلاغية » .

١٦ ـ خزانة الأدب للبغدادي ، وقد رجع إليها في تحقيق « البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن » لابن الزملكاني .

ولست أدري ما الذي حمله على إهمال هذه المصادر وتجاهلها في إعداد المعجم الذي يحتاج إلى غوص في بطون مئات المصادر المتخصصة وغير المتخصصة حتى تضيق مساحة الثغرات فيه وتقل درجات القصور ؟

* * *

(١) السابق ص ٣١٢ .

ورابع : هذه الملاحظات أنه أغفل جميع الدراسات الحديثة التى غاصت فى التراث القديم واستخرجت منه مسائل البلاغة وقضاياها ومصطلحاتها ، خاصة الرسائل الجامعية التى قضى أصحابها فيها زهرة الشباب تحت إشراف علمى رصين ، مع أن هذه الجهود المتفرقة كان ينبغى أن تكون التمهيد الطبيعى لوضع المعجم الشامل تماما كما تسبق المعاجم النوعية المعجم العام ، ولقد رجع الدكتور مطلوب إلى هذه الدراسات وأفاد فيها وهو يضع بذرة المعجم الأولى فى « مصطلحات بلاغية » الذى صدر عام ١٩٧٢م ، فما الذى حمله على أن يغفل هذه المراجع حينما وضع معجمه الشامل لمصطلحات البلاغة ؟ أم أنه رجع إليها وأفاد منها — ولا شك عندى فى ذلك — ومع هذا أغفل الإشارة إليها فى مقدمة معجمه أو فى ثبت المصادر ؟ . ومما يتصل بهذه الملاحظة أن كثيرا من هذه الدراسات الدقيقة كانت جزءا من الرسائل الجامعية التى تقـــوم على التحقيق والدراسة معا ، وما أكثر التراث المخطوط الذى حققه طلاب العلم وتضمه مكتبات الجامعات ولم تتح له فرصة النشر بعد ، والدكتور مطلوب أغفل كل ذلك ولم يرجع إليه وهو يعد معجمه ، فكيف استقام له هذا ؟

* * *

وخامس هذه الملاحظات : أنه معلوم للكافة أن كتب التفسير والإعجاز وعلوم القرآن من أكثر المصادر ثراء بمصطلحات البلاغة ، ومع هـذا فإن الدكتور مطلوب لم يرجع إلا إلى القليل الذى خدمته الدراسات النوعية الحديثة المتخصصة وأهمل الكثير ، إنه رجع إلى : الكشاف والانتصاف عليه ، والبحر المحيط ومجاز القرآن لأبى عبيدة ، ومعانى القرآن للفراء من كتب التفسير ، وهذه المصادر عكفت عليها جهود الباحثين والدارسين حتى أصبحت كنوزها فى متناول طلاب العلم ، ولا يزعم أحد أن كتاب البحر المحيط أولى بالرجوع إليه فى مصطلحات البلاغة من حواشى الكشاف — وقد حقق الكثير منها فى رسائل جامعية — ومن تفسير ابن عطية وتفسير أبى السعود

وتفسير الرازى ونظم الدرر للبقاعى وحاشية الشهاب على البيضاوى وتفسير الشوكانى « فتح القدير » ، والشوكانى يقع فى نفس الفترة التى جعلها نهاية لرحلته مع المصطلح (توفى الشوكانى ١٢٥٠ هـ) ، بل إنه ليس أول من تفسير الطبرى وتفسير القرطبى وغيرهما من كتب التفسير الغنية بمصطلحات البلاغة ولكن لأن هذه المصادر لم يصل إلى علمه أن طلاب العلم قد وجهوا إليها جهودهم لاستخراج كنوزها ـ وقد حدث ذلك بالفعل ـ فإنه غض الطرف عنها ولم يلتفت إليها .

بل إنه لم ينظر فى « النهر الماد » المطبوع مع « البحر المحيط » ربما ظنا منه أن من قصد البحر استقل السواقيا كما يقول المتنبى ، مع أن أبا حيان ذكر فى « النهر الماد » مالم يذكره فى البحر ، ففى جـ ٥ ص ٢٢٧ على سبيل المثال تعرض أبو حيان لقوله تعالى : « وقيل ياأرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » (هود آية ٤٤) وذكر فيها واحدا وعشرين نوعا من أنواع البديع . ولكن الدكتور مطلوب اكتفى بـ « البحر المحيط » دون « النهر الماد » المطبوع على هامشه منتفعا بجهد الدكتورة خديجة الحديثى فيه .

أما علوم القرآن والدراسات القرآنية فقد أهمل الدكتور مطلوب مالا بد من الرجوع إليه ، أهمله لأنه يحتاج إلى جهد فى استخراج كنوزه مما بين سطوره ، واكتفى منه ببعض ما يمكن أخذ المصطلحات من ظاهر سطوره ، ولست أدرى كيف يغفل من مصادر الدراسات القرآنية : « درة التنزيل وغرة التأويل » للاسكافى و « ملاك التأويل » للغرناطى ، و « أسرار التكرار » للسيوطى ، و « إعراب القرآن » المنسوب الزجاج ، و « معانى القرآن وإعرابه الزجاج ، و « إعراب القرآن » للنحاس ، وكلها مطبوع متداول من قبل أن يبدأ الدكتور مطلوب فى معجمه أو أثنائه ، وكلها غنية بمصطلحات البلاغة وقضاياها ، وبعضها يمثل البذور الأولى فى البلاغة العربية مما يعطيها

أهمية خاصة ، ومن يرجع إلى « معجم الدراسات القرآنية » للدكتورة ابتسام مرهون الصفار المطبوع فى العراق سنة ١٩٨٤ م يجد الكثير من المطبوع الذى أهمله الدكتور مطلوب وهو يعد معجمه .

* * *

وسادس : هذه الملاحظات أن الدكتور رجع فى مجال الحديث إلى كتابين هما :

١ ـ الباعث الحثيث ـ شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير .
٢ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير .

وأهمل ماعدا ذلك من تراث الحديث الشريف ، مع أن فى هذا التراث غنى وثراء فى مصطلحات البلاغة وقضاياها ، ففى « فتح البارى » لابن حجر ، « وعمدة القارى » للعينى و « إرشاد السارى » للقسطلانى ـ والشروح الثلاثة لصحيح البخارى ، وشرح النووى لصحيح مسلم و« دليل الفالحين » لمحمد بن علان الصديقى وغيرها مايضاف إلى التراث البلاغى ، وقد اتجهت جهود طلاب الدراسات العليا إلى مصادر الحديث فى المرحلة الأخيرة ، ولا يقول أحد إن مارجع إليه ـ مهما كانت صلته بالبلاغة ـ بأولى مما أهمله ، غير أن ما أهمله يستغرق جهداً لاستخراج مافيه من مصطلحات ومسائل بلاغية ، ولو تيسر الدكتور مطلوب الاطلاع على هذه الجهود التى يسرت مافى هذه المصادر لما أهملها .

* * *

وسابع : هذه الملاحظات أن الدكتور مطلوب جعل شروح الشعر والنثر من مصادر معجمه وحسنا فعل ، لأن فى هذه الشروح ـ شأنها شأن كتب التفسير والحديث ـ كنوزا من المصطلحات البلاغية ، خاصة الشروح القديمة التى تحمل البذرة الأولى ، ولكن المشكلة أن اكتفى بالقليل المشهور فيها

وترك الكثير ، فمن مصادره : جمهرة أشعار العرب للقرشي ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، وشروح سقط الزند ، والنقائض ، والإيضاح في شرح مقامات الحريري . وهذه الشروح على أهميتها لا تغني عما سواها حتى مما هو مطبوع متداول . ولست أدري كيف يمكن لواضع معجم في مصطلحات البلاغة وتطورها أن يستغني عن الرجوع إلى شروح المعلقات كشروح النحاس وابن الأنباري والتبريزي والزوزني وهي مطبوعة متداولة ؟ وكيف يكتفي بشرح المرزوقي للحماسة ويستغني عن شرح التبريزي وهو الذي وجده يدرس كثيرا من ألوان البلاغة في كتابه « الكافي في العروض والقوافي » وهو عنوان لا يغري الباحث البلاغي بالنظر فيه[1] ، فهل يمكن لمن فعل ذلك في كتاب عروض أن يغفل هــذا في شروحه للحماسة والمفضليات والمعلقات ؟ وهل يمكن لمن أغفل مثل هذه الشروح — وما على شاكلتها — ان يكون قد استوفى مصادره ؟

ويأتي في هذا الإطار إهمال لكثير من الكتب التي تناولت شعر شاعر بعينه ، وإذا نظرنا فيما كتب حول شعر المتنبي خاصة — على سبيل المثال — وجدنا الكثير مما يمكن أن يعد من مصادر المصطلحات البلاغية خاصة أن الدكتور مطلوب جعل من مصادره ما هو أقل شأنا من هذا الذي تركه .

فمما كتب حول شعر المتنبي وأهمله الدكتور مطلوب :

١ — الرسالة الموضحة للحاتمي — ط . بيروت .

٢ — شرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيدة — القاهرة .

٣ — التكملة وشرح الأبيات المشكلة من ديوان أبي الطيب المتنبي لابن الحسين بن عبد الله الصقلي المغربي — الأردن .

٤ — الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي لابن جني — العراق .

---

(١) انظر الكافي في العروض والقوافي من ص ١٧٠ إلى آخر الكتاب ، تحقيق الحساني حسن عبد الله ، ط : القاهرة ١٩٦٩ .

٥ ـ الفتح على أبى الفتح لمحمد بن أحمد بن فورجه ـ العراق ، وهو مناقشة لابن جنى فى كتابه السابق .

٦ ـ الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للشيخ يوسف البديعى ـ القاهرة .

٧ ـ تنبيه الأديب على مافى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب لبا كثير الحضرمى ـ العراق .

٨ ـ الإبانة عن سرقات المتنبى للعميدى ، ومعها رسالة الصاحب بن عباد والرسالة الحاتمية ـ القاهرة .

وأنا هنا لا أستقصى ، وإنما أذكر ماهو بين يدى أثناء إعدادهذا البحث بالفعل ، وإلا فهناك الكثير مما دار حول شعر المتنبى خاصة وشعر غيره من الشعراء مما يمكن أن يكون من مصادر مصطلحات البلاغة وتطورها ، فضلا عن شروح ديوانه المتعددة ، فهل من الصواب أن يهمل كل هذا التراث الغنى وهو يعد هذا المعجم ؟ وأحب أن أؤكد أن بعض هذه المصادر استخدم مصطلحات لا وجود لها فى معجم الدكتور مطلوب .

وكما أهمل كثيرا من شروح الشعر أهمل كثيرا من شروح المقامات ، ويأتى فى مقدمتها : شرح الشريشى لمقامات الحريرى ، وهو مطبوع متداول أكثر من طبعة ربما من قبل أن يفكر الدكتور مطلوب مجرد تفكير فى معجمه ، وحتى لو لم يغص فى الشروح ليستخرج المصطلحات مما بين السطور فإنه سيجد فى ظاهر السطور الكثير من المصطلحات ، ففى شرحه المقامة الثالثة والعشرين الشعرية ـ على سبيل المثال ـ تكلم عن السرقات الشعرية وأنواعها(١) ، وهو باب فى المعجم كثير من مصطلحاته ، وتحدث عن كثير من مصطلحات البلاغة تحت عنوان « أنواع البلاغة فى صناعة الشعر »(٢) ،

---

(١) شرح مقامات الحريرى للشريشى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٣ ص ٨١ ط : القاهرة ١٩٧٢ .

(٢) السابق جـ ٣ ص ١٢٣ .

وما أظن أن هناك شرحا من شروح هذه المقامات التى زادت على خمسة وثلاثين شرحا[1] يمكن أن يتجاوز هذه المقامة دون أن يتحدث عن السرقات الشعرية والتجنيس وغيرها مما أورده الحريرى فى هذه المقامة ، وفى مقاماته الأخرى الكثير من المصطلحات التى سلكت سبيلها إلى كتب البلاغة ومن ثم إلى معجمه ، فكيف ساغ له أن يكتفى بشرح المطرزى عما سواه وهو يعد معجمه ؟

• • •

وثامن : هذه الملاحظات أن كثيرا من مسائل البلاغة وقضاياها ـ خاصة علم المعانى ـ تعالجه كتب النحو كما تعالجه كتب البلاغة ، وللنحاة نظرات خاصة فى أسرار العربية تثرى الدرس البلاغى ، ولهم استعمالات للمصطلحات يمكن أن يفيد منها البلاغى ، وللنحاة أثر معروف فى البلاغة العربية كما كشفت عن ذلك الدراسات المتعـــددة ، ومن كان لابد من أن يرجع الدكتور مطلوب إلى مصادر النحو وهو يعد معجمه ، وبمراجعة مصادره رأيناه يتخذ من كتاب سيبويه والمقتضب ومغنى اللبيب مصادر له ، فهل يمكن أن تغنى هذه المصادر عما سواها ؟

إنها بالقطع ـ على أهميتها ـ لاتغنى ، والمسألة لاتتوقف عنـــد قضايا التعريف والتنكير والذكر والحذف والخبر والطلب والتقديم والتأخير والإضمار والحروف والأدوات وغيرها مما يشترك فى بحثه النحاة والبلاغيون كل على طريقته ، ولكنها تتعدى ذلك إلى ماهو أدخل فى صميم البلاغـــة كالحقيقة والمجاز والكناية والتعريض ، فقد نجد فى بعض مصادر النحو معالجة لها ، وعلى سبيل المثال نجد فى « ارتشاف الضرب » لأبى حيان النحوى ـ والدكتور يعرفه معرفة جيدة إن لم يكن بنفسه فبدراسات الدكتورة خديجة الحديثى شريكته فى كثير من أعماله العلمية ـ معالجة للحقيقة والمجاز ، فى باب مستقل

(١) السابق ج ١ ص ١٥ ، ط ١٩٦٩ م .

عرف فيه الحقيقة والمجاز ، وعد من أنواع المجاز : الاستعارة والقلب والحذف والزيادة والتشبيه وقلب التشبيه والكناية والتعريض والانقطاع من الجنس وتسمية الشيء بما يقابله (المشاكلة) والتسمية بما يئول إليه وإضافة الشيء إلى مايستحقه ذلك والإخبار عن الشيء ووصفه بغيره وورود المدح فى صورة الذم وعكسه وورود الأمر بصيغة الخبر وعكسه وورود الواجب والمحال فى صورة الممكن والتنبيه والامتثال والتقديم والتأخير وتجاهل العارف . ثم ذكر تسعة عشر بيتاً من أرجوزته «خلاصة البيان فى علمى البديع والبيان» فى الحقيقة والمجاز(١) .

واسنا فى حاجة إلى تقديم المزيد من الشواهد على أن واضع معجم البلاغة عليه أن يوسع دائرة بحثه فى مصادر النحو ولا يقتصر على النذر اليسير منها اعتقادا أن بعضها يغنى عن بعض . ومن يرجع إلى كتاب المرحوم الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة « دراسات لأساليب القرآن » بأقسامه الثلاثة ومجلداته الأحد عشر سيرى كثيرا مما يثرى المصطلح البلاغى فى التراث النحوى وفى كتب معانى الحروف أيضا ، وهذا مجال لايغنى فيه مصدر عن مصدر .

وكما قصر الدكتور مطلوب فى مصادر النحو قصر كذلك فى مصادر اللغة ، وما أظن أنه يستقيم لواضع المعجم أن يهمل « فقه اللغة وسر العربية » لأبى منصور الثعالبى ، وشطره « سر العربية » من صميم مسائل البلاغة ، ويهمل كذلك كتاب « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » لابن مكى الصقلى وفيه باب سماه « باب ماظاهر لفظه مخالف لمعناه » يتصل بالبلاغة اتصالا وثيقا .

• • •

وتاسع : هذه الملاحظات أن الدكتور مطلوب أهمل إهمالا تاما أمالى العلماء ومجالسهم فى اللغة والأدب كأمالى القالى وأمالى اليزيدى وأمالى السهيلى

(١) ارتشاف الضرب لأبى حيان تحقيق الدكتور مصطفى النماس ج ٣ ص ٢٢٧ القاهرة ١٩٨٤ .

وأمالى ابن الشجرى ومجالس ثعلب ومجالس الزجاجى وغيرها ، وهذه الأمالى والمجالس حافلة بما يمكن أن يثرى معجم البلاغة العربية ، ولست أدرى لماذا أغفلها هكذا جملة ولم يفعل معها كما فعل مع المصادر الأخرى التى كان يكتفى فيها ببعض دون بعض . ولا يمكن أن نقول إن أمالى المرتضى التى رجع إليها تغنى عنها فهى ليست من واديها ، لأن المرتضى تدور أماليه حول آيات القرآن الكريم فهى إلى التفسير أقرب منها إلى الأمالى اللغوية والأدبية .

* * *

وعاشر : هذه الملاحظات أن الدكتور مطلوب أهمل بعض مصادر البلاغة المتخصصة مع أنها مطبوعة متداولة . وهذا عجيب جدا من رجل نذر نفسه لخدمة البلاغة العربية فراح يجمع مصادرها المطبوعة من الشرق والغرب فكيف خفيت عليه مثل هذه المصادر ؟

فمن مصادرها التى أهملها .

١ ـ الإكسير فى علم التفسير للطوفى وهو كتاب فى صميم البلاغة ومسائلها ومصطلحاتها اقتفى فيه مؤلفه ابن الأثير فى كتابه « الجامع الكبير » ، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين ـ مكتبة الآداب بمصر ١٩٧٧ م .

٢ ـ أصول البلاغة لكمال الدين ميثم البحرانى وهو مطبوع بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين أيضا ـ دار الشروق ١٩٨١ م .

٣ ـ الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة لمحمد بن على بن محمد الجرجانى ، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور عبدالقادرحسين أيضا ـ دار نهضة مصر ١٩٨٢ م .

٤ ـ روضة الفصاحة لزين الدين محمد بن أبى بكر الرازى وهو مطبوع بتحقيق الدكتور أحمد النادى شعلة ـ دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ .

٥ ـ الرسالة البيانية للصبان المتوفى ١٢٠٦ هـ ، وهى مطبوعة بمصر ١٩١٥ م .

٦ ـ تجريد البنانى على مختصر السعد وقد توفى مؤلفه ١٢٢٠ هـ وهو مطبوع بمصر .

٧ - فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح للشربيني ، وهو مطبوع في أربعة مجلدات كبار بمصر ١٣٢٤/١٩٠٦ م ، وإذا قيل إن الشربيني يتجاوز المدى الذي وقف عنده الدكتور مطلوب في رحلته مع المصطلح البلاغي لأنه توفي ١٣٢٦ م والدكتور مطلوب توقف عند منتصف القرن الثالث عشر تقريبا : إذا قيل هذا فإن حاشية عبد الحكيم على المطول وهي التي يدور حولها الشربيني تنتمي إلى القرن الحادي عشر الهجري لأن عبد الحكيم توفي ١٠٦٧ هـ(١) .

٨ - تبيان البيان على حاشية العلامة الصاوي لشرح تحفة الإخوان للبولاقي المطبوعة بمصر ١٣٠٥ هـ ، وإذا كان تقرير البولاقي يأتي بعد الزمن الذي وقف عنده الدكتور مطلوب فإن حاشية الصاوي تقع في إطار الزمن الذي حدده لأن صاحبها انتهى منها ١٢١٩ هـ(٢) .

ولو رحنا نستقصي كتب البلاغة الخالصة التي أهملها الدكتور مطلوب لما اتسع له حيز كهذا ، خصوصا كتب البلاغة المتأخرة ، حتى لو التزمنا بتحديده الزمني الذي وقف عنده ، ومن يقرأ كتاب : « تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، لأحمد مصطفى المراغي يدرك كم أهمل الدكتور مطلوب من كتب البلاغة حتى المطبوع منها ، وما أظن أنه يمكن أن يغني كتاب في البلاغة عن كتاب عند إعداد معجم للمصطلحات البلاغية وتطورها ؛ لأن المناقشات في الكتب المتأخرة كثيرا ما تحتدم حول دلالة المصطلح فتتباعد الآراء والنظرات ، ومعجم يطمح لتتبع تطور المصطلح البلاغي يلزمه أن يقف على هذا كله إن كان يريد أن تقل الثغرات في معجمه .

* * *

---

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ص ١٨٥ القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠ م .

(٢) تبيان البيان للبولاقي ص ١٥٢ ط ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .

هل انتهى الأمر عند الملاحظات الماضية حول مصادر معجمه ؟

لقد بقي ما هو أهم من هذا كله فى نظرى ، ذلك أن الدكتور مطلوب أغفل عامدا بعض المحاولات السابقة فى معجم المصطلح البلاغى ، ولم يشر فى مقدمته إلى أى جهد سابق عليه ، ولم يذكر فى ثبت المصادر أهم هذه المحاولات وألصقها بعمله ، حتى يوهمنا أن محاولته غير مسبوقة .

والمحاولات السابقة أنواع :

— أدناها وضع معجم لمصطلحات البلاغة فى عمل موسوعى كما فعل المرحوم عبد السلام هارون فى « البيان والتبيين » للجاحظ ، و « خزانة الأدب للبغدادى .

— وأوسطها أن يكون المصطلح البلاغى جزءا من مصطلحات الفنون أو الآداب أو العلوم العربية ، مثال ذلك عند القدماء كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى وهو من رجال القرن الثانى عشر الهجرى ، وعند المحدثين : « معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب » لمجدى وهبه وكامل المهندس . ويمكن أن يدخل فى هذا كتاب « التعريفات » للسيد الشريف الجرجانى ، غير أن هدفه الأول هو التعريف لا تحقيق المصطلح .

والدكتور مطلوب يعرف كتاب التهانوى معرفة وثيقة ، لأنه رجع إليه فى رسالة الماجستير فى طبعته الهندية ، وسكت هنا سكوتا تاما وهو يعد معجمه وذكر كتاب الجرجانى ؛ لأن اهتمامه لا ينصب على المصطلحات كالتهانوى .

وما كان يعيب الدكتور مطلوب فى شىء أن يكون مسبوقا بمن يهتم بالتعريف أو بمن يهتم بالمصطلح ، وكان يمكن أن يبين نقائص هذه المحاولات السابقة ، وأهمها أنهم لم يوجهوا جهودهم إلى تتبع تطور المصطلح البلاغى ـ وهو شاغل الدكتور الأول ـ وكان يمكن أن يكون هذا وحده ميزة لمحاولته على تلك المحاولات السابقة ، مع تلافى أوجه النقص الأخرى التى يمكن أن تؤخذ عليها .

وأعلى المحاولات وأدخلها فى التخصص وأقربها إلى عمل الدكتور مطلوب هو كتاب . « معجم البلاغة العربية » الدكتور بدوى طبانة ، وقد صدرت منه طبعتان : الأولى فى ليبيا ١٣٩٦ هـ/١٩٧٥ م ، أى من بعد أن صدر كتيب « مصطلحات بلاغية » للدكتور مطلوب بثلاث سنوات ومن قبل أن يبدأ فى معجمه ، وصدرت طبعته الثانية مزيدة ومراجعة فى الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م وهذا المعجم فى مجلدين ، وتضم طبعته الثانية أربعة وعشرين وتسعمائة مصطلح بزيادة ثلاثة وعشرين مصطلحا عن الطبعة الأولى[١] . وقد استغرق إعداد هذا المعجم قبل أن يصدر فى طبعته الأولى ما يزيد على عشرين عاما[٢] ، أى أنه حينما بدأ العمل فيه لم يكن الدكتور مطلوب قد خط حرفا واحدا فى البلاغة ، فهل خفى عليه هـــذا العمل وهو الذى يتابع كل جديد ينشر فى البلاغة العربية ؟ !

إن المكتبة العربية تتسع لمحاولتى الدكتور طبانة والدكتور مطلوب دون أن تلغى إحداهما الأخرى ، ويمكن أن تتسع لغير هاتين المحاولتين لاستكمال ما نقص فيهما ، تماما كما اتسعت من قبل لكل المعاجم العربية ابتداء من معجم « العين » للخليل بن أحمد وانتهاء بالمعجم الوسيط ثم المعجم الكبير الذى لم يكتمل صدوره إلى الآن عن مجمع اللغة العربية فى مصر، فكل محاولة تالية ينبغى أن تسد بعض الثغرات فى المحـــاولات الماضية ، وبهذا تتكامل الجهود نحو هدف واحد وغاية واحدة ، أما أن يتجاهل أحدما سبقه من محاولات فى ميدانه حتى يوهمنا أن عمله هو الأول فيسجل لنفسه ريادة فى هذا الميدان فليس هذا من الصواب فى شىء مهما تفوقت محاولته أو تميزت على ما سواها .

---

(١) معجم البلاغة العربية للدكتور بدوى طبـانة ، جـ ١ ص ٩ ط الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م .

(٢) السابق جـ ١ ص ١٢ .

ثم إذا نظرنا فى إفادته من مصادره ـ القاصرة ـ وهو بصدد بيان تطور المصطلح البلاغى فماذا نجد ؟

بداهة نقول إن أى نظرة تطورية للمصطلح فى غيبة بعض المصادر المهمة نظرة قاصرة ، ولكن نريد أن نتعرف إلى تطور المصطلح هنا من خلال مصادره التى جعلها أصلا لمعجمه ، فإن كان قد استوفى التطور فى المصطلح من خلال هذه المصادر فيكون عيبه حينئذ مقصورا على عدم استيفاء المصادر فقط ، وإن أخل بهذا التطور فيكون العيب قد لحقه من جهات شتى .

ولنأخذ على ذلك مصطلحا واحدا هو من أقدم المصطلحات البلاغية ، ذلكم هو مصطلح « الإيجاز » فماذا فعل به الدكتور مطلوب .

إنه بدأ الكلام فيه ببيان معناه اللغوى اعتمادا على « لسان العرب » ثم ذكر تعريف الجاحظ له فى « البيان والتبين » و « الحيوان » ، ثم نقل كلاما لصحار العبدى فى الإيجاز فى حوار له مع معاوية بن أبى سفيان ، ثم كلاما لأكثم بن صيفى لجعفر بن يحيى البرمكى ثم نقل عن بعضهم ـ هكذا بالتجهيل ـ كلاما فيه نقله عن « كتاب الصناعتين » ثم عن أبى عبيدة ثم الجاحظ ثم ابن المقفع الذى رأى أن الإيجاز هو البلاغة . ثم أشار إشارة مجملة إلى اهتمام البلاغيين والنقاد به ، وأحال فى الهامش إلى تسعة وثلاثين مصدرا بدءا بكتاب سيبويه وانتهاء بأنوار الربيع .

ثم بين أن الإيجاز ليس محمودا فى كل موضع ، وفى هذا نقل عن ابن قتيبة وابن جنى وأبى هلال . ثم ذكر حديث ابن رشيق عنه وبين أنه ذكر تعريف الرمانى ، ثم ذكر أن ابن سنان سماه « الإشارة » ، وذكر تعريفه له ثم ذكر تعريف الكلاعى فالرازى فالسكاكى فابن الأثير فالعلوى فالسجلماسى ثم قال : « وهذه التعريفات كلها لا تخرج عن القول بأن الإيجاز هو التعبير عن المعنى بألفاظ قليلة تدل عليه دلالة واضحة ، والإيجاز عدة أنواع تحدث عنها

المتقدمون ولكنهم أجمعوا على تقسيمه إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف »[1].

أما إيجاز الحذف فسماه أبو عبيدة « مجاز المختصر » وسماه الجاحظ « الإيجاز المحذوف » و « الكلام المحذوف » ، ثم انتقل إلى ابن الأثير فأخذ تعريفه عنه وسر بلاغته ، ثم تحدث عن أدلة الحذف نقلا عن الإيضاح وشروح التلخيص ، ثم تحدث عن المحذوف وأنواعه تفصيلا نقلا عن « المثل السائر » و « الجامع الكبير » و « بديع القرآن » و « الطراز » .

ثم تحدث عن إيجاز القصر فبدأ فيه بالجاحظ ثم قفز منه إلى ابن الأثير فنقل عنه أبلغية آية القصاص على قول العرب « القتل أنفى للقتل » ، وبين بعد ذلك أن إيجاز القصر عند ابن الأثير قسيم لإيجاز التقدير وكلاهما داخل في الإيجاز الذي لا حذف فيه .

ومن مصطلحات الإيجاز التي تحدث عنها غير ما سبق « الإيجاز الجامع » عند ابن مالك في « المصباح » والطيبي في « التبيان » ـ وهو ليس من مصادره ـ نقلا عن السيوطي[2] .

هذه هي معالجة الدكتور مطلوب لمصطلح « الإيجاز » وتطوره ، فهل وفى بما وعد من تتبع التطور ؟

وهل انتفع بما بين يديه من مصادر ؟ وهل أعطى كل عالم له إضافة في هذا المصطلح ما يستحق ؟

وهل التزم بالتسلسل التاريخي ليكشف عن تطور المصطلح ؟

• إن النظرة في تتبع آراء العلماء التي نقلها الدكتور مطلوب تبين لنا أنه لا يلتزم بالتسلسل التاريخي ، فقد يقدم متأخرا ويؤخر متقدما ، وقد يفرق كلام العالم الواحد دون ضرورة ، فيقدم بعضه ويؤخر بعضه ، وسلوك هذه السبيل لا يكشف عن التطور بحال .

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٣٤٤ – ٣٤٧ . وانظر أيضا ٢٨٦/١ .

(٢) السابق ٣٤٤/١ — ٣٦٤ .

• ثم إن النظرة الدقيقة تكشف أن الرجل لا يهتم بنسبة الإضافة العلمية إلى مصادرها الأولى ولا يتبع تطورها ، وإنما قد يلتقطها من مصدر متأخر ، مع أن المصدر الأول بين يديه ، وليس هذا من النظرة التطورية للمصطلح في شيء .

• إن تتبع المصطلح ينبغي أن يبدأ من إدراكه أولا ، ثم وضع المصطلح له ثانيا ، ثم التفرقة بين أنواعه ثالثا . . . وهكذا .

• أما إدراكه فهو قديم جداً في التراث العربي كما أشار في معجمه ، وهذا لا يحتاج إلى بيان .

• أما الوقوف عند أنواعه فإن إيجاز الحذف معروف عند النحاة من قديم الزمان ، وللخليل ابن أحمد في هذا آثار كشف عنها الدكتور عبدالقادر حسين في كتابه : « أثر النحاة في البحث البلاغي »[1] .

• أما تقسيم الإيجاز إلى قصر وحذف فقد حكى الإجماع عليه ، ولم يكشف عن من قسمه أولا .

ومن المعروف أن الرماني هو صاحب هذا التقسيم والناس في هـــذا تبع له[2] . والغريب أن هذا الأمر ليس خافيا على الدكتور مطلوب ، فقد أشار إلى سبق الرماني إلى هـذا التقسيم واقتفاء البلاغيين أثره في كتابه « مناهج بلاغية » حينما قال عن تقسيم الرماني للإيجاز : « وهذا التقسيم هو

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبد القادر حسين ص ٥٦ ، ٥٧ ط . القاهرة ١٩٧٥ م .

(٢) انظر في هذا : عروس الأفراح ـ شروح التلخيص ٣/٢٠٢ ، أثر النحاة ص ٢٤٦ ، البلاغة تطور تاريخ للدكتور شوقي ضيف ص ١٠٤ ، تاريخ نشأة البلاغة للدكتور عبد العزيز عرفة ص ١٩٠ ، الإعجاز البلاغي للدكتور محمد محمد أبوموسى ص ٩١ . . . الخ .

الذي بنى عليه البلاغيون مباحثهم في الإيجاز »[١]. وفي مصطلح « الاكتفاء » ينسب للرماني مصطلح الإيجاز بالحذف[٢].

وجهد الرماني في هذا الباب ليس مقصورا على هـــذا التقسيم الدقيق ووضع المصطلحات فقط، ولكن يتعداه إلى ما هو أكبر من هذا، ومع ذلك فإن الدكتور مطلوب لم ينقل عن الرماني في هذا الموضع إلا تعريفا له أخذه عن ابن رشيق مع أن « النكت » بين يديه ومن مصادر معجمه.

• والموازنة بين آية القصاص وقول العرب السالف التي نقلها عن ابن الأثير كان قد فتح الباب فيها المبرد في كتابه « البلاغة »[٣] ولا نعلم أحداً سبقه إلى هذا، ثم جاء الرماني ووسع دائرة المقارنة[٤]. ثم اتسعت المقارنة بعد ذلك، ولا أثر لهذا في المعجم.

• وأدلة الحذف التي أخذها عن « الإيضاح » و « شروح التلخيص » سبق أن أوردها العز ابن عبد السلام في كتابه « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز »[٥].

• وتقسيم الإيجاز الذي لا يحذف منه شيء إلى نوعين : إيجاز التقدير وإيجاز القصر الذي أخذه عن ابن الأثير، وإيجاز التقدير هو ما ساوى لفظه معناه يرد إلى الرماني كما نقل عن ابن رشيق، قال : « والإيجاز عند الرماني على ضربين : مطابق لفظه لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص .. ومنه ما فيه حذف

---

(١) مناهج بلاغية ص ٤٥ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ١/٢٨٦ .

(٣) البلاغة للمبرد تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ص ٦٧ ط : القاهرة ١٩٦٥ م .

(٤) النكت في إعجاز القرآن ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد أحمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام ص ٧٧، ٧٨ ط : القاهرة ١٩٦٨ م .

(٥) الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز ص ٣ وما بعدها ــ بيروت .

للاستغناء عنه فى ذلك الموضع »(١) ، أى أن الرمانى يرى أن المساواة جزء من الإيجاز ، غير أنه هنا جعله قسيم إيجاز الحذف ، وابن الأثير جعله قسيم إيجاز القصر ، وانفرد بتسميته إيجاز التقدير ، وكذلك فعل السجلماسى حينما أدخل المساواة فى الإيجاز وجعلها قسيمة المفاضلة ، حسب أصطلاحه(٢) ، وكون المساواة جزءا من الايجاز يرجع إلى الرمانى ولا أثر لهذا المعجم .

وحتى لو قال الدكتور مطلوب إن نص ابن رشيق الذى أوردناه آنفا سبق أن ذكره عند مصطلح « الاكتفاء » ، فإنا نقول له إن هذا لا يغنى شيئا لأن حديثنا هنا عن دخول المساواة - تحت أى مصطلح - فى الإيجاز الذى نسبه هنا إلى ابن الأثير ، مع أن جذوره عند الرمانى وإن لم يذكر مصطلح « إيجاز التقدير » ولا مصطلح « الاكتفاء » ولا حتى مصطلح « المساواة » فكان هذا الكلام هنا وليس هناك ، حتى يكشف عن أثر الرمانى فى مصطلحات الإيجاز وتقسيماته ومفاهيمه وأسراره البلاغية ، وليس فى مصطلح « إيجاز التقدير » ، ما يفيد هذا إلا أن فيه إحالة على مصطلح « الاكتفاء » ليكمل القارىء منه ما نقص هنا ، ولا يفيد هذا إلا أن ابن الأثير هو الذى جعل إيجاز التقدير من الإيجاز الذى لا يحذف منه شىء(٣) .

• وتسمية الإيجاز « إشارة » التى نسبها إلى ابن سنان(٤) ترد إلى قدامة

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٥٠ تحقيق محى الدين عبد الحميد - بيروت ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م .

(٢) المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع للسجلماسى ص ١٨١ ط : المغرب ١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٣٤٧ .

(٤) السابق ج ١ ص ٣٤٦ .

ابن جعفر[1] وقد ذكر هذا بنفسه فى مصطلح « الإشارة »[2] وقد أخذها عنه الباقلانى بهذا المعنى[3]، وقدامة والباقلانى أسبق من ابن سنان كما هو معروف ،

• والكلام الذى نقله عن ابن الأثير فى بيان قيمة الإيجاز بالحذف[4]، هو نفسه كلام عبد القاهر الجرجانى فى صدر باب « الحذف » من (دلائل الإعجاز)[5] . وإذا كان ابن الأثير لم يرده إلى مصدره فقد كان على الدكتور مطلوب وهو يتحدث عن تطور المصطلح أن يأخذه من مصدره الأول .

• ثم إن الإيجاز عند السجلماسى (من رجال القرن الثامن الهجرى) يختلف اختلافا جذريا عنه عند غيره ، فالإيجاز عنده أول أجناس البديع العشرة ، ويضم تحته ثمانية عشر مصطلحا تنتمى إليه انتماء الفروع إلى الأصل ، أو الأنواع إلى الجنس أو الأبناء والأحفاد إلى الأم ، وقد يكون الانتماء فى الدرجة الأولى كما فى « المساواة » و « المفاضلة » ، وقد يكون فى الدرجة السادسة كما فى أنواع الحذف . وهذا شىء جديد فى البلاغة لم يشر إليه الدكتور مطلوب بمجرد إشارة ، واكتفى بنقل التعريف فقط عن السجلماسى ، ولا يكشف التعريف طبيعة الإيجاز عنده بحال .

• كما أن الدكتور مطلوب قد أشار فى رسالته الدكتوراه إلى أن السبكى أضاف أنواعا من إيجاز القصر[6] ولم يشر هنا إلى شىء من ذلك ، مع أن

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٥٥ ط : القاهرة ١٩٨٠ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ج١ ص ٢٠٤ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ص ٩٠ : ١٩٧٧ م .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٣٤٩ .

(٥) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود محمد شاكر ص ١٤٦ ط : القاهرة ١٩٨٤ م .

(٦) القزوينى وشروح التلخيص ص ٥٦١ .

هذا كان ينبغى أن يبينه وهو يتحدث عن التطور . ومعنى هذا أن الدكتور مطلوب لم يقصر فى التتبع الدقيق للمصطلح فى مصادره المتاحة فقط ، ولكنه قصر أيضا فى الانتفاع بجهوده السابقة فى هذا الميدان ، وهذا أمر يثير العجب والدهشة !!

* * *

وأنا هنا لا أفصل القول فى الإيجاز مفهوما ومصطلحا وأنواعا وصورا وأمثلة وشواهد وتطورا ، ولكننى أكشف فقط عن ادعاء الدكتور مطلوب تتبع المصطلحات البلاغية وبيان تطورها ، وقد تبين لنا أنه ادعاء لا حقيقة له.

وربما كان هذا القصور هو الذى حمله على أن يقرر فى المقدمة أن معجمه هذا « هدية تقدم على استحياء لأنها قد تكون لجة ، أو لأنها لا تحقق الهدف الذى من أجله يبذل الدارسون جهودهم فى هذا السبيل »(١) .

ويبقى للدكتور مطلوب أنه حاول وبذل جهدا نرجو الله أن يثيبه عليه بمقدار ما أخلص فيه ، وبمقدار ما ينتفع بهذه المحاولة طلاب العلم ، فلا شك أنه جعل المصطلح البلاغى فى متناول المتخصصين وغير المتخصصين على السواء برغم ما فى محاولته من نقص وقصور ، وهذا كسب جديد للبلاغة العربية القديمة فى وقت يشيح الدارسون بوجوههم عنها فى كثير من الجامعات العربية ، ولعل فى هذه المحاولة ما يحفز الهمم على مواصلة الطريق لسد ثغراتها واستكمال نواقصها ، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل ؟

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية ج ١ ص ٦ .

« الوضع » وصلته بالبيان

بقلم الدكتور
إبراهيم عبد الحميد التلب

ربما يبدو الحديث عن « الوضع » فى نطاق البلاغة ترفاً علمياً زائداً عن الحاجة لأول وهلة ، والحق أنه وثيق الصلة بموضوع « علم البيان » ذلك العلم الذى يبحث فى دلالة الألفاظ لبيان التفاوت فى مراتب الوضوح والخفاء .

والمعروف أن الدلالة تابعة للوضع ، فلابد إذن من معرفة الوضع اللغوى ، والإلمام بالمعنى الوضعى للألفاظ قبل الحكم على اللفظ بأنه حقيقة أو مجاز أو منقول أو مرتجل ، وليس هذا بالأمر الهين إذا وضعنا نصب أعيننا أن دلالة اللفظ تتطور من عصر إلى عصر كما أن بنية الكلمة ذاتها يعتريها التغيير من زمن إلى آخر ، فاللغة كائن حى ، ولذلك فهى تخضع لسنة التطور والارتقاء كما تخضع سائر الكائنات الحية .

والحديث عن « الوضع » فيه شىء من التغلغل فى اللغة ، والغوص وراء المعانى والتبحر فى خفايا الفكر اللغوى لاستيعاب معطياته ، والإلمام بشتى أقسامه وفروعه ، وماتنطوى عليه هذه الأقسام والفروع من دقائق الفروق ، ولذلك فهو يحتاج إلى شىء كثير من الصبر والدقة والروية والأناة .

وفى النفس دوافع غريزية لاستطلاع المجهول ، واستجلاء المعانى واستكناه الأسرار فى خفايا العلم ودقائق المعرفة كلما تيسرت لها الأسباب .

وفى ذلك إرضاء لنهم العقل إلى المعرفة ، وإرواء لظمأ النفس التواقة لارتياد آفاق جديدة لم يسبق لها الوقوف عليها أو الدراية بها .

وقد اعتاد الباحثون أن يتحدثوا عن « الوضع » بين يدى « الحقيقة

والمجاز ، لبيان معناه والإشارة إلى أقسامه المختلفة ، لما يترتب على ذلك من التمييز الصحيح بين الحقيقة والمجاز والنقل والارتجال والاشتراك وغيرها من المصطلحات التى تعج بها كتب التراث البيانى .

وقد جاء حديث العلماء عن « الوضع » وأقسامه ومايتصل به من قضايا أخرى مثالا للدقة ، ونفاذ البصيرة ، والصبر على الفكرة الوصول بها إلى شأو بعيد . حتى أصبح لدينا علم من علوم العربية يسمى « علم الوضع » يضاف إلى قائمة علوم العربية . وقد عرفوه بأنه « علم يبحث عن أحوال اللفظ العربى من حيث ما يعرف به شخصية الوضع ونوعيته وخصوصه وعمومه إلى غير ذلك » .

أى أن موضوعه هو اللفظ العربى من تلك الحيثية . وهو من العلوم العربية ، لأنه يبحث عن أحوال اللفظ العربى ، وكل علم هذا شأنه فهو من العلوم العربية .

فما المراد بالوضع إذن ؟ وما أقسامه ؟

الوضع فى اللغة : جعل الشىء فى حيز . فكأن الواضع بتعيينه يجعل المعنى حيزا للفظ . ويطلق على معان أخرى كوضعت المرأة وضعا ، ووضع الدين عن غريمه وضعاً ، ووضع الحديث وضعاً أى اختلقه من عند نفسه إلى غير ذلك .

وفى الاصطلاح : هو تعيين اللفظ بإزاء المعنى بحيث يفهم منه هذا المعنى عند العلم بذلك التعيين .

وقد زاد العلامة الرضى فى تعريف الوضع قيداً آخر هو « قصد التواطؤ » ، لإخراج محرفات العوام . أى الألفاظ التى حرفتها العامة عن أصلها ، حيث قال فى شرح الكافية : « المقصود من قولهم « وضع اللفظ » جعله لمعنى من المعانى مع قصد أن يصير متواطأ عليه بين قوم . فلا يقال لكل كلمة بدرتها من شخص لمعنى إنها موضوعة له من دون اقتران قصد التواطؤ بها . ومحرفات

الدوام على هذا ليست موضوعة ، لعـــدم قصد الحرف الأول إلى التواطؤ »(١) .

وأهمية هذا القيد تأتى من جهة أن الغرض فهم المعنى وتفهيمه من اللفظ، ولا يتصور ذلك إلا بالتواطؤ بين الواضع وغيره .

ومعنى ذلك أن إعلام الغير بالتعيين شرط فى حصول الوضع ، فليس هو مجرد التعيين ، بل هو تعيين اللفظ لمعنى بحيث يصير متعينا عند الغير لذلك المعنى ، فلو عين أحد فى نفسه لفظا لمعنى لم يكن موضوعاً له مالم يعلم به غيره من الناس ، لأن اللفظ إنما ينتفع به عند اطلاع الغير عليه واستعماله فى معناه الوضعى .

أقسام الوضع

ينقسم الوضع إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة ، وسأذكر من هذه الأقسام ماهو وثيق الصلة بالدراسة البيانية ، وأضرب صفحاً عن غيره من الأقسام التى هى بعلم المنطق أولى .

أولا : الشخصى والنوعى :

ينقسم الوضع باعتبار اللفظ الموضوع إلى شخصى ونوعى .

فالشخصى هو ما كان اللفظ الموضوع فيه معيناً مشخصا ، أى ملحوظا بعينه وشخصه بحيث يعمد الواضع إلى لفظ بعينه ، فيضعه لمعنى من المعانى ، سواء أكان ذلك المعنى جزئيا أم كلياً صادقاً على كثيرين ، فالأول كزيد والثانى كإنسان ، فالوضع فيهما شخصى لأن اللفظ الموضوع قـــد لوحظ بخصوصه ، حيث يقول الواضع : عينت لفظ « زيد » للدلالة على ذاته ، ووضعت لفظ « إنسان » للدلالة على مفهوم الحيوان الناطق .

---

(١) حاشية الشيخ الأنبابى على الرسالة البيانية للصبان ص ١٣٥ .

ويفهم من ذلك أنه لا علاقة بين شخصية الوضع وشخصية المعنى الموضوع له فإن شخصية الوضع لا ترجع إلا لتعين اللفظ الموضوع ، وعدم ملاحظته بقانون كلى من غير نظر إلى معناه . وإنما سمى الوضع شخصيا لنسبته إلى شخص اللفظ الموضوع . فإن اللفظ قد لوحظ فيه بشخصه وعينه .

والنوعى : هو ما كان اللفظ الموضوع فيه ملحوظاً بقانون كلى . أى يكون داخلا تحت قاعدة كلية بحيث تكون الجزئيات الكثيرة المندرجة تحتها موضوعة كلها بوضع واحد فى آن واحد بمقتضى تلك القاعدة الكلية .

وإنما سمى الوضع فيه نوعيا ، لأن الألفاظ الموضوعة فيه لم تلاحظ بشخصها ، وإنما لوحظت بنوعها ، كما فى وضع المشتقات ، فإن الواضع لم يضع كل اسم فاعل على حدة ، أى أنه لم يضع ضاربا بخصوصه وآكلا بخصوصه ، وقائما بخصوصه إلى غير ذلك بحيث يكون منه أوضاع كثيرة بعدد أسماء الفاعلين مثلا . بل وضع تلك الجزئيات كلها بوضع واحد فقال : وضعت كل ما كان على زنة « فاعل » للدلالة على ذات وحدث منسوب إليها ، قائم بها أو صادر عنها . ووضعت كل ما كان على زنة « مفعول » للدلالة على ذات وحدث واقع عليها وهكذا بقية المشتقات .

معنى ذلك أن الواضع قد استغنى بتلك القاعدة الكلية عن أن يستحضر كل جزئى من جزئيات أسماء الفاعلين والمفعولين ، فيضعه وضعاً خاصاً به ، بل رأى أن جميع جزئيات النوع لا تختلف دلالتها ، فاكتفى بوضع واحد كلى لهذا النوع يشمل جزئياته فلا يشذ عنه شىء منها .

هذا هو الفرق بين الوضع الشخصى والوضع النوعى . فالأول يلاحظ فيه الموضوع بعينه وشخصه . والثانى يلاحظ فيه الموضوع بوجه كلى عام .

فمن الوضع الشخصى وضع الأعـــلام كزيد فقد وضعه الواضع بعينه وشخصه للذات المعينة خارجاً . ووضع « إنسان » لمفهوم الحيوان الناطق .

ومنه وضع أسماء الإشارة والموصولات والحروف فإن الواضع وضعها بعينها وشخصها بإزاء معانيها .

ومن الوضع النوعى وضع المشتقات كلها ، ووضع المجازات والكنايات والمركبات ، إذ لاحاجة لتعدد الوضع فيها بتعدد جزئياتها ، فإنها لاتختلف من هذه الحيثية . فى وضع المجاز مثلا يكفى الواضع أن يقول : وضعت كل لفظ ليدل على المعنى الذى يكون بينه وبين معناه الأصلى علاقة من العلاقات المعتبرة بشرط أن يكون معه قرينة مانعة من إرادة ذلك المعنى الأصلى فى المجاز ، أو غير مانعة فى الكناية .

وكذلك يكفيه فى وضع المركبات أن يقول . وضعت كل مسند ومسند إليه ليدل ذلك المركب على ثبوت المسند المسنـــد إليه أو انتفائه عنه . ولا حاجة إلى وضع كل جزئى من جزئيات المركب أو المجاز أو الكناية ، لأنها لاتختلف فى الدلالة(١) .

ولكن : هل يتعدد وضع المجاز بتعدد العلاقات ؟

يقول العلماء : يمكن أن تعتبر المجاز موضوعا بوضع واحد لايتعدد بتعدد العلاقات . كما يمكن أيضا أن تعتبره متعددا بتعددها بأن يقول الواضع : وضعت كل سبب ليدل على مسببه ، ووضعت كل مسبب للدلالة على سببه إذا لوحظت العلاقة والقرينة وهكذا بقية العلاقات .

وفى وضع المركبات يقول الواضع على هذه الطريقة : وضعت كل فعل وفاعل ، ليدل على ثبوت الفعل للفاعل على وجه قيامه به أو صدوره عنه . وكل مبتدأ وخبر ليدل على ثبوت الخبر للمبتدأ كذلك .

ووضعت كل فعل مبنى للمجهول مع مرفوعه ، ليدل على إسناده إليه على وجه الوقوع عليه . وإن شئت اعتبرته وضعاً واحداً بحيث يقول الواضع :

(١) خلاصة الوضع ص ٦ .

وضعت كل مركب إسنادى ليدل على ثبوت المسند للمسند إليه كما أسلفنا .
والوضع نوعى على كلا الرأيين ، إذ يندرج تحته جزئيات كثيرة .

ثانيا : الوضع التحقيقى والتأويلى :

ينقسم الوضع إلى قسمين : تحقيقى وتأويلى :

فالتحقيقى : هو ما كانت الدلالة معه بواسطة الوضع ، وبعبارة أوضح : هو ما لا يحتاج فى دلالته على المعنى الموضوع له إلى قرينة ، بل يدل عليه بنفسه ، وذلك كما فى وضع الحقائق .

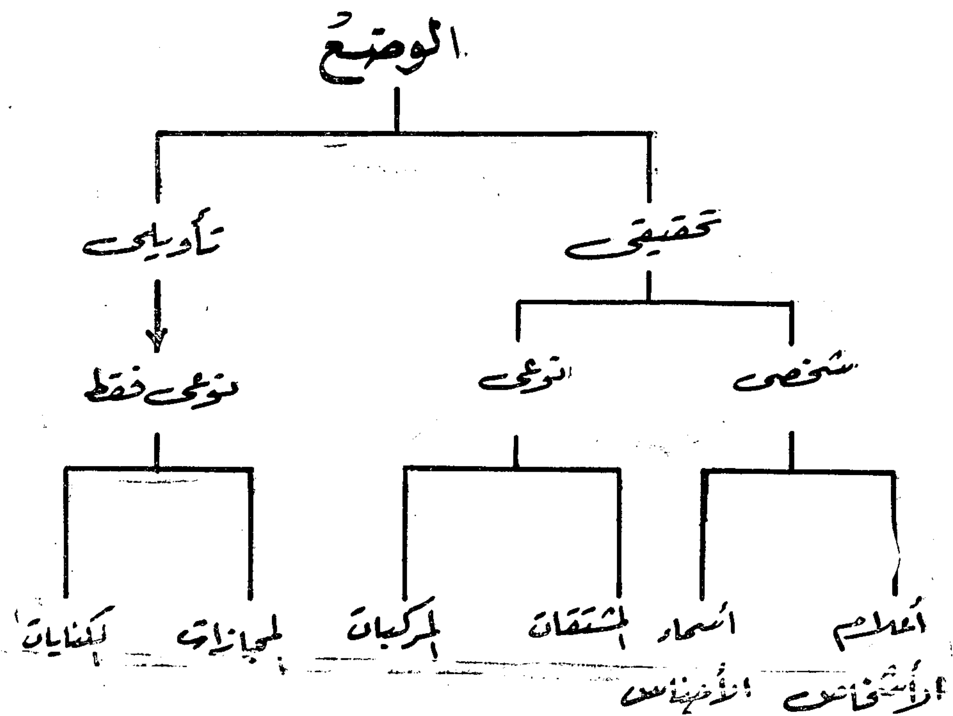
والتأويلى : هو ما لا يدل بنفسه بل بواسطة القرينة ، كما فى وضع المجازات والكنايات ، على القول بأنها واسطة أو من المجاز . بأن يقول الواضع : عينت كل لفظ لكل ما يكون بينه وبين معناه الحقيقى علاقة من العلاقات المخصوصة بشرط أن يكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى كما فى المجاز ، أو غير مانعة كما فى الكناية .

والمراد بالوضع عند الإطلاق التحقيقى لا التأويلى ، والسبب فى ذلك « أن التأويلى ليس بوضع حقيقة ، واللفظ عند الإطلاق إنما ينصرف إلى معناه الحقيقى ، وعليه ففى إطلاق الوضع على التأويلى تجوز »[1] .

ومما هو جدير بالذكر أن الوضع متى كان تأويليا كان نوعيا لا محالة ، وأما إن كان تحقيقيا فقد يكون نوعيا كما فى وضع المشتقات لمعانيها الحقيقية . وكما فى وضع المركبات كذلك . وقد يكون شخصيا كما فى أعلام الأشخاص وأسماء الأجناس المستعملة فى حقيقتها . ويمكن توضيح ذلك بالشكل التالى :

---

(١) حاشية الانبابى على الرسالة البيانية ص ٥٣ .



وخلاصة القول فى ذلك أن المركبات وضعها نوعى سواء أكانت حقائق أم مجازات أم كنايات ، وأن المشتقات أيضا كذلك . وأما مفردات تلك المركبات فقد يكون وضعها شخصيا وقد يكون وضعها شخصيا وقد يكون نوعيا ، كما أنه قد يكون تحقيقيا وقد يكون تأويليا ، وهذه الأقسام المختلفة ليست من وجه واحد ، وإنما هى باعتبارات متعددة على غرار مامضى .

كما أن شخصية الوضع بتشخص الموضوع ونوعيته بعمومه ، وكونه تحقيقيا يرجع إلى دلالته على معناه بنفسه ، وكونه تأويليا يرجع إلى دلالته على معناه بالقرينة :

وهناك أقسام أخرى أفاض فيها العلماء ، كتقسيم الوضع من حيث عمومه وخصوصه إلى ثلاثة أقسام : وضع خاص لخاص ، ووضع عام لعام، ووضع عام لخاص .

فالأول كزيد وعمرو وخالد من أسماء الاعلام . والثانى كوضع المصادر وأسماء الأجناس لما فيها الكلية . والثالث كوضع أسماء الإشارة والضمائر

والموصول والحروف، فالوضع فيها عام باعتبار آلته، كما أنه فى النوع الثانى عام باعتبار الموضوع له .

ومعنى ذلك أن الوضع يكون عاما بأحد أمرين: الأول : عموم الموضوع له كما فى وضع الكليات الملاحظة من جهة كونها كلية . والثانى : كون آلة الوضع عامة بأن يكون الموضوع له هو الجزئيات المشخصة ، ولكن استحضرت عند الواضع بقانون كلى كما فى أسماء الإشارة والموصولات والضمائر .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة فى الوضع الشخصى بلا خلاف مثل زيد ورجل والذى . وأما الوضع النوعى فلا يكاد يذكر المتقدمون فيه إلا قسما واحدا ، وهو الوضع العام لموضوع له عام ، كأن يقول الواضع : وضعت كل مركب من المسند والمسند إليه ليدل على مطلق ثبوت المسند للمسند إليه، وإن كان بعض المتأخرين قد أثبت القسمين الآخرين فى الوضع النوعى أيضا على ضرب من التكلف وطريق من التعسف .

وأما القسم الرابع الذى تقتضيه القسمة العقلية ، وهو الوضع الخاص لموضوع له عام فلا وجود له ، لأن الخاص من حيث خصوصه لا يكون مرآة للعام من حيث عمومه أو السبب أنه لا يمكن أن تجتمع ملاحظة الخصوص الذى يجعل الوضع خاصا ، والعموم الذى يكون فى الموضوع له .

* * *

الوضع بين الحقيقة والمجاز

من المعلوم أن اللفظ المستعمل إما أن يكون حقيقة أو مجازا . فالحقيقة هى الدلالة الأصلية للفظ ، والمسئول عنها هو الواضع الأول للغة كما يقول العلماء . والمجاز هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع فى أصل اللغة .

ولكن : ما المعيار الذى يحتكم إليه البلاغيون فى التمييز بين الحقيقة والمجاز؟

بالرجوع إلى تعريفات البلاغيين لكل من الحقيقة والمجاز نستطيع أن نقف على المعيار الذى تقاس به دلالة الكلمة للحكم عليها بالحقيقة أو المجاز .

أما الحقيقة فقد عرفها البلاغيون بقولهم : هى كل كلمة أريد بها ما وقعت له فى وضع واضع – وإن شئت قلت : فى مواضعة – وقوعا لا يستند فيه إلى غيره . وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه[1] وقد عرفها السكاكى بقوله : الكلمة المستعملة فيما هى موضوعة له من غير تأويل فى الوضع[2] .

ويرى ابن حمزة العلوى أن أجمع تعريف لها هو ما ذكره أبو الحسين البصرى ، إذ قال : هى ما أفاد معنى مصطلحا عليه فى الوضع الذى وقع فيه التخاطب[3] .

وأما المجاز فهو كما يقول عبد القاهر : كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول[4] . وعلى ذلك فإن ضابط الاستعارة عند عبد القاهر : أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع . ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل وينقل إليه نقلا غير لازم ، فيكون هناك كالعارية[5] .

كما عرفه ابن الأثير بقوله : ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة[6] . وقال السكاكى : هو اللفظة المستعملة فى غير ما هى موضوعة له بالتحقيق استعمالا فى الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها[7] .

بالتأمل فى التعريفات السابقة نستنتج أن « الوضع » أو « المواضعة » هو المعيار الذى تقاس به دلالة الكلمة للحكم عليها بأنها حقيقة أو مجاز . فاللفظ إن

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨٠ ط المنار ١٩٦٠ م — ١٣٧٩ هـ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٢ . (٣) الطراز ١/٤٧ .

(٤) أسرار البلاغة ٢٨١ . (٥) أسرار البلاغة ٢٠ .

(٦) المثل السائر ٢٣ ، ٢٤ . (٧) مفتاح العلوم ١٥٢ ، ١٥٣ .

إن استعمل فيما وضع له فى أصل اللغة يكون حقيقة . وإن تجاوز ما وضع له كان مجازاً .

ولكن هذا المعيار لم يسلم من النقد ، فقد تعرض لهجوم عنيف من الباحثين المعاصرين الذين رفضوه ، وبينوا أسباب رفضهم له فيما يلى :

١ ـ أن الوضع الذى قصده البلاغيون والأصوليون هو «الوضع الأول» وهو مرتبط بالنشأة الأولى للغة . والبحث فى تلك النشأة أصبح من مباحث ما وراء الطبيعة ، أى أنه من البحوث الغيبية التى لا طائل تحتها ولذلك عزفت عنه الدراسات اللغوية الحديثة .

٢ ـ أن القول بالوضع على النحو السالف قد تضمن كثيرا من الآراء البعيدة عن الصواب كالقول بأن ألفاظ اللغة كلها حقيقة ، أو كلها مجاز .

٣ ـ أن الاحتكام إلى الوضع الأول فيه إغفال لحقيقة التطور اللغوى . والنظر إلى اللغة على أنها أمر ثابت لا يتغير على مر العصور . ولا يتطور بتطور المجتمعات البشرية . مع أن تطور الدلالة ظاهرة شائعة يلمسها كل دارس لمراحل نمو اللغة ، وأطوارها التاريخية .

والنتيجة التى انتهى إليها هؤلاء المعاصرون هى أن المعيار الذى تقاس به دلالة الكلمة هو الذيوع وكثرة التردد ، فالحقيقة هى الاستعمال الشائع المألوف للكلمة ، والمجاز هو الانحراف الدلالى أى الانحراف بالكلمة عن هذا الاستعمال الشائع المألوف .

هذا ما قرره الدكتور إبراهيم أنيس فى قوله : «وأبرز نواحى الضعف فى علاج القدماء للحقيقة والمجاز أنهم وجهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء فى الدلالة ، وركزوا نظرتهم نحو نشأتها ، فتصوروا ما سموه بالواضع الأول ، وتحدثوا عن الوضع الأول الأصلى ، كأنما قد تم هذا الوضع فى زمن متعين ، وفى عصر خاص من عصور التاريخ ، ولم يدركوا أن حديثهم عن نشأة الدلالات ليس فى الحقيقة إلا خوضا فى النشأة اللغوية للإنسان ، تلك

التي أصبحت من مباحث ما وراء الطبيعة . والتي هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يئسوا من إمكان الوصول في شأنها إلى رأي علمي مرجح ... كذلك يبدو من بحوث القدماء أنهم نظروا إلى كل عصور اللغة على أنها عصر واحد ، ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنها حقيقة بعد أن شاع أمرها وتنوسيت مجازيتها فقال من قال إن الكلام كله حقيقة . وتبين لآخرين أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي ، فخيل إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة ولا حقيقة فيها ، وكان كذلك الفريق الثالث وهم جمهور العلماء الذين اعترفوا بكل من الحقيقة والمجاز على أساس الأصالة والفرعية في دلالة اللفظ . وبحوث القدماء قد تجاهلت أمراً هاما هو في الواقع الأساسي الأول للحكم على الدلالة ، ذلك هو أثرها في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه ، فهو وحده الذي يستطيع الحكم على الحقيقة والمجاز . ذلك لأن الحقيقة لا تعدو أن تكون استعمالا شائعا مألوفا للفظ من الألفاظ ، وليس المجاز إلا انحرافا عن ذلك المألوف الشائع . وشرطه أن يثير في ذهن السامع أو القارىء دهشة أو غرابة أو طرافة »[1] فالحقيقة إذن هي الاستعمال الشائع المألوف ، والمجاز هو الانحراف عن هذا الاستعمال الشائع المألوف . ومعنى هذا التسليم بتطور الدلالة من عصر إلى عصر .

وهنا لا بد من وقفة إزاء هذا الهجوم على قول القدماء بالوضع واستنادهم إليه في الحكم على الدلالة اللغوية للألفاظ ، والتمييز بين الحقيقة منها والمجاز .

فهل يمكن القطع بأن الوضع الذي يعنيه البلاغيون في تعريف الحقيقة والمجاز هو الوضع الأول الذي صار من البحوث الغيبية؟ بالطبع لا .

وهل يعقل أن البلاغيين قد غفلوا عن تطور الدلالة من عصر إلى آخر ؟ إن الواقع يشير إلى خلاف ذلك كما تنطق كتب التراث البلاغي . والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال كما يقولون .

---

(١) دلالة الألفاظ ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

إن كلمة « الوضع » فى التراث العربى وردت بمعنيين :

١ — إن الوضع الأول : أى الصورة التى كانت عليها اللغة عند نشأتها الأولى .

٢ — الوضع العرفى : أى الدلالة الشائعة للفظ فى عرف الاستعمال لدى أوساط الناس . وهو تقريبا ما أطلق عليه فى الدراسات المعاصرة « الذيوع والتردد » .

ومبلغ علمى أن الاعتراض موجه إلى الوضع الأول » الذى يمثل - على حد قولهم - خوضا فى النشأة اللغوية للإنسان ، وقد يئس الباحثون عموما من الوصول فيه إلى قول فصل أو قرار حاسم يشفى غليل النفس التواقة لارتياد هذه الآفاق .

ومن الإنصاف أن نقول هنا إن القدماء حينما تحدثوا فى نشأة اللغة كانوا على وعى تام بأن هذا البحث من قبيل البحوث الغيبية التى لا طائل تحتها ، وإنما هو فقط لون من الرياضة الذهنية ، ولذلك لم تصدر عنهم آراء قاطعة فى هذا المجال بل جاءت آراؤهم بمجرد حدس وتخمين ، وكل رأى منها جائز عقلا .

كما أن القدماء لم يغفلوا عن طبيعة التطور اللغوى ، وتغير دلالات الألفاظ من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى ، بل وضعوا ذلك نصب أعينهم من منطلق إيمانهم بأن اللغة كائن حى يعتريه ما يعترى سائر الكائنات من تطور ونمو ، ويخضع لما تخضع له الأحياء من نواميس وقوانين تنظم شأن الحياة .

ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر بعض النصوص التى تؤيد وجهة نظرنا من كتب التراث البيانى . يقول عبد القاهر الجرجانى فى تعريف المجاز : «هو كل كلمة جزت بها ما وضعت له فى وضع الواضع إلى مالم توضع له ، من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها »[1] .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

فالذى نفهمه من هذا النص أن عبد القاهر بسعة أفقه قد فطن إلى تطور الدلالة فهو يشترط لكن اللفظ مجازاً ألا يستأنف فيه وضع . أى ألا يتفق الناس على استعماله فى معنى جديد ، فإذا استؤنف فيه وضع بأن اتفق الناس على استعماله فى معنى جديد أصبح استعماله فى هذا المعنى الجديد حقيقة لا مجازا.

والزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » كثيرا ما يعرض لما يسميه « مجاز المجاز » ففى تفسير قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء ... »[1] يقول : الاستواء الاعتدال والاستقامة . يقال : استوى العود ، إذا قام واعتدل ، ثم قيل : استوى إليه كالسهم المرسل : إذا قصده قصداً مستويا من غير أن يلوى على شىء . ومنه استعير قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء » أى قصد إليها بإرادته ومشيئته »[2] .

فالاستواء حقيقة الاعتدال والاستقامة ، ثم نقل مجازا إلى القصد المستوى من غير الميل إلى شىء آخر ، ثم شبه بذلك القصد الذى فى الأجسام إرادة الله تعالى خلق السماء من غير إرادة خلق شىء آخر ، واستعير لها لفظ الاستواء . فهو استعارة مرتبة على مجاز فى المرتبة الثانية أى مجاز المجاز .

وقد تكرر هـــذا المصطلح على لسانه أكثر من مرة فى معجم « أساس البلاغة » وهذا يعنى أن دلالة اللفظ غير ثابتة عند حد معين ، بل إنها تتطور من زمن إلى آخر . ولذلك فإن الحكم عليها يختلف حسب تطور الاستعمال اللغوى ، فقد يشيع استعمال اللفظ فى معنى من المعانى المجازية وتتداوله الألسنة فيصير حقيقة يبنى على أساسها مجاز آخر . وهذا أمر شائع فى ألفاظ اللغة .

والذى يقرأ تفسير « الكشاف » سوف يجد أن الزمخشرى يفسر بعض الكلمات على أنها حقائق . وهو الذى اعتبرها مجازات فى « أساس البلاغة » . ففى مادة (خلق) يقول : « خلق الحذاء الأديم والخياط الثوب قدره قبل

---

(١) سورة فصلت الآية ١١ . (٢) الكشاف ٣/٣٣٨ ، ٣٣٩ ط الحلبى .

القطع . واخلق لى هذا الثوب ، وصخرة خلقاء : ملساء وخلق الثوب خلوقه.
ومن المجاز : خلق الله الخلق : أوجده على تقدير أوجبته الحكمة وهو رب الخليقة والخلائق » . فهو هنا يعتبر « خلق الله الخلق » من قبيل المجاز اللغوى — وهذا قول لاسبيل إلى التسليم به ، ولذلك نجد أن الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « الذى خلق فسوى » يقول : « أى خلق كل شىء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم . ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم وأنه صنعة حكيم »[1] ، فالزمخشرى يفسر الخلق فى الآية الكريمة على أنه التقدير والتصوير المحكم الذى لاخلل فيه. وهو المعنى الحقيقى للخلق أى أنه كان على وعى بحقيقة تطور الدلالة من وقت إلى آخر ، فالمجاز القديم يصير حقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار بتطور الحياة الاجتماعية للإنسان .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هـذا الصدد أن « الدلالة الحقيقية للفظ قد تتعدد . أى أن اللفظ ينحرف من مجاله الحقيقى إلى مجال مجازى ، ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصير مألوفا ، ويعد حينئذ من الحقيقة ، وتظل تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ فى حدود ضيقة ، ويكون للفظ دلالتان أو استعمالان ، وكلاهما من الحقيقة ، غير أن إحدى الدلالتين تكون أكثر شيوعا من الأخرى ، ومن النادر أن يكون للفظ الواحد دلالتان مشهورتان بنفس النسبة فى وسط من الأوساط »[2] .

ونخلص من ذلك إلى أن « الوضع الأول » ليس هو المعيار الذى تقاس به دلالة الكلمة للحكم عليها بأنها حقيقة أو مجاز فى نظر البلاغيين والأصوليين فما المعيار إذن ؟ إنه النوع الثانى من الوضع وهو « الوضع العرفى » أى توطد ارتباط الكلمة بالمعنى الشائع فى عرف الاستعمال . وهو ما يعنيه الشيخ

---

(١) الكشاف ٤/٢٤٣ . (٢) دلالة الألفاظ ص ١٣٣ .

القرافى فى قوله : « هو غلبة استعمال اللفظ فى المعنى حتى يصير أشهر فيه من غيره »[١] .

وهذا يتفق مع ما توصل إليه اللغويون حديثا من اتخاذ « الذيوع والندرة » مقياساً للتمييز بين الحقيقة والمجاز ، فالكلمة إذا استخدمت الدلالة على معنى شاع استعمالها فيه كانت « حقيقة » ، وإذا استعملت فى معنى ندر استعمالها فيه ، أو لم يسبق استعمالها فيه كانت « مجازا » .

وإذا كان المجاز يتحول مع شيوع استعماله إلى حقيقة لغوية . فإن البلاغيين قد تنبهوا إلى هذه الحقيقة وأشاروا إليها فى أكثر من موضع ، يقول ابن الأثير : « إن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة »[٢] . ويقول العلوى : « الحقيقة قد تكون مجازاً ، والمجاز قد يصير حقيقة ، أما صيرورة الحقيقة مجازا ، فلأن الحقيقة إذا قل استعمالها صارت مجازا عرفيا .. وأما صيرورة المجاز حقيقة ، فلأن المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة عرفية »[٣] .

ويقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » : « قولهم : أتاه من جهة الخير وناحيته مجاز فى نفسه ، فكيف جعلت اليمين مجازا عن المجاز ؟ قلت من المجاز ما غلب فى الاستعمال حتى لحق بالحقائق ، وهذا من ذاك »[٤] .

هذا وغيره يؤكد أن علماء اللغة قديما كانوا على وعى تام بتطور اللغة على مر العصور والأجيال .

وضع الحقيقة

هو من قبيل الوضع التحقيقى ، لأن دلالة اللفظ على معناه بواسطة الوضع ، أى أنه يدل على معناه بنفسه ، لا بواسطة القرينة .

---

(١) تنقيح الفصول فى علم الأصول للقرافى ص ٢٠ .

(٢) الجامع الكبير ص ٣٢ .

(٣) الطراز ١/٩٩ ، ١٠٠ .

(٤) الكشاف ٣/٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وقد قسم البلاغيون الحقيقة باعتبار الواضع إلى أربعة أقسام : لغوية وشرعية وعرفيه عامة وعرفية خاصة ، لأن واضعها إن كان واضع اللغة فلغوية وإن كان الشارع فشرعية ، وإن كان العرف الشائع لدى أوساط الناس فهى عرفية عامة ، وإن كانت راجعة إلى تواضع طائفة خاصة من الناس ذوى حرفية معينة فعرفية خاصة .

فالحقيقة اللغوية : كإنسان يستعمله اللغوى فى الحيوان الناطق ، وأسد يستعمله فى الحيوان المفترس كما هو وضع اللغة .

والحقيقة الشرعية : كالصلاة حين يستعملها الشرعى فى العبادة المخصوصة .

والعرفية العامة : كلفظ « دابة » يستعمله المخاطب بالعرف العام فى ذوات الأربع .

والعرفية الخاصة : كلفظ « فعل » يستعمل النحوى فى اللفظ المخصوص وهو مادل على حدث وزمن ، فهذا المعنى خاص بعرف النحاة .

والحقيقة اللغوية هى أصل الكل، وكل من الشرعية والعرفية منقول عنها .

وقد ذكر بعض الأصوليين أن الوضع فى الحقيقة اللغوية غير الوضع فى الحقيقة الشرعية والعرفية ، فإنه فى اللغوية تعيين اللفظ بإزاء المعنى ، وأما فى الآخرين فبمعنى غلبة الاستعمال ، فإنه لم ينقل عن الشارع أنه وضع لفظ الصلاة والصوم بإزاء معنييهما الشرعيين ، بل غلب استعمال الشارع لهما فيهما ، وكذلك لم يضع أهل العرف لفظ « القارورة » مثلا للظرف من الزجاج على جهة الاصطلاح ، بل غلب استعمالهم فيه.(١) .

ومن هنا منع بعضهم إدخال الأنواع الثلاثة (اللغوية والشرعية والعرفية) فى حد الوضع ، بل جعله مقصورا على أحدها وهو « الحقيقة اللغوية » ، لاختلاف معنى الوضع فيها ، فإن التعيين غير غلبة الاستعمال .

(١) الرسالة البيانية ص ٦٢ ، ٦٣ .

وقد ذكر الشيخ القرافى فى « تنقيح الفصول » أن إطلاق الوضع على هذين المعنيين إنما هو بطريق الاشتراك حيث يقول : « الوضع يقال بالاشتراك على جعل اللفظ دليلا على المعنى ، كتسمية الولد زيداً ، وهذا هو الوضع اللغوى ، وعلى غلبة استعمال اللفظ فى المعنى حتى يصير أشهر فيه من غيره ، وهذا هو وضع المنقولات الثلاث : الشرعى نحو الصلاة ، والعرفى العام نحو الدابة ، والعرفى الخاص نحو الجوهر والعرض عند المتكلمين »[١] .

فإذا رجعنا إلى تاج الدين السبكى فسوف نجد أنه قد عرف الوضع بقوله : « هو جعل اللفظ دليلا على المعنى »[٢] . فهذا التعريف يصدق على الوضع اللغوى والشرعى والعرفى ، خلافاً لقول القرافى إن الوضع فى الحقيقة العرفية والشرعية بمعنى كثرة استعمال اللفظ فى المعنى بحيث يصير أشهر فيه منه فى غيره . نعم يعرف فيهما بالكثرة المذكورة ، وتزيد العرفية الخاصة بالنقل عن أهل الفن والاختصاص .

يقول الشيخ الصبان : « ولقائل أن يقول : الوضع فيهما (أى فى الشرعية والعرفية) كالوضع فيها (أى فى اللغوية) إنما الاختلاف فى سبب العلم بذلك الوضع ، ففى اللغوية الإعلام بأنه وضع لذلك ، وفى غيرها بكثرة الاستعمال »[٤] .

والحق أن سبب العلم فى الحقيقة اللغوية أيضا كثرة الاستعمال ، ويؤيده جعلهم إياها من أمارات الحقيقة ، ولهذا قال العصام فى شرح العضدية « ولا يخفى أن معرفة الموضوع له لا تتوقف على السماع من الواضع ، بل مدار معرفته على تتبع الاستعمالات العربية .

(١) تنقيح الفصول فى علم الأصول ص ٢٠ .
(٢) جمع الجوامع ١/٣٤٦ .
(٣) الرسالة البيانية ص ٦٣ ، ٦٤ .

وهذا هو مايسمى بالوضع العرفى الذى سلفت الإشارة إليه منذ قليل ومبناه على كثرة الذيوع والتردد ، أى شيوع الاستعمال لدى أوساط الناس .

وهذا يؤيد ماذهبت إليه من أن « الوضع الأول » ليس هو المعيار الذى نحتكم إليه للتفريق بين الحقيقة والمجاز ، وإنما هو « الوضع العرفى » أى أى الدلالة الشائعة للفظ فى عرف الاستعمال ، وهو يتفق مع ماذهب إليه المعاصرون من اتخاذ « الذيوع والندرة » مقياساً للتمييز بين الحقيقة والمجاز كما تقدم .

المشترك : ومما تجدر الإشارة إليه هنا وضع المشترك ، وهو اللفظ الدال على معنيين فأكثر دلالة مستوية مع قرينة معينة ، وهو يجىء نتيجة تعدد الواضعين من القبائل المختلفة ، فهو موضوع للدلالة على كل من معنييه أو معانيه بنفسه ؛ بمعنى أنه وضع وضعين أو أكثر على وجه الاستقلال ، وهو فى كل وضع قد عين ليدل على المعنى بنفسه لا بقرينة ، وعدم فهم المراد لعارض الاشتراك إلا بقرينة لا ينافى ذلك ، فهو من الحقيقة ، وقد وقع فى استعمال المشترك فى معنييه خلاف طويل والصحيح جوازه ، وهو رأى البيانيين .

وضع المجاز بين البيانيين والأصوليين

ينقسم المجاز باعتبار الاصطلاح الذى وقع فيه التخاطب إلى أربعة أقسام أيضا : لغوى وشرعى وعرفى عام وعرفى خاص .

فالمجاز اللغوى كأسد يستعمله اللغوى فى الرجل الشجاع ، والمجاز الشرعى كالصلاة يستعملها الشرعى فى الدعاء ، والعرفى العام كالدابة يستعملها المخاطب بالعرف العام فى الإنسان ، والعرفى الخاص كلفظ فعل يستعمله النحوى فى الحدث . والمجاز تابع الحقيقة فى الانقسام إلى هذه الأقسام الأربعة ، لأن المجاز فرع الحقيقة .

وقد عرف البيانيون الوضع بأنه : تعيين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه[١] ومعنى الدلالة بنفسه أن يكون العلم بالتعيين كافيا فى فهم المعنى عند إطلاق اللفظ .

فقولهم « بنفسه » احتراز من تعيين اللفظ للدلالة على معنى بقرينة – أى المجاز – فإن التعيين لا يسمى وضعاً فى نظر البيانيين .

ويتضح ذلك من تعريفهم المجاز ، فهو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى – فالمجاز عندهم غير موضوع لمعناه المجازى وإنما يدل بواسطة القرينة .

أما المجاز عند الأصوليين فهو : اللفظ المستعمل بوضع ثان لعلاقة بين ما وضع له أولا وما وضع له ثانيا[٢]. فالمجاز عندهم موضوع لمعناه المجازى.

وقد شاع هذا الخلاف بين الطائفتين حول وضع المجاز ، لدرجة أن سعد الدين التفتازانى أثبت الوضع للمجاز فى التلويح مرة ، ونفاه فى شرح المفتاح مرة أخرى ، وفى ذلك يقول العصام : « ومما ينبغى أن ينبه عليه أن السعد أثبت فى تلويحه الوضع للمجاز ، وأنكره فى شرح المفتاح حيث قال : لم يثبت ممن يوثق به القول بكون المجاز موضوعا ، وإنما قالوا لابد فيه من اعتبار نوع العلاقة ، ففهم منه البعض أن هذا معنى الوضع الحقيقى ، ولم يتنبه لاشتراط عدم القرينة ، ويمكن أن يوفق بين كلاميه بأن ما فى التلويح نظراً لاصطلاح الأصوليين ، وما فى شرح المفتاح نظرا لاصطلاح البيانيين »[٣] .

وللأصوليين أنفسهم خلاف فى أن المجاز موضوع أم لا. ذكره السبكى فى شرح المختصر ، لكن الشائع عنهم أن المجاز موضوع لمعناه المجازى .

---

(١) الإيضاح للقزوينى ٨٥/٣ والمطول ص ٣٤٩ .

(٢) جمع الجوامع للسبكى ٣٩٩/١ .

(٣) حاشية الأنبابى ص ١٣١ ، ١٣٢ .

ولا بد للتوفيق بين البيانيين والأصوليين من الإيماء إلى ما ذكرناه سلفا من تقسيم الوضع ، فقد سبق أن الوضع النوعي ينقسم إلى قسمين :

١ — تحقيقي : وهو ما كانت الدلالة معه بواسطة الوضع .
٢ — تأويلي : وهو ما كانت الدلالة معه بواسطة القرينة .

وبذلك يتبين أن الخلاف الواقع بين البيانيين والأصوليين حول وضع المجاز خلاف لفظي ، فرجعه إلى الاختلاف في تفسير الوضع . فيحمل الوضع في قول البيانيين إنه ليس بموضوع على الوضع التحقيقي ، ويحمل الوضع في قول الأصوليين إنه موضوع على الوضع التأويلي . والوضع التأويلي لا يكون إلا نوعيا .

فالمجاز موضوع لمعناه المجازي وضعا نوعيا تأويليا ، كما يقول علماء الأصول ، ولذلك جاء تعريفهم للوضع خاليا من قيد « بنفسه » ، لأنهم يريدون مطلق الوضع الصادق على النوعين : التحقيقي والتأويلي .

وقد سبق أن الوضع عند الإطلاق ينصرف إلى التحقيقي المقابل التأويلي وإنما كان هو المراد عند الإطلاق ، لأن التأويلي ليس بوضع حقيقة ، واللفظ عند الإطلاق ينصرف إلى معناه الحقيقي ، وعلى ذلك ففي إطلاق الوضع على التأويلي تجوز وتسامح ، خلافاً لمن ادعى الاشتراك بينهما ، وهو العصام في شروح الرسالة الوضعية .

هذا ، ولا يوصف اللفظ بأنه حقيقة أو مجاز إلا بعد الاستعمال ، فإذا استعمل فيما وضع له يكون حقيقة ، وإذا استعمل في غير ما وضع له لعلاقة وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي فهو مجاز .

وتعرف حقيقة اللفظ بالسماع من أهل اللغة الموثوق بهم ، أما المجاز فهو مشروط بوجود العلاقة والقرينة المانعة ، فمتى وجد شرطه صح ، وإن لم يسبق به قائله .

وإذا كان استعمال اللفظ في معناه الحقيقي أكثر من استعماله في معناه

المجازى وجب عند عدم القرينة حمله على المعنى الحقيقى قطعا، لأنه الأصل ولم يوجد ما يعارضه فوجب العمل به ، وكذا إن استويا فى الاستعمال فالعبرة بالحقيقة أيضا عند أكثر الأصوليين[١] . فلو وقف شخص ماله على حفاظ القرآن لم يدخل فيهم من كان حافظاً ونسى ، لأنه لا يسمى حافظا إلا مجازا باعتبار ما كان . ولو وقف على أولاده لم يدخل ولد ولده على الأصح ، لأن إطلاق الولد على ولد الولد مجاز .

وقيل : بل يحمل عليهما معا ، فيكون حكمه حكم المشترك بين معنيين مثلا عند عدم القرينة المعينة لأحدهما من أنه يحمل عليهما معا عند الإمام الشافعى[٢] ، وقيل : هو حقيقة مشتركة بينهما باعتبار الوضع والعرف .

---

(١) حاشية الأنباى ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق .

القسم الرابع

الدراسات الأدبية

١ ـ الدكتور جابر عبد الرحمن سالم يحيى
٢ ـ الدكتور السيد العراقي
٣ ـ الدكتور أحمد السيد عيد
٤ ـ الدكتور محمد عبد الجواد فاضل
٥ ـ الدكتور محمد طه عصر

الإمام الشافعي بين شاعريته وشعره

بقـــلم الدكتور

جابر عبد الرحمن سالم يحيى

يوجد كثير من الشعراء العلماء الذين غطت - أو كادت تغطى - شهرتهم العلمية على ما أبدعوه من الشعر ، وما أجادوه من البيان ، وربما عنى الباحثون بما أتقنوه من العلم ، ولا يتجاوزونه إلى العناية بنتاجهم الشعرى الذى يظل مبثوثا فى بطون كتب السير والتراجم .

ومن هؤلاء الشعراء العلماء : الإمام الشافعى[1] - رضى الله عنه - الذى حلقت شهرته الفقهية فى الآفاق ، وذاع صيته ، وانتشر مذهبه فى كثير من البقاع والأصقاع حتى قيل عنه : أستاذ الأساتذة ، وزين الفقهاء ، وتاج العلماء ، وناصر السنة[2] .

وهذه - بلاشك - جوانب عظيمة ، ينبغى أن يشار إليها بالبنان ،

---

(١) هو الإمام : أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، ولد فى غزة - على الراجح - فى سنة ١٥٠ هـ ، ونشأ فى مكة المكرمة ، وطلب العلم فيها ثم فى مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما سافر إلى اليمن عاملا ، وإلى العراق معلما ومتعلما وأخيرا استقر به المقام فى مصر ، وفيها انتشر مذهبه الفقهى ، واستمر ينفع للناس بعلمه حتى أتى ربه - جل وعلا - فى سنة ٢٠٤هـ مخلفا لنا بعض الكتب ومن أهمها : الرسالة والأم على الراجح . انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤٤٨ وما بعدها ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ٢ ص ٥٠ وما بعدها والمحمدون من الشعراء للقفطى ص ١٤٠ .

(٢) الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول لعبد الحليم الجندى ص ٣٠٠ . وغير ذلك مما سيأتى .

تقديرا لشأن صاحبها ، واعترافا بمكانة من اتصف بها ، ولكن من الإنصاف - لهذا الإمام - أن يشار إليه - أيضا - على أنه شاعر مجيد ، وأديب بارع ، وآية ذلك شعره المثبوت فى أمهات الكتب[1] والذى يدل على أن صاحبه كان ذا شاعرية مبدعة ، وملكة أصيلة ، تجيد التعبير عن خلجات النفس ، وتصوير الحس ، ساعده على ذلك أمور كثيرة ، أشير إلى أهمها فى :

عوامل شاعرية الإمام :

لايخفى أن هناك عوامل كثيرة وراء شاعرية الإمام ، ولعل من أهمها :

١ — الموهبة : أنعم الله - عز وجل - على الشافعى بحظ كبير من المواهب فقد كان قوى المدارك ، حاضر البديهة ، عميق الفكرة ، بعيد المدى فى الفهم سريع الحفظ ، يشير إلى ذلك ماروى من أنه كان يسمع المعلم - فى الكتاب - يلقن الصبى الآية من القرآن فيحفظها هو ، بل كان قبل أن يفرغ المعلم من الإملاء يكون قد حفظ جميع ما أملى ، حتى قال له ذات يوم : مايحل لى أن آخذ منك شيئاً - من الأجر -[2] .

والجدير بالذكر أن الشافعى قد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين[3] أضف إلى ذلك ماروى من أنه قبل أن يذهب إلى الإمام مالك بن أنس (ت سنة ١٧٩ هـ) - رضى الله عنه - ليتلقى عليه العلم ، استعار (الموطأ) من رجل بمكة فحفظه فى تسع ليال ظاهرا . ولعل فى هذا كله مايؤكد سرعة حفظه ، وحضور ذهنه .

٢ — الوراثة : لاشك فى أن الدم العربى الذى كان يجرى فى عروق

(١) مناقب الشافعى للبيهقى ص ١٥ وما بعدها ، وطبقات الشافعية للسبكى ج ١ ص ١٦١ وما بعدها .

(٢) مناقب الشافعى ص ١٥ . (٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

الشافعى كان له أثر كبير فى نبوغه وبخاصة إذا علمنا أنه قرشى « ومن قديم قيل : « ... قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ...

والعرب كالبدن وقريش روحها ، وبنو هاشم سرها ولبها ... ومعدن الفهم وينبوع العلم ... لهم كلام يعرض فى حلى البيان ، وينقش فى فص الزمان ... ولم لا يطوون ذيول البلاغة ، ويجرون فضول البراعة ، وأبوهم الرسول ، وأمهم البتول ، وكلهم قد غذى بدر الحكم ، وربى فى حجر العلم ، أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون ، وبلسان النبوة ينطقون ... »[1] .

ولقد أكد ذلك ابن فارس (ت سنة ٣٩٥ هـ) بقوله : « ... اجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغتهم ... أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ... »[2] .

فلا عجب إذا رأينا الشافعى - رضى الله عنه - قد أوتى فصاحة فى اللسان، وبلاغة فى البيان ، وشدة تأثير بنبراته ، وقوة توضيح بعباراته ، ولعل مما يؤكد ذلك ذلك ماروى من أن الإمام مالكا - رضى الله عنه - أراد أن يقرئه الموطأ على بعض أصحابه ، فعرض عليه الشافعى أن يقرأ عليه بعضه ، فلما قرأ الشافعى تأثر به الإمام مالك حتى رغب فى سماعه كله منه »[3] .

٣ - النشأة : نشأ الشافعى فى مكة المكرمة ، وذلك بعد مارجعت به أمه من غزة - مسقط رأسه - لوفاة أبيه وهو صغير ، فعاش فى مكة يتيما ، تتولى أمه حضانته ، وتتعهده وترعاه ، وهى التى كانت ذات حذق ، وذكاء ، وقوة حجة يشير إلى ذلك ماقيل من أنها : تقدمت هى وامرأة أخرى مع رجل

(١) زهرة الآداب للحصرى ج ١ ص ٥٨ .

(٢) المزهر للسيوطى ج ١ ص ٢٠٦ . (٣) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٣١ .

للإدلاء بشهادة أمام القاضي ، فأراد القاضي أن يفرق بين المرأتين ، ولكن أم الشافعي اعترضت على ذلك قائلة للقاضي : ليس لك ذلك !! لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : « . . . أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . . . »(١) فأسقط في يد القاضي ، وإنصاع لقولها(٢) ، فإذا صح ذلك ـ عن أم الشافعي ـ فلا غرابة إن بلغ الإمام ما بلغ من فصاحة وذكاء ، وقديما قيل : « الشيء من معدنه لا يستغرب » .

وما أحسن قول أبي بكر بن دريد (ت سنة . . . هـ) في رثائه الشافعي ثم أشار إلى نشأته بقوله(٣) :

أبى الله إلا رفعه وعلوه ... وليس لما يعليه الله واضع
وأنشأ له منشيه من خير معدن ... خلائق هن الباهرات البوارع

أضف إلى ما سبق نشأته في قبيلة هذيل . ولبثه فيهم ـ كما قيل ـ سبع عشرة سنة ، يرحل برحيلهم ، وينزل بنزولهم ، فتعلم كلامهم ، ونهل من وردهم ، وكانت هذه القبيلة من أفصح العرب الذين نقلت عنهم اللغة العربية(٤) ، وقيل : إن الشافعي كان يحفظ عشرة آلاف بيت لهذيل ، ومن هنا كان حجة في اللغة لا يجارى ولا يبارى ، حتى لقد شهد بفصاحته الإمام أحمد بن حنبل (ت سنة ٢٤١ هـ) ـ رضي الله عنه ـ فقال : « كان الشافعي من أفصح الناس » ، وأكد ذلك أيضاً الربيع بن سليمان (ت سنة ٢٧٠ هـ) بقوله : « كان الشافعي عربي النفس عربي اللسان » وبقوله ـ أيضا ـ : « لو رأيت الشافعي وحسن بيانه ، وفصاحته لعجبت منه » وغير هذين كثير(٥) .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٨٢ .

(٢) توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس لابن حجر ص ٤٢ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٧١ . (٤) المزهر ج ١ ص ٢١١ .

(٥) انظر مناقب الشافعي ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها ، شذرات الذهب ج٢ ص ١٠ معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١٢ .

كما لا يخفى أن الشافعى قد تلقى العلم على أساتذة أجلاء نهل من معينهم ، وانتفع بعلومهم ، بالإضافة إلى عنايتهم به عندما رأوا فيه النبوغ المبكر ، ولا شك فى أنه تأثر بهم فى نشأته ، وفى أثناء تلمذته على أيديهم ، وقد سبق بيان طرف من موقف الإمام مالك منه عندما ذهب إليه ، وبالإضافة إلى ذلك نرا هو ذا مسلم ابن خالد (ت سنة .... هـ) ـ أحد أساتذته ـ يقول له ـ عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره : « أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتى[1] » ، فهذا القول من شيخه يشير إلى ثبوت قدمه ، كما يدل على واسع علمه ، وبخاصة أنه يوجهه إلى ميدان الإفتاء ، ولعمر الحق إنه لميدان جد كبير وخطير ، ولا يثبت فيه إلا من آتاه الله علما واسعا ، ورزقه فكرا ثاقبا ، وما كان لشيخه أن يطلب منه ذلك لولا أنه رآه أهلا له .

٤ ــ الثقافة : من المعلوم أن الموهبة ـ وحدها ـ لا تكفى ، بل لابد من تنميتها وصقلها ، وذلك لا يتأتى إلا بالثقافة واتساعها ، والخبرة وتنوعها ، وهذا ما كان عند الإمام الشافعى ، إذ جمع بين الموهبة والثقافة ، ويؤكد ذلك ما قيل من أن شيوخه وتلامذته قد أجمعوا « ... على أنه كان علما من بين العلماء لا يجارى ولا يبارى ، فلقد شغل الناس بعلمه وعقله ، وسعة ثقافته وتعددها ، ويزيد ذلك تأكيدا ما تركه من آثار ، من أقوال مأثورة . أو فتاوى منثورة أو رسائل كتبها ... أو خلافات دونها ، أو مناظرات أقامها ، ففى كل ذلك الدليل على مقدار علمه ، ومقدار مواهبه واتساع أفقه ، وفصيح بيانه ، وقوة جنانه ، فكان أكبر من أديب ، وأكثر من فقيه »[2] ،

ولقد تعددت روافد ثقافته ، وكان أهمها : القرآن الكريم الذى لا يخفى أثره فى فصاحة الإمام ، وصحة أسلوبه ، إذ حفظه وهو ابن سبع سنين ـ كما سبق ـ وكان كثير القراءة فيه ، دائم التأمل فى معانيه ، حتى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٦٤ و ٣٣ وما بعدها بتصرف .

(٢) الشافعى حياته وعصره وآراؤه الفقهية للشيخ محمد أبو زهرة .

رضى الله عنه ـ : « ما رأيت أحدا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى القرشى »[١]
والشافعى نفسه يقول : « حفظت القرآن فما علمت أنه مر بى حرف إلا وقد
علمت المعنى فيه والمراد ما خلا حرفين . . »[٢] أضف إلى ذلك أنه كان إذا
قرأ القرآن الكريم أبكى سامعيه حتى قال عنه بعض من جالسه : « كنا إذا
أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض، قوموا إلى هذا الفتى المطلبى ، نقرأ القرآن
فإذا أتيناه استفتح القراءة حتى يتساقط الناس بين يديه ، ويكثر عجيجهم
بالبكاء ، فإذا رأى ذلك أمسك عن القراءة »[٣] .

كما كان للحديث النبوى الشريف أثر كبير فى ثقافة الإمام الشافعى ،
إذ كان يحفظ منه الكثير ، حتى أصبح خبيرا بقواعده ، وبصيرا بمراتبه ،
ويؤكد ذلك الذهبى (ت سنة ٧٤٨ هـ) بقوله عن الشافعى : « كان حافظا
للحديث بصيرا بعلله لا يقبـــل إلا ما ثبت عنده ، ولو طال عمره لازداد
منه »[٤] ويزيد ذلك تأكيد الإمام أحمد بن حنبل بقوله : « كان محمد بن
إدريس الشافعى أفقه الناس فى كتاب الله ـ عز وجل ـ وفى سنة رسوله
ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان يكفيه قليل الطلب فى الحديث »[٥] ، وقيل
عنه أيضا : « كان الشافعى إذا أخذ فى التفسير كأنه شاهد التنزيل ، وأوتى
علم الحديث ، وضبط قواعد السنة ، وفهم مراميها ، والاستشهاد بها »[٦] .

ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا الشافعى يشير إلى منزلة القرآن والحديث
والفقه ـ الذى نبغ فى مسائله ـ بقوله[٧] :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة	إلى الحديث وعلم الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا	وما سوى ذلك وسواس الشياطين

---

(١) مناقب الشافعى ج ١ ص ١٩ .
(٢) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٦٣ .
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦ .
(٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٣١
(٥) المرجع السابق .
(٦) مناقب الشافعى ج ٢ ص ٢٠ .
(٧) ديوانه بتحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٣٤ .

وقيل : « أخذ الشافعي في روايته العلمية كذلك من آفاق واسعة فروى عن الرجال وروى من النساء كالسيدة نفيسة بنت الحسن العلوية (ت سنة ٢٠٠ هـ) وكما روى عن أصحاب الحديث الحجازيين ، وأصحاب الرأي العراقيين روى عن غيرهم من أصحاب المقالات فكان له شيخان من المعتزلة ، أصحاب العقل الحر ، ولذلك التنوع كله أثره الذي يستبينه في جلاء من يقف لتحليل شخصية الشافعي »[١] .

وإذا كان الفقه هو الرافد الثالث – بعد الكتاب والسنة – لثقافة الشافعي ، فإن الشعر يعد الرافد الرابع ، إذ حفظ منه الكثير وبخاصة في شعر هذيل – كما سبق – مما زاده تمكنا في اللغة ، حتى قيل : إن الأصمعي الأديب اللغوي الراوية (ت سنة ٢١٦ هـ) قرأ ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له : محمد بن إدريس الشافعي ، كما قرأ عليه شعر الشنفرى[٢] وبالإضافة إلى ذلك كان ذا علم بالأنساب وأيام العرب والأخبار والنوادر ومن هنا اتسعت ثقافته بتعدد مصادرها ، وتنوع روافدها ، ولذلك قال عنه داود الظاهري (ت سنة ٢٧٠ هـ) : « للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه ومكانة دينه ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقيمه ، وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف »[٣] ، كما شهد الجاحظ (ت سنة ٢٥٥ هـ) ببراعته في تآليفه ، وجودته في تصنيفه بقوله : « نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي – الشافعي – كأن كلامه ينظم درا إلى در »[٤] .

ولقد أدرك الشافعي قيمة الثقافة وتنوعها ، ولذلك يرغب في الإقبال

---

(١) المجددون في الإسلام ، للشيخ أمين الخولي ص ٧٥ ومابعدها بتصرف .

(٢) مناقب الشافعي ج ٢ ص ٤٥ .   (٣) مناقب الشافعي ج ١ ص ٩٠ .

(٤) المرجع السابق .

عليها ، والتزود منها بأحسن زاد فيقول: « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه »[1] ويؤكد الربيع بن سليمان (ت سنة ٢٧٠ هـ) أن مجلس الشافعى فى العلم كان جامعا للنظر فى كثير من العلوم فيقول : « كان الشافعى ـ رحمه الله ـ يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث ، يسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار »[2] وقريب من هذا قول يونس بن عبد الأعلى (ت سنة ٢٦٤ هـ) : « كان الشافعى إذا أخذ فى العربية قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الفقه قلت : هو بهذا أعلم »[3] .

وذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا عندما ذكر[4] أن ثقافة الشافعى « جاوزت هذه المناطق الدينية من حديث وفقه ونحوهما ، والمناطق الأدبية من لغة وشعر ، وتاريخ إلى مناطق أخرى دنيوية ، روى قوله عنها ، فى حديث له مع هرون الرشيد (ت سنة ١٩٣ هـ) حين حمل إليه بتهمة العلوية ، فجرى بينهما من الجواب والمساءلة ما لو صح لكفانا فى رسم دائرة ثقافة الشافعى الواسعة إلى حد بعيد ، فقد سئل عن علمه بكتاب الله وعلوم القرآن ، ثم سئل عن علمه بالسنة ثم عن العربية وعن الأنساب ، وعن الأحكام وعن النجوم ، بل سئل كيف علمه بالطب فذكر ما قالت الروم واليونان :

(١) مناقب الشافعى ج ١ ص ٩٣ .

(٢) معجم الأديان ص ١٧ ، ٣٠٤ .

(٣) مناقب الشافعى ج ١ ص ٩٣ .

(٤) المجددون فى الإسلام ، ص ٧٧ بتصرف .

أرسطاليس وبقراط وجالينوس ... وهى أسماء لعلها لم تكن بعد قد راجت وشاعت ، إذ لم تقو العناية بالترجمة فى عهد الرشيد الذى جرى هذا الحديث - فى روايتهم - بينه وبين الشافعى كقوة تلك العناية بالترجمة فى عصر ابنه المأمون (ت سنة ١٩٨ هـ) ... وذكر الشافعى فى هذا الموضع - من المحادثة - مانقله أطباء العرب ، وقننته فلاسفة الهند ، ونمقته علماء الفرس ...

وفى كل حال ، مهما يكن فى رواية هذه المساءلة بين الرشيد والشافعى من موضع للنظر فإنها تقدم للمتحدث عن المجددين فى الإسلام ، صورة وضيئة لشخصيات العلماء منهم عند الأقدمين أنفسهم ، وما تمثلوه من تكامل شخصيات أولئك المجددين العلماء وكيانهم الثقافى ، ونصيبهم من جوانب الثقافة المختلفة التى تتلاقى جميعها فى تكوينهم ... »[1] .

ولا يخفى أن هناك رافدا من روافد الثقافة ، وينبوعا من ينابيع العلم ، كان الإمام الشافعى قد وضعه نصب عينيه منذ الصغر ، إنه تقوى الله تعالى عملا بقوله - تعالى - : « واتقوا الله ويعلمكم الله ... »[2] ولقد نصحه أحد شيوخه وهو وكيع (ت سنة ١٦٨) بترك المعاصى مبينا له أن العلم نور وهذا النور لايرزقه الله عاصيا ، وهذا ماسجله الإمام فى شعره بقوله[3] .

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لايهدى لعاصى

ومن هنا كان الشافعى يجاهد نفسه ، ويراقب ربه ، وبخاصة عندما أوصاه الإمام مالك بن أنس - عندما التقى به أول مرة - بقوله : « ... اتق الله واجتنب المعاصى ، فإنه سيكون لك شأن من الشأن ... » فلا عجب إذا رأينا الشافعى يكبح جماح نفسه ، فيقرر أنه : ماشبع - منذ ست عشرة سنة إلا شبعة

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها . (٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٢ .

(٣) ديوانه ص ٥٤ .

طرحتها ، لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسي القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة[١] .

هذا هو منهج الشافعي مع نفسه حزم وعزم ، وورع وزهد ، ويؤكد ذلك ابن خلكان بقوله : « قد أجمع العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته – أي الشافعي – وأمانته وعدله وزهده ، وورعه ، وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه ... »[٢] .

ولا يخفى أن أثر ذلك كله قد ظهر في شعره ، إذ أشار فيه إلى أن الحياة الحقيقية للإنسان أساسها العلم والتقوى . فإذا فقد أحدهما فلا قيمة لصاحبها[٣] :

وذات الفتى – والله – بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتِهِ

٥ — رحلاته : للرحلات فوائد كثيرة ، فهي – كما قيل – تفتق الذهن ، وترهف الحس ، وتعطي الفكر مادة من الصور توسع صوره وتفتح له مسالك من الفروض العقلية والمسائل الواقعية[٤] ومن هنا فأثرها كبير في ثقافة الإنسان ، وتنمية مداركه ، وزيادته خبرة وحنكة .

ولقد كانت للشافعي رحلات متعددة ، وأسفار كثيرة ، منذ صغره ، إذ رحل إلى البادية صغير ، ولبث في هذيل سنين عددا ، فأفاد خبرة من بعض القبائل العربية ، وعاداتهم بالإضافة إلى لغتهم ، كما رحل في طلب الحديث والفقه في المدينة المنورة ولازم الإمام مالكا مدة من الزمان ، ثم ذهب إلى العراق أكثر من مرة والتقى فيها بمحمد بن الحسن (ت سنة ١٨٩ هـ) صاحب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه (ت سنة ١٥٠ هـ) ، أضف إلى ذلك رحلته إلى اليمن

---

(١) مناقب الشافعي ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٠٩ .   (٣) ديوانه ص ٢٩ .

(٤) الإمام الشافعي ص ١٩ .

لكي يتولى بعض أعمال ولاتها ، وأخيراً رحلته إلى مصر ، واستقراره فيها وفيها نشر مذهبه الجديد ، وذاع صيته ، وبها كان مثواه .

ولا شك في أن الشافعي قد أدرك فائدة هذه الأسفار ، ولولا ذلك ماراغب فيها ولا تحمل مشقتها ، في سبيل تحقيق مراده ، وما مراده إلا طلب المزيد من العلم فيقول(١) :

سأضرب في طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أمـــوت غريبا
فإن تلفت نفسى فلله درها وإن سلمت كان الرجوع قريبا

٦ — عصره : عاش الشافعي مايقرب من أربع وخمسين سنة (١٥٠ — ٢٠٤ هـ) وذلك في العصر العباسي في مدة استقر الأمر فيها لهذه الدولة ، فازدهرت العلوم والآداب وتعددت الثقافات ، إذ وجدت ثقافة عربية خالصة ومصدرها القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والأدب العربي بالإضافة إلى بعض العلوم الأخرى التي لها صلة باللغة ، كما وجدت ثقافة شرقية وتشمل ما أخذ عن الفرس والهنود إذ كان العرب قد اختلطوا بأهل هذه البلاد عن طريق التجارة من ناحية والفتوحات الإسلامية من ناحية أخرى ، وهذا من شأنه تبادل المعرفة وترجمة الكثير من كتبهم ومعارفهم إلى اللغة العربية وبخاصة في الأدب وفنونه ، بالإضافة إلى الثقافة اليونانية وأكثرها كان يدور حول علوم الطب والمنطق والرياضة والفلك والفلسفة .

ومن الجدير بالذكر أن المجتمع في هذا هذا العصر قد تكون عدة شعوب مختلفة الأجناس متعددة الأمشاج ، فكانوا ذوى عقليات وثقافات متنوعة ، كما كان من بينهم من دان بالإسلام ظاهريا ، ومنهم من دان به وانتسب لفرقة معينة وطائفة خاصة كالشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرهم ، بل كانت فرق أخرى تأثرت بديانات أخرى تأثرا له خطره الكبير على الإسلام وبخاصة أن العباسيين منحوا الناس حرية واسعة في غير مايتصل بالسياسة ، فأباحوا

(١) ديوانه ص ٥٥ .

لهم حرية الفكر . وتسامحوا معهم فى عقد مجالس للمناظرة والمجادلة فى شئون الدين ، فاتخذ بعضهم من هذه الحرية سبيلا إلى نشر ما كانوا يخفونه من مبادىء خاطئة وتعاليم فاسدة، فظهرت الزندقة وانتشر الإلحاد[١] إلا أن خلفاء بنى العباس وقفوا فى وجه هؤلاء الزنادقة ، كما وقف العلماء فى وجوههم بالحجة الدامغة .

وبعد :

فهذه العوامل تعد من أهم العوامل التى ساعدت فى نبوغ الإمام الشافعى الشعرى فكان كما قيل : من أشعر الناس وآداب الناس وأعرفهم بالقراءات[٢] ، وشاعرا مفلقا مطبوعا[٣] وهذا يتضح من الوقوف مع بعض أشعاره والأغراض التى عالجها فأجاد وأفاد وحقا ، كان الشافعى كما قيل[٤] :

للشافعى أجــــل الناس منزلة ... وأعظم الناس فى دين الهدى أثرا

العدل سيرته والصــــدق شيمته ... والسحر منظومه والدر إن نثرا

شعر الإمام الشافعى :

ومن يقف على ما حفظته لنا بعض كتب التراجم من شعر الإمام الشافعى يجد عدة أمور أهمها :

١ — أن شعر الإمام ـ فى أكثره ـ مقطوعات قصيرة ، ولا ضير فى ذلك!! فيكفى أنها تسجل خواطره وأحاسيسه تسجيلا صادقا ، كما يبين فيها عما كان يجيش فى صدره ولكن النفس تتساءل : أضاع أكثر شعره ، فلم يبق إلا القليل؟ أم إنه وجه جل اهتمامه إلى الفقه ، فشغل به عن غيره . أم إنه رأى الشعر لا يتلاءم وأخلاق العلماء فانصرف عنه وخاصة أنه أشار إلى مثل ذلك فى قوله[٥] .

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٤٥ ، ضحى الإسلام ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها فجر الإسلام ص ٩٨ وما بعدها والحيوان ج ٤ ص ٤٤٤ ، تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٨٨ وما بعدها .

(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١٠ . (٣) شذرات الذهب ج ٢ ص ١٠ .

(٤) معرفة السنن والآثار ج ١ ص ١٤٩ .

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٨ .

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

الراجح الذى تميل إليه النفس أنه اشتغل بالفقه عن غيره ، أما قوله : (ولولا الشعر . . .) فلا يدل على كراهيته للشعر وإنما يشير إلى أخلاق بعض الشعراء التى لا تتفق مع جلال العلم ومكانة العلماء ، ولعل مما يؤكد ذلك قوله عن الشعر : « الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باق سائر ، فذلك فضله على الكلام »[١] .

بل إن الإمام ليتحدث عن الشعر وفنيته فى ثنايا ، يتناوله من علم الدين الشرعى ، والدليل على ذلك أن يعقد فصلا فى كتابه الأم ويجعل عنوانه « شهادة الشعراء » يوفى فيه — كما قيل — على حديث خبير عن الصدق الفنى ، وعمل الشاعر الوجدانى ، إذ يقول : « وإن كان — الشاعر — إنما يمدح فيصدق ويحسن الصدق . . . » ثم يضم إليه : « ومن يفرط فى الصدق بما لا يتمحض أن يكون كذبا ، ويحكم فيهما بأنه لا ترد شهادة واحد منهما ، فهو بهذا يرى أن الصدق الفنى لا تفسد به مروءة ، ولو كان مدحا حتى إذا ما فرط فى الصدق الخالق بما لا يعد كذبا محضا[٢] .

ولا شك فى أن هذا الاتجاه من الإمام الشافعى يشير إلى أنه كما قيل : « لا يتزمت تزمت غيره من الفقهاء ، فيذكر شعر العاطفة والقلب ، بل هو يقره[٣] ويقول : « ومن شبب فلم يسم أحدا لم ترد شهادته »[٤] فهذا قول فقيه فى الشعر أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهو يتلو مع الناس آيات سورة الشعراء المعروفة « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون . . »[٥] .

---

(١) الأم جـ ٦ ص ٢٢٢ . (٢) المجددون فى الإسلام ص ٩٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٩١ . (٤) الأم جـ ٦ ص ٢١٢ .
(٥) سورة الشعراء الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

فهذا هو رأى الشافعى فى الشعر وهو - كما قيل - : «الرأى الإسلامى الصحيح»[1].

ولعل مما يؤكد ذلك ما ذكره ابن رشيق[2] من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » وقوله : « إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب » وقالت عائشة - رضى الله عنها - : « الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح » .

٢ - أن الإمام قد نظم شعره على كثير من بحور الشعر العربية تامها ومجزوئها ، بالإضافة إلى أن قافيته قد بنى رويها على كثير من حروف الهجاء ، ولا شك فى أن هذا يدل على قدرة الإمام الشعرية ويؤكد ذلك ابن رشيق بقوله : « وأما محمد بن إدريس الشافعى فكان من أحسن الناس افتنانا فى الشعر »[3] ولولا انشغاله بالفقه لترك لشاعريته العنان، لحلقت فى كل الافنان وتبوأت بين الشعراء أعلى مكانة ، وقيل : « كان رضى الله عنه مع جلالة قدره شاعرا مفلقا مطبوعا »[4] .

٣ - أن شعر الإمام اشتمل على أغراض شريفة ، وأفكار لطيفة ، ليس فيها تملق فى مدح ، أو تبذل أو مجون ، أضف إلى ذلك أنه لا يشم فيها رائحة الخمر على الرغم من شيوع كل ذلك فى عصره ، مما يشير إلى أنه قد استمد شعره من معين خاص يتفق مع دينه وخلقه ، ومبادئه ، وتجاربه العميقة بالحياة والأحياء ، كما يدل على نفسه أصدق دلالة ، ويوضح أن الحياة الإسلامية قد صبغت حياته كلها ، وجعلته يصدر عنها فى سلوكه وفى أدبه وشعره ، ومن هنا حرص الإمام كل الحرص على أن يضمن شعره الصفات الخلقية والفكرية التى تحلى بها ، أو استشرف إليها ، أو تخيلها مثلا علا ،

---

(١) دراسات ونصوص فى الأدب العربى ، د : محمد مصطفى هدارة ص ١٦٤ .

(٢) العمدة حـ ١ ص ٢٧ (٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠

(٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى جـ ٢ ص ١٠ .

وبالإضافة إلى ذلك كانت له مقطوعات أخرى فى كثير من أغراض الشعر التى كانت معروفة فى عهده كالغزل والعتاب والرثاء والشكوى من هموم الحياة وسوء معاشرة بعض الناس والمدح، ولكنه ظل كما قلت يدور فى إطار الحكم والزهد والحرص على مكارم الأخلاق ومعالى الأمور ولذلك إذا مدح مدح من يستحق، وإذا أثنى أثنى على من هو أهل للثناء مثل قوله فى أبى حنيفة رضى الله عنه[1] :

لقد زان البلاد ومن عليها ... إمام المسلمين أبو حنيفة
بأحكام وآثار وفقه ... كآيات الزبور على الصحيفة
فما بالمشرقين له نظير ... ولا بالمغربين ولا بكوفة
فرحمة ربنا أبدا عليه ... مدى الأيام ما قرئت صحيفة

وفى اعتزازه بنفسه، وبعده عما يشين، وحرصه على مايزين يقول[2] :

على ثياب لو يباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصل السيف إخلاق غمده ... إذا كان عضبا أين وجهه فرى

ويشير إلى قناعته التى أعدها سبيلا إلى عزته وإبائه فيقول[3] :

أمت مطامعى وأرحت نفسى ... فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ... ففى احيائه عرض مصون
إذا طمع ألم بنفس عين ... علته مذلة وعلاه هون

وكثيرا ما حث على صيانة النفس والبعد عن كل ما يجلب لها العار أو الشنار بمثل قوله[4] :

صن النفس واحملها على مايزينها ... تعش سالما والقول فيك جميل
ولا تولين الناس إلا تجملا ... نبا بك دهر أو جفاك خليل

---

(١) ديوانه ص ٦١
(٢) ديوانه ص ٨٢
(٣) المرجع السابق ص ١٢١
(٤) المرجع السابق ص ١٠٤

ثم يعرج على بعض صفات الصديق ، مبينا بعض صفات الناس المتلونين في أخلاقهم الحريصين على مصلحتهم فقط :

ولا خير في ود امرىء متلون　　إذا الريح مالت حيث تميل
وما أكثر الإخوان حين تعدهم　　ولكنهم في النائبات قليل

ويشير إلى ما بعض ما انتشر بين الناس من وصف الزمان بالعيب والعيب في الناس لا في الزمان(١) :

نعيب زماننا والعيب فينا　　وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو زماننا بغير جرم　　ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب　　ويأكل بعضنا بعضا عيانا

وفي التسليم لقضاء الله والرضا بحكمه ، والصبر عند الشدائد يقول(٢) :

دع الأيام تفعل ما تشاء　　وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي　　فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلدا　　وشيمتك السماحة والسخاء

وقال مبينا فضل التقوى وأنها خير زاد(٣) :

يريد المرء أن يعطى مناه　　ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي　　وتقوى الله أفضل ما استفادا

كما يحث على السعي والتوكل على الله ، وعدم الركون إلى مخلوق مهما كان شأنه فيقول(٤) :

إن الملوك بلاء حيثما حلوا　　فلا يكن لك في أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا　　جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما　　إن الوقوف على أبوابهم ذل

(١) المرجع السابق ص ١١٧ .
(٢) ديوانه ص ٤٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٦ .

ويؤكد ذلك بقوله[١] :

توكلت فى رزقى على الله خالقى وأيقنت أن الله لاشك رازقى
ومايك من رزق فليس يفوتنى ولو كان فى قاع البحار العوامق

ويقول فى حب الصالحين ومدى تعلقه بهم ، ونفوره من أهل المعاصى والبعد عنهم[٢] :

أحب الصالحين ولست منهم لعلى أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصى ولو كنا سواء فى البضاعة

ومن الجدير بالذكر أن الإمام لم يكن بمعزل عما يجرى فى عهده من بعض الفرق التى كانت تنتقص الخلفاء الراشدين قبل الإمام على كرم الله وجهه ورضى عنهم جميعا وبخاصة بعض الشيعة ، فيقول الإمام الشافعى[٣] :

شهدت بأن الله لا شىء غيره وأشهد أن البعث حق وأخلص
وأن عرى الإيمان قول بين وفعل زكى قد يزيد وينقص
وأن أبا بكر خليفة ربه وكان أبو حفص على الخير يحرص
وأشهد ربى أن عثمان فاضل وأن عليا فضله متخصص
أئمـــة قوم يهتدى بهداهم لحى الله من إياهم ينتقص
فما لغــاة يشهدون سفاهـة وما لسفيه لا يحيب فيخرص

ولقد تصارعت بعض المذاهب فى موضوع الجبر والاختيار ، فأكد الإمام مذهب أهل السنة بقوله[٤] :

ما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يــكن
خلقت العبـاد عـلى ما علم ت ففى العلم يجرى الفتى والمسن
فمنهم شقى ومنهم سعيـــد ومنهم قبيح ومنهم حسن
على ذا مننت وهـذا خذلـ ت وهـذا أعنت وذا لم تعن

(١) المرجع السابق ص ٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٠ .
(٣) ديوانه ص ٨٨ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٨ .

كما حث الإمام كثيرا على العلم مبينا منزلة العالم بين الناس وذلك عن طريق المطابقة الجميلة فى قوله[1] :

تعلم فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالما كبير إذا ردت إليه المحافل

بل إنه ليبين فى وضوح أنه كلما تعلم وازداد علما وقف على كثير من أمور لم يكن يعلمها[2] :

كلما أدبنى الدهـ ـر أرانى نقص عقلى
وإذا ما ازددت علما زادنى علما بجهلى

هذا قليل من كثير من أغراضه التى وقف معها وعالجها أما أسلوبه فهو أسلوب بعيد عن الرتابة التى نحسها كثيرا فى شعر العلماء ، ولكن — كما قيل — لا نجد هذه الظاهرة فى شعر الشافعى أو على الأقل فى معظمه[3] .

ولقد وجدناه يعالج موضوعات عميقة كالجبر والاختيار بشاعرية مرهفة، إلا أن هناك بعض الآثار بطبيعة الحال تشير إلى حقيقة كونه فقيها ولكنها قليلة مثل لفظ (القياس) فى قوله[4] :

صديق ليس ينفع يوم بأس قريب من عدو فى القياس

كما وجدت بعض العبارات التقريرية ولكنها قليلة ، ولكن فى الغالب الأعم يبقى للشافعى الأديب بعد ذلك كله أصالته ونصاعة بيانه وروعة أسلوبه ووضوح أفكاره ، وبعدها كل البعد عن الغموض .

ويكفى أن شعره قد اشتمل على دروس وعبر تأخذ بأيدى الناشئة إلى النهج

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٥ . (٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .
(١) دراسات فى الأدب والنصوص ص ١٦٧ .
(٢) ديوانه ص ٨٥ .

القويم ويجد فيه الكهول غذاء روحيا يزيدهم قربا من الصراط المستقيم ، وحبا فى الزهد والورع .

الحكمة فى شعر الإمام :

وإذا كان شعر الإمام الشافعى يدور حول الحكمة غالبا ، فلا عجب فى ذلك فشعر الحكمة كما قيل : « هو الذى يجمل بالفقهاء ، وهو أولى بالأئمة » .

والملاحظ أن الحكمة فى شعر الإمام ليست وليدة الفكر المتعمق أو الفلسفة المبدعة غالبا ، وإنما هى ثمرة قراءاته المتمثلة فى القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربى بالإضافة إلى التجارب التى أحسها متجاوبا فيها مع ماسبقه من تجارب الآخرين ثم يصوغها فى سهولة ويسر ، ولذلك يفهمها القارىء دون كد ذهن ، أو إعمال فكر .

ومن الجدير بالذكر أن حكم الإمام مطبوعة بالطابع الدينى الواضح ، وهى بذلك تتفق مع حياته - التى سبق الحديث عنها - فشعره صورة صادقة لحياته كفقيه متدين ، ومن هنا تجد أكثر حكمته يرتدى ثوب الزهد ، ويدور حول الثقة فى الله سبحانه وتعالى والتوكل عليه ، واللجوء إليه والحرص على مكارم الأخلاق ومعالى الأمور ، ففى هذه المعانى تختلط الحكمة المرسلة بالنصح الموجه والإرشاد القويم[1] .

ولقد ذكر بعض الكتاب[2] أن شعر الحكمة - فى القرن الثانى الهجرى - بدأ يتطور إلى شعر فلسفى خالص نجده فى بيئات المتكلمين على الأخص فى مثل شعر بشر بن المعتمر (سنة ١١٠ هـ) ولا سيما فى قصيدتيه التى جمع فيهما - كما قال الجاحظ ت سنة ٢٥٥ هـ - « كثيرا من هذه الغرائب والفوائد

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د . مصطفى هدارة ص ٤٥٢ ومابعدها بتصرف .

(٢) الحيوان جـ ٦ ص ٢٨٤ .

ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والمواعظة البليغة»(١).

كما يتضح لنا هذا الشعر الفلسفى فى أبيات لسليمان الأعمى أخى مسلم بن الوليد ومنها قوله :

إن فى ذا الجسم معتبرا لطلوب العلم مقتبسه
هيكل للروح ينطقه عرقه والصوت من نفسه
... لاتعظ إلا اللبيب فما يعدل الضلع على قرسه
ورب مغروس يعاش به فقدته كف مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه أقرب الأشياء من عرسه

هكذا تطور شعر الحكمة ـ إذن فى القرن الثانى ـ ، فبعد أن كان خطرات منتثرة فى الشعر القديم ، صار له شعراء متخصصون ، وقصائد مقصورة عليه ، كما اتسعت معانيه باتساع آفاق الثقافة فى هذا العصر ، وباتصالها بآداب وحكم وأمثال الأمم الأخرى من فرس وهنود ويونان ... ومع انتشار الثقافة الفلسفية أخذ شعر الحكمة يتطور ، ويتخذ هذا السمت الفلسفى الذى نجده فى شعر المتكلمين أو من يلوذ بهم(٢) .

أما القيمة الفنية لشعر الحكمة فهى ـ كما قيل ـ : « ضئيلة للغاية لأن مثل هذا الشعر يجنح إلى ناحية عقلية محضة ، قليلة الحظ من الشعور العاطفى والوجدانى ولهذا يجهد الإنسان عقله عند قراءته ولا يحس بأى تجاوب عاطفى معه ، شأنه فى ذلك شأن الشعر المذهبى(٣) .

بل لقد ذهب هذا الكاتب إلى أن « غاية مايقال فى هذا النوع من الشعر أنه ضرب من النظم الذهنى فيه ناحية تعليمية عظيمة القيمة ، ولكنه ليس

---

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩٦ .
(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص ٤٥٢ .
(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها .

بالشعر الذي يكون الشعور مداره، والعاطفة أساسا فيه ...» ثم أكد حديثه بقوله : «وقد صدق ابن رشيق (ت سنة ٤٥٦ هـ) حين قال : «فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس (ت سنة ١٦٧ هـ) فقد قعد به عن أصحابه وهو يقدمهم في الصياغة لإكثاره من ذلك».

وأرى أن هذا الحكم لا ينبغي له أن يعمم على أشعار الحكمة، فقد يوجد شعر اشتمل على حكمة قائمة على أساس كبير من الخيال وجانب لا بأس به من الوجدان، فمثل هذا الشعر جدير بأن ينظر إليه نظرة خاصة، ولعل شعر الإمام من هذا النوع الذي عرج فيه صاحبه على رياض الشعر، وغرس فيها بذور للحكمة أينعت ثم أثمرت قولا وبيانا فيه هداية للناس، كل هذا من إنسان ذاق من الدنيا حلوها ومرها، وخرج منها بتجارب وعظات ومن قرأها يتأثر بها، ولا يمل من سماعها، بل يكررها ولا يمل من تكرارها، لأنها في واقعها أضواء على كثير من مشكلاتنا التي نعانيها ونتألم منها، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ قال : (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة)[1].

ولعل مما يؤكد ذلك قول بعض الكتاب : «لقد ذكرنا ... أن الشعر تعبير عن عاطفة لا تسجيل لقضايا عقلية ... ونحن مع هذا نعتبر أن ما يسمى بالحكمة من صميم الشعر ولا تناقض في الرأي، لأن الحكمة كما نفهمها هي : موقف من الحياة ينطوي دائما على شحنة عاطفية، إنها تجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة، ولا ينتزعها انتزاعا من الكتب، والحكمة يودعها الشاعر شعره كالأمثال العامية تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئا آخر غير التفكير الفلسفي والقضايا العقلية والمنطقية . وموضع هذه الأخيرة هو النثر في مؤلفاته المختلفة، أما موضع الأولى فهو الشعر، والتفرقة بين الحكمة بهذا المعنى وبين الفلسفة أو الأحكام العقلية أمر دقيق لا يمكن أن تقام

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٧ .

فيه الحدود الفاصلة ، ومثال الحكمة فى الشعر العربى ما نجده منبثاً فى ديوان المتنبى (ت سنة ... هـ) منها ، وهى منزلة حاول الشعراء المتأخرون بلوغها ولكن أكثرهم وقع دونها ، كما أن شعر التصوف ينطوى على كثير من الحكم. ولكنها حكم كانت خلاصة تذوق وتجارب حتى ولو كانت أصولها الأولى قائمة على مذهب عقلى ... .(١) .

ديوان الإمام الشافعى :

يبدو أنه لم يكن الإمام الشافعى ديوان شعر خطه فى حياته ولعل مما يرجح ذلك أن من ترجموا له بعد وفاته لم يشيروا الى أن له ديوان شعر وإنما كانوا يذكرون بعض أشعاره .

ومهما يكن من شىء فيبدو أن بعض الكتاب وقف على بعض ما فى كتب التراجم وغيرها من شعر نسب إلى الإمام فجمعه . وجمله فى ديوان يحمل اسم الشافعى ولكن لا يدرى من أول من قام بهذا العمل ، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن شعر الإمام متفرق فى المناقب كمناقب الرازى ونحوها وفى كتب الطبقات كطبقات الشافعية وسواها ، وفى كتب التاريخ كتاريخ بغداد ... ثم يقول : « وقد جمع منه أحد معاصرينا سنة ١٩٠٣ ، سماه : الجوهر النفيس فى أشعار الإمام بن إدريس ، ورتبه على حروف المعجم فى قوافيه ، وبقيت بعد ذلك مقطوعات لم يستوفها ... ولعل أحداً يفرغ لاستيفاء ذلك الجمع ، ويخرج ذلك الديوان الخاص للشافعى الشاعر(٢).

ولعل هذا الأمل المنشود قد تحقق كله أو بعضه وذلك عندما أقبل بعض المشتغلين بالأدب على شعر الإمام وأولوه عنايتهم فكان هذا الديوان الذى

---

(١) ابن سناء الملك د . عبد العزيز الأهوانى ص ١٤٨ وما بعدها بتصرف .

(٢) المجددون فى الإسلام ص ٩٣ بتصرف .

يحمل اسمه ، وطبع عدة طبعات ، ونشر عدة مرات[١] .

ولاشك فى أن من قام بهذا العمل قد بذل جهداً يشكر عليه ، وقام بعمل طيب يؤجر عليه ، إلا أن الملاحظ على هذا الديوان أنه لا يضم كل مانسب إلى الإمام الشافعى من شعر ، إذ هناك أبيات فى بعض كتب التراجم نسبت إلى الإمام ولكنها لم توجد فى هذا الديوان ـ كما سنأتى ـ كما أن هناك أبيات فى بعض كتب التراجم نسبت إلى الإمام وإلى غيره من الشعراء ـ كما ستأتى ـ ومن هنا تفاوتت طبعات الديوان المتعددة طولا وقصرا بالإضافة إلى الاختلاف فى عدد أبيات بعض المقطوعات ، بل يوجد اختلاف أيضا فى ترتيب أبيات بعض المقطوعات[٢] .

كما وجدت مقطوعات فى بعض النسخ لم توجد فى بعضها الآخر مثل المقطوعة التى أولها :

واحسرة للفتى ساعة يعيشها بعد أودائه[٣]

وأيضا المقطوعة التى أولها (اذهب فودك من فؤاد طالق)[٤] .

وهناك أبيات نسبت إلى الإمام الشافعى ، ولكنها نسبت إلى غيره من

---

(١) منها : طبعة بإشراف مصطفى محمد ولعلها الأولى ثم طبعة بجمع محمود إبراهيم هيبة وطبعة بتحقيق زهدى يكن وطبعة بجمع محمد الزغبى وطبعة بتحقيق عبدالعزيز سيد الأهل وطبعة بتحقيق وجمع د . محمد إبراهيم نصر وطبعة بتحقيق محمد عبدالرحمن وطبعة بتحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى وهى أكثر الطبعات دقة .

(٢) انظر على سبيل المثال المقطوعة التى أولها « دع الأيام تفعل ماتشاء» فى الديوان بتحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤٦ ، وتحقيق محمد الزغبى ص ١٥ وجواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمى جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٣) وجدت فى نسخة الدكتور محمد خفاجى دون بعض النسخ ص ٤٥٢ ، ١٥ من نسخة الزغبى على سبيل المثال .

(٤) الديوان بتحقيق د : محمد خفاجى ص ١٢٠ ، تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٤٣٨ .

الشعراء أترى نسبت إلى الإمام لأنها تتفق مع منهجه العام فى شعره ، أم نسبت إليه لأنه كان يتمثل بأبيات لغيره فظن أنها له ، أم هى من نظمه وأخذها غيره منه ، كل هذه أسئلة تتوارد ، ولم أعثر على مصادر أو مراجع تقطع بهذا أو ذاك ، اللهم إلا أن يوجد ما يرجح أحد هذه الأمور بأن نسبت بعض الأبيات إلى الإمام ونسبت إلى غيره من الشعراء الذين ماتوا قبل أن يولد الإمام الشافعى فمثل هذا الأمر يرجح أنها لغير الإمام .

١ — ومن ذلك ماروى أنه سمع صائح يصيح — فى زمان بنى أمية — : لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح ، وإياه عنى الشاعر بقوله(١) :

سل الفتى المكى هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح
فقال : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

فلما بلغه البيتان قال : والله ماقلت شيئا من هذا ، ومن المعلوم أن عطاء توفى قبل مولد الإمام ، قيل فى سنة ١٠٧ هـ وقيل فى سنة ١١٥ هـ والإمام الشافعى ولد فى سنة ١٥٠ هـ ، فإن صح ذلك فيكون البيتان لغير الإمام الشافعى .

٢ — وكذلك البيتان اللذان أولها : (إنى أعزيك لا أنى على ثقة ...) نسبا إلى الإمام ونسبا أيضا إلى الأعمش سليمان بن مهران المتوفى فى سنة ١٤٨ هـ(٢) .

وهناك أبيات نسبت إلى الإمام ولكنها نسبت إلى غيره من الشعراء الذين ماتوا قبل الإمام ولكن بعد مولده بمدة يجوز فيها أن يكون الإمام قد قال شعرا ومن ذلك :

٣ — البيتان اللذان أولها : (خبرا عنى المنجم أنى ..) نسبا إلى الإمام

---

(١) انظر ديوان الإمام ص ٦٥ وطبقات السبكى ج ١ ص ١٦١ ، ج ٣ ص ٢٦١
(٢) انظر ديوان الإمام ص ١٢٠ ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٣ .

كما نسبا إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى فى سنة ١٨٠ هـ[١] .

٤ ـ البيتان اللذان أولهما : (وأنزلنى طوى النوى دار غربة . .) نسبا إلى الإمام ونسبا أيضا إلى بشار بن برد المتوفى فى سنة ١٦٨ هـ . مع زيادة بيت قبلهما وهو :

لقد وضعت منى الحوادث جانبا   بطيئا على ريب الزمان تجامله[٢]

٥ ـ وأيضا البيت الذى أوله : (إذا نطق السفيه فلا تجبه . .) نسب إلى الإمام وإلى المزمل المحاربى المتوفى فى نحو سنة ١٩٠ هـ مع اختلاف فى بعض الألفاظ[٣] .

٦ ـ وكذلك البيتان اللذان أولهما : (وعين الرضا عن كل عيب كليلة . .) و (كلانا غنى عن أخيه حياته . .) نسبا إلى الإمام وإلى أبى الحجناء (نصيب الأصغر) المتوفى فى نحو سنة ١٩٠ هـ مع بعض أبيات أخر[٤] .

٧ ـ وكذلك الأبيات التى أولها : (أحب من الإخوان كل مواتى . .) نسبت إلى الإمام وإلى أبى العتاهية المتوفى فى سنة ٢١١ هـ[٥] .

٨ ـ وأيضا البيت (ترجــو النجاة ولم تسلك مسالكها . . إن السفينة لا تجرى على اليبس) نسب إلى الإمام وإلى أبى العتاهية[٦] وإلى أبى نواس

---

(١) ديوان الإمام ص ٥٤ ، والكامل للمبرد ٢/١٥ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٨ .

(٢) ديوان الإمام ص ١٠٧ ، والمختار من شعر بشار للخالديين بشرح أبو الطاهر إسماعيل ص ٢١٥ .

(٣) ديوان الإمام ص ٥٢ ، وتاريخ بغداد ١٣/١٧٩ .

(٤) ديوان الإمام ص ١٢٧ وطبقات الشعراء ص ١٥٦ .

(٥) ديوان الإمام ص ٥٩ ، وديوان أبى العتاهية ص ٧٩ ، وفى تاريخ بغداد ٤/٢٤٩ نسبها إلى نفطويه ت سنة ٣٢٣ هـ .

(٦) ديوان الإمام ص ٨٦ وزهر العرب ٢/٨١٥ ، وديوان أبى العتاهية ص ٣٣٠ وديوان أبى نواس ص ١٦٥ طبعة بيروت .

(ت ١٩٩ هـ)[1] .

٩ - والبيتان اللذان أولها : (ولرب نازلة يضيق لها الفتى ..) نسب إلى الإمام وإلى إبراهيم الصولى (ت سنة ٢٤٣ هـ)[2] .

١٠ - والأبيات التى أولها :) رأيت العلم صاحبه كريم ..) نسبت إلى الإمام وإلى منصور بن اسماعيل الفقيه (ت سنة ٣٠٦ هـ)[3] .

١١ - والبيتان اللذان أولها : (على معى حيثما يممت ..) نسبا إلى الإمام وإلى منصور بن اسماعيل أيضا[4] .

١٢ - والأبيات التى أولها : (ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ..) نسبت إلى الإمام وإلى منصور بن إسماعيل أيضا[5] .

١٣ - والأبيات التى أولها : (إذا أصبحت عندى قوت يومى ..) نسبت إلى الإمام وإلى البحترى (ت سنة ٢٨٤ هـ)[6] .

١٤ - والبيتان اللذان أولها : (أقبل معاذير من يأتيك معتذرا ..) نسب إلى الإمام وإلى البحترى أيضا[7] .

١٥ - والأبيات التى أولها : (قالوا ترفضت قلت كلا ..) نسبت إلى الإمام وإلى الصاحب بن عباد (ت سنة ٣٨٥ هـ)[8] .

---

(١) ديوان الإمام ص ٦٤ ، وفيات الأعيان ٤٦/١ .

(٢) ديوان الإمام ص ١١٠ وديوان منصور بن إسماعيل ص ١٦٨ .

(٣) المرجعين السابقين ص ١٠ و ١١٤ .

(٤) المرجعين السابقين ص ٦٧ و ١٦٣ .

(٥) ديوان الإمام ص ٧٣ وديوان البحترى ٢٥٤٨/٤ (ملحق الديوان) والعقد الفريد ١٥٦/٣ .

(٦) ديوان الإمام ص ٨٠ وديوان البحترى ١١٠٥/٢ .

(٧) ديوان ص وديوان الصاحب ص ٢٠٥ .

(٨) ديوان الإمام ص ٧٩ ، وديوان الصاحب ص ٢٢٤ ، وديوان أبى الأسود ص ١٠٩ ومعجم الأدباء ٢٠٩/١٨ .

١٦ ـ والبيت الذى أوله : (إذا المشكلات تصدين لى) نسبت إلى الإسلام ضمن أربعة أبيات فى بعض نسخ الديوان ، ونسبت إلى الصاحب بن عباد أيضا ضمن أبيات كثيرة ، بل نسبت أيضا إلى أبى الأسود الدؤلى (ت سنة ٦٧ هـ)(١) .

١٧ ـ والأبيات التى أولها : (ولما أتيت أطلب عندهم ..) نسبت إلى الإمام وإلى الأرجانى المتوفى فى سنة ٥٤٤ هـ ضمن قصيدة تربو على السبعين بيتا(٢) .

١٨ ـ والأبيات التى أولها : (حنيت نار نفسى باشتعال مفارقى) نسبت إلى الإمام كما نسبت إلى الطغرائى (ت سنة ٥١٥ هـ)(٣) .

١٩ ـ الأبيات التى أولها : (تعصى الإله وأنت تظهر حبه) نسبت إلى الإمام وإلى محمود الوراق (ت سنة ٢٢٥ هـ)(٤) .

٢٠ ـ والأبيات التى أولها : (الدهر يوما ذا أمن وذا خطر ..) نسبت إلى الإمام ونسبت إلى أبى الحسن قابوس بن أبى طاهر شمس المعالى (ت سنة ٤٠٣ هـ) مع اختلاف فى بعض الأبيات (٥) .

٢١ ـ الأبيات التى أولها : (تمنى رجال أن أموت وإن أمت ..) نسبت إلى الإمام(٦) وقيل إن يزيد بن عبد الملك (ت سنة ١٠٥ هـ) تمثل بها عندما تنقصه أخوه هشام (ت ١٢٥ هـ)(٧) وقيل تمثل بها محمد بن عباد

---

(١) ديوان الإمام ص ٧٨ ، وديوان الأرجانى ص ٨٦ .

(٢) ديوان الإمام ص ٥٥ ، وديوان الطغرائى ص ١٠١ وما بعدها بتحقيق د. على جوار والدكتور يحيى الجبورى .

(٣) ديوان الإمام ص ٩١ ، والكامل للمبرد ٢/٤ وزهر الآداب ١٣٩/١ .

(٤) ديوان الإمام ص ٨١ ، وفيات الأعيان ٨٠/٤ .

(٥) ديوان الإمام ص ٦٨ .

(٦) العقد الفريد ٤٤٣/٤ والأمالى ٢١٨/٢ .

(٧) تاريخ بغداد ٢٧٣/٢ .

المهلبى (ت سنة ٢١٤ هـ) مع اختلاف فى بعض الألفاظ وقيل غير ذلك(١) .

ولعل الإمام الشافعى تمثل بها فظنت أنها له وبخاصة أن أشهب تلميذ مالك المتوفى سنة ٢٠٤ هـ - بعد موت الإمام بمدة قصيرة - كان يدعو على الشافعى فأخبره بذلك ابن عبد الحكم كما ذكر ابن خلكان(٢) .

٢٢ - والأبيات التى أولها : (جزى الله عنا جعفرا حين أزلفت . .) نسبت إلى الإمام وإلى طفيل الغنوى الجاهلى ورجح الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى أنها لطفيل(٣) وكان الإمام الشافعى يرددها كثيرا .

وبعد : فهذا قليل من كثير عن شعر الإمام الشافعى رضى الله عنه ولست أزعم أننى أعطيت الموضوع حقه فى هذه العجالة ولكنى أرجو أن تتاح الفرصة للوقوف على شعره وتحقيقه والله المستعان . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

---

(١) وفيات الأعيان ٢٣٩/١ ، مروج الذهب المسعودى ١٢٦/٣ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٣٩/١ .

(٣) ديوان الإمام ص٦١ ، وديوان طفيل الغنوى ص ٩٨ وزهر الآداب ٣٣/١ .

من اهم مراجع البحث ومصادره

١ - الأم : للإمام الشافعى .

٢ - الإمام الشافعى : عبد الحليم الجندى .

٣ - الإمام محمد بن إدريس : د . مصطفى الشكعة .

٤ - تاريخ بغداد : للبغدادى .

٥ - تاريخ الأدب العربى : د . عمر فروخ .

٦ - جواهر الأدب : السيد أحمد الهاشمى .

٧ - دراسات ونصوص فى الأدب العربى : د . محمد مصطفى هدارة .

٧ - ديوان أبى العتاهية .

٨ - ديوان أبى نواس .

٩ - ديوان البحترى .

١٠ - ديوان الشافعى عدة طبعات

١١ - ديوان الطغرائى .

١٢ - ديوان طفيل الغنوى .

١٣ - ديوان منصور بن اسماعيل الفقيه .

١٤ - زهر الآداب : للحصرى .

١٥ - شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلى .

١٦ - طبقات الشافعية : للسبكى .

١٧ - العمدة : لابن رشيق .

١٨ - الكامل : للمبرد .

١٩ - المجددون فى الإسلام : أمين الخولى .

٢٠ - معجم الأدباء : لياقوت الحموى .

٢١ - مناقب الإمام الشافعى : للبيهقى .

٢٢ - وفيات الأعيان : لابن خلكان .

إبراهيم عبد القادر المـــازنى
إسهام رائد فى درس الأدب المقارن

(٢)

بقـــلم الدكتور
السيد العراقى

إسهامات متنوعة :

فى مقال سابق أشرنا إلى ريادة المازنى فى فهم المقارنة فهما واعيا ، يقترب مما هو شائع الآن فى محيط الدراسات المقارنة ، وقد استنتجنا ذلك من مخطوط المازنى ، وقع فى أيدينا ولم ينشر ، يتضمن مجموعة من الأفكار الأساسية المركزة لكتاب كان يعتزم إعداده ونشره[١] .

على أن أهم إسهامات المازنى فى مجال المقارنات الأدبية تطالعنا فيما نشر له من كتابات ، خاصة فى كتابه « حصاد الهشيم » الذى اعتمدنا عليه اعتمادا كاملا فى استخلاص باقى النتائج التى توصلنا إليها . ويتضح تميزه فى تلك الإسهامات المنشورة فى أنه تناول مباحثها - رغم عمق أفكارها ووعورة مداخلها - تناول الأديب المبدع ، الذى يستعين على إيصال مضمونه إلى المتلقى بالأسلوب الجيد ، والعرض الحسن ، والنموذج الكاشف ، والإلحاح على الفكرة من جميع جوانبها وتشخيصها ، وإبرازها فى صورة حية ملموسة ، وأنه ابتعد بها عن جهامة العرض العلمى البحت ، الذى يلقى الفكرة مجردة ، فى أسلوب جاف ، لا ماء فيه ولا رواء .

ونستطيع أن نلمح فى هذه الإسهامات أبعادا ثلاثة :

---

(١) انظر : مجلة « الأزهر » شعبان ١٤١٠ هـ - مارس ١٩٩٠ م ص ٨٢٨ وما بعدها .

البعد الأول : بعد نظرى . ناقش فيه عددا من القضا التى تعد من صميم الأدب المقارن وجوهره .

والبعد الثانى : بعـــد تطبيقى . قصد به أن يدعم آراءه فى القضايا التى ناقشها بأمثلة تطبيقية ونماذج ملموسة ، تؤيد دعاواه ، وتؤكد اتجاهاته .

والبعد الثالث (وهو قريب من سابقه) : بعد عملى . قام فيه بعقد بعض المقارنات الأدبية ، التى قد لا تقل فى عمقها ودقتهـا عما تضطرب به ساحة الأبحاث المقارنة فى وقتنا الحاضر .

وسنعرض هنا بعض تلك الإسهامات إجمالا ، واضعين ما يدخل منها فى إطار البعدين : الأول والثانى تحت عنوان : « قضايا وتطبيقات » . أما مايقع فى دائرة البعد الثالث فسنقدمه بعنوان : « مقارنة عملية » .

وحرصا منا على تجلية موقفه تجلية كاملة فى كل ما تنـاوله من قضايا ، رأينا الالتزام بتعبيراته ، بقدر الإمكان ، مع الاستعانة بما قدمه من شواهد وأمثلة ، فإذا وجدنا أسلوبنا يتداخـــل مع أسلوبه ميزنا عباراته بعلامات تنصيص ، حتى لو لم نشر إلى ذلك فى الهوامش .

قضايا وتطبيقات

١ - المصادر الأدبيـة :

من أبرز القضايا التى أثارها المازنى قضية الروافد الأدبية ، التى يتأثر بها الأدباء ولايخفى أنها قضية شغلت حيزا كبيرا فى ساحة الأدب المقارن(١)

---

(١) انظر دراسات المصادر فى :

Schmeling : Vergleichende Literaturwissenschaft, S.49ff

وانظر أيضا : محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ص ٣٤٢ ومابعدها ، ومحمـد عبد المنعم خفاجى : دراسات فى الأدب المقارن ٢/٩٧ وتاليتها ، وحسن جاد حسن، الأدب المقارن ص ١٤٨ ومابعدها .

وكان رأى المازنى فيها واضحا ومحددا ، لذلك نجد من الأفضل أن نفسح له المجال ليبسط لنا القول فيها من خلال عرضه الشيق ، الذى بدأه بسؤال يتجه إلى لبها وجوهرها.

قال المازنى : « ماهو الابتكار ؟ سؤال نحس بالحاجة إلى الإجابة عليه ، لما ركب الناس فى أمره من الخطأ ، ودخل عليهم فيه من الوهم ، حتى صاروا يفهمون من الابتكار أن يأتى المرء بشيء جديد ، لاصلة قربى له بالقديم ، ولا لحمة نسب بينه وبين الحاضر المكتنفه . فإذا قيل : فلان شاعر أو كاتب مبتكر ، توقع جمهـــور القراء ، وعامة الخواص منهم ، الذين لا قبل لهم — لسبب ما — بالتقصى فى البحث ، والتدقيق فى النظر ، أن يفجأهم الشاعر أو الكاتب بما يختلف عن كل ماقروه أو سمعوا به ، اختلاف الإنسان عن النبات ! وذهبوا يطالبون هذا الشاعر أو الكاتب بأن يكون كالعنكبوت ، لاينسج خيوط بيته إلا مما تؤتيه إياه أمعاؤه . ولكن الطبيعة مقتصدة غير مسرفة ، وهى لا تكترث للفظ نحته النـــاس وأرادوا أن يفهموا منه معنى يخالف قوانينها وسننها ، ولا يتسع له ضيق الحياة الفردية . وقصر الآجال الشخصية . فهى تأبى إلا أن تجعل أعظم الشعراء أكبرهم دينا » .

ويستطرد المازنى فى توضيح فكرته من خلال التشبيه والتمثيل، مستعينا فى ذلك بمـــا ذكره امرسون من تشبيه ظهور الشاعر فى قومه بالبطل فى المعركة ، « فكما أن البطل مدين لغيره من سابقيه ومعاصريه بكثير من العوامل التى تهيىء له النصر ، كذلك ليس على الشاعر أن يخلق مادته ، ويوجد من العدم بضاعته ، وإنما يلفى الطين مهيأ ، والحجر منحوتا ، والقاعدة مرصوصة فيشيد على هذه بذاك ، ويخرج لك مما وجد بناء ، ليست قيمته فى انقطاع النظائر ، بل فى مبلغ اتساع الأفق ، وبعد المدى والإحاطة » .

وكأنما يأبى المازنى — كعادته فى معظم الأحيان — أن يترك قارئه دون أن يهيىء له كل أسباب الاقتناع ، القـــائم على الحجة الملموسة ، والبرهان

المحسوس ، فعاد إلى التساؤل من جديد ، مولدا أدلته من خلال الإجابة :
« وماذا عساها كانت تكون حال الإنسان ، لو أنه كان على كل فرد أن يخلق مادته التي يستخدمها ؟ كانت إذن كل حياة تكون تجارب ، لا ينتفع بها أحد ، تضيع فيها الأعمار ، ولا تكون فيها عائدة على الفرد ولا على الجماعة ، ولكن الطبيعة ـ لحسن الحظ ـ تأبى هذه الفردية الضيقة وترفضها ، ولا تسمح بالعظمة للفرد إلا مستخلصة من قوى الجماعة ، وقائمة على جهودها »(١) .

ولم ينس المازنى أن يقدم لنا نموذجا تطبيقيا للتأثر الواعى المبدع ، ممثلا فى عمل أدبى معروف ، هو مسرحية « تاجر البندقية » لشكسبير .

ومع أن المسرحية معروفة فى المحيط العربى ، نجد من الأفضل أن نقدم لها تلخيصا موجزا ، يوضح الجوانب التى تناولها المازنى فيها :

نبيلة من بلمونت بإيطاليا ، تسمى پورتيا . مات عنها أبوها ، وكانت ذات مال وجمال وعقل ، فتقدم لخطبتها عدد من الأمراء والنبلاء ، من بينهم أمير مراكشى ، وأمير أراجون بأسبانيا ، لكنها وجدت من نفسها ميلا إلى شاب فقير من بنى جنسها ، اسمه باسانيو ، استدان المال الذى قدمه إليها من تاجر صديق له من البندقية ، يدعى أنطونيو . وكان هذا بدوره ـ نظرا لتأخر سفنه التجارية فى البحر ـ قد اقترض ذلك المال من مراب يهودى ، يبادله الكراهية ، اسمه شيلوك ، اشترط عليه ، إذا تأخر عن سداد الدين فى موعده أن يأخذ فى نظيره رطل لحم من جسده .

واستخارت الفتاة الله فى مستقبلها . وناطت أمر زواجها ـ حسب وصية والدها ـ بثلاثة صناديق : ذهبى ، وفضى ، ورصاصى ، جعلت فى الأول رسم جمجمة ميت ، وفى الثانى رسم مهرج أبله ، وفى الثالث رسمها ، على أن

---

(١) المازنى : حصاد الهشيم ط ١ ، المطبعة العصرية ص ٢٨ ومابعدها .

تتزوج هي من يوفقه الله إلى اختيار الصندوق الذي به رسمها . وكما هو متوقع ألهم الله حبيبها الصواب .

وحل موعد سداد الدين ، دون أن تصل السفن ، وأصر المرابي على تنفيذ شرطه ، فاحتالت الزوجة لإنقاذ صديق زوجها ، وذلك بأن تنكرت في زي محام . وأفتت في جلسة المحاكمة بأنه لا مفر من تنفيذ العقد ، مادام شيلوك يصر على تنفيذه ، ولكن حين رفع اليهودي سكينه ليهوى بها في صدر غريمه أفهمته أن عليه أن يقطع رطل اللحم دون إراقة قطرة واحدة من الدم ، لأن العقد لم يتضمن أي قدر من الدم . حينئذ تراجع شيلوك عن إصراره ، فأشارت بأن يطبق عليه قانون البندقية ، فيمن يحاولون الإضرار بأهلها ، وذلك بتسليم نصف ثروته لغريمه والنصف الآخر للدولة . لكن أنطونيو تنازل عن نصيبه لليهودي ، في مقابل أن يتنصر هذا ، وأن يترك ثروته بعد وفاته لابنته جيسيكا ، التي كان قد حرمها من ثروته لأنها هربت ببعض أمواله لتتزوج من حبيبها المسيحي لورنزو .

وحين أراد باسانيو أن يكافىء المحامي الشاب ، الذي أدار القضية ، لم يكن يدري أنه سيكافىء زوجته المتنكرة في زي المحاماة ، والتي أصرت أن تكون مكافأتها خاتما في يده ، كانت قد أهدته إياه عقب خطبتهما ، وطلبت منه آنذاك ألا يخلعه من يده ولا يفرط فيه ، لكنها الآن ـ بوصفها المحامي الذي أنقذ صديقه من الموت ـ تصر على أن يكون الخاتم مكافأتها ، فلم يجد بدا من إهدائها إياه ، وهو لا يدري أن هديته كانت لزوجته[1] .

وكان خليل مطران قد ترجم المسرحية إلى اللغـــة العربية ، وقدم لها بمقدمة ، ضمنها القول بأن المسرحية مصدرها إيطاليا .

والتقط المازني خيط الحديث ، ليعبر عن رأيه في القضية ، منطلقا في ذلك من رأي مطران هذا وما قاله دارسو شكسبير وشارحو مسرحيته .

---

(١) انظر :

Shakespeare : The Merchant of Venice , retold by Wyatt & Fullerton, PP. 1

قال المازنى : « صـــدق الأستاذ المترجم ، فإن مصدر القصة إيطاليا . ولكنها لم تكن قصة واحدة ، كما جعلها شكسبير ، بل عـــدة قصص ، جمع شتاتها ، وألف بينها من خمسة مصادر ، على مايظن الشراح . أولها : جستارو مانورام وهى مجموعة حكايات باللاتينية . وفيها قصة الضمان ، ورطل اللحم ، والتصول من شرط الضمان بنفس الحيلة . وثانيها : آل بيكورونى . وهى كالأولى طائفة من القصص ، وردت فيها – فضلا عن حكاية الضمان – حادثة تبادل الخواتم . وثالثها : الخطيب لسلفين . وفيه فصل عن يهودى ، يريد فى مقابلة دينه رطلا من لحم رجل مسيحى . ورابعها : قصة جرنوتوس يهودى البندقية . وفيها – زيادة على ماسبق – أن اليهودى يشحذ سكينه ، استعدادا لقطع رطل اللحم . وخامسها : يهودى مالطة لمارلو . وفيها نظير لعلاقة لورنزو المسيحى وجسكا اليهودية . وذلك أن براباس اليهودى فى رواية مارلو له ابنة تحب مسيحيا وتتنصر لأجله . ومن المعروف أن مارلو كان له تأثير كبير فى صدر حياة شكسبير . هذا إلى مصادر أخرى عديدة ، لا يعقل أن يكون شكسبير قد أطلع عليها » .

وواضح أن المازنى – بكثرة استطراداته وتفريعاته ، ثم بعرضه للمصادر التى رجح الباحثون أن شكسبير قد اعتمد عليها فى مسرحيته كان يهدف من وراء ذلك إلى وضع قضية المصادر الأدبية فى بؤرة الضوء ، وتجليتها تجلية كاملة ، كى يبعد عن بعض الأذهان ما قد يتسرب إليها من فهم خاطىء ، ينحرف بها عن مجراها الصحيح .

ومن هنا عاد إلى الاستطراد مرة أخرى ، بقوله : « ومهما يكن من الأمر ، فإن الثابت الذى لامجاز إلى الشك فيه ، هو أن شكسبير لم يخلق حكايته . ولكن ماقيمة هذا ؟ وكيف يغض من قدر الشاعر ويطامن من منزلته التى تبوأها وحده ؟ إن القصص والحكايات التى تصلح للروايات التمثيلية لا يأخذها حصر ولا ينالها حساب . وهى كالحجارة ملقاة فى طريقنا جميعا . ولكن ،

ليس كل أحد بمستطيع أن يخرج من إحداها رواية كتاجر البندقية . فإن كان أحد يشك فى ذلك فما عليه إلا أن يجرب ؟ هذا أصل القصة موجود فى أكثر من كتاب واحد ، وتلك رواية شكسبير قريبة المنال، من شاء فليأخذ هذه وتلك ، وليضع هو رواية مثلها، ليقيس عجزه إلى قدرة شكسبير وعبقريته ! »[1] .

ونترك كلام المازنى هنا بلا تعليق ، لأنه - فى رأينا - من أوضح ما قيل فى اللغة العربية حتى الآن عن قضية المصادر الأدبية ، وتأثر الأدباء بغيرهم، ولا شك أنه يشدنا بقوة إلى ما قاله بول ڤاليري حول نفس القضية ، فى استعارة أنيقة : « ما الليث إلا عدة خراف مهضومة»، وما قاله جيته لصديقه إكرمان ، حين جاءه هذا ليهنئه بصدور طبعة جديدة كاملة من مؤلفاته ، فأخذ جيته يسرد له مصادرها المتعددة من مختلف الآداب ، ثم أردف : « كل هذا موقع عليه باسم جيته »[2] .

فقط نريد أن نعود إلى كلام المازنى ، لنستخلص منه المنطلقات الأساسية، التى تمثل رأيه فى القضية ، وهى :

أولا : أن التأثير والتأثر متبادلان - بصفة مستمرة - بين الأدباء والآداب، وعلى نحو ليس من السهل إنكاره أو تجاهله .

ثانيا : أن التأثر الواعى المبدع ليس عيبا ، بل هو عمل مشروع ، يثرى الآداب وينميها ، ويتفق مع سنن الطبيعة التى تجعل أعظم الأدباء أكبرهم دينا .

ثالثا : أن العبقرية لا تعنى خلق المادة من العدم ، بل تعنى حسن الانتفاع بما هو متاح ، والقدرة على تشكيله بصورة أفضل ، وبث روح الحياة فيه .

---

(١) حصاد الهشيم ط ١ ص ٣٥ وتاليتها .

(٢) انظر : محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ص ١٧ وتاليتها ، ص ٣٤٩ وتاليتها .

غير أننا نلاحظ أن النموذج التطبيقى ، الذى اختاره المازنى لشرح تصوره عن قضية المصادر الأدبية ، وهو مسرحية « تاجر البندقية » ، قد تحقق فية اختلاف اللغتين بين الأدبين مجال المقارنة ، فالمسرحية انجليزية ، ومعظم مصادرها إيطالية ،

ومن الواضح أن هذا لا يتعارض مع كلامه الذى سبقت الإشارة إليه فى مخطوطته والذى يفهم منه أنه لم يكن يشترط اختلاف اللغتين فى المقارنة ، بل يفسح مجالها ، لتشمل مايقع داخل أدب واحد ، وما يكون بين أدبين مختلفى اللغة .

لكن اختياره لنموذج بذلك القيد قد يحرك فى الخاطر تصورا باحتمال أن يكون قد بدأ ، خلال الفترة ما بين كتابته المخطوطة وكتابته لمقاله عن « تاجر البندقية » ، وهى حوالى خمس سنوات[1] ، يوائم فكره مع فكر الاتجاه الفرنسى المحافظ ، الذى يجعل اختلاف اللغتين أساسا من أسس المقارنة ، خاصة أن معالم ذلك الاتجاه كانت قد بدأت تتضح فى تلك الأثناء .

٢ ـ النماذج البشرية :

ثم ننتقل إلى قضية أخرى ، لها صدى كبير فى الدراسات الأدبية المقارنة ، وحظيت بنصيب من اهتمام المازنى ، وشغلت جانبا من تفكيره ، وهى قضية النماذج البشرية فى العمل الأدبى .

ذلك أن مطران فى مقدمة ترجمته لمسرحية « تاجر البندقية » كان قد أبدى كذلك رأيا عن جوانب إبداع شكسبير فى تصويره لأبطالها . ورأى المازنى

---

(١) يرجع تاريخ كتابة المخطوطة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلى عام ١٩١٨ ، بينما نشر الجزء الأول من مقال « تاجر البندقية » بصحيفة « الأخبار » عام ١٩٢٣ . انظر فهرس حماد الهشيم ط ١ .

أن ماذكره مطران لايكفي لتوضيح مدى عبقرية شكسبير في رسم تلك الشخصيات ، فعقب على رأي مطران تعقيبا تضمن وجهتي نظرهما معاً ، جاء فيه : « وليس فضل شكسبير ومزيته في أنه مامن خصلة من خصال الخير والشر إلا أحسن تصويرها ، أو كما يقول الأستاذ المترجم : (تجد الطمع فتقول : لا يصور بأدق من هذا . تجد الجبن فتقول : لو تمثل رجلا لكان هذا . تلمح الحقد فتقول : كأنني بفلان وفلان وفلان . وقد كشف كل عن جزء من الحقد الذي في قلبه ، فاجتمع من الثلاثة الأجزاء هذا النوع التام من الحقد ، بل النوع الأتم ، وهكذا الحكم في كل ما تصدى شكسبير لإظهاره بمظهره البشري) . نقول : ليس الأمر كذلك ، لأن النفس الإنسانية ليست خزانة ، مرصوفة فيها الفضائل والرذائل ، أو الصفات ، كما ترصف الكتب ، بحيث تستطيع أن تنتزع إحداها من بين أخواتها ثم تصورها ، كأنها شيء قائم بذاته ، لا صلة بينه وبين أخواته . وإنما النفس ميـــدان لتنازع الغرائز والعواطف . والمزية كل المزية في رسم الخلق الحادث من تفاعل هذه الغرائز والعواطف والصفات ومؤثرات البيئة والنشأة »[1] .

ويتضح من الفقرة السابقة أن المازني كان يحبذ في النموذج البشري أن يكون ممثلا للإنسان بكل قسماته ومقوماته ، وتجاعيده وأخاديده ، ودوافعه ونوازعه . بحيث لا تكون الشخصية بناء قائما على جدار واحد ، أو كيانا مرتكزا على ساق واحدة . ذلك أن الإنسان ليس بعدا بسيطا مجردا ، أو خطا مستقيما مفردا ، وإنما هو تركيبة معقدة متشابكة ، تمتزج فيه دوافع الخير بنوازع الشر ، ومكونات الإحسان بعناصر الإساءة : قناعة وطمع شجاعة وجبن ، صفاء وحقد ... إلى غير ذلك من طبائع الإنسان وغرائزه التي غرسها الله فيه . وهـــذا يتفق مع ما تنادي به الدراسات المعاصرة

---

(١) حصاد الهشيم ط ١ ص ٢٦ وتاليتها .

للنماذج البشرية[1] .

وقد ضرب المازنى مثلا للنموذج البشرى ، الذى أجيد رسمه فنيا بشخصية شيلوك فى مسرحيه « تاجر البندقية » وحدد ملامح تلك الشخصية على نحو يمكن إجماله فيما يلى :

أوربا العصور الوسطى ، عصور الظلام والتعصب .

أقليات يهودية ، مشحونة بنزعات عنصرية مستنكرة ، ونعرات عرقية ودينية غير مفهومة ، وأغلبيات مسيحية ، فى حوزتها وسائل التفوق والسلطة ، وقلوب الفريقين مفعمة بأحقاد متبادلة ، تكونت على مر السنين .

عاش شيلوك فى أتون ذلك التعصب ، فناله ـ بحكم انتمائه إلى الأقلية اليهودية ما نال أبناء طائفته من بطش الأغلبية القوية وتجبرها : ضرب وتعذيب ، وطرد وتشريد ، وسب وامتهان . فضلا عن الحرمان من مزاولة الأعمال الكريمة ، والمهن الرفيعة .

تعاونت كل هذه العوامل النفسية ، والدينية ، والاجتماعية فى تشكيل شخصيته وصياغتها ، فجاءت نسيجا غريبا ، يموج بانفعالات شتى . فهو ليس شخصية مسطحة ، ذات بعد واحد ، بل شخصية مركبة ، متشابكة العواطف ، متشعبة الأبعاد : خوف وقلق ومداراة ـ شعور بالضعة والهوان ـ حقد وتربص ورغبة فى الانتقام ـ فقدان للثقة حتى بأقرب الناس ـ حرمان من الطمأنينة والراحة النفسية ـ حرص شديد على المال وجشع إليه ـ ولع قوى بالاسترباء وتجارة المال .

---

(١) انظر : محمد غنيمى هلال : النماذج الإنسانية ص ٥ وما بعدها ، ومحمد عبد المنعم خفاجى : المرجع السابق ٢/٨٠ وما بعدها ، وحسن جاد حسن : المرجع السابق ص ١٨٣ وما بعدها ، ومحمد مندور : نماذج بشرية ، مقدمة ملك عبد العزيز ص ٩ وما بعدها .

وفى ضوء هذا كله يمكن أن تفهم تصرفات شيلوك ومواقفه :

فهو مثلا - لخوفه - يوصى ابنته بأن تحكم إيصاد الأبواب والنوافذ ، التى يسميها « آذان بيته » ، ويحذرها - كذلك - أن تطل من الكوة .

وهو - لعدم ثقته بأحد ، وتوقعه الغدر حتى من أقرب الناس إليه - يخشى أن يكون بينها وبين خادمه لانسلوت اتفاق أو مؤامرة .

وهو - لشدة جشعه وحرصه على المال - لايخفى تفضيله المال على ابنته ، حين علم أنها هربت بالمال ، فراح يصيح : وابنتاه ! فرت مع نصرانى ! وادنانيرى المتنصرة ! ليت ابنتى ميتة عند قدمى وفى أذنيها الماستان .

وهو - لإحساسه بالظلم - لايكتم تعطشه إلى الانتقام « حين سأله باسانيو : وماذا تفيد بضعة من لحم أنطونيو ؟ فأجابه بقوله : اتخذ منها طعما للسمك . وحسبى بها قوتا لغيل انتقامى ، إذا لم تصلح لشىء آخر !

« وهو - ككل الضعفاء المضطهدين - إذا تمكن طغى ولم يرحم . ومن هنا كان رفضه مرة بعد أخرى أن ينزل عن رطل اللحم وأن يأخذ دينه مضاعفا أو مثله أضعافا كثيرة .

ولكن شيلوخ ليس بوحش . . . وليس بغضه للنصارى شخصيا . بل العامل فيه جنسى . ومظالم الفرد عنده متسربة فى مظالم الجنس كله .

ومع استهوالك أن يذهب شيلوخ إلى المحكمة مستعدا بسكينه وميزانه ، واستبشاعك شحذه السكين على نعله ، كأنما تجرد من كل إحساس بشرى ، مع كل هذا ، وعلى الرغم منه ، تحس - إذ تنهار قضيته ، ويخرج من المحكمة مصادرة كل أمواله - كأن الرجل مظلوم ! »[1] .

---

(١) حصاد الهشيم ط ١ ص ٣٧ وما بعدها .

٣ – ترجمة الأعمال الأدبية :

ومن القضايا التي ناقشها المازني أيضا قضية ترجمة الأعمال الأدبية من لغة أخرى . وهي قضية لها أهميتها في الدراسات الأدبية المقارنة ، بسبب ما يتركه العمل المترجم عادة من أثر في اللغة المنقول إليها . فهو من جهة - ينقل إليها فكر المؤلف وانطباعاته الذاتية والمكتسبة ، إلى جانب طريقته في العرض والتصوير . كما أنه - من جهة أخرى - يكشف عن قدرات المترجم وإمكاناته على هضم النص المترجم واستيعابه ، وعن مدى فهمه لمؤلف النص ومعرفة دلالاته وإيحاءاته(١) .

غير أن المازني تناول القضية هنا في إطار محدد ، وهو ترجمة نصوص الشعر المسرحي إلى اللغة العربية ، عندما لاحظ أن الترجمة التي صاغها خليل مطران لمسرحية « تاجر البندقية » كانت ترجمة نثرية ، عدا بضعة عشر بيتا ، ترجمها شعرا ، بينما كانت صياغة شكسبير لنص المسرحية الأصلي صياغة شعرية ، سوى صفحات قليلة ، أجراها نـــثرا على ألسنة بعض أشخاصها لهدف معين . فوجد المازني في ذلك فرصة متاحة لمعالجة المسألة من أساسها ، بإبداء رأيه في الشكل الذي ينبغي اختياره لترجمة نصوص الشعر المسرحي .

وكان مما قاله في ذلك : « ونحن ممن يقولون بأنه يجب أن تكون هناك - إلى جانب الترجمة الشعرية - ترجمة حرفية . ونقول إلى جانب الترجمة الشعرية ، لأن النثر - وإن كان أدعى إلى الدقة في النقل ، وأعون على الاحتفاظ بما في الأصل - يجرد الرواية من مزية الشعر . وليست هذه بالضئيلة التي لا يقام لها وزن . ولو كان يستوى أن تقول الكلام نثرا أو شعرا لما نشأت

---

(١) انظر عن الترجمة الأدبية وعن كثير من قضاياها من الوجهة المقارنة : Schmeling : a . a . O., S. 125 ff . ، ومحمد غنيمي هـــلال : الأدب المقارن ص ١٢٥ ومابعدها ، وريمون طحان : الأدب المقارن والأدب العام ص ٢٠ ومابعدها .

الحاجة إلى الشعر ، بل لكان الشعر قيدا اختياريا لامعنى له ، ولامزية فيه .
ولكن الواقع أن الشعر فن قائم بذاته ، لم يخترعه الإنسان ، ولكن سيق إليه ، وتدفقت عواطفه - وهي الأصل في كل شعر - على أوزانه ، ونشأ مع الجنس الإنساني ، منذ صار الإنسان حيوانا اجتماعيا. فنقل الشعر من لغة إلى أخرى نثرا لاينفي وجوب ترجمته شعرا »(١) .

وكلام المازني هنا يوضح حرصه على أن يظل النص المترجم محتفظا - بعد الترجمة - بشكله الأصلي ، الذي صيغ به ، وقالبه الأساسي ، الذي صب فيه ، بقدر مايظل محتفظا بأفكار صاحبه التي أرادها ، ومضامينه التي عناها .

ولتحقيق ذلك في نص الشعر المسرحي رأى المازني أنه ينبغي أن توضع له ترجمتان : إحداهما نثرية ، الهدف منها ضمان الأمانة في نقـــل الفكرة والمضمون . والثانية شعرية . هدفها الحفاظ على شكل النص وقالبه.

لكن المازني توقف هنا عند نقطة هامة ، وهي مدى صلاحية الشعر العربي ببحوره التقليدية الخليلية لاستقبال الشعر المسرحي المترجم إليه من لغة أخرى . وعبر عن موقفه الحائر في صورة تساؤل ، هو : « ولكن ، كيف يكون ذلك في لغتنا العربية ؟ هذا هو الإشكال . وأي البحور تختار لشعر شكسبير وغيره من الروائيين ؟ » .

واقتضته الإجابة عن هذا التساؤل أن يقوم بعقد مقارنة بين طبيعة الشعر العربي والشعر الأوربي ، قصد من ورائها أن يدعم وجهة نظره ويقويها .
وجاء في مقارنته قوله : « إنهم يستخدمون في لغات الغرب الشعر المرسل ، وهو بحر سلس التدفق ، لايكاد القارىء يحس مقاطعه ، فضلا عن إطلاقه من قيد القافية . وبحور الشعر العربي أصلح ماتكون للشعر الغنائي ، أو مايطلقون عليه في الغرب لفظة (ليريك) . وهو لايصلح لحوار الروايات

(١) حصاد الهشيم ط ١ ص ٣٢ وتاليتها .

التمثيلية ، افرط غلبة الموسيقية عليه . والحوار التمثيلي أحوج مايكون إلى بحر لين ، لايظهر فيه التوقيع الموسيقي كما يظهر في سواه . أضف إلى ذلك أن البيت من الشعر في القصيدة العربية وحدة تامة في ذاتها ، قائمة بنفسها ، من حيث التأليف اللفظي وتعلق الكلام بعضه ببعض على معاني النحو . وليس يربطه بما قبله وبعده من الأبيات - إذا ربطه شيء - إلا المعنى . وليس كذلك البيت أو السطر في الشعر الغربي ، فهو هناك ليس بوحدة ، ولايجب فيه أن يكون مشتملا على جملة أو جمل تامة ، من حيث التأليف اللفظي . وكثيرا ما تستوعب الجملة الواحدة عدة أبيات أو أسطر متلاحقة . وإمكان مثل ذلك في الشعر العربي عسير إلى الآن . وواضح من موجز مابينا أن ترجمة شكسبير وأمثاله شعرا تستوجب اختراع بحر جديد ، شبيه بالوزن الأبيض - كما يسمونه - وتستدعي ألا يكون البيت أو السطر وحدة كما هو إلى الآن . ولم نشر إلى القافية ، لأن قيدها مما يسهل صدعه والتحرر منه : فليفكر معنا من يهمهم الأمر . وهو يعني كل أحد »(١) .

والواقع أن المقارنة التي عقدها المازني صحيحة . لكننا نختلف معه في الأحكام التي بناها عليها . وننطلق في ذلك من المنطلقات الآتية :

(ا) هناك مقولة مشهورة ، مؤداها أن كل ترجمة خيانة للأصل . ذلك يعني أن المترجم يحاول - قدر طاقته - أن يكون لصيقا بالنص الأصلي أو قريبا منه . لكنه - مهما بذل من جهد - لايكون هو الأصل . قد يكون دونه، وربما يكون فوقه ، لكنه لايكون « هو »(٢) . ومن ثم لانرى مبررا في ترجمة نصوص الشعر المسرحي أن نلزم المترجم بأن تكون ترجمته شعرية ، بل إن المنطق وطبيعة الأمور تقتضينا أن نترك له الخيار: بأن ينقلها

---

(١) نفس المصدر ص ٣٣ وتاليتها .

(٢) انظر : سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص ٥٠ ، وطه حسين : حافظ وشوقي ص ٤٥ وتاليتها ، وأحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ص ٢٤٦ .

شعرا ، إن كان يجيد الحبكة الشعرية ويملك أسبابها ، أو يترجمها نثرا ، طالما في إمكانه أن يتقمص روح المؤلف ، ويحلق في سمائه ، ويسطر بمداده . وفي هذه الحالة يمكننا أن ننظر إلى نزول المترجم بالنص من مرتبة الشعر إلى درجة النثر على أنه مظهر من مظاهر « خيانة الأصل » . ولعل هذا الذي نستشعره نحن من « خيانة للأصل » هو الذي دفع الجاحظ إلى القول بأن الشعر العربي « لا يستطاع ترجمته ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حول تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وسقط موضع التعجب ، كالكلام المنثور »[1].

(ب) إن دعوة أي مترجم إلى عمل ترجمتين لنص واحد دعوة غير عملية رغم وجاهتها من الناحية النظرية ، ذلك أن أي أديب حينما يتجه إلى عمل ما يهيء له نفسه تماما ، ويفرغ فيه كل طاقاته ومشاعره ، ويعايشه بفكره وخياله معايشة كاملة .

وقد يكون من دواعي الملل – بل ربما النفور – أن يرجع إليه بعد ذلك ، ليعيد كتابته . فإذا نحن طالبنا المترجم بالعودة إلى العمل شعرا بعد أن انتهى منه نثرا ، أو العكس ، فليس لنا إلا أن نتوقع منه أن يعود إليه بعاطفة فاترة ، وخيال شاحب ، وذهن كليل .

ومن هنا لا نؤيد الدعوة إلى ترجمتين للشعر المسرحي ، بل تكفي ترجمة واحدة ، شعرية أو نثرية ، يحاول المترجم فيها أن يحلق – كما ذكرنا – بجناحي المؤلف ، ويرى بعينيه ، ويشعر بأحاسيسه ، وينفعل بعواطفه .

(ح) الصعوبات التي ذكرها المازني عند التزام المترجم بالصيغة الشعرية داخلة في اعتبارنا . لكننا مقتنعون بأنها لا يمكن أن تقف حائلا أمام عبقرية المترجم الحق ، إذ على كل من يتصدى لعمل أن يكون كفءا له ، وألا يختار من الوسائل إلا ما يناسب طاقاته وإمكاناته . فإذا أراد مترجم أن يتقيد في ترجمته بالصيغة الشعرية ، فلابد أن يكون شاعرا ، خبير الشعر

---

(١) الجاحظ : الحيوان ١/٧٥ .

ومارسه، وراد دروبه ومسالكه، كي يستطيع أن يقترب بترجمته ـ قدر الإمكان ـ من النص.

(د) إذا كان المازني يقصد بغلبة الموسيقية على الشعر العربي التزام الشاعر بتساوي عدد التفعيلات في كل أبيات القصيدة، ويرى في ذلك قيداً يحد من قدرة الشاعر على النظم والصياغة، فنحن لا نؤيده في ذلك، لأن ما يطرأ على معظم التفعيلات من تغييرات عروضية، متمثلة في الزحافات والعلل، إلى جانب التجاوزات المسموح بها في ضرورات الشعر، كل هذا يتيح للشاعر ـ رغم تساوي عدد التفعيلات في أبيات القصيدة ـ قدرا لا بأس به من الحرية، يجنب إيقاعه الرتابة من جهة(١)، ويمنحه هو فرصة انتقاء الكلمات الموحية والعبارات المؤدية من جهة ثانية. وفضلا عن هذا، من المعروف أن وطأة هذا القيد لا تظهر في الشعر المسرحي قدر ما تبدو في شعر القصيدة، لأن شاعر المسرحية يستطيع أن يغير البحر والقافية، أو أيا منهما، عند الانتقال من مشهد إلى آخر، أو عند تغيير طرف الحوار، أو غير ذلك.

(هـ) أما أن البيت وحدة القصيدة العربية فلا ينبغي ـ كذلك ـ أن يقف سدا أمام الشعر المسرحي، لأن الالتزام به ليس عسيرا إلى هذا الحد المبالغ فيه. فقد تعود الشاعر العربي عليه حتى أصبح سليقة فيه. فضلا عن أنه يمكن التخفف منه في أي وقت، إذ أن عدم الالتزام به حتى في شعر القصيدة ليس سوى مجرد عيب. وأولى به ألا يتجاوز ذلك في الشعر المسرحي.

(و) وأما ما نادى به المازني من أن ترجمة شكسبير وأمثاله شعراً تستوجب اختراع بحر جديد، شبيه بالوزن الأبيض، وتستدعي ألا يكون

---

(١) انظر: محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ص ٤٧٠ وما بعدها.

البيت أو السطر - كما هو إلى الآن - وحدة العمل الشعرى، فهذا رأى لا نرفضه ولكننا لا نقبله بصورته هذه .

إن أوزان الشعر العربي معروفة ، ولها قواعدها وأصولها التى ينبغى أن نعتز بها ، ونحرص عليها . وليس من المنطق أن نرغم لغتنا على أن تتقبل بحرا جديدا ، نخترعه لها هكذا جبرا وقسرا ، لمجرد أننا نريد أن نترجم إليها شكسبير أو غير شكسبير .

لكننا نقول: إذا جاء هذا البحر عفوا ، وبلا تعمل أو افتعال، ومتجاوبا مع ذوق الشعر العربى وطبيعته ، فرحبا به .

إننا لا نرفض التجديد أو التطوير . ولكننا على اقتناع كامل بأن التجديد إذا لم يقم على أساس من الأصالة ، كان بناء هشا ، مهتز الدعائم .

(ز) إن لكل لغة طبيعتها وذوقها ، ولها طرائقها وأساليبها فى نظم الشعر وصياغته . وهى تصف الكلام بأنه شعر أو نثر متى تحققت فيه سمات معينة ، تعترف هى بها حسب قواعد تكونت فيها خلال مسيرتها عبر الأجيال. ولا يمكن لأية لغة أن تلتزم بقواعد من خارجها إلا إذا طوعت تلك القواعد لطبيعتها ، وإلا كانت كخلية يراد لهـــا أن تلتحم فى نسيج من غير فصيلتها .

(ح) إن الشعر العربى تغلب عليه الموسيقية ، واشتهر بوحدة البيت . هذه طبيعته[1] .

والشعر الأوربى أقل منه موسيقية ، وعرف بوحدة القصيدة . هذه أيضا طبيعته .

وكما طوع الشعر الأوربى لغة الحوار لطبيعته ، ينبغى على الشعر العربى

(١) ما أصدق من شبه استقلال البيت الشعرى فيما يحمل من معنى باستقلال الجملة النثرية فيما تؤديه كذلك من معنى . فلماذا يعاب فى الشعر ماليس عيبا فى النثر ؟ انظر : محمد نايل : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٦٣ ومابعدها .

أن يطوعها لطبيعته كذلك . ولا نعتقد أننا مغالون إذا قلنا إن الشعر العربي قد نجح في ذلك إلى حد كبير . ولكن ، لعل للمازني عذره فيما ذهب إليه ، لأن التجارب القليلة الرائدة من شعر المسرح العربي التي زامنت مقاله هذا لم تكن تبشر بقدرة الشعر العربي على تطويع نفسه للنصوص المسرحية ، لكن الأعمال الناضجة ، التي أعقبتها أثبتت ذلك[1] .

٤ — الأدب ومجالات التعبير الإنساني :

وهناك قضية أخرى ، نالت قسطا من اهتمام المازني ، وشغلت قدرا من تفكيره ، وهي قضية العلاقة بين الأدب وغيره من ألوان الفنون والمعارف . فقد درس — على سبيل المثال — العلاقة بين الشعر وكل من فني التصوير والموسيقى ، سواء أكانت علاقة إيجاب أم سلب ، يعني علاقة تشابه أم تضاد ، وتناولها من عدة زوايا ، وبذلك يكون قد سبق بعض التيارات الحديثة في الدراسات الأدبية المقارنة ، تلك التي تنادي بألا يقتصر دور الأدب المقارن على دراسة العلاقة داخل الآداب ، بل ينبغي أن يضاف إليها دراسة العلاقة بين الأدب وغيره من مجالات التعبير الإنساني المختلفة : كالموسيقى ، والتاريخ ، والفلك ، وعلم الأديان ، وغيرها .

وسنعرض هنا لمقارنة المازني بين هذه الفنون الثلاثة ، بادئين بحديثه عن الشعر والتصوير ، ومثنين بحديثه عن الشعر والتصوير والموسيقى مع حرصنا — لنفس السبب الذي ذكرناه آنفا — على استعمال أسلوبه وعباراته ، والتزامنا بما اختاره من أمثلة وشواهد .

---

(١) توالى ظهور مسرحيات شوقي الناجحة في تاريخ لاحق على كتابة المازني لمقاله ، مع خلاف بين الباحثين في تحديد تواريخ ظهور الطبعات الأولى لأقدم مسرحياته . أما ماقبل مسرح شوقي من مسرحيات شعرية فلم يكن على درجة كبيرة من النضج . انظر : يعقوب لانداو : في المسرح والسينما عند العرب ص ٤٠٥ ومابعدها ، وأحمد هيكل : الأدب القصصي والمسرحي في مصر ص ٣٠٣ .

أولا : الشعر والتصوير :

تناول المازنى العلاقة بين الشعر والتصوير من الزوايا الآتية :

(ا) تصوير الحركة والسكون :

يرى المازنى أن التصوير حين يعالج منظرا لا يستطيع أن ينقل منه إلا لحظة زمنية معينة ، وحين يتلقاه المشاهد ببصره يتلقاه دفعة واحدة ، لا على التعاقب .

أما الشعر فيمكنه أن ينقل ما يكون فى المنظر من حركات متتالية ، يتلقاها السامع تدريجيا ، حسب قدرة اللغة على نقل الحركات وتواليها . أى أن التصوير - حسب تعبير المازنى - له لحظة فى الفضاء ، بينما للشعر لحظات فى الزمن .

ومن هنا كان الشعر أقدر من التصوير على نقل التتابع الحركى فى أبيات ابن الرومى الشهيرة :

ماأنس لا أنس خبازا مررت به	يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتهـــا فى كفه كرة	وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة	فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

إذ لو أراد مصور أن ينقل إلينا مثل هذه الحركات المتتابعة فى دحو الخباز للرقاقة، وفى تتابع دوائر الماء بعد إلقاء حجر فيه ، لوجد نفسه مضطرا إلى تقديم أكثر من لوحة . وفى هذه الحالة لا يكون قد صنع شيئا ، لأنه لن يرى لنا رؤية ذلك كله فى لوحة واحدة ، كما فعل ابن الرومى بأبياته الثلاثة . « وإنما كان هذا هكذا لأن الشاعر يسعه أن يتدرج ، وأن ينتقل من وصف حركة إلى وصف أخرى وثالثة » . وإذا كان لا يسعه أن يفعل ذلك بمثل السرعة التى تتوالى بها الحركات ، فليس على القارىء أو السامع حينئذ إلا أن يتسامح قليلا ، وأن يغتفر ذلك البطء الذى فى طبيعة اللغة ، التى هى أداة

الشاعر . وليس الأمر كذلك بالنسبة للتصوير ، إذ أن البطء فيه يعد « جموداً غير مقبول ، ولا سبيل إلى احتماله أو اغتفاره ، لأن وظيفة التصوير أن يعطيك المنظر دفعة واحدة لا على أقساط ، وأن يمكنك – بنظرة واحدة – من أخذ جملة المنظر بكل مافيه من تفاصيل » .

فإذا أراد مصور – رغم كل هذا – أن يعبر عن الحركة فى منظره ، فعليه أن يبحث عن وسيلة تساعده على ذلك ، كالإيهام البصرى مثلا ، أى الإيحاء بلحظة عقب لحظة أخرى . وذلك بأن « يتخير أحفل اللحظات بالمعانى والدلائل ، وأنمها – إذا استطاع – على اللحظة التالية مباشرة ، وأدلها – إذا تيسر له هذا – على اللحظة السابقة . ولكن ، ليس له أن يطمع فى تصوير أكثر من لحظة واحدة ، أو رسم التعاقب الذى يقع فى الزمن . غير أنه يستطيع – بحسن تخيره وانتقائه للحظة الحافلة – أن يجمع بين لحظتين متعاقبتين متداخلتين فى الحقيقة » .

ومن هذا القبيل صورة رسمت لرجل يلف عمامة ، طربوشها موضوع على إحدى ركبتيه ، وكفاه على طيات العمامة[1] . فإن « الناظر إلى هذه الصورة يرى ، من وضع اليد اليمنى ، من أين جاءت فى لفها حول العمامة . ويكاد يحس أنها ستتحرك ماضية فى طريقها ، فالمصور هنا استطاع أن ينبئك عن الحركة التالية ، التى لم يرسمها »[2] .

(ب) نقل الأثر الوجدانى :

يرى المازنى أن التصوير ينقل المنظر فى جملته وتفاصيله[3] .

---

(١) شاهد المازنى هذه الصورة فى معرض أقيم بالقاهرة ، فكتب هذا عنها .

(٢) حصاد الهشيم ط ١ ص ١٤٧ وتاليتها ، ص ١٦٣ ومابعدها .

(٣) يقول إروين إدمان فى نفس المعنى : « ولاحاجة بنا إلى القول بأن عين المشاهد وانتباه الرسام ينبغى أن يتركزا على القيم التشكيلية البحتة ، وإلا أصبح فن الرسم لوناً تأثرياً من ألوان الشعر النظرى » . إروين إدمان : الفنون والإنسان ص ٦٠ .

أما الشعر فينقل وقعه النفسي وأثره الوجداني . ذلك يعني أن المصور «إنما يلقى إليك المنظر مجرداً من خوالج النفس ومن وقعه في الصدر». نعم ... قد يحرك المنظر المرسوم خالجة، أو عاطفة، أو إحساسا في قلبك. غير أن المصور لا يسعه أن يضمن المنظر إحساسه هو، أو يشير إليك كيف كان وقعه في نفسه، كما يستطيع أن يفعل الشاعر، لأن الشعر - بطبيعته - مجاله العاطفة.

خذ مثلا أبيات البحتري في وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق، يختال ضاحكا من الحسن، حتى كاد أن يتكلما

* * *

ورق نسيم الريح، حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما

فما يحبس الراح التي أنت خلها وما يمنع الأوتار أن تتكلما

فلم يحاول أن يرسم لك صورة، وإنما أفضى إليك بما أثاره الربيع من المعاني في نفسه . وبما حركه من طلب الإنشراح في عيد الطبيعة .

ولو أنك جئت بأبدع صورة مرسومة، ووضعتها إلى جانب هذا الكلام أو غيره مما يجري مجراه لما أغنت شيئا .

«لأن وظيفة المصور ليست أن يؤدي إليك التأثير، بل أن يدع الصورة تؤثر بذاتها، وبما تنطق به، دون أن يعالج أداء الأثر الذي تحدثه».

«ولكن، ليس معنى ذلك أن تمثيل الطبيعة تمثيلا لا يتجاوز مجرد النقل دون زيادة أو نقص، هو كل ما يطلب من التصوير فمن المسلم به أن إثبات صورة الشيء ليس عملا فنيا، وإنما يصبح كذلك إذا كان الإثبات بحيث يبرز صفة الشيء، ويؤكد مميزاته، وينفث فيه روحا»(١).

---

(١) وهذا المعنى أكده أيضا إروين إدمان بقوله : «والرسام لا يحاول محاكاة الطبيعة محاكاة منقادة مستسلمة . ولا هو يحاول - كالمنطقيين - إعطاء صورة مطابقة للواقع . فالمهم هو الواقع الجمالي، أعني الوضوح الحسي واللذة التشكيلية للحظة ما من لحظات رؤية الفنان كما يجسمها بالحجر أو في اللوحة» . إروين إدمان : المرجع السابق ص ٦١ .

فإذا أراد مصور أن ينقل إليك بعض خوالجه النفسية ، فعليه أن يجد وسيلة تعينه على ذلك ، كالإيحاء الفنى ، أو ما يسمى بالرمز . وذلك بألا يعمد إلى نقل منظر الطبيعة كما هو فى الحقيقة ، بل يستعين بالخيال ، ويستوحى الوجدان ، ويقدم لك فى اللوحة لا منظرا ، بل رمزا يشير به إلى ما يفهمه منه . « وبعبارة أخرى مختزلة ، يرفع لعينيك صورة رمزية ، ليس فيها نقل عن مشاهد الطبيعة ، بل عن الحقائق الروحية المركزية الخالدة ، التى يحوم ويلوب حولها الأدب والفلسفة أيضا ، ولكن من ناحية أخرى ، وبأسلوب آخر ، أى تصوير الفكرة » .

وإليك مثالا واضحا لذلك فى لوحة لرسام شهير تحمل اسم « الفجر » ؛ حيث لم يعمد فيها إلى رسم ما يمكن أن تقع عليه العين من عناصر ذلك المشهد الجميل المألوفة والمعروفة ، بل اتجه إلى تمثيل « معنى الفجر » بأسلوب آخر ، وعلى نحو مختلف . فرسم « شيئا كالرباوة المعشوشبة ، وقفت عليها امرأة .. وشعرها متهدل مرسل ، يعبث به النسيم الندى . وهى كالذى يتمطى من سبات . وقد منحتك ظهرها .. وانصرفت بوجهها وصدرها إلى الحياة التى يتنفس فجرها ، ولا تزال نجومها طالعة . وعند قدميها طائر ناشر جناحيه ، ينفض عنه الطلل ، ويوقظ روحه ويعدها للحياة »[1] .

(جـ) مجال المذهب الانطباعى :

ومن هذا المنطلق ، وهو أن التصوير يتجه ـ أساسا ـ إلى نقل المنظر أكثر من اتجاهه إلى التعبير عن أحاسيس الشاعر وانطباعاته ، قرر المازنى أن الانطباعية ، أو الإمبرشنزم ـ كما أسماها ـ لا تتلاءم مع التصوير . وذكر لذلك سببين . أولهما : أنها تقحم على التصوير ما ليس فى إمكاناته ، وهو نقل الوقع النفسى تجاه المنظر ، والإحساس الذاتى به . وثانيهما : أنها تبتعد به عن مجاله

---

(١) حصاد الهشيم ط ١ ص ١٤٥ وما بعدها ، ١٦٠ ، ١٦٨ وما بعدها .

الأصلي ، الذي يتمثل في نقل المنظر وتحديده[1] .

ومع أن المازني لم يتحدث عن علاقة المذهب الانطباعي بالشعر ، لكنه ترك كلامه يوحي بأن هذا المذهب يجد له مجالا واسعا فيه ، على أساس أن إمكانات الشعر تتلاءم مع القاعدة الفنية التي ينطلق منها هذا المذهب ، وهي أن مهمة الفنان الحقيقية ليست تصوير الحقيقة الموضوعية ، بل نقل انطباعات بصره وعقله عنها إلى المتلقي[2] .

ولعل هذا هو السر فيما ذهب إليه المازني من أن الشعر – حتى لو كان شعرا جيدا – إذا اتجه إلى مجرد نقل المنظر ورسمه ، يكون قد ضيق على نفسه في مجاله الأساسي ، وتعدى على مجال لم يهيأ له أصلا ، وهو مجال التصوير .

ومن الأمثلة التي اختارها المازني لتوضيح ذلك أبيات أبي تمام الشهيرة في وصف روضة :

يا صاحبي تقصيا نظريكما
ترياوجوه الأرض ، كيف تصور
تريا نهارا مشمسا ، قد زانه
زهر الربى ، فكأنما هو مقمر

* * *

وجاء في تعليقه عليها أن « الأبيات في حد ذاتها ، وبالقياس إلى أمثالها

---

(١) « وفي الواقع أن هناك بعض غلاة النقد المعاصرين ، الذين يتشبثون بالرسم بأن يكون فنا خاليا من تمثيل الأشياء ، أيا كانت ، ويكون الانتباه فيه محصورا فيما يكون أمام العين بصفة مباشرة ، إذ أنه لن يكون هناك شيء يشتت الانتباه والخيال » إروين إدمان : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) أفاد كثير من الأدباء من أسس المذهب الانطباعي في الرسم . ولكن المذهب لم يتطور في الأدب بصورة كافية . انظر مادة :

Meßers kleines Lexikon Impressionismus

عما فى الشعر حسنة جميلة . ولكنها – من حيث القدرة على تصوير المنظار للقارىء وإحضاره إلى ذهنه – ليست إلا مظهرا للفشل التام والعجز البين ، اللذين يمنى بهما من يريد أن يتخذ من القلم ريشة كريشة المصور » ، ذلك « أن اللغة عاجزة عن أن ترسم لك جملة المنظر الذى تأخذه عينك حين تقع عليه » .

ومع أن المازنى أثنى على الأبيات فى تعليقه نرى أنه لم يوفها حقها ، بل ربما نقول جانبه التوفيق فى اختيارها نموذجا للشعر الذى يتجه إلى نقل المنظار دون التعبير عن أثره النفسى . انظر إلى قول البحترى فى نفس الأبيات :

دنيا معاش للورى ، حتى إذا — حل الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها — نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى — فكأنها عين إليك تحدر

ألا تنطق هذه الأبيات بحرارة أنفاس الشاعر ؟ وتموج بحركة وجدانه؟ وتزخر بنبض عقله وقلبه ؟ إنها ليست مجرد نقل لمنظر ، بل فيها انفعال الشاعر معه ، وتعاطفه نحوه . وماذا يراد من شاعر أكثر من هذا؟

وربما كان النموذج التالى الذى اختاره المازنى من شعر بشار أدق من سابقه فى توضيح ما يريد ، حيث قرر أنه « من السخف أن يجور شاعر كبشار بن برد مثلا على مجال المصور ويقول :

بنت عشر وثلاث قسمت — بين غصن ، وكثيب ، وقمر

ويحاول بهذا الجمع بين هيف الغصن ، وضخامة الكثيب ، وبياض القمر أن يحدث صورة معقولة لها معنى ، أو من ورائها محصول ، أو لها دلالة سوى العجز المستبين ، والتقليد السمج ، إذ كان القمر مثلا ليس جميلا لأنه أبيض أو مستدير ، بل لأن لياليه شائقة ، ولذكراها نوطة فى القلب ، وعلوق بضمير

الفؤاد ، ولأن حسنها محرك للأشجان ، مثير للرغبات ، وكذلك الغصن ، ما أسخف أن يكون قد إنسان كقده ، وإنما يكون جميلا بما حوله من حاشية المعانى »(١) .

(د) إبراز عناصر الدمامة والسخر :

يرى المازنى أنه لما كانت الفنون قوامها الجمال ، بحسبانه صفة داخلة فى تركيب اسمها (الفنون الجميلة) ، وكانت الدمامة قبحا مثيرا للنفور ، كان الأصل عدم التقائهما ، أو عدم صلاحية الدمامة للمعالجة الفنية .

لكن الفن يجد طريقه إليها حين لا تكون مقصوده لذاتها ، بل لما يمكن أن تثيره فى النفس من أحاسيس أخرى تقترن بها وتصحبها ، كالسخر أو العطف ، أو الألم ، إذا اتسم الدميم بالضعف أو العجز ، وكالرعب والفزع إذا توافرت للدميم القدرة على الأذى . « ولهذا ترى الشعراء والمصورين ، الذين يدركون غايات فنيهما ، لا يطلبون الدمامة لذاتها ، وإنما يتخذونها سلما إلى تحريك الإحساسات المزاوجة ، مثال ذلك أن يضيفوا إليها تكلف الرشاقة ، أو تصنع الوقار ، أو مبالغة الدميم فى رأيه فى نفسه ، أو غير ذلك مما يخرج لنا صورة مضحكة . . ذلك أن الدمامة ليست إلا نقصا أو عدم استواء ، قد يكون باعثا على العطف . ولكن الروح قد تعوض ذلك وتسد النقص ، كما يسده العلم أو الفضل أو غيرهما ، ولكن إثارة الإحساس بالضحك لا تكون - فى الغالب - إلا من طريق الدمامة التى هى نقص ، إذا اتخذ دعوى كمال فتح الباب للسخرية » .

ومتى تهيأ للدمامة أن تصبح صالحة للتناول الفنى يكون الشعر أقدر على تناولها من التصوير ، بمعنى أنه يجد له فيها مجالا أرحب مما يجده التصوير ، وذلك لاعتبارات ناشئة عن نفس الاعتبارات سالفة الذكر :

(١) حصاد الهشيم ط ١ ص ١٦٥ وتاليتها ، ص ١٧٠ وما بعدها .

أولا : أنه لما كان السامع لا يتلقى الشعر دفعة واحدة ، بل يتلقاه بالتدريج ، من خلال السرد المتتابع ، فإن من شأن ذلك أن يضعف من حدة النفور الناشيء عن الدمامة . وليس الأمر كذلك فى التصوير ، إذ يتلقى المشاهد اللوحة بنظره دفعة واحدة ، فيكون أثرها المنفر أشد وأقوى ، تضعف بجانبه باقى الأحاسيس المصاحبة لها .

ثانيا : أنه لما كان الشعر يعتمد — أساساً — على نقل ما يصاحب المنظر من خلجات نفسية ، كان — بطبيعة الحال — أحكم وأدق فى نقل المشاعر الأخرى ، التى تثيرها الدمامة ، وتدفع إلى السخرية أو غيره .

ثالثا : لما كان الشعر أقدر على وصف الحركة فى المنظر ، كان — بالتالى — أقدر على تصوير الحركات المواكبة للدمامة ، والتى تساعد — أيضا — على إثارة ما يريده الشاعر من إحساسات مقترنة بها .

والشعر العربى حافل بالكثير من الشواهد التى تؤيد هذا وتدعمه . وهاك نموذجا لذلك من أبيات لابن الرومى ، ركب فيها أبا بكر الرقى بالسخرية :

لأبى بكر كلام واحد لا يتعدى
ضرب الله عليه دون لفظ الناس سدا

* * *

وإذا قال : رسول الله مد الصـــوت مدا
فهل سامى من القصاص أعمى ، يتجدى

فقد اتسعت الأبيات لاستيعاب أشياء لا يقدر التصوير على استيعابها ، ذلك أن الشعر « يسعه أن يفرق المجتمع ، وأن يتناوله شيئا بعد شيء ، وأن يضم إلى ما يتناول من مظاهره وجوها أخرى من المعانى والحركات لا تتأتى فى التصوير » .

بيد أن التصوير — مع هذا — يستطيع ، بخروجه بعض الشيء عن غايته أن

يعطينا لمحة من بعض هذه المعانى . ومن هنا نشأ التصوير الهزلى ، حتى صار فنا قائما بذاته مستقلا فى الحقيقة عن التصوير ، ذلك أن القواعد والأصول المتعلقة بالرسم ، والنسب الطبيعية ، والتلوين لا تراعى فيه . وإنما يكون هم المصور أن يبرز - إلى جانب الرسم الذى يريد أن يدلنـــا به على المرسوم صفة تحيل المنظر مضحكا »[1] .

(هـ) بث مشاعر الجلال :

يرى المازنى أن الشعر أقدر من التصوير على تحريك معانى الجلال ، التى يمكن أن تتفجر فى نفس الإنسان عند رؤية المشاهد الطبيعية الضخمة ، كالصحارى المترامية ، والقصور السامقة ، والمهاوى المنيفة . ذلك أن « الصورة - مهما كبرت وذهبت طولا وعرضا - محدودة السعة ، ضئيلة بالقياس إلى هذه المشاهد ، وترامى الأبعاد - لا تقاربها - هو الذى يثير معانى الجلال فى النفس ، وإن لم يكن وحده كل ما يبعثها .

والمصور مضطر أن يصغر المشهد حتى تضمه رقعة صغيرة . ومن شأن هذا أن يحول دون الإحساس بالجلال ، بخلاف الشعر ، فإنه يستطيع أن يحركه فى النفس إلى حد كبير » ، كما ترى فى قول مسلم بن الوليد فى فدفد قائظ ملتهب :

تمشى الرياح به حسرى مؤهلة
حيرى ، تلوذ بأكناف الجلاميد

فليس للتصوير قبل بتحريك معانى الجلال والرهبة ، التى تتعلق بأطراف ذلك المشهد وحواشيه ، وتكمن فى أعماقه وخوافيه[2] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٤ ، ١٧٩ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٣ وتاليتها .

(و) الغاية الاجتماعية :

قرر المازنى أن التصوير لايصل إلى مستوى الشعر فى خدمة الأغراض الاجتماعية . لكنه لايعدم وسيلة يتذرع بها للوصول إلى ذلك ، مثله فى ذلك مثل باقى العلوم والفنون . « وإذا كانت ريشة المصور لا تستطيع أن تجارى القلم فى إيضاح القوانين ، التى ينبغى أن تجرى على مقتضاها حالات المعيشة وأنظمة الاجتماع وغير ذلك ، فإنها تستطيع - ولا شك - أن تمثل - بما تسعه قدرتها - آلام الفقر وحنان المرزوئين به ، ونزوعهم إلى السعادة ، ومكافحتهم لقوى الطبيعة ونظام الاجتماع ، وتسامى نفوسهم ، وتعاليها عن الدرك الذى هم فيه إلى جو أرق وأجد ، وأحفل بمعانى الحياة الحقيقية . وبذلك تحرك فى نفوس النظارة العواطف ، التى تتولد منها الرغبة فى التغيير والنزوع إلى الإصلاح »[1] .

ثانيا : الشعر والتصوير والموسيقى :

فى مجال توضيح العلاقة بين هذه الفنون الثلاثة قرر المازنى أن الموسيقى (نشاط إنسانى) أداته صوتية ، بينما الشعر أداته لغوية .

ومع أن الأصوات أسبق فى تاريخ النشوء الإنسانى من اللغات ، فإن الموسيقى لاتصلح للتفاهم ،

وهى - بطبيعتها - أقرب إلى الشعر وأمس به رحما ، لأن كليهما معوله - فى الأساس - على عنصر الصوت ، كما أن وسيلة تلقيهما واحدة ، وهى السمع[2] ،

(١) نفس المصدر ص ١٥٩ .

(٢) حول العلاقة الصوتية بين الأدب عموما والموسيقى يقول إروين إدمان إن « الصوت يتنقل فى اتجاهين . وإن له معنيين مترادفين . فقد يكون مجرد وقع على الأذن مستساغ فى حد ذاته ، ولكن لامعنى له من ناحية الدلالة الواضحة . كما قد يكون أداة لنقل الأفكار ... فحين يصير الصوت أداة للدلالة ، فهذه هى اللغة ، التى تتحول فى الشعر

بخلاف التصوير ، الذى يكون وصوله إلى المتلقى من طريق المشاهدة بالبصر .

والموسيقى - كفن - تختلف عن التصوير فى أنها لاترسم لك المنظر ، ولكن تسمعك أصوات الحياة المميزة له فى جميع مظاهرها الممكنة .

وتفترق عن الشعر فى أنها لاتصف خوالج مؤلفها ، بل تطلق عليها من الأصوات مايحرك هذه الخوالج ، ويشعرك إياها بكل قوتها .

فإذا خطر لمؤلف موسيقى أن يؤلف مثلا قطعة موسيقية عن الفجر ، فإنه لايستطيع أن يرسمه على حقيقته ، كما يفعل المصور . كما لا يمكنه أن يحدثك عن الخوالج المتنوعة التى يحركها منظر الفجر فى النفس ، كما يصنع الشاعر . لكنه لن « يعجزه مثلا أن يسمعك من الأصوات مايذكرك به ، ويخطره ببالك ، ويجريه فى خيالك ، كأن يحكى لك حفيف النسيم الوانى البليل إذ يزيب مع الفجر ، ويوسوس فى آذان النبات والشجر ، وتغاريد العصافير التى تنبه فيها ساعته الغريزة المفردة ، وأغانى الرعاة ، الذين يستيقظون مع العصافير ، ويستولى على نفوسهم مثلها جماله وروعته ، فيحيونه بالغناء وبألحان المزامر . وبهذا وأشباه هذا ، يحضر إليك الموسيقى منظر الفجر ، بما ينتقيه من الأصوات المألوفة فى ساعته والتى من شأنها أن تذكرك به ، ويعرب لك من ناحية أخرى عن الخوالج التى يبعثها ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، يجمع فيها بين شىء من التصوير التخيلى وشىء من الشعر »[٢] .

ولعلنا نلاحظ أن المازنى حين مد مجال المقارنة خارج محيط الأدب ،

والنثر إلى فن . بيد أن الحواس السمعية الخاصة للغة قد تستقل وذلك الاستقلال هو الموسيقى ، التى لاتدل على شىء بالمفهوم المنطقى ، ولكنها من الناحية الجمالية ذات دلالة كبرى ، كما أنها تكون من الناحية العاطفية ذات وزن كبير .. » إروين إدمان : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢) حصاد الهشيم ط ١ ص ١٤٩ وما بعدها .

لتشمل - إلى جانبه - فنونا أخرى، كالتصوير والموسيقى، اقتصر على جانب واحد من جوانب المقارنة، وهو توضيح مجالات تميز أحد هذه الفنون على آخر أو تقصيره عنه. لكنه لم يتطرق إلى ما تطرق إليه بعض المقارنين المحدثين بعد ذلك، من النظر فيما يمكن أن يكون بين هذه الفنون، أو بين اثنين منها، من علاقات تداخل وامتزاج تؤدى فى النهاية إلى صياغة شكل فنى آخر، كأن يتداخل الأدب والموسيقى معا، فتتكون منهما أوبرا، أو الأدب والتاريخ، فتنتج رواية أو مسرحية تاريخية، أو الأدب وعلم الفلك، فتتولد إحدى روايات الفضاء، أو الأدب ومعتقد دينى، فتنشأ أسطورة أو ملحمة أو قصة دينية .. إلى غير ذلك(١).

وإذا جاز لنا - بعد هذا العرض السريع - أن نخلص إلى صورة عامة لأهم القضايا، التى اقتحم بها المازنى نطاق الدراسات المقارنة، رغم أنه لم يضع «المقارنة» عنوانا لها، ولم ينسبها إليها، فإننا سنصل إلى صورة تتألف عناصرها من القضايا التالية، التى قام بمعالجتها معالجة تدخل فى صميم المنهج.

١ - المصادر الأدبية : ناقشها نظريا. ثم أكدها بدراسة تطبيقية، تتفق فى منحاها مع ما نادى به تيار المحافظين من المقارنين الفرنسيين.

٢ - النماذج البشرية : حدد وجهة نظره، واستعان على دعمها بمثال تطبيقى، لايقع بعيدا عن محيط المقارنات الأدبية.

٣ - الترجمة الأدبية : وضح كثيرا من أبعادها، من خلال نموذج تطبيقى مقارن.

---

(١) انظر : Schmeling : a.aQ., S. 157 ff. ، وأحمد أبو زيد وشوقى السكرى : مقالتين لهما فى مجلة «عالم الفكر» مجلد ١١ ؛ عدد ٣، ص ٧ ، ١٢ ، ١٩ .

وإذا كنا نختلف معه فى بعض الأسس التى اقترحها ، فإن تلك الأسس لا تمس منهجية المقارنة ، بل هى أسس أدبية ونقدية عامة .

٤ ـ علاقة الأدب بفروع المعرفة : لم يغفلها ، بل أفاض فى شرح العديد من جوانبها . غير أنه ركز على توضيح مدى قدرة كل فرع منها على أداء وظائف فنية معينة ، دون أن يتطرق إلى بحث علاقات التداخل والتكامل بين الأدب وغيره من الفنون ، أو بينه وبين فروع المعرفة الإنسانية ومجالات التعبير المختلفة .

المصادر والمراجع

(باللغة العربية)

- إبراهيم عبد القادر المازنى :

- حصاد الهشيم ط ١ . المطبعة المصرية ١٩٢٥ .
- فلسفة الشعر والنقد الأدبى (مخطوط لدى كاتب المقال) .

- أحمد الشايب : أصول النقد الأدبى ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٢ .

- أحمد هيكل (دكتور) : الأدب القصصى والمسرحى فى مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ط ٣ ، دار المعارف ١٩٧٩ .

- إروين إدمان : الفنون والإنسان ، ترجمة : حمزة محمد الشيخ ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ .

- الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر : الحيوان ج ١ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، مكتبة الحلبى ١٩٣٨ .

- حسن جاد حسن (دكتور) : الأدب المقـــارن ط ٣ ، دار المعلم للطباعة ١٩٧٨ .

- ريمون طحان (دكتور) : الأدب المقارن والأدب العام ط ١ ، دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٢ .

- سيد قطب : النقد الأدبى أصوله ومناهجه ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ .

- طه حسين (دكتور) : حافظ وشوقى ، مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٣٣ .

- لنداو ، يعقوب : فى المسرح والسينما عند العرب ، ترجمة وتعليق: أحمد المغازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .

- محمـــد عبد المنعم خفاجى (دكتور) : دراسات فى الأدب المقارن ج ٢ ، ط ١ . دار المعارف المحمدية بدون تاريخ .

ـ محمد غنيمى هلال (دكتور) :
ـ الأدب المقارن ط ٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ .
ـ النقد الأدبي الحديث ط ٣ ، دار ومطابع الشعب ١٩٦٤ .
ـ النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبيـة المقارنة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٥٧ .
ـ محمد مندور (دكتور) : نماذج بشرية ط ٣ ، دار المعرفة ١٩٦١ .
ـ محمـــد نايل (دكتور) : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ، مطبعة العاصمة ١٩٦٥ .

ـ مجلة « عالم الفكر » مجلد ١١ ، عدد٣ (أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٨٠)
ـ مجلة « الأزهر » الجزء الثامن السنة الثانية والستون شعبان ١٤١٠ هـ ـ مارس ١٩٩٠ م .

(باللغتين : الألمانية والإنجليزية)

Meyers Kcleines Lexikon, Bd. 2, Leipzig 1966
Schmeling, Manfred(Hrsg) : Vergleichende Literaturwissenschaft, Athenaion Wiesbaden 1981
Shakesqedre : The Merchant of Venice, retold by Myatt & Fullerton,
Stories of Shakespeare, S, Plays 2, Hong Ksoug, Qxford University Press 1986

الاتجاهات العالمية للأدب المقارن
وتأثيرها فى الاتجاه المصرى

بقلم الدكتور
محمد السيد عيد

١ - توطئة :

ربما لم يلق فرع من فروع المعرفة من الاضطراب فى مفهومه ، وعدم التحديد فى مناهجه وإتجاهاته ما لقى الأدب المقارن ، فعلى الرغم من مضى ما يقرب من قرن على استوائه فرعا من فروع الدراسات الأدبية المعترف بها فى كثير من البلدان فإن المشتغلين به لا يزالون أبعد مايكونون عن الاتفاق على كلمة سواء . ولعل هذا الخلاف يرجع إلى أن مفهوم الأدب المقارن ظهر مرتبطا بالنزعة القومية الأوربية فى القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الحين وحتى الآن ظهرت اتجاهات فى دراسة الأدب المقارن أطلق عليها - أحيانا - مدارس الأدب المقارن . وليس هناك فارق كبير بين « اتجاه » و « مدرسة » ولعل الأول يعنى المنحى الذى يسير عليه جماعة من المفكرين والأدباء فى إتباع نمط معين من التفكير والتعبير والثانى « مدرسة » يعنى أن يكون هناك أساس فلسفى يصدر عنه الأديب والناقد أو المفكر فى الإبداع والنقد والتحليل ، فالاتجاه الواحد تشابه فى الطريقة والأسلوب المتبع ، والمدرسة التزام بفكر خاص على أساس قواعد معينة لايحيد عنها صاحبها إلا نادرا .

والأدب المقارن لم يلتزم باتجاه واحد ولا بمدرسة معينة وإنما كان لكل ناقد رأيه الخاص الذى يصدر عنه ، إلا أنه يغلب - أحيانا - وجود طابع متشابه يضم مجموعة من الباحثين فى مجال الدراسات المقارنة ، فإذا تحدثنا

عن الاتجاه الفرنسى أو الأمريكى فإنما نقصد ، السمة الغالبة ، ولا يعنى هذا — بالضرورة — أن كل الفرنسيين أو الأمريكيين يجمعهم رأى واحد تجاه الأدب المقارن إذ لم يعد هناك اتجاه قاصر على بلد من البلدان وإنما هى آراء مختلفة تجد لها — غالبا — مؤيدين ومعارضين . إلا أنه يمكن القول أن المنحى العام للدراسات الفرنسية المقارنة إتبع — فى البداية — المنهج التاريخى . وهذا يخالف المنهج الأمريكى الذى إتبع المنهج النقدى ، وسوف نوضح ذلك بعد قليل .

ولما كان الأمر كذلك تجنبنا الأخذ بالقول بمدارس الأدب المقارن وآثرنا أن نقول : اتجاهات الأدب المقارن ، لأن الاتجاه يمكن أن يكون لفرد واحد ويمكن — كذلك — أن يكون لجماعة . ويمكن أن يظهر فى بلد ثم يسود فى بلد آخر .

وسوف نحاول — هنا — أن نوضح تلك الاتجاهات العالمية بادئين بالاتجاه الفرنسى لما كان له من أثر على كل أوربا منذ القرن التاسع عشر ولا يزال له مؤيدوه حتى الآن .

٢ — الاتجاه الفرنسى :

يرى بعض الباحثين[1] أن الأدب المقارن فرنسى المولد والنشأة وهذا رأى له ما يبرره ، فقد كانت فرنسا بمثابة الوطن الأم للدراسات الخاصة باللغات الرومانية التى تفرعت عن اللغة اللاتينية ، وهى اللغة التى كانت سائدة فى معظم دول أوربا أثناء القرون الوسطى ، وكانت اللاتينية لغة العلم واللاهوت ولغة المثقفين ورجال الدين فى القرون المسيحية كلها حتى عصر النهضة الأوربية . لذلك كان الفرنسيون من أول المهتمين بالتراث المشترك

(١) انظر دكتور رجاء عبد المنعم جبر تاريخ الأدب المقارن ص ١٢٢ .

بينهم وبين شعوب القارة الأوربية ، واهتم ملوك فرنسا وأمراؤها بالأدب والدراسات الأدبية وجعلوا من باريس عاصمة للأدب فى أوربا كلها بسبب ماتتميز به العقلية الفرنسية من قدرة كلاسيكية على التنظير ، كل ذلك مكن فرنسا من أن تفرض فى القرن التاسع عشر ـ مفهوما للأدب المقارن يلتقى ـ جزئيا ـ مع أكثر الاتجاهات السائدة فى الأقطار الأوربية مما يسر لهذا المفهوم أن يكسب لنفسه أرضا جديدة فى أكثر البلاد الأوربية معبرا بذلك عن اتجاه أوربى فى الأدب المقارن(١) .

قام الأدب المقارن فى فرنسا ومنها إنتقل إلى معظم الدول الأوربية على أساس فكرة إتصال الثقافات بعضها ببعض وتبادل التأثيرات فيما بينها وتعود الكتابات الأولى فيه إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث أخذت فرنسا تتقبل بالتدريج فكرة الأدب الذى لا ينتمى لبلد بعينه أوعصر بذاته وخاصة بعد أن أصدرت مدام دى ستال Mabam de Stael كتابها عن ألمانيا سنة ١٨١٠ م وذكرت فيه : « لابد للأمم أن تتواصل فيما بينها ... ومن الخير للأمة أن ترحب بالأفكار التى ترد إليها من الخارج فإن الأمة المضياف فى هذا الخصوص هى التى تغنم أكبر الغنم »(٢) .

وكان من أهم أسباب ازدهار الأدب المقارن فى فرنسا فى القرن التاسع عشر هى :

١ — سيادة الروح العالمية التى وجدت فى أوربا منذ مطلع القرن وهى روح تؤمن بالتقارب والانفتاح ، وتنكر الانحصار والانعزالية .

(١) عبد الحكيم حسان : الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسى والأمريكى مجلة فصول ج ٣ ع ٣ لسنة ١٩٨٣ ص ١١ .

(٢) دكتور شوقى السكرى : مناهج البحث فى الأدب المقارن ، عالم الفكر العدد الثالث لسنة ١٩٨٠م ص ٢٤ وانظر كذلك :

Madam de staél : Ueber Dautschland, S. 15 .

٢ - بدأ انحسار الذوق الكلاسيكى ، وهو ذوق يؤمن بالتعصب القومى والثقافى ، فقد أخذ الفرنسيون يكفون - بعض الشىء - عن دعوى تفوق ذوقهم ومحاولة فرضه على أوربا ، وأصبح الناس يعترفون بنسبية الذوق وتعدده نتيجة لانتشار مقولات المناخ والإقليم التى قال بها عديد من الكتاب والعلماء لتفسير أشكال التفاوت بين الشعوب ، كما أصبحوا فى نقدهم يقدمون التذوق والفهم على الحكم والتقدير .

٣ - مولد عديد من القوميات التى أخذت تتعرف على ذاتها وموقعها داخل إطار الجماعة الإنسانية ، وقد وصف القرن التاسع عشر بأنه عصر القوميات الذى بعث الاهتمام بالتاريخ والتقاليد والتراث الشعبى ، وذلك لأن القوميات الجديدة التى انبثقت من الإمبراطوريات الكبرى - بدأت فى سبيل التعرف على ذاتها - بتحديد أدبها القومى ، فعكفت على تراثها الشعبى والحضارى وعلى لغتها وتقاليدها ، لتصنع منها جميعا أدبها الخاص ، والخاص والذى تتحدد ملامحه فى ضوء وضعه إلى جانب آداب الآخرين وتلك هى الخطوة الأولى نحو المقارنة .

٤ - ازدهار حركات الكشف الجغرافى والرحلة إلى المناطق المجهولة من العالم ، وتعرف الاستعمار - برغم سيئاته - على مجتمعات جديدة ذات حضارات وثقافات تختلف عن مثيلاتها الأوربية مما أدى إلى الإقبال على الحضارات الغربية ومقارنتها بالحضارات الجديدة فى المجتمعات الأخرى .

٥ - وجود المثال الذى يحتذى ، ونعنى به استعمال المنهج المقارن فى العلوم الطبيعية - وهو منهج يقوم على مقارنة الظواهر المتشابهة لإبراز الخصائص المشتركة واستنباط لقوانين منها ، فقد وجد التشريح المقارن ، وعلم الفيزياء المقارن ، وعلم الأجنة المقارن كما وجد - فى الدراسات الإنسانية - علم الأساطير المقارن والتاريخ المقارن ، والجغرافيا المقارنة ، والنحو

المقارن[1] « والذى أشاع الاصطلاح فى فرنسا ، واهتم بالدرس المقارن للأدب هو الناقد الفرنسى : فيلليمان Villeman الذى ألقى محاضراته فى الأدب الفرنسى بالسربون عام ١٨٢٨ — ١٨٢٩ م تحت عنوان صورة الأدب الفرنسى فى القرن الثالث عشر (فى أربعة أجزاء) ، وتناول التأثير المتبادل بين إنجلترا وفرنسا وتأثير إيطاليا على فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وذكر فيلليمان فى مقدمة الطبعة الجديدة (١٩٤٠) بأن محاضرته كانت أول محاولة تتم فى جامعة فرنسية (لتحليل مقارن) لعدة آداب حديثة[2] .

ومن الرواد الذين أسهموا فى بناء الأدب المقارن هو جان أمبير ابن العالم الفيزيائى أمبير ، وكان يريد أن يحقق الدرس المقارن لكل الأشعار ، وكان يرى أن الأدب علم يقع بين التاريخ والفلسفة وأن فلسفة الآداب والفنون تخرج من التاريخ المقارن للآداب والفنون عند كل الشعوب ، وكان من المستعدين لقبول فكرة تفوق أدب آخر على الأدب الفرنسى ، يقول : « وإذا نحن وجدنا فيما سنقوم به من مقارنات أن أدبا أجنبيا يتفوق على أدبنا فى نقطة ما فسنعترف بتلك الميزة فنحن أغنى بمجدنا عن أن نأخذ مجد الآخرين ، ونحن أكبر من أن نكون غير منصفين »[3] . كانت تلك جهود فردية — وظلت كذلك — حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

وفى سنة ١٨٩٠ أصبح الأدب المقارن من مواد الدراسة الأكاديمية فى الجامعات الفرنسية .

وفى سنة ١٨٩٧ كان هناك أول كرسى للأدب المقارن فى جامعة ليون Lyon شغله الأستاذ جوزيف تكست Texte ثم أنشىء كرسى آخر عام ١٩١٠ فى

---

(١) انظر : رجاء عبد المنعم جبر — المرجع السابق .

(٢) انظر رينية وليك : مفاهيم نقدية ، ترجمة محمد عصفور ، عالم المعرفة عدد ١١٠ ص ٣١١ .

(٣) رجاء عبد المنعم جبر ، المرجع السابق .

جامعة السربون ، ثم توالت الكراسى الأكاديمية والدراسات العلمية والمؤتمرات فى فرنسا وخارجها حتى تحدد مفهوم الأدب المقارن ، ومن أهم من أسهموا فى تحديد هذا المفهوم : فان تيجم Van Tigem الذى أخرج كتابا بعنوان الأدب المقارن (١٩٣١) عرف فيه بهذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية وحدد فيه ميادينه ، وبين مناهج الدراسة فيه ، ثم جان مارى كاريه M. Carre وفرنسوا جويار فى كتيبه التعليمى الذى صدر فى منتصف هذا القرن (١٩٥١) مع مقدمة قصيرة لـ «جان مارى كاريه» عرض فيه لتعريف الأدن المقارن .

وسوف نعرض لمفهوم الأدب المقادن عند فان تيجم وجويار ثم جان مارى كاريه باعتبارهم أهم عمد المدرسة الفرنسية الحديثة للأدب المقارن إبان ازدهارها فى النصف الأول من القرن العشرين .

يحدد فان تيجم مفهوم الأدب المقارن فيقول : موضوع دراسة الأدب المقارن هو دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض[1] ، فهو يحصر الدراسة المقارنة فى تقرير المشابهات والاختلافات بين كتابين أو مشهدين أو موضوعين أو صفحتين من لغتين أو أكثر ، وهذا — فى رأيه — هو نقطة البدء الضرورية التى تتيح لنا اكتشاف تأثير أو اقتباس أو غير ذلك وتتيح لنا بالتالى أن نفسر أثرا بأثر تفسيرا جزئيا .

ويرى جان ما كاريه «أن الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبى لأنه دراسة العلائق الروحية الدولية[2] .

(١) فان تيجم : الأدب المقارن ، ترجمة سامى الدورى ص ٥٢ .

(٢) انظر : H.N.Fugen : vergleichende Literaturwiss, S.52

وانظر كذلك عبد الحكيم حسان ، المرجع السابق .

ويعرف جويار الأدب المقارن تعريفا قريب الشبه بالتعريف السابق فيقول أنه تاريخ العلائق الأدبية الدولية ، فالباحث المقارن يقف على الحدود اللغوية والقومية ويراقب مبادلات الموضوعات والفكر والكتب والعواطف بين أدبين أو عدة آداب ، ومن ثم فإن منهجه فى البحث يتطابق مع تباين بحوثه .

من العرض السابق لمفهوم الأدب المقارن عند الرواد الأول للاتجاه الفرنسى يتبين لنا عدة حقائق :

أولا : أن التحديد الفرنسى للأدب المقارن تحديد تعوزه الدقة فما زال المفهوم يعانى من عدم التحديد بين الفرنسيين أنفسهم فقد تحدث فان تيجم فى كتابه « الأدب المقارن » وحاول إيجاد فرق بين الأدب العام والمقارن ، فرأى أن الأخير يدرس علاقات ثنائية ، أى علاقة بين عنصرين فحسب ، كتابين أو كاتبين أو طائفتين من الكتب أو أدبين كاملين . أما الأدب العام فيتمثل فى طائفة من الأبحاث تتناول الوقائع المشتركة بين عدد من الآداب سواء فى علاقتها المتبادلة أو فى انطباقها بعضها على بعض .

وهذا ما أخذه رينيه وليك من رواد المدرسة الأمريكية على فان تيجم ، وسوف نوضح ذلك عند عرضنا للاتجاه الأمريكى ،

ثانيا : أن المحور الأساسى فى المفهوم الفرنسى هو الانطلاق من الأدب القومى باعتباره المحور الذى تدور حوله الدراسة ، فمهما انتهت الدراسة المقارنة إلى آفاق عالمية فإن منطلقها يظل مع ذلك قوميا ، مع أن القومية — فيما يبدو — لا تزيد على أن تكون عاملا مصاحبا فى التمييز بين بعض الآداب من الوجهة الأكاديمية .

ثالثاً : ضرورة وجود علاقة ثابتة للتأثير والتأثر بين الآداب موضوع المقارنة فتوارد الخواطر وتشابه الأفكار بين الأدباء لا يعد من الدراسة المقارنة .

رابعا : اختلاف اللغات بين الآداب التى هى مجال البحث المقارن يعتبر شرطا أساسيا لدى المدرسة الفرنسية ، فلا يدخل فى نطاق الأدب المقارن مايعقد من موازنات فى إطار أدب واحد سواء تضمن عنصر التأثير والتأثر أم لا كالموازنة بين مسلم بن الوليـــد وأبى تمام أو بين حافظ وعبد الرحمن شكرى أو بين حافظ وشوقى .

من ذلك يتبين أن المفهوم الفرنسى للأدب المقارن منذ نشأته عانى من عدد من أوجه القصور كعدم التحديد الدقيق ، والخضوع للنزعة التاريخية . والولوع بتفسير الظواهر الأدبية على أساس من حقائق الواقع ، وعدم التنسيق بين المنطلق القومى والهدف العالمى ، وكانت النتيجة الطبيعية أن احتلت العوامل المؤثرة فى الأدب المقارن المكان الأول من عناية الباحثين المقارنين ، فى حين احتل الأدب نفسه - وهو موضوع الدراسة - المكان الثانى وبالإضافة إلى ذلك فرض هذا المفهوم الفرنسى تجزئة العمل الأدبى أثناء دراسته ، بحيث لم تعد دراسته بوصفه عملا فنيا متكاملا أمرا ممكنا حسب المناهج وطرق التناول التى خططها الفرنسيون أصحاب الاتجاه التقليدى وبذلك استبعدت عملية النقد من الدراسة المقارنة .

وإذا بحثنا عن السبب الذى حدا بالاتجاه الفرنسى السابق إلى هذا المنحى فى الدراسة المقارنة نجد أن ذلك ربما يكمن فى الظروف التى أحاطت بنشأة الأدب المقارن فى القرن التاسع عشر وهى سيطرة منهج البحث فى التاريخ وسيادته الفلسفة الوضعيه التى كان من أهم آثارها دراسة العلوم الإنسانية بنفس الطريقة التى تدرس بها ظواهر الكيمياء والطبيعة ، فقـــد تصور « برونتيير » تطور الأجناس الأدبية على أسس شبيهة بتطور الأجناس الحية فقد اتبع منهج العلم فى تطبيقه على الأدب المقارن فجمدت نظريته عند تطبيقه لها وجانبها الصواب لاتباعه حرفية العلم لا روحه ومنهجه العام ، ومن اليسير عنده أن يقول إن جنسا أدبيا تطور إلى جنس أدبى آخر كالفصائل الحيوانية

عند درويش دون دقة وفى تقييم سريع »(١) .

١ – ٣ – الاتجاه الفرنسى المتحرر :

فى الفترة التالية مباشرة لصدور هذه الكتب : « الأدب المقارن لفان تنجيم (١٩٣١) وهو يمثل قمة ازدهار المدرسة الفرنسية (التقليدية وكتاب الأدب المقارن لفرنسوا جويار (١٩٥١) » شهد الأدب المقارن عقب ذلك تطورا كبيرا فى فرنسا فأدى ذلك إلى أن فقدت هذه الكتب صدق تمثيلها للواقع الجديد فقد أصبحت البحوث فى تاريخ الأفكار فى أوج انطلاقها ، وكانت لاتزال فى طور التكوين يوم ظهرت هذه الكتب وتقدمت بحوث علوم الاجتماع وزاد تدخل علم اللغة فى النقد ، وتدخل النقد فى الأدب المقارن مما نشأ عنه ظهور أشكال جديدة للتحليل والتركيب وفى سنة ١٩٦٧ ظهر كتاب جديد وهو كتاب الأدب المقارن للأستاذين كلود بيشوا وأندريه روسو وهو يمثل إلى حد كبير الاتجاه الفرنسى المتحرر ، حيث يلتقى فيه ماضى الأدب المقارن وحاضره وقد ترجمه إلى العربية الدكتور رجاء عبد المنعم جبر (١٩٨٥) وهو يركز على المبادلات الأدبية بين الأمم وعلى دور الرحالة والوسطاء والمترجمين والكتب ، ولكنه لم ينج من الاتجاه الفرنسى التقليدى القديم وهو الاهتمام بتاريخ الأفكار وبالبيانات الأدبية والجديد فيه أنه ينتقل بالأدب المقارن من دراسة العلائق الروحية الدولية والصلات الواقعية بين الأدب كما يقول جويار وجان مارى كاريه – إلى دراسة العلاقات بين الأدب وفروع المعرفة والمعتقدات الأخرى وعلى الرغم من ذلك فقد خطا المؤلف خطوة كبيرة فى مجال الأدب المقارن ، ويبدو ذلك واضحا من خلال تعريفه له : « الأدب المقارن وصف تحليلى ومقارنة منهجية تفاضلية ، وتفسير تركيبى للظواهر الأدبية بين اللغات والثقافات ، من خلال التاريخ والنقد

---

(١) انظر : هلال : الأدب المقارن ص ٦٨ .

والفلسفية ، وذلك من أجل فهم الأدب بطريقة أفضل ، بوصفه وظيفة مميزة للروح الإنسانى »[1] .

من التعريف السابق نرى أن الأدب المقارن فى ثوبه الفرنسى الجديد قد اتجه إلى الفلسفة والنقد لفهم النص الأدبى ، فقد أصبح الأدب المقارن غايته النص الأدبى من خلال الاستعانة بالتاريخ والفلسفة والنقد وعلم اللغة وهذا الاتجاه كفيل بإخراجه من أزمته ، واستمرار بقائه فرعا نشطا من فروع الدراسات الأدبية .

ومن أهم الدارسين الفرنسيين الذى صححوا مسار الاتجاه الفرنسى المحافظ « رينيه اتيامبل » فقد عارض بشدة المنهج التاريخى وأيد المنهج التطبيقى الذى يدرس النص ويقارنه بغيره ، دون تعصب للآداب الغربية ، ولذلك أطلق عليه أصحاب الاتجاه الفرنسى التقليدى « الطفل الشارد » لأنه دعا إلى تناول آداب أخرى غير الآداب الغربية مثل آداب الشرق الأقصى كالصين واليابان ، والانتقال إلى مباحث جديدة تسمح بالمقارنة مع عدم وجود التأثيرات وهى المعروفة بدراسة التوازى ولعل إيتامبل تأثر بالمقدمة التى كتبها « لانسون » فى تاريخ الأدب حيث رأى « إن الدارس الذى يكتفى بالتطبيق الحرفى للمنهج المنظم سوف يكون مدرساً رديئاً للأدب ، لايستطيع أبداً أن يطور لدى تلاميذه على وجه خاص ـ تذوق الأدب ، كما أن أحداً من المعلمين لايستطيع أن يعطى لدروسه هذه الفعالية ، إذا لم يكن هاويا قبل أن يكون عالما »[2] .

ومن ثم يرى إيتامبل أن أولئك الذين يبالغون فى إتباع الهيكل الخارجى للمنهج قد يجدون أنفسهم بعيدين عن مجال الدراسات الدراسة الحقيقية

---

(١) رجاء عبد المنعم جبر ـ المرجع السابق ص ٥١ .

(٢) انظر : د. كتور أحمد درويش : الأدب المقارن ص ٢٣ .

للأدب فى الوقت الذى يجدون أنفسهم وضعوا أيديهم على واسطة محددة أو صلة مباشرة . وبذلك يكون إيتامبل قد سار فى خط موازٍ للاتجاه الأمريكى الذى يدخل النقد الأدبى ودراسة النص والتذوق الأدبى فى الأدب المقارن وهذا ما سنعرض له الآن .

١ - ٢ - المفهوم الأمريكى للأدب المقارن :

ينبغى أن نلاحظ - منذ البداية - ما يأتى :

١ - أن الأدب المقارن فى أمريكا كان يتميز بطابع خاص وأسلوب معين الأمر الذى حدا بمعظم الباحثين أن يطلقوا على ذلك اللون الأمريكى اسم المدرسة الأمريكية فى مقابلة ما يدعى باسم المدرسة الفرنسية ، وقد أوضحنا وجهة نظرنا فى هذا التقسيم عند التعرض بين المدرسة والاتجاه .

٢ - أن الاتجاه الأمريكى ينظر إلى الآداب نظرة كلية شاملة عن طريق المقارنة بينها وتصنيفها والبحث فى أسباب نشوئها وتطورها .

٣ - أن الأدب المقارن فى أمريكا نما وتطور فى أقل من جيل واحد نمواً يثير الإعجاب ويبعث على الدهشة ، وانتشر فى حوالى أربعين جامعة متفرقة فى أنحاء البلاد .

وكان أول من أدخل الأدب المقارن الجامعات الأمريكية هو القس تشارلز شاكفور Shacford الذى شغل كرسى الأدب العام فى جامعة كورنيل Cornell . وكان أول كرسى للأدب المقارن فى الولايات المتحدة فى جامعة هارفارد عام ١٨٩٠ وكان أول من شغله الأستاذ آرثر مارش Marsh وقد وصف طريقة تناوله للأدب المقارن بقوله : « أن الأدب المقارن مازال فى دور النظريات التى لم تتبلور بعد فى صور نهائية حاسمة وأنه محدد فى مدى فاعليته ، وأنه يتناول الأدب باعتباره كلا شاملا يقارن بين الآداب ويضعها فى مجموعات ويبحث فى أسباب نشوئها والنتائج المترتبة عليها[1] .

(١) انظر : شوقى السكرى المرجع ص ٣٣ .

وقد كانت دراسة الأدب المقارن فى أمريكا مختلطة بالأدب العام حتى العشرينيات من القرن العشرين ، وبعدها أعطى منهجه الخاص وأصبح علما قائما بذاته وأدرج فى المنهج المقرر على طلبة المدارس والكليات والجامعات ،

ظهر فى عام ١٩٤٩ أول عدد من مجلة الأدب المقارن وفى سنة ١٩٥٠ ظهرت أول قائمة لكتب المراجع اللازمة لتلك المادة وفى سنة ١٩٥٢ ظهر المجلد الأول من حوليات الأدب العام والأدب المقارن . وفى سنة ١٩٥٤ تشكلت الرابطة الدولية للأدب المقارن ، ثم توالت بعد ذلك الكتب والمجلات والمؤتمرات الدولية التى أظهرت تميز الاتجاه الأمريكى وسرعة تطوره ، ويعزى هذا النمو العظيم لوجود بعض العوامل المشجعة التى توافرت له . ومن أهمها :

اشتراك الأفراد إلى جانب الحكومة فى القيام بشئون التعليم ، وتشجيع التجديد ورفض التقليد والروتين فى البحث العلمى ، واختفاء الأفكار المسبقة عن الشعوب الأخرى ، والموقع المتميز بين أوربا وآسيا وأمريكا اللاتينية وسرعة البحث وتوافر الإمكانات وجاذبية الجديد .

ونحن نرى إلى جانب ذلك - أن الاتجاه الأمريكى تم بهذه السرعة لأنه وجد ميراثا معدا من المدرسة الفرنسية فبنوا عليه أو عدلوا منه وطوروه ، فهم لم يبدأوا من فراغ وإنما انتفعوا - من غير شك - بمن سبقهم فى هذا المضمار من الفرنسيين والألمان .

وقد استحدث الاتجاه الأمريكى مناهج جديدة وطرق متطورة حتى تبدو أكثر مرونة من الاتجاه الفرنسى يتجلى ذلك فى تحديد مفهوم الأدب المقارن على يد أبرز أعلامه هنرى ريماك Remak فيقول .

« الأدب المقارن هو دراسة الأدب فيما وراء حدود بلد واحد معين ، وهو دراسة العلاقات بين الأدب من جانب ، وفروع المعرفة والمعتقدات

كالفنون . . . والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والدين . . . إلخ من جانب آخر أو بعبارة موجزة هو مقارنة أدب أو آداب أخرى وهو مقارنة الأدب بمجالات أخرى من التعبير الإنساني[1] .

من الملاحظ أن هذا المفهوم يحاول أن يوسع من مجال الأدب المقارن من طريق تقديم مفهوم أوسع العلاقات بين الأدبية من ناحية ، ومن طريق توسيع نطاق المقارنة لتشمل العلاقات بين الأدب والمجالات الأخرى للتعبير الإنساني من ناحية أخرى .

وهذا المفهوم الواسع للأدب المقارن يتيح للباحثين أن يتأملوا الآداب كلها - في حرية - من العصور القديمة حتى القرن العشرين ويمنح كل ثقافة أجنبية قدرا متساويا من التعاطف ، إلا أنه تحديد لا يخلو - من وجهة نظر المقارنين الفرنسيين - من التعميم والتفسير المضلل ، كما أنه لا يتسم بالوحدة المتكاملة إذ يظهر فيه طابع الازدواجية ، ذلك أن الأدب المقارن حسب هذا المفهوم هو أولا : المقارنة بين الآداب وهو ثانيا مقارنة الأدب بغيره من وسائل التعبير الإنساني . وهذه الازدواجية تؤدي إلى تكوين مفهومين لا مفهوم واحد[2] للأدب المقارن .

ومن أعلام الاتجاه الأمريكي البارزين رينيه وليك Wellk الذي قاد حملة من الهجوم الفرنسي في مقال له بعنوان « أزمة الأدب المقارن » والذي ألقى في مؤتمر الرابطة الدولية المقارن عام ١٩٥٨ وهو يرى أن العالم يعاني أزمة لازمته في البحث الأدبي منذ عام ١٩١٤ وقد وقد ظهرت في الأدب المقارن من هذا التاريخ :

في إيطاليا كان كروتشه ، وفي ألمانيا كان دلتاي وفي فرنسا كان

(١) عبد الحكيم حسان المرجع السابق ص ١٦ .

(٢) Aronaud Nivelle :
Wo zv Aergleicnde Litsratur Misseschajt, S. 178

فان تيجم[1] وانتقد فان تيجم الذى حاول إقامة الأسوار المصطنعة بين الأدب المقارن والأدب العام لأن التاريخ الأدبي والبحث الأدبي يتناولان موضوعا واحد هو الأدب والرغبة فى حصر الأدب المقارن فى دراسة التجارة الخارجية معناه حصر اهتمامه بالخارجيات لأن التاريخ الأدبى الذى يحصر همه فى تتبع تاريخ المواضيع الأدبية لابد من أن ينتهى إلى طريق مسدود ، كما نعى عن المدرسة الأوربية أنها لم تتعد حدود القومية الضيقة إلى الإطار العالمى الشامل فقد فشل دارس الأدب المقارن أن يعمل كوسيط بين الشعوب وكمصلح لذات بينها بسبب المشاعر للقومية الملتهبة التى سادت فى تلك الفترة وفى ذلك الموقع، فقد كان الدافع الوطنى يكمن خلف العديد من دراسات الأدب المقارن فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها مما أدى إلى نظام غريب من مسك الدفاتر الثقافية ، وإلى الرغبة فى تنمية مدخرات أمة الباحث عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التى أثرتها أمته على الشعوب الأخرى ، أو عن طريق إثبات أن أمة الكاتب قد هضمت أعمال أحد العظماء الغرباء وفهمته أكثر من أى أمة أخرى » .

كان وليك يدعو إلى الحرية فى دراسة الأدب دون حدود لغوية أو قيود مكانية فليست هناك حقوق ملكية ، ولا مصالح معترف بها فى البحث الأدبى . وتبلغ به للثورة مداها على القيود المحكمة التى وضعها الفرنسيون على طريقة البحث فى الأدب المقارن وتحديده مجال الدراسه فيه فيقول : « أما ملك المقاطعات المسورة التى تحيطها إشارات « ممنوع الدخول » فلابد من أن العقل الحر يكرهها وهى لا تنشأ إلا ضمن حدود المنهجية البالية التى دعا إليها ومارسها منظرو الأدب المقارن المتمدون من الذين اعتبروا أن الحقائق تكتشف مثلما تكتشف قطع الذهب التى تغرى مكتشفيها بإدعاء حق التنقيب عنها فى مناطقهم المنتقاة » .

---

(١) رينيه وليك المرجع السابق ص ٣٦٨ .

ورأى وليك أن تتعاون علوم أدبيـة أخرى فى دراسة الأدب المقارن مثل علم النقد وتاريخ الأدب على أن يكون البحث الأدبى المتمثل فى دراسة النص هو البؤرة الضرورية التى يركز الباحث المقارن على دراستها ، لأن العمل الفنى هو كل من عناصر مختلفة .

وإذا كان وليك قد أخذ على المدرسة الفرنسية عدم وضوح المنهج وعدم تحديد الموضوعات، وانحصار البحوث فى الدراسة الآلية للمصادر والتأثيرات، والأسباب التى أدت إلى ظهور عمل أدبى ، ولكنها أغراض لا تمس جوهر الأدب ، وتدخل العوامل القومية والاعتبارات الإقليمية فى البحث ، فإن أنصار الاتجاه الفرنسى يرون أن هـــذا النقد يركز على الجانب الأضعف للمناهج التى انتهت إليها الخمسون سنة الماضية ، ولا يعترف بالمنجزات الإيجابية التى حققها المقارنون فى تلك الفترة ، ويحـــاول الدكتور رجاء عبد المنعم جبر انصاف الاتجاه الفرنسى الذى تناوله وليك بالهجوم فيقول: الواقع أن التطبيق فى الأدب المقارن قد سبق المنهج بمسافة بعيدة . وأعمال كبار المقارنين شاهد على ذلك ، كما أن الرواد من المدرسة الفرنسية لم يكونوا على رأى واحد فيما يتعلق بالمنهج ، فقد كان فان تيجم يشجع على دراسة الموضوعات مع أنه يراها أقل أهمية من المصادر والتأثيرات ، على حين كان هازار يستبعدها[1] .

ونحن نرى أن الحدود الفاصلة القاطعـة بين الاتجاه الفرنسى المتحرر والاتجاه الأمريكى تكاد تكون معدومة فالاتجاهان وإن بدا كل منهما ذو منهج خاص وأسلوب مغاير إلا أنهما ـ فى الواقع يسيران فى اتجاه متقارب بل كثيرا ما يلتقيان ويتفقان فالنزعة القومية التى استنكرها الأمريكيون على الفرنسيين والتى عدوها من مخلفات القرن التاسع عشر ، تورط فيها ـ كذلك ـ الأمريكيون بطريقة تغـــاير ـ شكلا ـ الطريقة الفرنسية وتتمثل فى نظرة

(١) رجاء عبد المنعم جبر : المرجع السابق ص ٣٠ .

الأمريكيين الخاصة إلى التراث الأدبي الغربي بوصفه منطقة مميزة بذاتها في نطاق الدراسة المقارنة ، ويظهر ذلك واضحا في المنهج الذي أعده الأمريكيون لدراستهم في الأدب المقارن فقد كان المنهج في مجمله لا يتعدى ـ إلا في القليل منه ـ نطاق الأدب الغربي .

كما لم يستطع الأمريكيون التفريق الواضح بين مفهوم الأدب العام ومفهوم الأدب المقارن مما أوقعهم في الخلط الذي كانوا قد عابوه على المدرسة الفرنسية وعلى الأخص على فان تيجم .

وعلى كل حال فقد ـ نشأ في الوقت الحاضر ـ تقارب بين المحدثين الأمريكيين والفرنسيين فدعا الجميع إلى المزاوجة بين الدراسة التحليلية والدراسة التاريخية ودراسة العلاقة بين الأدب وفنون التعبير الأخرى وفروع المعرفة والمعتقدات والعلوم والدين ويلح على الاعتراف بالدور الرئيسي للنقد في أي دراسة مقارنة وشمل التاريخ وعلوم النفس والاجتماع ودخل فيه المنهج التاريخي والتوليدي والإحصائي والأسلوبي .

٣ ــ دراسات الأدب المقارن في مصر : وصلتها بالاتجاهات العالمية :

رأينا أنه قد نشأ الأدب المقارن في أوربا نتيجة للايمان بفكرتين : الأولى إثراء الأدب القومي من خلال رؤية الآداب الأخرى . والثانية الإيمان بالنسبية وهي فكرة تعتقد بأن هذا العالم الذي نعيش فيه لا يمكن فهم الظواهر التي توجد فيه فهما سليما إلا إذا وضعت في إطار النسبية ، بمعنى أن الأدب كغيره من الظواهر الفكرية ـ أمر نسبي بالقياس إلى غيره من الآداب الأخرى .

ولما كانت أوربا آمنت ـ منذ القرن التاسع عشر ـ وهو القرن الذي ظهر فيه دراسة الأدب المقارن ـ بهذه الأفكار فقد أدى ذلك إلى قيام العلم على هذه الأسس التي أ[illegible] مصدرا هاما في كتاباتهم

وفى مصر وجد رجال آمنوا بتلك الأفكار من خلال الرؤية عن قرب للعالم الغربى ، فرأوا أنه يمكن أن يطبق على الأدب العربى فأدى بهم ذلك إلى البحث عن الصلات بين الظواهر الحضارية بصفة عامة ، والأدب بصفة خاصة .

وإذا تأملنا الروابط الفكرية والأدبية ـ فى بداية القرن التاسع عشر بين مصر والعالم الغربى ، بدا لنا أن الدراسات المقارنة فى مصر مرت بمرحلتين :

٣ ـ ١ ـ المرحلة الأولى : مقارنة الحضارات :

وكانت محاولة أولية مبكرة فى القرن التاسع عشر اتخذت طابع الموازنة بين الحضارات والآداب وتمكسها بوضوح كتابات رواد النهضة فى القرن الماضى من أمثال رفاعة الطهطاوى(١) .

تناول رفاعة الطهطاى (١٨٠١ - ١٨٧٣) فى كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » الظواهر الحضارية بين مصر وفرنسا بالمقارنة من خلال مبدأ النسبية ، ومن هنا أخذت روح الأدب المقارن تبرز فى معالجته لبعض المسائل التى ترتبط بقضية مماثلة أو مخالفة موجودة فى الحياة الفرنسية والأدب الفرنسى . وقد تناول الطهطاوى فى موازناته المسائل الآتية :

أولا : الأدب :

وازن بين بعض الأنواع الأدبية فتعرض لقضية الشعر فى كل من الأدب العربى والفرنسى ، ورأى أن لكل أمة نظامها الشعرى الخاص بها ، كما أشار إلى أن الفرنسيين لا يكتبون العلوم نظما كما يفعل العرب ، وأعلن أن ترجمة الشعر العربى أو الفرنسى تذهب بكل جمال شعرى . كما لاحظ أن الفرنسيين

---

(١) انظر : عطية عامر : تاريخ الادب المقارن، مجلة فصول ، المجلد الثالث العدد الرابع لسنة ١٩٨٣ ص ١٣ .

لا يتغزلون بالخمر ولا بالمذكر كما يفعل العرب ، كما رأى أن لكل لغة أسلوبها وموسيقاها ، وأن معرفة العروض ليست كافية لقرض الشعر . وخلص إلى أن الأدب يختلف من أمة إلى أمة أخرى نتيجة لاختلاف الجنس .

ثانياً : اللغة :

رأى رفاعة أن لكل لغة قواعدها الخاصة بها وذلك لدفع الخطأ في القراءة والكتابة وقرر أن سهولة الفرنسية أعانت الفرنسيين على تحقيق التقدم في العلوم والفنون وأن العربية لم تصل إلى هذه السهولة ، وعناصر السهولة في رأيه هي : تبسيط قواعد اللغة ، والتحديد والوضوح ، ووضع المصطلحات لكل علم ، ووضع كل علم في إطاره الخاص به . ولاحظ أن الفرنسية لا يمكنها تصريف الأفعال كما في العربية .

ثالثاً : الظواهر الحضارية :

لم يقف رفاعة عند الظواهر اللغوية والأدبية ، وإنما وازن كذلك بين الظواهر الحضارية الأخرى : الثقافية والاجتماعيه والسياسية وهو ما أطلق عليه « التمدن الحقيقي » وكان يهدف إلى عرض اصطلاحي عن طريق تجسيم مظاهر القوة والضعف بين المجتمع الفرنسي والمجتمع المصري رغبة في تطوير المجتمع المصري وتقـــدمه فرأى أنه يجب الاتصال المباشر بثقافة الأمم المتحضرة من خلال المعايشة كما يجب التمكن من لغات الأمم ولذلك أنشأ رفاعة بعد عودته من فرنسا سنة ١٨٣١ مدرسة الألسن لترجمة العلوم والفنون الأجنبية ، وترجم هو بنفسه كثيرا منها ويرى أن الترجمة من الفنون الصعبة وخصوصا ترجمة الكتب العلمية لأنها تحتاج إلى معرفة اصطلاحات العلوم المراد ترجمتها[1] .

كان رفاعة الطهطاوي ظاهرة عظيمة وضعت الأدب المقارن في بداية

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوي : تخليص الإبريز في تلخيص باريز ص ١٢٤ ط دار الكتب المصرية .

الطريق من خلال المقارنة المباشرة فى اللغة والأدب والحياة بين أمتين : العربية والفرنسية فكان بهذا أشبه بمدام دى ستال عندما قارنت بين مظاهر الحياة فى كل من ألمانيا وفرنسا واستطاعت بذلك أن تنبه الشعب الفرنسى إلى ما فى ألمانيا من أفكار جديدة ، كذلك استطاع رفاعة أن يلفت نظر الأدباء والنقاد إلى المقارنة بين الآثار الأدبية واللغوية فى الآداب العربية والفرنسية .

٣ - ٢ - المرحلة الثانية مقارنة الآداب :

بدأت هذه المرحلة بصورة أكثر عمقا وشمولا وتنوعا من سابقتها . كان ذلك فى النصف الأول من القرن العشرين حيث أرسلت البعثات إلى أوربا فتكون جيل جديد يخالف جيل رفاعة الذى كان إماما للبعثة المصرية فى باريس .

عاصر الجيل الجديد نهضة الأدب المقارن فى جامعة ليون (أنشئت عام ١٨٩٦) ، وجامعة السربون (١٩١٠) وعرف اللغات الفرنسية والإنجليزية واليونانية فأنتج فى الأدب المقارن ما يمكن أن يقال عنه بدايات طيبة ولكنها سارت على خطوات أهمها ما يأتى :

الخطوة الأولى :

بدأها أحمد ضيف (١٨٨٠ - ١٩٤٥) حيث أعلن أنه لا بد لمدرس البلاغة من الملاحظة الصحيحة والموازنة والمقارنة وأكد أن مدرس تاريخ الأدب لا بد له من الموازنة والمقارنة ، وذلك لا يتحقق إلا إذا تمت بين الأدب العربى وغيره من الآداب أى خرجت عن نطاق الأدب العربى .

وقد طبق أحمد ضيف ذلك كله فى كتابه : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، حيث تعرض لدراسة النقد فى فرنسا وقارن بينه وبين النقد العربى ، فقرر أن النقد الفرنسى خضع للمؤثرات الأجنبية وكان نتيجة للاطلاع على كتب اليونان القديمة ، وعلى آثار النهضة الأوربية بهدف تقويم العقول وتطوير الأفكار ، وأن النقد فى فرنسا تحليلى وأنه مبنى على فلسفة خاصة .

أما النقد العربي فقد كان ـ في رأيه ـ بعيدا عن كل تأثير خارجي فلم يأت من الاطلاع على مؤلفات أجنبية ، والغرض منه شرح الشعر العربي فهو نقد بياني ، هدفه إرشاد الكتاب والشعراء إلى الطريقة المثلى في الأساليب وصناعة الكلام ، ولم يقم على فلسفة خاصة به .

وأعلن أحمد ضيف أننا لا يمكن أن ننهض بلغتنا إلا إذا دفعناها إلى التحرك من مكانها الذي طال وقوفها فيه ، لتأخذ مكانا يليق بها بين اللغات الحية .

الخطوة الثانية :

وهي التطبيق المقارن بين الأدب العربي والأدب الانجليزي وظهرت بشكل جيد في مقالات في مجلة الرسالة في الفترة من يناير ١٩٣٥ إلى ديسمبر ١٩٣٦ حيث كتب الأستاذ فخري أبو السعود الذي كان يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في التعليم الثانوي ـ عدة مقالات نقدية مستعملا مصطلح : « في الأدب المقارن » فكان بذلك أول من أدخله إلى الأدب العربي . ولهذه المقالات أهمية كبيرة ، فقد طرحت في الحياة الأدبية المصرية مفهوما جديدا للأدب المقارن يقوم على الموازنة النقدية بين أدبين مختلفين في اللغة والتقاليد ، متخطيا النظرية إلى التطبيق .

وتناول فخري أبو السعود في مقالاته كثيرا من الموضوعات مثل : الظواهر المتماثلة بين الأدبين العربي والإنجليزي ، والخيال والمرأة ، والقول المكشوف ، والأثر الأجنبي ، والثقافة ، والفكاهة ، وأسباب النباهة والخمول ، والطبيعة ، وأثر الدين والخرافة ، وشخصيات الأدباء ، والنقد وأثر نظام الحكم وعرض الأدب ، وأثر الترف في إبداع الأدباء مع التمثيل لكل ذلك من الأدبين العربي والإنجليزي .

كان فخري أبو السعود في دراسته تلك ناقدا لا مؤرخا ، ومعنى ذلك أنه كان يرى أن الأدب المقارن جزءا من النقد الأدبي ، وليس جزءا من تاريخ

الأدب ومن ثم نرى أنه قد طبق مفهوما معاصرا للأدب المقارن ، وسبق به الاتجاه الأمريكى الذى ظهر ابتداء من عام ١٩٤٩ .

الخطوة الثالثة : الدراسة الأكاديمية :

ربما كانت كلية دار العلوم جامعة القاهرة من أسبق المعاهد العلمية التى دخلها الأدب المقارن منذ عام ١٩٣٨ فقد نصت لائحتها الداخلية على أنه من الواجب دراسة الآداب الأجنبية فى السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة كما نصت اللائحة على أن تدرس مادة الأدب العربى المقارن فى فرقة التخصص ثم نص المجلس الأعلى لدار العلوم فى أكتوبر ١٩٤٥ على أن يصبح الأدب المقارن مادة مستقلة تدرس فى السنتين الثالثة والرابعة وأن يصير فرعا من قسم يحمل اسم ، قسم الأدب المقارن والنقد والبلاغة ، وتولى رئاسة هذا القسم الدكتور إبراهيم سلامه وعاونه فى هذا التدريس عبدالرزاق حميدة .

ويمثل الدكتور إبراهيم سلامة مرحلة هامة من مراحل دراسة الأدب المقارن فى مصر حيث وضع حجر الأساس فى نظرية الأدب المقارن وحدد معالمه على أساس علمى وأشار إلى الموضوعات التى يجب على الباحث دراستها وشرح النظريات الغربية التى أفاد منها دارسوا الأدب المقارن . كان ذلك فى كتاب له بعنوان : تيارات أدبية بين الشرق والغرب ـ خطة ودراسة فى الأدب المقارن .

وهذا الكتاب يعتبر الكتاب الرائد فى التأليف فى نظرية الأدب المقارن ، تحدث فيه عن مكانة الأدب المقارن ، وعن العناصر المكونة له ، والاعتبارات المعوقة لتقدمه والقوانين التى تحكم مسيرته .

وكان يهدف من كتابه هذا أن يكون عونا للطلاب الذى يجدون صعوبة فى تلقى هذه المبادىء الجديدة بحكم قلة زادهم من اللغات والآداب الأجنبية ، وكذلك لمدرسى العربية بالمدارس الذين فرض عليهم فى تلك

الفترة كتاب «التوجيه الأدبي» من تأليف الدكتور طه حسين .

يعرف الدكتور سلامة الأدب المقارن بأنه بأنه «دراسة التيارات الأدبية فى مختلف النواحى وبيان أخاديدها ومسايلها والعوامل التى تعمل على دفع هذه التيارات ، والعوامل الأخرى التى تغير مجراها»(١) .

وحاول كذلك أن يحدد الفرق بين الأب ، وتاريخة فرأى أن أنسب تعريف للأدب هو «فكرة مصورة مزجاة بعاطفة ، فالأدب الحقيقى – كما يراه هو – ماجمع العناصر الثلاثة : الفكرة والصورة والعاطفة وزواج بينها ، ويرى أن مهمة تاريخ الأدب هى جمع الآثار الأدبية التى تحتوى على العناصر الثلاثة ودراسة حياة الأدباء وما تأثروا به وأما دراسة هذه من حيث علاقاتها بعضها ببعض أو من حيث تشابها واتجاهاتها فهى مهمة الأدب المقارن .

ويرى أن عوامل دفع الأدب المقارن هى النقل من لغة إلى لغة أخرى عن طريق الترجمة التى تعتبر الوسيلة الأولى للأدب المقارن أما عوامل إعاقة الأدب المقارن – كما يراها الدكتور إبراهيم سلامه – فهى فى ذاتية الأدب وفى فهم فكرتى العبقرية والأصالة ، فالعنصر الذاتى فى الشعور الأدبى خاص بطبيعته وهو الذى يعطى للعمل الأدبى قيمته وتميزه . والعبقرية تفرض التفرد والوحدانية وهو بهذا يرى ما يراه كروتشه الناقد الإيطالى الذى يرى أن العمل الأدبى فكرة خلاقة خاصة بكاتبه وغير قابل للتكرار غير أن الدكتور سلامه يرى أن الدراسة المقارنة ضرورية لفهم الأدب بطريقة أفضل ، فدراسة فولتير مثلا لاتتم على الوجه الأكمل بدون التعرض لدراسة شكسبير .

ويرى – كذلك – أن الادب المقارن علم يحتاج إلى نظرية وكثيرا ماتقدم

---

(١) رجاء عبد المنعم جبر المرجع السابق ص ٤٣ .

بنظرياته على العلوم الأخرى : مثل علم الاجتماع والنفس ، والتاريخ وقد استفاد المقارنون الغربيون فى دراسة الأدب المقارن من تلك العلوم ، فنظرية مدام دى ستال ترى دراسة الأدب على هدى التقلبات السياسية والاجتماعية والتقدم الاقتصادى ، ودراسة الفكر فى إطار الالآم والآمال الإنسانية على مستوى الأمم المختلفة .

ونظرية تين تقوم على الاتجاه التاريخى فى الأدب والنقد وتفسير الأدب فى ضوء العوامل الثلاثة : الجنس . والبيئة الزمانية ، والمكانية ، ونظريه برونتيير تقوم على تطور الأنواع الأدبية وتوالد بعضها من بعض ، وتدرجها فى النمو مثل الكائن الحى : الطفولة ، والشباب ، ثم الشيخوخة .

ونظرية سانت بيف تدعو إلى الحياد التام فى النقد وحرية الاختيار بين المذاهب والتخلص من النزعة الذاتية فى النقد .

كما تعرض - الدكتور سلامه - إلى شرح نظرية التقليد ونظريه تلاقى المدنيتين ، فيرى أن التقليد ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ويندفع حاملا الجدة والمستحدات ليؤثر فى التقاليد ويهاجمها فالامة لا تقلد إلا ما ترغب فيه وما يوافق عقائدها ، ولا تقف موقف المقلد إلا من أمة تفوقها فى الثراء الفكرى ، والتقليد ينجح فى زحزحة التقاليد الثابتة بما يستخدمه من تيار الجدة والاستحداث وهذه تعمل عملها فى بطء ومثابرة ، مستخدمه سلاح الإقناع وحرية الاختيار .

وأما تلاقى المدنيتين فيرى أنه عبارة عن تلاقى مدنيتين بعد فراق طويل حدث خلاله أن تطورت إحداهما وبقيت الأخرى على حالها أو تخلفت . ويرى القانون أن المدنية التى ضعفت بعد قوة لا تندفع إلى تقليد الأخرى التى تقدمت وإنما تريثت فى أول الأمر وتبدى قدرا من المقاومة ويستمر ذلك إلى أن تبدأ المدنية القوية خطوة التقرب نحو الضعيفة وهنا تبادلها نفس المسلك ، فيلتقيان وينتج من التقائهما مزيج واحد لمدنية واحدة . ويرى

المؤلف أن هذا القانون ثبت صلاحيته فى الدراسات المقاربة مثل التقاء مدنية العرب مع المدنية الأوربية الحديثة ، والتقاء الأوربية مع المدنية العربية فى القرن الثامن والتاسع الميلادى .

وبعد فقد كان كتاب الدكتور إبراهيم سلامه من الكتب الهامة التى أرسلت نظرية الأدب المقارن من حيث توضيح المفهوم وتحديد الموضوعات وعرض النظريات وشرح القوانين فهو بهذا سابق فيما اشتمل عليه من موضوعات والذى حال دون شهرته هو ظهور كتاب الدكتور محمد غنيمى هلال والذى به تم الانتقال إلى مرحلة الدراسة المنهجية العلمية .

* الخطوة الرابعة :

تمثل نوعا من الدراسة التطبيقية التى اتخذت شكل مقارنات حينا وشكل موازنات حينا آخر . وقد قام بها فى كلية دار العلوم الأستاذ عبد الرازق حميده فى كتابه الذى ظهر عام ١٩٤٩ بعنوان « فى الأدب المقارن » وذكر فيه تعريفا واسعا للأدب المقارن وهو : دراسة العلاقات بين الآداب وهذه العلاقات تشمل - فى رأيه - تأثير أدب فى أدب وتأثير أديب بأديب وأخذ عصر عن عصر ، وتشابه حركات أدبية أو تباينها ، ونهوض مدارس أدبية مختلفة أو متشابهة فى أزمنة ولغـــات متعددة وسيطرة بعض العوامل وتأثيرها[1] فى الآداب على اختلاف عصورها أو بيئاتها ومدى هذا كله .

فهو يدرس العلاقات الأدبية على مستويين :

مستوى داخلى فى إطار الأدب القومى ومستوى خارجى بين الأدب القومى وبين غيره من الآداب الأجنبية .

فهو يعقد مقارنة إذا وجـــد تشابه فى الموضوع أو الفن الأدبى أو الأساليب أو الظروف الداخلية والتى لها صلة بتكوين الأديب .

---

(١) عبد الرازق حميدة : فى الأدب المقارن ص ٣٧ .

وقد اختار عبد الرازق حميدة تسعة موضوعات طبق عليها منهجه منها ما كان فى الموازنة مثل موضوع بين المتنبى وحمدونه . فهو موازنة بين موضوعين فى إطار الأدب العربى ، ومنها ما كان فى المقارنة مثل المقارنة بين الأدباء الذين وجدت بينهم ظروف متشابهة مثل نقد البصر بالنسبة لبشار وأبى العلاء العربيين ، وملتن الإنجليزى ومنها ما كان فى إطار الأدب المقارن بين المعرى ودانتى .

وقد أخذ عليه أنه خلط بين الموازنة والمقارنة ، لفقد أنه شرط المقارنة من وجهة نظر الذين يشترطون اختلاف اللغات بين الأديبين موضوع المقارنة والواقع أن الأستاذ حميدة قد فهم المقارنة بمعناها الواسع الذى يشمل الموازنة والمقارنة والنقد الأدبى .

٣ - ٣ - مرحلة الكتابة المتخصصة فى الأدب المقارن:

سادت المدرسة الفرنسية كل أوربا فى الأدب المقارن وذلك لما للفرنسيين من مقدرة فائقة على نشر أفكارهم خارج حدود بلادهم واهتمامهم الشديد بنشر الثقافة الفرنسية لاعتقادهم بتميزها ، وكان لتلك الثقافة تأثيرها - كذلك - فى اتجاه الأدب المقارن فى مصر فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين ، وذلك للصلة القوية بين مصر وفرنسا .

ولما أراد القائمون على الثقافة فى مصر إثراء المجال الأدبى أرسلوا النابغين من أبناء الوطن إلى فرنسا فى بعثات دراسية وكان الدكتور محمد غنيمى هلال أول جيل المتخصصين الذين أوفدوا إلى فرنسا الدراسة فى هذا المجال . ثم عاد من بعثته سنة ١٩٥٢ بعد الحصول على الدكتوراة فى موضوعين مقارنين هما : تأثير النثر العربى على النثر الفارسى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وموضوع هيباتيا - الفيلسوفة المصرية - فى الأدبيين الفرنسى والإنجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين .

وتوفرت لدى الدكتور غنيمى هلال كل عوامل النبوغ للدراسة المقارنة

فقد أتقن الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والفارسية ، كما تتلمذ على يد « جان ماري كاريه » وهو من عمد المدرسة الفرنسية للأدب المقارن، وكانت الفترة التي أوفد فيها فترة ازدهار تلك المدرسة ، ولما عاد وجد المناخ الملائم من تشجيع الدولة وإقبال الدارسين على البحث وحب القراءة في هذا المجال .

كتب الدكتور غنيمي هلال كتابه « الأدب المقارن » عام ١٩٥٣ سالكا فيه المنهج الفرنسي التاريخي وحدد فيه معالم الطريق التي سار فيها حتى وفاته عام ١٩٦٨ . وقسم ميادين البحث في الأدب المقارن إلى سبعة : عوامل انتقال الأدب من لغة إلى لغة ، الأجناس الأدبية ، الموضوعات بحوث المصادر والتأثير ، التيارات الفكرية ، ثم صور البلد في أدب أمة أخرى .

وأكد الدكتور غنيمي هلال على استبعاد الموازنات من ميدان الأدب المقارن تلك التي تعقد بين كتاب من أدب واحد أو من آداب مختلفة ، ولم تتحقق بينهم صلات تاريخية ، وينعى في نبرة جهيرة على من قاموا بذلك زاعمين أن عملهم من الأدب المقارن .

ويؤكد — كذلك — على دراسة الأفكار الأدبية والأجناس والتيارات الفكرية وليس الاقتصار على الجوانب الفردية في الإنتاج .

واستطاع الدكتور غنيمي هلال تأسيس ما يمكن أن يسمى مدرسة نقدية مقارنة تقوم على المدرسة الفرنسية في اتجاهها ودراساتها التاريخية .

وفي الخمسينيات من هذا القرن توالى الدارسون للأدب المقارن وكانوا جميعا على امتداد للخط الفكري الذي بدأه غنيمي هلال ، ففي عام ١٩٥٧ حصل كل من أنور لوقا وعطية عامر على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة باريس ، وتتلمذا أيضا على جان ماري كاريه ، وهو يعتبر الأستاذ لهذا الجيل من المصريين الذين تخصصوا في الأدب المقارن في تلك الفترة .

وفي أواسط الستينات ظهر جيل جديد يمثل تنوعا في الاتجاه فيسمح بمقارنة النصوص المتشابهة على أساس نقدي صرف وهو ماتقول به الدراسة

الأمريكية ، فقد وجدت لها فى مصر فى الآونة الأخيرة اتباعا من الدارسين والباحثين الذين شايعوها وساروا على نهجها .

أما فى الأزهر الشريف فقد تولى تدريس هذه المادة - فى أوائل الخمسينات - الدكتور الشيخ محمد الفحام بعد عودته من السربون ثم الأستاذ محمد البحيرى أحد أساتذة كلية اللغة العربية ثم توالى الأساتذة من أبناء الأزهر تدريس هذه المادة والتأليف فيها ومنهم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى الذى كتب « دراسات فى الأدب المقارن » (من جزأين) والأستاذ الدكتور حسن جاد فى كتابه « الأدب المقارن » ثم أخيرا الأستاذ الدكتور السيد العراقى فى كتابه « الأدب المقارن » .

هذا ولا يزال الأدب المقارن فى مصر يعانى من صعوبات جمة ويواجه تحديات كثيرة تتعلق بقلة المصادر ، وركود حركة الترجمة ، والضعف فى اللغات الأجنبية ، وعدم الاستقرار المنهجى ، واختلاف اتجاهات وثقافات الدارسين والمعاهد العلمية .

طبيعـــة الشعر
بين حازم القرطاجنى وباكـون

بقلم الدكتور

محمد عبد الجواد فاضل

مدرس الأدب والنقد

تصـــدير Preface :

تمتـاز الدراسات التقـــابلية Contrastivestudies بالنشاط والحيوية Enerqy and Activity إذ يقابل فيها فكر بفـكر وثقافة بثقافة وحضارة بأخرى ، فهى من قبيل الموازنة ، التى كانت أخصب اتجاهات النقد الأدبى منذ نشأته (١) ، ومن هذه الدراسات ما نحن بصدده من التعرف على طبيعة الشعر بين حازم القرطاجنى (٢) وفرنسيس باكون (٣) Francis Bacon وفيها

---

(١) أبو العلاء الناقد الأدبى . دكتور السعيد عبادة ص ٤٣ . الطبعة الاولى سنة ١٩٨٧م ـ دار المعارف .

(٢) أبو الحسن ضياء الدين حازم بن محمد الأنصارى القرطاجنى (بفتح القاف) نسبة من قرطاجنة الأندلس لا من قرطاجنة تونس ـ وفى البغية : القرطاجى ـ وهو عالم فى البلاغة والأدب واللغة والعروض ، ناثر ناظم ، ومن آثاره : منهاج البلغاء فى علمى البلاغة والبيان وكتاب فى القـوافى ، والقصيدة الميمية فى النحو ، ولد سنة ثمان وستمائة هجرية (١٢١١م) وتوفى بتونس سنة أربع وثمانين وستمائة هـ (١٢٨٥م) انظر : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٩١/١ ، ٤٩٢ , الطبعة الاولى ـ الحلبى ١٣٨٤هـ ، معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ١٧٧/٣ مطبعة الترقى بدمشق ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ٣٨٧/٦ ، ٣٨٨ القدسى ١٣٥١هـ .

(٣) ولد بلندن فى أوائل ١٥٦١ واشتغل بالقضاء والمحاماة وكان [illegible] =

نواجه فكرا بفكر ورأيا برأى انرى أوجه الاتفاق والاختلاف من خلال المقارنة مع مراعاة الفارق الزمنى بين حازم وباكون إذ النقد يتغير من عصر إلى عصر ومن جنس أدبي إلى جنس أدبي آخر .

وقد بدأت صلتي بباكون حينما عثرت على نظريته النقدية : « طبيعة الشعر The nature of poetry » في كتاب « نظريات نقدية إنجليزية[1] English critical theories » وهذه النظرية قد أخذت – في الأصل – من كتاب « تقدم المعارف The Adancement of learninq » لباكون وقد بذلت في ترجمتها جهدا لا يستهان به ، لأنها كتبت بلغة إنجليزية قديمة فضلا عن احتوائها على بعض الكلمات اللاتينية ، وما كنت أدرى أن الأستاذ العقاد سبقنى إلى ترجمة الجزء المتعلق بالشعر في هذه النظرية وترك الجزء الوارد في صدرها لأنه يتعلق بالحديث عن مصادر المعرفة وأقسام التاريخ وقد تفضل – مشكورا – الأستاذ الدكتور / إبراهيم الخولى بمراجعة الجزء الذى

= في عداد العلماء والحكماء بل في عداد الساسة والفقهاء قبل أن يخطر له الدخول باسمه وعمله في زمرة الأدباء ، وأكبر الظن أنه كان يأبى أن يحسب من أدباء اللغة الإنجليزية خاصة لأنه كان على سنة علماء عصره يعول في الكتابة الرفيعة على اللغات القديمة ، كاللاتينية واليونانية دون هذه اللغات الحديثة التى تعرض المقل للافلاس كما قال !

من مؤلفاته : تقـدم المعارف The Advancement of Iearninq الذى أصدره سنة ١٦٠٥م انظر : المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد – المجلد التاسع عشر (تراجم وسير) ص ٣٠٦ – ٣٢٠ دار الكتاب اللبنانى – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨١م . » بتصرف « :

(١) انظر : Look at

English critical theories (1) from Aschom to Ben gonson. P. 309—314—published by the anglo —Egyption Bookshop.

تركه الأستاذ العقاد بل وأعاد صياغته بأسلوب أدبي راق وإن كان هذا الجزء لم يدخل ضمن الدراسة التي بين أيدينا .

وقد آثرت الاعتماد على ترجمة الأستاذ العقاد ، منبها على مالجأ إليه من إجمال[١] أو تصرف في المعنى في بعض المواطن .

أما عن القضايا النقدية التي أثارها باكون في نظريته فهي تتمثل في بيانه حد الشعر ومقوماته وفي حديثه عن دوافع الفلوفيه ، وأقسام الشعر ومكانته والتفاؤل بمستقبله .

هذه هي القضايا النقدية التي آثارها باكون في نظريته[٢] وهي - بالتالي - ستحدد لنا مانعرضه من القضايا عند حازم ممثلة في تعريف الشعر وبحث مقوماته والفلوفيه وأقسامه ومكانته والرؤية المستقبلية له ، وهنا يثار سؤال لابد لنا من الإجابة عليه ولكن في حدود ماتوصلنا إليه ، وهذا السؤال هو : ما الصلة بين حازم وباكون ؟ وهل تأثر أحدهما بالآخر ؟

---

(١) حينما ترجم الأستاذ العقاد دوافع الغلو في الشعر عند باكون أجملها في اثنين دون الإشارة إلى الثالث وهو :

« ولأن التاريخ الصحيح يقدم الأعمال الناجحة ونتائج الأعمال لا تكون متفقة مع أهلية واستحقاق الفضيلة والرذيلة ، فإن الشعر يختلق في هذه الأمور لتصبح أكثر عدلا في الجزاء ، وأكثر مطابقة للدليل الواضح » وفي هذا المعنى يقول باكون :

Because true history propoundeth the successes and issues of action not so agreeable to the merits of virtue and vice, therefore poesy Feigns them more gust in retribution and more according to revealed providence. Look at : English critical theories (1) P. 311

(٢) نص الترجمة موجود في : المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ / عباس محمود العقاد ، المجلد التاسع عشر (تراجم وسيره) ص٤٢٣ ح ٤٢٦ .

والجواب : أن الصلة بين حازم وباكون مردها إلى أن كليهما متأثر بالفكر اليوناني[1] أما تأثر أحدهما بالآخر فهذا مالم أقف فيه على دليل « وقد أشار باكون فى كتابه « طوبى الجديدة The New Atlantis إلى العرب وذكر فيه بعض الأسماء العربية ولكننا لم نجد فى كتبه كلها دليلا على استفادة مباشرة من مطالعة الكتب العربية المترجمة إلى اللغات الأوربية وكل ما استفاده من هذه الكتب فهو منقول من المصادر الأخرى كما ينقل التابعون عن السابقين شاعرين بذلك أو غير شاعرين » .

ويكفى فى « الدراسات المقارنة The Comparative studies » أن تكون هناك مظنة لتأثير وتأثر .. وقد تنتهى الدراسة بتأكيدها أو نفيها ، وفى مثل هذا البحث : المظنة قائمة ، وإلى جانبها عامل آخر هو أن كلا من حازم وباكون متأثر بالتراث اليونانى وبأرسطو على الخصوص والمقارنة فى مثل هذا نكشف عن مسيرة فكر فى بيئتين مختلفتين وكيف يكون تشكله بوعائهما الثقافى بل إن الدراسات النقدية التقابلية يكفى لقيامها ـ فى رأيى ـ الاتفاق على إثارة قضايا نقدية معينة وأن اختلفت فيها وجهات النظار شريطة أن تعنى هذه الدراسة بالثوابت والمتغيرات ـ فيما تدرسه ـ فتحدد مكانها .

وتعرف بمقدارها وتركز على أوجه التلاقى ، وسر المفارقة ، فكثيرا ماتختلف وجهات النظر ولكنها ـ فى الوقت نفسه ـ لا تكون متعارضة . وخليق بنا أن نولى مثل هذه الدراسات حظها من العناية والاهتمام ، حرصا على إثراء تراثنا واكتشافا لاصالته وتعميقا لفهمه وإدراكه ، ومن هذا المنطلق أقدم هذه الدراسة المتواضعه متوخيا فيها الإيجاز والتركيز وقد

---

(١) بالنسبة لباكون ينظر المرجع السابق ص ٣٠٢ ـ ٤١٠ ، أما عن تأثر حازم بالفكر اليونانى فسيأتى بيانه فى تعريف الشعر .

حظيت بمراجعة أستاذين جليلين هما أ . د/السعيد عبادة ، أ . د/ إبراهيم الخولي جزاهما الله عن العلم خير الجزاء وأسأله عونه وتوفيقه فهو سبحانه نعم الموفق المعين .

تعريف الشعر Definition of The poetry :

الشعر عند حازم « كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب . فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها[1] .

وواضح من هذا التعريف أن الشعر عنده لا يتحقق بمثل ما تحقق به عند قدامة من تآلف واتفاق كاملين بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية[2] بل لا بد فيه - ليكون خليقا بهذه التسمية - أن يثير إغرابا ويحدث تعجبا عند السامع .

ولذا كان « أفضل الشعر عنده ما حسنت محاكاته وهيأته وقويت شهرته أو صدقه أو خفي كذبه وقامت غرابته . وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة واضح الكذب ، خليا من الغرابة[3] .

والمتأمل في تعريف حازم للشعر يلمس كبير تأثره بآراء أرسطو لحازم

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني - تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ص ٧١ - تونس ١٩٦٦ .

(٢) نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق / كمال مصطفى ص ٢٥-٢٦ الطبعة الثالثة - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٩٨ هـ .

(٣) منهاج البلغاء ص ٧١ ، ٧٢ .

ـ من غير شك قد أفاد كثيراً من مطالعته لكتاب فن الشعر للمعلم الأول[1].

وقد ذهب فيه إلى أن الشعر محاكاة[2] أى « تمثيل أفعال الناس ما بين خيرة وشريرة ، بحيث تكون مرتبة الأجزاء على نحو يعطيها طابع الضرورة أو طابع الاحتمال فى توالد بعضها من بعض »[3] .

فإذا جئنا إلى باكون وجدناه يعرف الشعر[4] بأنه « جزء من المعرفة فى قالب كلمات مقيدة بعض التقييد ، ولكنها فيما عدا ذلك غاية فى الترخص والطلاقة ، ومرجعها الأصيل إلى الخيال الذى لا تربطه قوانين المادة ، ولهذا يصل كما يشاء بين ما فصلته الطبيعة ويفصل بين ما وصلته ويزاوج ويطابق بين الأشياء على غير السنة المشروعة كما قيل : « إن الرسامين والشعراء قد أبيح لهم دائماً ما يرومون » .

والمتأمل فى تعريف حازم وباكون يرى أن من لوازم الشعر وضروراته التخييل Imaqination فجوهر الشعر فى نهاية الأمر هو الإنفعال وغايته التأثير فى النفوس وإثارة العواطف كما قال أمير الشعراء :

والشعر مالم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان[5]

واتفاقهما فى اعتماد الشعر على الخيال أدى إلى اقتناعهما ببعد غايات الشعراء وامتداد آمادهم فى معرفة الكلام واتساع مجالهم فى جميع ذلك غير

---

(١) للتأكد من ذلك ، تراجع ـ على سبيل المثال ـ الصفحات (٦٨ ، ٦٩) (٨٥ ، ٨٦ ، ١١٦) فى المنهاج وتقابل بالصفحات (١٦٩ ، ١٧٠) (١٦١،١٦٢)، (١٧١) فى فن الشعر لأرسطو طاليس . ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه الدكتور/ عبد الرحمن بدوى مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣ م .

(٢) فن الشعر ص ١ .

(٣) النقد الأدبى الحديث . تأليف الدكتور/ محمد غنيمى هلال ص ٤٩ الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م . دار مطابع الشعب .

(٤) المجموعة الكاملة ـ المجلد التاسع عشر ص ٤٢٣ .

(٥) الشوقيات المرحوم / أحمد شوقى ٢/١٠٣ ـ دار العودة ـ بيروت لبنان .

أن باكون قد عرض هذا المعنى بإيجاز فى تعريفه للشعر ، وتناوله حازم باستفاضة وفى مواضع شتى من كتابه مستشهدا على ذلك بقـــول الخليل ابن أحمد :

« الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ويجوز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللفظ وتعقيده ، ومد المقصور وقصر الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته ، واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه ، فيقربون البعيد ويبعدون القريب ، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ويصورون الباطل فى صورة الحق والحق فى صورة الباطل[1] .

ولكن تعريف الشعر عند حازم أتم وأوضح منه عند باكون فقومات الشعر عند حازم هى الوزن measure والقافية Rhyme والتخييل Imaqination والمحاكاة Resemblance فى حين لم يشر باكون إلى القافية كعنصر من عناصر الشعر وكلمة measure التى أوردها فى نصه إنما تعنى الوزن أو التفعيله[2] فهل الشعر الإنجليزى خال من القافية ؟ الجواب لا ، ففى الفرنسية والإنجليزية تتفق قافية البيت مع قافية الذى بعده وهى القافية المتعانقة rime embrassée أو مع التالى لما بعده وهى القافية المتقاطعة rime croisée على حين القافية فى الشعر العربى القديم تسير على نمط واحد مع لزوم مالا يلزم أو بدونه[3] .

وإيضاحا لما ذكر من القوافى المتعانقة والمتقاطعة اختار نصين لشاعرين معاصرين لباكون :

النص الأول للشاعر توماس كامبيون Thomas Campion (١٥٦٧ — ١٦٢٠) بعنوان There is a Garden in Herface يقول فى مطلعه :

---

(١) منهاج البلغاء ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) المورد (قاموس إنكليزى عربى) منير البعلبكى ص ٥٦٦ .

(٣) النقد الأدبى الحديث د/ غنيمى هلال ص ٤٧٥ ، ٤٧١ .

There is a garden in her faee
Wherc roses and white lilies grow.
A heavenly paradise is that place
Wherc in all plcasant fruits do Flow. (1)

فالقافية هنا متقاطعة حيث اتفقت قافية البيت الأول مع الثالث والثانى مع الرابع ، ومعنى الأبيات :

هنـــاك بستان فى محيـــاها
حيث تنمو الورود والسوسن الأبيض
جنـة الفردوس فى هـذا المـكان
فيه وفر مـن من الثمار الجميلة

أما النص الثانى فهو للشاعر توماس ناش Thomas Nashe (١٥٦٧ — ١٦٠١) بعنوان الربيع Spring يقول فى مطلعه :

Spring, the sweet spring, is ths year,s pleasant kiug
Then blooms cach thing, then maids dance in ring
Cold doth not sting, the pretty birds do sing (2).

فالقافية هنا متعانقة حيث جاءت فى الأبيات الثلاثة متفقة ، ومعنى الأبيات :

الربيع : ذاك الربيع الجميل ملك العام البهيج
فيه يتفتح كل شىء ، وترقص الفتيات فى حلقات

---

(1) — poetry english An Anthology. M.L. Rosenthel Goneral Editor P. 207 Oxford — 1987

(2) A Little Treasury of English poetry. Edited by Roshad Rushdy P. 31 Anglo Egyption Bookshop 4th edition 1970. printed da dar wahdan press.

لم يعد لسع الصقيع ، بل شدو الطيور الجميلة

وليست القوافي المتعانقة والمتقاطعة هي كل ما في الإنجليزية ، فبالرجوع إلى المعجم(١) وجدت أنماطا أخرى من القوافي هي :

١ ـ القافية الأمامية أو الجناس الاستهلالي Head rhyme or Alliteration (تكرير حرف أو أكثر في مستهل لفظتين متجاورتين مثل(٢) (Threatening thrngs

٢ ـ القافية الداخلية أو الإيقاع الداخلي Internal rhyme (إيقاع بين لفظة في بيت شعر ولفظة أخرى في نهاية ذلك البيت أو في بيت آخر(٣).

٣ ـ القافية الغنية Rich rhyme or rime rich وفيها تتشابه الحروف الصامتة التي تسبق ـ مباشرة ـ الحروف المنبورة ولكن هذا النوع الأخير من القوافي موجود في الفرنسية(٤) وهو قريب الشبه بما نسميه عندنا « لزوم مالا يلزم » .

فالقافية موجودة في الشعر الإنجليزي وإن لم يكن لها من المكانة والهيمنة ما للقافية في الشعر العربي إذ القصيدة الإنجليزية كثيرا ما يجتمع فيها أكثر من نمط واحد من القوافي أما العرب ف ، لم يكتفوا بالتزام الحرف الأخير في القافية وهو حرف الروي بل التزم بعضهم تقفية أبيات القصيدة كلها

---

(١) انظر :

Chambers Twen'e th century dictionary revised edition with supplement, edited by A.M.

Macdonald OBE BA (OXon). P. 1160 Printed and bound in great Britain, Latest Reprint 1981

(٢) المورد ص ٣٩ . Chambers .. Dictionary P 1160

(٣) المورد ص ٤٧٥ .

بأكثر من حرف واتبع ذلك أبو العلاء فى «لزومياته» وسموا هـــذا الوجه من وجوه البلاغة عندهم «لزوم ما لا يلزم» وكان مقياس براعة فى الشعر العربى لأنه يزيد وحدات الإيقاع الصوتية[1] :

والخلاصة أن الوزن والخيـال من مقومات الشعر والثوابت فيه عند حازم وباكون أما القافية فهى كذلك عند حازم ولكنها قد تكون مهملة عند باكون إذ لم يشر إليها كعنصر من عناصر الشعر الأهم إلا إذ كان قد دل على الشعر بأهم عناصره وهو الوزن كما فعل أبو العلاء حينما قال : الشعر كلام موزون تقبله الفريزة على شرائط ، إن زاد أو نقص أبانه الحس»[2] ، وقد يقال : إن وصف كلمات الشعر ـ عند باكون ـ بأنها مقيدة Restrined بعض التقييد يتضمن إشارة ملائمة للقافية فى أركان الشعر الإنجليزى .

الصدق والكذب (الغلو) فى الشعر :

The Exaqqeration in The poetry

« شغلت قضية الصدق والكذب حيزا واسعا فى النقد العربى وانقسم النقاد فى ضوئها إلى فريقين : فمن مؤيد للصدق وداع إلى حرفية الشعر ومطابقته للواقع الخارجى ، وآخر ذاهب إلى نصرة الخروج عن ربقة هذه المطابقة ، ومنح الشاعر آفاقا رحبة يتجلى فيها خياله وتظهر قدرته على استعمال المجاز ولا سيما الاستعارة التى تكمن وراءها موهبة الشاعر الحقة القادرة على التصوير وإبداع المعانى البعيدة فى ألفاظ تحس وتلمس[3] :

ولعل الفريق الأول ـ فى رؤيته هذه ـ كان يصدر عن فكر إسلامى يتوخى الصدق فى كل شىء حتى فى الشعر متأثرا ببيت حسان :

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٤٧٠ .

(٢) أبو العلاء الناقد الأدبى ص ١٣٥ .

(٣) أبو العلاء المعرى ناقدا ـ تأليف وليد محمود خالص ص ١١٤ ـ دار الرشيد للنشر ـ العراق سنة ١٩٨٢ م .

وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا[1]

وأثناء الخليفة عمر بن الخطاب على زهير لأنه كان « لا يمدح الرجل إلا بما فيه »[2].

وفى كل هذا تأكيد لقيمة الصدق فى الشعر والحث على اتباعه.

ولكن هذه النظرة تحد من فاعلية الخيال وتحول دون انطلاقه فتظل موهبة الشاعر كامنة ومعطلة.

ومن هنا لم يكن لهذه النظرة أصداء واسعة فى النقد العربى كالذى أحدثته النظرة المقابلة لها وهى التوسعة على الشعراء وتقبل مبالغتهم فللشعر تغيير الصفات والشعراء مطلق لهم ذلك لأن الآية شهدت عليهم بالتخرص وقول الأباطيل « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون »[3].

وإذا كانت قضية الكذب فى الشعر لها جذور إسلامية ـ كما رأينا ـ فإن لها بجانب ذلك أصلا يونانيا مرده إلى الفيلسوف اليونانى أرسطوطاليس حينما تحدث عن الصدق والكذب فى الشعر فقال : « إذا قام النقد على دعوى عدم الانطباق على الواقع والحقيقة فربما يمكن الرد على ذلك بأن نقول : إن الشاعر إنما صور الأشياء كما يجب أن تكون »[4].

---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت ـ ضبط عبد الرحمن البرقوقى ص ٣٩٨ المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ـ قرأه وشرحه محمود شاكر ٦٣/١ ، مطبعة المدنى القاهرة .

(٣) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى دراسة نقدية تأليف الدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٤٦ ، طبعة دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٢ م .

(٤) فن الشعر ص ٢٧٣ .

وقد عرض حازم هذه القضية مفصلا القول فيها ومشيرا إلى أن الأقاويل الشعرية يجب أن تكون غير واقعة أبدا فى طرف واحد من النقيضين (الصدق والكذب) ولكنها تارة تكون صادقة وتارة تكون كاذبة لأن ماتتقوم به الصناعة الشعرية وهو التخييل غير مناقض لواحد من الطرفين[١] .

ونبه على أن الأقاويل الشعرية لها مواطن حقيقة بتوخى الصدق ومواطن لايليق بها ذلك ، وأن مواطن الشعر باعتبار الصدق والكذب خمسة لكل مقام منها مقال[٢] .

والأقاويل الصادقة ـ فى رأيه ـ تحرك النفوس إلى ما يراد منها تحريكا شديدا أما الأقاويل الكاذبة فهى لاتحرك النفوس إلا حيث يكون فى الكذب بعض خفاء ، أو حيث يحمل النفس شدة ولعها بالكلام لفرط ما أبدع فيه على الانقياد لمقتضاه ، ومع هذا فتحريكها دون تحريك الأقاويل الصادقة إذا تساوى فيهما الخيال[٣] .

ثم يكشف عن الظروف والملابسات التى تحمل الشاعر على القول الكاذب فيقول : « وإنما يرجع الشاعر إلى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر بالنسبة إلى مقصده من الشعر فقد يريد تقبيح حسن وتحسين قبيح فلا يجد القول الصادق فى هذا ولا المشتهر فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة »[٤] .

ويستشهد فى هذا المقام بقول أبى على ابن سينا .

« والمحاكاة شىء من التعجيب ليس للصدق لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طرامة له . والصدق المجهول غير ملتفت إليه ، والقول الصادق

(١) منهاج البلغاء ص ٦٢ ـ ٦٣ بتصرف .
(٢) منهاج البلغاء ص ٨٥ بتصرف .
(٣) منهاج البلغاء ص ٨٢ .
(٤) منهاج البلغاء ص ٧٢ .

إذا حرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس فربما أفاد التصديق والتخييل معا وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق(١) .

والشاعر متأكد في حقه أن يعرف الوجوه التي تصير بها الأقاويل الكاذبة موهمة انها صدق ، والقول الكاذب يصير مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له(٢) .

والأقاويل الشعرية في تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ماهي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح حقيقة ، أو على غير ماهي عليه تمويها وإيهاما مثل ماتشف لك آنية الزجاج عن صورة ما تحويه .

فلذلك صارت الأقاويل الشعرية أشد إبهاجا وتحريكا للنفوس من غيرها فلشدة مناسبة الأقاويل الشعرية للأغراض الإنسانية كانت أشد تحريكا للنفوس وأعظم أثرا فيها(٣) .

ثم يفرق بين الممتنع والمستحيل بأن الممتنع : هو مالا يقع في الوجود وإن كان متصورا في الذهن كتركيب يد أسد على رجل مثلا .

والمستحيل : هو مالا يصح وقوعه في وجود ولا تصوره في ذهن ككون الإنسان قائما قاعدا في حال واحدة .

والكذب الإفراطي معيب في صنعة الشعراء إذا خرج من حد الإمكان إلى حد الامتناع أو الاستحالة(٤) .

ومن المبالغات التي يمكن أن تتصور لها حقيقة وأن تصرف إلى جهة الإمكان قول المتنبي(٥) .

---

(١) منهاج البلغاء ص ٨٦ . (٢) منهج البلغاء ص ٦٣ بتصرف .

(٣) منهاج البلغاء ص ١٢٠ – ١٢١ بتصرف .

(٤) منهاج البلغاء ص ٧٩ .

(٥) شرح ديوان المتنبي – وضعه عبد الرحمن البرقوقي ٣/٢٣٣ الطبعة الثانية ١٣٥٧/١٩٣٨ م مطبعة السعادة .

وأنى اهتدى هذا الرسول بأرضه
وما سكنت مذ سرت فيها القساطل[١]

ومن أي ماء كان يسقى جياده
ولم تصف من مزج الدماء المناهل[٢]

لجائز في حق ممدوحه أن يريق من دماء الروم ما تكدر منه المياة مدة فأراد المبالغة في ما أراق هذا الممدوح من دماء أعدائه فجعله بالغا إلى ذلك المقدار ، ولا يلزم أبا الطيب أن يكون صادقا في ذلك لأن صناعة الشعر لها أن تستعمل الكذب إلا أنها لا تتعدى الممكن من ذلك أو الممتنع إلى المستحيل ، وإن كان الممتنع فيها أيضا دون الممكن في حسن الموقع من النفوس[٣] .

« وإنما ساغ في الشعر وقوع الكذب في الممكنات ولم يسغ في المستحيلات لأن الأمر إذا كان ممكنا سكنت إليه النفس وجاز تمويهه عليها ، والمحال تنفر عنه النفس ولا تقبله ألبتة فكان مناقضا لغرض الشعر إذ المقصود بالشعر الاحتيال في تحريك النفوس لمقتضى الكلام بإيقاعه منها بمحل القبول بما فيه من حسن المحاكاة والهيئة بل ومن الصدق والشهرة في كثير من المواضع[٤] .

ويجوز - في رأيه - أن يوضع الممتنع وضع الجائز إذا كان المقصود بذلك ضربا من المبالغة فأما إذا لم تقصد مبالغة فلا يوضع جائز وضع ممتنع ولا ممتنع وضع جائز . ومن أمثلة ذلك فيما لم نقصد فيه مبالغة قول بعضهم :

---

(١) القساطل : جمع قسطل وهو الغبار الذى تثيره الخيل .
(٢) المناهل : الموارد .
(٣) منهاج البلغاء ص ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٤) منهاج البلغاء ص ٢٩٤ .

فإن صورة راقتك فاخبر فربما ... أمر مذاق العود والعود أخضر[1]

فبنى على أن مرارة العود أكثر ما تكون عند اليبوسة وأنها فى الأخضر على سبيل القلة ، والأمر بخلاف ذلك لأن وجود المرارة مع الخضرة هو الأكثر فكأنه وضع الواجب فى الأكثر ،وضع الجائز فى الأقل وهذا غلط مستقبح فى المعانى مؤد إلى انعكاس حقائق الأشياء[2] .

فإذا جئنا إلى باكون وجدناه يتحدث عن الغلو أو التزيد شارحا أسبابه وآثاره فيقول :

« ويؤخذ الشعر على مأخذين فى كلماته أو مادته ، فهو على أحدهما نسق من الأسلوب يرجع إلى صناعات الكلام ولا شأن لنا بها فيما نحن بصدده الآن ، وهو على المأخذ الآخر - كما قيل قسم من أقسام المعرفة العامة لا يعدو أن يكون فى الحقيقة نمطا من التاريخ الرمزى يدخل فى المنثـــور كما يدخل فى المنظوم .

وغرض هذا التاريخ الرمزى هو أن يعطى العاقل الإنسانى ظلا من الرضا فى تلك الأحوال التى تضن طبيعة الأشياء بإرضائه فيها ، فالدنيا فى وضعها بمرتبة دون مرتبة الروح ، ويحدث من أجل ذلك أن تحس الروح بعظمة أوسع وخير أحكم وتنوع أعم وأكبر مما تحتويه طبائع الأشياء .

ولما كانت حوادث التاريخ الصحيح لا ترتقى فى مداها إلى مرضاة العقل الإنسانى ، فالشعر يمثل له أعمالا وحوادث أرفع وأقرب إلى البطولة لأن التاريخ الصحيح يعرض لنا الأعمال والحوادث المألوفة التى يقل التنوع

---

(١) البيت لخالد بن صفوان أورده قدامة بن جعفر والمرزبانى ومثلا به للعيب من معانى الشعر بسبب مخالفتها للعرف : نقد الشعر لقدامة ص ٢١٥ - والموشح للمرزبانى تحقيق/ على محمد البجاوى ص ٣٦٢ - دار نهضة مصر ١٦٥ م .

(٢) منهاج البلغاء ص ١٤٦ .

فيها فيهب لها الشعر ندرة وتنوعا غير متوقع أو معهود ، وهو ما يظهر منه أن الشعر ينزع إلى الطيبات ومحاسن الأخلاق وبهجة الخواطر وبهذه المثابة يعتقد دائما أن له حظا من الإلهام الإلهى مذ كان يرفع العقول ويقومها من حيث يربطها المنطق بطبـــائع الأشياء ويثنيها لسلطانها وبهذه الإيحاءات والمطابقات بين طبيعة الإنسان والسرور مع مجاراتها للنغم الموسيقى والصوت الموزون كان للشعر مدخل وتقدير فى عصور البربرية الخشنة لم يكن لباب آخر من أبواب المعرفة والتعليم(١) .

وقبل أن أعرض أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين حازم وباكون فى معالجتهما لقضية الغلو فى الشعر أود أن أشير إلى أمرين فيما يتعلق بترجمة الأستاذ العقاد لهذه الفقرة المتصلة بالغلو :

أولا : أنه آثر التعبير بالرمز Symbol - فى التاريخ والشعر - على الكذب والاختلاف أو الغلو والتزيد « والرمز حيلة فنية تشير إلى شىء يختلف عما تعرضه »(٢) .

ثانيا : انه لجأ إلى الإجمال فأغفل ذكر أحد الأسباب الباعثة على إيثار التعبير عن الأحداث شعرا بدلا من التاريخ الصحيح(٣) .

والمتأمل فيما عرضه حازم وباكون فى مسألة الغلو يرى اتفاقهما فى كون الغاية من الشعر المتعة وتحريك النفوس ، ولبيان هذه الغاية - عند حازم - يطلعنا على موازنة بين الشعر وغيره من الفنون فليس ما سوى الأقاويل الشعرية مماثلا للأقاويل الشعرية فى حسن الموقع من النفوس فحصول

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ / العقاد - المجلد التاسع عشر (تراجم وسيره) ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٢) فى الشعر الأوربى المعاصر تأليف الدكتور / عبد الرحمن بدوى ص ١٣٤ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .

(٣) نبهت إلى ذلك فى صدر التمهيد ووضحت ما أغفله بين قوسين .

ماعدا الأقاويل الشعرية كحصول العلم مثلا بامتلاء إناء أو خلوه بأن يبصر مثلا يرشح أو يوجد ثقيلا أو يبصر مكفأ ويوجد خفيفا .

وحصول الأقاويل الشعرية مثل ماكشف لك آنية الزجاج عن صورة ماتحويه فلذلك صارت الأقاويل الشعرية – عنده – أشد إبهاجا وتحريكا للنفوس من غيرها[1] .

وكأنما نظر الناقد الأوربي سنتيانا – في نظريته عن حقيقة الشعر إلى ماذهب إليه حازم حين رأى أن الشعر يشبه الزجاج الملون في النوافذ ؛ فبينما الزجاج الشفاف لا يصلح إلا لتوفير النور نجد الزجاج الملون يسمح بنفوذ النور وصبغه بألوان تتمشقها الأبصار وتفعل فيها فعل السحر ، فكذلك الشعر يصبغ الألفاظ بألوان تأسر الانتباه وتضفي على الألفاظ سحرا[2] .

فإذا جئنا إلى باكون وجدناه يحصر دائرة الموازنة بين الشعر والتاريخ . فالتاريخ الصحيح – في رأيه – يعرض الحوادث المألوفة التي يقل فيها التنوع فيهب لها الشعر ندرة وتنوعا غير متوقع أو معهود .

والصدق المشهور – عندهما – كالمفروغ منه ولاطرادد له ؛ والقول الصادق إذا حرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس كان أكثر إمتاعا واللجوء إلى الكذب قد تمليه الضرورة ، وهي تتحقق عند حازم حينما يفتقد القول الصادق الذي يحقق مقصد الشاعر إذا أراد تقبيح حسن وتحسين قبيح أما عند باكون فتتمثل في محاولة إعطاء العقل الإنساني ظلا من الرضا في تلك الأحوال التي تضن طبيعة الأشياء بارضائه فيها .

ومن هنا لم تكن مهمة الشاعر عندهما محصورة في رواية الأمور كما وقعت فعلا بل أيضا رواية ما يمكن أن يقع .

(١) منهاج البلغاء ص ١٢٠ بتصرف .

(٢) في الشعر الأوربي المعاصر ص ١٢١ .

وتأكيداً لما ذهبنا إليه يرى الناقد الإيطالى فرنشسكو روبرتلو Francesco Robertello أن الشعر موهبة إلهية يستعين بها الناس مدخلاً إلى الفلسفة وقيمته الرئيسية فى الخيال ... والشاعر ليست مهمته أن يروى الوقائع كما حدثت Res gesta بل يروى الأشياء التى كان يمكن أن تقع أو كان يجب أن تقع ، فوظيفة الشعر إذن مزدوجة : محاكاة الأشياء والأحياء وفقاً للطبيعة أو خارجا عن الطبيعة(١) .

ولذا ينبغى الحكم على الشعر من حيث هو شعر طبقاً لنوع التجربة الخالية التى يمدنا بها فحسب ، ولا يجوز الحكم عليه بمعيار ما فيه من خير خلقى ، أو بمعيار صدقه بالنسبة لشىء يقع خارجه(٢) .

وإذا كنا قد لمسنا كثيراً من جوانب التلاقى والاتفاق بين حازم وباكون فى معالجتهما لقضية الغلو ، فهناك بعض النقاط التى انفرد بها حازم كحصر مواطن الشعر باعتبار الصدق والكذب ، والتنبيه على أن للشعر مواطن حقيقة بتوخى الصدق ومواطن لايليق بهما ذلك ، والتفريق بين الممتنع والمستحيل وبيان أن الكذب الإفراطى معيب فى صنعة الشعر إذا خرج عن حد الإمكان إلى حد الامتناع والاستحالة ، الأمر الذى يجعلنا نؤكد أن هذه القضية قد عولجت عند حازم بتفصيل وإسهاب وعند باكون بإيجاز واقتضاب .

تقسيم الشعر Divion of the poetry :

اتجه حازم إلى تقسيم الشعر إلى نوعين متمايزين هما الجدى Earnest

---

(١) مقدمة فن الشعر لأرسطو ص ١٥ .

(٢) الشعر والتأمل ـ تأليف روستريفور هاملتون . ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوى ، مراجعة الدكتورة سهير القلماوى ص ١٩ ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣ م .

والهزلى Goky فبحث خصائصهما وتعرض لمـــا يليق بكل واحد منهما من الأغراض والمبانى ونبه إثر ذلك على جواز أخذ كل واحد من اللونين بشىء من ملابسات ومتعلقات الآخر متى دعت لذلك ضرورة بشرط أن لا يخرجه مثل هذا التجوز عن دائرته أو يفصله عن جنس ما أريد به ، وفى هذا يقول: « والشعر ينقسم أولا إلى طريق جد وطريق هزل .. فأما طريقة الجد فهى مذهب فى الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك .

وأما طريقة الهزل فإنها مذهب فى الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مجون وسخف بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك(١) .

ويجب فى طريقة الجد « ألا يتعرض فيها إلى منحى من مناحى الهزل - ولو بإشارة - إلا حيث يليق ذلك بالحال والموطن»(٢) .

« وتختص الطريقة الجدية بأن يجتنب فيها الساقط من الألفاظ والمولد ، ويقتصر فيها على العربى المحض وعلى التصاريف الصريحة فى الفصاحة المطردة فى كلامهم .. ويتسامح فى إيراد الحوشى والغريب فيها فى بعض المواطن »ومما تختص به العبارات فى الطريقة الجدية أن يتحرى فيها المتانة والرصانة كما تتحرى فى طريقة الهزل الحلاوة والرشاقة .

وقد تأخذ الطريقة الجدية بطرف من الرشاقة كما تأخذ الطريقة الهزلية بطرف من المتانة(٣) .

« ومما تختص به طريقة الهزل ويجب اعتماده فيها أن تكون النفس فى كلامها مسفة إلى ذكر ما يقبح أن يؤثر ، وألا تقف دون أقصى ما يوقع الحشمة ، وألا تتكبر عن صغير ولا ترتفع عن نازل وألا تطرح ماله باطن

---

(١) منهاج البلغاء ص ٣٢٧ . (٢) منهاج البلغاء ص ٣٢٨ .

(٣) منهاج البلغاء ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

هزلى وإن كان له ظاهر جدى ، وأن ترد ما يفهم منه الجد إلى ما يفهم منه الهزل بتخليص ذلك إلى خير الهزل[١] .

وتأخذ طريقة الجد من طريقة الهزل المعـــانى التى فى ذكرها فى بعض المواضع أطراب وبسط للنفوس .

ومما تأخذه طريقة الهزل من طريقة الجد إيراد بعض المعانى العلمية على نحو من الإحالة عليها ببعض معانى الهزل والمحاكاة بها كقول أبى نواس :

صرت له رفعـــا على الابتداء وصار لى نصبا على الحال[٢]

ثم يعلق حازم على قوانين هاتين الطريقتين مؤكدا على ضرورة الإلمام بها فيقول: « فهذه قوانين مقنعة فيما يتعلق بالطريقة الجدية ومايتعلق بالطريقة الهزلية ، ومايتعلق بهما معا ، ومعرفتها أكيدة فى صناعة النقد والبصيرة بطرق الكلام وما يجب فيها ، فكثير من وجوه النقد والنظر فى هذه الصناعة يتعلق بها . وأيضا فإنه إذا أريد الحكم بين شاعرين متماجنين أيهما أشعر أو بين جاد وماجن أيهما أمضى فى طريقته وأبرع فيها لم يكن بد من معرفة هذه القوانين فى الطريقتين ، إذ بهما يتبين نمط كلامه وإعراقه فى الطريقة التى هو مبنى عليها وسلامته بحسب مايجب فيها[٣] .

ولحازم تقسيم آخر للشعر بحسب ماقصد به من الأغراض ، وقبل أن يوضح هذا التقسيم يذكر اختلاف الناس فى قسمة الشعر فقسمه بعضهم إلى ستة أقسام : مدح وهجاء ونسيب ورثاء ووصف وتشبيه . وذهب فريق ثان إلى أن أقسامه خمسة لأن التشبيه راجع إلى معنى الوصف ، وفريق ثالث يرى

(١) منهاج البلغاء ص ٣٣١ .

(٢) هذا البيت لم أعثر عليه فى ديوان أبى نواس ، وقد جاء فى هامش المنهاج (٣٣٤) ما يأتى : البيت غير موجود فيما جمع من شعر أبى نواس . وقد ورد منسوبا للفرزدق فى اختراع الخراع للصفدى .

(٣) منهاج البلغاء ص ٣٣٥ .

أن أركان الشعر أربعة : الرغبة والرهبة والطرب والغضب . وقال بعضهم : الشعر كله فى الحقيقة راجع إلى معنى الرغبة والرهبة[1] .

وهذه التقسيمات كلها ـ فى رأى حازم ـ غير صحيحة فكل تقسيم منها لا يخلو من أن يكون فيه نقص أو تداخل[2] ويرى أن الوجه الصحيح والمأخذ المستقيم فى القسمة التى لا نقص فيها ولا تداخل « أن أمهات الطرق الشعرية أربع وهى التهانى وما معها والتعازى وما معها . والمدائح وما معها والأهاجى وما معها ، وأن كل ذلك راجع إلى ما الباعث عليه الارتياح ، وإلى ما الباعث عليه الاكتراث ، وإلى ما الباعث عليه الارتياح والاكتراث معا[3] .

هذا هو تقسيم الشعر عند حازم . ونأتى الآن إلى تقسيمه عند باكون حيث يقول : « وللشعر أقسام يشارك فيها التاريخ كتمثيل الأخبار والسير وتمثيل الرسائل والخطب وما إليها ، ولكنه فيما عدا ذلك ينقسم أفضل تقسيم إلى فروع ثلاثة : وهى الشعر القصصى وشعر التصوير والتشبيه وشعر الرمز والإيماء أو الكناية .

فالشعر القصصى : إن هو إلا محاكاة للتاريخ مع الغلو والتزيد اللذين أشرنا إليهما فيما تقدم وموضوعاته على الإجمال هى الحرب والحب والسياسة نادرا والسرور واللهو فى بعض الأحيان .

وشعر التصوير والتشبيه : هو التاريخ الشاخص المنظور ، أو هو صور الحوادث كأنها حاضرة من حيث يكون التاريخ صورا لها فى الطبيعة كما هى ـ أى كما مضت ـ وشعر الرمز والكناية : هو سرد يراد به التعبير عن بعض الأغراض الخاصة أو التورية . وقد كانت هذه الحكمة الرمزية شائعة فى الأزمنة القديمة على أمثلة خرافات أيسوب Aesop ومأثورات الحكماء

---

(١) منهاج البلغاء ص ٣٣٦ .

(٢) منهاج البلغاء ص ٣٣٧ .

(٣) منهاج البلغاء ص ٣٠١ .

السبعة وما يظهر من استخدام الكتابة الهيروغليفية ، وعلة ذلك ضرورتها التعبير عن المرامى التى هى أدق وأخفى على فهم الغوغاء فى تلك العصور لأن الناس فى تلك العصور كان يعوزهم تنويع المثل ودقة التورية »[١] .

وواضح من تقسيم حازم وباكون أن هناك مفارقة هائلة بينهما ، فطريقة الجد والهزل عند حازم لم يقصد بها ماعرف فى الأدب اليونانى والأوربى بالمأساة The Traqedy والملهاة The Comedy وإن كانت تعد ـ فى الشعر العربى ـ مرحلة تمهيدية لها .

والأجناس الشعرية التى ذكرها باكون لم يتعرض لها حازم لأن الشعر العربى غنائى أو وجدانى Lyric poetry أما القصصى والمسرحى فهما جنسان سبقتنا إليهما آداب الغرب عصورا طويلة ، والشعر الغنائى مرحلة تمهيدية للشعر الموضوعى الذى يعالج أفعالا عامة ، وهذا الإدراك للشعر يختلف اختلافا جوهريا عن إدراك العرب له :

« فالشعر العربى ينحصر أو يكاد فى الشعر الغنائى وفيه يتغنى الشاعر بعواطفه ومشاعره الفردية من حب ومدح ورثاء وفخر وهجاء . . حيث ينطوى الشاعر على نفسه فيعبر عما يبدو له من خواطر لا يأبه فيها بآراء الآخرين بل قد لا يعبأ بالحقائق والنظم الاجتماعية ، لأن ذاته وغاياته وأهدافه الفردية هى شغله الشاغل فى نظمه ، وهى التى تشغل الجزء الأكبر من مادة موضوعاته ، حقا لا ينكر إنسان أن المشاعر الذاتية الصادقة قد تمثل ما تجيش به عواطف الشاعر أو خواطره ، بل قد تتلاقى فيها مشاعر آخرين ممن يشبهون الشاعر ، ويكون لها بذلك دلالة اجتماعية خطيره ولكنها ـ على أية حال ـ ترجع إلى اعتبارات ليست فى جوهرها موضوعية »[٢] .

---

(١) المجموعة الكاملة ـ المجلد التاسع عشر ص ٤٢٤ .

(٢) النقد الأدبى الحديث د/ محمد غنيمى هلال ص ٥٠ .

وظل الشعر العربي غنائيا لم يعرف المسرحيات حتى جاء شوقي في العصر الحديث فظهرت مسرحيته (كليوباترا) ١٩٢٩ م وبها بدأ الأدب المسرحي الحقيقي لغة وفنا[١] .

فالمفارقة بين حازم وباكون مردها إلى أن كلاهما يذهب في تقسيمه للشعر مذهبا يساير طبيعة الشعر عنده والعصر الذي وجد فيه وبين حازم وباكون فاصل زمني مقداره ثلاثة قرون ونصف ولذلك فإن تقسيم حازم لا يناقض تقسيم باكون وإن كان يخالفه مخالفة كبيرة وقد فطن الأستاذ العقاد إلى موضع القصور في الشعر العربي وهو ينقد الشعر الفارسي في عام ١٩٠٨ إذ رأى أن مايستلفت النظر هو إقفار الشعر العربي من القصص الروائي حتى يكاد يكون هذا الجنس الشعري مزية اختصت بها كل لغة غير العربية ثم يعزو ذلك «لوعورة الشعر العربي لما يلتزمه الشاعر من مراعاة الوزن والقافية والإتيان بالبيت منفردا في إنسجام منسجما في انفراد حتى لا يزيد المعنى عن البيت»[٢].

الرؤية المستقبلية للشعر :

THE FUTURE VIEW FOR THE POETRY

يصور لنا حازم كيف عني العرب قديما بالشعر . وكيف كانت النفوس معتقدة فيه أنه حكم وأنه غريم يتقاضى النفوس الكريمة الإجابة إلى مقتضاه بما أسلبها من هزة الارتياح لحسن المحاكاة هكذا كان اعتقاد العرب في الشعر .

---

(١) الأدب المقارن د/ حسن جاد ، ص ٤٩ ، ٥٠ دار الطباعة المحمدية الطبعة الثانية ١٩٧٥ م .

(٢) شاعرية العقاد في ميزان النقد د/ عبد الحي دياب ص ٧٨ ، دار النهضة المصرية .

وكان لغير العرب بين الأمم في القديم أيضا من العناية بالشعر والتأثر له وحسن الاعتقاد فيه مثل ما كان للعرب وإن كانت العرب قد انتهت من إحكام هذه الصنعة الجديرة بالتأثير في النفوس إلى مالم تنته إليه أمة من الأمم[1] .

وقد اتجه لحماية هـذه الصناعة والذود عنها راداً على من يدعي اقتصار الشعر على الكذب واتسامه به منبها على شرفه ومدى تقـدير السابقين له مستشهدا على ذلك بكلام ابن سينا في كونهم ينزلون الشـاعر منزلة النبي فينقادون لحـكمه ويصدقون بكهانته[2] . ولـكن الطباع – في رأيه – قد تداخلها من الاختلال والفساد أضعاف ما تداخل الألسنة من اللحن فصارت تستجيد الغث وتستغث الجيد من الـكلام[3] .

وها هو ذا يطلعنا على ما آل إليه أمر هذه الصناعة بعد أن بلغت العناية بها – في القديم – مداها . مشيرا إلى تفاوت ما بين الحالين فيقول :

« وأما الاستعداد الذي يكون بأن يعتقد فضـل قول الشاعر وصـدعه بالحـكمة فيما يقوله فإنه معدوم بالجملة في هـذا الزمان ، بل كثير من أنذال العالم – وما أكثرهم ! – يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة . وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة على حال قد نبه عليها أبو علي ابن سينا فقال : « كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي فيعتقد قوله ويصدق حكمه ، ويؤمن بكهانته » فانظر إلى تفاوت ما بين الحالين : حال كان ينزل فيها منزلة أشرف العالم وأفضلهم وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وأنقصهم[4] » .

ثم يكشف عن الحيثيات والأسباب المؤدية إلى هذا التردي فيقول :

---

(١) منهاج البلغاء ١٢١ ، ١٢٢ .
(٢) منهاج البلغاء ٩٩ .
(٣) منهاج البلغاء ٢٦ .
(٤) منهاج البلغاء ١٢٤ .

« وإنما هان الشعر على الناس هذا الهون لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة فصرفوا النقص إلى الصنعة ، والنقص بالحقيقة راجع إليهم . وموجود فيهم ، ولأن طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضا ... ولكثرة القائلين المغالطين فى دعوى النظم وقلة العارفين بصحة دعواهم من بطلانها لم يفرق الناس بين المسىء المسف إلى الاسترفاد بما يحدثه وبين المحسن المرتفع عن الاسترفاد بالشعر فجعلوا قيمتهما متساوية » بل ربما نسبوا إلى المسىء إحسان المحسن وإلى المحسن إساءة المسىء فصارت نفوس العارفين بهذه الصنعة بعض المعرفة تستقذر التحلى بهذه الصناعة ، إذ بخسها أولئك الأخساء واشتبه على الناس أمرهم وأمر أضدادهم ، فأجروهم مجرى واحدا من الاستهانة بهم فالمعرفة لا شك منسحبة على الرفيع فى هذه الصنعة بسبب الوضيع فلذلك هجرها الناس وحقها أن تهجر .

ولأن النفوس أيضا قد اعتقدت أن الشعر كله زور وكذب على ما رآه قوم قد حكى قولهم ابن سينا رادا عليهم[1] .

ومن أجل هذا كله يشير حازم إلى أن هذه الصناعة لا ينبغى أن تعطى من عناية النفس فوق ما يجب لها « إذ قدر العناية بالشىء إنما يجب أن يكون بإزاء قدر المستفاد منه ، وفائدة هذه الصناعة بحسب ما سحب عليها الزمان من أذيال الإذالة[2] . وألحقها من معرة الخمول قليلة نذرة ، بل إنما غاية محكولة إذاية أهل الفدامة له[3] عن يظن أن له قدما فى الفصاحة ، وهو منها بمنزلة

(١) منهاج البلغاء ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) الإذالة : الإهانة ، لسان العرب لابن منظور مادة « ذيل » ص ١٥٣٠ طبعة دار المعارف .

(٣) الفدامة ، والفدومة مصدر فدم ، والفدم من الناس العيي عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم وهو أيضا الغليظ السمين الأحمق الجافى . لسان العرب مادة « فدم » ص ٣٣٦٥ .

الحضيض من السماك(١) .

فلذلك كان خليقا أن تكون العناية بهذه الصناعة غير بالغة أو تعرف عنها العناية بالجملة ولا توفيق إلا بالله(٢) .

هذه هي رؤيته المستقبلية لصناعة الشعر وهي رؤية مفعمة بالتشاؤم والحزن أوجدتها أسباب عدة منها التكسب بالشعر وطلب النوال به فهل يشاركه فرنسيس باكون هذه النظرة المتشائمة أو تكون له وجهة نظر أخرى فيها من التفاؤل ما يطمئن على مستقبل الشعر ويدعو إلى مزيد من العناية به والحرص عليه ؟ .

والواقع أن باكون في رؤيته المستقبلية للشعر يقف على النقيض من حازم فهو مطمئن على مستقبل الشعر إذ لم تلحقه شائبة نقص ولا ضعف ولأنه أمر كامن في النفس مثل النبات الذي ينحدر من رغبة الأرض في الإنبات دون بذرة سابقة ، فمن شأنه أن ينمو وينتشر في كل اتجاه أكثر من أي نوع آخر وفي هذا يقول باكون :

«في هذا الجزء الثالث من المعرفة - وأعني به الشعر - لا أستطيع أن أشير إلى نقص أو آفة ، فإنه كالشجرة التي نبتت من شهوة الأرض بغير بذرة سابقة فأصابت من النمو والجزالة مالم تصبه شجرة أخرى وعلينا أن نعطيها حقها ونوفي لها قسطها ففي التعبير عن الخوالج والأهواء والمفاسد والعادات تلجأ إلى آثار الشعراء أكثر من لجوئنا إلى آثار الفلاسفة ، وليس التجاؤنا إليها بأقل كثيرا من التجائنا إلى آثار الخطباء في معارض الفطنة والفصاحة»(٣) .

---

(١) السماك : نجم نير معروف لسان العرب مادة « سمك » ص ٢٠١٩ .

(٢) منهاج البلغاء ٣٧ .

(٣) الأعمال الكاملة - المجلد التاسع عشر (تراجم وسير) ص ٤٢٦ .

وواضح من رؤيتى حازم وباكون أن الأول فى غاية الأسى لما آل إليه أمر هذه الصناعة ، فهو غير متفائل بمصيرها ولا مطمئن على مستقبلها لأنه يرى تتابع الزمن ومرور السنين يمضيان فى غير صالح الشعر إذ نراه معرضا بأهل الصناعة الشعرية فى عصره : فلم يوجد من شعراء المشرق المتأخرين منذ مائتى عام من نحا نحو الفحول ولا من ذهب مذاهبهم فى تأصيل مبادىء الكلام وأحكام وضعه وانتقاء مواده التى يجب نحته منها فخرجوا بذلك على مهيع الشعر ودخلوا فى محض التكلم ، هذا على كثرة المبدعين المتقدمين فى الرعيل الأول من قدمائهم والحلبة السابقة زمانا منهم »[1] .

وهذه الصناعة ـ فى رأيه ـ قد أسىء فهمها وقلت الجدوى من ورائها فلا ينبغى أن تعطى من عناية النفس فوق ما يجب لها أو تصرف عنها العناية جملة !

فإذاجئنا إلى باكون رأيناه متفقا مع صاحب المنهاج فى أن الشعر كان له مدخل وتقدير فى العصور القديمة لم يكن لباب آخر من أبواب المعرفة ، ولكنه يختلف عنه فى كونه جد متفائل بمستقبل الشعر إذ لم يلحقه نقص ولا آفة على الرغم من تتابع الزمن وتوالى السنين لكونه نابعا من أعماق النفس الإنسانية ومعبرا عن كوامنها ولذا يجب أن نوليه كل عناية فنحن مدينون بالفضل لآثار الشعراء أكثر من ديننا لآثار الفلاسفة وبما لا يقل كثيراً عن ديننا لآثار الخطباء فى معارض الفطنة والفصاحة ، وأجدنى متفقا مع باكون فى الاطمئنان على مستقبل الشعر ، فهو لاينقرض كما قال حبيب بن أوس :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت	حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت	سحائب منه أعقبت بسحائب[2]

(١) منهاج البلغاء ص ١٠ .

(٢) رسالة الغفران ص ٢٤٥ ، قرت : جمعت . الصوب : السحاب ذو المطر .

وقد أكد ذلك أبو العلاء وأيده بقوله فى مقدمة شرحه لديوان ابن أبى حصينة :

« الدهر مديد طويل ، يجوز أن يحدث فى آخره كما حدث أوله ، لأن الله — سبحانه — قدير على الممتنعات ، كل ماحكم به فهو آت ... ولا يمتنع أن ينشىء فى هـذه العصور من الشعراء من هو لاحق بالمتقدمين . وشبيه من سلف من الفحول الأولين »(١) .

ثم جاء العقاد فصوره شجرة تضرب جـذورها فى أعماق الأرض وتمتد فروعها فى كل اتجاه :

الشعر صورة كل معنى دائم   عال على التبـديل والإعصاف
وهو الحياة تظل حيـة غرسـها   شتى الغروس غزيرة الأخلاف(٢)

بل ذهب فى تصويره إلى ماهو أبعد من ذلك لجعله من نفس الرحمن مقتبسا(٣) .

وغنى عن القول أن — الحاجة إلى الشعر كامنة — دوما — فى النفوس وحتى فى هذا العصر ، عصر الصناعة الفنية والإنسان الآلى ، لايزال للشعر مكان الصدارة بين الفنون لأن الحاجة إليه تنبثق من أعماق النفس الإنسانية بوصفه التعبير الحى المتجدد أبدا عن نزوعها إلى مافوق الواقع وعن إحساسها بالروابط

---

(١) أبو العلاء الناقد الأدبى ص ١٤٢ .

(٢) ديوان العقاد — نظم عبـاس محمود العقاد ص ٢٢٩ — مطبعة وحدة الصيـانة والإنتاج بأسوان سنة ١٩٦٧ م والأخلاف : جمع الخلف بالكسر وهو فى الأصل حلمة ضرع الناقة .

(٣) يقول العقاد فى ديوانه ص ٤٧ .

والشعر من نفس الرحمن مقتبس . والشاعر الفذ بين الناس رحمان .

المستمرة بين ظواهر الطبيعة ومن مشاركتها في سر الإبداع والخلق ، ومن تعاطفها مع سائر بني الإنسان ، ومن خفايا العواطف التي يتميز بها الإنسان من سائر الكائنات (١) .

و « الشاعر يستهدف تحقيق المتعة والتسلية وتحويل الاتجاهات ولعله يشعر بمزيد من الرضا حين يستوثق من أن المتعة أو التحويل قد يتحققان لأكبر عدد من الناس » (٢) .

وكلما أوغل الناس في ماديات الحياة ، وأغرقوا في التفاعل معها كلما زادت همومهم فكانوا أشد حاجة إلى الترويح عن أنفسهم .

والشعر بما فيه من أحاسيس ومشاعر وفكر جديد وخيال رشيق وكلام موسيقي منغم يعرض علينا صورا متتابعة ننفصل بها عن حياتنا الواقعية فنسكن إليها ونحس بغير قليل من المتعة ونشعر كأننا تخلصنا من أعباء الحياة وانزاحت عنا إلى حين .

وقد دافع شكري عن رسالة الشعر وأكد صلته بالحياة فقال :

والشعر مرآة الحيا ... ة تطل في مرآتها
فتراه في آلامها ... وتراه في لذاتها
والكون آية شاعر ... يأتي بمبتكراتها (٤)

---

(١) مقدمة كتاب : في الشعر الأوربي المعاصر . تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي .

(٢) فائدة الشعر وفائدة النقد . تأليف : ت . س . اليوت . ترجمة وتقديم الدكتور يوسف نور عوض مراجعة الدكتور جعفر هادي حسن ص ٣٩ دار القلم بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٢ .

(٣) في النقد الأدبي الدكتور شوقي ضيف ص ١٥٠ ، ١٥١ بتصرف ، دار المعارف الطبعة السادسة .

(٤) ديوان عبد الرحمن شكري تحقيق نقولا يوسف ٣٣٥/٤ ، ٣٣٦ .

وأقام الحجة على من يدعى غير ذلك :

« يقولون : إن الشعر ليس من لوازم الحياة . ولو جاز لنا أن نعد الإحساس غير لازم للنفس . أو التفكير غير لازم للعقل ، لجاز لنا أن نعد الشعر غير لازم للحياة . أليس مجال الشعر الإحساس بخوالج النفس وشرح مايموج بها »(١) .

ولم يكن الشعر – ولن يكون – فى يوم من الأيام عقبة أمام تقدم الفكر ورقى الحضارة لأن « الشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القومية لكل الأمم التى عرفها التاريخ ، وإذن فالشعراء هم قادة الفكر فى هذه الأمم »(٢) .

وإذا كانت نظرة الناس إليه قد تضاءلت ، والسنتهم عليه قد تطاولت فإن التأسى هنا واجب بقول نيتشه :

« إن الفضل قيمته فيه لافيما يقال عنه أيا كان القائلون »(٣) .

وإذا كانت منابع الشعر قد أجدبت وقرائح الشعراء قد تبلدت ، فلدى جميع الأمم عامة والعرب منهم خاصة من كنوز التراث الشعرى ماهو كفيل بإثارة الانفعال فى المشاعر والنفوس ، وتحقيق المتعة للأفكار والقلوب .

ولو لم يكن للعربية شاعر سوى المتنبى وللإنجليزية سوى شكسبير Shakespeare لكفى ولصح التباهى بقول البحترى :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتوا لدى المجد حتى عد ألف بواحد(٤)

---

(١) مقدمة الجزء الخامس لديوان شكرى ص ٣٦٢ .

(٢) الأدب والحضارة : الدكتور السيد تقى الدين ص ١٧ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٤٠٣ هـ

(٣) شاعرية العقاد فى ميزان النقد (هامش ص ٤٩) .

(٤) زهر الآداب لأبى إسحاق الحصرى ٢/٨٤ الطبعة الأولى الحلبى ١٣٧٢ هـ

بل الأمر أبعد من ذلك :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وبعد :

فهذه طبيعة الشعر بين حازم وباكون عرضها الأول باستفاضة وإطناب وعرضها الثانى بإيجاز واقتضاب .

وقبل أن ننهى هذه الدراسة نجمل ما أسفرت عنه من أوجه الاتفاق والاختلاف أو التلاقى والمفارقة .

ففى تعريف الشعر كان الوزن والخيال عنصرين أساسيين عندهما، ومن هنا كانت للشعر مجالاته وأبعاده ولم تكن مهمة الشاعر محصورة فى رواية الأمور كما وقعت فعلا بل أيضا رواية ما يمكن أن يقع .

ولكن جاء الخيال مقيدا ـ عند حازم ـ بعدم الخروج عن حد الممكن أو الممتنع إلى المستحيل ومطلقا عند باكون .

وقد ترتب على هذه المفارقة إنكار الخرافة فى الشعر عند حازم(١) والإقرار بها عند باكون(٢) .

أما القافية فهى عنصر أساسى فى الشعر عند حازم وغير مصرح بها عند باكون وفى معالجتهما لقضية الغلو اتفقا على أن الغاية من الشعر تحريك النفوس وإمتاعها ، وأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طراءة له ، والقول

= وقد روى البيت فى الديوان هكذا

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت إلى الفضل حتى عد ألف بواحد

ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفى ١/٥٢٥ ، دار المعارف ١٩٦٣ :

(١) منهاج البلغاء ص ٧٧ – ٧٨ .

(٢) الأعمال الكاملة ـ المجلد التاسع عشر (تراجم وسيره) ص٤٢٤ – ٤٢٥ .

الصادق إذا حرف عند العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس كان أكثر إمتاعا لها .

واللجوء إلى الكذب قد تمليه الضرورة عندهما ، وهى تتحقق عند حازم حينما يفتقد القول الصادق الذى يحقق مقصد الشاعر إذا أراد تقبيح حسن وتحسين قبيح .

وعند باكون تتمثل فى محاولة إعطاء العقل الإنسانى ظلا من الرضا فى تلك الأحوال التى تضن طبيعة الأشياء بإرضائه فيها .

ولحازم إضافات فى هذه القضية لم يتعرض لها باكون ، وقد أشرت إليها فى موضعها أما أقسام الشعر فلا تلاقى فيها فالأجناس الشعرية عند الأول غيرها عند الثانى ، ولكن هـــذا الاختلاف لا يعنى التعارض بينهما ، فكلاهما يذهب فى تقسيمه مذهبا يساير طبيعة الشعر عنده والعصر الذى وجد فيه .

فإذا جئنا إلى النقطة الأخيرة وهى مكانة الشعر والرؤية المستقبلية له ، رأينا التلاقى بين حازم وباكون على أن الشعر كان له مدخل وتقدير فى العصور القديمة لم يكن لباب آخر من أبواب المعرفة ، ولكن بمرور الزمن وتوالى السنين فقد الشعر هـــذه المكانة عند حازم ، وظل محتفظا بها عند باكون ، فصار الأول قلقا على مصير الشعر ومستقبله ، ولسان حال الشعر عنده يردد قول الشاعر القديم :

مررت على المروءة وهى تبكى
فقلت : علام تنتحب الفتاة ؟
فقالت : كيف لا أبكى وأهلى
جميعا دون خلق الله ماتوا

وظل الثانى حتفظا بأمله فى ازدهار الشعر وتفاؤله بمستقبله ولسان حال الشعر عنده يردد قول المتنبى :

هو الجد حتى تفضل العين أختها
وحتى يكون اليوم لليوم سيدا[1]

نسأل الله أن يرزقنا عقلا راشدا فى الدنيا وحظا عظيما فى الآخرة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) ديوان المتنبى ٢/٩ — وفى رواية أخرى (وحتى يصير اليوم ...)

من أهم المراجع

أولا : العربية :

١ - أبو العلاء المعرى ناقداً : - وليد محمود خالص - دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية ١٩٨٢ م .

٢ - أبو العلاء الناقد الأدبي : دكتور السعيد عبـــادة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م ، دار المعارف .

٣ - الأدب المقارن : بقلم الدكتور حسن جاد حسن ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هـ ، دار الطباعة المحمدية .

٤ - الأدب والحضارة : الدكتور السيد تقي الدين ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٤٠٣ هـ .

٥ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى : تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، الحلبي ١٣٨٤ هـ .

٦ - ديوان البحترى : تحقيق : حسن كامل الصيرفى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

٧ - ديوان حسان بن ثابت الأنصارى : ضبطه وصححه : عبد الرحمن البرقوقى ، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٧ هـ .

٨ - ديوان عبد الرحمن شكرى : تحقيق : نقولا يوسف ، الطبعة الأولى دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٠ م .

٩ - ديوان العقاد : نظم عباس محمود العقاد ، مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج بأسوان ١٩٦٧ م .

١٠ - ديوان المتنبى : وضعه : عبد الرحمن البرقوقى ، الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة ١٣٥٧ هـ .

١١ - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري: دراسة نقدية تأليف الدكتورة: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٢ م .

١٢ - زهر الآداب لأبي اسحاق الحصري : تحقيق : على محمد البجاوى الطبعة الأولى، الحلبي ١٣٧٢ هـ .

١٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي : نشر مكتبة القدسي ١٣٥١ هـ .

١٤ - شاعرية العقاد فى ميزان النقد : الدكتور ، عبد الحى دياب ، دار النهضة العربية .

١٥ - الشوقيات : للمرحوم أحمد شوقى ، دار العودة - بيروت - لبنان .

١٦ - فى الشعر الأوربي المعاصر : الدكتور عبد الرحمن بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ م .

١٧ - فى النقد الأدبي : الدكتور شوقى ضيف ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ١٩٦٢ م .

١٨ - لسان العرب : لابن منظور ، طبعة دار المعارف .

١٩ - المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ : عباس محمود العقاد ، المجلد التاسع عشر . (تراجم وسيره) - دار الكتاب اللبناني بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨١ م .

١٩ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى بدمشق ١٣٧٦هـ .

٢١ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجنى : تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة - تونس ١٩٦٦ م .

٢٢ - الموشح للمرزباني : تحقيق : على محمد البجاوى ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٥ م .

٢٣ - النقد الأدبي الحديث : الدكتور : محمد غنيمى هلال ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م ، دار ومطابع الشعب .

٢٤ ـ نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر: تحقيق: كمال مصطفى مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ .

ثانياً : المترجمة :

٢٥ ـ الشعر والتأمل : تأليف/ روستريفور هاملتن . ترجمة : الدكتور محمد مصطفى بدوي ، مراجعة الدكتورة : سهير القلماوي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٣ م .

٢٦ ـ فن الشعر لأرسطوطاليس : ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه : الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ ملتزمة الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣ م .

٢٧ ـ فائدة الشعر وفائدة النقد : تأليف/ ت . س إليوت ـ ترجمة وتقديم الدكتور : يوسف نور عوض ، مراجعة الدكتور جعفر هادي حسن ، دار القلم ـ بيروت ـ لبنان .

ثالثاً : الأجنبية :

28 — Al — Mawrid — A Modern english — Arabic Dictionory by munir Ba,aldaki — Dar — El— ilm — Lil — Malayen - Beirut — Lepanon 1988.

29 — Chambers Twentieth Century Bietionary — Ravised editien with supplem nt — Edited by AM. Macdonald OBEBA (OXon) — Printed and bound in great ptitain — latest Reprint 1981 .

30 — English Critical Theories (1) From Ashem to ben gonson — puplished by the anglo — Egyption Bookshep.

31 — Alitale Treasty of Engtieh poetry — editeb by Rashad Rushdy — Angle Egyptian Bookshop 4th Edition — 1970 — printed by bar wahden press .

32 — Poetry — English An Authology. M—L. Rosenthal General Editor. V. A. Deluca, Beryl Rowland, Sally. M. Gall, Rosemary A. Kent Hieatt Howare weinbort. Oxford— 1987

عالمية فن العربية الأول

وإشكالات الحداثيين

بقلم الدكتور
محمد طـه عصر

يجتاز الأدب العربي في صورته الراهنة محنة تشبه تلك التي إجازة في القرن الثالث الهجرى ، ووجه الشبه بينهما هو التداعى الذى أصاب نفرا من المثقفين - الشعوبيين والحداثيين - التقوا على كلمة سواء هي تجريد فن العربية الأول من كل قيمة خلقية وفنية ، واتهام أصحابه بفساد الذوق ، وشطط الذهن وأن أدبهم أدب معدة وبطون وفقاقيع « وأدب صحراوى جاف مليء بالمبالغات والتكلف ، والزخرف ووصف العقلية العربية بأنها عقلية سامية قاصرة عن استنتاج المعانى المجردة »(١) .

ووجه آخر للشبه هو ظهور حركة التأليف والترجمة لكل مامن شأنه ذم العرب وامتداح غيرهم ، ووضع الشروح الغريبة لتشويه الأدب العربى والدراية بما ينطوى عليه من قيم ومثل عربية . وسارت هذه الهجمة الشرسة فى خطين متوازيين تارة ومتداخلين أخرى ، ثم بزغت قرونها من جديدة فى عشرينيات هذا القرن حين التمت سوق الثقافة الغربية ، وفتحت نوافذ المستشرقين والمبشرين الذين عكفوا على دراسة الأدب العربى وتحليله بمناهج ظاهرها الموضوعية وباطنها تشكيك المثقفين العرب فى معطيات تراثهم الأول على مايظهر من حركة التمرد التى يأتى فى مقدمتها أحمد أمين . وسلامة موسى ،

---

(١) أنور الجندى : يقظة الأدب العربى فى مرحلة مابين الحربين ص ١٧٦ ط زهران القاهرة ١٩٧٢ .

زكى نجيب محمود ، وأدونيس ، على أحمد سعيد ، وغيرهم من رموز الحداثة التغريبية الذين لجوا فى التمرد على التراث ووصفه بالمحلية ، وأنه لن يصل إلى درجة العالمية إلا بالتحرر من ربقة الماضى واحتذاء القيم الفنية الأوربية .

فهل حقا أن الأدب العربى أدب محلى ؟ وما السمات التى زعم الحداثيون أنها عقبة دون العالمية ؟ وقبل هذا كله لماذا هذه الهجمة الشرسة على هـــذا الفن العربى ؟

إن هذا الأدب هو أحد معطيات الحضارة العربية ، وقد أدى ـ عبر تاريخه الطويل ـ دوره التاريخى « العقدى أو الفكرى والإنسانى » على أحسن ما يكون الأداء فكان « ديوان العرب » ، وخزانة حكمتهم ومستنبط آدابهم ومستودع علومهم » « وبه حفظت الأنساب ، وعرفت المآثر ومنه تعلمت اللغة وهو حجة فيما أشكل من غريب القرآن والحديث النبوى وحديث أصحابه والتابعين »(١) .

وأما دوره العقدى أو الفكرى فهو خدمة الدعوة والدفاع عنها كما يتضح من قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملتفتا إلى الأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم »

وكان ما هو معروف من رد حسان بن ثابت وقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « قل وروح القدس معك »(٢) .

ثم كان له بعد هذا كله دوره الحضارى الذى يتمثل فى نقل معطيات الحضارات التى توارثها فى البلاد المفتوحة وكان ذلك بلغة القرآن إلى أن جاءت النهضة الأوربية وقامت على أكتاف الحضارة الإسلامية فى العصور

---

(١) العسكرى . الصناعتين ص ١٠٤ ط الآستانة ١٣٢٠ وكذلك ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء ص ٢٤ تحقيق محمود شاكر .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٤ ط التقدم ١٣٢٣ هـ .

الوسطى ، فكان العرب أينما حلوا حملوا معهم لغتهم ، تلك اللغة التى قدر لها أن تصبح أداة أدب عظيم ، لغـــة كان من فخارها أنها صارت الواسطة التى نقل بها علـــم أرسطو وجالينوس الذى كان قد أوشك أن ينسى »[1] .

وأولية هذا الفن وأولويته لاترجع إلى هذا فقط وإنما هى أولية أيضا فى الكم تنفرد بها دون الآداب الفارسية واليونانية والهندية ، ويتضح ذلك إذا ماقارنا بين مرويات العرب ومرويات تلك الأمم ، فالالياذة والاوديسا وهما معظم شعر اليونان فى جاهليتهم لايزيد عدد أبياتهما على ثلاثين ألفا ، والمهابهراتة عند الهنود لاتعدو عشرين ألفا والرياماناة لاتزيد على ثمانية وأربعين ألفا وأما العرب فيعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، وقدذكروا أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار الجاهلية أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطع ، وكان حماد الرواية يحفظ سبعا وعشرين ألف قصيدة والأصمعى ستة عشر ألفا .

ويروى ابن قتيبة أن أبا ضمضم كان ينشد لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو ، وأن حمادا الرواية كان يروى سبعمائة قصيدة أول كل منها بانت سعاد»[2] .

من هنا تكون أولية الشعر العربى وأولويته الحضارية ويكون تشويهه أو النيل منه نيلا من القرآن الذى نزل بلسان عربى ، فتحدى العرب ولم يتحد الشعر لأن القرآن ليس شعرا وليس « من مثله » .[3]

وننتقل الآن إلى دحض مزاحم الحداثيين حول شخصية الأدب العربى التى تبلورت عندهم — جريا وراء المستشرقين — فى مجموعة من الخصال أبرزها:

(١) د . عبده بدوى . مجلة الشعر عدد ١٥ يوليو ١٩٧٩ ص ٥ .

(٢) إبراهيم حامد . اليونان والعرب ص ٣٥ ط الشباب بدون تاريخ .

(٣) جورجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى ص ٣٤ ، ٣٥ ط ٤ الهلال .

البداوة وفاعليتها العرقية ، السلفية وحرمة القديم ، جمود الشكل والأداة .
الصبغة البديعية ، النزعة التركيبية ، الحسية .

— ١ —

أول هذه الإشكالات هي البداوة أو برية الشعر[١] كما يسميها أحمد أمين ويعممها على الأدب العربي في مختلف عصوره . مستأنسا بمقولة زهير للنابغة وقد استعصى على الأخير بيت من الشعر . أخرج إلى البرية فإن الشعر برى ، وبجرويات الشعراء حول بواعث شاعريتهم من طواف كثير في الرباع الخالية والرباع المعشبة ، وإشراف الأحوص في نشز من الأرض يافع ، وارتحال الفرزدق إلى جبل ريان بالمدينة ، وانحدار الأبيرد في الوادي مستخلصا من هذا أن طبيعة الشعر الأول طبيعة بدوية وأن العربي لا يشعر إلا في هذه البيئة فإذا خرج منها اعتقل لسانه وأصيب بالحصر ، مهما كان البلد الراحل إليه من جمال الطبيعة وجمال الحضارة مدللا على هذا أيضا بأن امرأ القيس خرج من بيئته إلى القسطنطينية ورأى عظمة حضارة الرومان فلم يقل شيئا .!!

والذي نراه أن حجة أحمد أمين في برية الشعر وفاعليتها العرقية حجة داحضة ، ذلك أن المقصود بخروج الشعراء إلى البرية هو طلب الفراغ والوحدة واختلاء الشاعر بنفسه ، بعيدا عن اللغط ومضطرب الحياة والعزلة في المنبسط الفسيح ليواجه خواطره وانشواقه وبهيء الأجواء لقدح ، زناد قريحته ،[٢] فالمقصود هو الخلوة وبين البداوة في ذاتها حتى وإن كانت هذه الخلوة في السجن أو اعلى السطح أو صهريج من الماء كما يدل على ذلك مقولة مروان بن أبي حفصة — الأموي — ، كان هدبة أشعر الناس منذ دخل

(١) فيض الخاطر ص ١٢٢ جـ ٢ ط النهضة ١٩٥٦ .

(٢) د . عبد الجبار المطلبي . الشعراء نقادا ص ١٥٩ ط وزارة الثقافة العراق .

السجن أبى أن أقيد منه »(١) وما روى من أن جريرا كان يشعل سراجه ويعتزل وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه ، رغبة فى الخلوة بنفسه ، وما روى من أن أبا تمام كان يدخل فى بيت مصهرج به ماء يتقلب فيه يمينا وشمالا وما روى من أن نصيبا كان يركب راحلته ويسير فى الشعاب الخالية وواضح من كل هذا أن كلمة الخلوة ، ومرادفاتها اللغوية هى أبرز مفردت إجابات الشعراء حول بواعث شاعريتهم يستوى فى هذا البادية والحاضرة فالمهم هو الاختلاء والبعد عن شواغل المجتمع حتى تتهيأ للشاعر قواه الوجدانية والإدراكية والذهنية ، ولعل هذا هو تفسير مقولة زهير ، وإلا لكانت ملامحه الأسلوبية برية طالما أن الشعر برى أما وقد كان شعره ينطوى كثيرا على سمات حضرية سواء فى ذلك الموقف والاداة ، أما الموقف فقد كان: يتسم بالموضوعية والتبصر والتقاء فكره مع ما قرره الإسلام من مقولة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر حتى كان عمر بن الخطاب يكثر من ترديد بيته :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

ويقول لو أدركت زهيرا لوليته القضاء لمعرفته به » ، وأما أسلوبه فقد وصفه عمر بالسماحة والالفة والسلاسة والوضوح والخلو من التعقيد أو بالأحرى وصفه بالخلو من فاعلية البدواة وعدة أشعر الشعراء معللا ذلك بقوله : « كان لايتبع حوشى الكلام ولا يعاظل فى المنطق ولا يقول إلا مايعرف ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه »(٢) .

وأما ماذهب إليه أحمد أمين من أن طبيعة الشعر الأول طبيعة بدوية فقد يكون مرجع ذلك — لا ماذهب إليه من تأثير البداوة

---

(١) الأصفهانى نفسه ٢١/٢٧٣ وابن قتيبة . الشعر والشعراء ٢/٥٨ ، وابن رشيق : العمدة ٣/١١٤ تحقيق محى الدين عبد الدين .

(٢) ابن قتيبة . نفسه ١/٦١١ والأغانى ٩/١٤٠ .

ولكن إلى قلة الحواضر وكثرة البوادي فقد كان أول مأثور الشعر العربي « في قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ، ومن أقدم شعرائها المهلهل ثم تحول إلى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجداً وأعالي الحجـــاز ومن قبائلها عبس وذبيان ، وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء ، ومن قيس انتقل إلى تميم وتميم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها في تهامة ثم نزحت إلى شرق نجد وبادية العراق ، ولم يظهر في مدركة إلا في بطون سكنت البادية كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وربيعة ، كما غلب على من ساكنهم بها من نازحي قبائل اليمن كطيء وكندة وغيرها أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها ولذلك كانت قليلة الشعراء »[1] .

وأما ما استدل به أحمد أمين على بريه الشعر بقصة خروج امرىء القيس إلى القسطنطينية وعجزه عن القول لأنه خرج من بيئته لحصر فمع أن قصة الخروج مشكوك فيها إلا أن امرأ القيس تروى له في ذلك شعر ينطوي على مقدمة تصف خيل البريد ولا تصف الإبل إذ يقول[2]:

إذا قلت روحنا أرن فرانق ... على جلعد واهي الأباجل أبترا
على كل مقصوص الذنابى معاود ... بريد السرى بالليل من خيل بربرا

وبهذا تسقط دعوى أحمد أمين حول بداوة العربي وفاعليتها العرقية .

— ٢ —

وثمت إشكالية أخرى يثيرها الحداثيون حول شخصية الأدب العربي وهي السلفية أو « عبادة الماضي » وحرمته وتقديسه وأن بلاد العرب « هي

---

(١) السباعي السباعي : تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهـــلي ص ١٠٨ ط المعلوم ١٩٣٢ .

(٢) ابن رشيق : نفسه ١/١٥٣ .

بلاد السلف يحكمونها وهم فى قبورهم بآدابهم وتقاليدهم وشرائعهم ، وليس للخلف الراهن سوى الإذعان، وأنه لولا هذه السلفية لما تقهقر الأدب العربي عن حدود العالمية وما تنطوى عليه من ابتكار وتطلع إلى الأمام بعين الرجاء والثقة وأن هذه السلفية جعلت « عيون الشعراء فى أقفيتهم » ينظرون إلى الخلف ولا ينظرون إلى الأمام ، كما جعلت الأديب ملتفتا دائماً إلى الوراء يستوحى الماضى ، وأنه لن تتحقق للأدب عالميته إلا بالتحرر من هذه السلفية « وإلا إذا انهدمت البنية الذهنية السائدة التى وجهت الذهن العربى وما تزال توجهه » وأن يتخذ المعاصرون من آداب الأمم الأوربية إمامهم المبين فى الابتكار والإبداع » .

فما هى تلك السلفية التى يقصـــدونها . أهى السلفية العربية الجاهلية والسلفية الإسلامية ؟ كلا الأمرين وارد :

إذ يتحدث أحمد أمين[١] عن جناية الأدب الجاهلى والإسلامى من خلال زهير وابن قتيبة ، ويتحدث سلامه موسى[٢] عن سلفية القرن الثالث الهجرى ويلمح الشابى[٣] إلى السلفية العربية بعامة ، ويركز زكى نجيب محمود[٤] على الصراع بين بداوة العرب وحضارة البلاد المفتوحة بينما يقصد أدونيس[٥] السلفية الإسلامية ، مقررا أن « القوى التى حاولت أن تبدع شيئا غير ماعرفه الماضى قيل عنها إنها غريبة عن التراث واعتبرته الفئات السائدة خروجا وأعطته اسما يقصد به التشهير والذم وسمت أصحابه أهل الابتداع والأهواء

(١) نفسه ص ٢٤٠ — ٢٦٠ .

(٢) مقال خصلتان فى الأدب العربى الهلال مجلد ٣٤ ج ٢ ص ١٥٦ سنة ١٩٢٥ .

(٣) الخيال الشعرى عند العرب ص ١٧ تونس ١٩٦١ .

(٤) هذا العصر وثقافته ص ١١٠ القاهرة دار الشروق ١٩٨٧ .

(٥) جاسم المبارك . مقال عن أدونيس . مجلة الرسالة الكويت ص ٨٠ عدد يوليو ١٩٧٣ .

وحاربت البارزين بالقمع وبالسجن وبالقتل وقضت أخيرا على كل اتجاه مبدع ، ويلتقى هؤلاء جميعا حول الدعوة إلى التمرد على هذه السلفية ويأسفون لانتصارها ويسمونها « الفقاقيع » « والعنطزة الكاذبة » « والعقم والجمود » « والزبد الذى يذهب جفاء » والقردنة الذهنية » وأن فاعلية الحضارة قد أضعفتها حصانة السلفية العربية جاهلية كانت أم إسلامية . !!

ونحن لا ننكر أن الأدب العربى فى حاجة إلى التنشيط والتنشيط أو بالأحرى حاجته إلى التطعيم والتقليم بما يلائم واقعنا الاجتماعى وتراثنا الحضارى وفى إطار الوعى بالمتغيرات العصرية ، ولكن الذى ننكره هو تجريدهم هذا التراث من قيمة الخلقية والفنية ، ووصفه بالعقم والجمود . ويبدو أن دعوتهم تلك لم تكن خالصة لوجه الحداثة بقدر ما كانت تعويذة تقى أصحابها مظنة الانتماء إلى إيدلوجيات وافدة وبلورتها بلورة عربية .

فهل صحيح أن حصانة السلفية أضعفت فاعلية الحضارة وحظرت الإبداع وصادرت الهوية الفنية والفكرية التى تلائم الحضارة الجديدة ؟!

صحيح أن ابن قتيبة قال : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج اعلى مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ، ويبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار وبغل فيصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد المياه العذبة الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار[1] ولكن هل هذه المقولة كما يزعم الحداثيون هى حجر الزاوية فى الإبداع العربى ، وأنها تمثل تقعيدا فنياً وأنها قبل هذا كله هى الأصل فى فكر ابن قتيبة ؟

(١) نفسه .

الحق أن هذه المقولة كانت لأسباب قومية هي الدفاع عن البادية العربية ـ مصدر الرواية ـ ضد تخرصات الشعوبيين الذين لجوا فى الدراية على العرب واتهامهم بخشونة الكلام وغلظ المخارج ومخالطتهم الإبل كما يروى[1] الجاحظ قولهم « واطول مخالطتكم الإبل جفى كلامكم وغلظت مخارج أصواتكم » مبينا أن « عامة من ارتاب فى الإسلام كان من الشعوبية فإن من أبغض شيئا أبغض أهله ومن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هى التى جاءت به وكانوا السلف »[2] .

واعل مقولة ابن قتيبة تنطوى على معنى آخر هو الإشادة بالبادية فهى مصدر اللغة الخالصة من لكنة الأعاجم كما أنها مصدر الجمال العربى الخالص من التصنع الحضرى على ماينطوى عليه قول القطامى الشاعر الأموى[3] :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا قنا سلبا وأفراسا حسانا

وقول المتنبى :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أفدى ظباء فلاة ماعرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

فالبادية هى مصدر النقاء اللغوى والجمالى مما جعل واحدا كالأصمعى « لايحتج بشعر ذى الرمة لكثرة ملازمته الحاضرة ففسد كلامه »[4] .

ثم إن مقولة ابن قتيبة تمثل الاستثناء وليس الأصل الذى يقاس عليه ، أما الأصل فهو القيم الجمالية عند الشاعر حديثا كان أم قديما على مايتضح من

---

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ١١ .

(٢) الحيوان جـ ٧ ص ٦٨ تحقيق الحلبى القاهرة ١٩٠٧ .

(٣) الاصفهانى نفسه ١٥٧/٩ .

(٤) الثعالبى : يتيمة الدهر ١٥/١ .

قوله(١) : « رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون آخرين بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره ، فهو إذن يعتمد الأساس الجمالى وليس التاريخى .

ومن الغريب أن هؤلاء الحداثيين قد ركزوا على مقولة ابن قتيبة وتجاهلوا كثيرا من المقولات النقدية عند غيره ممن ، ينظرون على أساس القيم الجمالية لا على أساس السبق الزمنى : فالجرجانى يقول(٢) : « لست أفضل فى هذه القضية بين القديم والحديث والجاهلى والمخضرم ، والإعرابى والمولد ،وكذلك ابن رشيق(٣) الذى يومىء إلى أنه لا داعى لهذا التقليد إلا ما كان حقيقة يذكرها الشاعر لاسيما إذا كان من بلد الممدوح يراه فى أكثر أوقاته فما أقبح ذكر الناقة والفلاة حينئذ ، وكذلك ابن الأثير الذى يقرر أن المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى ، وألطف مأخــــذا ، وأدق نظرا ، لأنه عظم الملك الإسلامى فى زمانهم ، ورأوا مالم يره المتقدمون(٤).

ثم إنه لاصحة لما زعمه هؤلاء من أن حضارة السلفية تلك قد أضعفت فاعلية الحضارة الإسلامية فى الشعر وأن الشعراء فى الإسلام أشد كلفا بعبادة السلفية الجاهلية صحيح أن « لبيدا ترك الشعر وقال ما كنت لأقول شعرا بعد أن علمنى الله سورة البقرة وآل عمران ، ولكنه مع ذلك كان « إذا افتخر استغفر الله »(٥) ، لقد تبدلت أغراض الشعر فى الإسلام وتطورت أفكاره « فلم يعد فخرا بالعصبية القبلية ولا ثلبا للأعراض وإنما دعوة للفكرة الجديدة وذبا عنها كما فعل حسان وابن رواحة وكعب بن زهير لتأثر الشعراء بالقرآن حتى لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر

(١) نفسه ١/٦٣ .

(٢) الوساطة ص ١٥ .

(٣) نفسه ١/١٥٣ .

(٤) المثل السائر ص ١١٢ .

(٥) ابن قتيبة : نفسه ١/٢٤٤ .

الحكمة تعبيرا عن مهمته فى الحياة الجديدة والإشادة بقيمته الفنية »[1] .

كما أن الشعراء لم يلتزموا هذه الصرامة الفنية المزعومة فالمتنبى بدأ بعض قصائده بوصف الخيل بدل الإبل حين يذكر قومه إلى مصر :

ويوم كليـــل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس إيان تغرب
وعينى إلى أذنى أغر كأنه من الليل باق بين عينيه كوكب

كما يذكر رحلته على قدمه فى بعض مطالع مدائحه »[2] وكان البحترى يستبدل بالناقة السفينة ويصفها »[3] .

لقد أضعف الإسلام من حصانة السلفية الجاهلية بعد أن خرج العرب من بريتهم وبهرتهم النعم والعيش الرغيـــد ، فظهر الذوق الحضرى فى الغزل العذرى الذى نبت فى الحجاز ، صحيح أن الشعر لم يسلم من روح البداوة وعصبيتها القبلية كما فى النقائض ولكن ذلك لم يكن على سبيل العموم والدوام بل كان حسب الطلبة السياسية العارضة وحاجة الحكم إليها فى العراق والشام وعما له وشغلا للناس عن السياسة بدليل أنه ظل حضريا فى البلاد التى كانت بعيدة عن سدة الحكم كالحجاز كما هو معروف فى شعر ابن قيس الرقيات وابن أبى ربيعة .

من هنا تسقط دعوى الحداثيين أن الشعراء فى الإسلام أشد كلفا بعبادة الماضى الجاهلى ونترك الرد على هـــذه الدعوى للمستشرق الإيطالى كارل نللينو (١٨٧٢ — ١٩٣٨) الذى يقول[4] « هذه الدعوى لا توافقها حقيقة الامر البتة فإذا طالعتم سيرة ابن هشام وطبقات بن سعد وتاريخ الطبرى

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلاميـة فى القرن الأول ص ٢٦٤ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦ .

(٢) العمدة : نفسه ١/١٥٣ .

(٣) الموازنة ص ١١٤ .

(٤) تاريخ الآداب العربية ص ١٠٤ . المعارف مصر ١٩٧٠ .

والأغانى وغيرهما وجدتم كثرة ماررونه من أشعار صدر الإسلام التى لم تزل زاهية والتى لم ينصرف عنها الرواة ».

ويبدو أن دعوى « السلفية » تلك لا تنم عن أصالة فكرية عند الحداثيين وإنما هى بلورة عربية لفكر غربى كما ينطوى على هـــذا المعنى قول بعض المستشرقين « إن الروح اليهودية دائما تتجه إلى المستقبل بينما الروح العربية تتجه دائما تتجه إلى الماضى .. وأن الذوق الفنى للعرب يدل على حب الماضى وعدم الاهتمام بالمستقبل .. وأن الادب العربى يتميز عن الادب الآرى بحب الماضى وبعدم القدرة على التبصر »[1].

أليست هذه الفكرة هى الاصل الحداثى الذى روج له كل من أحمد أمين وأدونيس وسلامه موسى وزكى نجيب محمود ، فيما سبقت الإشارة إليه وعند الشابى الذى يردد كثيرا : « أن الأدب العربى لا تشوف فيـــه إلى المستقبل »[2].

ومن الغريب أن هؤلاء حين وسموا العقلية العربية ـ وكذلك الأدب ـ بعبادة الماضى وعدم التشوف إلى المستقبل طوفوا على « ألف ليله وليله » فذكروا أن الأمر فيها على النقيض ففيها عندهم تطلع إلى المستقبل « لأنها ليست من أصل عربى أو لأنها من الحكايات الشعبية لا من الأدب الرسمى »[3].

وهى نفس الرؤية الاستشراقية التى قرر أصحابها أن مؤلفها عنى بوضع خطة ، مستقبلية مرسومة منذ استهلال الكتاب تقوم على التبصر بالمستقبل »[4].

والأغرب من هذا أن هذه السلفية التى اعتبرها الحداثيون عقبه دون

---

(١) جوتيية : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص٣٧ دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٢) نفسه (٣) أحمد أمين . نفسه .

(٤) جوتيه . نفسه .

الإبداع أو الوصول إلى العالمية يعتبرونها - وباعترافهم - من مقومات العالمية في الأدب الانجليزي الحديث الذي يسمون أصحابه « الأمم الحيه » لأنها « تدرس لطلبتها الأدب القديم » حتى كان من موطن ملاحظة الدكتور لويس عوض[1] أن السلفية الإغريقية هي دواعي عالمية الأدب الإنجليزي المعاصر « فلقد أخذ عن الإغريق أشكال أدبهم وعروضهم وإذا أنت تأملت حال الشعر الانجليزي في مختلف عصوره وجدته يقتات على جثة القدماء - اليونان والرومان - اقتياتا في شكل أدبهم وعروضهم وأوزانهم وقوافيهم وفي الشعر التعليمي ، والهجاء وأن الكثرة المطلقة منهم ينهبون نهبا من الشعراء القدماء علنا وبترخيص من النقاد وبذلك تحققت عظمة شيكسبير العظيم أما ميلتون فلا سبيل إلى فهم عبقريته إلا بالرجوع إلى الكتاب المقدس واستيعاب إلياذة فرجيل » ! !

السلفية العربية عقم وجمود والسلفية عند الغرب إبداع وعبقرية !! وإن تعجب فعجب أن تكون السلفية الإسلامية عند الحداثيين « قردنة ذهنية » وفقاقيع ، وأوهام كاذبة وعنطزة فارغة ، وعقم وجمود بينما هذه الروح الإسلامية هي إحدى مقومات العالمية عند الشاعر الإنجليزي ميلتون على ماتنم عنه مقولة الدكتور لويس عوض[2] : « تقرأ الفردوس المفقود وتدهش أن ميلتون مسلم قوي الإيمان في كثير من نواحيه ، تراه منظورا لا يؤمن بالقسيس ووساطته بين الخالق والمخلوق تراه شديد الإحساس بقيمة الحياة الدنيا ، محبا لها تراه يفسر الكتاب المقدس تفسيرا عمليا فيبيح الطلاق وتعدد الزوجات ويجعل الرجل صراحة قواما على المرأة ، فالرجل عنده ظل الله والمرأة ظل الرجل تراه يمقت الطقوس الكنسية ، وينكر تزيين بيوت الله بالصور والتماثيل ، ومع اعتراف الدكتور لويس عوض بفاعلية الروح الإسلامية تلك في بزوغ عالمية

---

(١) الهلال ج ٢ م ٤٩ ص ٣٠٨ سنة ١٩٤١ مقال الأدب الإنجليزي أدب عالمي .

(٢) نفسه .

ميلتون إلا أن مقولته لم تكن خالصة لوجه السلفية الإسلامية أو الأدب العربي الذي عزه في مقاله بأنه علي ، وإنما ليخلص من ذلك إلى القول إن هذه الروح الإسلامية عند ميلتون مستقاة من التوراة لا من الإنجيل(١) وهو بهذا يلمح إلى أصالة الثقافة العبرية وتبعية العرب وتلك حجة دحضها العقاد مقررا أن « سبق العرب للعبريين في ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم اليونان »(٢).

السلفية اليونانية عند الحداثيين رخصة للانجليز المعاصرين وأما سلفية العرب عند معاصريهم فشيء لا ترخص فيه بالرغم من أن السلفيتين الجاهلية واليونانية يلتقيان في الوثنية والقدم ، ولكن عند الحداثيين العرب أن « قديم الأوربيين ليس كقديمنا .. كما أن أدبهم مهما قدم فهو وليد حضارة تشبه بيئتهم .. كما أن وثنيتهم ليست كوثنية العرب فقد رفعوا آلهتهم من الأرض إلى السماء وجعلوا للحب والجمال والشعر آلهة ، ثم إن النظرة الدينية عند الجاهليين نظرة مادية ضيقة فجاء أدبهم تبعا لذلك في المادية والجمود »(٣).

فإذا تجاوزنا الديانة الوثنية إلى الدين السماوي وجدنا أن الدين من مقومات العالمية في الأدب الإنجليزي كما يقرر الدكتور لويس عوض من أنه « لا تفهم عبقرية ميلتون العظيم إلا بالرجوع إلى العهد القديم من الكتاب المقدس » . ألا يجوز لنا أن نجعل الرؤية الدينية إحدى مقومات العالمية في الأدب العربي كما هو الشأن عند الغربيين ؟!

ويقرر أحمد أمين أن « نظرة الغربي إلى الدين على وجه العموم تخالف نظرة العربي إليه من ناحيتين : إحداهما أنه يسود الغربي للنظر إلى الدين

(١) نفسه .

(٢) الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين . ص ٥٢ ط الهيئة المصرية القاهرة ١٩٨٥ .

(٣) أحمد أمين نفسه ص ٢٥٣ .

كنظام اجتماعى والثانية أن نظره الدين لاتتغلغل فى كل شىء عند الغربى تغلغها عند الشرقى »(١) .

الرؤية الدينية عند العرب بخاصة هى العقبة دون بلوغ أدبهم درجة العالمية لتغلغها فى كل شىء ! !

ولعل عبارة « أدونيس » تفصح عن تفسير لهذا التغلغل الدينى لهذه الرؤية الدينية إذ يصفها بأنها « غيبية حياتية فى آن واحد فهى نظرة شاملة للفكرة والعمل للوجود والإنسان للدنيا والآخرة وأن الظاهرة الشعرية يفسرها المبنى الدينى » .

وهذه الرؤية الدينية الإسلامية يأسف الحداثيون لانتصارها غالبا وتغلغها فى كل شىء وأنها منعت الأدباء من استنان أى سنة جديدة وحاربت البارزين بالتشهد والقمع وبالسجن والقتل وقضت على كل اتجاه مبدع »(٢) .

إن الفكر الإبداعى ليس غريبا على روح ثقافتنا « وأهمية الإبداع فى إطار الحضارة العربية الإسلامية أنه يمثل إطلاقا لطاقات الخلق والاجتهاد دون قيد على العقل إلى الحد الذى ينال فيه المجتهد أجرا حتى ولو أخطأ على شرط الالتزام بإطار أخلاقى لايحكمه الهوى فإن من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة (أى مفسدة لحياة الناس) فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة(٣) هذا عن الرؤية الإسلامية للإبداع ، وأما عن القمع الفكرى المزعوم فإن أحدا لم يحترم الحرية الفكرية مثلما يحترمها الإسلام على ما انطوى عليه الآيتان الكريمتان « لا إكراه فى الدين » « لكم دينكم ولى دين » .

---

(١) نفسه ص ٥٢ . (٢) نفسه ٨ .

(٣) د . عبد الحليم محمود ، الإبداع ص ٦٥٥ ، المعارف ١٩٧٠ .

وإذا كان الدين من مقومات العالمية فى الأدب الإنجليزى كما يقرر الدكتور لويس عوض ، فإن الأدب العربى ينفرد دون الآداب الأخرى بالتصاقه المباشر بالقرآن وبأنه أدب الدين الذى يمثل لغه كتابه منطلقا إلى أرجاء الأرض حاملا إياها رباطا بناءا ، بين معتنقيه ثم هو بعد ذلك كله أدب التراث ،(1) .

وبهذا المقياس فهو أدب عالمى .

— ٣ —

وثمت سمة أخرى يروج لها الحداثيون ويلحون فى الدعوة إلى تحرير الشعر العربى منها لكى يصل إلى درجة العالمية مثلما حدث فى الأدب الإنجليزى ، تلك هى القيود الشكلية التى ينطوى عليها عمود الشعر بمستوياته اللغوية والنحوية والفنية والموسيقيه وقد تزعم هذه الدعوة كل من قاسم أمين وأحمد أمين ولطفى السيد وطالبوا بإفراغ الشعر فى قوالب أكثر مرونة بما يتلاءم مع العصر ويتيح للشاعر الحرية اللغوية والنحوية والفنية ، وظهرت كثير من الصيحات تردد أن «آفة اللغة هذه الفصحى» و«آفة الأدب هذا العمود» و«آفة النحو هذا الإعراب» .

وقد دعا أحمد أمين إلى ظاهرة الوقف للتخفيف من وطأة الإعراب وكان معنى هذا على حد تعبير «أن تنزل العربية درجات وأن ترتفع العامية درجات»(2) كما دعا أيضا إلى الخروج على عمود الشعر الذى وصفه «بالتحجر وأنه لم يلن ولم يتغير فالبحور هى البحور وكذلك القافية مع أن البحور ليست إلا أوزانا والأوزان ليست إلا موسيقى تختلف باختلاف العصور» ، ثم يقرر أن هذا الجمود فى الشكل كان مصدره جمود الرواة وعصبيتهم للقديم فكانوا علماء لغة

(1) محمد خلف الله أحمد دراسات فى الأدب الإسلامى ط الاسكندرية ص ٥٧ ١٩٤٧ .
(2) د عبده بدوى مجلة الشعر عدد ١٥ يوليو ١٩٧٩ ص ١ .

أكثر منهم أدباء ونقدة أدب، ثم يأسف لانتصارهم ويرجع ذلك إلى « مكرهم حين صبغوا دعوتهم بالصبغة الدينية واتصلوا بالخلفاء »[1] .

وواضح من هذه الدعوى أن عمودية الشعر وما يتصل بها هي التي حالت دون عالمية الأدب العربي وأنه ينبغي أن تكون هناك مرونة تتيح للشاعر الحرية في الشكل واللغة على السواء كما هو الشأن في الأدب الإنجليزي الذي يقرر الدكتور لويس عوض إن تلك الحرية من مقومات عالميته « وأن مسببات عظمة اللغة الإنجليزية غنى مفرداتها ورقتها ومرونتها وموسيقيتها اللفظية »[2] .

فهل صحيح أن اللغة العربية غير مرنة ، وأن الرواة لم يرخصوا للشاعر . وأن الشعراء العرب التزموا بهذه الصرامة ؟ !

الواقع أن اللغويين والنحاة بالرغم من تحكمهم ومحافظتهم وخصومتهم مع الشعراء قد رخصوا للشاعر التوسع في الضرورات الشعرية فهناك ما يشبه إجماعهم على أن الشعراء أمراء الكلام يقصرون الممدود ويمدون المقصور ويقدمون ويؤخرون ويومئون ويشيرون ويختلسون ويغيرون »[3] ومن هنا ظهر التوسع في الصرف والنحو لضرورة وغير ضرورة . . . من هنا رأينا الشعراء يترخصون في شعرهم حتى أصبح الإيغال في حقل الرخص أوضح ما يميز لغة الشعر عن لغة النثر[4] .

فهل يقبل في النثر أن يختلف إعراب التابع عن إعراب المتبوع كما في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من النـــاس إلا مسحتا أو مجلف

---

(١) نفسه ص ٢٥٣ . (٢) نفسه .

(٣) د . محمد بدوي المختون بناء لغة الشعر مجلة الشعر عدد ٤٤ ص١٣٥ أكتوبر ١٩٨٦ .

(٤) د . تمام حسان ، الترخص في اللغة العربية ص ٢٢٣ .

وهل يقبل فى النثر أن يتقدم المعطوف على المعطوف عليه كما فى قول الشاعر :

ألا يانخلة فى ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

أو يتقدم المستثنى على المستثنى منه كقول الكميت :

ومالى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مذهب الحق مذهب

أو أن تسقط صلة الموصول كما فى قول عبيد بن الأبرص الأسدى :

نحن الألى فاجمع جمو عك ثم وجههم إلينا

وهل يقبل فى النثر أن تتحول الكلمة بالترخص عن بنيتها كما فى قول الراجز :

الحمد لله العلى الأجلل

وهل يجوز فى النثر أن يضاف المفرد إلى جملة مصـــدرة بإما تقول تأبط شرا :

هما خطتا إما إسار ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر

أو أن يأتى بخبر كاد وصفا صريحا كقوله فى القصيدة ذاتها :

فأبت إلى فهم وما كدت آيبا وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

ومعنى هذا أن للشعر لغة خاصة به وأوضح ما يميزها هذا الترخص فى القرائن حين يكون المعنى هو الذى يقتضى القرينة وليست القرينة هى التى تقتضى المعنى .

هذا عن الترخص النحوى والصرفى فماذا عن الترخص فى الشكل :

« لقد لاحظت رخصات عروضية عند امرىء القيس فيما سمى بالمسمط كقوله :

مرابع من هند خلت ومصايف

يصيح بغفناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف
وكل مسف ثم آخر رادف
بأسحم من نور السماكين هطال

كما لوحظ فى شعره أيضا كثرة الأقواء فى القافية والاكفاء ، وكثرة التصريع فى غير أول القصيدة واستعمال الضرب المقبوض فى الطويل ، وقد نسب أيضا الإكفاء وهو نقصان حرف من فاصلة بيت الشعر إلى النابغة كذلك السناد والإيطاء إلى عبيد بن الأبرص وعمر بن قيئة واعتبره بعضهم حرية للشاعر وترخصا وأنه ليس من عيوب الشعر عند الجاهليين كما رآه فيما بعد علماء العروض[1] .

أفبعد هـــذا يقال أن الرواة متعصبون للقديم وأن عمود الشعر متجمر لم يلن وأن اللغة ليس فيها شيء من الحرية وأن العالمية فى الأدب العربى لاتتحقق إلا بالخروج على اللغة ومستوياتها ؟ !

نترك الجواب على التساؤل الأخير إلى جان بيرك أستاذ الشعر العربى فى الكوليج دو فرانس إذ يقول : « الشعر أساساً عمل فى اللغة ، فإذا كانت العالمية تعنى بالنسبة للشعراء العرب تخليا عن قيم اللغة أو نسيانا للغة أو ضعفا للبناء اللغوى فذلك يعنى ضياع هذا الشعر »[2] .

ثم نعود بعد ذلك إلى صعوبة الإعراب المزعومة فالحق أنها « وهم من الأوهام وأن التعليم فى أدق أموره يمكن أن تستوعبه الفصحى بدقة »[3] .

---

(١) د . على عقيل . مجلة الشعر نفسه مقال مع الشعر الحديث ص ١٤ .
(٢) مجلة المعرفة ص ٦٧ عدد ١٣٦ حزيران ١٩٧٣ .
(٣) د . عبده بدوى نفسه عدد ٤٤ أكتوبر ١٩٨٦ ص ١ .

وأما البدائل المعروضة وهي « الوقف والتسكين » ووضع أجرومية جديدة للغة « فصحممية » « أو لغة خنثى » فالحق(١) أن الدعوة إلى التسكين « سيكون لها أثر سيء على الشعر ذلك لأن أوزانه تعتمد على الحركة والسكون فمثلا بيت عنترة :

فارتاع من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبرة وتحمحم

إذا سكنا العين في « فارتاع » والياء في « إلى » والتاء في « بعبرة » والميم في « تحمحم » فإن التسكين يحول الشعر إلى نثر .

وأما الدعوى إلى « الفصحمية »(٢) فقد كان من ورائها دكتور ميتشيل الأستاذ بجامعة ليدز حيث اقترح تجميع لغة جديدة للمثقفين العرب قدر لها أربعمائة ألف كلمة من العالم العربي حين لحظ أن لغة الكتابة تناقض لغة الحديث وأن العالم العربي يتكلم لهجات عدة ، وكانت هذه الدعوة خطوة سبقها خطوة قام بها كل من المستشرقين الألماني ولهلم سبيتا والإنجليزي وليم ولكوكس حيث دعا كل منهما إلى نبذ الفصحى وكتابة العلوم بالعامية ثم تبنت مجلة المقتطف هذه الدعوة سنة ١٨٦١ .

ثم ما جدوى هذا العناء في إنشاء لغة جديدة ندرسها من جديد نحوا وصرفا ، ثم من أي البلد سنأخذ مفرداتها ومن أيها سندع وأخيرا فنحن قبل هذا كله ندرس لكي نقرأ قراءة صحيحة ولا نقرأ لكي ندرس فاللغة الفصحى لغة كتابة وليست لغة كلام »(٣) .

إن العربية هي لغة القرآن بها نزل وبها يتلى وبها يتقدم العرب وتزدهر

---

(١) نفسه . (٢) نفسه .

(٣) نفسه .

حضاراتهم » ، وقد أدرك خطورة هذه الدعوة - التي لم تكن وليدة العصر - الخاصون فقامت حركة لتعليم العربية الفصحى وأعلن الزهيري : ما أحدث الإنسان مروءة أحب إلى من تعلم النحو » ، واعتبروا الخطأ في اللغة ذنبا ، يستوجب الاستغفار فكان أحدهم حين يعثر لسانه بشيء من اللحن يقول استغفر الله فلما سئل عن ذلك .

قال : إن من أخطأ فيها فقد كذب على العرب ومن كذب فقد عمل سوءا ، ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما »[1] .

— ٤ —

وثمت حجة أخرى يتذرع بها الحداثيون ويلجون في إثارتها وهي تتعلق بالذوق والمقاييس الجمالية عند العرب ، الذين يرمونهم بفساد الذوق وشطط الذهن وأن أدبهم أدب « الصنعة البديعية » و « البهرجة الكاذبة » و « الفرقعة اللفظية » و « الخيال المصطنع » وأنه « تمثال بديع من الحسنات لا حياة فيه » وفي الجملة هو عندهم « أدب بطون ومعدة وفقاقيع ولاحظ له من الجوهر أو الروح » وأن مرجع ذلك هو « الموقف الذي رسم للشاعر قديما وهو خدمة السلطات :

يذهب إلى هذا أحمد أمين ، وسلامة موسى وزكي نجيب محمود ، والمازني ، والشابي ، وكثير من الحداثيين وهم في هذه الفرضية يجردون الأدب العربي من رسالته في الحياة ويعتبرون هذه السمة البديعية جناية على الأدب وإماتة للذوق وأنها تضعف ملكة الإبداع وتقعد بالأدب عن العالمية .

---

(١) ياقوت الحموي . معجم الأدباء جـ ١ ص ٧٨ دار المأمون .

والحق أنها حجة داحضة وقد أثارها من قبل كثير من الشعوبيين الذين افتخروا على العرب بالذوق والبلاغة مما جعل الجاحظ يرد عليهم بقوله[١] « ونحن إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة في القصيد والأرجاز والمنثور وفي المزدوج وما لا يزدوج فمعنا الحكم على ذلك في الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت » .

على أنه إذا كان التأنق البلاغي من مثالب الأساليب العربية عند الحداثيين قد حال دون وصول الأدب إلى العالمية فمن الغريب أن المستشرق الإنجليزي س . هاملتون جيب (١٨٩٥ —) يقرر أن التأنق البلاغي هـــذا إحدى السمات التي يتميز بها الأدب العالمي وهو في هذا يجرد الأدب العربي من هذه السمة وأن « التأنق البلاغي الشرقي الذي أصبح نموذجا هو أجنبي على التعبير العربي الطبيعي ، زحف إلى الأدب العربي من مصادر خارجية »[٢] ويذهب إلى هذا الرأي أيضا المستشرق النمساوي جوستاف غرونباوم (١٩٠٩-١٩٧٢) مقررا أن الجمال عند العرب لم يكن سوى زخارف وعن هـذه النظرية الأرسطوطالية نشأت النظرية النقدية العربية »[٣] .

البديع إذن من مثالب الأدب العربي وهو سمة قعدت به دون العالمية ، ثم هو بعد هـذا كله أصل يوناني نقله العرب ولا ندري كيف يكون عربيا وأجنبيا في آن معا إن البديع[٤] كما يقول ابن المعتز معروف في القرآن وكلام العرب والحديث النبوي والأشعار المتقدمة ، ثم إن العرب الجاهليين لم يعرفوا المصادر الأجنبية فضلا عن أن ينقلوا . أو يتأثروا بمعطياتها الجمالية وقد اعترف بهذا المستشرق كراتشكوفسكي مقررا « أنه من الصعب إيجاد آثار

---

(١) السابق نفسه .　　(٢) الأدب العربي ص ٦٩ .

(٣) دراسات في الأدب العربي ص ٩ بيروت ١٩٦٢ ، ترجمة دهشان عباس وآخرين .

(٤) د . مندور النقد المنهجي عند العرب ص ٤٨ .

للنفوذ اليوناني في نشوء البديع العربي ، فقد ولد في بيئة تختلف عن البيئة التي نشأ فيها البديع اليوناني كل الاختلاف وأن ابن المعتز كان رائد البديع في الربع الأخير من القرن التاسع وأن منهجه نتيجة دراسته القرآن والحديث وشعر العرب الذي ظهر فيها هذا الاتجاه »[١] .

وإذا كان الحداثيون العرب قد جردوا الأدب العربي من العالمية على هذا الأساس البديعي واعتبروه تمثالا بديعا ، وخيالا مصطنعا قائما على عبادة الماضي وأنه أفقد الأدب وظيفته الحياتية وقصره على الدعاية السياسية للحاكم فإن هذه الدعوى بلورة عربية لفكر غربي صدع بها من قبل كثير من المستشرقين وقرروا أن « الطريقة السائدة في الشعر العربي هي فن الزخرفة »[٢] .

ويبدو أن غوستاف غرونباوم قد نسي ما كان يدعو إليه من قبل من أن هذه الصنعة البديعية عند العرب إنما هي أصل يوناني وأنها من ملامح العالمية في الأدب إذ تراه دون تمحيص يقرر أن هذه الصنعة هي السبب في تأخر المسلمين وتأخر أدبهم بسبب نزوعهم إلى حب الماضي وأن يكون الكاتب المسلم متقنا أنواع الأساليب في صفة أي حاكم في أية طريقة ومثل هذا يقضي على الطبيعة العقلية والجمالية في هذا النوع من الثقافة التي تعجز الذهن بسبب إيثارها الشكل والشكلية على ما فيها من ميل إلى الظهور بمظهر جمالي »[٣] .

على إنه إذا كان المتمردون عندنا على التراث العربي قد اتهموا الذوق العربي بالفساد والشطط واتخذوا من الحداثة تعويذة نقدية مطالبين الشعراء بالصدور عن أذواقهم هم وليس عن أذواق القدماء وألا يجمدوا على تشبيهاتهم التي لا توائم العصر صائحين بأنه[٤] « قد حلت الطيارة محل الإبل ولا زلنا نقول : ألقى حبله على غاربه » نقول إذا كان الأمر كذلك

---

(١) نفسه .
(٢) جونيبه السابق .
(٣) نفسه .
(٤) أحمد أمين . السابق .

فإن هذه الصيحات ماهى إلا بلورة عربية لفكرة استشراقية نلمح أصولها عند كراتشكوفسكى حين يرمى البديع العربى بالعقم والجمود وأن التجديد فى هذا المجال لم يكن سوى « إحلال شىء محل آخر كحل القطار محل الناقة وظلت التقاليد القديمة مهيمنة على الشعر العربى »[١] .

ومن الغريب أن المستشرقين جردوا الأدب العربى من أخص خصائصه وهى الغنائية التى هى سر الأسرار فى فن العربية الأول « وأقدم نشأة لأنها تعبير عن خلجات النفس وعواطف الإنسان العربى وحاجاته فى تلك الحياة الأولية الساذجة التى تجعله يهتم بحاجات نفسه ومطالبها قبل أن يهتم بغيره »[٢] ومع هذا يذهب جرونباوم إلى « نقص هذا الجانب فى الثقافة الإسلامية فى القرون الوسطى وأنه قعد بالعرب عن الإبداع والخلق »[٣] !!

— ٥ —

وثمت إشكالية أخرى يروج لها الحداثيون وهى افتقاد الأدب العربى إلى النزعة الإنسانية التى هى إحدى سمات العالمية فى الأدب الإنجليزى الذى يقرر الدكتور لويس عوض[٤] أنه « ليس أدبا محليا كبعض الآداب الأخرى إنما هو أدب إنسانى شأن الأدبين الإغريقى والفارسى هو أدب يعبر عن عواطف الجنس البشرى كله لا عن عواطف الإنجليز وحدهم هو أدب تقف فيه على تطور القيم الإنسانية الحقيقية كما أن صلته بالمجتمع قوية ودائمة وواضحة وبالجملة هو أدب حى وهو مستودع العواطف والآلام الإنسانية » .

---

(١) دراسات فى الأدب العربى ص ١٨ موسكو ط ١٩٦٥ .

(٢) د . محمد طاهر درويش النقد الأدبى عند العرب ص ٢٥٣ .

(٣) نفسه ١٠٧ – ١٠٨ . (٤) نفسه .

وواضح من عبارة الدكتور لويس عوض « الآداب الأخرى » أنه يغمر الأدب العربي فى هذه السمة التى خص بها الأدب الإنجليزى فإذا أضفنا إليها عبارة أحمد أمين[1] « أن شعر العرب لا نتيجة شعور يتدفق وأنه من رأسهم لا من قلبهم » مع عبارة سلامة موسى بشأن الشعر العربي وأنه « بهرجة سخيفة المغزى والمعنى »[2] خرجنا بنتيجة حدائية وادها أن الأدب العربى لم يؤد رسالته اللهم إلا أن يكون فى خدمة السلطان الحاكم وإنه لذلك يفتقد النزعة الإنسانية !!

والحق أن الأدب العربي على اختلاف عصوره ينطوى فى موضوعاته وقضاياه على كثير من النزعات الإنسانية التى تعبر عن عواطف الجنس البشرى بعامة وليس العرب القدماء وحدهم فقد تساءل عن الإنسان والكون والحياة والموت والحرية والقدر وغير ذلك من مشكلات إنسانية تناولها الشعر الجاهلى والإسلامى وأعطى من خلالها أمورا جد عظيمة . فلم يكن زهير ابن أبي سلمى يعبر عن نفسه فحسب إنما كان يعبر عن مشاعر كل ذى هرم حينما قال :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

ولم يكن لبيد (٦٥٠ — ٦٦٠) يعبر عن موقفه فقط إنما كان يعبر عن موقف الإنسانية من قضية الموت والخلود حينما قال :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع   وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يصير رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع   ولابد يوما أن ترد الودائع

ولم يكن أبو صخر الهذلى يترجم عن ذاته فحسب إنما كان يعبر عن مخاوف كل عاشق من عواقب الهجر حينما قال :

---

(١) نفسه .   (٢) نفسه .

وإنى لا أدرى إذا النفس أشرفت على هجرها ما يفعلن بى الهجر

فالخوف من عواقب الهجر شعور كل عاشق وهـــذا ماجعل بعض من سمعوه يقول : « الموت الاحمر والله يا ابن أخى مادونه شيء »[1] .

وكذلك ابن الرومى لم يكن يعبر عن ذات نفسه فحسب وإنما كان يعبر عن مشاعر الإنسان من خوف المجهول حينما قال :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب

والأمر كذلك بالنسبة للمعرى حين قال :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد

ولم تقتصر هذه النزعة الإنسانية فى الشعر العربى على المشكلات التى تناولها فحسب وإنما امتدت أيضا إلى أغراضه وموضوعاته ففى شعر المديح سجل المثل الرفيعة فى الرجولة وما ينبغى أن يكون عليه النابهون فى الخلق والسلوك حتى يجد فيهم الشباب النموذج الأول فى البطولة والحمية والبطش بأعداء الإسلام .

وفى الشعر السياسى الاموى والعباسى عنـــد الخوارج والشيعة يطالعنا النموذج الأول فى النضال من أجل المبادىء وما ينبغى أن يتصف به الخليفة من العدل والإلتزام .

وفى شعر الاطلال تطالعنا الفكرة التى يرمز بها هـذا الرسم العافى إلى قضية الحب والحياة ومايلاحقهما من العدم .

وفى شعر الغزل العـذرى وما تفرع عنه من حب صوفى يطالعنا التغنى بالجمال المطلق فى الكون ومشاهده ومايبعثه هذا العشق من وجد ظامىء لا يرتوى .

والخلاصة أن الشعر العربى القديم لم يكن بعيدا عن هـذه النزعات الإنسانية فى موضوعاته ومشكلاته كما أنه لم يكن فقط فى خدمة الحاكم كما يروج الحداثيون مقررين فى أكثر من موضع أنه أدب فقاقيع وبطون ومعدة ولاحظ له من اللباب .

---

(١) أمالى القالى ١/٣٠ .

إن هذا الفن الأول ، يتلاءم مع العصر فى جملته . فهو فن والفنون خالدة تعبر عن مشاعر الإنسان وعواطفه وهى خالدة فى الناس على اختلاف عصورهم فنحن والاسلاف نعيش نفس الخواطر وكل ذلك لا يختلف من جيل إلى جيل وإنما الذى يختلف هو العقل ومحصوله من العلم الذى يرقى مع الزمن وبالجملة فالشعر العربى القديم يحمل غذاء فنيا رفيعا فى كل جوانب الحياة فى تربية الشباب وبث المثل الاخلاقية فيهم وإشعال جذوة الطموح والثقة والمجد الحربى فى صدورهم وتجسيد العواطف الصافية وصقل خبرتهم بالحياة وفتح كثير من النوافذ لتأملات نفسية وعقلية فى الحياة والموت والقدر(١) .

ولعله بعد ذلك يجوز لنا أن نصف هذا الأدب بالعالمية وأن نقول عنه ما قاله الدكتور لويس عوض عن الادب الإنجليزى وبهذا المقياس يكون الادب العربى أدب إنسانى عالمى .

(١) د . شوقى ضيف : مجلة الشعر العدد السادس أبريل ١٩٧٧ ص ٦١ حوار أجراه معه عاطف مصطفى .

أهم مراجع البحث

أولا : الكتب :

١ - الإبداع : د. عبد الحليم محمود ، المعارف القاهرة ١٩٧٠ م .

٢ - الأغانى : الأصفهانى : ط التقدم ١٣٢٣ هـ .

٣ - البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق السندوبى .

٤ - تاريخ الأدب العربى : السباعى السباعى : ط العلوم . القاهرة ١٩٣٢ م .

٥ - تاريخ التمدن الإسلامى : جورجى زيدان : ط ٤ الهلال .

٦ - تاريخ الآداب العربية : ط : المعارف ، مصر ١٩٧٠ م .

٧ - الترخص فى اللغة العربية : د/ تمام حسان .

٨ - الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبرانيين : العقاد ، ط : الهيئة المصرية ، القاهرة ١٩٨٥ م .

٩ - الحيوا : الجاحظ ، جـ ٧ ط : الحلبى ، القاهرة ١٩٠٧ م .

١٠ - الخيال الشعرى عند العرب : أبو القاسم الشابى ، ط : المؤسسة الثقافية تونس ١٩٦١ .

١١ - دراسات فى الأدب العربى : غزو نباوم ، بيروت ١٩٦٢م ، ترجمة إحسان عباس .

١٢ - دراسات فى الأدب الإسلامى : محمد خلف الله أحمد ، ط : الإسكندرية ١٤٩٧ .

١٣ - دراسات فى الأدب المعاصر : كراتشكوفسكى ، موسكو ط : ١٩٦٥ .

١٤ - الشعر والشعراء : ابن قتيبة .

١٥ - الشعراء نقادا : د/ عبد الجبار المطلبى ، ط : وزارة الثقافة ، العراق ١٩٨٢ .

١٦ ـ الصناعتين : العسكرى ، ط : الآستانة ١٣٢٠ هـ .
١٧ ـ طبقات فحول الشعراء : ابن سلام ، تحقيق محمود شاكر .
١٨ ـ العمدة : ابن رشيق : تحقيق محمود شاكر .
١٩ ـ فيض الخاطر : أحمد أمين جـ ٢ ، ط : النهضة ١٩٥٦ .
٢٠ ـ المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول : شكرى فيصل ، ط : دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ .
٢١ ـ المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية : جوتييه ، دار الكتب الأهلية ١٩٦٠ .
٢٢ ـ معجم الادباء : ياقوت الحموى ، جـ ١ دار المأمون .
٢٣ ـ هذا العصر وثقافته : د/ زكى نجيب محمود ، القاهرة ، دار الشروق ١٩٨٧ م .
٢٤ ـ يقظة الادب العربى : أنور الجندى ، ط : زهرن ، القاهرة ١٩٧٢ .

ثانياً : الدوريات :

١ ـ مجلة الشعر أعداد يولية ١٩٧٩ ، أكتوبر ١٩٨٦ .
٢ ـ مجلة الرسالة الكويتية عدد يوليو ١٩٧٣ .
٣ ـ مجلة الهلال مجلد ٣٤ ، جـ ٢ سنة ١٩٢٥ .

القسم الخامس

الدراسات التاريخية والجغرافية

١ ـ الدكتور عبد العزيز غنيم
٢ ـ الدكتور السعيد رزق حجاج
٣ ـ الدكتور مجاهد توفيق الجندى
٤ ـ الدكتور محمد صابر عرب
٥ ـ الدكتور طلعت أحمد عبده

خير النساء ... خديجة بنت خويلد

بقـــلم الدكتور
عبد العزيز غنيم

فى الجاهلية :

كانت خديجة بنت خويلد أحدى كرائم قريش وصواحب الرأى والعقل فيها كانت ذات مال كثير وثراء وفير . وكانت قد اتخذت التجارة مهنة لها بعد أن مات عنها زوجاها . هند وعتيق . غير أنها لم تكن تخرج فى قوافلها التجارية المتوجهة نحو الشام واليمن وغيرهم من أسواق العرب . وإنما كانت تختار من ذوى الشرف والأمانة من ينوب[1] عنها فى البيع والشراء والمضاربة شأنها فى هذا شأن من سواها من النساء اللاتى كن يحترفن هذه المهنة . وقد اتفق النسابون على أنها هى خديجة[2] بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشية ، وأن أمها هى فاطمة بنت زائدة بن الأصم .

وأنها قد ولدت فى مكة وأن ولادتها قد كانت فى العام الخامس عشر قبل هزيمة أبرهه .

وهذا القول مختلف فيه بناء على الاختلاف فى سنها عندما تزوجها محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ولا خلاف بين الرواة فى أن خديجة رضى الله عنها قد تزوجت مرتين قبل زواجها من النبى عليه الصلاة والسلام وإنما الخلاف[3] حول من تزوجته أولا . أهو أبو هالة هند بن زرارة أم عتيق بن

(١) السهيلى : الروض الأنف حـ ٢ ص ٢٣١ ط دار الكتب الحديثة .

(٢) ابن حجر : الإصابة حـ ٤ ص ٢٨١ ط دار الفكر بيروت .

(٣) ابن عبد البر ـ الاستيعاب حـ ٤ ص ٢٨٠ دار الفكر ـ بيروت .

هائد . وأياما كان فإنها قد أنجبت من كل منهما فى وأن الحياة لم تطل بينها وبينهما . فقد لقيا ربهما واحداً بعد الآخر ، وهى ماتزال ترفل فى برود الصبا وأثواب الشباب . ويظهر أنها قد سئمت الزواج بعد أن أصيبت فى كل منهما وهما فى مثل عمر الزهور .

فقد كان الخطاب يتسابقون إليها من قريش وغيرها وكانت هى ترفضهم وتأبى عليهم حتى عرفت محمداً عليه الصلاة والسلام ، فأحبته ورغبت فى أن تكون زوجة له . ومرجع هذا فى تصورى إلى أسباب أحدها : أن محمداً قد كان فى كفالة عمه أبى طالب[1] . وأن هذا الرجل قد كان ذا عيال ، وكان ماالديه من المال لايكفى للانفاق عليهم وتوفير ماهم فى حاجة إليه ، فقال يوماً لابن أخيه يامحمد أن خديجة امرأة ذات مال وأنها تستأجر من يتاجر لها فى مالها فلو ذهبت إليها وعرضت عليها نفسك لأضعفت لك الأجر لما تعرفه ويعرفه غيرها من طهارتك وأمانتك وصدق حديثك وحسن خلقك، وامتثل محمد عليه الصلاة والسلام لأمر عمه أبى طالب وتحدث إلى خديجة فأثنت عليه وأظهرت رغبتها فى التعامل معه وخرج صلوات الله عليه فى تجارتها إلى الشام ومعه غلامها ميسرة . وقد رأى هذا الغلام منه ما أدهشه وحير خاطره . رأى غمامة تدنو منه حتى تظلله كلما حميت الشمس واشتدت الهاجرة ورآه ، وقد نزلوا على كثب من صومعة راهب نصرانى . اسمه نسطور[2]. وقد أظلته شجرة لم يكن رآها من قبل فى هذا المكان على الرغم من كثرة أسفاره وتكرار زيارته لهذه الصومعة وصاحبها الراهب النصرانى، وأدهش من هذا وأعجب ماقاله له هذا الراهب وهو يسأله عن هذا الرجل الذى تظله هذه الشجرة ، فقد أكد له إنه نبى وأن زمانه قد اقترب وأن الله سوف يهدى على يديه العجم

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٢٩/١ ط بيروت — الطباعة والنشر .

(٢) السهيلى : الروض الأنف حـ ١ ص ٢٣٦ ، ابن سعد الطبقات الكبرى ١٣٠/١ .

والعرب وزاد يقينه ورسخ إيمانه عندما رأى من أهل الشام يلاحى محمداً حول شيئاً باعه له ويسأله أن يحلف باللات[1] والعزى وقول محمداً له والله ما أبغضت شيء بغضى لهذه الأصنام وإنى لامر عليها فلا أنظر إليها .

فقد عقب هذا الشامى على ماسمع من محمد قائلا والله إنه هذا لهو النبى الذى يتحدث عنه الأحبار والرهبان والذى جاء ذكره فى التوراة والإنجيل وقد حدث ميسرة سيدته خديجة عن هذا كله فور عودته إلى مكة وأضاف إلى ذلك مالاحظه فى محمد عليه الصلاة والسلام من طيب العشرة وصـــدق الحديث ودماثة الخلق ،وهذا التوفيق الذى حالفه فى بيعه وشرائه . ولم تشك خديجة رضى الله عنها فى صدق ميسرة ولا فى حقيقة أقواله فى محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأت هى بعينها طرف منه ذلك أن ميسرة قد قال لمحمد وهو فى طريق عودته وقد نزلوا فى مرالظهران يامحمد أذهب أنت إلى خديجة فاعلمها ما وفقك الله فيه فى البيع والشراء فإن ذلك سوف يكون له الأثر الحسن فى نفسها وأنطلق صلوات الله عليه نحو مكة .

وكانت خديجة فى شرفة لها تنتظر وصول القافلة فرأت محمداً قد اكتنفه مليكان ـ أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وغمامة فوق رأسه تظله من الهاجرة فدعت نسائها وسألتهن أن كن يشاهدن ماتشاهد فقلن نعم وعلى الفور وبعد أن قص عليها محمد أخبار الرحلة ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل[2] وكان قد قرأ الكتب وتحنف ، فلما حدثته حديث غلامها ميسرة وما شاهدته وهى فى شرفتها تنتظر القافلة أحنى رأسه قليلا ثم رفعها وقال لئن كنت قد صدقتنى ياخديجة فإن هذا لهو النبى الذى تتحدث عنه الكتب المقدسة وراح ينشد أبياتا جاء فيها :

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٣٠ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٣١ .

(٣) مرجع سبق ذكره ، الروض الأنف ٢/١٤١ .

لججت وكنت فى الذكرى لجوجاً ... لهم طالما بعث النشيجا[1]
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى ياخديجا
ببطن المكيتين على رجائى ... حديثك أن أرى فيه خروجا
بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود قوماً ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقوم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتى إذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا

وواضح من هذا الشعر الذى أنشده ورقة بن نوفل أن خديجة بنت خويلد قد قصت عليه ما سمعته من غلامها ميسرة فى شأن محمد وماقاله الراهب نسطور فى أمره . ولأن ورقة قد كان ممن قرأ الكتب ودرس الأديان فقد حكى من محمد ماحكى وتوقع له ماتوقع . وانتظر اليوم الذى يكون فيه حديث خديجة حقاً لاسبيل إلى إنكاره ولا إلى الشك فيه ، ويكون هو أول المتلقين له والداخلين فيه .

والسبب الثانى وهو ماسجله المدائنى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن نساء أهل مكة[2] اجتمعن فى عيد لهن فى الجاهلية فتمثل لهن رجل فلما قرب نادى بأعلى صوته يانساء مكة إنه سيكون فى بلادكن نبى يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فلتفعل فحصبنه إلا خديجة فإنها عضت على قوله ولم تعرض له .

وما أشك فى أن مارأته خديجة من أمر وماسمعته فى شأنه من غلامها ميسرة وابن عمها ورقة . وهذا الرجل الذى أطلع على نساء مكة فى عيدهن جعلها

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٦ ط مكتبة المعارف — بيروت .
(٢) الحافظ ابن حجر : الإصابة ٤/٢٨٢ .

تحب محمداً وتتعطش إلى اليوم الذى يجمعه وإياها فيه بيت واحد ورباط واحد ومن أجل هذا رأيناها تتابع أخباره وتكثر السؤال عن شئونه وأحواله ومن أجل هذا كذلك رأيناها ترسل إليه أختها أو إحدى صواحبها تسأله أو تسأل صديقه عمار[1]. إذا كان يرغب فى الزواج فإن آنسة منه رحابة صدر وانشراح نفس وبشاشة خاطر حدثته أنها راغبة فيه وتم الأمر كما أرادت. فقد تحدثت أختها أو إحدى صواحبها إليه أو إلى صديقه. ومن الرواه من يقول بل إن محمد صلوات الله وسلامه عليه هو الذى مشى إليها، ومهما يكن من شىء فقد تم اللقاء بينه وبينها واتفقا معاً على الزواج، وذهب صلوات الله عليه إلى عشيرته، وعاد ومعه عمه حمزة أو عمه أبو طالب وكانت خديجة قد ذبحت بقرة ودعت أقاربها وذوى عشيرتها. واستوى أبو طالب قائماً وقال[2] «أما بعد، فإن محمداً ممن لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلا وفضلا وعقلا، وإن كان فى المال قل، فإنما المال ظل زائل، وعاريه مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك» فقال عمرو وهو الفحل الذى لا يقرع أنفه، وتم الاتفاق بين الأسرتين على المهر وهو عشرون بكره[3] أو أربعون أوقيه من الذهب والفضة. وكانت خديجه آنذاك فى الأربعين[4] وكان محمد فى الخامسة والعشرين. ومن الرواة من يرى أنهما كانا فى الخامسة والعشرين والرأى الأول أكثر تداولا على الألسنة. وأكثر تناقلا عن المسلمين قرنا بعد قرن، وعصراً بعد عصر وقد اختلف الرواه فى الوالى الذى زوج خديجة من محمد، فقال بعضهم هو أبوها خويلد وقال هو عمها عمرو[5] والرأى الثانى أرجح من الأول وذلك لسببين :

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٢/٢٩٥.

(٢) الروض الأنف ـ مرجع سبق ذكره ٢/٢٣٨.

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٢/٢٩٤.

(٤) الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ٢/١٩٦ ط/ دار القلم بيروت ـ لبنان وابن سعد ـ الطبقات الكبرى ١/١٣٢.

(٥) السهيلى ـ الروض الأنف ـ ٢/٢٢٨.

أحدهما : أن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفجار :

والثانى : أن أصحاب الرأى الأول يدعون أن خديجة كست[1] أباها خويلدا حلة من حرير وراحت تسقيه الخمر حتى سكر فلما آفاق سئل عما يجرى ، فقالوا له لقد زوجت خديجة من محمد . فأبى هذا الزواج ورفضه ولما رأى الشر قد أوشك أن يقع بين العشيرتين . أقر ما كان قد أنكر . وباركه وهذا كلام لا سبيل إلى تصديقه فما كان لخديجه فى عقلها وشرفها أن تخدع أباها هكذا وتلبس الأمر عليه وما كان لمحمد فى حسبه ونسبه أن يقبل زواجاً قائماً على التزيف والتمويه . ومهما يكن من شىء ، فإن المولى سبحانه قد بارك هذا الزواج وحفظه من كل مايشين ويجعل السوء يخالطه أو يدنو منه فقد كانت خديجة كل شىء فى حياة محمد . كانت الأم الحانية . والأخت الراعية والزوجة الودود الولود التى إذا أمرها أطاعته وإذا نظر إليها سرته وإذا غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه . وكان محمد كل شيئاً فى حياة خديجة كذلك . كان الأب الحانى والأخ الحامى . والزوج العطوف الألوف الذى لا ترى منه إمرأته إلا ما يشرح صدرها ويسعد قلبها ويفجر ينابيع المحبة والمودة فى أعماق فؤادها . وقد شاء الله تعالى ، أن يثمر هذا الزواج البنين والبنات ، فقد أنجبت خديجة من محمد ولدين[2] ، أحدهما القاسم والآخر الطيب . وقد اختارهما ربهما . وهما ما يزالان فى حلل الطفولة المبكرة ، وأنجبت منه أربع بنات وهن زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقيه . وقد عشن جميعا وهاجرن . ثم أخذن طريقهن إلى الحياة الأخرى واحدة بعد الأخرى ، ماخلا فاطمة فإنها لقيت ربها بعد وفاة أبيها بستة أشهر على أرجح الروايات ، ومع ما أصاب خديجة رضى الله عنها من موت ولديها القاسم والطيب فإنها لم تسمع زوجها كلمة حزن ولا عبارة آسى وأنما كانت تستقبل البلاء بالصبر

---

(١) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ٢/٢٩٦ .

(٢) ابن عبد البر ــ الاستيعاب ــ ٤/٢٨٠ ــ ٢٨١ .

وتستعين على الرزء بالطمع فى رحمة الله ، والرغبة فى عطائه . وهكذا أسعدت خديجة محمدا وملئت حياته سرورا وبهجة . ولما مالت نفسه إلى الخلوة والانقطاع فى حراء الليالى ذوات العدد يفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء . لم تثبط خديجة له عزما[1] ولا أوهنت له همة . وإنما كانت على العكس من ذلك . تشجعه وتشد أزره وتعد له ماهو فى حاجة إليه من الطعام والشراب . فإذا طالت غيبته . وبعدت أوبته بعثت إليه[2] من يسأل عنه ويأتيها بأحواله وأخباره . وفى العام الذى بعثه الله فيه انقطع محمد فى حراء ستة أشهر . كانت خديجة لا تنفك فيها تسأل عنه وتبعث إليه ما يكفيه من الزاد والماء حتى إذا كانت ليلة السابع عشر من شهر رمضان .

وقد رأى محمد عليه الصلاة والسلام الروح الأمين يهبط عليه ويقرأه الآيات الأولى من سورة العلق ، وعظم خوفه وأشتد وجلة ، وارتعدت أعضاءه ولم يستطع التحكم فى جوارحه غادر الجبل وأقبل إلى أحب الناس إليه وآثرهم لديه أقبل إلى خديجة يرجف فؤاده وهو يقول : زملونى، زملونى فأقبلت إليه، حانية عليه مربطة على كتفيه ، وهى تقول : كلا والله لا يحزيك[3] الله أبدا إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر ، ولما سرى عنه أخذته وانطلقت إلى ابن عمها ورقة[4] وكان شيخا، قرأ الكتب وتحنف وقصت عليه خبر محمد ، ولم يكد الرجل يسمع منها ومنه حتى طفق يقول قدوس ،قدوس رب الملائكة والروح ، هذا والله الناموس الذى نزل على موسى ياليتنى فيها جزعا وأهوى على رأس محمد وقبلها

---

(١) ابن حجر — الإصابة — ٤/٢٨١ .

(٢) السهيلى — الروض الأنف ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٣) ابن حجر — الإصابة ج ٤ ص ٢٨١ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٥ دار بيروت للطباعة والنشر .

وقال ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال محمد ، أو مخرجيّ هم . قال نعم ، والله ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ولئن يدركني يومك لأنصرك نصراً مؤزراً ، وعادت خديجة ومعها محمد إلى بيتهما وفتر الوحي . ثم عاد بعد ثلاث سنين فلما رآه صلوات الله عليه . اشتد خوفه وهرع إلى بيته فأجلسته خديجة على كتب منها وقالت يا ابن عم أترى الشخص الذى رأيت أنفا . قال نعم . فأدنته منها وكشفت عن شعرها ووجهها[1] وقالت : أتراه الآن قال لا : قالت : فأبشر إذن يا ابن عم فوالله إنك لملك وماهو بشيطان ونزل الأمر من المولى سبحانه إلى محمد بالدعوة إلى الإسلام فكانت خديجة أول من آمن به وانقادت لدينه لم يسبقها فى ذلك رجـــل ولا امرأة ولا صبى ولا صبية ولأنها حازت قصب السبق إلى دين الله كما ترى فإن جبريل نزل على محمد عليه الصلاة والسلام وقال . يا محمد أقرىء خديجة من الله السلام وبشرها ببيت من قصب لاصخب فيه ولا نصب[2] ، ومنذ دخلت خديجة رضى الله عنها فى الإسلام وهى تواسى النبى وتدافع عنه وتصرف الهموم والأحزان عن قلبه وتهون عليه إيذاء قومه له ولأصحابه وتؤكد له أن الله معه وأنه أن يصبر على ما يصيبه من سفهاء قومه فإن الله سيخلق له اليسر من العسر والفرج من الضيق وكم من ليلة عاد فيها صلوات الله عليه إلى بيته كاسفاً باله ضيقاً صدره يكاد يفجعه الأسى ويقتله الحزن لم تزل به خديجة تؤنسه وتمسح على قلبه حتى يتبسم بعد عبوس وينشرح بعد انقباض وينتعش فى نفسه الأمل فى اكتشاف قومه للحق وانقيادهم له وتسابقهم إلى الدخول فيه . ولما ضرب الحصار على رسول الله وأقاربه من بنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب انحازت خديجة إليهم فجاعت كما جاعوا وظمأت كما ظمئوا . وعانت من هجر الأحبة والأقارب ما عانوا لم تتأفف ولم تتبرم ولم ترفع

---

(١) ابن حجر : الإصابة ٢٨١/٤ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٧/٤ .

صوتها يوما فوق صوت النبي ولا جهرت له بالقول : وإنما كانت كما عرفها صلوات الله عليه الزوجة البارة التي تشاطر زوجها العسر واليسر والتعب والراحة والحلو والمر لا تتركه ولا تخذله ولا تظهر أنها ذات فضل عليه وقد شاء الله إلا تموت خديجة إلا بعد أن ينتهي الحلف الجائر وتمزق الصحيفة الظالمة ويرفع الحصار عن الشعب الذى ظل مضروبا عليه ثلاث سنين . وبعد أيام من انجلاء هذه الغمة وبعد ما ظن النبي وأصحابه أن الحياة سوف تعود كما كانت صافية راضية ماتت خديجة رضى الله عنها فلا تسل عما قاسى النبى عليه الصلاة والسلام وما عانى . ويكفي أن تعرف أنه قد أقام فى داره لا يفارقها حتى لا يرى الناس ولا يرونه حزناً عليها وتألماً لفراقها . ويقول الرواه : إنه عليه الصلاة والسلام لم ينسها طوال حياته . بل ولم ينس صواحبها اللواتى كن يترددن على دارها حتى إن عائشة وهى أقرب الناس إلى قلبه وأدناهم من روحه كانت تغار منها وتعاتب النبى عليه الصلاة والسلام فيها روى[1] هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة وما أن أكون أدركتها ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه إياها وإن كان ليذبح الشاه فيتتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن . ولم يكن هذا الإهداء هو كل ما كان يذكر به هذه الزوجة البارة المخلصة وإنما كان لا يفتأ يطريها ويثنى عليها حتى إن ذلك قد كان يثير حفائظ بعض نسائه روى مسروق[2] عن عائشة رضى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجه فيحسن الثناء عليها فذكرها يوما من الأيام فادركتنى الغيرة فقلت هل ، كانت إلا عجوزا فقد أبدلك الله خيرا منها فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها آمنت بى إذ كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ورزقنى الله منها أولادا إذ حرمنى

---

(١) ابن عبد البر — الاستيعاب — ٢٨٦/٤ .

(٢) ابن عبد البر — الاستيعاب — ٢٧٦/٤ — ٢٨٧ .

أولاد النساء . قالت عائشة فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً . ولم يقتصر ثناء النبى عليه الصلاة والسلام على خديجة عند هذا الحد وحسب . وإنما ذكر لها فضيلة[1] لم يشاركها فيها سوى ثلاث أسوة وهن فاطمه بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم وهذه الفضيلة هى . أنها سيدة نساء العالمين . فرحم الله خديجة وأجزل لها الأجر والمثوبة .

---

(١) ابن حجر — الإصابة — ٤/٢٨٣ ، ابن عبد البر — الاستيعاب — ٤/٢٨٥ .

الثـــورة الأرترية
فى ضوء الوثائق التاريخية

بقـــلم الدكتور
السعيد رزق حجاج
أستاذ التاريخ الحديث المساعد

إرتريا جزء لا يتجزأ من الأمة العربية وثورتها واحدة من أعظم الثورات التحررية فى هذا العصر ونضال شعبها نضال عادل يستحق مساندة العرب فى كل مكان لاسيما وأن الوجود الإثيوبى فى إرتريا يشكل من عدة أوجه وجودا استعماريا يستعبد ويتحكم، ويقتل ويشرد ، ويحاول جاهداً طمس معـــالم القضية والإدعاء بأن إرتريا جزء من أرض الإمبراطورية الاثيوبية وتتبع لها تاريخيا وأن الارتريين يكافحون كقومية صغيرة، للانفصال عن أثيوبيا وهنا يكمن الخطأ الكبير فى هـذا الإدعاء فارتريا لم تكن تابعة لاثيوبيا فى يوم من الأيام .

وقبل الحديث عن الثورة الإرترية المسلحة التى انطلقت فى بداية شهر سبتمبر عام ١٩٦١ بقيادة المجاهد حامد إدريس عوانى لمقاومة الإحتلال الإثيوبى وماحققته تلك الثورة فى ضوء الوثائق نود أن نذكر بعض الحقائق التاريخية عن هذه القضية .

١ ـــ من الحقائق التاريخية أن الصراع الذى يدور رحاه على الساحة الارترية منذ العقد الأول لرسالة النبى صلى الله عليه وسلم هو فى حقيقة صراع بين الصليبية والإسلام يهدأ حينا ويستقر أحيانا كثيرة(١) .

٢ ـــ هناك أكثر من دليل على أن إرتريا كانت قبل إحتلال الإيطاليين

لها فى أواخر القرن التاسع عشر دولة مستقلة لمدة ٧٠٠ سنة على الأقل ويستثنى من ذلك قطاع ضيق من الأراضى الساحلية التى كانت الإمبراطورية العثمانية تحتلها من عام ١٥٥٧ إلى أن وقعت البلاد تحت الإحتلال الإيطالى .

٣ — أن الأوربيين الذين كانوا أول من وطأت أقدامهم الأراضى الارترية فى بداية عام ١٥٠٠ ذكروا أن إرتريا كانت دولة مستقلة يحكمها رئيس اسمه (بحرى نجاشى) أو (سيد البحر) الذى كان مشغولا بالدفاع عن حدوده ضد ملوك الحبشة المجاورين له .

٤ — تبين خريطة برتغالية يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠ أن الحدود الجغرافية « لمدرى بحرى » (الأراضى المجاورة للبحر) هى فى الواقع إرتريا المعاصرة (٢) .

٥ — وصف ج . لودولوف العلامة الألمانى المعروف فى دراسة له « مدرى بحرى » بأنها أشبه ما تكون بجمهورية فيدرالية مستقلة .

٦ — فى عام ١٧٧٠ كتب ج . بروس المستكشف الإسكتلندى يقول إن الحدود بين مدرى بحرى وإثيوبيا كان يميزها نهر بلبزا وهو نفس النهر الذى تمتد على طوله حدود إرتريا الراهنة مع إثيوبيا (٣) .

٧ — من الحقائق التاريخية الهامة أن صراع المصالح الدولية والإقليمية من قضية إرتريا وشعبها الضحية الأولى التى يلتقى حول ذبحها تحالف واسع من قوى الأعداء والمستعمرين من الشرق والغرب على حد سواء والذين تنخرهم التناقضات وصراع المصالح ولكنهم متفقون على تصفية هذه القضية مستخدمين فى ذلك شتى أنواع أسلحة القتل والدمار وأن اهتمام الدولتين العظيمين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بإيجاد حل لهذه القضية يأتى من اهتمام كل منهما بالسيطرة على منطقة القرن الأفريقى ذات الأهمية الاستراتيجية العالمية فكما هو معروف تمتد إرتريا لمسافة ألف كم على شاطىء

البحر الأحمر من رأس قصار على الحدود السودانية شمالا إلى باب المندب جنوبا ويكمن فى الأهمية التجارية لهذا الشاطىء الذى يقع عليه ميناء مصوع وعصب وهما من أهم موانىء القرن الإفريقى وساحل البحر الأحمر .

٨ - أن إرتريا ضحية قرار الأمم المتحدة الصادر فى ٢ ديسمبر من عام ١٩٥٠ كمشروع قرار رقم (٧) A 39X والذى نص على إنشاء إتحاد فيدرالى اثيوبى إرترى مع احتفاظ إرتريا بالحكم الذاتى وأن يكون لها سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية فى حقل الشئون الداخلية (٤) .

٩ - فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٩٦٢ أعلنت أثيوبيا أن إرتريا أصبحت الولاية الرابعة عشر من الإمبراطورية الأثيوبية وكان لهذا معنى واحد هو بداية مرحلة جديدة من الكفاح المسلح خاضها الشعب الارترى للدفاع عن حقوقه المشروعة وكفاحه العادل .

الاستعمار الإيطالى لإرتريا :

تشير الوثائق الإيطالية حول إحتلال إرتريا أن البداية كانت على يد المنصر « سابيتو » وشركة روباتينو الإيطالية فى عام ١٨٥٩ ثم كانت الخطوات الجادة بعد عام ١٨٨٢ حتى إعلان ملك إيطاليا تأسيس مستعمرة إرتريا فى أول يناير ١٨٩٠ بعد توحيد الاقاليم التى احتلها الجيش الإيطالى وتنظيم الإدارة المدنية بها (٥).

وبعد أن أتمت إيطاليا إحتلال إرتريا أعلنت قانون (التهدئة العامة) وبموجبه مارسو القتل والتعذيب والنفى والتشريد لقضاء على المقاومة الوطنية الارترية للاحتلال . وبمقتضى هذا القانون تم بالفعل تصفية عدد كبير من الزعماء الوطنين وأبطال المقاومة .

وكانت نهاية الاستعمار الإيطالى عندما قامت الحرب العالمية الثانية وأعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا قامت القوات البريطانية بالزحف من

السودان على إرتريا عبر منخفضات بركة ودخلت أسمرة فى أول أبريل ١٩٤١ ثم سقطت مصوع فى أبريل من نفس العام(٦) .

إرتريا فى ظل الإدارة البريطانية ١٩٤١ — ١٩٥٢ :

تحولت إرتريا خلال فترة الاحتلال البريطانى إلى مسرح للصراعات الدولية بين القوى الكبرى ذاق أثناء الشعب الارترى ويلات العنف الدموى والخراب الشامل للاقتصاد والإنعدم التام الأمن ، ودخلت إثيوبيا فى ذلك الصراع الدامى تحركها أطماع التوسع على حساب إرتريا(٧) .

تكوين الاحزاب فى أرتريا :

بدأ الارتريون يهتمون بقضاياهم الاجتماعية والثقافية والسياسية وكانت البداية عندما تأسست (جمعية حب الوطن) عام ١٩٤٣ أسسها بعض الشباب المثقفين فى أسمرا وكانت تضم الارترين بمختلف طوائفهم وأقاليمهم وكان مؤسسوها ١٢ شخصا ، ستة منهم مسلمون وستة مسيحيون ، وقد ركزت هذه الجمعية أهدافها فى الاهتمام بالإصلاحات الاجتماعية والثقافية وكان من بين منجزاتها إجبار سلطات الإحتلال البريطانى على إلغاء قانون التميز العنصرى الإيطالى وتشجيع الحركة التعليمية والثقافية والمطالبة بالحفاظ على وحدة الشعب الارترى بمختلف طوائفه (٩) .

حزب الاتحاد مع إثيوبيا :

أفلحت مساعى إثيوبيا التى كانت ترسل عملاءها إلى إرتريا منذ الاحتلال البريطانى ودعمهم الأموال فى خلق حزب يدور فى فلكها باسم (حزب الاتحاد مع إثيوبيا) قاعدته العريضة مسيحية وبه أقلية مسلمة ، ولم يعدم الزعماء المسلمون فى إرتريا الحجة لإنشاء حزب يمثلهم فكان أن عقد اجتماع فى كرن وذلك فى ديسمبر ١٩٤٦ . وفى مستهل ١٩٤٧ أعلن المؤتمرون تأسيس

حزب الرابطة الإسلامية الإرترية ، الذى حدد مطالبه فى الاستقلال والحفاظ على وحدة التراب الارترى .

ومن ناحية أخرى أنشئت عدة أحزاب أخرى صغيرة دارت فى فلك دول أجنبية وشهدت الأعوام الستة (١٩٤٦ — ١٩٥٢) صراعات سياسية حادة وأنشأت الأحزاب السياسية صحفها الخاصة التى تصـــدر بالعربية والتجرينية .

وهكذا تم تقسيم الشعب الارترى ، وانطلت على الارتريين حيل الاستعمار الأثيوبى والبريطانى ، وكان الشعب الارترى هو الخاسر فى النهاية كما برهنت الأيام(٩) .

قضية إرتريا فى الأمم المتحدة :

تشكلت لجنة رباعية من قبل نواب وزراء خارجيـــة الدول الأربع الكبرى لزيارة المستعمرات الإيطالية للحصول على معلومات تتعلق برغبات السكان والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما يحفظ السلام والأمن العام بوجه عام .

وفيما يتعلق بمصير إرتريا ظهر خلاف حاد فى اللجنة الرباعية بين وجهة نظر الجانب الأمريكى والبريطانى من جهة وبين وجهة نظر الجانب السوفيتى والفرنسى من جهة أخرى بشأن قوة الأحزاب الارترية ونسبة مؤيديها ، كما تباينت وجهات نظرها بعد ذلك بين المطالبة بوضع إرتريا تحت الإدارة الأثيوبية المؤقتة أو تقسيمها وإعطاء الجزء الجنوبى إلى أثيوبيا مع تأجيل البت فى الجزء الباقى أو وضعه تحت الوصاية لإيطاليا أو بوضع جميع الأراضى الارترية تحت الوصاية الجماعية للأمم المتحدة(١٠) .

وفى عام ١٩٤٩ افتتحت الجمعية العـــامة للأمم المتحدة دورة انعقادها الرابعة فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٩ وتنوعت وتعددت مشروعات القرارات التى

قدمتها الوفود المختلفة وتضمنت ثلاثة مشروعات منها توصيات بشأن مستقبل ارتريا .

١ ـ مشروع القرار الباكستانى ويقضى بمنح إرتريا إستقلالها بعد ثلاث سنوات مع إعطاء اثيوبيا منفذا إلى البحر الأحمر عن طريق عصب .

٢ ـ مشروع القرار السوفيتى ويقضى بمنح إرتريا استقلالها بعد خمس سنوات تكون خلالها تحت وصاية الأمم المتحدة ، وأن تمنح إثيوبيا منفذا إلى البحر الأحمر عن طريق عصب .

٣ ـ مشروع القرار الأمريكى ويقضى بضم إرتريا فيما عـــدا المقاطعة الغربية إلى اثيوبيا وضم المقاطعة الغربية إلى السودان .

وبعد مناقشات مستفيضة حول هذه المشروعات وغيرها عقدت اللجنة العامة عدة جلسات مابين ٨ و٢٥ نوفمبر ١٩٥٠ ثم تقدمت الوفود المختلفة بمشروعات قراراتها فى ضوء دراسة اللجنة الخاصية وفى ٢٤ نوفمبر ١٩٥٠ بدأت اللجنة السياسية بالتصويت على مشروعات القرارات المقدمة وبذلت الولايات المتحدة جهودا كبيرة ومارست ضغوطا مختلفة حتى تم إقرار مشروع المجموعة الأمريكية بأغلبية ٣٨ صوتا ضد ١٤ وامتناع ٨ أصوات عن الاقتراع(١١) .

ويدعو هذا القرار الذى تقدمت به الولايات المتحدة وبوليفيا والبرازيل وبورما وكندا والدانمرك وأكوادور واليونان وتركيا وليبريا والمكسيك وبنما وبرجواى وبيرو وتوصى فيه بإقامة اتحاد فيدرالى بين إرتريا وأثيوبيا تحت سيادة التاج الاثيوبى على أن تسبق ذلك فترة انتقال لا تتجاوز ١٥ سبتمبر ١٩٥٢ ، ويتم خلالها تنظيم جمعية وطنية ودستورية وحكومة إرترية بمساعدة مندوب يختار من الجمعية العامة وخبراء يختارون من قبل السكرتير العام للأمم المتحدة(١٢) .

إرتريا فى ظل الاتحاد :

كان النظام الفيدرالى بالنسبة لإرتريا يعنى من وجهة نظر المنظمة الدولية (حلا وسطا) بديلا عن الاستقلال التام الذى طالبت به أغلبية الشعب الارترى وبديلا عن الضم الكلى الذى طالبت به أثيوبيا ومعها أقلية من عملائها فى ارتريا وكان القبول بهذا الحل هو أهون الضررين بالنسبة للحركة الوطنية بينما نظر إليه حكام أثيوبيا على أنه يقف حائلا دون تحقيق مزاعمهم التاريخية فى السيطرة على البحر الأحمر . وبدأ يسعون حثيثاً للقضاء على الكيان الارترى المتميز فى ظل النظام الفيدرالى ويقضون على كافة مظاهر الاستقلال الارترى المتبقية والتمهيد لضم أرتريا نهائيا إلى أثيوبيا لتصبح الولاية رقم ١٤ من أقاليم أثيوبيا بدلا من كونها طرفا فى اتحاد فيدرالى نشأ بمقتضى قانون له صفة دولية (١٣) .

ويعتقد البعض أن الشعب الارترى إذ شعر بالأمن فى الضمان المنصوص عليه فى مشروع قرار الأمم المتحدة وتأكد من وقوفه على قدم المساواة مع الأثيوبيين المتقدم بأنه سيكون فى استطاعته أن يسأل عن مصالحه ويبحثها ويدافع عنها ولكنه أصيب بصدمة من الموقف الاستبدادى الذى وقفه الإمبراطور « هيلاسلاسى » الذى قام بإلغاء نصوص الدستور الارترى ومشروع قرار الأمم الخاص بحقوق الإنسان والحريات الأساسية ، وقام بعمليات قمع للنقابات العمالية وقضى على حرية الصحافة ، وجرد المحاكم من السلطة المخولة لها ، كما جرد رئيس الحكومة الارترية من سلطاته ، وأصدر أوامره بقمع المظاهرات والانتفاضات التى يقوم بها الارتريون بكل عنف وقسوة .

وأخيرا فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٩٦٢ أذاع راديو أديس أبابا أن أرتريا أصبحت الولاية الرابعة عشرة من الإمبرطورية الأثيوبية وكانت

هـذه بداية الكفاح المسلح الارترى والتى استمرت حتى اليوم لاستعادة حقوقه والحصول على استقلاله(١٤).

الجاهد الشهيد حامد إدريس عواتى وبداية الثورة :

تؤكد وثائق الارترية أن البداية كانت فى الفاتح من سبتمبر ١٩٦١ حينما انطلق المقاتلون الأوائل فى ذلك اليوم بقيادة الشهيد إدريس عواتى ومعهم بندقية واحدة إنجليزية الصنع من مخلفات الحرب العالميـــة وتسعة بنادق إيطالية وهى غير آلية ويعود صنعها إلى مستهل هذا القرن ولا تتوفر لها الذخائر بالإضافة إلى بندقية تركية تعبأ بطلقة واحدة بهذه الأسلحة العتيقة بدأ المجاهـدون الارتريون ثورتهم على جيش الاحتلال الأثيوبى قوامـه خمسون ألف جندى مسلح بأحدث الأسلحة الأمريكية تعززه القاعـدة الأمريكية فى أسمرا بكل أساليب التخطيط الحديثة لمقـــاومة حرب العصابات(١٥).

وقد مر مناضلو جبهة التحرير الارترية بمرحلة غاية فى القسوة والخطورة فقد واجهتهم قوات أكثر منهم عددا وأحسن عدة فى الوقت الذى كانت تنقصهم فيه الذخيرة والسلاح الجيد وكانوا يكتفون بالمناورة ثم الانسحاب ثم انتهت هذه المرحلة الحرجة بفشل السلطات الاستعمارية الأثيوبية أن تنال من الثوار وازداد التصاق الشعب الارترى بثورته واستطاع المناضلون أن يحصلوا على كمية لا بأس بها من الأسلحة الخفيفة وأصبحوا يخوضون القتال على نطاق أوسع قليلا ضد القوات الاستعمارية(١٦).

مرحلة جديدة من مراحل الثورة :

بعد سبعة أشهر من بداية الثورة ، بدأت مرحلة جديدة وأصبح زمام المبادرة فى يد الثورة لأول مرة بعد أن ازداد عددهم وحصلوا على كميات من

من السلاح . فأخذوا يشنون الهجمات على مراكز الجيش والبوليس الأثيوبي خارج المدن ، وقام فدائيون جبهة التحرير الارترية بعمليات رائعة فى داخل المدن . ولعل حادث أغردات الشهير هو أهمها . فقد قامت السلطات الأثيوبية بتدبير اجتماع كبير فى مدينة أغردات حشدت فيه عدداً من عملائها وحضر هذا الاجتماع نيابة عن الإمبراطور الجنرال أبى ، ومعظم الوزراء والموالين لأثيوبيا . وفجأة قام أحد الأرتريين بالقاء قنبلتين انفجرت إحداهما ونتج عن ذلك قتل وجرح عدد من الحاضرين وكان من بين المصابين ممثل الإمبراطور وقتل أحد الوزراء .

وفى أسمرا استطاع الفدائيون أن يتسللوا إلى مطار أسمرا الحربى على الرغم من الحراسة المشددة وأن ينسفوا طائرتين حربيتين كانتا تربضان هناك كما أصابوا طائرتين أخريتين بعطب كبير .

ثم هاجموا قصر ممثل الإمبراطور بالقنابل وقامت مجموعة قليلة من الثوار بإلحاق الهزيمة بقوات أثيوبية تفوقهم عددا وعدة(١٧) .

بوليس مصوع يعلن الثورة :

وفى مصوع قام المناضلون بأعمال فدائية رائعة حيث استولوا على مخزن للأسلحة وقام مجموعة من رجال البوليس بثورة أعلنوا خلالها انضمامهم إلى إخوانهم فى جبهة التحرير الارترية .

وفى سبتمبر ١٩٦٣ قام الثوار الأرتريون بعملية جريئة إذ دخلوا مدينة هيكوته متنكرين فى زى ريفى واستقلوا سيارة ركاب إلى مركز الجيش وفاجأوا الحراس فى منتصف الليل فقتلوا الثلاثة منهم واستسلم الباقون وجردوهم من أسلحتهم وهى ٥١ قطعة من البنادق والرشاشات .

وهكذا مضت الثورة الأرترية تحتل المواقع الهامة وتكبد القوات الأثيوبية الخسائر الفادحة ولم يستطع ١٣٠ ألف جندى أثيوبى رابطون فى

بعض المدن الارترية من اجتياح الريف الارترى على الرغم من استعمالهم الغازات السامة وقنابل النابالم المحرقة مما جعل السكرتير العام للأمم المتحدة يعبر عن قلقه للمندوب الأثيوبى حول هذا الموضوع بعد أن تأكد له بشاعة ما تقوم به القوات الأثيوبية من خلال تقارير المنظمات الإنسانية الدولية العاملة فى ارتريا .

ويمكن القول بأن جبهة التحرير الارترية قامت فى الفترة من ١٩٦١ — ١٩٦٥ بتعبئة الارتريين فى الخارج وجمع التبرعات لشراء الأسلحة مع حملة إعلامية تركزت فى الدول الصديقة وقد استجابت بعض الدول الإسلامية العربية مثل السعودية ومصر والعراق .

ثم كانت الفترة الثانية من ١٩٦٥ - ١٩٦٩ وقد اجتازت الثورة الارترية مرحلة التعبئة العضوية إلى مرحلة الثورة المسلحة الشاملة وهى المرحلة التى شهدت انتقال الثورة من حرب العصابات إلى الكفاح الجماهيرى المسلح مع تعبئة كافة العناصر وضم جميع الطوائف مسلمة ومسيحية ومحاولة استخدام تقسيم الولايات إلى مناطق عسكرية ذات قيادات وأنشطة مستقلة وتقسم هذه الفترة أيضا بتأكيد الثورة الارترية لوجودها على الساحة الدولية بالاتصال بدول الكتلة الشرقية ودول العالم الثالث(١٨) .

ومن الجدير بالذكر أن الثورة الارترية دخلت فى عام ١٩٦٥ مرحلة جديدة إذ رأى المسئولون فيها توزيع القوات المقاتلة إلى أربع ثم خمس قيادات عسكرية منفصلة ، وكانوا يهدفون من ذلك نشر الثورة فى جميع أرجاء إرتريا ولكن هذا التفكك أدى إلى تقوقع وجمود فى العمل الثورى لأكثر من ثلاثة أعوام ثم بدأت بعد ذلك محاولات جادة لتحقيق وحدة الجيش تمهيداً لتحقيق الوحدة الوطنية الشاملة(١٩) .

وفى بداية السبعينات وأواسطها بلغت الثورة فى إرتريا من القوة والمنعة ما مكنها من تحقيق انتصارات عسكرية رائعة ضد الجيش الاثيوبى مما أدى

إلى سيطرة الثورة العملية على الأغلبيـة العظمى من مساحة إرتريا وحصار الثوار المشدد حول المدينة الرئيسية خاصة العاصمة « أسمرا » وميناى عصب ومصوع وقطع الطرق الرئيسية التى تربط تلك المدن بالعاصمة إديس بابا ، وتحول الجيش الاثيوبى إلى مراكز ومعسكرات متفرقة ومحاصرة لا تصلها الإمدادات إلا بالطائرات من الجو الأمر الذى وضع النظام العسكرى الذى جاء بعد الإطاحة بالإمبراطور فى أسوأ مأزق تعرض له منذ جاء إلى الحـكم واعداً بتحطيم « المخربين من دعاة الانفصال فى إرتريا »(٢٠) .

انتصارات باهرة للثورة الأرترية ولـكن !! . .

دخلت الثورة فى إرتريا منعطفا جديدا بعد أن تعدت مرحلة القلق فى ظل اشتباكات متباعدة - إلى مرحلة هجوم واسع شنته جبهات التحرير الثلاث (جبهة تحرير إرتريا والجبهة الشعبية والقوات الشعبية على المدن الرئيسية بعد أن أحكمت قبضتها على الريف والمدن الصغرى وأصبح الجيش الأثيوبى فى جزر محاصرة ومنعزلة لا رابط بينها برياً وبحرياً وخلال سبعة عشر عاما من عمر الثورة الإرترية لم يكن حلم الاستقلال قريب المنال بمثل ما كان فى نهاية عام ١٩٧٧ وبداية عام ١٩٧٨ .

لـكن الهجوم الإثيوبى المضاد والذى ركزت فيـه أثيوبيا كل قواتها العسكرية بعد أن هدأت الأمور على الجبهة الصومالية ، بدد هذا الحلم مؤقتاً وأضاع تضحيات كبيرة بذلها الشعب الإرترى على مدى سبعة عشر عاما تماما مثلما بدده وأضاعه تمزق حركة الثورة الإرترية إلى ثلاث جبهات متنافرة كل الوقت لا تتقارب إلا فى أحيان نادرة (٢١) .

ومن ناحية أخرى فقد ساندت كوبا والاتحاد السوفيتى النظام العسكرى الاثيوبى وقدمت له المساعدات الضخمة التى كفلت له التفوق ضـد الثورة الإرترية إبان على ١٩٧٨ .

وفى غياب التنسيق العسكرى بين جبهة تحرير إرتريا ٢٠ ألف مقاتل ـ التى كانت تحتل معظم مناطق الحدود بالإضافة إلى سهول الداخل وبين الجبهة الشعبية ١٠ آلاف مقاتل التى كانت تسيطر على المناطق الوسطى والشرقية نجح الهجوم الأثيوبى الذى انتظم على ثلاثة محاور قتال رئيسية تمزق إرتريا ليحتل المدن الكبرى أولا ثم يعود فينتشر على شكل المروحة مستخدما قوة نيران هائلة .

وتضع أثيوبيا خططها العسكرية التى بدأت باستعادة المدن من الثوار كخطوة أولى ثم تطورت عملياتها كخطوة ثانية فى شكل حملات عسكرية لمطاردة قوات الثورة فى الريف والجبال تدريجيا وإعادة فتح الطرق ، والخطوة الثالثة فى القيام ببعض الإصلاحات الإقتصادية المظهرية والعمل على تصفية الثورة الأرترية فى أسرع وقت ممكن أما الدبلوماسية الأثيوبية فقد ركزت جهودها على حجب الدعم السياسى عن القضية الأرترية مدعية أن أى دعم يقدم لأرتريا إنما هو تدخل فى شئون أثيوبيا الداخلية (٢٢) .

ولكن ماذا بعد ؟

على الرغم من هذه التحولات التى رافقت التفوق العسكرى الأثيوبى فقد اعتبرها الأرتريون انحسارا وبدأوا يعيدون حساباتهم للمستقبل ووضعوا خطاً استراتيجيا يتضمن ثلاثة عناصر أساسية هى :

(أ) التمسك بطرح الحل السلمى بشرط أن يكفل للأرتريين حقهم المشروع فى تقرير المصير واستعادة حقوقهم المغتصبة .

(ب) ضرورة العمل على تحقيق الوحدة الوطنية بين الثوار الأرتريين لا سيما وأن الواقع السياسى والعسكرى الجديد يعتبر عاملا مساعدا وضاغطا لتحقق هذه الوحدة فى مواجهة الخطر الدائم .

وفيما يتعلق بتحقق الوحدة الوطنية عقد مندبو فصائل الثورة الأرترية سلسلة من الاجتماعات بتونس فى الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ مارس ١٩٨١ تدارسوا خلالها كل المسائل المتعلقة بقضية الوحدة وقد تم الاتفاق على أن هدف النضال هو تحقق الاستقلال الوطنى ووحدة التراب الأرترى وإنه لتحقيق هذا الهدف أجمع المجتمعون على ضرورة إزالة جميع الخلافات وتوجية كل الطاقات والجهود لتحقيق الاستقلال .

ومن هنا يجب العمل على :

(ا) وقف الاقتتال بين فصائل الثورة بجميع أشكاله وتوجيه كافة الإمكانات لمحاربة العدو المشترك وإعطاء حرية التحرك لكافة التنظيمات داخل الساحة وإيقاف أسلوب الاحتكام إلى السلاح لحل الخلافات القائمة .

(ب) وقف الحملات الإعلامية المعادية بين فصائل الثورة وأبناء الشعب الأرترى .

(ج) توجيه كافة الجهود ولا سيما الإعلامية من أجل تهيئة الأجواء لمرحلة الوحدة المقبلة .

(د) تشكيل لجنة مشتركة تمثل جميع فصائل الثورة الأرترية تتابع الجهود خلال هذه المرحلة الانتقالية .

وقد اتخذت خطوات عملية جادة لتحقيق الوحدة ساهمت فيها بعض الدول العربية مثل المملكة العربية السعودية والكويت والصومال حتى كانت اتفاقية جدة الموقعة فى يناير ١٩٨٣ .

وأخيرا نرى أن هذه القضية ان تحل على يد دولة شرقية أو غربية ولكنها يمكن حسمها على يد أبنائها بوحدتهم وعودتهم لدينهم .

حيث أنه من المؤكد أن الإســلام بما ينطوى عليه من قوة روحية إيمانية وتجربة تاريخية مأمونة ولكونه الذين يتمسكون به درعا واقيا من نائبات الأيام وبما أن إرتريا بلد غالبية سكانه من المسلمين فإن القضية شأنها شأن كثير من القضايا الإسلامية لن تحل إلا برؤية إسلامية وعودة صادقة إلى الإسلام وما يحتاجه الأرتريون بالإضافة إلى ذلك مزيد من الدعم العربى والإسلامى .

أسانيد المقال

١ - فتحى غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص ٣١٥-٣١٦ .

٢ - إرتريا ضحية قرار الأمم المتحدة ، نداء الشعب الارترى إلى الدورة السادسة والعشرين للأمم المتحدة ، ص ٩ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٩ .

٤ - وثائق الأمم المتحدة حول إرتريا ، أصدرته جبهة التحرير باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية .

٥ - وثائق الخارجية الإيطالية حول إحتلال إرتريا ، جزءان ، جـ١ ، ص ١٨ - ١٩ .

٦ - د/ السعيد رزق حجاج : إرتريا قضية شعب ومصير أمة ، مجلة الثورة الارترية العدد ١ السنة ٩ يناير ١٩٨٤ ، ص ٣٤ .

٧ - د/ السيد رجب حراز : الأصول التاريخية للمشكلة الارترية ، ١٩٧٧ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

٨ - ندوة القضية الارترية وتطوراتها ، التى عقدت بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة تحت إشراف قسم التاريخ ١٩٨٤ .

٩ - د/ السعيد حجاج : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

١٠ - د/ السيد رجب حراز : الأمم المتحدة وقضية إرتريا ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٤ ، ص ٤٧ .

١١ - إرتريا بركان القرن الإفريقى ، جبهة التحرير الارترية ، ص ٥٥ .

١٢ - المرجع السابق ، ص ٥٦ .

١٣ - حامد صالح تركى : إرتريا والتحديات المصيرية ط ١٩٧٩ ، ص ٢٤٢ .

١٤ ـ نداء الشعب الارترى إلى الدورة السادسة والعشرين .. ، سابق ، ص ٥٨ .
١٥ ـ مجلة الثورة ، يوليو ١٩٨٣ ، ص ٤٧ .
١٦ ـ كفاح إرتريا ، مجموعة وثائق صادرة عن جبهة التحرير الارترية (بدون تاريخ) ص ١٥ ـ ١٦ .
١٧ ـ المرجع السابق ، ص ٢٣ .
١٨ ـ د/ جلال يحي ، د/ محمد نصر مهنا ، مشكلات الأقليات فى الوطن العربى ، دار المعارف ١٩٨٠ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .
١٩ ـ المرجع السابق ، ص ١٦٩ .
٢٠ ـ د/ السعيد رزق حجاج ، سابق ص ٣٩ .
٢١ ـ صلاح حافظ (الصحف) صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقى ، عالم المعرفة ١٩٨٢ ، ص ١٧٣ .
٢٢ ـ د/ السعيد رزق ، الاستعمار الأوربى فى أفريقيا وآسيا ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٨٥ .

رواق الأتراك بالجامع الأزهر بالقاهرة

وعلاقة المماليك الجراكسة بالعثمانيين

صفحة مشرقة فى تاريخ مصر

إعـــداد

د/ مجاهد توفيق الجندى

أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة

بكلية اللغة العربية بالقاهرة

تمهيد :

خدم الجامع الأزهر بالقاهرة العالم الإسلامى فى شتى أنحاء الكرة الأرضية ، حيث قدم لطلابه وشيوخه كل عون وكل مساعدة فى كل ناحية من النواحى ، فالشيخ والطالب لا يتحمل كل منهما ماليا أو فلسا واحدا مقابل طلبه للعلم بالجامع الأزهر ، فيحصل كل منهما على جراية يومية وجامكية (مرتب) ومخصصات شهرية وكسوتين أحدهما شتاء والأخرى صيفا .. بالإضافة إلى الشوربة باللحم فى الغذاء والشوربة بالعدس فى الصباح وغير ذلك من الحلوى والهدايا .

أول من أنشأ المدن الجامعية فى العالم :

أنشىء الجامع الأزهر سنة (٣٥٩/٣٦١ هـ) حيث أفتتح للصلاة على المذهب الشيعى فى عهد المعز لدين الله الفاطمى وبدأت به بعض الحلقات العلمية البسيطة فى فقه الشيعة ..

وفى عهد « العزيز بالله » بن المعز لدين الله الفاطمى ، بدأ الأزهر يأخذ صفته الجامعية فتحول من جامع إلى جامعة على يد الوزير النشيط يعقوب بن كلس الذى شاور الخليفة العزيز بالله فى تكوين « أول هيئة رسمية بالأزهر » فاختار لذلك خمسة وثلاثين أو سبعة وثلاثين فقيها كون بهم أول حلقة علمية

رسمية بالجامع الأزهر وسجلهم في سجلاته وأجرى عليهم الجرايات والأرزاق وبنى لهم بيتا بجوار الجامع الأزهر ، يعتبر هو الأساس للإسكان والإعاشة الكاملة « وأول مدينة جامعية في العالم » .

وهذا البيت أو المنزل هو النواة الأولى للأروقة التي بنيت حوله في أزمنة لاحقة ، ومنها رواق الأتراك(١) .

ورواق الأتراك بمصر هو أحد ثلاثة أروقة كبار بالأزهر هي : رواق الأتراك، ورواق المغاربة ورواق الشوام ، وكان لها دور بارز في تاريخ الجامع الأزهر ، وساهمت مساهمة مشكورة في خدمة الدين الإسلامي وعلومه وثقافته وحضارته .

ومما لا جدال فيه أن « الأتراك » خدموا الإسلام خدمات جليلة لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر، ويكفيهم فخراً أنهم منعوا ريح الغرب الملوث أن يتسرب من العالم الإسلامي طيلة حكمهم له ، ومن كان في ريب من ذلك فعليه بقراءة تاريخهم وحضارتهم وآثارهم بموضوعية المتجرد النزيه ، وذلك من خلال « مكتبة رواق الأتراك بالأزهر » المملوءة بالمخطوطات والكتب النادرة ، وغير ذلك مما هو موجود في مكتبات تركيا ، وبشرط إلا يرجع

---

(١) ويقال له أيضاً في بعض المراجع « رواق الأورام » والرواق في العرف اللغوي: المكان الذي يروق لك الجلوس فيه ، ويقال له أيضا الإيوان « وهو الذي يعرف في عصرنا الحاضر باسم « قاعة المحاضرات »

وكان يقيم بهذا الرواق كل طالب من أصل تركي أو يكون أحد رعايا الدولة العثمانية وقد وقف الأتراك على بني جلدتهم « الأوقاف الكثيرة التي تجعلهم يعيشون بالقاهرة في بحبوحة من العيش ، فوقفوا الأطيان والعقارات والطواحين والقمح وغير ذلك من الكسوة والحلوى بالإضافة إلى الجراية اليومية ومصروف اليد كل شهر .

(راجع مذكرة بمتأخرات ريع وقف الأميرة نجوان هانم على طلاب رواق الأتراك بحجية وقفها أمام محكمة ثغر الإسكندرية في ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ١٩ من مارس ١٩٢٠ م) وثيقة تنشر لأول مرة ملحق رقم ١ بهذا البحث .

للكتاب الغربيين الذين يميل معظمهم إلى تجريح وتشويه الدولة العثمانية الحاجة فى نفس يعقوب(١) .

كيفية حصول الطالب على الجراية :

ولما كانت الأوقاف لا تكفى كل الطلاب الأتراك ، حيث حدد الواقف عددا معينا لا يتعداه ناظر الوقف ، ومن ثم فعلى الطلاب الخارجين عن السجلات ويسمون الفوات (الذين فاتهم الحصول على الجراية) أو المنتظرين أى الذين ينتظرونها .. وهؤلاء المنتظرون يجلسون خاصة حسب أقدمية كل منهم فإذا تخرج طالب أو أكثر ، أو سافر ولم يعد أو توفى إلى رحمه الله ، فإن ناظر الوقف يشطب اسمه من السجلات ، ويضع مكانه أول طالب فى سجل المنتظرين للجراية ، ثم الذى بعده والذى بعده وهلم جرا .

أما الجراية فينص عليها فى حجج الوقف بأن تكون « من الخبز القرصة الجيد العلامة .. لكل طالب ثلاثة أرغفة (غداء وعشاء وإفطارا) وزن القرصة الواحدة رطلا ، وللشيخ ضعف ما للطالب . ولا شك إن رواق الأتراك خدم طلابه فوفر لهم السكن والغذاء والكساء ، بالإضافة إلى أنهم يقيمون بجوار الحلقات العلمية فلا يبحثون عن مواصلات أو طعام أو غير ذلك .

مكتبة رواق الأتراك ومابها من تراث :

يوجد بمكتبة رواق الأتراك مجموعة هائلة من التراث الإسلامى تشمل العلوم الإسلامية (الشرعية) أو الدينية خاصة الفقه الحنفى كما تشمل للعلوم العربية المساعدة لها ، وكذلك العلوم العقلية والفلسفية وبعضها كتب وشرح باللغة التركية مما يدل على أن هذه اللغة كانت إحدى لغات الدراسة بالجامع الأزهر لمن أراد تعلمها ..

---

(١) راجع : د. عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٤ أجزاء طبع الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى .

مكتبة رواق الأتراك تضيع فانقذوها !!؟

هذا التراث العظيم الآن يتعرض للضياع والتلف، عوامل القضاء عليه متعددة منها المياه التي غرقت معظمه، ومنها القطط والفئران الأرضة وغيرها .. والحقيقة أن الأتراك المغاربة والشوام لم يسلموا مكتبتهم للشيخ محمد عبده وهو ينشىء المكتبة الأزهرية، فبقيت في مكانها قائمة للآن .. ولم تدخل سجلات أو فهرس مكتبة الأزهر، وفي هذا من الخطورة مافيه، لعدم إلقاء المسئولية على أحد بعينه لهذا ينبغي سرعة جرد هذه المكتبة وتسجيلها وفهرستها بفهارس جديدة(١).

واقترح تكوين لجنة عليا من تركيا وبعض رجال الأزهر المهتمين لتصنيفها وتبويبها وتصويرها وتجليدها وتحقيقها ولدينا بعض المخطوطات التالفة بكل الطرق السابقة وليس لدينا تعليق أكثر من هذا.

* * *

ورواق الأتراك يعطينا صورة كاملة عن العلاقات الثقافية بين مصر والدولة العثمانية في عصري المماليك. وهو الشق الأول في البحث.

والشق الثاني هو: العلاقات السياسية بين المماليك والجراكسة والعثمانيين.

هذا وبالله التوفيق ؟

---

(١) نشرت بحثا في مجلة منبر الإسلام سنة ١٩٨٣م في عددها التذكاري الشهير بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر تحت عنوان «أنقذوا مكتبة الأزهر ...»، وقد استجاب الله لندائي حيث أعيد فهرسة المكتبة بعد جردها من جديد لتنتقل إلى مبناها الجديد في حديقة الخالدين بالدراسة على طريق صلاح سالم ولحد صدور هذا العدد من الحولية هذه ونقل الكتب والمخطوطات يتم على قدم وساق إلى هذا المبنى الذي يتكون من ثلاثة عشر طابقا وسيفتتح هذا المبنى في احتفال مهيب يليق بمكتبة الأزهر وهي ثاني مكتبة في مصر (الباحث) وبها مخطوطات نادرة لا يوجد لها نظير في العالم يعرفها أهل البصر بالكتب والمخطوطات.

كيف ينتسب الطلاب إلى الرواق وكيف يعيشون بداخله(١) ؟؟

ألمحنا منذ قليل إلى أن الطالب الذي يريد الإقامة فى الرواق ، كان عليه أن يسجل اسمه أولا فى قائمة « المنتظرين » حتى يخلو مكان طالب قد أنهى دراسته بالأزهر مصريا أو مغتربا وقلنا أيضا أن العدالة لم تأخذ مجراها الطبيعى ، بل ضلت أحيانا ، فغرقت فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ظلمات . فلقد كان من له قريب أو نسيب كان يقدمه على غيره من أقرانه ولو كان أكثر تفوقا عليه « ولهذا كثرت الشكوى وقل الشكر من هذه الحالة المتردية » .

أما عن الحياة الداخلية بالرواق ، فكانت فى بدايتها صعبة حيث يعيش الطالب الغريب عن أهله مع مجموعة من الزملاء يعرفهم وشيئا فشيئا يأنس إليهم ، وعادة كان أهله يمدونه بالمال حتى يعيش فى بحبوحة من العيش إلى أن يتسلم الجراية وقل من يأتى من الطلاب بلا زاد وهم الفقراء جدا .

ولكى لا يحدث الشجار المؤدى إلى الشقاق والمخاصمة بين الطلاب ، وضع المسئولون بالأزهر عدة قواعد تشبه القانون الذى يجب أن يحترمه الصغير والكبير على حد سواء ، وعلى الطالب أن يراعى هذه الآداب العامة التى تتمثل فى :

١ - عدم الخروج عن دائرة الاستقامة .

٢ - على الطالب الجديد حين يفد من بلده أن يسلم إلى من يتعهده بالرعاية والعناية ، ويعطيه المعلومات اللازمة للمبتدىء ، ويوقفه على الإصلاحات والرسوم المتبعة والآداب اللازمة ، والكيفية الجارية فى التعليم والتعلم ،

---

(١) راجع ملحق رقم ٢ بأسماء بعض طلاب الرواق سنة ١٩٢٨ فى سجل الأروقة والجرايات ص ٥٢٨ .

ويرشده إلى المتون التى ينبغى أن يحفظها والكتب التى يقرأها وأمثالها ، ويعرفه عادات وتقاليد البلد التى يقطنها وإصطلاحاتها وآدابها .. الخ .

٣ ـ الاهتمام والإعتناء بتهذيب الأخلاق وتعلم الآداب .

٤ ـ كان على الطالب أن يتبع الإرشادات والتعاليم اللازمة ، والتى تسلك به مسالك التربية العالية وتوصله إلى غاية الكمال من أسهل الطرق وأقرب المناهج .

٥ ـ الاعتناء بتربية العقل الراجح الواسع الكبير وتنويره ، كالاعتناء بتربية ملكات الفنون وتحصيل مسائل العلوم .

٦ ـ تطبيق العلم على العمل وجعل التعاليم منطبقة على الأمور الحاضرة ، وعلى حاجيات الزمن ولوازمه .

٧ ـ حث الطلاب على الاستطلاع ومساعدتهم على الاختراع والتفتش ومعرفة نظامات الأشياء وحقائقها ، والإلماع إلى الأحكام والشرائع والديانات الموجودة فى العالم ، ومعرفة حقائقها ومقاصدها وحكمها . الخ .

٨ ـ الإعتناء بتصوير الكمال الذى ينبغى أن يصل إليه ، ويكون عليه الطلاب والعلماء ، وبيان من هو العالم وما هى وظيفته .. الخ .

٩ ـ تعويد الطلاب على النظام وتعيين أوقات للعمل ، وأخرى للأكل وأخرى للنزهة ، وتمرينهم على النظافة والاستحمام صيفا وشتاء ، وإعطائهم الأصول والقوانين الصحية .. الخ .

١٠ ـ العمل على محو سلطان العادة من قلوب الطلاب ، وتعويدهم مبدأ (لا تقدس العادة ولا تثق بفكرك) .

١١ ـ تربية الملكات الروحانية الدينية ، وتنمية الشوق إلى العالم الأعلى فى نفوسهم .

١٢ ـ تعهد الطلاب فى غير أوقات الدرس إما من أساتذتهم أو نقبائهم .

١٣ - تعيين أوقات يخرجون فيها للرياضة مع أساتذتهم بنظام محكم، وتكون هذه الأوقات للتذاكر فى الأمور العامة والآداب ، والاستفادة من أحوال الناس على اختلاف مشاربهم .

١٤ - انتخاب وترشيح عدد من العلماء والطلاب لزيارة معاهد التعليم ويشاهدوا مابها من نظام وأحوال طلابها وأساتذتها ... إلخ(١) .

هذه هى الآداب التى يجب أن يسير عليها غالبا الطالب الذى ينتسب الرواق حين قدومه من بلدته(٢) .

ولم يترك الأمر على عواهنه بالنسبة لشيخ الرواق ، بل وضعت له عدة قواعد يجب أن يسير عليها ، وحتى لا يستبـــد برأيه ، مما يثير عليه ثائرة الطلاب ، وهذه بعضها :

١ - لا يملك شيخ الرواق إلا أن يصلح بين المجاورين بالمعروف والقدوة الحسنة إذا حدث شجار أو شقاق بينهم.

---

(١) محمد إبراهيم الأحمدى الظواهرى : العلم والعلمـاء ونظام التعليم فى الأزهر ص ١١٧ – ١٢١ طبعة أولى بالقاهرة .

(٢) يشبه هذا النظام الآن الدراسات الخاصة بالأزهر ، حيث يتجمع الطـلاب حسب مذهبهم الفقهى، ليتمهدهم أساتذة من مجمع البحوث الإسلامية بتعليم اللغة العربية والقرآن والتجويد والفقه حسب مـــذهبهم ، وغير ذلك من الآداب العامة والخلق الإسلامى ، وكانت تقوم هذه الدراسة بالعمارة رقم ٣٩ بالمدينة السكنية لطـلاب بالدراسة ، حيث تشمل الدراسة الطابقين الثانى والثالث ، ويشرف ، على هذه الدراسة جماعة تخصصوا فى اللغات الأجنبية من الموظفين بالمجمع تحت إشراف الأمين العـام ، ويتم هؤلاء الطلبة الجدد بمدينة نصر ، وقد نقلت هذه الدراسة حاليا بالمبنى الجديد لمجمع البحوث الإسلامية بمدينة نصر بالقاهرة حتى ينتهوا من الدراسات الخاصـة ويحولون إما إلى الـكليات بجامعة الأزهر أو المعاهد الدينية الأزهرية (الباحث) .

٢ ـ إذا لم يمتثل المجاورون لنصح هذا الشيخ فليصلح بينهم السادة العلماء بالأزهر .

٣ ـ ألا يضر أحدا من مجاوري الرواق بأية وسيلة من وسائل الاضرار ، وأن يقدم لهم الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٤ ـ ألا يطرد أحدا من مجاوريه إلا إذا استحق الطرد بعد التحقيق في ذلك ، وبعد أن ينذره أكثر من مرة .

٥ ـ ألا يوقف مرتب أحد من مجاوريه إلا بعد التحقيق واستحقاقه هذه العقوبة .

٦ ـ ألا يتخذ قرارا أو أمرا يخص مجاوري الرواق إلا بعد إطلاع أعيانهم عليه وإقرارهم ورضاهم به ، فإذا خالف ذلك واتخذ قراره منفردا مستبدا فهو مردود عليه .

٧ ـ إذا صدر ذنب موجب للعقوبة من أحد طلبة الرواق ، فلا توقع عليه إلا بمعرفة مجموعة من علماء الأزهر وأهل الرواق ، وحتى يكون ذلك أيضا رادعا لغيره ، بعد أن تثبت عليه هذه العقوبة ثبوتا شرعيا .

٨ ـ إذا خالف شيخ الرواق بندا من هذه البنود وغيرها تصبح مشيخته وولايته على أهل الرواق باطلة(١) .

أما عن إعاشتهم داخل الرواق فيحكمها عدة نظم منها :

١ ـ نظام التغذية :

يعيش الطالب في الرواق على جراية الخبز التي يتلقاها كمقرر يومي لا ينقطع من الأوقاف العامة ، بالإضافة إلى ما يحصل عليه من الأوقاف الخاصة برواقه الذي يقيم فيه .

---

(١) أوراق بدشت في رواق الأتراك عثر عليها الباحث سنة ١٩٧٩ م .

والتغذية فى الأزهر قديمة كقدمه ، فأول تغذية قامت فى الجامع الأزهر الأرزاق ، والجرايات التى رتبها الخليفة الفاطمى العزيز بالله فى سنة ٣٧٨هـ ـ ٩٨٧ م لفقهائه ومجاوريه(١)، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

وكانت التغذية بالأزهر تدعم بين الحين والحين بما كان يوقفه ذوى اليسار والغنى من السلاطين والأمراء والتجار والخيرون على أروقة الأزهر(٢) .

فمثلا فى سنة ٨٨١ هـ - ١٤٧٦ م رتب السلطان «قايتباى» لمجاورى الأزهر عموما من «الشون الأميرية» قمحا يصنع خبزا ، وقمحا يصنع منه شوربة قمح ولحما يضاف إلى هذه الشوربة ويطبخ معها . ويقدم كل هذا لمجاورى الجامع الأزهر كوجبات غذائية فى نهار كل يوم ، كما رتب لمجاورى هذا الجامع وجبات غذائية من طعام «العدس» تقدم لهم فى مساء كل يوم ، وخص شهر رمضان المعظم بتقديم وجبات إضافية من الحلوى لمجاورى هذا الجامع(٣) .

إلا أن الأساس فى التغذية هو «الرغيف» الذى عليه المعول فى الطعام ، وهو القاسم المشترك بين المجاورين جميعا ، حيث يحتل مرتبة أولى ويليه مرتبة فى نظام التغذية «الأدم» أو الإدام سواء أكان لحما أو عدسا أو شوربة أو غيرها ، أما الحلوى كغذاء فتقع فى الدرجة الثالثة .

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٤٩ ، ط النيل بمصر سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م .

(٢) الشيخ عبد الله بن مراد بن يوسف الرومى الأزهرى : الكنز المفيد الأنور فى ذكر نبذة يسيرة من فضائل الجامع الأزهر مخطوط مصور بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٠٩٠ ح عن مخطوطة عربية بإحدى مكتبات أوربا ، اللوحتان رقم ٨ ، ٩ ، الأزهر : تاريخه وتطوره، ص ١٧٤ ، ط وزارة الأوقاف .

(٣) الشيخ عبد الله بن مراد بن يوسف الرومى الأزهرى : الكنز المفيد الأنور فى ذكر نبذة يسيرة من الجامع الأزهر ، مخطوط مصور ، بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٠٩٠ عن مخطوطا عربية محفوظة بإحدى مكتبات أوربا ، اللوحتان رقم ٨ ، ٩ .
وانظر أيضا : سليمان رصد الحنفى الزياتى : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر د . ت ، دون مكان الطبع ص ٥٩ - ٦١ .

وكان مطبخ « الشوربة بالأزهر » يعد الوجبات المطهية الساخنة من لحم وشوربة وعدس وغير ذلك ، أما الخبز فقد كان يصرف دقيقه من مخازن الجامع الأزهر ، ويتولى الناظر أو المحتسب محاسبة الخباز أو المتعهد لعمل الخبز فى أفران خارجية تشبه أفران القطاع الخاص الآن ، كما يعاقب هذا المتعهد إذا أخل بشرط من شروط توريد الخبز كنقص الوزن أو الاستدارة الغير كاملة فى الرغيف أو يكون غير كامل النضج وغير ذلك .

ويوضع الخبز بعد نضجه « فى قفاف كبار » وتسمى كل قفة باسم الرواق أو الحارة حتى لا تختلط بغيرها من قفاف الأروقة أو الحارات الأخرى ، وكانت تسمى أحيانا بأسماء الممولين من الواقفين . وقد اعتمد توزيع الغذاء الجاف والمطبوخ على « نقباء الأروقة » الذين اضطلعوا بمهمة توزيعه بالعدل على المجاورين بالأزهر من علماء وطلاب ، وقد ظل هذا النظام سائدا فى الأزهر إلى أن استبدل الخبز بنقود(١) .

ورغم أن هذه الجراية تصرف لجميع المجاورين بالجامع الأزهر طلابا وشيوخا وهى حلال لهم فإن السلاطين والأمراء حين وقفوا على الأزهر هذه الأوقاف لم يدفعوها من بيت أبيهم أو أمهم فالأرض أرض الله والمال مال الله ، إلا أن طائفة من علماء الأزهر تورعت عن أخذ الجراية هذه ، حتى لا يصبحون وهم فى قبضة السلاطين أو الأمراء ومن يسيرون فى فتواهم وفق هواهم ، وكان على رأسهم الشيخ زكريا الأنصارى السنيكى الأزهرى الشافعى(٢) (ت سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م) فقد امتنع مبالغة فى الزهد والورع عن

(١) أوراق فى الدشت عثر عليها الباحث فى رواق المغاربة والأتراك ، وهى بخط اليد لكنها منفصلة بعضها عن بعض أضاعت الرطوبة والمياه تاريخها وأجزاء من وسطها وأطرافها ، وبعد مجهود ولأى استطعنا أن نستقرىء هذه الوثائق وبعضها مكتوب بالخط العربى الذى يصعب قراءته ، وقد حاول الباحث ترتيبها حسب سياق الكلام ، واستطاع بفضل الله ومساعدة الزملاء الاستفادة منها .

(٢) ينسب إلى سنيكة احدى قرى مركز أبو حماد محافظة الشرقية وتسمى =

أكل تغذية الأزهر ، وفضل عليها خبز خانقاه سعيد السعداء ، حيث كان لا يأكل منه فى الوجبة الواحدة ، أكثر من ثلث رغيف ، ويقول : « إنما أخص خبزها بالأكل لأن صاحبها كان من الملوك الصالحين عمر الخانقاه بإشارة من النبى صلى الله عليه وسلم فى رؤيا صادقة »(١) .

ولم نستطع أن نعثر فى المراجع المعاصرة على كميات اللحم والعدس والشوربة لكل مجاور، أما الخبز فلا يقل عن رغيف فى كل وجبة أى ثلاثة أرغفة فى اليوم الواحد ، بالإضافة إلى مايحصل عليه من الأوقاف الخاصة برواقه ، وقد منع الطلاب المجاورون بالأزهر من استلام جرايات أخرى من غير المرصودة لرواقهم ، ولم يمنع شيوخ الأروقة من ذلك حيث كان بعضهم يدرس بأكثر من رواق ومن ثم كان الواحد منهم يحصل على عشرات الأرغفة .

ولم يقتصر بعض المجاورين على التغذية التى كانوا يتلقونها من الجامع الأزهر ، بل بعضهم كان يفضل أكلات معينة - خاصة الوافدين - تطبخ فى بلادهم الذين أتوا منها ، ولذلك كانوا يشترون الخامات ، ويقومون بإعداد الواجبات داخل مطبخ الرواق الخاص بهم ، ثم يجلسون جماعات حيث يأكلون سويا(٢) ويستدل على ذلك أيضا من أوانى الطبخ الموجودة برواق المغاربة ، وبعضها أوانى خشبية كبيرة جدا ، يرجح أنها قديمة ، كان يطبخ فيها الطعام بكميات كبيرة تكفى تقريبا لعدد ستين طالبا من المجاورين ، ثم يوضع المطبوخ فى أوان مسطحة أكثر اتساعا حيث يعمل فيها الثريد من

= الآن « الحلمية » بها معهد أزهرى يحمل اسم الشيخ زكريا الأنصارى . راجع ما كتبناه عنه سنة ١٩٨٣م بمجلة منبر الإسلام تحت عنوان: من شيوخ الإسلام (الباحث).

(١) نجم الدين الغزى : الكواكب السائرة ، فى أعيان من بعد المائة العاشرة الغزى ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) لقاء مع المرحوم الشيخ صالح الجعفرى والشيخ عبد السلام الشبراوى ، حيث كان الأول يشغل - بدون أجر - وظيفة واعظ الأزهر ، ويشغل الثانى مسئول البحوث والأروقة بالأزهر لمدة ٣٥ سنة ، وهما من الأزهريين القدماء الذين عاصروا النظم القديمة بالأزهر (الباحث) .

الخبز الجاف ثم بالشوربة(١) .

٢ — نظام المذاكرة والمناظرة :

كان على الطالب المتقدم فى السن والمقيم بالرواق ، أن يساعد الطالب الصغير المبتدىء فيستذكر له الدروس حتى يوقفه على الطريق الصحيح للمذاكرة . وقد جرت العادة أن الصغير كان ينزل بالرواق على أحد أقاربه المقيمين فيه والذى يأخذ بيده ويرشده على الكتب السهلة ويتدرج معه فيها من الأسهل إلى الأعمق وهكذا . ثم يعرض بعد مدة يكون قد درس فيها بعض الكتب السهلة كمدخل إلى العلوم على بعض الشيوخ الذين يسمحون له بالانتقال إلى مرحلة أخرى حيث يدرس فيها الكتب الأوسع والأشمل والأعمق فى العلوم التى درسها .

وكانت مذاكرتهم على ضوء الشموع ، وهو من وسائل الإضاءة النظيفة ، حيث لا يحدث دخانا كثيفا ، يؤدى بالتالى إلى أن تسود المكان ، أما الطريقة الثانية للإضاءة فهى « زيت الزيتون » حيث يوضع فى مسارج ويعمل فتيلة تغمس فى هذا الزيت تعطينا ضوءا قويا ، لكنه أقل جودة من ضوء الشمع . ويرى بعض الباحثين أن رواق الأتراك وغيره من الأروقة كانت مخصصة لإقامة الطلاب بها ، وإعاشتهم فيها فقط ، إلا أنهم جانبوا الصواب ، فالواقع التاريخى يقرر أن الأروقة — كما كانت ميدانا للعبادة والتبتل آناء الليل وأطراف النهار — كانت ميدانا لمجالس العلم الكبيرة والمناظرات الحقيقية الجادة ، وقراءة القرآن فى جوقات أى جماعات وفرادى ، وكان صوتهم يرتفع بالدعاء للواقف فى نهاية القراءة ، ولهم دعاء ختم القرآن بعد الانتهاء من قراءة الربعة الشريفة(٢) ، وهى فى أحسن صورها تتكون

---

(١) عثر الباحث داخل رواق المغاربة — وكان يقيم به الشيخ صالح الجعفرى على على ثلاث « حلل » كبار من النحاس تشبه الأذان الكبير وكذلك عثر على إنائين من الخشب ، لم أر مثلهما قط ، أحدهما عميق والآخر مسطح ، ويرجح أنهما المستخدمان فى عمل الثريد (الباحث) .

(٢) عثر الباحث على نموذج لدعاء « ختم القرآن » برواق السادة الأتراك ،

من ثلاثين قارئا وعلى رأسهم شيخهم ، ويقوم كل قارىء بقراءة جزء من القرآن العظيم ، يساعدهم فى هذا شيخهم وحافظ نسخ أجزاء القرآن .

كما كان بالرواق مجموعة عظيمة من كتب العلم التى ألفها علماء الأزهر فى مختلف عصوره ، كما كان بالرواق أيضا مجموعة من « نساخ الكتب » ومعهم أدواتهم من أقلام ومداد ودوى وقراطيس لينسخوا مايقدرون على نسخة منها حتى تزود المكتبة بزاد لاينقطع من الكتب[1] .

وكان على الطالب الذى يريد استذكار دروسه بالرواق ، ألا يرفع صوته حتى لايزعج غيره من زملائه أو شيوخه ، وبعضهم نائم وبعضهم مريض ، فإذا أراد الطالب رفع صوته فى المذاكرة خرج من الرواق إلى صحن الأزهر فيذاكر منطلقا ، يرفع صوته كيفما شاء وحسبما يريد ، أو بأحد المساجد المجاورة للأزهر ، كجامع الفاكهانى أو الغورى أو المؤيد شيخ أو غيرها

وكان هناك نوعا من المذاكرة والمناظرة داخل الرواق يسمى (التعليم بالملازمة) حيث يلازم المجاور أستاذه مدة لا يفارقه إلا بعد أن ينام ، وبالطبع كان ذلك لمحبى الشيخ ومريديه من الطلاب ، حيث يتعلمون منه كل مايتعلق بالعبادات والعادات اليومية والأخلاق الرفيعة ، وما كان عليه السلف من فضل وعلم ، وهم يناقشون شيخهم فيما يصعب عليهم فهمه من العلوم وهو يجيب على أسئلتهم بكل الاخلاص مادامت أسئلتهم موضوعية هادفة مع كمال الأدب وحسن اللياقة واللباقة فى السؤال والاحترام الشديد للشيخ :

= مكتوب بالخط النسخ الممتاز ، وبمراجعته على بعض مصاحف القرن التاسع الهجرى الموجودة برواق الأتراك ، حيث يوجد فى نهاية أحداها مثل هذا الدعاء وبنفس الخط ، يرجح أنه من القرن التاسع الهجرى .

(١) راجع حجة علـى بن سليمان على الابشادى ، رقم ٢٧٨ دار الوثائق القومية .

أن المعلم والطبيب كلاهما ، لا ينصحان إذا هما لم يكرما .

أما الطلاب الكبار نوعا فكانوا يستعيرون ملازما من الكتب خارج الرواق يطلق عليها اسم « التغييرة »[1] فإذا انتهى منها ردها وأخذ غيرها .

وعند إنتهاء الطالب من استذكار دروسه يطفىء المصباح ، ويذهب إلى فراش نومه ، فيقرأ بعض الآيات القرآنية التى ببركتها يحفظه الله أثناء نومه ، فإذا أذن الفجر قام إلى الصلاة ، وكان لكل طالب سرير ينام عليه داخل الرواق ، أما الطلاب « المنتظرون » الغير قادرين على شراء أسرة لهم فكانوا ينامون على الحصير فإذا كان الجو صيفا وحارا فإنهم ينامون فى صحن الجامع .

طرق المذاكرة :

كانت طرق المذاكرة داخل الرواق هى فهم النصوص ثم حفظها كالماء الجارى ، وكانت هذه هى الطريقة الغالبة على طلاب الأروقة فى استذكار دروسهم ، حيث يكتبون النصوص من حديث وتفسير وفقه ونحو وبلاغة وغيرها على ألواح من الخشب والمداد ليسهل إزالة الكتابة ، ثم يكتب عليها مرة ثانية وثالثة وهلم جرا .

٣ — النظام الإدارى بالرواق :

كان لرواق الأتراك بالجامع الأزهر شيخ ينتخبه الطلاب والعلماء من ذوى الخبرة بشئون الإدارة ، بالإضافة إلى كونه أحد العلماء المتصفين بالعلم والزهد والورع والفضل والخبرة وشيخ الرواق مفوض من قبل المسئولين بالجامع الأزهر ، ومن الطلاب الذين هم تحت رئاسته لقضاء حاجات الرواق التى لها اتصال خارج الأزهر ، وغالبا ما يكون شيخ الرواق ناظرا على

---

(١) تاريخ التربية فى مصر ، ص ٢١١ .

أوقافه ، ولذلك كان عليه أن يقوم هو أو وكيله بجمع ريع الأوقاف المرصودة على الرواق ، وإذا تخلف بعض المؤجرين عن دفع إيجار ماتحت أيديهم لشيخ الرواق فعليه مقاضاتهم أمام الحاكم إذا اقتضت الضرورة ذلك وعليه كذلك أن يؤجر الأطيان أو العقارات لمدة سنة فقط (مسانهة) قابلة للتجديد ، ويكون التعاقد بأعلى الأسعار ، فإذا أخـــل الطرف الآخر (المستأجر) بشرط من الشروط كان على شيخ الرواق فسخ العقد. ومالى ذلك مما يتعلق بمصالح الطلاب اليومية .

وبالإضافة إلى ذلك كان على شيخ الرواق واجب علمى ، حيث يعقد حلقته العلمية الدراسية بالرواق ، وقد قلنا أن مشيخات الأروقة تعقد لأفضل القاطنين بها علما وزهدا وورعا ، ويكون ذلك بترشيح واختيار من معظم وأغلبية المجاورين فى كل رواق وبرضاهم ، لكنه فى حالات غير مضطردة كانت مشيخة بعض أروقة الأزهر تعقد بصورة استبدادية ، وتضطر الهيئة الحاكمة للتدخل لصالح من يرغب الطلاب فيه من العلماء ، كما كانت تحدث بعض صراعات على مشيخة بعض الأروقة تنتقل إلى ساحات القضاء[1] . بل وصل الأمر إلى اغتيال أحد مشايخ الأروقة[2] .

ومن ثم خشى العلماء على أنفسهم من الاغتيالات والمناوشات التى لا تنتهى ولا تهدأ إلا لتبدأ من جديد أعنف وأقوى ، فأحجموا عن ترشيح أنفسهم لتولى هذا المنصب القاتل ، وتركوا الأمر فوضى يسير حسبما قدر له .[3]

ولهذا اهتم المسئولون بالأزهر بهذه الظاهرة الخطيرة التى تهدد الدراسة

---

(١) د عبد الجواد صابر إسماعيل : مجتمع علماء الأزهر فى العصر العثمانى (رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٦٠١ وما بعدها .

(٢) اغتال بعض الطلبة المغاربة الشيخ صالح الغزالى شيخ رواقه طعنا بالسكين أثناء صلاة الجمعة بالجامع الأزهر (د سعاد ماهر : مساجد مصر ج ٢/ ٦١) .

(٣) راجع شكوى طلاب ... [illegible]

بالأزهر، فوضعوا عدة قواعد ونظم للحد من هذه الفوضى والعبث والتردى، فصدر مرسوم باعتماد اللائحة الداخلية للمعاهد الدينية(١).

(١) صدر هذا المرسوم في العدد الخامس والأربعين من «جريدة الوقائع المصرية» الصادر في ١٩ ذى الحجة ١٣٤٩ هـ / ٧ مايو ١٩٣١م، وتتكون اللائحة هذه من عدة مواد أهمها: مادة ٣٩: يكون لكل رواق من أروقة المصريين والغرباء بالجامع الأزهر شيخ إذا قضت المصلحة أو شروط الواقفين بذلك، وكذلك يكون الأمر بالنسبة لكل حارة، ويجوز ضم رواق إلى آخر. أو حارة إلى غيرها، إذا قضت المصلحة بذلك ولم يخالف شرط واقف.

مادة ٤٠: يكون تعيين مشايخ الأروقة والحارات من أهل الرواق أو الحارة، ويفضل منهم العلماء الموظفون فى الأزهر.

مادة ٤١: يعين شيخ الجامع الأزهر مشايخ الأروقة والحارات ويفصلهم من هذه الوظيفة، إذا خالفوا أوامره أو تعليماته، أو أصبحوا غير قادرين على أداء العمل المكلفين به، وله أن يعاقبهم بالإنذار أو قطع شيء من راتب الرواق إذا كان لمشيخة الرواق راتب.

مادة ٤٢: لا يجوز الجمع بين راتب وظيفة، وراتب مشيخة رواق أو حارة، كما لا يجوز فى المستقبل تقرير راتب لمشايخ الأروقة والحارات غير الموظفين إذا كان لهم من ريع الأوقاف مايتناسب والعمل الذى يقومون به.

مادة ٤٣: يعامل مشايخ الأروقة والحارات معاملة أمثالهم من المدرسين أو الطلبة فيما يتعلق بالأجازات، ويجوز إعطاء الغرباء إجازة عادية خارج القطر لمدة لا تتجاوز أربعة أشهر إذا وجد من يقوم مقامهم فى عملهم.

مادة ٤٤: لا يكون لشيخ الرواق أو الحارة وكيل إلا إذا كان بشرط الواقف، أو قضت المصلحة بذلك.

مادة ٤٥: إذا كان شيخ الرواق أو الحارة بصفته هذه ناظرا على وقف ما فعليه إدارة شئون هذا الوقف والمحافظة عليه، وعدم إجراء عمارة فيه إلا بعد استئذان شيخ الأزهر ويقدم إليه حساب كل عمارة عقب إنتهائها مؤيدا ذلك بالمستندات الكافية. وعليه أن يقدم فى أول كل سنة مالية حسابا عن جميع إيراد الوقف، ومصروفه فى السنة الماضية مصحوبا بالمستندات المؤيدة له.

ماذا عن موت عالم أو طالب تركى بمصر :

كان الطالب أو الشيخ إذا مات غسل وكفن ودفن فى مقابر المجاورين، وإن كانت له شهرة فى العلم كأن يكون أحد الشيوخ المرموقين بالجامع الأزهر، أو يكون شيخا لرواقه دفن فى مدافن خاصة .

وبعد أن تنتهى مراسم الدفن والعزاء ، تقوم لجنة من زملاء الفقيد على رأسهم نقيب الرواق بجرد مخلفاته من أدوات وكتب وغير ذلك ، والموجود بخزانته من نقود وملبوس وما إلى ذلك وتسلم اللجنة هذه المخلفات إلى شقيقه

= وعليه أن يودع كل مبلغ حصله فى خزانة الأزهر فى ظرف ثلاثة أيام من تاريخ تحصيله .

مادة ٤٦ : لا يلتحق طالب برواق إلا بعد قبوله فى قسم من أقسام التعليم .

ويبقى فى الرواق مادام منتسبا لقسمه ، ومنقطعا لطلب العلم .

مادة ٤٧ : يصدر شيخ الأزهر من التعليمات مايراه لازما لمصلحة العمل ، بما لا يخالف نصوص القانون أو هذه اللائحة .

مادة ٤٨ : على وزير الأوقاف تنفيذ هذا القرار ، يعمل به من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية فى ٩ ذى الحجة ١٣٤٩ هـ / ٢٧ من أبريل ١٩٣٠ م .

وبهذا عالجت هذه البنود والمواد تقريبا معظم الثغرات التى أدت إلى هذه المنازعات اللانهائية من استيلاء بعض مشايخ الأروقة على الأوقاف المرصدة على رواقهم بالإضافة إلى مجموعة وظائف أخرى، ضمت بعض الأروقة والحارات بعضها إلى بعض حتى يمكن التحكم فى الفوضى وكثرة الخلافات ، ولابد أن يكون شيخ الرواق من العلماء العاملين بالأزهر وليس من الكسالى الذين لا عمل لهم ، ومعاملة الشيوخ والطلاب بالنسبة للأجازة لا فضل لأحد ولا مفاضلة ، وعلى شيخ الرواق مباشرة ماتحت يده من وقف ولا يعمل شيئاً بالرواق إلا إذا استشار شيخ الجامع الأزهر حتى يمنع القيل والقال ، كما لا يجوز لطالب أن يجلس بالرواق دون أن يكون منتسبا لقسم من أقسام الأزهر العامة والخاصة ، وبهذا يمنع المحاسيب وذوى المعارف والأصدقاء من سكنهم بالرواق بدون وجه حق إذا خالف شيخ الرواق هذه التعليمات فصل من عمله ، وكانت البركة كل البركة فى هذه البنود .

إن كان موجودا، أو أحد ورثته أو أحد أقاربه فإن لم يوجد وارث شرعى ، ورثه زملاؤه حسب المنشور الذى وضعه السلطان برقوق بالجامع الأزهر ، والذى جعل المجاورين المقيمين الدارسين به أخوة يرث بعضهم بعضا إذا لم يوجد الوريث الشرعى وهو تقليد قديم سار الأزهر عليه منذ ذلك الوقت .

وبعد ذلك يشطب اسمه من دوائر وكشوف الرواق ، ويقوم الشيخ بتسكين فرد جديد من المنتظرين ، ويعطى جراية الفقيد ، وهكذا كلما مات شخص حل محله آخر من المنتظرين للجراية وهكذا .

سفر طلاب وشيوخ الرواق :

لم تنقطع الصلة بين طلاب الأروقة بالجامع الأزهر بالقاهرة وبين أهليهم وذويهم فى البلاد الإسلامية فكانوا يذهبون - أغلبهم - لزيارة أوطانهم ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ولعل فى سفرهم مغانم كثيرة منها الترفيه عن النفس ، وتجديد العهد ، وإزالة الكسل الذى ربما سببه طول المكث فى مكان واحد .

ونظرا لعدم وجود العدالة حين عودة المبعوث من سفره حيث يجد من حل محله فى الرواق واستلم الجراية لا يريد أن يتنازل عنها ، رغم سفره باستئذان الجهات المسئولة، كان بعض الطلاب يلجأون إلى التحايل على القانون والقواعد المتبعة ، فيسافر إلى بلدته خارج مصر ، وينزل هو مكان نفسه من يحل محله فى قراءة الربعة الشريفة بالرواق حسب ترتيب بعض الواقفين ، وغير ذلك مما يخفى شخصه تماما عن المسئولين .

العراك بين الطلاب :

كما أن الأشياء فيها الغث والسمين وفيها الجيد والردىء ، فكذلك الحيوان فالمفروض فى الإنسان الذى يتعلم العلم أن تتهذب به أخلاقه ويتغير به

سلوكه وأنماط حياته . فإذا كان كذابا فإن القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يمنعه من الكذب ، وكذلك إذا كان إنسانا غضوبا شرسا فى أخلاقه وغير ذلك . ولكن بعض المجاورين كان لهم طبع جاف وجمود ورتابة قاتلة ، لا تتفق مع ظروف الاقامة الجماعية ، وما تعودوه من المرح والهزر ، الذى يخفف عنهم آلام الغربة عن الأهل والوطن . ولهذا كان الآخرون من المرحين يتندرون بهم ويشاكسونهم ، حتى يضطرون إلى ترك هذا المكان . وهم معذورون فيما هم عليه من التعود « فمن شب على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء » مات عليه » .

وبالإضافة إلى ذلك كان بعض الطلاب شاذا فى خلقه ، صعبا فى طبعه ، شتوما غشوما ظلوما متعديا ، كل همه النقد الهدام ، يعلق على كل شيء حسن أو قبيح ، إذا رأى بعض الطلاب يجد فى درسه عمل على تعطيله وإهانته وإتهامه بالغباء ، ثم يلقى عليه أسئلة بقصد تعجيزه عن الإجابة عليها وغير ذلك .

وهذا من طبيعة الأشياء ، فإن العراك بين بعض الطلاب والبعض الآخر ظاهرة صحية . فالعراك والنزاع بين الخير والشر لا ينتهى أبدا مادامت الحياة ، فإذا انتهت الحياة انتهى كل شيء بما فيه الخير والشر .

ولم يكن من أسباب السفر ماذكرنا فقط ، بل كان السبب أحيانا الحج ، والمجاورة بمكة والمدينة ، ~~وكان بعض الطلاب والشيوخ ينتظرون بفارغ الصبر ، وصول ركب الحاج التركى لتكون سفرة جماعية مع الخير والبركة~~ وزيارة الأماكن المقدسة ، وكان بعضهم يحج كل سنة ، أو يعتمر لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء بعض دروس التفسير والحديث والفقه هناك .

كما كانت هناك الرحلة فى طلب العلم إلى كل البلاد الإسلامية شرقا وغربا .

فكلما سمعوا — أى طلاب العلم — أن عالما ظهر فى أى مكان ، وله منهج جديد فى التدريس هرعوا إليه يلتمسون منه العلم والحكمة .

ولما كانت هناك قيود على السفر تنظمه وتحدده حجج الوقف الشرعية على الرواق حتى لا تضيع الفائدة من التعليم ، فإن بعضها كان يشترط لحصول الطالب أو الشيخ على الجراية وما يترتب عليها من ميزات أخرى ، أن يكون الطالب متفرغا لطلب العلم الشريف بالجامع الأزهر ، ويسمح له فقط بالسفر لمدة الأجازة السنوية بالجامع الأزهر ، بشرط أن يقـــدم طلبا لشيخ الرواق يستأذنه فى مغادرة البلاد إلى وطنه[1] ، وأنه سوف يعود بعد ثلاثة أشهر من تاريخ سفره أو أربعة أشهر ، وفى هذه الحالة ينزل مكانه طالب آخر غيره من المنتظرين للجراية ، فإذا عاد إلى رواقه بعد إنتهاء أجازته ، قطعت جراية غيره ليحل هو محله ، على أن يقدم لشيخ الرواق طلبا بعودته من سفره ، ثم يعطيه شيخ الرواق شهادة بذلك .

أما إذا سافر بدون إذن من شيخ رواقه ، فإن جرايته تقطع مطلقا ، فإذا قدم عذرا وقبل عذره ، وضع أول شخص فى قائمة المنتظرين ، والحقيقة أن هذه القاعدة لم تطبق كما ينبغى أن يكون ، فكان بعض الطلاب يتأخرون عن أربعة أشهر فأكثر ، ويحضرون فلا تقطع جرايتهم ، وكان هذا مثار شكوى من الطلاب المنتظرين وكثر شغبهم ومشاجراتهم من جراء عدم التطبيق السليم على شرط الواقفين .

بل أن بعض الطلاب كان يشكو إلى المسئولين بالأزهر مر الشكوى ، مما جعلهم يحذرون مشايخ الحارات والأروقة من العواقب الوخيمة التى سوف تترتب على ترك الأمر على عواهنه ، ويأمرونهم بعمل جرد وتفتيش

(١) عبد الكريم سلمان : أعمال مجلس إدارة الأزهر الأعلى ص ١١٧ . د.ت

وحصر الطلاب بكل دقة ، ويعمل كشف بالمنتسبين والمنتظرين ومستحق الجراية من الطلاب ، وتقديم هذا الكشف إلى مشيخة الأزهر فى أقرب وقت ممكن.(١)

أما وكيل الرواق فهو الشخص الثانى بعد شيخه مباشرة ويكون من كبار علماء الرواق أيضا ويتصف بما يتصف به شيخ الرواق وينوب عنه عند غيابه أو سفره فيكون شيخا مؤقتا للرواق ، وله صلاحية الشيخ ويقوم بالأعمال والخدمات المخولة له ، وقراراته نافذة المفعول فى الحدود المرسومة والمتعارف عليها داخل الرواق .

نقيب الرواق : طالب من الطلاب الكبار بالرواق ممن أشرفوا على الانتهاء من دراساتهم وينتخبه أيضا أعيان الرواق من صفات ظهرت عليه وميزته عن غيره ، كأن يكون عالما شهما شجاعا ، لايهاب فى الحق أحـــدا إلا الله ، شعاره العدل الذى هو أساس الملك .

أما عمل النقيب فيتمثل ويتلخص فى رعاية شئون المجاورين من زملائه وشيوخه ، وتقرير حقوقهم داخـــل الرواق وخارجه ، والعناية بتوزيع حقوقهم وقسمتها عليهم بالسوية بينهم . وغير ذلك من الأعمال التى تناط بهم والتى تمثل فى مجموعها خدمات جوهرية للعلماء والمجاورين بأروقة الجامع الأزهر وحاراته .

هذه تقريبا الأنظمة التى تحكم سير العمل الداخلى بالرواق ، ورأينا أنها كانت تتذبذب أحيانا بين القوة والضعف إلى أن خلت الأروقة فى العصر الحديث من الحياة التى كانت تنبض بالحركة والنشاط ، وإلى أن توقفت غالبا ولم يعد فيها الآن إلا أناس قلائل : ثلاثة فى رواق الأتراك منذ ثلاثة سنوات، ويقيم به حاليا طلاب أفارقة بالدراسات الخاصة بالأزهر . إن مدينة ناصر للبحوث الإسلامية قد حلت محل الأروقة ، وقدمت خدمات طيبة للطلاب .

العلاقات بين المماليك الجراكسة والعثمانيين :

ينبغي أولا لوضوح المعالم وظهورها أن نمهد الأرض التي نقف عليها وعودتنا بالذاكرة إلى الخلف إلى ما قبل عصر السلطان « سليم » وقبل بدء الحديث عن فتحه للشام ثم مصر يتيح لنا فرصة التعرف على مسار الخط البياني في العلاقات بين المماليك الجراكسة والعثمانيين ، ونتلمس الأسباب التي أدت إلى هـــذا الصراع وما أعقبه من معارك كانت سبباً في انقضاض العثمانيين على المماليك والقضاء على دولتهم قضاء مبرما ، فإن العراك الذي حدث بين الغوري وسليم وبينه وبين طومانباي من جهة أخرى ، لم يكن وليد مدة حكمهم القصيرة بل كان لها أصول وجذور عميقة ترجع إلى سنين وسنين سبقت حكم هؤلاء .

كيف بدأت علاقات الدولتين :

بدأت العلاقات بين الدولتين العثمانية والمملوكية في أول عهدها طيبة للغاية ، ولم يحدث بينهما ما يؤدي إلى الصدام أو العداء ، فحدود الدولتين بعيدة كل البعد ، وليس هناك تضارب وتعارض في المصالح المشتركة بينهما ، مما كان له أكبر الأثر في عدم حدوث اشتباك .

وقد وجهت الدولة العثمانية كل جهـــودها لمحاربة المسيحيين المجاورين لحدودها خاصة البيزنطيين ، وكان هذا سببا لعلاقات حسنة مع الطرفين لعدم وجود أطماع لأي منهما في الأخرى[1] .

وهناك شيء هام زاد الروابط بينهما وهو « المغول » الخطر المشترك المتجه إلى الغرب ليدمر بلادهما .

وقد يخيل لبعض الباحثين أن استيلاء السلطان سليم العثماني على الشام

---

(١) د . أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشـام ومصر ، ومقدماته من واقـع المصادر المعاصرة ص ٤ ، ٥ .

ومصر كان ابن وقته ، وأن سببه مناصرة السلطان الغورى لشاه إيران ، ولكن الحقيقة توحى بأن مطامع الأتراك العثمانيين فى البلدان العربية تمتد إلى عصر السلطان العثمانى محمد الفاتح ، فبعد أن تم له النصر على البيزنطيين بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م تطلعت عينه - بعد أن وطد أركان ملكه ووضع القوانين لدولته - إلى البلاد العربية ليقوض أركان أعظم دولة فى ذلك العصر هى دولة المماليك المؤلفة من بلاد الشام ومصر (١) .

ونفصل العلاقات الودية الآن ثم نتبعها بالاشتباك بينهما وأسبابه :

(ا) علاقة السلطان برقوق بالعثمانيين :

كانت العلاقات ودية للغاية ، فقد أرسل السلطان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩٢ هـ - ١٣٦٩ - ١٣٩٠ م) سفراءه وقصاده إلى «برقوق» ليحذره من تيمورلنك ومن مغبة اتجاهه نحو الغرب وبسببه من القضاء على دولتيهما على السواء[٢] .

ولما هاجم السلطان الجديد «بايزيد الأول» (٧٩٢هـ - ٨٠٥ - ١٣٩٠ - ١٤٠٢ م) قيصرية «سنة ٧٩٣ - ١٣٩١ م وامسك بقائدها المملوكى ، سرعان ما أحس بجرم ماصنع بحرج موقفه ، فاعتذر لبرقوق - حيث الخطر المغولى يقترب من بلاده ولا نصير له إلا المماليك عما اقترفه فى حقه ، وأرسل له هدية قيمة مع قاصده ، مع طلبه لطبيب برقوق الماهر ليشرف على علاجه ، فلبى برقوق الطلب وأرسل طبيبه «شمس الدين بن صغير» يحمل معه بعض العقاقير والأدوية[٣] .

---

(١) محمد أحمد دهمان : العراك بين المماليك والأتراك : بحث فى كتاب والتاريخ والآثار ، الحلقة الدراسية الأولى ص ١٨٧ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب القاهرة.

(٢) الخطيب الجوهرى . نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٥، ١٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١٦ ، تاريخ م .

(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٠ ، راجع أيضا جـ١ من بدائع الزهور ص ٦٣٣ ط ألمانيا حيث وصل رسول بايزيد محملا بالهدايا .

وتأكيدا لروابط الصداقة بينهما ، تبادل السلطانان الرسائل فيما يعن لهما من أمور ، فقد بعث « برقوق » مع سفيره « سعد الله البريدى » رسالة إلى « بايزيد الصاعقة » قال له فيها : « أن المملكتين كروحين فى جسد وساعدين فى عضد » وشكا له « الجنويين » ومعاملتهم السيئة للتجار المسلمين ، وفى ٦ شوال ٧٩٣ هـ - ٦ سبتمبر ١٣٩١ م رد « بايزيد » عليه برسالة فحواها أنه أرسل رسوله وقاصده إلى أمير جنوة ومشركى كفة منبها لهم إلى عدم التعرض لأموال تجار المسلمين بسوء ، واطلاق سراح من سجن منهم وتسليمهم أموالهم كاملة ، كما طلب من برقوق الاستمرار فى المراسلة تأكيدا على أواصر الصداقة بينهما[1] .

ومما يدل على عظمة السلطنة المملوكية وسيادتها الاسلامية العليا فى المجال الدولى العالمى فى عهد « برقوق » أن السلطان العثمانى « بايزيد الأول » كان كثيرا مايؤكد صداقته واحترامه للقاهرة ، فأرسل فى سنة ٧٩٧ هـ - ١٣٩٤ م تحفا وهدايا إلى « المتوكل على الله » الخليفة العباسى - فى ذلك الوقت - ويطلب منه تقليدا وتشريفا باعتماده سلطانا ، فبعث المتوكل له بهذا التقليد[2] .

(ب) فى عهد الناصر فرج بن برقوق(٨٠١ - ٨١٥هـ - ١٣٩٨-١٤١٢م):

كشف العثمانيون عن وجوههم الحقيقى - فى عهد هذا السلطان - فى أطماعهم التى تدفعهم من آن لآخر على المناطق المشمولة بحماية المماليك الجراكسة ، وقد توجس المماليك خيفة من هذه الأطماع ، التى جعلت كلا الطرفين يتحرش بالآخر وبالطبع لم تستمر العلاقات بينهما على صفائها القديم .

فنى سنة ٨٠٢ هـ - ١٤٠٥ م حاصر « بايزيد » « وارندة » واستولى على

---

(١) د/ احمد فؤاد متولى ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٢) د/ محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ١ ، ص ٢٠٠ ، مايو ١٩٥١ م .

« ملطية »[1] وبعدها طلب إلى الناصر فرج التحالف معه ضد خطر المغول المتوغل على بلادهما ، لكن « فرج » رفض التحالف معه بعد مشاورة أمرائه وخاصته .

ولهذا السبب تمكن تيمور لنك من هزيمة كل منهما على حدة ، فقد هزم « بايزيد » وأسره في معركة « جوبوق أوز » بالقرب من أنقرة (٨٠٤ هـ - ١٤٠٢ م) ، كما أنزل بالمماليك هزيمة ساحقة بالقرب من دمشق سنة ١٤٠٠م، ولو تناسى هذين العاهلين خلافهما وأطماعهما لكان لهما شأن آخر[2] .

ولكن العلاقات عادت بين الدولتين إلى سيرتها الأولى من الصفاء والوئام بعد وفاة تيمور لنك سنة ١٤٠٥ م .

(جـ) في عهد المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥ - ٨٢٤هـ - ١٤١٢-١٤٢١م):

عندما تولى « المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي » السلطنة المملوكية ، لم يسارع السلطان العثماني الجديد « محمد الأول » (٨١٦ - ٨٢٤ هـ - ١٤١٣ - ١٤٢١ م) كسابق عهد سلفه بإرسال رسله للتهنئة ، وتقديم الهدايا ، لكنه في أواسط ذي الحجة ٨١٧ هـ - ١٤١٤ م ، أرسل مع قاصده « قوام الملك والدين » قاضي « اينه كول » من أعمال « بروصة » رسالة اعتذار إلى « المؤيد شيخ » بسبب النزاع الذي نشب بينه وبين أخوته للتنازع على العرش بعد موت أبيهم سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م ومساعدة « تكفور » لهم[3] . وتحريضه إياهم ضده ، ويطلب منه تجديد أواصر الصداقة مهنئا إياه باعتلائه عرش سلطنة المماليك . وكالعادة أرسل إليه محمد الأول هدية مع نفس القاصد

---

(١) عقد الجمان ، القسم الأول من الجزء ٢٥ ، ورقة ٧٨ (مخطوط ١٨٥٤ تاريخ بدار الكتب المصرية) .

(٢) د/ أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق ، ص ٩ .

(٣) كلمة تكفور يقصد بها حكام ولايات الروملي والأناضول عن الدولة البيزنطية قبل استيلاء العثمانيين عليها .

عبارة عن خمس « طقوزات »[1] من أقمشة متنوعة ، وثلاث طقوزات من أقمشة فرنجية متنوعة ، و « بوغجتين »[2] من الأقمشة العجمية[3] .

(د) فى عهد السلطان « برسباى » (٨٢٥-٨٤١هـ-١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) :

كانت العلاقة بين السلطان « برسباى» والعثمانيين فى البداية غاية فى الصفاء والمودة ، وذلك لأسباب منها : معاداة « شاه رخ » بن « تيمورلنك » لكل من « مراد الثانى » (٨٢٤ - ٨٥٥ هـ - ١٤٢١ - ١٤٥١ م) وأبوه محمد الأول من قبله ، والسلطان « برسباى » من ناحية أخرى ، مما جعل الاثنين يتقربان بعضهما إلى بعض متحالفين لمجابهة هذا الخطر .

ومن أجل هـــذا ، لم تنقطع السفارات بين الدولتين ، فعند اعتلاء « برسباى » عرش السلطنة المملوكية ، حضر إلى القاهرة ـ العاصمة المملوكية ـ رسل بنى عثمان سنة ١٠٢٣ م يحملون تهنئة السلطان العثمانى ، ومعهم الهدايا الفخمة ، وسر « برسباى » بقدومهم ، ورد عليها ـ حسب التقاليد المرعية والعرف المملوكى ـ بأحسن منها ، وبرغم عدم وصول هذه الهدايا إلى السلطان العثمانى لوقوعها فى يد القراصنة والمتجرمة من أهل « قبرص » فإن السلطان العثمانى يرسل صحبة قصاده مرة أخرى هدايا عظيمة من باب التهنئة على ما أحرزه المماليك من نصر تلو نصر فى حملة قبرص وذلك سنة ١٤٢٦ م .

وقد بقى هؤلاء السفراء بالقاهرة ليشهدوا الحملة المملوكية الثالثة المظفرة التى عادت من قبرص سنة ١٤٢٧ م مكللة بأسمى آيات النصر ، وفى حوزتهم

---

(١) كلمة طقوز تعنى فى اللغة التركية العدد ٩ تسعة ، كما تستعمل فى التركية فضلا عن العربية والأردية والفارسية أحيانا بمعنى « هـدية » .

(٢) كلمة تركية تعنى « الصرة » أو « الرزمة » وينطقها العامة من المصريين « بقجة » .

(٣) د/ أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

عدد من الأسرى القبارصة من بينهم ملكهم نفسه « جانوس الثاني لوزنيان »[1] .

وقد جيء بهذا الملك عاري الرأس مقيدا بالسلاسل ، وكانت حضرة السلطان بالقلعة مزدانة بأولئك القصاد العثمانيين وغيرهم من الرسل الذين صادف وجودهم بالقاهرة ، وبهذا شهد القريب والبعيد ماقدمه جند المماليك لخدمة الإسلام[2] .

وقد أرسل « برسباي » قاصده « تغري بردي »[3] إلى مراد الثاني ليتعرف على أحوال العثمانيين ومعاركهم مع المجر وغيرهم، وفي ١٠ ذي الحجة ١٤٢٨ م جاء إلى القاهرة « جمال الدين بن حسن » رسول السلطان العثماني يحمل كتابا إلى « برسباي » وأخباره بانتصار العثمانيين على المجر عند « نهر الطونة » والاستيلاء على قلعتين من قلاعهم[4] ، كما أرسل السلطان مراد الثاني - عقب انتصاره على المجر عند الطونة - بخمسين أسيرا مسيحيا وذلك سنة ٨٣٢ هـ - ١٤٢٩ م كرد فعل لما رآه قصاده قبل ذلك من شهر الأسرى القبارصة في القاهرة[5] .

---

(١) راجع قبل هذه الواقعة واقعة أخرى في النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ص ٢٧٠ ، ص ٢٩٠ - ٣٤٠ .

(٢) د . سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، د . محمد مصطفى زيادة ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ ، والغزوات : في نزهة النفوس ، الأولى ص ٧٧ ، والثانية ص ٧٧ - ٨٤ ، والثالثة ، ص ٨٤ - ٩٤ .

(٣) هو تغري بردي بن عبد الله البكلمشي الدوادار المعروف بالمؤذي سيف الدين أحمد ، في عهد برسباي ، تولى امرة الطبلخانات سنة ٨٣٤ هـ ، ثم جعله مقدم ألف بالديار المصرية سنة ٨٢٩ هـ ، توفي سنة ٨٤٦ هـ - ١٤٤٢ م ، ترجمته بالمنهل الصافي ، مخطوط برقم ١٢٠٩ تيمور - دار الكتب المصرية ٤٤٣/٢ .

(٤) د . أحمد فؤاد متولي : مرجع سابق ص ٧ .

(٥) د محمد مصطفى زيادة : مرجع سابق ، نفس الصفحة .

وبالطبع رد السلطان « برسباى » على هذه الرسالة معبرا عن فرحه الشديد بنصر الإسلام وجند المسلمين ، وقد ظلت العلاقات الطيبة ، فكلما تحقق لأحد الفريقين نصرا على عدوه سارع أحدهما بإيفاد قاصد من عنده إلى الطرف الآخر بالتهانى بفتح الاسلام المبين :

إلا أن العلاقات لم تدم على ماهى عليه ، ودوام الحال من المحال — كما يقولون — فقد حدث ما أحفظ العثمانيين على المماليك وأدى إلى الخشونة بينهما وبدأ نذير السوء والشؤم .

ففى سنة ٨٣٧ هـ - ١٤٣٣ م لجأ إلى القاهرة - فرارا من السلطان مراد الثانى - كل من الأمير « سليمان العثمانى» وشقيقته الأميرة « فاطمة» فاستقبلهما السلطان « برسباى » استقبالا يليق بهما وأحسن وفادتهما وأنزلهما القصور السلطانية . وعندما طلب « مراد الثانى » من برسباى ردهما إليه ، رفض الأخير طلبه ، فساءت العلاقات بين الطرفين ، وإمعانا فى العناد ضم «برسباى» « سليمان » إلى حاشية ابنه « يوسف » ، وضم « فاطمة شهزادة »[(١)] إلى حريم القصر ليتزوجها سنة ١٤٣٦م[(٢)] .

---

(١) زادة خوند شاه : ابنة الأمير أرض بك بن الأمير محمد كرشجى بن يلدرم بايزيد بن عثمان جق الرومية ثم القاهرية ، أخت سليمان والتى قدمت معه إلى القاهرة فأكرمها الأشرف برسباى وأنزلها بالدور السلطانية من القلعة مدة ، ثم حسن بعض الأروام للانتهاء الهرب بهما ، لكن السلطان أدرك هذه الخدعة بعد أن كادت تنجح فردوا إلى القاهرة من رشيد ، وقتل عدد من الأروام وقطع أيدى آخرين (راجع حادثة فرارهم من مصر والقبض عليهم وتوسيط من تسبب فى هذا الفرار فى نزهة النفوس ٣/٣٧٣) ولما مات سليمان سنة ٨٤١هـ - ١٤٣٧م تزوج «برسباى» هذه ، ثم تزوجها بعد موته الظاهر جقمق ، ثم طلقت منه بعد سنة ٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م ، ونزلت بيتها بالجودرية ، ثم تزوجها «برسباى البجاسى» . النجوم الزاهرة ١٦/١٧٨، الضوء اللامع ١٢/٣٧ ترجمة رقم ٢١٣ .

(٢) د. أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق ، ص ٢٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، الضوء اللامع ٣/٢٦١ - ٢٦٢ ترجمة رقم ٨٩٨ ، نزهة النفوس ٣/٣٧٣ .

(هـ) فى عهد جقمق[1] (٨٤٢ - ٨٥٧هـ - ١٤٣٨ - ١٤٥٣م) : تحسنت العلاقات غاية التحسن بين السلطان « جقمق » والسلطان « مراد الثانى » العثمانى ، وعلى جارى العادة كانت الرسائل بينهما لا تكاد تنقطع ، فعند اعتلاء السلطان «الظاهر أبى سعيد جقمق» فى ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ-١٤٣٨م أرسل إلى مراد الثانى مع سفيره « استدمر الخاصكى » رسالة مصحوبة بالهدايا فى ١٠ جمادى الأول من نفس السنة ، يخبره بوفاة « برسباى » الذى عهد لابنه « يوسف » بالسلطنة وسنه حينئذ ١٤ سنة ، وجعل جقمق وصيا عليه « قايما بأعباء أرد مملكته ومرشدا له فى أقواله وأفعاله إلى أن يأنس رشده » ثم حكى له عن تطور الأحداث بعد ذلك قائلا : «وفى غضون ذلك لاذ بالطفل المشار إليه زمرة من أحداث مماليك والده وأخذوا فى اضمار أمور يضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب ، منها السعى فى تفريق الكلمة المنتظمة ومنها ألقاء الفتن والخلف بين العساكر ، ومنها سلب خليقة الله الأمن على أنفسهم وذويهم ، ومنها استباحة ماحرمه الله عز وجل من أموال المسلمين ودمائهم وما وراء ذلك إلى أن كاد - والعياذ بالله تعالى - أن يقع الخلل فيما نحن قابضون عليه من زمام المملكة ، .. ثم اجتمع القضاة والمشايخ والخليفة العباسى بالقاهرة والخطباء والفضلاء ، وهم أهل الحل والعقد وبعض العساكر ، وعرضوا على جقمق الخلافة .. وقالوا : « القبول لازم بل واجب إلينا منهم ، وعند ذلك استخرنا الله تعالى ... وفرض مولانا أمير المؤمنين المشار إليه السلطنة إلينا »[2] .

بعد اعتلاء جقمق السلطنة المملوكية أرسل إلى نوابه على الحدود العثمانية ، أن يحسنوا العلاقات مع أحمد بك ابن السلطان والحاكم لولايات

---

(١) كلمة جقمق أو جقماق رجاقاق تعنى فى اللغة التركية « قداحة » .

(٢) د. سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ص ٣١٧ ، د. أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق ص ٢٦ .

« توقات وأماسيا وسيواس » ، ثم لبى الطلب القديم الذى طلبه مراد الثانى قبلا من برسباى ، وأوصاه فى نهاية رسالته أن يسهل رجوع التاجر المملوكى خواجه زين الدين بكسيباى » وما معه من المماليك الأجلاب إلى القاهرة(١) .

وقد رد مراد الثانى على رسالة جقمق بعبارات التبجيل والاحترام وجعله فى مقام والده ، وصحبها بعدة هدايا مع قاصده «ولد بك» سنة ٨٤٣هـ-١٤٣٩م مهنئا بالسلطنة ومبشرا بفتح قلعة «سمندرة» وانتصاره على اللاز وبنى الأصفر وتخريب « طمشوار وكوهين وبلغراد » ، ثم أكد على استمرار الصداقة وحسن الجوار(٢) .

وكان السلطان « جقمق » يحظى باحترام السلطان « محمد الثانى » بعد « مراد الثانى» فقد أرسل هدية إلى القاهرة سنة ١٤٤٥م . ولما تولى محمد الثانى (٨٠٥ - ٨٨٦هـ - ١٤٥١ - ١٤٨١م) عرش السلطنة العثمانية نهائيا بعد وفاة مراد الثانى ، سارع « جقمق » بارسال وفد خاص للتهنئة وفى حوزتهم الهدايا الراقية(٣) .

(و) فى عهد إينال العلائى (٨٦٥هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١م) خلف « جقمق » بعد وفاته « السلطان الأشرف سيف الدين إينال ، ولما كان السلطان العثمانى « محمد الثانى » مشغولا بفتح القسطنطينية تأخرت رسالته بتهنئة « إينال » لتوليه العرش المملوكى ، لكن لما افتتحت القسطنطينية

---

(١) نص هذه الرسالة فى الملحق رقم (٧) من كتاب د . أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق .

(٢) نص هذه الرسالة فى الملحق رقم (٨) من كتاب الدكتور أحمد فؤاد متولى ، مرجع سابق .

(٣) د. محمد مصطفى زيادة ، مرجع سابق ص ٢٠١ .

سنة ٨٥٧هـ-١٤٤٣م ، سارعت القاهرة بدق الطبول وإضاءة الشموع وتزيين الشوارع والأسواق ابتهاجا واحتفالا بهذا النصر العظيم[١] .

وجاءت رسالة السلطان العثمانى «محمد الفاتح» يحملها قاصده «جلال الدين يوسف القابونى» لتهنئة إينال باعتلائه العرش ، ويبشره بفتح عاصمة البيزنطيين ، وقد أرسل معية قاصده بعض الغلمان والأسرى وبعض الأقمشة وغيرها كهدية يبرهن بها على عظمة انتصاره على الكفار وفتحه لعاصمتهم(٢) ، وفى هذه الرسالة يبجل السلطان «إينال» ويصفه بأنه بمنزلة الأب ، مما يدل على مدى قوة العلاقة بينهما .

وقد ذهب إلى عاصمة العثمانيين «برسباى الأشرفى» حاملا رسالة السلطان المملوكى «إينال» ردا على رسالة ابن عثمان ، يهنئه بالفتح المبين «الذى ادخره الله لأيام سعده» . ويحمل معه بعض الهدايا تأكيدا لأسباب الوداد وتوثيقا لعرى الاتحاد ، كما كانت سنن الأقدمين من السلاطين(٣) .

بداية سوء العلاقات بين المماليك والأتراك العثمانيين :

(ز) عهد خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢هـ - ١٤٦١ - ١٤٦٨م) : بدأت أطماع العثمانيين فى الأناضول ، وتدخلهم فى شئون بعض الامارات المشمولة برعاية وحماية المماليك ، مثل أمارتى «قرامان وذو الغادر» ولهذا بدأ الصدام بين الدولتين فى شرق وجنوب الأناضول ، وكان ذلك منذ أن تولى السلطان

---

(١) د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ٣٣٦ .

(٢) راجع الرسالة فى الملحق رقم (١٢) من كتاب الفتح العثمانى للشام ومصر ، مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق ونص الرسالة فى الملحق رقم(١٣) من كتاب الفتح العثمانى للشام ومصر لمن أراد التوسع فى هذا الموضوع .

(خشقدم) حكم المماليك ، فساءت العـــلاقات بين الدولتين ، ولم يستطع (خشقدم) الرد على هذا التدخل السافر حيث وافته المنية[1] .

(ح) عهد قايتباى[2] د ٨٧٢ - (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) نظرا المنافسة بين العثمانيين والمماليك والتى اشتدت بتدخل كليهما فى الأمارات الكائنة على الحدود ، توترت العلاقات بين (قايتباى) و (محمد الثانى) العثمانى ، وأصبح الصدام وشيكا ، والموقف ينذر بالخطر ، وبدأ كل منهما يرسل الحملات انتقاما من الآخر برغم الاتصالات فى طلب الصلح[3] .

فى سنة ٨٧٠ هـ - ١٤٦٥ م اغتيل نائب (الأبلستين) (سيف الدين ملك أصلان) وهو فى صلاة الجمعة ، فأحضر سيفه إلى القاهرة ، وأخبر السلطان (خشقدم) بما حدث ، فعين بدلا منه نائبا عن الأبلستين وأعمالهما أخاه (شاه بداق) .

ولم يعجب هذا التعيين (الأمير سوار)[4] - وهو أخ ثان للمغدور - فأعلن الثورة على الدولة المملوكية ، واستعان بالسلطان محمد الفاتح ، متهما سلطان القاهرة باغتيال أخيه[5] .

وقد ساعد السلطان العثمانى الأمير (سوار) فى ثورته متطلعا إلى الاستيلاء على دولة المماليك منذ ذلك الوقت . وقد اهتم (قايتباى) بهذه الثورة ،

---

(١) د. سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٢) راجع ص ١٦٦-١٦٧ من كتاب : قايتباى المحمودى لعبد الرحمن عبد التواب .

(٣) راجع ترجمة جانبك حبيب سفير السلطان قايتباى إلى العثمانيين ، فى الضوء اللامع ٣/٥٩ .

(٤) راجع ترجمة شاه سوار بالضوء اللامع ج١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، رقم ١٠٤٦ .

(٥) محمد أحمد دهمان : العراك بين المماليك والأتراك ، بحث مستخرج من كتاب التاريخ والآثار – الحلقة الدراسية الأولى – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب – د . ت ص ١٨٧ .

وأرسل سنة ٨٧٢ هـ = ١٤٦٨ م ، حملتين عسكريتين إحداهما تلو الأخرى ، فهزمت الأولى هزيمة منكرة ، وأخفقت الثانية أيضا . وفى ٨٧٣هـ-١٤٦٩م أرسل حملة ثالثة فهزمت ، ولم تنجح ، والمطالع فى الضوء اللامع للسخاوى كثيرا مايرى فى تراجم المماليك أن فلانا قتل فى كائنة سوار وفلانا قطعت يده أو ساقه ، وفلانا قلعت عينه أو قتل ... إلخ(١) .

وقد استطاع الأمير (يشبك بن مهدى)(٢) القضاء على هذه الثورة نهائيا والقبض على (سوار) والإتيان به إلى القاهرة ليصلب على باب زويلة سنة ٨٧٦ هـ ، وذلك فى الحملة الرابعة ، بعد أن انهكت الحملات المتقدمة خزينة الدولة وأفقدتها عددا كبيرا من علماء رجالها ، وانحطت هيبتها أمام أعين الدول المجاورة ، وطمعت فى الاستيلاء على بعض حدودها ، وذلك بعد أن زودته الدولة المملوكية بجيش لجب ، وقدمت له كل ما تستطيع من قوة ورجال وعتاد وجهزته بعدد من المكاحل (المدافع) كما ساعدت كل البلاد الشامية بالأموال والجنود(٣) .

ولكن القضاء على (سوار) لم يطف لظى الثورة ، فإن السلطان محمد الفاتح حرض (على دولات) أخا شاه سوار على إشهار الثورة والعصيان على المماليك ، فعادت الدولة المملوكية تجهز الجيش تلو الجيش حتى قضى على هذه الثورة أيضا .

---

(١) راجع ترجمة رقم ١٠٣٦ فى الضوء اللامع ٢/١٠ .

(٢) للتوسع راجع : قايتبـاى المحمودى ، ص ١٣٩ - ١٥٦ ، الضـوء اللامع ٣ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) بعد القبض على سوار بنيت قبة تذكارية على سفح جبل « قاسيون » المطل على مدينة دمشق عرفت بقبة النصر على سوار ، بقى بعض أطلالها إلى سنة ١٩٤١ م فهدمتها جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية خشية اتخاذها نقطة بارزة وعلامة لضرب المواقع العسكرية .

وأخيراً أسفرت هذه الحملات عن بروز السلطان العثماني إلى الميدان متظاهراً بالعداء للدولة المملوكية ، وكانت بينهما معارك عديدة كان النصر في أكثرها حليف دولة مصر ، وأسر في إحدى هذه المعارك صهر السلطان محمد الفاتح (أحمـــد هرسك) سنة ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ في معركة قادها (أزبك اليوسفي)(١) .

وكانت العلاقات بين العثمانيين والمماليك تزداد سوءاً على سوء ، وبعد أن تولى بايزيد الثاني عرش العثمانيين (٨٨٦ - ٩١٨ هـ - ١٤٨١ - ١٥١٢ م) ومنازعة أخوه (جم) له على العرش ، ولم يستطع (جم) التغلب على أخيه فهرب إلى مصر طالبا معونة (قايتباى) الذي أمده بها ، مما جعل العثمانيين ينتقمون لأنفسهم من المماليك الذين آووا الأمير الهارب .

(ط) في عهد قنصوة الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ - ١٥٠١ - ١٥١٦ م) :

ظلت العلاقات بين الدولتين حسنة طالما لم يكن هناك تدخل من جانب أحدهما في شئون الامارات التى تقع بينهما ، والتى كان بعضها تحت حماية المماليك والبعض الآخر مشمولا بحماية العثمانيين .

وقد ظلت العلاقات حسنة بين (الغورى) و (بايزيد العثماني خاصة بعد أن وقع على صلح سنة ١٤٩١ م ، حتى نهاية حكم بايزيد الثاني المذكور ، فقد أرسل هذا الأخير رسالة مع قاصده (حيدر) رئيس السلاحين لتهنئة الغورى باعتلاء عرش السلطنة جريا على سابق عاداتهم وتتضمن الرسالةمدح الغورى مع حثه على عمل الخير وإقامة العدل . وقد رد الغورى على هذه الرسالةومعها التحف والهدايا وبين لبايزيد الثاني أن سلفه قايتباى انعوج عن سبيل مصادقتنا أما هو فقد أصلح ما أفسده قايتباى وأرجع العلاقات الطيبة بين الدولتين(٢) ، وقد أرسل بايزيد إلى الغورى يلتمس منه العفو عن (دولتباى)

(١) محمد أحمد دهمان ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، د. أحمد فؤاد متولى ، ص ٣٤ - ٤٠ .

(٢) نص هذه الرسالة بين ملاحق كتاب د. أحمد فؤاد متولى .

حاكم طرابلس لما بدا منه من أخطاء . وقد استجاب الغورى لطلبه ، مما دعا بايزيد إلى شكره فى رسالة أرسلها إليه فى ربيع الأول سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥م يمدحه فيها على ماقام به وكثر تبادل الرسائل بينهما مما يدل على حسن العلاقات(١) حتى إذا توفى بايزيد بكى عليه الغورى وأظهر الحزن والأسف وأمر بصلاة الغائب عليه بالجامع الأزهر والجامع الطولونى وجامع الحاكم وجامع السلطان بالشرابشيين ، وقد حزن عليه الناس لقمعه الفرنج لايفتأ من ذلك ليل نهار(٢) إلا أنه بعد موت بايزيد الثانى وتولى ابنه سليم العرش حدث بينه وبين الغورى توتر شديد فوعيد وتهديد ، واختلفت لهجة المراسلات بين الطرفين ثم حدث الصدام الذى قضى على دولة المماليك فى النهاية(٣) .

والله ولى التوفيق ؟

د . مجاهد توفيق الجندى

---

(١) راجع بدائع الزهور ٣/٢٠١ ، حيث وصلت عدة مراكب مشحونة بالأسلحة كان قد طلبها الغورى من العثمانيين فلم يقبلوا الثمن وأرسلت هدية .

(٢) بدائع الزهور ٤/٢٧٠ .

(٣) د. سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ٣٣٩-٣٤٢ .

ملحق رقم (١)

جاء بحجة وقف الأميرة نجوان هانم الصادرة أمام محكمة ثغر الاسكندرية في ربيع الأول ١٣٣٨ ﻫ الموافق ١١/٣/١٩٢٠ ما يأتي :

والنصف الباقي من الريع يقسم إلى ثلاثة أقسام ثلثه يصرف على طلبة العلم الشريف من الأتراك والجراكسة الموجودين برواق الأتراك بالأزهر المقيمين الفقراء والمشتغلين بطلب العلم بالأزهر ومن يكون مشتغلا منهم بطلب العلم بالأزهر وكان مقيما بأحد المساجد الموجودة بمصر أو بإحدى التكايا بها يستحق حسب ما يراه من يكون شيخا على رواق الأتراك من طلبة العلم والعلماء والفقراء منهم ومن يكون عالما منهم يستحق مثل طالبين تنشيطا لهم ، والثلث الثاني يصرف على من يكون من العلماء الفقراء المدرسين بالأزهر الذين لا تفي رواتبهم بما يكفيهم وعائلتهم فإن لم يوجد من العلماء الفقراء فلمن يكون من طلبة العلم بالأزهر الفقراء حسب ما يراه من يكون شيخا على الأزهر » .

وبتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٩٥٥ كتبنا بشأن إرسال استحقاق المشيخة في هذا الوقف عن سنتي ٥٣ و ١٩٥٤ .

وبتاريخ ١ /٢ /١٩٥٦ ورد كتاب الوزارة رقم ٢٥٧ ومرفق به الشيك رقم ٥٠٦٣١٤ بمبلغ ٢٩٤٤/٧٦٦ (مليم جنيه) وموضح بالكتاب أن هذا المبلغ هو قيمة صافي ما خص طلبة العلم الأتراك والطلبة الفقراء في وقف الأميرة نجوان هانم عن سنة ١٩٥٤ ومرفق به كشف حساب هذا الوقف عن السنة المذكورة وبالإطلاع على هذا الكشف تبين أن ما ورد للمشيخة وقدره ٢٩٤٤/٧٦٦ (مليم جنيه) يوازي ⅙ صافي الريع وبالرجوع لشرط الموافقة تبين أن استحقاق الأزهر في هذا الوقف هو ⅓ ما يبقى من غلة الوقف بعد أشياء بينتها الواقفة في حجة وقفها ومن هذا يتبين أن المقدار الوارد للمشيخة ينقص عن المستحق بمقدار ١٦٤٩/٦٢٤ (مليم جنيه) مع الإحاطة بأن دائرة الوقف قبل أن تسلم الوزارة لأعيانه

واظبت على تسديد حصة الأزهر كاملة بواقع ⅓ فاضل الريع لغاية سنة ١٩٥٢ ولهذا طلبنا من وزارة الأوقاف فى ١٩٥٦/٢/١٢ إرسال باقى الاستحقاق عن سنة ١٩٥٤ و بيان السبب الذى لم تسدد الوزارة المستحق للأزهر عن سنة ١٩٥٣ .

فجاء رد الوزارة رقم ٢٤٨ يفيد أن ما ورد للأزهر هو الاستحقاق بعد أداء المرتبات لمن بيتهم الواقفة بحجة وقفها وجاء رد آخر بتاريخ ١٩٥٦/٤/٢٣ بأن المبالغ المبينة بكشف الحساب هى كل ما خص المشيخة بحق ال ⅓ وليس لدى الوزارة أية مبالغ أخرى سواه .

وقد اعترضنا بعدة مكاتبات على هذه الردود وأرفقنا بها كشف حساب مبين فيه مقدار الثلث على أساس صافى الريع الوارد بكشف حساب الوزارة فورد فى ٥/٣١/ ٥٦ ما يفيد أن المبالغ المخصصة للأزهر فى ريع هذا الوقف ليست مبالغ معينة بالشرط وإنما تتوقف على ريع الوقف أما بالزيادة أو بالنقصان وأن المبلغ المبين فى كشف الحساب الوارد من الوزارة هو ما خص الأزهر فى فاضل ريع سنة ١٩٥٤ حسب الايرادات التى دخلت فى حسابات هذه السنة .

ومن هذا يتبين خطأ الوزارة فى تقدير ⅓ صافى الريع حسب العملية الحسابية السليمة ولا دخل للزيادة والنقصان واستبعاد المرتبات الأخرى من الشرط .

أما فيما يتعلق بعدم سداد الريع عن سنة ١٩٥٣ فقد جاء بكتاب دائرة الوقف رقم ٢٤ المؤرخ ١٩٥٤/٤/٢٨ بأن الوزارة تسلمت أعيانه بمقتضى القانون رقم ٤٢٨ وهى المسئولة عن ريع هذه السنة وبمطالبة الوزارة بهذا الريع أجابت فى ٥٦/٢/٢٧ برقم ٣٤٨ إنه لم يتحصل ريع هذا الوقف سنة ٥٣ ويسأل عنه الدائرة السابقة فكتبنا بعد ذلك للدائرة عدة مكاتبات ولكن هذ المكاتبات أعيدت للمشيخة ومؤشر عليها من مصلحة البريد بأن الدائرة المذكورة نقلت إلى مكان آخر وليس لدى قسم حسابات الأوقاف عنوان آخر لها .

نعرض الأمر للنظر والأمر بما يتبع صفر ١٣٧٦ هـ — سبتمبر ١٩٥٦ م .

١ — يكتب لديوان المحاسبة لإرسال أحد السادة المفتشين لبحث هذا الموضوع من واقع كشوفات التحصيل .

٢ — يكتب لمعهد إسكندرية للبحث مرة أخرى عن مقر هذه الدائرة .

ملحق رقم (٢)

عدد	رغيف	الاسم
١	٤	الشيخ محمد أفندى أمين الشحيمى شيخ الرواق
١	٤	جركسى عبد القادر فانى بن بشاف (ضم له رغيف)
١	٤	» أحمد حيدر » »
١	٤	قبرصلى مصطفى سالم بن أحمد » »
١	٤	جركسى حسن بن على » »
١	٤	جركسى عثمان بن حسن المهدى » »
١	٤	جركسى اسحاق رمزى
١	٤	قبرصلى رجب أفندى بن أحمد
١	٤	جركسى محمد على تيانقلى بن صالح
١	٤	جركسى صالح بن سماج
١	٤	أورنه لى حسين بن حسين
١	٤	جركسى محمد بن عثمان حسن المهدى
١	٤	داغستانلى أحمد بن محرم
١	٤	استامبولى مصطفى صايم
١	٤	قبرصلى عثمان اسماعيل
١	٤	داغستانلى محمد بن أمير حمزة
١	٤	أزميرلى سليمان بن خليل
١	٤	طرابزونلى محمد عارف بن حميد
١	٤	جركسى يوسف بن أحمد
١	٤	جركسى عبد العزيز بن شعيب

عدد	رغيف	الاســـم
١	٤	قزانلى أبو النصر بن عبد الغنى
١	٤	جركسى موسى صالح
١	٤	« أحمد بن شجتوقه
١	٤	قونيه لى محمد بن أطنه لى أوغلى على أفندى
١	٤	إيطاليه لى مصطفى نظمى بن مصطفى
١	٤	جركسى عبد الحميد بن طاهر
١	٤	داغستانلى على بك بن محمد
١	٤	« أحمد بن محمد
١	٤	جركسى عبدالله على شويان
١	٤	« عبد الله بن إسحاق
١	٣	أطنه لى على بن مصطفى
١	٣	بلغارى على بن حسن هزار على أوى
١	٣	استامبولى أيوب بن محمود
١	٣	كوتاهيلى سليمان بن اسماعيل
١	٣	جركسى رمضان بن قاص
١	٣	ايدين محمد بن حسام
١	٣	تورة طا على أوغلى مصطفى بن حسن
١	٣	بوسنه لى محمد بن عثمان
١	٣	استامبولى إبراهيم بن حسن
١	٣	سلانيكى مصطفى بن على
١	٢	استيالى بن مدركرى
١	٢	انقروى مصطفى صالح
١	٢	ايدين أحمد حسن
١	٢	جركسى خالد بكر

عدد	رغيف	الاســـم
١	٢	ابستانى أبو بكر بن أحمد
١	٢	جركسى حضر عبدالله
١	٢	« حسين شعيب
١	٢	أطنه لى محمد بن مصطفى
١	٢	جركسى هارون إسحاق
١	٢	داغستانلى على إبراهيم خليل
١	٢	جركسى حافظ على ناخو موسى
١	٢	« على شامل إسحاق
١	٢	أنالوك كولرى مرزاكو
١	٢	جركسى على موسى ساركو
١	٢	« محمود عبد الكريم
١	٢	« أفاجوه أمى أحمد
١	٢	إيبستانى محمد حاج عثمان
١	٢	سيواسلى الحاج عمر حسين أحمد
١	٢	مناستيرلى تولى اسماعيل بيرت
١	٢	مناسترلى شعبان محمد على عمر
١	٢	مناستيرلى خليل محمد على عمر
١	٢	أرض روملى طورسون محمد شريف
١	٢	استامبولى أحمد حلى حسين عبدالله
١	٢	عشاق مصطفى عثمان
١	٢	جركسى أحمد توفيق إينداد
١	٢	منا سترلى اطرن شكرى أحمد
١	٢	سلانيكى أحمد مصطفى يوسف
١	٢	قرانلى منهاج الدين اسماعيل
١	٢	منا سترلى نعمان حاجى عمر نعمان

عدد	رغيف	الاســـم
١	٢	قوانلى مليمان ملاخان
١	٢	جركسى محمد توفيق داود
١	٢	يولى سفجاغى محمد سعد الدين حاجى على
١	٢	ايدين سليمان إبراهيم
١	٢	قونيه لى على محمد كريم
١	٢	جركسى هابيل أصلان زاور
١	٢	ايدين أيوب حاجى موسى زكريا
١	٢	كوتاهيلى اسماعيل حق اسميل
١	٣	اسكويه عبد الرحمن بن مراد
١	٣	بشماف
١	٣	قونيه لى مصطفى عثمان
١	٣	جركس على يوته
١	٣	« إسحاق إبراهيم
١	٣	« زكريا أحمد
١	٣	« مصطفى بن داز عثمان
١	٢	طرابزنلى عثمان محمد عثمان
١	٢	جركسى أسعد بن الياس
١	٢	« على بن أحمد
١	٢	قونية لى محمد بن عثمان
١	٢	« أحمد بن الحاج محمد
١	٢	« عمر بن عثمان
١	٢	إدرنه لى على رضا
١	٣	جركسى شعبان بن حاجى عبدالله
١	٢	ننبه لى عبد الوهاب بن على

عدد	رغيف	الاســـم
١	٢	جركسي أسعد بن أحمد
١	٢	سيوسلي مصطفى بن مصطفى
١	٢	جركسي حاجي تمرحان بن السيد علي
١	٢	قونية لي علي زكي
١	٢	أزميرلي محمد بن سليمان
١	٢	جركسي عبد القادر بن إسحاق رمزي
١	٢	« محمد بن عبدالله
١	٢	أطنه لي محمود بن عبدالله
١	٢	طرابزونلي اسماعيل عثمان
١	٢	اسكوبه رفيق بن عبد الرحمن
١	٢	أرض روملي سعيد بن حسين
١	٢	قسطموني حسين اسماعيل
١	٢	جركسي عثمان كوليأر النانوقي
١	٢	دودسلي ماهر بن حسن
١	٢	رودسلي محمد فخري بن عبد الحميد
١	٢	شمس الدين بن حاجي مصطفى طرابزولي
١	٢	طرابزونلي حسين بن عثمان
١	٢	أطنه لي مصطفى عثمان
١	٢	مناسترلي علي بن أحمد
١	٢	ملاطيه لي حسن بن حسن
١	٢	أطنه لي حاجي صاري حسين
١	٢	« حسين منلا بكر
١	٢	« [illegible]ي مصطفى إبراهيم
١	٢	« علي منلا علي أحمد
١	٢	« خليل طرومش همت

عدد	رغيف	الاسم
١	٢	قونية لى عمر شاكر
١	٢	جركسى على رضا يوسف
١	٢	» إبراهيم عكاشه موسى
١	٢	» فوزى شعيب
١	٢	» محمد صالح شو جنوقه
١	٢	» يعقوب عبد الجليل
١	٢	قزانلى حمزه طاهر عارف
١	٢	كوتاهيلى يحيى اسماعيل سليمان
١	٢	داغستانلى محمد سيله
١	٣	تركستانلى محسن يونس محمد يوسف
١	٢	» عبد المؤمن بن أكرم
١	٢	قزانلى عبد السلاح العظيمى
١	٢	جركسى حسين بن إسحاق رمزى
١	٢	» » مصطفى محمد
١	٢	» عبد المنعم بن عثمان حسن المهدى

أرباب الوظائف

عدد	رغيف	الاسم
١	١٦	الشيخ أمين السحيمى شيخ الرواق
١	٤	مدير كتبخانه الرواقه
١	٨	معاون الوقف
١	٤	أمام الرواق
١	٤	مبلغ الرواق
١	٩	جابى الوقف
١	١٠	كاتب الوقف
١	١٠	كاتب الرواق

عدد	رغيف	الاسم
١	٩	فراش الرواق
١	١١	نقيب الرواق
١٤٥	٤٤٦	إجمالى جرايات الرواق

رغيف	رغيف	
١٢٨	١٢٨	من الأوقاف
٧	٧	« مصطفى أفندى
٨٦		« عثمان باشا
٢٢	٢٢	أحمد باشا
٦٦	٦٦	« حسين باشا
٤٣	٤٣	« يعقوب باشا
١٨	١٨	« عفيفه هانم
١١	١١	« النشوران

المنهج التاريخى
فى كتابات سالم بن حمود السيابى

بقلم الدكتور

محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ مساعد التاريخ العربى الحديث

تعريف بالشيخ السيابى :

هو الشيخ سالم بن حمود بن شامس بن خميس بن على بن عبيد السيابى .

مولده ونشأته :

ولد بقرية « فلا » التابعة لبوشر سنة ١٣٢٦ هـ ، ١٩٠٨ م حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ثم انتقل إلى سمائل ، حيث درس على الشيخ خلفان بن جميل السيابى أصول الدين والفقه كما درس على الشيخ أبا عبيد حمد بن عبيد السليمى كما جالس الإمام الرضى محمد بن عبدالله الخليلى مما أتاح الشيخ السيابى فرصة واسعة للتزود من الثقافة الإسلامية وكان لتنوع معارفه أكبر الأثر على تنوع كتاباته ما بين الفقه واللغة والأدب والتاريخ .

الوظائف التى شغلها :

عمل مدرسا بولاية بوشر ثم قاضيا لنفس الولاية ثم عمل واليا وقاضيا على نخل ثم واليا على جعلان بنى بوحسن ثم إستدعى إلى مسقط فى عهد السلطان سعيد بن تيمور ، حيث عين رئيساً لمحكمة الإستئناف ثم إنتقل واليا على السيب ثم قاضيا فى المحكمة الشرعية بالعاصمة .

وفى ١٩٨٢ نقل إلى وزارة التراث القومى والثقافة ليتفرغ لكتابة وتحقيق الكتب الفقهية والتاريخية والأدبية .

أهم مؤلفاته :

كتب الشيخ السيابي أكثر من خمسين مؤلفا في كل مجالات الثقافة العربية والإسلامية لعل من أهمها :

١ - إرشاد الأنام في الأديان والأحكام (عشر مجلدات) .
٢ - العقود المفصلة في المسائل الموصلة (مجلدان) .
٣ - العرى الوثيقة شرح كشف الحقيقة في المذهب الاباضي وأصوله .
٤ - جوهر التاريخ المحمدي في سيرة الرسول الأعظم .
٥ - العنوان في تاريخ عمان (مطبوع) .
٦ - الحقيقة والمجاز في تاريخ الاباضية باليمن والحجاز (مطبوع) .
٧ - إزالة الوعثاء في أتباع أبي الشعثاء (مطبوع) .
٨ - طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الاباضي (مطبوع).
٩ - عمان عبر التاريخ (مطبوع في أربع مجلدات) .
١٠ - فصل الخطاب في السؤال والجواب .
١١ - العقود المفصلة في الأحكام المؤصلة (مطبوع) .
١٢ - العقود المنظمة في الخيل المسومة (مطبوع) .

مفهوم التاريخ عند الشيخ السيابي :

لقد إرتبطت الكتابة التاريخية عند المسلمين منذ صدر الإسلام بالعلوم الدينية ، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية وفي أنساب المغازي وفي أنساب القبائل العربية وفي الطبقات وفي التراجم لرجال الفقه والحديث وكبار الصحابة وعلى هذا النهج مضى شيخنا السيابي مستلهماً فضل التاريخ وأهميتـــه ، مشيرا إلى دوره في حفظ قصص النبيين ورسالات المرسلين وكيف أنه حفظ لنا تاريخ الأكاسرة والقياصرة ودون لنا أعمال الأمم ، سواء في إنتصاراتها أو هزائمها ثم يترجم دوافعه العربية بصدق

شديد حيث يقول « وهل نعلم لولا التاريخ ما فعل أئمتنا الأولون وما عمله أهل الحق ، والعلماء الأكرمين[1] » .

لقد جمع الشيخ السيابى بين علوم الشريعة واللغة والتاريخ وعلى الرغم من ثقافته الشرعية واللغوية الواسعة إلا أنه لم يفضل أهمية التاريخ ومكانته بين العلوم الإسلامية على إعتبار أن القرآن الكريم قد جاء بنظرة عالمية إلى التاريخ ممثلة فى تتابع النبوات إضافة إلى حرص القرآن الكريم على التأكيد بأن سيرة الرسل مثل المسلمين يقتدون بها وكان لهذا التأكيد أثره فى عناية العرب بدراسة السيرة النبوية ودراسة حياة الرسول[2] .

وعلى الرغم من أن الدراسات الأولى لحياة الرسول قد سميت باسم المغازى على اعتبار أنها تعنى دراسة أعمال الرسول الحربية إلا أنها فى حقيقة الأمر تشتمل على عصر الرسول كله[3] .

وتأكيدا على أهمية التاريخ ودوره فى إثراء التجربة الإنسانية ينقل الشيخ السيابى رأى إبن خلدون فى التاريخ قائلا : « إن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقيال ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال وعمروا الأرض

---

(١) سالم بن حمود السيابى ، عمان عبرا ط ٥ ص ١٦ سلطنة عمان ١٩٨٦

(٢) د / السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢٦ الإسكندرية ١٩٨٧

(٣) عبد العزيز الدورى ، نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٩ ، ٢٠

حتى نادى بهم الإرتحال وحان لهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لهذا أصيل في الحكمة عريق » .

وهذا الفهم الدقيق من الشيخ السيابي لطبيعة التاريخ ووظيفته وفقا لرواية بن خلدون يؤكد بأن الشيخ على وعى حقيقي لطبيعة التجربة الإنسانية فهو في باطنه (التاريخ) نظر وتحقيق أي تفكير وتدبر في طبائع البشر وتكوين المجتمعات وتحليل دقيق للحوادث ونتائجها ، ولذا فهو كما يقول إبن خلدون « أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها خليق » والحكمة في المعارف العربية هي أعلى مراتب العلم وقد قرنها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ثماني مرات وعبارة « الكتاب والحكمة » عبارة قرآنية لا تزال تتردد في الأسماع والقلوب .

لقد بالغ العلماء كثيرا في تحميل بن خلدون مسئولية إدراج التاريخ بين الفنون دون إعتباره علما تتوافر فيه كل مواصفات العلم . باعتبار أن الفن أقل منزلة وأهمية من العلم الذي هو معرفة أكيدة .

لعل مواصفات العلم والفن لم تكن دقيقة في نظر بن خلدون فهو تارة يقول عندما أفرد فصلا عن فائدة التاريخ « في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه الخ .. وتارة أخرى يقول وفي نفس الفصل : « اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب الخ .. » وأعتقد أنه لم يكن يفرق بين طبيعة الفن وطبيعة العلم وليس كما يعتقد بعض المؤرخين[1] من أنه كان غير مقتنع تماما بأن التاريخ علم مستكمل لاشراط العلوم .

ولعل الشيخ السالمي قد تجاوز هذه الإشكالية ، مستندا على وجهة نظر الشيخ نور الدين السالمي باعتبار أن علم التاريخ مما يصير على الاقتداء بالصالح

---

(١) د / حسين مؤنس . المرجع السابق ص ٤

ويرشد إلى طريقة المتقين . ثم يعود الشيخ السيابي مؤكدا على أن التاريخ سر من أسرار العلوم الكونية وضع الله أصوله في كتابه العزيز حيث قال : « أو لم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود إلخ .... » .

ومن المؤكد أن الشيخ السيابي لم يقصر أهمية التاريخ على معرفة سيرة الأنبياء والمرسلين وحياتهم باعتبارهم قدوة صالحة لتلك الأجيال فقه وإنما باعتباره أيضا تجربة إنسانية جديدة بالدراسة في محاولة لفهم الإنسان طبيعة الحياة على وجه الأرض ، لعل هذا المعنى لم يكن خافيا على الشيخ السيابي ، حيث استشهد بتجربة الإمام السالمي قائلا : « لما أراد الإمام السالمي إعادة الإمامة .. قام بنشر تاريخ عمان حيث عرف العمانيون تاريخ أسلافهم وأعمال آبائهم فهبوا متشوقين إليها وكذلك طبع دواوين الشعر الحامي الداعي إلى نبذ الخمول واعتناق النشاط فكان ذلك من أعظم عوامل النهوض بالأمة .. كل ذلك بفضل دراسة الأبناء لسالف الآباء إلخ[1] .

لعل ما يفيد الشيخ السيابي هو التجربة الإنسانية التي لها وقع هائل على حياة البشر ، مهما كانت هذه التجربة متواضعة ، فلا توجد في التاريخ حوادث كبيرة وأخرى صغيرة لأن الحوادث الكبيرة إنما هي تجمع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض في نطاق مكاني وزماني ضيق . كما أن السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار فإن وقوع حرب عالمية مدمرة يكون في الغالب نتيجة مشاكل بشرية وسياسية وتراكمها وتنامي الخصومات والحزازات وتصادم المصالح والأهواء مرة تلو أخرى وهكذا .

والتجربة الإنسانية التي وعيها السيابي أراد أن يضعها أمام معاصريه بهدف إبراز دور المذهب الإباضي في تجسيد الفضائل والتضحية في سبيل الدين والوطن ولعله لا يختلف في هذا من مرحان الأزكوي ، الذي نجح في التأريخ للمذهب من خلال تأريخه لعمان ويعترف بذلك قائلا : « لقد اصنفت هـــذا

---

(١) سالم بن حمود السيابي ، عمان عبر التاريخ ج ١ ص ٢٣ .

الكتاب وجعلت ظاهرة فى القصص والأخبار وباطنه فى المذهب المختار .. عسى أنهم لأصولهم يعرفون ولأهل الحق بالحق يعترفون[1] .

وكذا فعل الشيخ السيابى فى محاولة ناجحة لإبراز أهمية العقيدة الدينية فى سلوك الأفراد حكاما ومحكومين حيث يقول : « إن ذكر التاريخ عموما أو تاريخ عمان على الأخص - يهدف أن يتحدث الناس عن أعمال الرجال ككل أو عن الأعمال الفاضلة التى يعتمد عليها الرجال المعينون بحب أوطانهم أو باستقامة دينهم أو بسعادة شعوبهم[2] .

وشرح أحوال المجتمع العمانى وعوامل قوته وضعفه ، ولذا فقد تميزت كتاباته بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة فضلا عن عنايته بتحليل ودراسة كثير من الموضوعات بطريقة يحمد عليها .

وفى سبيل ذلك طاف الشيخ السيابى باحثا ومنقبا مستلهما معارفه من ثقافته الواسعة ومن قراءاته فى أمهات الكتب ومن شهادات مشيوخ والمعاصرين للأحداث ولذا فقد جاءت كتاباته التاريخية وافية شاملة مع ملاحظة أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الحقيقية المطلقة لأن هذا أو أو غير مستطاع لأسباب كثيرة مثل قلة المراجع واختلاف وجهات النظر حول القضية الواحدة ولا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقة ذاته ، حتى يعرف حقيقة غيره ، فالحقيقة التى يصل إليها المؤرخ دوما هى حقيقة نسبية كلما زادت نسبة الصـــدق فيها اقترب التاريخ من أن تصبح تاريخا بالمعنى الصحيح .

واللافت لنظر فى كتابات السيابى أن التاريخ عنده يؤدى وظيفة تتعدى

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوى تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة تحقيق عبد المجيد القيس ص ٣ .

(٢) السيابى ، مرجع سبق ذكره ص ٢٦ .

مدلول التجربة السامية إلى التجربة الخاصة القائمة على فكرة الإيمان فضعف الحكام دائما مرجعه البعد من سيرة السلف الصالح ومن ثم إنهيار الدولة ولأن حركة التاريخ مستمرة فمن بين الظلام تنبثق الحقيقة من خلال رجال وهبوا أنفسهم دفاعا عنها - وإيمانا من السباعي بأهمية العقيدة ودورها في حركة التاريخ فإننا نلمس ذلك بكل وضوح من خلال كتاباته جميعها حيث يحاول أن يجسد هذه الحقيقة من خلال فهم حقيقي لحركة التاريخ باعتباره ميدانا واسعاً وأن مادته متسعة كاتساعه .

ويلاحظ أن الأساطير من أهم أنواع الروايات الشفوية ويوجد عصر أساطير في تاريخ كل أمة مثل أساطير قدماء المصريين وأساطير الفرس والهنود واليونان والرومان إلخ وفي عهود الحضارة تستمر الأساطير الشعبية وغالبا ما تشكل كما من الروايات ذات التأثير في أذهان الناس وحينما تبدأ أمة من الأمم في تدوين تاريخها يتسرب قدر من الروايات الشفوية ، حيث تختلط بالحقائق وعلى ذلك تنشأ النوادر أو القصص المسماة بالأساطير مثل الإشاعات والأوهام[1] إلخ .

ولما كان السباعي من الجيل الذي يحظى بالثقافة الإسلامية عموما ، لذا فيمكن تصنيفه على اعتبار أنه ينتمي إلى ما يعرف بشمولية المعرفة ، حيث يختلط التاريخ بالفقه وغالبا ما يحاول أن يؤصل قضية فقهية ومن ثم فلا بد من العودة إلى القرآن والحديث وهكذا تتفاعل المعارف الإسلامية ولذلك فمن الصعب وضع كتابات السباعي التاريخية أمام منهج تاريخي محدد بحكم ارتباطها بكثير من المعارف الإسلامية .

وعموما فإن رؤية السباعي للتاريخ تعد رؤية عالمية مستمدة من القرآن الكريم الذي أتى بأمثلة لشعوب وحضارات وملوك ورسل وأنبياء وكان

---

(١) د . حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ص ١٤ .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

النفس الإنسانية تميل دائما إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال وهو نوع من الحوار التاريخي بين الحاضر والماضي ، وحتى تعرف أين أخطأوا لكي لا تقع فيما وقعوا فيه ومن هنا يجوز لنا أن نقول إن الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق علينا وكما يراه الجيل الذى سيأتي بعدنا ومن هنا يصدق القول بأن للأمة الواحدة أكثر من تاريخ ولهذا لابد لكل عصر أن يكتب التاريخ من وجهة نظره وهذا لا يقلل من الكتابات السابقة أو من كتاباتنا التي ستتحول إلى تراث في المستقبل ولعل المستقبل ينبيء عن كم من المخطوطات والوثائق التي تتيح للمؤرخ رؤيا أفضل وتحليل أدق ولذلك فإن كتابات السيابي والسالمي وابن زريق وغيرهم هي أساس لابد منه وعلى الأجيال الشابة الواعدة من العمانيين المتحمسين لمعرفة الحقيقة أن يواصلوا وكما قلت فالحقيقة التاريخية دائما ليست مطلقة ، وإنما هي نسبية تختلف من شخص لآخر ومن جيل لجيل . . وفقا للمصادر وأدوات البحث ومقدرة المؤرخ على التحليل والتفسير ولذلك فلن تكون كتابات السيابي إلا سلسلة من الكتابات التي تكمل ماقبلها وتكون أساسا لما بعدها .

موضع كتابات السيابي من المؤرخين المسلمين

لقد تميزت الكتابة التاريخية في القرن الثاني الهجرى بثلاث مظاهر أساسية أولها : إنفصال الأخبار بينها واستقلالها ، ثانيها : الطابع القصصي الذى لا يخلو من الحوار غالبا ، ثالثاً : الإستشهاد بالشعر ولم يلبث المؤرخ المسلم أن تحرر تدريجيا من طريقة الإسناد التى كانت تلزم المؤرخ بأن يكون مجرد أخبارى ، أى ناقل للخبر ، إلى الكتابة المرسلة التى تعنى بالخبر فى ذاته ومناقشته[1] ، وبينما كان الطبرى ومن سبقوه يهتمون اهتماما خاصا بالإسناد وتسلسل الرواة ، فقد ظهر فريق من المؤرخين المسلمين ابتعدوا فى

---

(١) دكتور السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون ص ٧٥ ، ٧٦ .

كتاباتهم عن طريقة الإسناد واكتفوا بإيراد الأخبار غير مسندة إلى أصحابها مثل اليعقوبي والمسعودي واكتفى هؤلاء بذكر مصادر مادتهم التاريخية فى مقدمات كتبهم مع دراساتها أحيانا دراسة نقدية كما فعل المسعودي فى مقدمة كتابه مروج الذهب ، حيث يثنى على كتابة الطبري وقدامة بن جعفر ويحمل على سنان بن قرة الحراني .

وإذا كانت الكتابة التاريخية تطورت من حيث الطريقة ، فقد تطورت أيضا من حيث الاسلوب فبعد أن كان التاريخ يجمع فى معظمه موضوعات متنوعة لا رابطة بينها بصلة معتمدا على أسلوب جاف لا يتناسب غالبا وثقافة العامة ، أصبح الأسلوب التاريخي مرسلا بسيطا وواضحا يكاد يخلو فى معظمه من الشعر وكثيرا ما استخدم السجع فى الكتابة التاريخية .

ووجد بين مؤرخي المسلمين من استخدم فى كتاباته أسلوبا بسيطا سهلا ، تجنب قيد الزخرفة اللفظية والألفاظ الدارجة من أمثال ابن حيان وابن الأثير وابن طباطبا وقد اهتم هؤلاء بإبراز المادة التاريخية فى عبارات قصيرة توضح المعنى المطلوب ، بطريقة سهلة ، ميسرة .

وعموما فقد سلك المؤرخون الأوائل فى كتاباتهم منهجين . أولهما : مايعرف بالتاريخ الحولى أو التأريخ حسب السنين وثانيهما : التأريخ حسب الموضوعات وترتيبها بما يتناسب وبعضها البعض .

أما المنهج الأول : فقد اعتمد أصحابه على جمع حوادث كل سنة وربطها بكلمة « وفيها » فإذا إنتهت حوادث السنة الواحدة إنتقل المؤرخ إلى حوادث السنة التالية ، حيث يضيف « ولما دخلت سنة كذا » أو « عندما جاءت سنة كذا » ومن عيوب هذا المنهج أنه يمزق سياق الحادثة التاريخية ، التى غالبا ماتمتد آثارها إلى السنة التالية أو إلى عــــدد من السنين وحتى إذا ما عاد المؤرخ لتناول نفس الحادثة فى السنة التالية فإنه يأتى بها منفصلة عما قبلها وقد انتقد شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري فى مقدمة كتابه

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » هذه الطريقة الحولية وآثر الكتابة حسب الموضوعات[1] .

والطبري عمدة المؤرخين هو أول مؤرخ وصلنا إنتاجه التاريخى مرتبا حسب السنين منذ بداية التارخ الهجرى ، حتى سنة ٣٠٢ هـ ، ولعل اعتماد الطبرى على الإسناد كان لوفرة مصادره مما جعله مصدر ثقة لمن أتى بعده من المؤرخين مثل مسكويه وابن الأثير وغيرهما .

ويعتقد البعض أن طريقة التاريخ الحولى قـــد استمدها العرب من مؤرخى الإغريق والسريان كما إستمدوا غيرها من المعارف الفلسفية والرياضية والجغرافية إلخ[2] .

أما المنهج الثاني : وهو مايعرف بالتأريخ حسب الموضوعات التى قد تكون إما للدول أو لعهود الخلفاء والحكام وإما للسير والطبقات هكذا كتب ابن خلدون فى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ولسان الدين بن الخطيب فى « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » ثم الطبقات الكبرى للشعرانى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وطبقات الشعراء لابن المعتز الخ .

أما شيخنا السيابى فقد اختار نوعا من الكتابة التاريخية عند العرب بالتاريخ المحلى : حيث يؤرخ لبلده عمان ويقف مصححا الأخطاء التى ترد عن عقيدتها بطريقة تحقيقية تعليمية تنم عن حب كبير لعمان ولمذهبها الأباضى ولعل الرؤية التاريخية جاءت أكثر وضوحا فى كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ »[3] ثم تاريخ المذهب الأباضى من خلال ما كتب السيابى فى « أصدق المناهج فى

(١) محمد عبد الغنى حسن ، علم التاريخ عند العرب ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) د . السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سبق ذكره ص ٨٩ .

(٣) سالم بن حمود السيابى ، عمان عبر التاريخ أربعـة أجزاء من وزارة التراث القومى والثقافة سلطنة عمان ١٩٨٦ .

تمييز الأباضية عن الخوارج[1] ، « طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الأباضى » ، إزالة الوعثاء عن أتباع ابن الشعثاء .

وهذا النوع من الكتابة هو وليد الشعور بالقومية وتعبير صادق عن إرتباط المؤرخ واعتزازه بوطنه وبعقيدته بمذهبه الأباضى وهذا النوع من الكتابة عرف عند المؤرخين المسلمين من أمثال أبو على الحسين السلامى (ت ٣٧٤ هـ) حيث يقول فى كتابه « أخبار ولاة خراسان » أن الواجب على صاحب المعرفة من أهلها أن يحفظ أيام أمرائها لا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه » .

كذلك يعيب أبو الحسن بن محمد الربيع التميمى القيروانى على مؤرخى الأندلس تقصيرهم فى الكتابة عن بلدهم وذلك فى رسالة وجهها إلى ابن حزم القرطبى قال فيها : « لقد كانوا فى غاية التقصير ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا فى الكتب مآثر بلدانهم وأخبـــار الملوك والأمراء والوزراء والقضاه والعلماء فأبقوا لهم ذكرا فى الغابرين يتجدد على مر الليالى والأيام ولسان صدق فى الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام وعلماؤكم مع إستظهارهم على العلوم ، كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنف أن يعنف وإن ألف أن يخالف ولا يؤالف ، أو تخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، لم يتعب أحد منهم نفسا فى جمع فضائل أهل بلده ولم يستعمل خاطره فى مفاخر ملوكه ولا سود قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه .

ويمكننا أن نميز الكتابة فى التاريخ المحلى بتيارين واضحى المعـــالم إلا أنهما متصلين منهما أحدهما تيار دنيوى والثانى تيار دينى .

---

(١) السيابى تحقيق دكتوره/سيدة الكاشف من مطبوعات وزارة التراث القومى والثقافة سلطنة عمان ١٩٧٩ .

أما الأول فقد ظهرت أنواع منه مثل تاريخ بغداد لأحمد بن طاهر طيفور (ت ٢٨٠ هـ) وتاريخ الموصل لأبى زكريا يزيد بن إياس الأزدى (ت ٣٤٤ هـ) واتسعت هذه الطريقة فى الكتابة حيث كتب تقى الدين أحمد ابن على المقريزى كتابه الشهير : « المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار » وكتاب : « حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة » لجلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى (ت ٩١١ هـ) وفى الشام ظهرت أمثلة كثيرة حيث ألفت فى تاريخ الشام عموما ومدنها خصوصا كتبا كثيرة لا يسع المجال لحصرها .

أما الشيخ السيابى : فقد إنفرد بطريقة عززة جاءت من الخصوصية التى تميز بها تاريخ عمان بدءا من القرن الثانى الهجرى حيث كان العدل فى عمان من خلال تقروها بطابع خاص وإسهامات أهلها فى نشر الدعوة الإسلامية فى أماكن شتى من قارتى آسيا وأفريقيا .

والحقيقة أنه لا يمكن للباحث أن يدرس تاريخ عمان دون أن يقف على حقيقة المذهب الأباضى من حيث تاريخه وتطوره . وإذا كان عدد كبير من المؤرخين وكتاب الفرق قد خلطوا بين الأباضية والخوارج فإن السيابى إيمانا منه بعقيدته الصحيحة فقد انبرى مدافعا ، شارحا ، عمقا من خلال كتابه الشهير : « أصدق المناهج فى تمييز الأباضية عن الخوارج » وبصدق شديد شرح السيابى المذهب الأباضى وجوهره ورفض الكتب العقائدية والتاريخية ، التى تدخل الأباضية ضمن فرق الخوارج وبما أن الشيخ السيابى كان يدرك بأنه يؤرخ للعقيدة وللمذهب فقد تبسط كثيرا أثناء عرضه حيث جاءت العديد من موضوعات الكتاب على شكل أسئلة طرحها على نفسه وأجاب عنها بطريقة تعليمية مقنعة مثل من هم الاباضية ؟ وأين هم ؟ هل لهم مذهب خاص ؟ هل للأباضية فى خدمة الإسلام نصيب[1] ؟ الخ ...

---

(١) سالم بن حمود السيابى ، أصدق المناهج فى تمييز الأباضية عن الخوارج ص ١٦ وما بعدها .

وتبدو ثقافة الشيخ السيابى الواسعة المتعددة المستمدة من القرآن والسنة النبوية إضافة إلى قراءته الواسعة فى كتب التراث الإسلامى عموما ويشير أحيانا إلى بعض مراجعه التى اعتمد عليها سواء أكانت لمؤلفين عمانيين أو مسلمين عموما وعلى الرغم مما يتميز به السيابى من إخلاص وإيمان لمذهبه إلا أنه يدعو إلى التقريب بين المذاهب بدلا من إتساع الهوة وإيجاد الفرقة بين أبناء الدين الواحد[1] .

واللافت للنظر مقدرة السيابى اللغوية والفقهية والأدبية ، حيث تجلت براعته فى مقدرته على صياغة أحكامه شعرا دون خلل أو كلل ، دون أن يحس القارىء أن خللا ما قد وقع معتمدا على التشويق بطريقة بارعة تنم عن حس أدبى رفيع .

لعل السيابى قد واجه مشكلات كثيرة وهو يؤرخ لمذهبه ، حيث أن المراجع الأصيلة قد إندثرت ولذا فقد اعتمد على كثير من المخطوطات العمانية التى أسهمت وزارة التراث القومى والثقافة فى نشر عدد كبير منها إلا أن عامل التقادم قد يكون حائلا دون إظهار الحقيقة كاملة فالمؤرخ الذى يؤرخ لأحداث زمانه قد تطبع روايته بطابع الصدق والدقة أو المؤرخ الذى يعيش فى زمن قريب من الأحداث يكون أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصوير الأحداث وتبسيطها وعلى الرغم من أن هذه المشكلة تعد عقبة كبيرة فى التاريخ الإسلامى عموما إلا أن السيابى قد نجح فى إستخدام ما تحت يده وبطريقة يحمد عليها .

فلو إستعرضنا كتابات عدد من المسلمين المعاصرين للاحداث مثل ابن الأثير الذى برع فى تصوير الغزو المغولى على ديار الإسلام[2] .

---

(١) د / سيدة الكاشف أنظر المرجع السابق ص ٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل أحداث سنة ٦١٧

أو المقريزى الذى نجح فى كشف أسباب المجاعة والطاعون الذى تفشى فى مصر فى زمنه[1].

نلاحظ أن هـــذه الكتابات قد تميزت بواقعية شديدة وترجمة دقيقة للأحداث وخصوصا فى الموضوعات التى لا يجد المؤرخ حساسية فى تصديرها بعكس الموضوعات السياسية أو الدينية التى تتعارض مع رغبة الحكام ، فكثيرا ما يعمد المؤرخ إلى إخفاء بعض عيوب الحكام خوفا من بطشهم ودرءا لغضبهم وقد يعمد البعض إلى إبراز محاسن يفتقدها الحكام ومن أمثلة هؤلاء المسعودى ، الذى أرخ للخليفة العباسى القاهرة تملقا متغاضيا عن سوءاته الخ ...

أما السيابى فقد إختلفت كتاباته لأنه يكتب تاريخ بلده ومذهبها بتجرد شديد وبدوافع دينية ووطنيته ، متحمسا أحيانا كثيرة . وبما أنه ينتمى إلى الجيل الذى تشرب المعارف بشمولية شديدة فهو دارس للفقه والتفسير والحديث ، حافظا لكتاب الله على وعى شديد بحقيقة التاريخ الإسلامى العام ولذلك جاءت كتاباته على نمط الكتابات الشمولية ، التى إمتزج فيها الأدب بالتاريخ وتداخل الفقه فى السير والمغازى وما بين هذا وذاك إنسابت قريحته الشعرية فجاءت كتاباته أشبه بدائرة المعارف العامة ، فحينما تقرأ فى كتاباته التاريخية يدفعك دفعا إلى التزود بمأثورات العرب من الشعر ونوادر الادب دون أن تحس بأنك قد خرجت عن سياق الاحداث معتمدا على ذاكرة حافظة مستشهد بالقرآن أحياناً وبالحديث النبوى فى أحيان كثيرة وبالشعر فى معظم الأحيان .

ولذلك فإن إعمال المناهج المعاصرة فى كتابات السيابى تعد أمرا صعباً للغاية وعموما فقد وضع أساسا الأجيال التى تأتى بعده ، وعليها أن تتزود

---

(١) د / سيد عبد العزيز سالم مرجع سبق ذكره ص ١٢٥

من كتابات السيابى مع أعمال المناهج المعاصرة التى توصلنا إلى الحقيقة النسبية وليست الحقيقة المطلقة لأن الحقيقة المطلقة أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وإنطماس الآثار ، ومن ذا الذى يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلوبة فى الماضى والحاضر وهل يمكن الإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ، فالحقيقة التى يصل إليها المؤرخ هى حقيقة صحيحة نسبيا وكلما زادت نسبة الصدق منها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخا بالمعنى الصحيح .

وعموما فقد جاءت كتابات السيابى وصف دقيق لعمان عبر تاريخها ، دراسة للبيئة والأئمة ومشكلات السياسة والحرب والفكر والعقيدة والأدب وشرح واف لأحوال المجتمع وفى سبيل ذلك طاف المؤلف باحثا ، ومنقبا ، متأملا مستلهما معارفه من ثقافته الواسعة ومن شهادات الشيوخ والعلماء فجاءت كتاباته وافية شاملة تميزت بالبساطة والوضوح والسلاسة .

وبدراسة المنهج الذى اتبعه المؤرخون المسلمون فى كتابة التاريخ المحلى الدينى نجد أن هذا النوع من الكتابة تميزت بالكتابة عن مدينة بذاتها تخطيطها ومدنها وعمرانها وعاداتها وعلمائها من خلال مقدمة تبدأ طويلة نسبيا ثم تميل بعد ذلك إلى الإيجاز أما موضوع مثل هذه الكتب فقوامها الشخصيات البارزة التى كان لها شأن فى البلدة أو القطر موضوع البحث وكانت هذه الشخصيات فى البداية وقفا على علماء الدين ثم تطورات الطريقة قليلا فشملت كل الشخصيات البارزة فى المجتمع من أدباء وعلماء وأعيان وساسة .

وفى القرن الرابع الهجرى أصبحت الكتابة من التراجم مرتبة على حروف الهجاء وأقدم كتاب فى التاريخ المحلى الدينى رتبت تراجمه على نظام المعاجم أى وفقا للترتيب الأبجدى هو تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبد الله الأندلسى (ت ٤٠٣ هـ) . كذلك اتبع الخطيب البغدادى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى فى كتابه تاريخ بغداد أو طريقة المعاجم فى ترتيب

أسماء التراجم إلا أنه أبدى إهتماما ملحوظا بالكتابة عن علماء الدين ومحتويات التراجم تعبر عن إهتمام المؤلف بالناحية الدينية وقدم المؤلف أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - على غيرهم فى الترتيب باعتبارهم أول من قدم إلى أطراف المكان الذى البغدادى ثم تطور هذا النوع من الكتابة بإضافة آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ومأثورات الصحابة فى الإشادة ببلد معين أو مدينة معينة وهناك أمثلة كثيرة مثل كتاب فضائل مصر وأخبارها لأبى الحسن إبراهيم زولاق وفضائل الإسكندرية لأبى على الحسن بن عمر الصباغ (القرن الخامس) وفضائل دمشق لأبى الحسن على بن محمد بن شجاع وكتاب فضائل الشام لإبراهيم ابن عبد الرحمن العزارى .

أما الطريقة التى استخدمها السيابى فى كتاباته فكانت أكثر شمولا حيث شملت تاريخ عمان بشكل عام ومذهب أهلها وجغرافيتها وفترات ضعفها وقوتها مع إبراز واضح للمذهب الأباضى فى محاولة جادة للتعريف به واستخدام التاريخ كوسيلة علمية مقبولة بهدف إبراز وتجسيد الفكر الأباضى من خلال أئمته وعلمائه باعتباره المذهب الأكثر شيوعا فى عمان ولذا فقد أراد أن يؤرخ لمذهبه ، سواء بهدف الدعوة إليه أو دفع الشبهات عنه .

ولعل السيابى قد نهج نفس الطريقة التى اتبعها سرحان بن سعيد الأزكوى فى مخطوطه الشهير « كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة »(١) ، حيث أورد المؤلف فى المقدمة قائلا « لقد صنفت هذا الكتاب وجعلت ظاهره فى القصص والأخبار وباطنه فى المذهب المختار . . . عسى أنهم لأصول المذهب يعرفون

(١) سرحان بن سعيد الأزكوى تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة تحقيق عبد المنعم القيس ج ٣ .

ولأهل الحق بالحق يعترفون »(١) .

ولعل شهرة هذا الخطوط جاءت من رؤيته التاريخية التي جملته في مقدمة المصادر الأصيلة في التاريخ العماني .

وأعتقد أن الهدف الذي قصده الأزكوي هو نفس الهدف الذي قصده السيابي مع اختلاف كل منهما في الطريقة التي استخدمها .

وعلى الرغم من ذلك فإن ما كتبه السيابي يعتبر جهدا علميا يشكر عليه فقد أوتي حظا عظيما من العمق والفيض والخصب معتمدا على أصالة فكره وإرهاف حسه مستعينا بما وهب من جلد وصبر ودأب على البحث والدرس والدرس ومقدرة على تحري الحقيقة في وقائع الماضي وأحداثه وهي عملية غاية في الصعوبة .

وإذا كان المؤرخون المسلمون قد عنوا بما عرف بالتاريخ المحلي الدين لإبراز أهمية مدينة بذاتها علمائها ، أعيانها ، اقتصادها فإن السيابي قد طاف كل أرجاء عمان بفكره وثقافته وأصالته مؤرخا لمذهب أهلها مع وعي شديد بأصول المذاهب ونشأتها وتطورها ثم يستنفر وقائع الماضي ويستدل بها في أماكن كثيرة مع إلمام واضح مثل أنواع الثقافة العربية والإسلامية فجاءت كتاباته تأصيلا للماضي ودروسا للمستقبل وهذا هو التاريخ الشامل الذي هو الحياة بذاتها بشرها وخيرها .

المنهج التاريخي عند الشيخ السيابي :

لقد عرف الشيخ سالم السيابي بتنوع معارفه واهتماماته ، حيث كتب في الفقه واللغة والأدب إضافة إلى التاريخ ، الذي أوتي فيه قدرا كبيرا من المعرفة إضافة إلى مقدرة على ربط الأحداث وتسلسلها بطريقة سهلة ، وعلينا أن نقر

(١) نفس المرجع السابق .

بأن الشيخ السيابي وكتاباته من النوع الذي عرفته ثقافتنا العربية كثيرا ما حيث ينتمي إلى مايعرف بالثقافة الشاملة ، حيث يختلط التاريخ بالعقيدة ويمتزج الأدب بالفقه ومكتبتنا العربية حتفظ لنا نماذج كثيرة من أمثال السيابي وهي مكانة لايقدر عليها إلا من أوتي حظا عظيما في العلم وصبرا متواصلا على البحث والقراءة ، لذا كانت محصلة السيابي في ، شتى مجالات الثقافة العربية الواسعة وقد انعكس ذلك على كتاباته بشكل عام وكتاباته التاريخية على وجه الخصوص .

ويعتبر كتاب عمان عبر التاريخ والذي يقع في أربع مجلدات ، والذي تفضلت وزارة التراث القومي والثقافة إدراكا منها لأهمية الكتاب ، حيث طبعته ١٩٨٦ م لكي يكون في متناول الباحثين والمتعطشين إلى معرفة تاريخ عمان عبر العصور التاريخية المختلفة .

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن تاريخ عمان إلا أن أرى ما كتب في هذا المجال هي كتابات الشيخ نور الدين السالمي والشيخ سالم السيابي وخصوصاً على المستوى المحلي ، حيث أن كلا منهما قد تناول تاريخ عمان عبر العصور التاريخية المختلفة وبشكل تفصيلي وتحليلي يقترب كثيرا من المنهج العلمي المعمول به في مثل هذه الدراسات الموسوعية .

واعتقد أن كل ما كتب لا يمكن أن يكون القول الأخير في تاريخ عمان لأن الدراسات التاريخية يحكمها في كثير من الأحيان وجهات نظر قد يجانبها الصواب في أحيان كثيرة .

ولعل الخطوة الرائدة ، التي تقوم بها وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان حيث تعمل جاهدة على نشر وتحقيق عدد كبير من المخطوطات العمانية إسهاما منها في تجسيد الوعي القومي والوطني لدى المواطن العماني من جانب وتقديم خدمة علمية للباحثين والمؤرخين من جانب آخر مما يجعل وجهة النظر العمانية

موضع اعتبار أساسى فى وقت تعددت فيه الكتابات التاريخية وتباينت وجهات النظر وخصوصاً لدى المؤرخين الأوربيين ، وبقيت وجهة النظر العمانية غائبة إلى أن ظهرت عدة كتابات بأقلام عمانيين بدءاً بسرحان بن سعيد الأزكوى فى مخطوطه الشهير « كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة »(١) ومرورا بما كتبه نور الدين السالمى فى كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » .

ثم ظهرت كتابات حميد بن رزيق وخصوصاً « الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين » .

ثم . الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان ، إضافة إلى العديد من الكتابات الأخرى التى تتفاوت أهميتها العلمية إلا أنها فى مجملها تمثل أهمية كبيرة فى تاريخ عمان .

وعلى الرغم من أن كتابات السيابى لا تمثل تجربته الشخصية فى كل ما كتبه من تاريخ عمان بحكم أنه لم يعايش الأحداث معايشة عملية كابن رزيق مثلا إلا أنه اعتمد فى كتاباته على كثير من المراجع والمصادر ، التى أشار إلى بعضها وأغفل بعضها الآخر إضافة إلى معلوماته التى سمعها من جيل الشيوخ ثم تسلسل الروايات ومقابلتها ببعضها ودراسة دوافع كل رواية وهى طريقة علمية استخدمها علماؤنا المسلمون فى تحقيقهم للحديث النبوى الشريف وأفردوا لها علما مستقلا عرف بعلم الجرح والتعديل .

واعتقد أن الشيخ السيابى قد وفق إلى حد كبير فى مهمته العلمية ، على الرغم من الصعوبات الكثيرة ، التى تصاحب هذا النوع من الكتابة ، ولعل من أهمها ندرة المصادر والمراجع وإن وجدت فهى على شكل مخطوطات

---

(١) سرحان بن سعيد الازكوى ، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة .

غير صالحة لتقديم المعلومة بطريقة مبسطة إلا بعد تحقيق ودراسة ، حتى يمكن التثبت من الحقائق التاريخية .

ويبدو أن السيابي قد خاض طريقاً وعراً ، مدركاً صعوبة مهمته فكان إعتماده على القديم والحديث من المراجع والمصادر إضافة إلى رؤيته الخاصة ومقدرته على تحليل كثير من الموضوعات .

وعلى الرغم من أهمية المخطوطات العمانية باعتبارها مصادر هامة ، جديرة بالدراسة والتحقيق إلا أننا نعترف بأن كثيراً من المعلومات التاريخية التى وردت فى عدد منها جاءت مكررة ، بل تكاد تكون متطابقة مما يؤكد صعوبة معرفة الأصل المنقول عنه .

لعل هذه الطريقة فى الكتابة عرفت فى تراثنا العربى دون أن تكون هناك غضاضة فى ذلك وعلى سبيل المثال فإن ثلاثة من المصادر العمانية تتفق لدرجة التطابق على الطريقة التى وصل بها ناصر بن مرشد إلى إمامة عمان ١٠٣٤ هـ - ١٦٢٤ م دون إشارة لمعرفة الأصل المنقول عنه .

فبينما يقول الشيخ السالمى : « وسبب إجتماع المسلمين بعد فرقتهم ما وقع من أمراء الظلم وملوك الغشم من تراكم الفتن وشدة المحن وإختلفت آراء أهل الرستاق ووقعت بينهم المحنة والشقاق وسلطانهم يومئذ مالك بن أبى العرب . وقدوة العلماء يومئذ خميس بن سعيد الشقصى ...

ووقعت خيرتهم على ناصر بن مرشد وكان فيما قبل ربيبا للقاضى خميس ابن سعيد الشقصى وكان قد عرفه من قبل ذلك فدلهم عليه فرضى الجميع وعقدوا عليه الإمامة بالرستاق[1] .

وفى المعنى يقول سرحان بن سعيد الأزكوى : « لقد اختلفت آراء أهل

---

(١) نور الدين السالمى ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ط ٥ ١٩٧٤ ج ٢ ص ٣ .

الرستاق ووقعت بينهم المحنة والشقاق وسلطانهم مالك بن أبى العرب . . . فاستشاروا العلماء المسلمين أهل الاستفاضة فى الدين . . . والقدوة يومئذ خميس بن سعيد الشقصى فاجتمعت آراؤهم على ناصر بن مرشد إلخ[1] .

ولا يختلف عن هذا المعنى أيضا حميد بن رزيق .

أما رواية السيابى فعلى الرغم من أنها تختلف فى مضمونها عن الروايات السابقة إلا أنه على ما يبدو قد نقل معلوماته عن الشيخ السالمى إضافة إلى كتاب حاجز العالم الإسلامى للمؤرخ الأمريكى لوثروب ستودارد وبه تحقيقات وإضافات كثيرة لشكيب إرسلان .

ولم ير الشيخ السيابى عيبا فى أن يشير إلى هذا المرجع مما يضاعف من ثقتنا بأمانة السيابى وتحرى الصدق والدقة فى كتاباته ، على الرغم من تحفظه على كثير مما ورد فى كتاب حاضر العالم الإسلامى .

وعلى الرغم من أن السيابى قد بذل جهدا لا بأس به وهو أن يؤرخ لعمان من خلال كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » ، إلا أنه نظرا لضخامة الموضوع وامتداده فقد جانبه التوفيق فى موضوعات على درجة كبيرة من الأهمية وهو يتحدث مثلا عن أعمال الإمام سلطان بن سيف ، الذى يستحق التوقف والدراسة إلا أن ما كتبه السيابى فى هذا الموضوع (أعمال سلطان بن سيف) لم تستغرق أكثر من صفحة واحدة اتسمت بالأسلوب الإنشائى وافتقدت إلى الموضوعية[2] ولعل ندرة المصادر كانت سببا أساسياً .

ومما يضاعف من صعوبة استقراء الحقائق فى المخطوطات العمانية

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوى – تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة تحقيق عبد المجيد القيسى ص ٩٨ .

(٢) سالم بن حمود السيابى ، عمان عبر التاريخ ج ٣ ص ٢٣١ .

وخصوصا فترة الصراع بين دولة اليعاربة والبرتغال تلك الأحكام العامة والجمل الإنشائية وتطابق معظم الروايات حول الكثير من القضايا .

وأعتقد أن نور الدين السالمي كان أكثر دقة في هذا المجال ، على الرغم من أنه استخدم نفس الطريقة في كثير من روايات فهو يتحدث عن جهاد سلطان بن سيف في مقاومة النفوذ البرتغالي قائلا : « لقد قام ببناء مراكب عظيمة في البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه واستولى على الجزيرة الخضراء وكلوة بات وغيرها من بلدان الشرق الإفريقي والهند كما غزا أرض فارس وأدب كل من تسول له نفسه بالعدوان »[٢] .

ويبدو من النص أن الأسلوب الإنشائي هو الغالب وأن إستقراء الحقائق ودقتها تبدو صعبة للغاية فالمؤرخ في حاجة إلى حجج تاريخية تمثلت في أسماء وأرقام وأحداث حتى يمكن الحكم بشيء من الموضوعية إلا أن هذا لا يقلل من جهد هؤلاء الرواد الذين ضحوا براحتهم في سبيل أن يقدموا ماعندهم وهـذا مما يضاعف من قناعتنا بأهمية إعادة كتابة تاريخ عمان وخصوصا في فترة دولة اليعاربة ، التي اتسمت بقدر كبير من الغموض .

وإذا كان هؤلاء الرواد قد تركوا هذا الكم الهائل من كتب التراث فبكل تأكيد فإن جيلا جديدا من الباحثين والمؤرخين عليه أن يستثمر تلك القيمة العلمية اعتمادا على ماظهر حديثا من مخطوطات ووثائق واعتمادا على منهج علمي دقيق إلا أنه من الملاحظ أن الإتجاه إلى دراسة التاريخ العماني اعتمادا على فكرة الموسوعات والشمولية في تناول القضايا كل ذلك مازال معمولا به لدى عدد من الباحثين المعاصرين وإذا كان لجيل الرواد عذره في ذلك فإن على الباحثين المعاصرين أن يعيدوا الكتابة أخذا بفكرة التعمق الرأسي بهدف الدقة والتحقيق .

---

(٢) نور الدين السالمي ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٢٦ .

وتبدو الفكرة الدينية واضحة عند السيابي في كل ما كتب وبكل تأكيد فإن ثقافته الإسلامية الواسعة كان لها أكبر الأثر على طريقته، حيث أراد أن يؤرخ لعقيدته الدينية بطريقة تدفع القارىء إلى تتبع ما يريد أن يقوله دون كلل أو ملل ولذا فقد اختار التاريخ وسيلة لتحقيق هذا الهدف وهو يؤكد على هذا المعنى قائلا : « ولتعلم أيها القارىء أننا إذ نكتب التاريخ نريد فجعله وسيلة لتثقيف الناس بالحقائق الروحية »(١) .

ويبدو أن السيابي لم يغفل أهمية التاريخ كتراث ثقافي وإنساني له أكبر الأثر على حياة الشعوب إضافة إلى أهمية التاريخ كتجربة إنسانية جديرة بالمحاكاة والعبر ولعله كان مدركا لهذا البعد حيث ظهر بشكل واضح من خلال كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » .

وعلى الرغم من أن كتابات السيابي وخصوصا كتابه الشهير « عمان عبر التاريخ » لا يضيف جديدا عمن سبقه من أمثال الشيخ السالمي أو ابن رزيق الأزكوي إلا أن الجديد الذي ميز السيابي هو فهمه الحقيقي لمقولة ابن خلدون الشهيرة بأن علم التاريخ نظر وتحقيق وعلم بالكيفيات والوقائع وأسبابها . ولذا فقد تميزت كتابات السيابي بقدر لا بأس به من المنهجين وخصوصا في تحليل كثير من الظواهر ومحاولة نقد بعض الروايات ونبذ الفكرة القديمة القائلة بأن التاريخ عبارة عن حكاية لا تخضع للنقد أو التحليل(٢) .

ولعل مما يضاعف من قناعتنا بأن السيابي كان واعيا للفكرة التاريخية قوله : « إن ميدان التاريخ أوسع الميادين وأن مادته متسعة كاتساعه ، فإن موضوعه القضايا البشرية وهي عديدة لا تكاد تدخل تحت حصر ولذا فقد صار التاريخ قانون سياسته وعنوان رئاسته »(٣) .

---

(١) السيابي ، مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢٦ .

(٢) سالم بن حمود السيابي ، عمان عبر التاريخ ج ١ ص ٢٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦ .

وعلى الرغم من هـــذا الفهم الواعى بطبيعة التاريخ ودوره إلا أننا لانستطيع أن نقول بأن السيابى قد ترجم ذلك بشكل ملحوظ فى كتاباته التاريخية ، حيث إقتصرت اهتماماته على الأعلام فى قضايا الدين والسياسة دون أن تكون للقوى البشرية مكانة بارزة فى كتاباته فهو يكتب عن ملوك عمان وأئمتها ، وعلمائها دون أن يذكر لدور الناس ، الذين صنعوا الأحداث وأسهموا فيها بشكل لافت .

وإذا كان السيابى قد أخذ بفكرة نقـــد الروايات وتحليلها فى بعض كتاباته ، حيث ظهر ذلك بشكل ملحوظ حينما إعتمد على كتاب « حاضر العالم الإسلامى »[1] حيث تصدر لتحقيق كثير من الروايات التى وردت فى هذا الكتاب إلا أن هذا المنهج يتبدد حينما يكون السيابى بصدد نقل رواية للسالمى فهو ينقلها على أنها حقيقة مجردة ، وعلى الرغم من تقديرنا لأهمية كتاب السالمى « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » إلا أن هناك الكثير من القضايا ، التى كانت فى حاجة إلى قدر من التحقيق ومقابلتها بغيرها من الآراء ووجهات النظر الأخرى وهو أمر أساس فى المنهج العلمى السليم .

ولما كانت قضية الإمامة تمثل أهمية كبيرة فى فكر السيابى فقد أفرد لها أهمية خاصة ، حيث نجح بشكل ملحوظ فى تتبع تاريخها وفترات ضعفها وقوتها وكان موفقا فى عرضه ومناقشته للعديد من موضوعات الفقه الإباضى من خلال حديثه عن أئمة المذهب وبينما تتطابق الكثير من الروايات التاريخية عند الأزكوى والسالمى وابن رزيق ينفرد السيابى برؤية معاصرة معتمدة بلا شك على من سبقه إلا أن أسلوبه وتحليلاته فى بعض الأحيان قد اكسبتها قدرا لا بأس بها من الدقة .

---

(١) لوثروب ستودارد « حاضر العالم الإسلامى » ترجمة عجاج نوى هيـد ، تحقيق شكيب أرسلان .

يبدو ذلك بشكل أكثر وضوحا فى الجزئين الثانى والثالث من كتاب « عمان عبر التاريخ » فبينما يتحدث عن سلطان بن سيف، ينقل فقرات كاملة من كتاب « حاضر العالم الإسلامى »[1] تتناول انتصارات الإمام سيف على البرتغاليين وكيف أنه أجلاهم عن عمان وتعقبهم إلى الهند ثم ينقل السيابى عن السالمى ، يفهم بأن كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين قد أغفل من جانب المؤرخين .. وهو اعتراف من الشيخ السالمى بأن المعلومات التاريخية عن أئمة اليعاربة ليست كافية .

وعلى الرغم من أن السيابى قد أتيحت له مصادر أفضل عند اليعاربة إلا أنه لم يأت بجديد أكثر مما أتى به نور الدين السالمى ومن ثم جاءت كتاباته فى هذا الموضوع بالذات تكرار مع شيء من التصرف .

وعلى العموم فإن ما كتبه السيابى عن تاريخ عمان مع بداية القرن السادس عشر الميلادى وحتى منتصف القرن السابع عشر فى أشد الحاجة إلى مزيد من الاهتمام ، نظرا لأن ما كتب عن هذه الفترة لا يتناسب بأى حال وأهمية الدور الذى بعد اليعاربة والذى بدت نتائجه، على كل المستويات ولذلك فإن فترة كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين ، فترة غنية فى التاريخ العمانى وأعتقد أنها لم تكتب بعد ولعل ما كتبه السيابى يعد أساسا لكتابات لاحقة على ضوء ما يظهر من وثائق ومخطوطات .

ولعل الوحدة القومية التى حققها أئمة اليعاربة كانت السبب المباشر لكل الإنتصارات التى أحرزها العمانيون ضد البرتغاليين وهى قضية لم يلتفت إليها كثير من المؤرخين ، حيث أدرك أئمة اليعاربة حقيقة التيارات السياسية كاملة وراحوا يخوضون حربا ضارية على المستويين الداخلى والخارجى ، وكلما حققوا قدرا من الإنتصارات فى سبيل توحيد عمان راحوا يواجهون هدوء القابع فى المناطق الساحلية وبقدر ما كانت عليه الجبهة الداخلية تشهد

(١) حاضر العالم الإسلامى ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٤٥ .

هدوءا نسبيا كانوا يواجهون عدوهم فى كل من صور ومسقط ومطرح وفى كل القلاع والحصون العمانية .

وعلى الرغم مما كتبه السيابى فى هذا المجالات والذى استغرق صفحات طويلة من الجزئين الثالث والرابع (عمان عبر التاريخ) إلا أن جوانب هامة عن تلك الفترة ماتزال فى حاجة إلى جهد كبير من الباحثين والمؤرخين نظرا لندرة المراجع والمصادر ، التى عالجت تلك الفترة الهامة من تاريخ الشعب العربى العمانى .

ولعل عام التقادم قد ألقى قدرا كبيرا من الغموض عن تلك الفترة الهامة من تاريخ عمان بحكم أحداث تلك الفترة قد وقعت خلال القرن السادس عشر ومنتصف السابع عشر الميلاديين ولم تسجل الأحـــداث على نمط كتابات ابن إياس أو الجبرتى ولم تحفظ الأوراق أو المذكرات أو الرسائل من الجانب العمانى ولذا فقد جاءت المصادر البرتغالية بما تحمل من مبالغات وافتراءات مصدرا لا يستهان به فى تحقيق هذا الصراع .

ولذا فإننا نقدر صعوبة المهمة التى قام بها السيابى فى كتاباته عن تلك الفترة ، ولا يخفى على أحد خطورة الاعتماد على وجهة نظر واحدة شاركت كطرف مباشر فى صنع الأحداث وهكذا بقيت وجهة النظر العمانية غائبة وعلى الرغم من أن كتابات السيابى فى هذا المجال لا تحقق طموحات البحث العلمى الجاد حيث أغفلت موضوعات هامة وتفاصيل تتعلق بطبيعة الصراع إلا أنها على الرغم من تواضعها فهى بكل المقاييس تعد وجهة نظر على درجة كبيرة من الأهمية بعكس المصادر البرتغالية ، التى اعتمد عليها عدد كبير من المؤرخين العرب والأجانب وهى عبارة عن تقارير لسير الأحداث وأوراق تمثل تقارير يومية تفاصل ورحالة أجانب وهى فى مجملها تمثل وجهة النظر الأخرى ، التى لا يمكن الاعتماد عليها إلا بحذر شديد فهى تحمل قدرا كبيرا من المبالغة والتهويل لسبب بسيط وهو أن كاتبها لا يمكن أن يتجرد

من دوافعه الشخصية والوطنية لأن القائد الذي يتصدى لمواجهة عدوه قد يبالغ في حجم قوته بهدف أن تسارع دولته إلى إمداده بالجند والعتاد أو قد يهدف إلى من يرفع من شأن نفسه أو قد يحاول تبرير هزيمة لحقت به كما أن المسئولين عن سير المعارك لا يمكن أن يكتبوا لقيادتهم بما يدينهم أو يحملهم قدرا كبيرا من المسئولية .

ولعل هذا القول لا ينطبق على الوثائق بشكل عام، حيث تختلف طبيعة كل وثيقة من حيث موضوعها ومن حيث عامل الزمن الذي يشكل عنصرا هاما في تفسير الوثيقة .

فالوثائق التي تتناول الحقائق مجردة كالتقارير الإقتصادية مثلا تختلف عن التقارير السياسية التي قد يحكمها عامل نفسي يختلف من شخص لآخر وهذا ينطبق على الوثائق القديمة والحديثة معاً .

أما عامل الزمن كعنصر أساسي في الوثيقة فإن له أهميته الكبيرة فوثائق القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين مثلا تختلف من حيث أهميتها العلمية عن وثائق للقرن العشرين وكذا العقد الأول من القرن العشرين تختلف عن العقد الثامن نفس القرن .

فالقائد الذي يكتب لقيادته أثناء قيادته للوحدات العسكرية في مياه الخليج مع مطلع القرن السادس عشر تحكمه أثناء كتاباته اعتبارات نفسية ودينية ووطنية تمول قيادته أهمية كبيرة عليها بعكس القائد الذي يكتب لقيادته في القرن العشرين فهناك الكثير من الآراء ووجهات النظر التي تحكم قرار القيادة وبالطبع فلن تكون القرارات معتمدة على وجهة النظر العسكرية الخالصة فهناك المعاملات السياسية والقانونية والاعتبارات الدولية التي تشكل طبيعة الصراع وهي في مجملها تتحدى المصلحة بشيء من الموضوعية لتقييم حقيقة الأشياء دون الاعتماد على وجهة نظر واحدة التي تكون غالبا قاصرة عن توصيف الأحداث وتقييمها ووضع الحلول لها .

وهذا ينطبق بشكل ملحوظ على كتابات القناصل والرحالة الأجانب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر مثلا وهذا النقـــد الموضوعى الخالص عن بعض .

ولذا فعلينا ألا نبالغ فى أهمية ما كتبه الأجانب عن تاريخنا ، بل علينا ألا نرفضها وإنما نقبلها بحذر شريطة أن نضعها فى مكانها المناسب مع غيرها من الآراء والكتابات الموضوعة الأخرى ، حتى يكون الحكم على الأشياء موضوعيا فى أساسه منهجيا فى طريقته .

واعتقد أن ما كتبه السيابى عن تاريخ عمان وطنا وعقيدة وشعبا يجب أن موضع فى إطارها الصحيح بجانب غيرها من الآراء ووجهات النظر الأخرى .

ولعل ما كتبه السيابى كان نتاج جهد شخصى ، حيث رجع إلى بعض المراجع العربية حيث إستق مادته العلمية ولا نستطيع أن نقر بأنه قد رجع إلى كل المصادر والمراجع ولذا فإن هناك فترات تاريخيه قد تناولها على عجل شديد ومن المؤكد أن افتقاد المراجع كان عاملا هاما فى تلك القضية .

وعموما فلا يمكن إلا أن نقر بأن كتابات السيابى ستبقى أساسا لكل من يريد أن يتخصص فى تاريخ عمان ولا يمكن إغفالها وسواء أكان منهجيا فى كتاباته أو مجتهدا فى رؤيته فإن الرجل بكل المقاييس قد اجتهد قدر طاقته ومن إجتهد فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران .

والله نسأل العون والتوفيق ؟

أهم المراجع التى إعتمد عليها البحث

١ - ابن إياس (محمد بن أحمد) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق د/ محمد مصطفى جـ ٣، ٤، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

٢ - د/ أحمد شلبى، كيف تكتب بحث أو رسالة، القاهرة سنة ١٩٧٨م .

٣ - إدوارد كار، ما هو التاريخ؟ ترجمة د/ أحمد حمدى محمود، القاهرة سنة ١٩٦٢م .

٤ - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، القاهرة سنة ١٩٣١م جـ ٣ .

٥ - أسد رستم، مصطلح التاريخ، بيروت سنة ١٩٥٥م .

٦ - إبن خلدون، المقدمة دار الشعب، القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٧ - بيريل سمالى، المؤرخون فى العصور الوسطى ترجمة د/ قاسم عبده قاسم القاهرة سنة ١٩٧٩م .

٨ - حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين، سلطنة عمان سنة ١٩٧٧م .

٩ - د/ حسين نصار، نشأة التدوين التاريخى عند العرب .

١٠ - د/ سيدة الكاشف، علم التاريخ عند المسلمين، القاهرة سنة ١٩٧٥م .

١١ - سيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون عند العرب، الإسكندرية سنة ١٩٨٧م .

١٢ - سلمة بن مسلم العوتبى، الأنساب جـ ١، ٢ من مطبوعات وزارة التراث القومى سلطنة عمان سنة ١٩٨٤م .

١٣ - سالم بن حمود السيابى، عمان عبر التاريخ، أربعة أجزاء، سلطنة عمان سنة ١٩٨٦م .

١٤ - سالم بن حمود السيابى، العنوان فى تاريخ عمان .

١٥ - » » » » ، الحقيقة والمجاز فى تاريخ الإباضية باليمن والحجاز

١٦ - سالم بن حمود السيابى ، الإسعاف فى التاريخ العمانى .
١٧ - » » » » » ، إزالة الوعثاء فى أتباع أبى الشعثاء .
١٨ - » » » » » ، طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الأباضى .
١٩ - د / شاكر مصطفى ، التاريخ العرب والمؤرخون جـ ١ بيروت سنة ١٩٧٨ م .
٢٠ - د / عبد الرحمن بدوى ، بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت سنة ١٩٦٠ م .
٢١ - د / عماد الدين خليل ، التفسير التاريخى بيروت سنة ١٩٧٥ م .
٢٢ - قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ بيروت سنة ١٩٥٩ م .
٢٣ - لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامى ترجمة عجاج نويهض تعليق وتحقيق شكيب أرسلان ، طبعة سنة ١٩٦٣ م .
٢٤ - محمد شفيق غربال ، أساليب كتابة التاريخ عند العرب ، مجلة مجمع اللغة العربية مجلد ١٤ سنة ١٩٦٢ م .
٢٥ - محمد عبد الغنى حسن ، التراجم والسير ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
٢٦ - نور الدين السالمى ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٤ م .

الصور الصخرية الحائطية ودلالاتها المناخية على العصر المطير بالنطاق الصحراوى

بقلم الدكتور

طلعت أحمد محمد عبده

مقدمة :

اتجهت الدراسات الجغرافية لعصر ماقبل التاريخ إلى دراسة المخلفات الأركيولوجية البشرية ، وفى نفس الوقت تغافلت عن دراسة إحدى المخلفات البشرية المتعلقة بالرسوم الصخرية الحائطية Rock — Drowings بالنطاق الصحراوى من العالم بالرغم من أن معظم ما كتب فى الجغرافيا التاريخية لتلك الفترة كان يشير إليها دون تركيز علمى وافى عنها . ومن هنا تناولها الباحث بقصد إبراز أهميتها الجغرافية ، ومن أجل إلقاء الضوء على ما يكمن خلفها من دلالات مناخية .

ولقـــد جذب انتباه الباحث فى مجال دراسة مجموعة الصور الصخرية بالصحارى أمران: الأول هو، احتواء منطقة دراساته فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه ومابعدهما بالصحراء المصرية الشرقية على عدد وافر منها فى مواضع كانت تشهد أحوال هيدرولوجية مغايرة لمناخها الحالى .

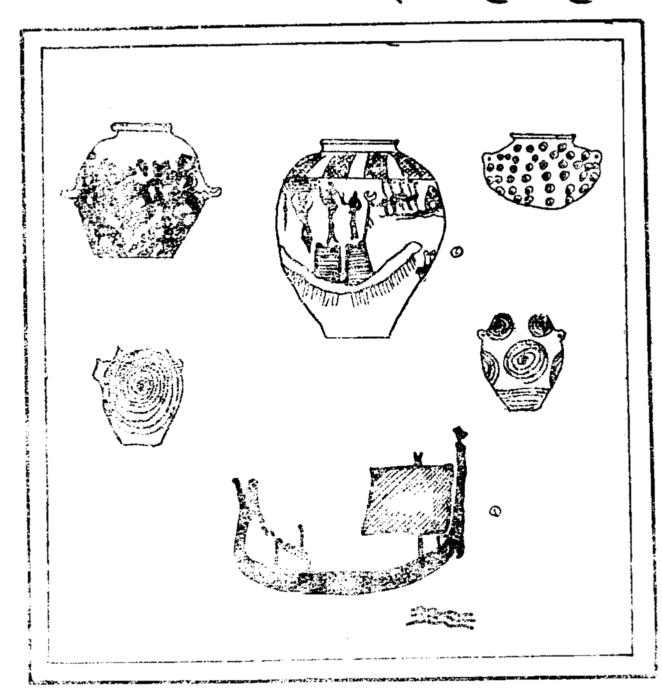
الثانى هو ماتعلق بالمدة التى قضاها بجامعة روما (قسم الدراسات الأثرية القديمة لعصر ماقبل التاريخ) والتى أفادته فى حل ، غموض ، مجموعة صوره ، بالرغم من أن رسوم جامعة روما كانت تتعلق « بصحراء ليبيا » ، حيث تبين له أن تلك الصور ليست سوى « ارهاصا ، أولى للكتابة[1]. بحيث

(1) William Howlls : Back of Histry, New York, 1954, p p. 442 — 443.

peake & Fleure : « peesants and Potters » London, 1927, p. 101.

عرفها كل من « هارولدبيك وجون فاير » بأنها فترة التعبير البيكتوجرافى Pictography من خلال « الصور المرسومة » تلاها مرحلة استخدام للعلامات الدالة على أشياء معينة وهى التى « عرفت بالايدوجراف Ideograph »[1] .

لذا كانت المحاولات التصويرية بداية لإظهار أفكار خاصه بعصر ماقبل التاريخ وارتبطت أساسا بمناطق عاصرت نشاط إنسانه ، فكانت ممثلة على جدران الصخور وألواح الطين اللدج بعصى أسفينية الطرف نتج عنها « الخط المسمارى Wedge—Shaped or Cuneiform » الذى تميزت به بيئة ما بين النهرين القديمة ، ولجأ إنسان عصر ماقبل التاريخ فى مرحلة متقدمة منه إلى سطوح الأوانى الفخارية ناعمة الملمس Smooth pottary لاستخدامه فى الرسم والزخرفة وبالتالى تميز بمكانة الشخصية منها « بالبيكتوجراف » . (شكل رقم ١ الذى يوضح نماذج لذلك) .



(شكل رقم ١) سطح الفخار الناعم أحد الوسائل للتعبير (البيكتوجرافى)

(1) Brentjes, Burchard : African Rock Art, Translated by Antony Dent, First Published, Roma, 1969, p.p. 1 — 3.

وعن أهمية الصور الصخرية بالصحارى نجـــد بركارد برنتيج Burchard Brenties (عام ١٩٦٩) يعلق عليها بقدرتها إلى الكلام رغم وقوعها فى بيئـــة لا يملؤها سوى الفراغ فى رأى مرى عام (١٩٥ م) Murray (G. W.) بقوله (إذا كان الموتى صامتون . . فصخور الصحراء يمكن أن تتكلم) .

(1) The dead are silent ... but the rocks can speak.

ويضيف إلى ماسبق جوزيف ك زربو (عام ١٩٨٠ م) عندما يرى أن هذه الصور « بمثابة جسر بين الحقيقة والفكرة » باعتبارها سلسلة من الصور الرمزية لا تحتاج إلا لمفتاح بقصد قراءتها والإلمام بها ، كما أنها ترتبط فى رأيه بإيضاح بعض ملامح الحياة لمجتمعات قديمة داخل بيئاتها الطبيعية ، التى لا ترتبط مواضعها بآثار قائمة (أركيولوجيا) ، بل بمواضع تحدد بقلب النطاق الصحراوى . لهذا يرى « بركارد برجنتس » إضافة إلى ماسبق ، أن الفن الإفريقى القابل للنقل Portable Art ,Art Mobilier وقع فى فترة خضوع أجداد الأفارقة لسيطرة الدول الاستعمارية ، أسير مستودعات دور الآثار والمتاحف بأوربا وأمريكا ، ويوحى ذلك لمن يتطلع إليه بفداحة ماخسرته أفريقيا من ممتلكات ثمينة ويفقد أهلها الكثير من إحساسهم بالماضى أو الشعور التاريخى[٢] .

Lose thier — sense of the past or Historical conciousness.

وعند هذا الحد تظهر أهمية الصور الصخرية بالمرتفعات الجبلية والداخلية من الصحارى ، فهى بالرغم من وقوعها فى مناطق خرساء بكماء Dum & Deaf

(1) Murray (G.W.) : « The Egyptian Deserts and Its Antiqnity » Survey Department (Egypt), Paper No. 49, p p. 10—11.
— Brentjes, Burchard : opcit, p. p. 1—3.

(٢) جوزيف (ك) زربو : « فنانو العصر الحجرى الحديث » النقوش الصخرية التى تحمل صورة موجزة لعصر ماقبل التاريخ فى أفريقيا — مجلة اليونسكو الشهرية / عدد رقم ٢١٩ ، ٢٢٠ (أكتوبر — نوفمبر) باريس ١٩٧٩ م ، ص ٢٧ ، أيضا .
Brentjes, Burchard : Locit.

ثابتة Immitable على طول فترات زمنية متغايرة ، . إلا أنهما غير ذلك لمن يستقرأها ، فهي وبما تحمل لنا « رسالة » تعرض الحظ العثر للفن الإفريقي .
(misery of the Afrcian past) ! !

وقد أمكن للصور الصخرية بأسطح الصخور الصلبة أن تقوم بدور متاحف تعويضية Galleries للفن الإفريقي القديم . بحيث ساهم في بقائها أنها من المواد الأثرية الثابتة ، بحيث لا تنقل ولا تسرق ولا تقتطع بل تظل مرتبطة بمواطنها الأصلية ، كما اكسبتها الجبال بالصحارى مناعة عندما حافظت عليها ، ودليل ذلك ما أشارت إليه دراسات فنكار Winkler عام (١٩٣٨ م) بصحارى مصر ، ودراسات فورد جونستن لشمال أفريقيا (١٩٥٩ م) ، ثم دراسات الجزيرة العربية . في جنوبها برين دو Brain Doe وفي شمالها وبإقليم الحجاز دراسات موسيل musil (A .) وشمال سكا كا دراسات فان دي براندن Van den Branden ، ثم في إقليم نجد دراسات كل من هوبر Hobber ويوتنج . كما حظى إقليم صحـــراء كلهارى بدراسات بركارد برنتج ، أما صحارى العالم الجديد في أمريكا الشمالية فقد استحوزته دراسة هاري كروصي بصحراء كاليفورنيا وكان حصيلة ذلك كله التعرف على العديد منها رغم أننا لازلنا غير مدركين بما لم يتم كشفه منها حتى الآن بدليل المحاولات العلمية الدائبة للفرنسيين بمرتفعات تاسيلي والإيطاليون بمرتفعات فزان، وكذلك ماظل منها مختفيا تحت الإرسابات الرملية بالصحارى ناهيك عما يعمن بعض سكان ذلك النطاق في إخفائه عن الباحثين لاعتقادهم فيه بأنه أحد مقدسات أجدادهم الدينية والقبلية Religios prejudic(*).(1) .

---

(1) Brentjes, Burchard : Ibid, 1—3.

(*) تنطبق في هذه الحالة على مخلفات الصور الصخرية (لأجداد البوير Boer وعاولتها إخفائها عن الرحالة الألماني (موزيك Moseik) وغيره من الباحثين ؛ في هذا المجال أنظر :

Brentjes, Burchard : Locit.

ورغم تعدد الدراسات للصور الصخرية ورغم تعدد ثمره ذلك الكشف بالنطاق الصحراوى(*) ، إلا أن مجموعة الصور الصخرية لها دلالة خاصة من الناحية المناخية فهى ترتبط أساسا بأحـــداث عصر المطر أو الفيضان الكبير The Pluvial Age أو الديلوفيوم Diluvium الذى شاهدته الصحارى فى عصر البلايستوسين . ومن هنا كانت موضوعات هذه الصور ذات دلالة مناخية « كامنة خلفها » : لذا فهى تجذب اهتمام الباحث فى مجال جغرافية عصر ماقبل التاريخ ، بقصد التركيز على هـــذا الاتجاه باعتبارها رسوم « تناقض فى مجملها صفة الجفاف » فهل ياترى كانت محض خيال Phantasy راود الإنسان فى بيئتها كرد فعل عن الجفاف والعطش الذى يتعرض له الآن فى مناخ الصحارى ؟

أم أنها رسوم تحول حول « الحنين » الذى يجمع أهل البادية حول هدف واحد هو « العثور على المـــاء » باعتباره أثمن الممتلكات فى الصحارى (**) ؟

لهذه الاعتبارات السابقة تناولت الجغرافيا التاريخية إبراز تلك الدلالة المناخية من خلال هذا البحث باعتبارها علم (إعادة تصور الأحوال الجغرافية القديمة[1] ولأنها أحد فروع علم الجغرافية التى تعنى بدراسة الظواهر الطبيعية

(*) أمكن التعرف على ٣٠٠٠٠ صورة صخرية بأفريقيا ، استأثرت منها مرتفعات جنوب الجزائر على ١٠٠٠٠ صورة صخرية

(**) يدلل على قيمة الماء بالصحارى بمثال من واحة « دشت كفير » بإيران ، حيث يحدد نصيب الفرد منه « زمانيا » بحوالى ٦ دقائق فى الأسبوع . ويقوم صراف الماء بالتوزيع من خلال « الساعة المائية » (فى هيئة وعاء نحاسى به عدة ثقوب) بحيث تملأ بالماء مرة واحدة وتفرغ فى إناء « طالب الماء » . أنظر : صلاح الدين بحيرى : جغرافية الصحارى العربية ، عمان ١٩٧٩ ، ص ٢٥٩ .

(1) Brooks (C.E.P.) Climate through the Ages, New York, 1970, p. 263.

والبشرية عبر فترة زمنية ... أو عدة فترات زمنيـــة متتابعة ... أو هى « جغرافيات الماضى »[١] .

ولقد أتبع الباحث فى مجـال دراسته « المنهج الأصولى Systematic Approach. للجغرافيا التاريخية ، حيث تتميز الظاهرة بتوزيعها داخل النطاق الصحراوى الحار والجاف بالعالم القديم والحديث ، فالظاهرة متسعة الرقعة ، متباعدة التوزيع داخل نطاق العالم القديم والجديد وكلها تجمعها تساؤلات واحـــدة ، وفترة زمنية متحدة من جهة ، ولـكن ثبت بالبحث والدراسة أن هناك فارق بين رسوم النطاق الواحد من حيث ما تعبر عنه من موضوعات، ومن جهة أخرى لم يتمكن سوى هذا المنهج من دراستها وإجراء مقارنة غير مباشرة بينها لتتضح أمام الدارس والقارىء .

ورغم ذلك فقـــد ركز البحث بصورة أوضح على مساحات النطاق الصحراوى بعالمنا الإسلامى والعربى فى كل من الصحراء الـكبرى وصحراء جزيرة العرب ولم يمكنه من دراسته هنا أيضا سوى المنهج الأصولى لما للظاهرة من انتشار واضح داخل تلك الأقاليم الصحراوية .

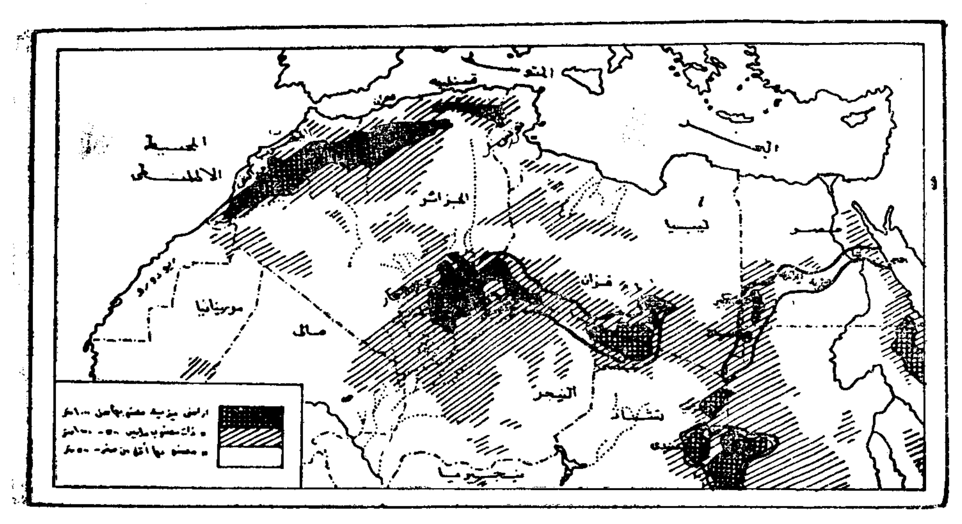
توزيع نطاق الصور الصخرية بالصحارى العربية

يشير التوزيع العام للصـــور الصخرية عبر النطاق الصحراوى بشمال أفريقيا إلى اتساع نطاق هذه الرسوم ، بحيث تشغل النطاق العرضى الـكبير للصحراء الـكبرى ابتداء من شرقها وشمالها الغربى إلى قلبها أو وسطها حتى حدودها الجنوبية[٢] .

---

(1) Preston James ;·American Geography Inventory and Prospect., Washington, 1954, p.p. 1 - 8.

(2) Huzayyin, (S. A.) « Some new light on the Beginnings of Egyptian Civilzation » Extrait du Bulletin de la Societé Royàle de Geographie d'Egypte, (T. XX) 1939. pp. 212 — 216.



(شكل رقم ٢)
محاور اتجاهات الرسوم الصخرية بشمال أفريقيا الصحراوى
(المحور الشرقى ، المحور الغربى)

وتواصل الرسوم الصخرية امتدادها الشرقى عبر البحر الأحمر - رغم وجوده - لتظهر لنا ممثلة فى مجموعة الرسوم والنقوش « الثمودية » بالجزيرة العربية ، حيث كان موطن الثموديين طبقا لما جاء فى النقوش المسمارية العراقية التى ترجع إلى عهد سارجون الثانى ، ولقد أرخ هذا الخط بعام ٧١٥ ق . م وتميزت النقوش والصور الصخرية بشبه الجزيرة بانتشارها فى الجنوب وفى الشمال وإقليم الحجاز الشمالى ، ثم وجدت فى هضبة نجد ، ومازالت أرض شبه الجزيرة تخفى العديد منها الذى يعود للثموديين أو ربما لما بعدهم . ومثال ذلك ماعثر منها فى حفائر الفار ، بمنطقة قرية فو ، جنوب غرب الرياض الحالية بحوالى ٧٠٠ كم .

كذلك رسوم فى جنوب أفريقيا إضافة لرسوم صحارى جنوب غرب أمريكا الشمالية وسوف نوالى الدراسة بشكل أكثر تفصيلا على النحو التالى :

أولا : الرسوم الصخرية بشمال أفريقيا :

أوضحت دراسات فورد جونستن Forde Johnston (عام ١٩٥٩ م) اتجاهات نطاق الرسوم الصخرية بشمال أفريقيا ، فهي تتمثل في محورين الأول ذو اتجاه شرقي ، والثاني ذو اتجاه غربي . وتبدأ نقطة تلاقي المحورين السابقين من منطقة شمال دارفور وعيندى . خريطة (شكل رقم ٢) .

وهكذا من النقطة السابقة يتجه المحور الشرقي نحو جبل كيسو جنوب العوينات بحوالي ١٥ ميل ثم جبل اركنو وتلال فرغنده ، التي تبعد عن غرب العوينات بحوالي ٦٠ ميلا متجها إلى هضبة الجلف الكبير[1] .

ويرى الباحث أن هذا النطاق يعاود ظهوره مرة أخرى في الواحتين الداخلة والخارجة الواقعتان غربي نهر النيل الحالي ، ثم يعبر النيل ، ليصل في امتداده مابين قنا والقصير الحاليتين ، أي أنه يمتد ليخترق صحراء مصر الغربية والشرقية . عند الأخذ في الاعتبار دراسات فنكلر التي قام بها عام (١٩٣٨)[2] .

كما يتمثل المحور الغربي للرسوم الصخرية بالصحراء الكبرى وشمال أفريقيا حيث يبدو في تبستي وازان Ezzan ، (وتاسيلي الاجر) Tassili de Ajjers وفي فزان Fazzan والاحجار وأير بالإضافة إلى أدرار أهنيت Adrar Ahnet . تلك المناطق التي كانت بمثابة جزر مطيرة في رأى كنيث والطون (عام ١٩٨٧ م) رغم صعوبة جفافها الحالي[3] . ويلاحظ أن هذا المحور يتفرع بدوره إلى فرعين إحداهما يتجه شمالا بشرق ليضم الرسوم الصخرية في تونس وقسطنطينة والجزائر والمغرب ، بينما الآخر يتجه

(1) Forde (J.L.) Johnstone : « Neolithic Cultures of North African » Liverpo University Press .. 1959. pp. 78 -- 79.

(2) Winkler, Hans (A.) Rock Drawings of Southern Upper Egypt Part I. London. 1938, pp. 3 -- 9.

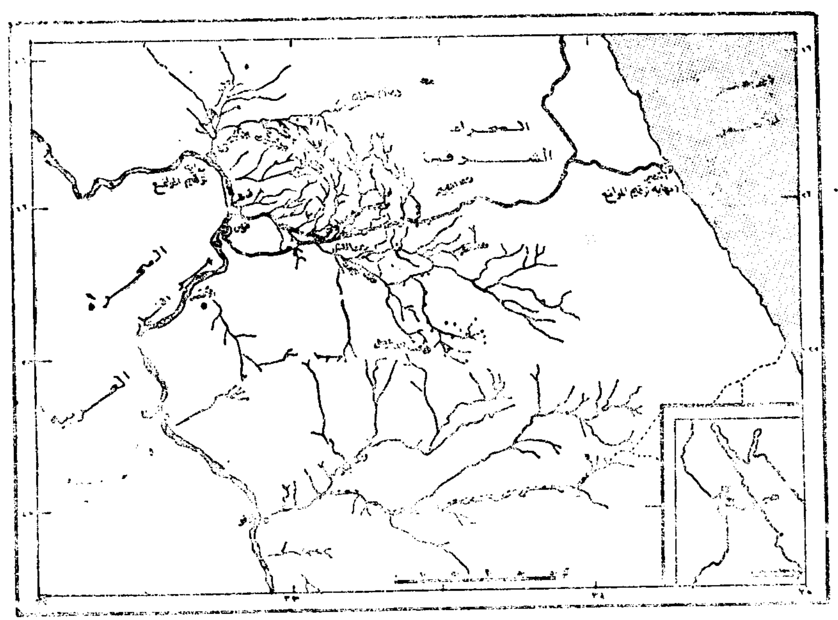
(٣) كنيث والطون : الأراضي الجافة . ترجمة علي عبد الوهاب شاهين . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت (١٩٧٨ م) ص ٨٠ – ٨١ .

إلى غرب الصحراء الكبرى بحيث يشمل المنطقة الممتدة بين الجزائر وموريتانيا (منطقة غرب الصحراء الجزائرية) وجنوب المغرب، حيث عثر على عدد كبير من مواقع الصور الصخرية هناك[1]. (انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ٢).

موضوعات رسوم المحور الشرقي :

اهتمت موضوعات هذا المحور بتصوير مراحل حضارية وثيقة الصلة بالظروف المناخية التي عاصرتها بيئة الصحراء الشرقية بمصر، ولقد أشارت البعثة العلمية لروبرت موند Robert Mond إلى أن عدد المواقع بهذا الجزء من المحور الشرقي بلغ حوالي (٣٠) ثلاثون موقعا على الأقل، لعام ١٩٣٦-١٩٣٧م.

ولقد ارتبطت هذه المواقع بمجموعة الأودية الجافة المتجهة من وسط الصحراء المصرية الشرقية إلى وادي النيل عند قفط الحالية (خريطة شكل رقم ٣ - أ).



(شكل رقم ٣ أ) توزيع مواقع الرسوم الصخرية بالصحراء الشرقية على طريق قنا القصير بمصر — عن فنسكار —

(1) Ford (J. L.) Johnstone : « Neolithic Cultures of North African ». pp. 78 – 79.

ومن هنا فهى قد ارتبطت بأقصر طريق بين النيل والبحر الأحمر، والذى يعد خاصرة الصحراء المصرية الشرقية فى رأى جمال حمدان (عام ١٩٧٠ م) ويمتاز بجوانب الأودية المكونة من الصخور الرملية والعديد من الآبار الجوفية ولقد بدىء بترقيم المواقع فيه ابتداء من قنا على النيل إلى القصير على ساحل البحر الأحمر، وأكملت أرقامها من رسوم الجانب الغربى للنيل إلى حيث رسوم الواحة الخارجة بالصحراء الغربية بمصر.

ولقد أمكن تقسيم موضوعاتها شمال وجنوب طريق قنا القصير كالآتى :

ـ رسوم حيوانية : لحيوانات الاستبس العاشبة كالماعز الجبلى Ibex، والحمير البرية Wild Asses، وبقر الوحش Antelope والمـــاعز البربرى Barbay Sheep، والزراف، والفيلة، والغزال.

وكلها حيوانات يطلق عليها حيوانات البيئة العاشبة The Fauna of Grassy Iand

ـ والحيوانات المائية، كأفراس النهر Hippopotamus والتماسيح، باعتبارها مرتبطة بالمياه A quatic Animals. (شكل رقم ٣ ـ ب).

ـ مجموعة الحيوانات اللاحمة، وهى التى تتمثل فى النمر الأرقط Leopard أو القطة المتوحشة.

ـ مجموعة الطيور، كالنعام، والأوز، والديك والرومى Bustard والغراب Raver، ومالك الحزين Heron.

ـ الكلاب التى كانت تستخدم فى الصيد والرعى.

ـ رسوم نباتية قليلة، ارتبطت بالقوارب المائية المقترنة بشجرة النخيل.

ـ رسوم متعددة للقوارب، مرتبة بالأفراد أو خالية منهم. (شكل رقم ٤ ـ أ).

ـ رسوم بشرية للأفراد وهم يقومون بالصيد أو الرعى أو بالملاحة.

ولقد أمكن العثور على نماذج ذلك بوادى المتيولا وفروعه مثل وادى أبو قاو، وفى مواقع وادى الموية وفروعه Wadi Meweh التى بلغ عددها عشرة، وفى وادى العطوانى - فروعه .

كما عثر عليها فى جنوب طريق قنا القصير، ممثلة فى أودية، القش . ووادى أبو واصل، الذى أشارت إليه دراسات بيركارد برجنتز عام(١٩٦٩) وذكرت تفرده بميزة وصول المؤثرات الآسيوية المرتبطة بالفترة أو الدور المطير الثانى بالصحراء الشرقية . ولقد برزت فى وصول المستأنسات القادمة من جنوب غربى آسيا (كالأبقار والكلاب) التى تكررت صورها بالموقع خاصة الكلب من نوع Gryhonnds ، الذى تم استئناسه لأول مرة فى غرب آسيا منذ (١٠ - ١١ ألف) سنة مضت ، ويوجد الآن لدى قبائل الطوارق بصحارى وسط أفريقيا . ولهذا يعلق عليه بيركارد برجنتز عندما يقول : « أن مثل هذا الحيوان لا يأتى بمفرده من موطنه وإنما جلبه الإنسان من آسيا إلى أفريقيا » .

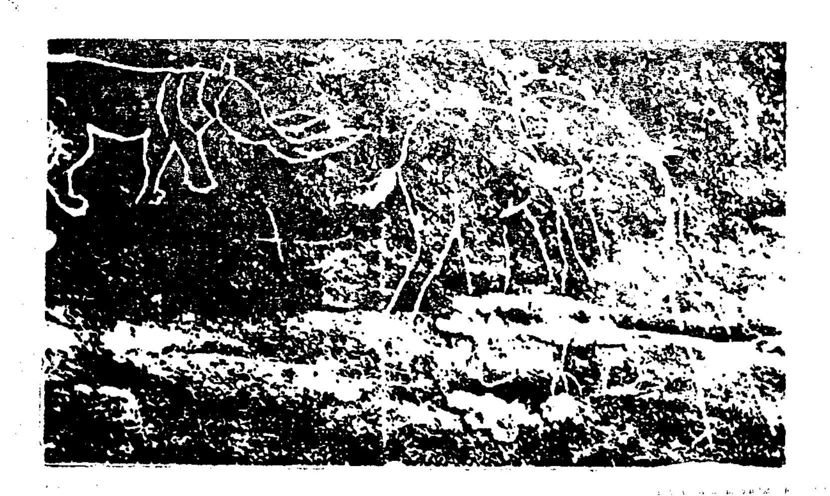
كذلك بالنسبة للأبقار ذات الأصل الآسيوى فقد حلبها ورعاها فى الصحراء الشرقية المصرية إنسان هذه الفترة، بل ولقد بلغت أهميتها لديه فى ملكيتها عندما كان يميزها بعلامة خاصة، لهذا فالأبقار فى وادى أبو واصل لا يزيد تاريخها عن ٩ آلاف عام مضى .

ويعلق على ماسبق بيركارد برجنتز بأن الاقتصاد الرعوى الجديد الخاص بالعصر الحجرى الحديث، قد اجتذب الرعاة القادمون إلى أفريقيا فى هيئة موجات نازحة إليها، وكان نتاج ذلك مجموعة الصور الصخرية التى اختلفت عن نظيرتها لدى الصيادين غير المستقرين القدامى(١) : (انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ٣ - أ وشكل رقم ٣ - ب) .

---

(1) Brentjes, Burchard : African Rockart, Opcit, pp. 58 - 60 .





(شكل رقم ٣ ب)

رسوم الصحراء الشرقية المصرية وحيوانات السفانا العاشبة

(الفيلة ، أفراس النهر ، الزراف)

رسوم المحور النيلي التابعة للمحور الشرقي : (انظر شكل ٤ أ. ب) :

امتدت مجموعة رسوم أو صور هـــذا المحور باتجاه شمالى جنوبى في منطقتين :

الأولى : رسوم كوم أمبو عند قرية السبيل[١] .

الثانية : رسوم وادى أبو صبيرة ، قرب سكة حديد الخطارة ، على بعد ثمانية أميال شمال مدينة أسوان بصعيد مصر ، وهى الرسوم التى أطلق عليهما كل من مرى ومايرز عام (١٩٢٣ م) اسم الرسوم الصخرية لعصر ماقبـــل الأسرات المصرى[٢] .

وتقع بوادى جانبى يطلق عليه اسم وادى الخطارة ، على بعد ٨ أميال شمال أسوان حيث اشتملت على نوعين من الرسوم :

(أ) لحيوانات برية كانت تعيش فى الأقاليم كالفيلة ، وكانت منقوشة فى الصخور بآلة حادة (معدنية أو حجرية) .

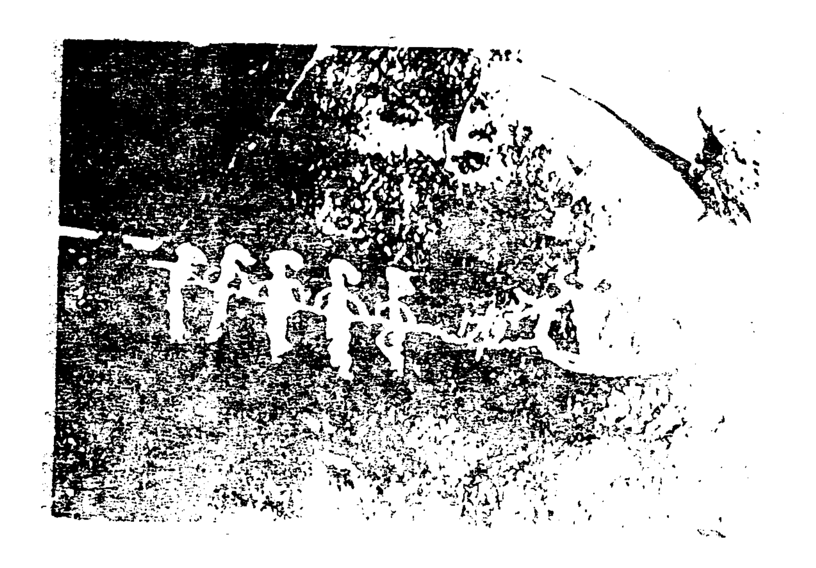
(ب) أبعد من صور المجموعة الأولى بحوالى ٢٠ ميل داخل الوادى ، حيث مثلت رسوم للقوارب التي يبلغ بعضها عشرة أقدام وكان يحمل على ظهره طاقم ملاحيه المكون من ثمانية أفراد ، إضافة إلى عدد من الحيوانات كالماعز الجبلي ، ورسم لقاربين آخرين فارغين (انظر شكل رقم ٤) .

الثالثة : رسوم وادى « أبو عجاج » إلى الشرق مباشرة من مدينة أسوان ، حيث بدأت من مصب الوادى إلى الداخل بحوالى ستة كيلومترات ، وهنــا يذكر عطية (Attia (M. I.) عام ١٩٥٥) أن جوانب الوادى الحجرية

---

(١) شعبانه آدم محمد : الرحلات والبعثات برا وبحرا فى مصر الفرعونية منـذ أقدم العصور حتى نهـاية عصر الدولة الوسطى . رسـالة دكتوراه ـ غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٦٦ م ، ص ٢٠ .

(2) Murry, (G. W.) Myers (.O. H.) : « Some Pre-dynastic Rock Drawings » the Journal of Egyptian Archaeology. Volume .1. Parts III & IV. Great Britain «1932» pp. 129 – 132.





(شكل رقم ٤١ أ)

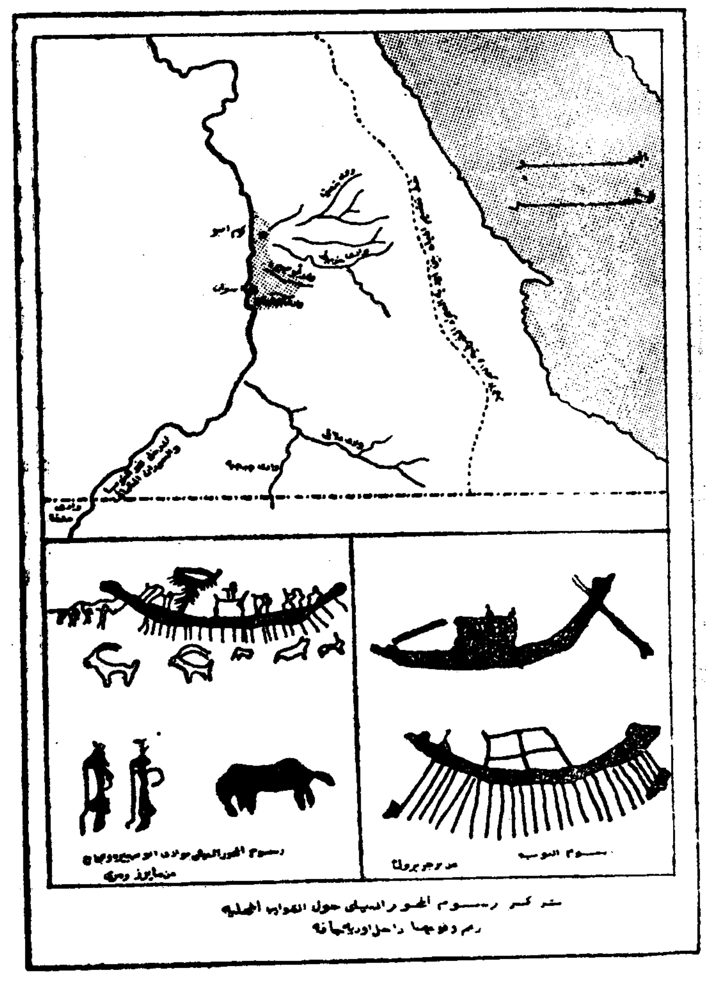
الصور الصخرية بالحور النيلي - سحب القوارب ، حركة صيد الحيوان

تميزت بصور الإنسان الراعي وهو يسوق قطيع متنوع من الحيوانات (كالزراف والغزال والأبقار والماعز الجبلي والحمار الوحشي والضبع والبقر الوحشي والخنزير البري)(١) .

---

(1) **Attia, (M. I.) : Topography and Geology and Irone - ore Deposits of the District East of Aswan. Geological Survey. Cairo. 1955. p. 21.**

وجدير بالذكر أن فورد جونستن Ford Johnston ، يذكر أن الخنزير البرى يرتبط فى وجوده بالمناطق الزراعية ، ورغم قلة وجوده بالصور الصخرية ، إلا أن بيئة شمال أفريقيا الصحراوية الآن ، كانت من مناطق انتشاره ، لهذا تم تسجيل هذا الحيوان هنا باعتباره احتياطى حى من اللحم ، وبما كان يلجأ إليه الإنسان ، ومبرر تصويره هو ملاءمة الظروف البيئية ذات المرعى الوفير لهذا الحيوان خلال تلك الفترة(١) .



(شكل رقم ٤ ب)

(1) Ford (J. L.) Johnstone : Neolithic Cultures of North Africa. Opcit, pp. 62 – 63.

ووجدت رسوم أخرى « للنعامة » التى ذكر مايرز أنها عاشت فى هذه المنطقة الصحراوية ولكن خلال عصر المطر ، إذ كانت ذات منزلة خاصة لدى ساكن هذا الأقليم ، الذى كان ينتفع بريشها وبيضها[1] .

كما كثرت رسوم الطيور الأخرى كالحبارى (شبيه بالديك والرومى) والغراب ، ومالك الحزين ، إضافة إلى الكلب الذى كان يساعد فى حرفة الرعى[2] .

ورسمت بهذه المنطقة صورة للقارب ذو الأطراف التى تشبه أشجار النخيل مقترنة بصور للفيلة ، وربما يشير هذا الرسم إلى وجود مجموعة بشرية قوية النفوذ - بحيث فرضت على « عابرى » منطقة الشلال الأول مايشبه « رسوم المرور » وقد اتضح ذلك من صورة مجموعة الرجال التى تسحب القارب بالحبال ، وربما أشارت أشجار النخيل إلى شعار مميز للقبيلة . بحيث كانت كل قبيلة تمتلك المنطقة التى تحل بها ، وكان هذا الرمز موضع احترام وتقدير حتى العصور التاريخية ، بحيث نجد أن مايرز (ج . ل .) قد أوضح أنه يندرج تحت « قواعد المعاملة » ويدل على معلومات بدائية فى القانون - وعلى تقدير لحقوق الغير ! إذ هو بمثابة تجارب بدائية فى هذه المرحلة للحكم المحلى والاتحادى . (شكل رقم ٤ - ب) .

ففى اعتقاد « مايرز » أن هذا الجزء كان بمثابة « غابة » يشطرها وادى النيل إلى جزئين شرقى وغربى ، ولقد دعى ذلك الأمر إلى تبادل تجارى بين سلع الضفتين[3] .

الرابعة : رسوم المنطقة الممتدة بين الجندل الأول والثانى ، ولقد تناولها

(١) مايرز (ج . ل .) : « فجر التاريخ » ترجمة على عزت الأنصارى ، مراجعة عبد العزيز كامل (د . ت) ص ٥٧ .

(2) Attia, (M. I. : Opcit, p. 21.

(3) Murray (G. I.) & Myers (O. H.) : Opcit, P. 139 -- 130.
أيضا انظر : مايرز (ج . ل .) : فجر التاريخ ، ص ٥٨ .

دنبار Dunbar بالدراسة عام (١٩٤١ م) ، وذكر أنها كانت منطقـــة نفوذ تجارى هام ، ويرجع ذلك فى رأى ترجر بروك Trigger Bruce ، إلى وقوعها على الحدود الشمالية للنوبة ، بحيث كانت هناك منطقة تجارية تمتد ما بين أسوان والجندل الثانى ، وكان مبعث أو دافع هذا النشاط التجارى هو التبادل السلعى بين منتجات الشمال والجنوب[١] .

موضوعات رسوم المحور الغربى :

وهو المحور الذى سبق وذكرنا أنه يبدأ من تبستى حتى الأحجار وأير والأدرار أهنت Adrar Ahnet ، وكذلك ذكرنا أنه يتفرع إلى فرعين :

الأول : شمالى شرقى ، وتتدرج فيه رسوم تونس وقسنطينة والجزائر والمغرب .

والثانى : شمالى غربى ، وتتمثل فيه رسوم الجزائر وموريتانيا وجنوب المغرب . ويمكننا إيجاز الموضوعات التى تناولها فى المجالات التالية :

- صور القوارب فى « تزارفت » وهى قوارب محلية ليست لها علاقة بالمصرية .

- صور نقوش للحيوانات « المدارية الأفريقية القديمة » التى رغبت المناخ الرطب عندما كان الأقليم يجرى به الأنهار وتوجد به البحيرات ، وتنمو به النباتات الوفيرة ويتنوع به حيوان الصيد إلى جوار الأسماك . وعندما كانت أوديته خضراء ، وسفوحه تكسوها الغابات[٢] .

وبهذا كان شمال أفريقيا مسرح لإعالة ندويات متنوعة وعـــديدة ،

---

(1) Forde (J. L.) Johnston : Opcit, P. 78.
Trigger, Bruce : « « Nubia Under the Pharaons ». London. 1976. pp .37 – 38.

(٢) جوزف (كى) زربو : فنانو العصر الحجرى الحديث ص ٣٢ .

آسيوية الأصل وأثيوبية ، كالفيل والخرتيت وحمار الوحش ، الزرافة والجاموس والظبي وفرس النهر والقردة . وكانوا يعايشون بيئة قريبة عنها في الوقت الحاضر ، بالرغم من استمرار فرس النهر بالنيل الأدنى بمصر حتى العصر البطلمي[1] .

ودليل ماسبق نقوش إنسان العصر الحجري القـــديم ، وهنا يضيف جوزيف زربو ، أنه تم العثور على رسوم للفيل بالحجم الطبيعي وبلغ طول نابه ٧٢سم بوادي ماثندوس بليبيا ، مقترنة بالزرافة بين قرنيه ، مما يؤيد انتشاره بشمال أفريقيا ، حيث كثرت رسومه هناك ، إلى أن درجة العديد من الباحثين يجمعون على أنه ازدهر بالأقليم في العصر الحجري الحديث ، كاصور أيضا في « أنيري بلانكا » بالنيجر وأتقن راسمه الصورة بأن عبر عن «جلده» بحفر أو نقط صغيرة انتشرت على جسده .

كما صور الماعز الجبلي أو الكبش ذو القرون الكبيرة القوية في منطقة « أني - أزروميتاك » بالجزائر . وقد أحيط برسوم تشبه الأسماك في وقت عرف فيه الإنسان « استئناس الحيوان » والاستقرار في مساكن وقرى[2] .

وهكذا لعل الأشكال المنقوشة للصور الصخرية والخاصة بالحيوان بجميع أنواعه على جدران الملاجىء الصخرية التي خلفها الإنسان في مواضع كثيرة - سبق عرضها - تعطي صورة زاهية عن الوفرة النسبية للكلأ والمرعى في تلك العصور من جهة وتبين مدى انتشار الإنسان واستقراره في أعماق جوف الصحراء[3] .

---

(١) محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية لعصر ماقبل التاريخ وفجره . مكتبة الأنجلو المصرية . ط ٢ ، ١٩٧٥ م ، ص ١١٦ – ١١٧ .

(٢) جوزيف كى زربو : المرجع السابق ص ٣٥ – ٣٧ .

(٣) صلاح الدين بحيرى : جغرافية الصحارى العربية . المرجع السابق ص ٢٠٥ .

ثانيا : الرسوم الصخرية بجنوب أفريقيا :

تتمثل هذه المنطقة فى جنوب أفريقيا المطل على المحيطين الهندى والأطلنطى ممثلة فى ليسوتو وملاوى ونجوانه وناميبيا وجمهورية جنوب أفريقيا إضافة إلى ماتم كشفه فى الأورانج الحرة ونهر الفال والترانسفال (انظر الخريطة شكل رقم ٥) حيث تمثلت فى الآتى :



(شكل رقم ٥) مناطق الرسوم الصخرية بجنوب أفريقيا

- صور حيوانية : حيث نقشت الزرافة على كتلة حجرية مستطيلة بحيث ناسبت امتداد الشكل تماما ، وكانت فى غرب الترانسفال ، كما وجدت صور لحيوانات مائية (كفرس النهر) الذى رسم على سطح صخرى خشن ذو حافات حادة تشبه درع الحيوان الطبيعى تماما .

إضافة إلى ماسبق رسمت مجموعات لقطعان حيوانية متنوعة منقوشة وضع فيها الجاموس البري المنقرض ذو القرون الضخمة التي بلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ، إضافة إلى حيوانات برية أخرى كالنمور والقردة والنسانيس والنعام والبوم وغيرها . حتى أن جوزيف كي زربو يشبهها بقوله :

« كأنها سفينة نوح غرقت ... أو حديقة حيوان هجرت ! ! »[1] .

ـ صور بشرية : صورت الإنسان الصائد للحيوان والأسماك .

ـ صور نباتية : حيث تميزت المنطقة بتصوير البيئة النباتية الشجرية للصحارى ، إلى درجة أنه أمكن التعرف على أنواع كثيرة منها .

أما بتشيرانا بجنوب القارة فقد كانت صورة توضح الاعتقاد في صور « الحيوان صانع المطر » الذي كان في هيئة « ثور » يقوده الإنسان نحو الماء الذي كانت توفره بيئة المطر بالأقاليم في رأي (ا . همباتيه) كجزء من طقوس (قبيلة اللوتوري) هناك . ولعل الأشكال المنقوشة لصور الحيوانات على جدران الملاجىء الصخرية التي خلفها الإنسان في مواضع متعددة سبق عرضها تعطي صورة زاهية عن الوفرة الغنية للكلأ والمرعى في تلك العصور ، كما تبين مدى انتشار الإنسان واستقراره في أعماق صحراء كالهاري[2] .

ثالثاً : الرسوم الصخرية بشبه الجزيرة العربية :

ذكرنا سابقا أنه بالرغم من وجود الفاصل المائي المتمثل في البحر الأحمر بين الصحراوين الأفريقية الكبرى من جهة وصحراء الجزيرة العرب من جهة أخرى ، إلا أن الصور الصخرية تمتد على كلى جانبيه لتصل إلى شبه الجزيرة العربية ، إلى درجة أن دراسة « فنكار » قسمها مرحليا إلى رسوم ماقبل

---

(١) جوزيف (كي) زربو : فنانو العصر الحجري الحديث ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٧ .

(٢) صلاح الدين بحيري : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

التاريخ (التى ترتبط بالتنقل وعدم الاستقرار) ورسوم مرحلة (إنتاج الطعام واستئناس الحيوان) ثم رسوم العصر التاريخى التى تبدأ بالرسوم العربية التى يزداد فيها التأثير العربى وصور الإبل والتى تقابل فى رأيه مراحل شبه الجزيرة من الناحية الزمنية على الأقل، وهى بذلك ترتبط بمناخ البلايستوسين الرطب، وإحياؤه الحيوية المتنوعة، وربما يؤكد لنا ذلك عرض لأهم نماذج الصور الصخرية بالأقاليم.

توزيع الصور الصخرية بشبه الجزيرة العربية :

تميزت مناطق توزيع الرسوم الصخرية بشبه الجزيرة العربية بالانتشار التى سبق أن لاحظناه على النطاق الإفريقى من الصحراء الكبرى، ولذا فقد انتشرت فى جنوب الجزيرة العربية وقام بدراستها «برين دو Brain Doe» فى كتابه جزيرة العرب الجنوبية Southern — Arabia، كما انتشرت فى شمال شبه الجزيرة العربية وإقليم الحجاز الشمالى وقام موسيل Musil (A.) بدراستها فى كتابه الحجاز الشمالى Northern Hejaz وسميت عنده بالنقوش «الثمودية الحجازية».

إضافة إلى ماسبق فقد عثر على النقوش الصخرية بهضبة نجد، وقام باكتشافها فى منطقة «الجوف» كل من هوبر Hober ويوتنج Euting وكذلك اكتشفت بشمال سكاكا وأعلن ذلك فان دى براندن Van de Branden (خريطة رقم ٦).

وتعزى الرسوم الصخرية بشبه الجزيرة العربية طبقا لرأى فورستر المذكور فى كتابه «الجغرافيا لشبه الجزيرة العربية Historical Geography of Arabia» إلى قبائل (ثمودينى أو ثموديتاى) أى تؤرخ بعام ٣٠٠٠ ق. م. طبقا لرأى عبد القدوس الأنصارى، فقد كانوا من أشهر القبائل فى شبه الجزيرة



(شكل رقم ٦) مجلة الهلال: العدد الثالث لعام ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٩ م

العربية وكان موطنهم الأصلي بها هو جنوبها باعتبارهم من الأمم العربية القديمة، وظلوا بهذا الموطن إلى أن طردهم منه فيما بعد الحميريون والذين يعدون من العرب العاربة أو الباقية . فهاجروا إلى شمال شبه الجزيرة وانتشروا في أقاليم معينة كبلاد الحجاز وسيطروا على سواحل البحر الأحمر[١] . لذا تؤرخ الدراسات الحديثة حضاراتهم فقط بأنها كانت تعاصر القرن الثامن قبل الميلاد ، بينما يحددها رأي آخر بأنها معاصرة لميلاد المسيح ، وهناك رأي

---

(١) عبد القدوس الأنصاري : بين التاريخ والآثار ، دار العلم للملايين ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٧م ، ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، أيضا انظر :

- وفاء محمد رفعت ، جمال عبد الهادي : نحو تأصيل إسلامي التاريخ : جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، ج ١ ، دار الطباعة الحديثة ، مكة (١٣٩٨/١٩٧٨ م) ، ص ٧٩ - ٨٠ .

ثالث يرى بأنها وجدت قبل الإسلام بقرن أو اثنان من الزمان وأنها حضارة أثرت بما يجاورها من هذه المواضع من حضارات بلاد العراق وسوريا ومصر[١] .

وهكذا كانت لهم تجارة مزدهرة بحيث تحكموا فى طرقها ونظموها وأمنوا أفرادها . وحموها وبهذا أيضا تجولوا فى الشمال والشمال الغربى ، وتحمموا بالمناطق البحرية المنتشرة بأنحاء هذه المنطقه . ولكن الأدلة التاريخية تفتقر إلى مايثبت نشاطهم البحرى السابق ذكره . غير أنهم استطاعوا تكوين قوة كبيرة فى إقليم شمال الجزيرة العربية ، ودليل ذلك مستمد من نقوشهم الثمودية التى خلفوها به ابتداء من الجوف شمالا حتى الطائف جنوبا ، ومن الإحساء شرقا الى يثرب وأرض مدين غربا ، وعبر الطرق المتجهة إلى العقبة والأردن وسوريا ، وإلى الطرق المتجهة جنوبى حضرموت بجنوب جزيرة العرب[٢] .

وتعددت أنضال هؤلاء القوم فى تاريخ شبه الجزيرة العربية الحضارى بحيث برزت أيضا فى نقوشهم الصخرية التى أفادت فى مجال التعرف على الأبجدية الثمودية ، باعتبارها حلقة وصل بين أبجدية جنوب الجزيرة العربية وشمالها كما برزت أهمية النقوش فى التعرف على أنواع النشاط البشرى لأهل الإقليم فلم يكن الثموديين مجرد تجمعات بشرية تجارية فقط ، بل كانوا قوة حربية مسيطرة على شمال وغرب الجزيرة العربية أو معظم أنحاء وبلاد العرب الصخرية[٣] .

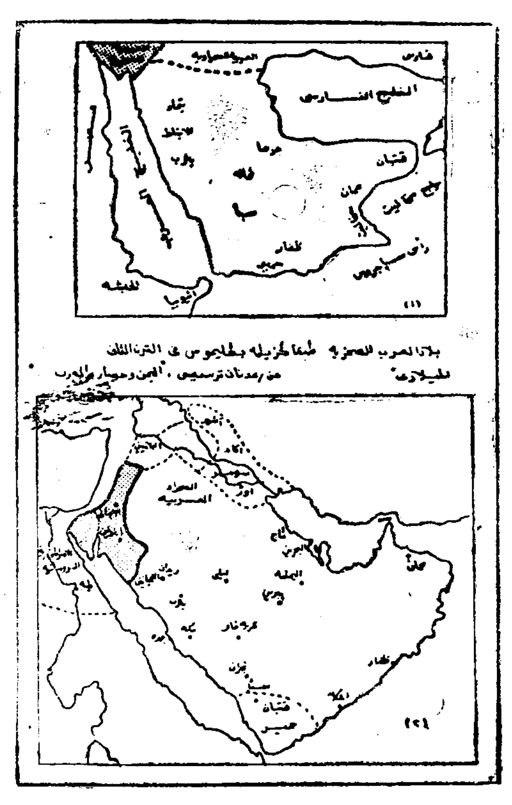
(١) أحمد فخرى : بين آثار العالم العربى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ م ص ٢٨٠ .

(٢) محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الرياض ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .

(٣) إبراهيم الشتلة : الثموديون ، ص ص ١٨٥ – ١٩٨ .

* ولد بطليموس فيما بين (١٢١ – ١٥١ ميلادية) وهو من بطلمية بصعيد مصر ، وقدم دراساته فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى باسم العالم الجغرافى الذى

Arabia - Petraea طبقاً لتقسيم الجغرافى اليونانى كلاديوس بطليموس Cluadis - Ptolemaius ، فيما بين (١٢١ - ١٥١ ميلادية) انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ٧ /(١).



(شكل رقم ٧)

٢ - تحديد تقريبى لبلاد الثمود بون (هاجابا) بشبه جزيرة العرب فى القرن الأول قبل الميلاد (عن آنا دوسن)

ومن هنا أشارت الكتابات التاريخية إلى أن أمهر فرسانهم قد حاربوا مع جيوش الرومان بقيادة الامبراطور « جستيانوس » فى القرن السادس

= احتوى ٢٦ لوحة إقليمية وبها ورد تقسيم جزيرة العرب إلى أقاليم جغرافية منها العرب الصخرية ، انظر فى هـذا المجال : محمد صبحى عبد الحكيم وماهر الليثى : علم الخرائط ص ٢٠.

(١) محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم . ص ٩٧ .

الميلادي ضد قبائل الشرق ، وكان الرومان ينظرون إليهم على أنهم قوة حربية جيدة ومن الدرجة الأولى حيث تمكنوا بهم من رد فشل حملاتهم المتعددة داخل إقليم شبه الجزيرة ومسالك الصحراوية .

وبسبب شهرتهم السابقة تجاريا وحربيا تعددت مصادر ذكرهم بحيث كانت أول إشارة لهم من الناحية التاريخية في عهد سارجون الثاني بالعراق ، وكان ذلك بخط مسماري يرجع لعام ٧١٥ ق . م . وفي هذه الإشارة تحديد لموطنهم داخل شبه الجزيرة في منطقة هاجابا Hajappa والتي أطلق عليها الإنجيل (Efa) ، وهي التي حددها الكتاب الكلاسيكيون فيما بعد بأنها شمال غرب شبه الجزيرة العربية (١) .

الرسوم الصخرية الثمودية وموقفها من الندوات العلمية :

بدأ اهتمام علماء الآثار والدراسات الشرقية بالنقوش الثمودية ، الأمر الذي وضح في الندوة العلمية الثانيـــة لتاريخ الجزيرة العربية والتي عقدت بجامعة الرياض عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) ، وكانت محور اهتمام الأثرى (أ . ج) دروز ، الذي تمكن من استخدامها في عمل عرض تاريخي مسلسل للثموديين بشبه الجزيرة العربية ، ولا يفوتنا الإشارة إلى أن اهتمام فورستر الجغرافي بهم يعزى إليه الفضل في تحديد المواطن الأصلي للثموديين بجنوب شبه الجزيرة ، كما يرجع إليه فضل تحديد الوطن التالي الذي استوعبهم بعد ضغط الحميريين عليهم وانتقالهم له . وإليه أيضا يعزى فضل تحديد نشاطهم البشري سواء أكان تجاري أم حربي ، من خلال ماخلفوه من نقوش ثمودية بالإقليم (٢) .

(١) إبراهيم الشتلة : الثموديون ، نفس الصفحات .

ربما يقصد بقبائل الشرق أهل العراق القديم الذين عاصروهم وأرخو لوجودهم كما ذكرنا من خلال خطهم المسماري المعروف ببلاد ما بين النهرين خاصة وأن الدراسات التاريخية الحديثة قد أشارت إلى اقتراب موضعهم من تلك البيئة .

(٢) إبراهيم يوسف شتلة : المرجع السابق .

فإذا نظرنا إلى إقليمهم نجد أن مؤرخو الإسلام ورحالته وعلماؤه قد أجمعوا على أن بيوتهم قد نقرت فى جبال مدائن صالح ، وأنها كانت معمورة بالسكان الذين نحتوها وشكلوها ، وعرفت بمنحوتات مدائن صالح ، تلك التى تضاربت فيها آراء الرحالة والمستشرقون الغربيون ، عندما ذكروا أنها لم تكن سوى « قبور للأموات » حتى أن العديد من مؤرخى العرب تأثروا بها فى كتاباتهم فيما بعد .

بينما نجد المؤرخ الإسلامى الاصطخرى ، كان يشير إلى أنها « بيوت » أو منازل مستشهدا بكتاب الله فى قوله تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » وكذلك بالآية الكريمة فى قوله تعالى « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا » .

وعلى ذلك فإن فراغها الحالى إنما هو تالى لمرحلة هلاك أهلها ، الذين كانوا يعمروها خلال هذه الفترة الزمنية[1] . فهل ساعدهم على ذلك الاستقرار معايشتهم لظروف هيدرولوجية مغايرة لما يشهده الأقاليم الآن ؟

ولربما يتضح لنا توافق الظروف المناخية المغايرة الان من الناحية الهيدرولوجية مع الإستقرار البشرى القديم للثموديين ، إذا علمنا أن دراسات « ميلر » و « هنتنجتون » المناخية تعتبر أن البقايا الأثرية بالصحارى ليست إلا دليل أو « مؤشرات مناخية » تعكس ماعاصره سكانها من بيئة رطبة شجعتهم على العيش فيها رغم ما تشاهده المنطقة من جفاف مطبق يبعث أهلها على هجرها وعدم الاستقرار بها[2] .

وبذلك تؤكد أيضا الدراسات المناخية للبلايستوسين █ شبه الجزيرة

(١) عبد القدوس الأنصارى : بين التاريخ والآثار ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) عبدالعزيز طريح شرف : الجغرافيا المناخية والنباتية ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ، ط ٨ ، بيروت (د . ت) ص ٣٥ - ٤٠ .

تعرضت لتغيرات مناخية ترتبط بتلك الأطلال البشرية ، فتى كانت تلك التغيرات وما هو دور الصور الصخرية فى إبرازها ؟ .

ارتبطت التغيرات المناخية فى شبه الجزيرة العربية بدراسات الأثرى ماكلور MC. Clure (عام ١٩٧٦ م) ، حيث أشارت إلى أن الإقليم قد سادته فترات « مناخية جيدة » ، تميزت بارتفاع نسبة رطوبتها ، وبتوالى عمليات البحث الأثرى أشارت نتائجها فيما بعد (عام ١٩٧٩م/١٣٩٩ هـ) إلى تأكيد نفس النتيجة السابقة ، مع إضافة تحديد عددى وتاريخى لأدوار المطر بالمنطقة فوجدت أن شبـــه الجزيرة العربية قد مرت بدورين مطيرين Two Pluvial phases الأول : عاصر منتصف دور الفيرم Wurm الجليدى المعروف فى منطقة جبال الألب الأوربية ، ولقد أكده كل من هوتزل وموررين (عام ١٩٧٨ م) حيث مر بأعوام ٩٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق . م . وكانت تمثل أواخر البلايستوسين ، وأكده أيضا كل من ليبولت وهوتزل عام (١٩٧٩ م) ، وقد ارتبط هذا الدور بمرحلة رطبة « شبه غرينية مطيرة » .

أما الدور الثانى : فكان فى هيئة فترة رطبة منقطعة وليست متصلة وكانت أقصر مدى من الأولى ، بحيث وصلت إلى أوائل الهولوسين ، وارخت بعامى ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق . م . وامتدت إلى الألف الأولى قبل الميلاد ، بل وعبر القرون الأولى للميلاد ، ولربما إلى العصر العباسى . طبقا لدراسات لارسن وماكلور وهوتزل (عام ١٩٧٨ م) [١] ولربما عاصر الثموديون هذا الدور وتأثروا به فى أحداث بيئتهم .

ولذا عقبت دراســـات كنيث والطون K: walton (عام ١٩٧٨) على عملية « إعادة تصور بيئة البلايستوسين بشبه الجزيرة خلال عصر المطر بقولها » أن ظروف الاستبس المناخية سادت معظم المنطقة الممتدة إلى

(1) Department of Antiqnitics and Museums : ATLAL , P. 32

الجنوب الغربي لواديا دجلة والفرات . مع مراعاة أن الربع الخالي ربما كان منطقة جافة كما هي الآن ، إضافة إلى كل من فلسطين والأردن وسوريا والمناطق الجبلية باليمن كانت تستمتع بمناخ مطير [١] .

وبهذا تتفق بطريق مباشرة مع دراسة Anna Dawson (عام ١٩٧٩ م) التي ترى أنه أثناء معاصرة أوربا للأدوار الجليدية « التي جعلتها غير مرغوبة للسكنى البشرية Uninhabiteble » فإن شبه الجزيرة كانت تشهد أحوال مناخية معتدلة had enJoyed atemperate climate وضحت أدلتها في العديد من المجاري المائية Numerous watercourses [٢] .

كما أن بروكس (Brooks (C·E· P·) عام ١٩٧٠ م) ، يضيف إلى ماسبق إعادة تصور مناخ الإقليم ، عندما يرى أن المناطق الصحراوية الحالية كانت من أمتع الأقاليم المناخية على وجه الأرض خلال هذه الفترة . وقد نالت من الأمطار خمسة أضعاف ما تناله الآن [٣] .

ولقد زحفت موجة الجفاف التدريجي على شبه الجزيرة العربية من الشرق أولا ، نحو الغرب . وربما لهذا السبب بالذات وجدت ذخيرة الرسوم الصخرية متمركزة بجانبها الغربي لهضبة نجد والمتاخم لجبال السراة ، كما هو الحال في كتابات الثموديين البكتوجرافية السابق الإشارة إلى توزيعها الجغرافي .

فالأحوال الرطبة شجعت الإنسان على الاستقرار ، والاستقرار أدى إلى تنوع أنشطته ومجالاته الحضارية فكان هذا الكم الهائل من الصور الصخرية .

(١) كنيث والطون : الأراضي الجافة ، ص ٨٠ – ٨١ .

(2) Anna Dawson & Others : The Kingdom of Saudi Arabia, London. 1979, P. 73.

(3) Brooks (C. E. P.) : Climate through the Ages, New york, 1970, P. 276.

أعد الباحث جزء واف عن دراسات عصر المطر بصحراء شبه الجزيرة خلال البلايستوسين وهو في طريقه للنشر داخل مؤلفاته .

عرض لنماذج الصور الصخرية بشبه الجزيرة العربية :

صور جنوب شبه الجزيرة :

عثر على نماذجها ممثلة فى صخرة كبيرة على حدود الربع الخالى ، فى هيئة نقوش ثمودية ، وقام بدراستها برين دو Brain Doe الذى أشار إلى انتشارها فى جنوب شبه الجزيرة ، وإلى أنها تحوى العديد من الأشكال الآدمية ، مقترنة بأنواع حيوانية ونباتات طبيعية ، وكان أول من تناول تفسير هذه المجموعة من الرسوم كل من أميل رودجر Emil (R.) Rodiger (عام١٨٣٧م) وودهلم Wthlem (H. F.) عام (١٩٤١ م) .

كما عثر على ما يشابهها فى لحج Lahej ووادى حضرموت ، حيث تشير إلى وجود الثموديين فى هذا الجزء من شبه الجزيرة قبل الميلاد بآلاف السنين وفى مجمعات متحضرة ثقافيا(١) .

صور وسط شبه الجزيرة :

ويقصد بها مجموعة صور منطقة هضبة نجد ، حيث عثر على نماذجها فى حائل وذلك فى جبل ياطب ، وهى مئات من النقوش الثمودية التى ألقت الضوء على حضارة الثموديين .

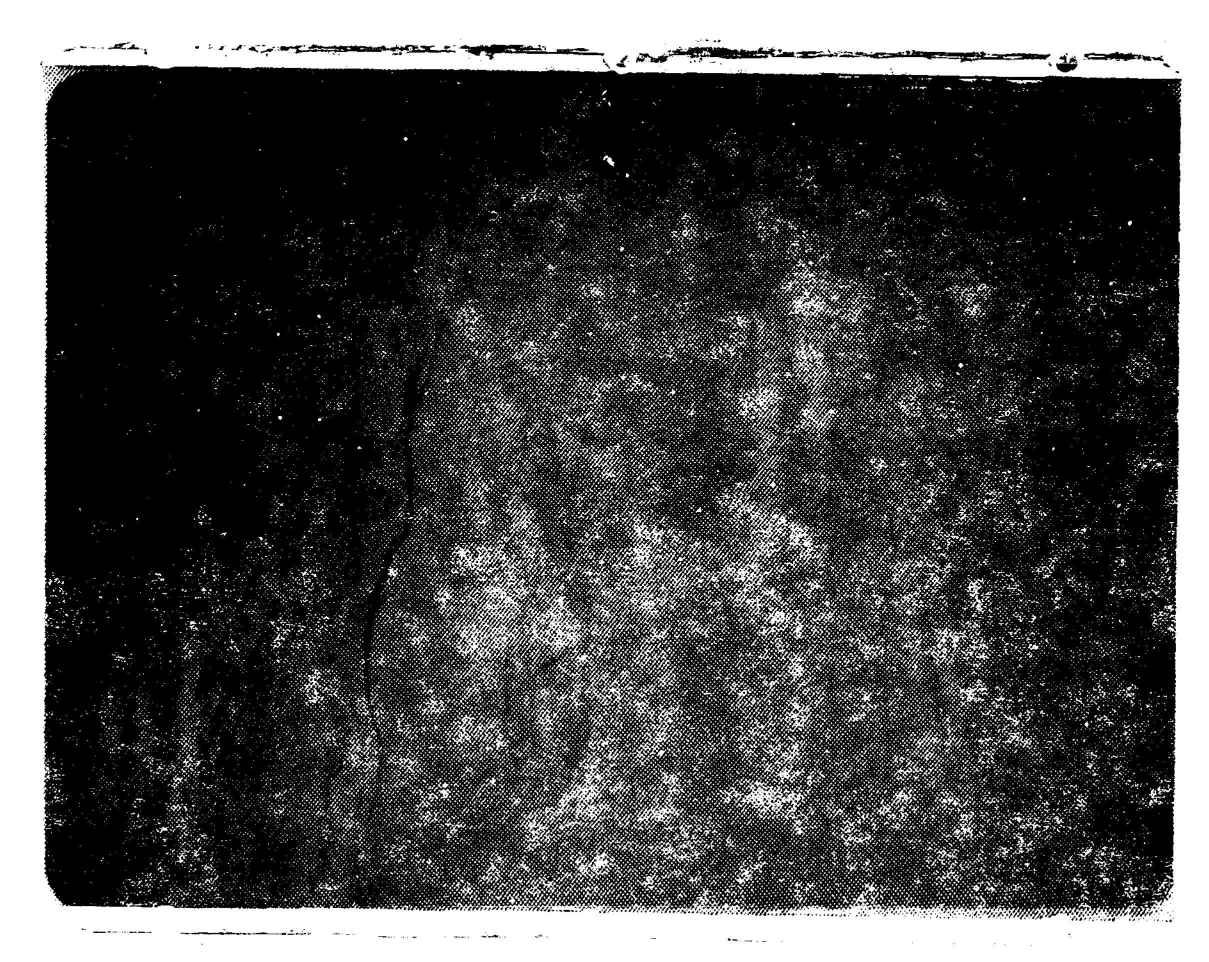
كذلك عثر بالجوف على يد هوبر ويوتنج Eutidg & Hobar على العديد منها(*) ، إضافة إلى ماتم اكتشافه فى شمال سكاكا حيث منطقة الطوير التى درسها فان دى براندن Van den Branden ، حيث صورت عدة جوانب من حياة الثموديين(٢) .

---

(١) إبراهيم يوسف الشتلة : الثموديون ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

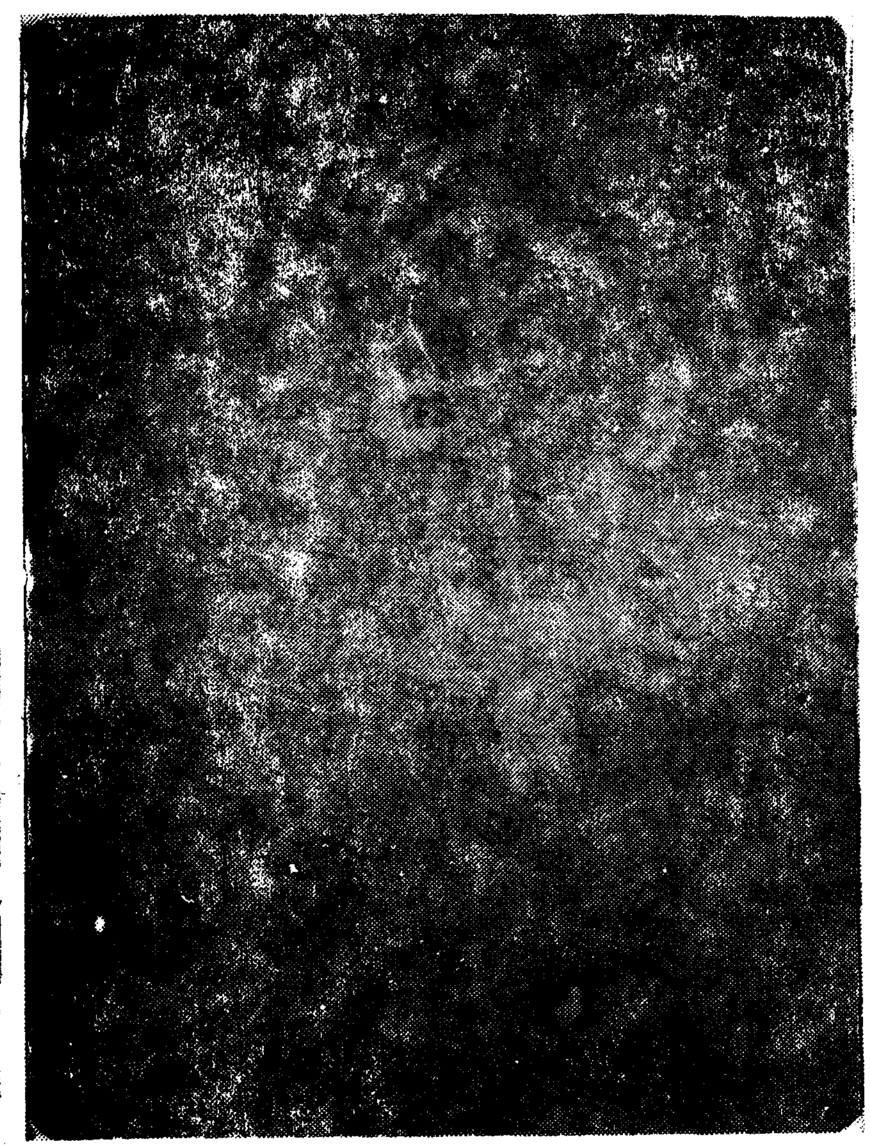
(*) انظر لوحة رقم (٩ أ ، ٩ ب) زيارة ميدانية للباحث بالجوف .

(٢) إبراهيم يوسف الشتلة : الثموديون ، ص ١٩٠ – ١٩١ .



(لوحة رقم ٩١)

(١) حيوانات البيئة العاشبة بشمال شبه الجزيرة « الحيوانات العاشبة »



(٢) الحيوانات اللاحمة « كالأسود » ومقترنة بظهور الإنسان

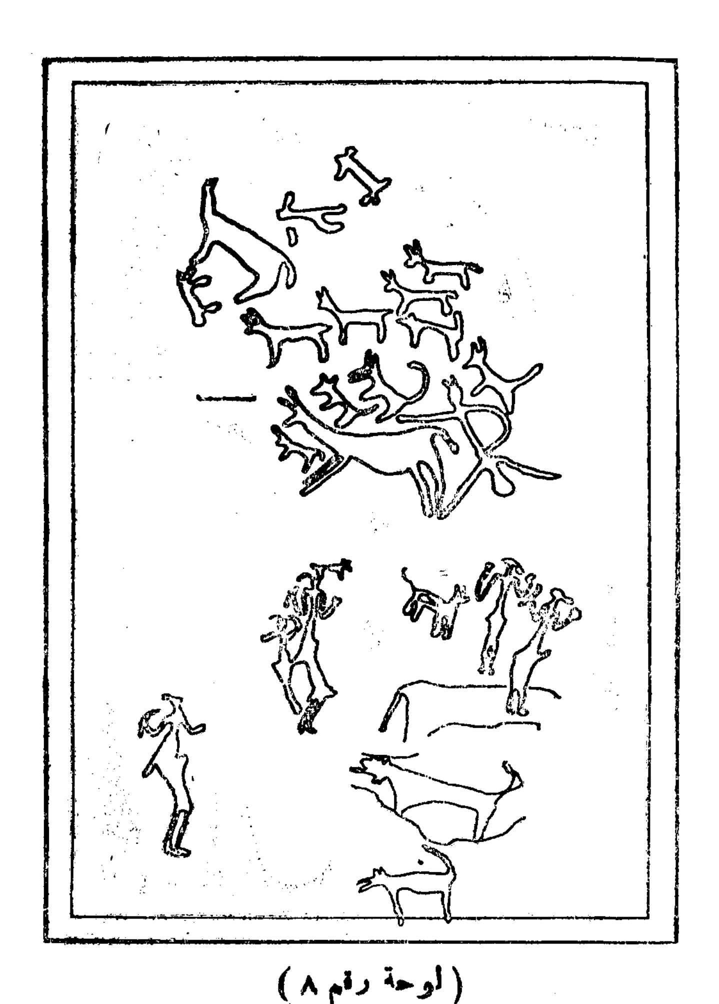
كما عثر بموقع جبل ووادي الصويدرة الذي يبعد عن المدينة المنورة بحوالى ٧٠ كم على صور ثمودية وعربية صورت بشكل واضح مدى سخاء بيئة البلايستوسين لهذا الجزء الصحراوى الجاف ويتحدد الموقع بأنه يقع غرب المنطقة العمرانية المعاصرة التى يخترقها طريق المدينة القصيم الحديث. مما يشير إلى أنها كانت منطقة عامرة بالحياة ، ولقد احتفظت صخورها بدليل ذلك . فنجدها صورت الحيوانات المفترسة واللاحمة كالأسد على صخور جبالها ، كما صورت الحيوانات العاشبة كالظباء ذات القرون الكبيرة المعقوفة والثور . إضافة إلى صور الأفراد وهم يمارسون حرفة الصيد وذلك من خلال استعمال الآلات اللازمة لذلك كالسهام والرماح أمام قطيع متنوع من الحيوانات البرية التى تفر أمامهم، إضافة إلى صور الأسد متحفز للوثوب على رجل أمامه وكأنهما فى صراع .

ويتطابق هذا الموقع فى موضوعات رسومه مع نقوش وادي بويب القريب من جده ، مما يؤيد إقامة أهل ثمود هنا بعد نزوحهم من جنوب شبه جزيرة العرب طبقا لرأى د سان جون فلبى عام (١٩٣٥م) (١٣٥٤ هـ)[1] .

وإلى جانب ماسبق موقع جبل عرفاء الذى توافرت به النقوش الثمودية وما بعد الثمودية التى ترجع إلى الألف الثانى (ق . م) طبقا لرأى آفاتى (١٩٦٨ م) . حيث صورت د مجموعة رجال ذوى أذرع وسيقان مبالغ فى أطوالها ، ولهم مايشبه الذيل ، وفوق رؤوسهم أغطية مزينة بالريش (انظر نماذجها لوحة رقم ٨) كما يحملون أسلحة عثملة فى أقواس مزدوجة وسهام . كذلك رسوم لبعض الأفراد الذين يقذفون بما يشبه العصى ، والبعض يمتطى ظهور جياد وجمال .

---

(١) عبد القدوس الأنصارى : المرجع السابق . ص ١١٩ - ١٤١ ، ١٤٩ -



(لوحة رقم ٨)

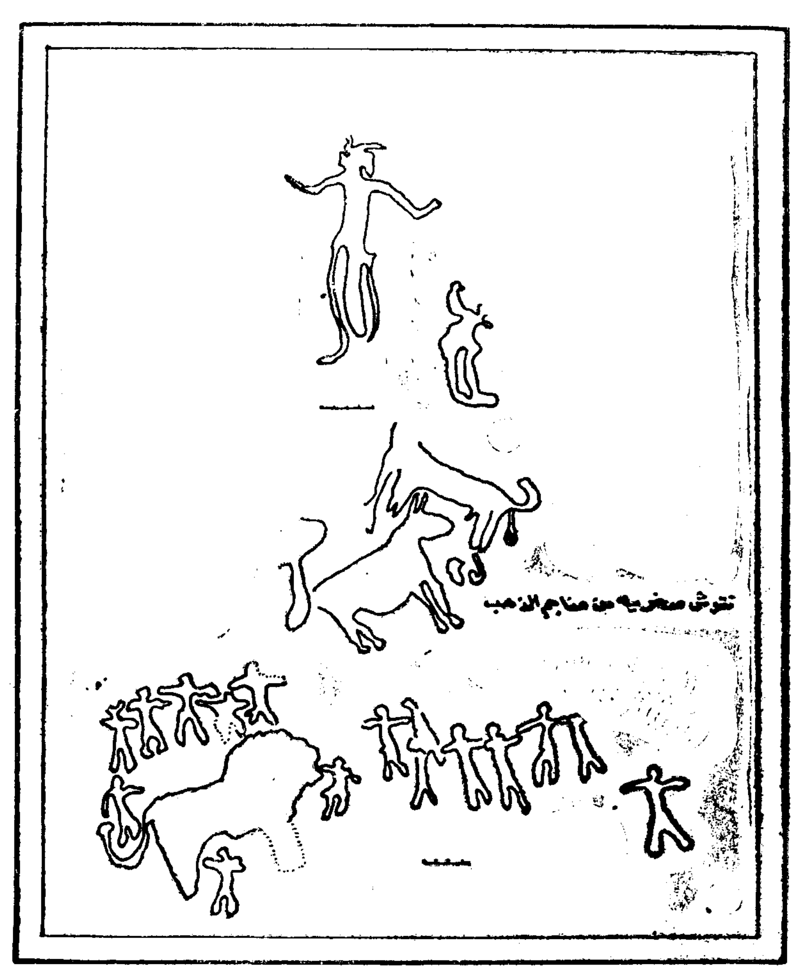
وهناك أيضا صور حيوانية ، بدت فيها الأبقار والغزلان والنعام . إضافة إلى ما سبق العثور على بعض الكتابات الثمودية التي عرفت بالنقوش الثمودية النجدية⁽¹⁾ .

وعثر أيضا بموقع خشم دلقان في جبال منجور الرمليه على نقوش صورت الحيوانات العاشبة كالأبقار الوحشية ، والماعز ذات القرون وكانت في هيئة نقوش متقنة .

(١) إبراهيم يوسف الشتلة وآخرون . المرجع السابق . ص ١٩٠ — ١٩١ .

إضافة إلى نقوش صورت الإنسان ، وهو يستعد للقتال برفع يديه لأعلى قابضا على الهراوات ، وآخر يمتطى جمل أو حصان .

ومن المواقع التى عثر بها على نقوش أخرى هى موقع الحفنة شمال مهد الذهب جنوب الحناكية ، وفيه صور حيوانية للغزلان والأبقار والكلاب والأسود ، وكذلك بعض الأفراد الحاملين للعصى .



(لوحة رقم ٩)

نماذج لنقوش صخرية من مناجم الذهب بشبه الجزيرة العربية

وهناك موقع وادى ما سل وفروعه. وهذا يمتاز باقتران الصور الصخرية بجوانب الأودية وعدم اقترانها بالجبال، ولقد تخير الإنسان كتل الجرانيت وصور عليها الحيوانات كرأس البقرة، وكذلك أهـــل ثمود فى أوضاع مختلفة، منهم من يمتطى جوادا ويطارد طائر النعام وآخر يمتطى ظهر جمل. وأهم ما يتميز به هذا الموقع هو تصوير البيئة النباتية ويبدأ واضح فى رسم شجرة النخيل !! .

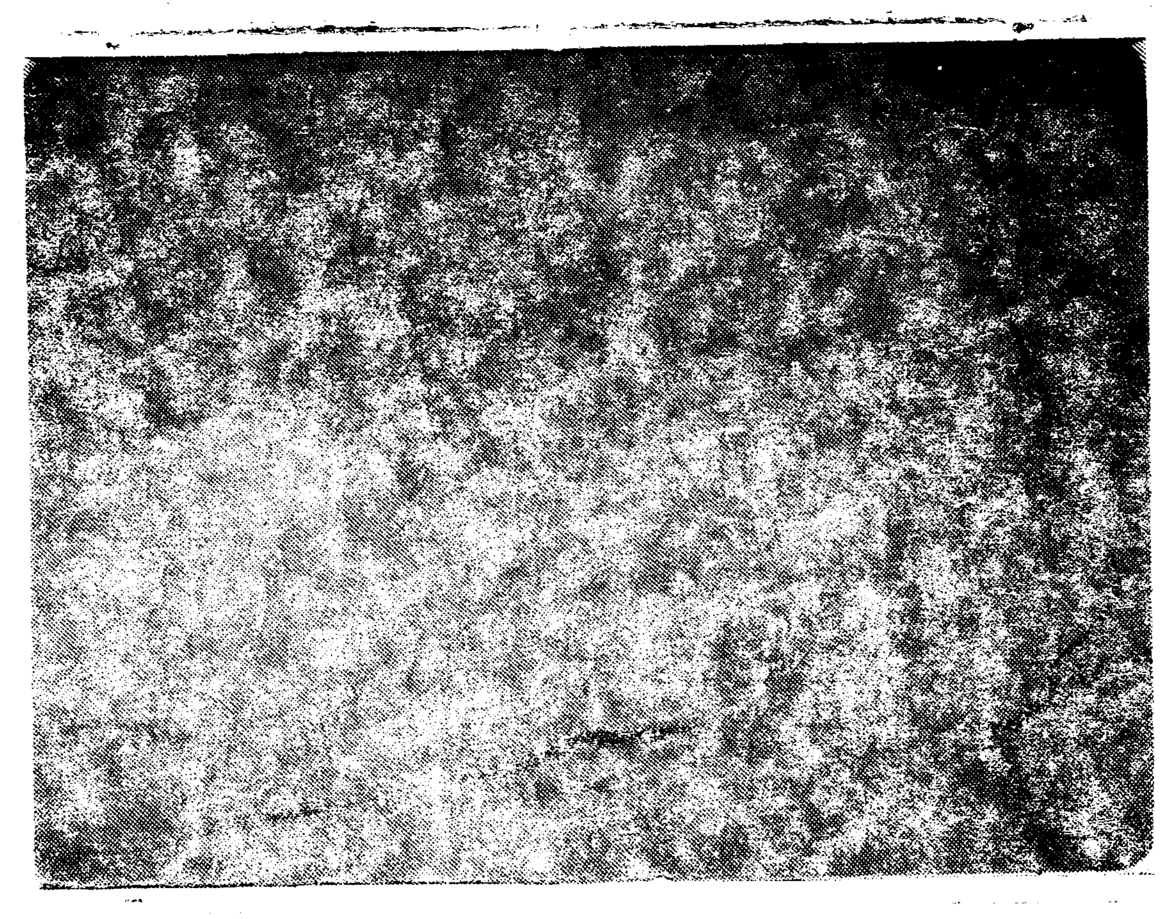
ولعل آخر موقع فى مجموعة صور وسط شبه الجزيرة هى تلك التى ارتبطت بجبل « برمة » الذى عثر به على نقوش تصويرية بارزة حفرت على كتل الأحجار الرملية[1] (انظر لوحتى أرقام ٩ أ ، ٩ ب) .

(1) Department af Autiquites :& Musenms : ATLAL. Opcit, P. 32.



(لوحة رقم ٩ ب)

الرسوم الصخرية وفترة ظهور الإبل مقترنة بظهور الإنسان معها (من الجوف) زيارة ميدانية للباحث



إقتران الرسوم الصخرية بحيوانات البيئة المتنوعة كالجمال والطيور
(كالنعام) - (من الجوف) زيارة ميدانية للباحث

صور شمال شبه الجزيرة :

وهى التى رسمها موسيل Musil ، حيث ارتبطت فى رأيه بهجرة الثموديين من موطنهم الجنوبى ، ثم بعد ذلك لهزيمتهم على يد الملك الآشورى سارجون فى القرن الثامن (ق . م .) . ولقد ذكر الجغرافيون والمؤرخون اليونان والرومان ومنهم ديودور الصقلى (.S) Diodours فى كتابه BibliothicsHistorica أن قبائل ثمود بعد هزيمتهم انتقلوا من موطنهم القديم وانتشروا فى عدة مناطق من الساحل الغربى للجزيرة العربية ، حيث كونوا مجتمعات كبيرة متحضرة ، عملت بالتجارة . وصدق على هذا الرأى بطليموس الجغرافى الذى حدد وطنهم بشمال غرب شبه جزيرة العرب(١) .

وكان صدى انتشار الثموديين بهذا المكان ، وجود العديد من النقوش الصخرية ، أبرزها ما وجد على جوانب معبد « رواقا » الذى بنى فى القرن الثانى الميلادى بواحة تيماء الواقعة غرب الطريق المتجه من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها (انظر الخريطة المرفقة ولاحظ موقع بلاد الثموديين شكل رقم ٧ السابق) .

ولكن البحث فى المنطقة الشمالية لم يتوقف عند هذا الحد . إذ أكدت الدراسات الآركيولوجية أن هناك نقوش صخرية تسبق المرحلة الثمودية

---

(١) إبراهيم الشتلة : الثموديون . ص ١٩٠ .

* أسلوب جبه هو المميز والسائد بالمنطقة الشمالية من شبه جزيرة العرب وفيه تميل النقوش التصويرية إلى الشكل الطولى وتميزت به معظم الحيوانات المرسومة هناك ويبدأ واضح فى رسوم (الأبقار والكلاب والماعز) . انظر المرجع الآتى ص ٤٧ – ٤٩ .

* هاجروا من موطنهم أولا إلى شمال الجزيرة العربية فى ٣٠٠٠ ق . م . ثم استقروا به حتى القرن السادس الميلادى (أى قبل الإسلام بقرن تقريبا) .

بالإقليم أطلق عليها نقوش ما قبل الثمودية Pre — Thamudi ، حيث انتشرت فيما بين سكاكا وحائل ، تلك المنطقة التي كانت مسكونة بالإنسان والحيوان حتى أنهـــا ترجع إلى العصر الحجري الأوسط (الميزوليثي) الذي يسبق الثمودية بآلاف السنين وترتبط برحلة صيد وقنص حيوان البيئة ، ففيها صور استعمال القوس والكلاب إلى جانب حيوانات البيئة القديمة بأسلوب جبه Juba Style ، حيث برزت فيه صدر الأبقار ذات القرون القصيرة المزودة بعلامات مميزة والرسم الجانبي مقترنة بالجياد والإنسان الذي صور كامل بجانبه عدا وجهه كامل وأذرعه رفيعة ، بالإضافة إلى لباسه وغطاء رأسه حيث تمثل في صديري وتنوره على وسطه ملتصقة بأرجله من أعلى . وكذلك صورت النساء مضفرات الشعر وذات زى مزخرف في جزئه العلوى وتنورات ابتداء من البطن[1] .

وإلى جانب ما سبق أطلق على النقوش الثموديه اسم النقوش الثمودية النبطية Tamudic including Nabatean وترجع إلى القرون الأولى لما قبل ظهور الإسلام ، وتمتد إلى ما بعد الميلاد بقليل ، حيث تنتشر على مساحة كبيرة قرب الجمعة وجبل حنين وأعمدة الرجاجيل بسكاكا .

وصورت حيوانات هذه الفترة كالجمال ، والوعل والفهد ، والنعام والإنسان وأسلحته (كالحراب والعصى) والجياد ذات الذيول المزودة بالشعر أهم من ذلك كله تصوير أشجار النخيل والنباتات المتسلقة أو المختلطة[2] .

Pelm trees (Somtimes with climping fiğures or maze desings).

---

(1) The Journal of Ssudi Araiban Archaeology ATLAL. Vol 2. I978 (1398). P. 47—49.

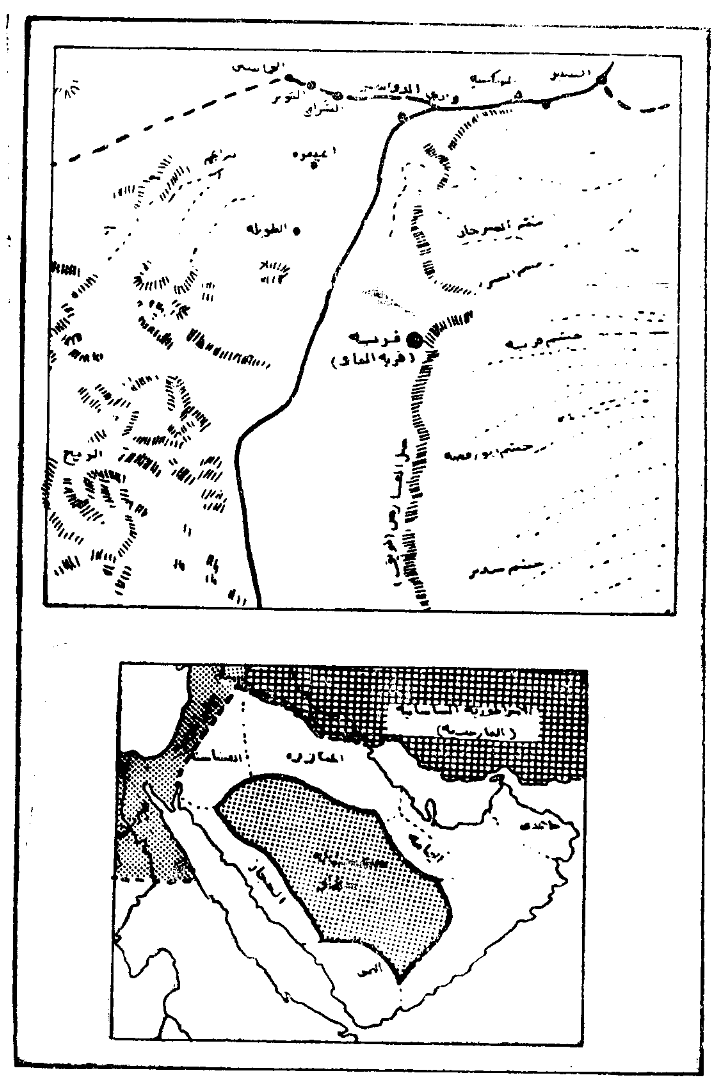
(٢) أضيف إلى جانب ماسبق نقوش صخرية حـــديثة Recent Rock Art هي النقوش العربية Arabic inscriptions ، وهذه عمت معظم إقليم شبه الجزيرة . واعتنت برسم الإنسان يمتطى ظهر جواده يحمل أو جمله وحربته مع بعض حيوانات البيئة كالوعل Ibex والطيور ... وهذه لاتدخل في نطاق دراستنا أو بعدها الزمني .

The Journal of Saudi Arabian Archeology. Archcology. P. 46.

الصور الصخرية للفاو بشبه جزيرة العرب :

AL — FAU

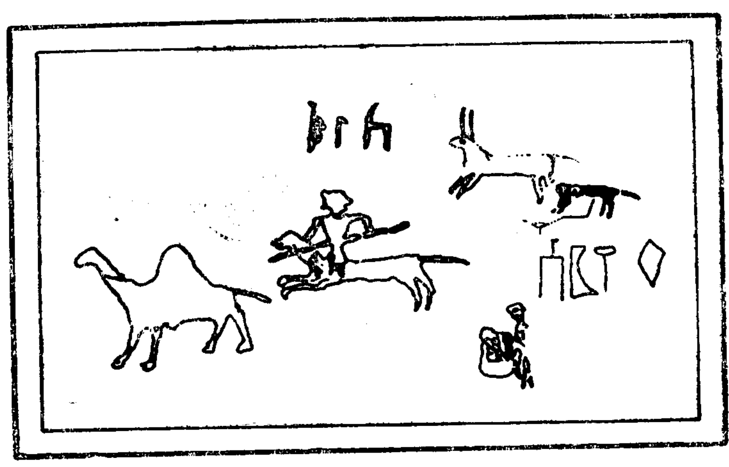
تقع الفاو على بعد ٧٠٠ كم جنوب غربي مدينة الرياض الحالية ، وعلى حافة منطقة الربع الخالي الصحراوية ، ويؤرخ لها بالفترة مابين القرن الأول إلى الخامس الميلادي وأن دولتها المعروفة بكندة قد زالت قبل ظهور الإسلام (انظر الخريطة شكل رقم ١٠) .



(شكل رقم ١٠) الصور الصخرية للفاو باعتبارها أحد بلاد العرب بشبه الجزيرة قبل ظهور الدعوة الإسلامية

ورغم موقعها الصحراوى المتطرف ، إلا أن مجموعة صورها الصخرية لا تدل على أنها كانت كذلك . . . بل كانت تمر بأحـــوال هيدرولوجية مغايرة لما هى عليه الآن ، ودليل ذلك مستمد من عدة أدلة ، ولكننا هنا لن نبرز إلا أدلة الصور الصخرية .

فهناك مجموعة صور حيوانية شملت الإبل ، والغزال ، والوعل على حافة الربع الخالى ، وعلى سفوح جبال طويق المجاورة لها ، إضافة إلى صور بشرية متنوعة ، حيث صـــورت الإنسان فى هيئة (إله) مزود بأسلحة الصيد . كما صورت عمليات سلب أعداد كبيرة من الماشية ، مما يوضح غنى المنطقة بحيواناتها العاشبة والمستأنسة وهو ما لا تتحمله بيئة الصحراء الحالية (شكل رقم ١١) .



(شكل رقم ١١) حرفة صيد الجمال « نموذج من الفاو »

إضافه إلى تصوير الحيوانات اللاحمة كالأسود ، وأيضا ما يرغب الماء كالأسماك ، ويضاف إلى ذلك تعدد صور شجرة النخيل التى كانت من النباتات المدارية الهامة لسكان هذا الجزء . والتى استخدمت فى هدفين الأول غذائى لسكان الفاو ، دل عليها كثرة النوى بالمنطقة ، والثانى هدف بنائى حيث سقفت

بها أسقف المنازل التى دلت عليها حفائر جامعة الملك سعود(١) .

فالنخيل من الأشجار التى تتطلب كميات كبيرة من الماء ويتحمل الجفاف ويمكن به تحديد « الحدود القصوى للعمران الزراعى » فى ضوء ماتتطلبه نخلة البلح من الماء، فالمجموعة البشرية التى تعيش على النخيل تستهلك من الماء ١٠٠٠ مرة قدر ماتستهلكه المجموعة البدوية الراعية للحيوان .

أليس فى ذلك دليل يثبت أن دفاوء ماقبل الإسلام كانت ظروفها المناخية تغاير على الأقل نظيرتها الجافة والحالية . وأليس فى هذا دليل على أن الصور الصخرية المتكررة داخل مساكن أهلها وسفوح جبالها ، لهى دليل يثبت ويصور ما كان يعاصره أنسانها خلال عصر المطر ؟

(انظر لوحتى رقم ١١ أ ، ١١ ب) وهما للباحث أثناء زيارته الميدانية للإقليم .

خلاصة العلاقة بين الرسوم الصخرية بالصحارى الإفريقية والآسيوية

اتضح التطابق فى الموضوعات التى تناولتها ، الصور الصخرية على كلى جانبى البحر الأحمر من عدة زوايا مرحلية على الأقل :

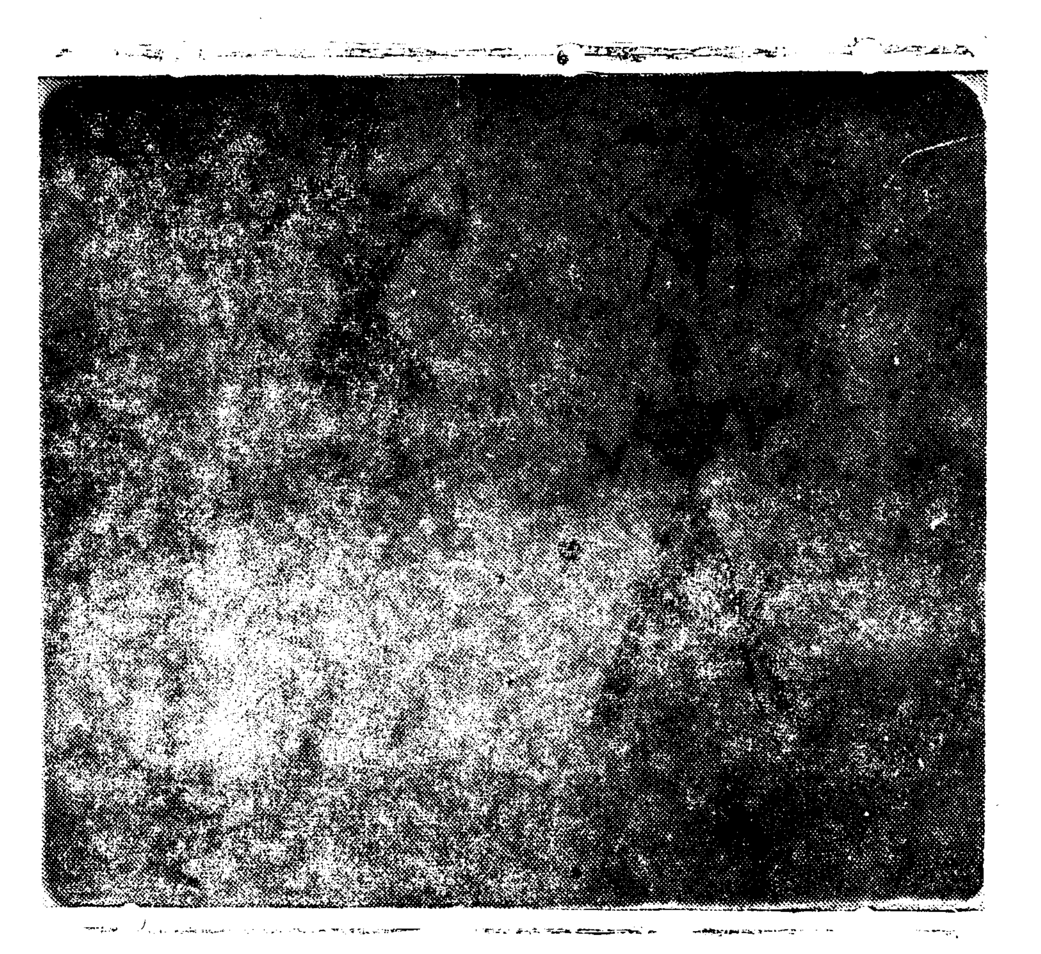
أولا : وجدت صور صخرية تنتمى لمرحلة حضارية مبكرة من العصر الحجرى القديم وهى خاصة بمرحلة الصيد والقنص وعدم الاستقرار

---

(1) At—Ansary, (A. K.) : «Qaryat Al—Fau» A Portraito ; PreIslamic Cinilization in Saudi Arabia, University of Riyadh. 1957—1932, P. P. 19—148.

(٢) جودى (أ ج) ولـكنسون (ج • س •) : بيئة الصحارى الدافئة ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، ١٩٨٠ م ، ص ١٢٦ .

(عن السلوك الايكولوجى للنبات خلال عصر البلايستوسين بالصحارى يقوم الباحث بإعداد بحث مقبل عنها) .

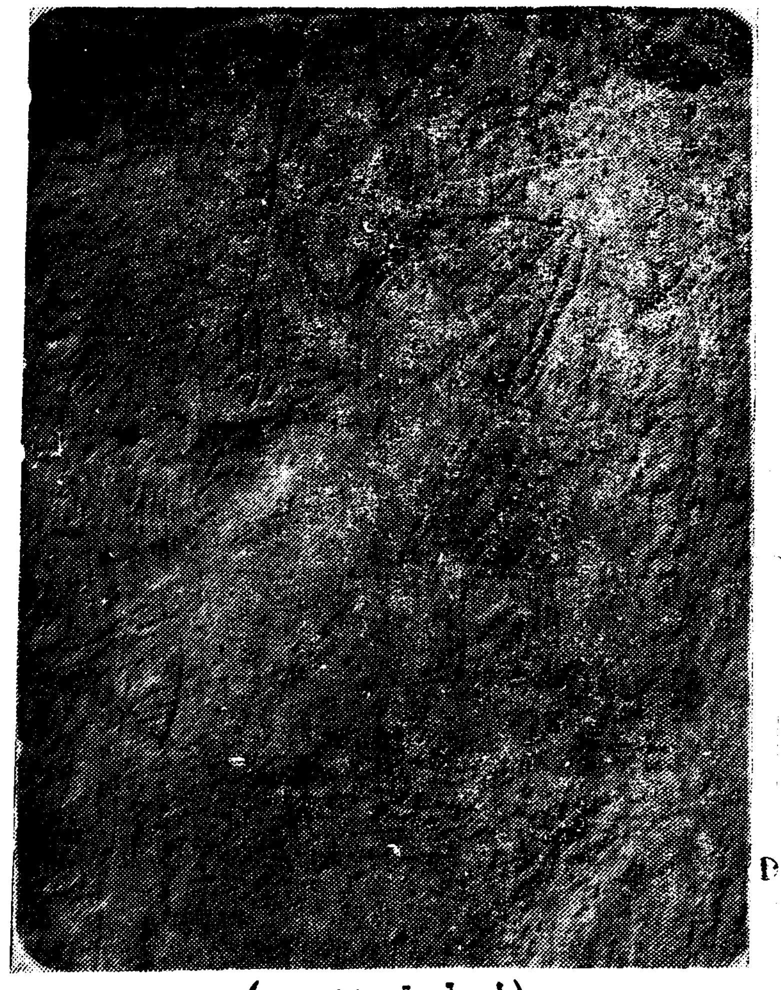


(لوحة رقم ١١ - أ) رسوم جدارية ملونة داخل منازل سكان الفاو
تدل على وجود الإنسان بها فى الدور الماطر الثانى



الإنسان وصيد الحيوان فى بيئة الفاو الجافة الآن

رسوم جدارية محفورة بالصخور الرسوبية لجبال طويق بالفاو ، دليل تنوع الرسوم بالفاو بين (رسوم ملونة وأخرى محفورة ومنقوشة بالصخر) وهو المبرر الذى استند إليه الباحث فى أنها (صور صخرية) .



(لوحة رقم ١١ — ب)

حفر / نقش توضيحى للإنسان وهو يحمل أدوات الصيد والقتال : الرمح ، وأحد الأسلحة حول وسطه (من داخل جدران منازل الفار)



شجرة النخل التى تأثر بها إنسان الفاو بمنطقته الجافة الآن
وبجوارها حيوان البيئة ربما يتغذى على بعض ثمارها
(داخل جدران منازل الفاو)

البشرى الإنسان ، الذى يسعى بدوره وراء فريسته من حيوان البيئة العاشبة المرتبطة بعصر المطر البلايستوسينى ، ولقد أطلق عليهم فنكار بالصحراء الشرقية بعصر اسم (الصيادون القدامى بالصحراء الشرقية) .

ولقد احتوت شبه جزيرة العرب فى المرحلة السابقة للثمودية وهى التى عرفت باسم مرحلة ماقبل الثمودية Pre — Thamudic Stage على رسوم تصور نفس النشاط السابق والمماثل لنظيره لدى سكان الصحراء الشرقية بعصر وعند ربط هذه المرحلة بموجات عصر المطر البلايستوسينى فإنها تقابل الدور المطير الأول بالصحراء الشرقية . وأيضا الدور المطير الأول بالجزيرة العربية والذى عرفه ماكلور الأثرى ١٩٦٧ باسم الدور الفريني ، الذى مر بأعوام ٩٠٠٠ — ٤٠٠٠ ق . م .) بشبه جزيرة العرب .

ثانيا : عثر بالإقليميين على عدة صور صخرية تنتمى لمرحلة حضارية أكثر تقدما هى العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) وفيه تتركز حرف الإنسان فى « مجال واحد » هو إنتاج الطعام حيث كان يتمثل أحد موارده فى رعى الحيوان باعتباره احتياطى « حى من اللحم » لدى الإنسان الراعى واهتمامه بالحيوان المتنوع للبيئة كما ذكرنا وهؤلاء من سماهم فنكار باسم (الرعاة أو سكان الجبال الأصليون) باعتبارهم قد عاشوا فوق هضاب صحراء مصر الشرقية ، ويقابل هؤلاء بالجزيرة العربية مرحلة الرسوم الثمودية التى صورت المجموعات البشرية مقترنة بالرسوم الحيوانية وعدة أنشطة مختلفة لهم داخل إطار الموجة الماطرة النباتية للعصر الحجرى الحديث ، والذى كان يؤذن بتحول تدريجى للبيئة صوب الجفاف ، لذا تعددت صور ارتباط الإنسان بحيوان البيئة ومحاولة صيده بأسلحة متطورة تلائم هذه المرحلة الحضارية كالقوس أو النبال أو الشراك .

ثالثا : مرحلة متقدمة تالية للحجرى الحديث وهى فى مصر تقترن بمرحلة مميزة ومتأخرة للحجرى الحديث « حيث عرفت هناك بعصر ماقبل الإسرات »

وقد وضح فيها وصول مؤثرات الجزيرة العربية داخل أعماق الصحراء المصرية الشرقية كما ذكرنا فى النطاق العرضى لطريق قنا ـ القصير ، بحيث كان من أبرز دلالاته ظهور رسوم قوارب بيئة مابين النهرين مرتفعة الطرفان على جدران الأودية الجافة للصحراء المصريه الشرقية وهؤلاء ما أطلق عليهم فنكلر اسم الغزاة الشرقيون The Eastern Invaders وكانت قواربهم « المميزة عن » نظيرتها ذات الطابع المحلى بالصحراء الشرقية على الجانب المتاخم لوادى النيل (وهى التى كانت هنا ترفع شعار المرور بين شمال وجنوب أسوان) كما أشار ترجر بروك فى علاقتها بالنوبة جنوب مصر . وهكذا كان مبرز ظهور تلك القوارب المميزة من بيئة مابين النهرين هو شهرة إقليم صحراء مصر الشرقية بتنوع حيوانه العاشب واللاحم وغنى بيئة الصحراء الشرقية فى فترة كانت فيها أدوار عصر المطر فى هيأة ذبذبات تؤذن بحلول الجفاف الهولوسينى بشبه الجزيرة ، بدليل أن نهاية هذا الدور الماطر بشبه الجزيرة لم تحدد ، وأنها كانت تتداخل حتى القرون الأولى للميلاد وحتى العصر العباسى .

ولقد احتوت شبه الجزيرة رسوم ذات طابع مميز لتلك الفترة ظهر فيها الحيوان ذو المقدرة على تحمل الجفاف كالإبل ، كما ظهر فيها كثرة رسوم النخيل كما هو واضح فى الفاو باعتبارها من أبرز النباتات التى أمدت الإنسان « بالتمر » على أنه (خبز الصحراء) وعلى ذلك فقد كانت رسوم النخيل دون غيره من النباتات فى أواخر الدور الماطر ذات دلالة على وجوده بشكل بارز عن غيره من النباتات التى عايشها الإنسان والتى وجدت بالإقليم فى مناطقه التى ساعدت ظروفها الهيدرولوجية فقط على وجوده خاصة بجوار موارد المياه المحلية بالإقليم كالأودية الجافة أو العيون أو الآبار . وهى المناطق التى كانت مراكز (جذب بشرى) عندما سادت ظروف الجفاف وارتبط الإنسان بقربه من موارد المياه ،

رابعا : الرسوم الصخرية بصحارى أمريكا الشمالية[1] :

لم يكن يتبادر بذهن الباحث فى مجال الصور الصخرية بالصحارى ، أن نكتشف مجموعة أخرى تناظرها كما هو الحال فى الصور الصخرية التى خلفها « البجا » بكاليفورنيا فلقد كانت تلك المجموعة من الصور ترتبط بنفس الظروف المناخية التى تناظرها فى العالم القديم حيث وجدت على جوانب المجارى المائية والكهوف الصخرية . وقد عرفت هناك بفن الحائط الجدارى The Murals ، وقـــد أثارت فضول أحد المبشرين الجزويت Jesuit Missionaries فى منتصف القرن الثامن عشر ، كما أثارت فضول وتساؤل Queried السكان الحاليين هناك لكن حل غموضها ظل معلقا .

إلى أن تناولها هارى كروسبى Hary Crosby ومساعده Charles O,Rear (عام ١٩٨٠م) وأعلنوا ارتباطها فى منطقتها الجبلية الجافة بفترة مطيرة مر بها سكان المنطقة القـــداى During the fall rainy season خاصة وأنها تركزت بها على جوانب المجارى المائية العميقة Canyons التى تشبة الأودية الجافة بصحارى شمال أفريقيا والجزيرة العربية السابق ذكرها من ناحية ، كما أنها ارتبطت بمناطق الكهوف الصخرية التى شبهت فى نظرى هارى كروسبى « بالقاعات الفنية الفسيحة A Gallery » .

ولقد بينت دراسة كروسبى أن الرسوم الصخرية تمثلت فى أربعة مواضع داخل شبة جزيرة كليفورنيا توالت من الشمال إلى الجنوب كالآتى :

— سيرادى سان بورجا . Sjerra de San BorJa

— سيرادى سان جوان . Sierra de San Juan .

---

(1) Harry Crosby : Baja's Murals of Mystery. National GeograPhic. November. 1980. PP. 622—702.

- سير دى سان فرنسيسكو Sierra de San Francisco.

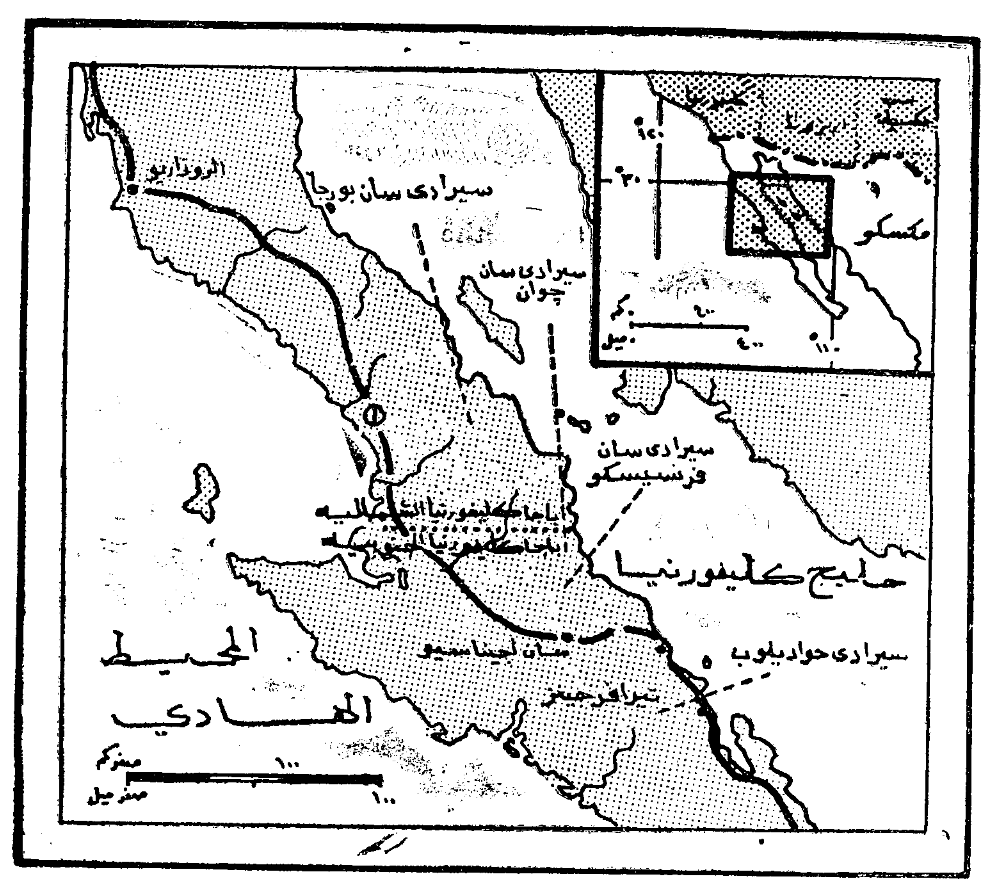
- ثم سيرا دى جواديلوب Sierra de Gaudalupe

(انظر الخريطة المرفقة شكل رقم ١٢) . وذلك على امتداد يقدر بحوالى ٣٠٠ ميل ، لذا فإزهارى كروسبى يرى أنها لم تزل للآن لم توفى حقها الكامل من الدراسة .

وتعد منطقة سيرا دى فرنسيسكوا من أوضح مواقع تلك الرسوم التصويرية ، فقد ساهم فى ذلك وجود قمم عديدة من البراكين أطلق عليها براكين Tres Virgenes ، التى كانت مصدر المادة الخام الملونة التى استخدمها الرسامون فى تصوير بيئاتهم ، لذا كان الكهف الطولى لسان بابلو San Paplo rock shelter بمنطقة سان فرنسيسكو يعرف لدى سكان المنطقة باسم « الكهف الملون » Cueva Paintada ! حيث ضم رسوم بلغ امتدادها ٥٠٠ ميل وارتفاعها على جدرانه ٣٠ قدم ، استخدم فيها الإنسان هناك أداة رافعة عالية أو ربما « سقالة متينة » A scaffold strong من جذوع النخيل المتساقط ، ودرج هياكل نبات الصبار Cactus skeletons الذى ثبت بدوره بأنسجة سعف النخيل Palm frond fibers ، وقد امتازت الصور التعبيرية بقربها من الحجم الطبيعى Life size وتمثيل حركى لموادها .

ولقد تمثلت الصور فى عدة موضوعات ، منها ماصور الحيوان المشابه لنظيره فى بيئة السفانا أو الاستبس الحالية كالغزال والماعز الجبلى ذو القرون الطويلة Bighorn sheep ، إضافة إلى الأرنب البرى Rabbits wildlife فى حركة قافزة بجميع تفاصيلها حيث لازالت توجد بالأقاليم الآن .

كما صورت الطيور وهى فى حركة تأهب للطيران أو ربما لتجفف أجنحتها Spreading wings to dry فى هيئة صفوف متداخلة تعبر عن الحركة المتكاملة لها .



(شكل رقم ١٢)
مواقع الصور الصخرية بالعالم الجديد
(أيضا بالنطاق الصحراوى)

إضافة إلى ذلك عثر على مجموعة رسوم بشرية . صورت الذكور والإناث مواجهين لبعضهم ورافعين أذرعهم لأعلى ، ووضح منها أيضا تسجيل « الحركة » البشرية وكلها صور اهتم الإنسان بتلوينها تماما كما اهتم بتسجيلها ورسمها .

ويرى كروسي أن تلك المجموعة من الصور ربما ترتبط بفترة زاد فيها معدل سقوط الأمطار على الأقليم During the fall rainy season .

وربما أضافت الرسوم التعبيرية هنا عندما أشارت إلى احتراف الإنسان للصيد ومدى احترامه له Respect for the Hunted، حيث ذاع انتشار رسم الغزال وهو مدجج بالرماح Impaled by arrows ، كما تأثر الإنسان بالحياة المائية Marine life عندما صور سمكة بلغ طولها ٣ أقدام . إضافة إلى تصوير آلة الصيد Anthropomorph كما سبق وأشرنا في فاو شبه الجزيرة قبل الإسلام .

ولكن لوحظ وجود اختلاف واضح بين موضوعات الصور الصخرية بالعالم القديم عامة وتلك بالعالم الجديد فما مرجعه إذن ؟

يرجع الاختلاف أساسا إلى سعة الشقة المائية بين الصحارى الأمريكية والعربية بحيث نتج عنه «وأد» أية علاقات بينهما ، فظهر الاختلاف الواضح في حرف السكان بحيث كانوا هنا يتحولون من الجمع والالتقاط بالداخل إلى صيد الماء على السواحل الصحراوية ، وهذا ما أضاف الاختلاف في صورهم عن صور شمال أفريقيا وشبه الجزيرة ، لذا فالمحيط الفاصل بين العالمين الجديد والقديم كان مدعاة « لخنق » كافة المؤثرات الخارجية ، عكس المسطحات المائية الصغرى كالبحر الأحمر والخلجان التي تخللت اليابس العربي ولم تحول دون اتحاد سمات موضوعاته فلقد كانت الصحارى هنا « مدرسة » تعلم الإنسان في كنفها دروسه الأولى في مراحل حضارية سجلها على جدران كهوفه وأوديته بصحاريه التي عرفت بصحارى منتصف العالم Mid Worlb Desert Belt [1].

---

(١) صلاح الدين بحيرى ، جغرافية الصحارى العربية ، المرجع السابق ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

الدلالة المناخية الكامنة خلف الصور الصخرية بالصحارى

هناك ارتباط بين الموضوعات التى احتوتها الصور الصخرية وبين المناخ القديم للبلايستوسين ، مما يؤكد أنها ذات علاقة وطيدة بالعصر المطير. أشار كارل بوتزر Karl Butzer ، أن دراسات روترت Rohtert (عام ١٩٥٢) ولوت Lhote (عام ١٩٥٩ م) تشير إلى أن احتواء هذه الصور على خليط كبير ومتنوع من الحيوانات التى تعيش الآن بمناطق السفانا بأفريقيا المدارية لاتلائمها سوى بيئة نباتية عشبية ذات أراضى رطبة .

فإذا وجدنا مثلا رسوم أو نقوش متعددة للفيلة . وقدرنا مايحتاجه هذا النوع الحيوانى من الغذاء الأخضر اليومى ، لوجدنا أنه فى حاجة إلى مايتراوح مابين ٣٠٠ - ٣٥٠ رطل حسب رأى بورلير Burliere (عام ١٩٦٣م) هذا بالإضافة إلى حاجته الضرورية من المياة (سواء أكانت جوفية أو سطحية مطيرة) . وقد ذكرنا أن هذا النوع قد شاع فى رسوم شمال أفريقيا وجنوبها الصحراوى الجاف بصفة عامة * (١) .

ولربما توجد لدينا أدلة أخرى تشير إلى وفرة الماء بهذين النطاقين حيث تستمد هذا الأدلة من شيوع رسوم القوارب فى الأودية الصحراوية ، كأودية الميتولا وفروعها ، والقش وفروعه وأودية المحور النيلى التى تقع على حافة الصحراء الشرقية المصرية فى جانبها الغربى ذو المناخ الصحراوى الجاف ، وكذلك قوارب الصحارى الجزائرية فهذه القوراب بالطبع لاتسير فى أودية

---

(1) Karl, Butzer (W.) : « Environment and Archeology » . Chicago. 1964. PP. 449—451.

جافة كما هو حالها الآن ، وربما كانت الصورة تختلف بحيث تأثر الإنسان بها ورسمها هناك .

كذلك فإن وجود رسوم « لأفراس النهر » بالصحارى لهو دليل على ملاءمة الحياة لها ، ودليل ذلك أنها تحتاج إلى مايقرب من ٢٠٠ رطل يوميا من الغذاء الأخضر ، كما تحتاج إلى بيئة عاشبة ، وربما لاتحتاج للعيش فى مياه مفتوحة بل بحيرات أو برك مغلقة . وربما يرتبط وجوده بالصحراء الشرقية من مصر وبجنوب عرب الترانسفال(*) إلى « سماح بيئته » لشروط معيشته وغذائه السابق[1] .

كما أن وجود التمساح يتطلب ارتباطه بالماء ، حتى ولو كان متواضع فى هيئة برك صغيرة ، لكنه فى أغلب الأحوال يرتبط فى وجوده بالماء . وربما تعددت صوره بالصحراء الشرقية المصرية وأوديتها كالمطوانى وفروعه وأبو واصل ، ليدل على أنها أيضا لم تكن جافة كما هى الآن .

وهنا يؤكد ميتشل (Mitchell (J. B. (عام ١٩٥٤ م) أن وجود هذه المجموعة الحيوانية السابق ذكرها كان يرتبط فى المقام الأول بشروط نباتية معينة لاتتوافر بالصحارى إلا من خلال العصر المطير وفتراته الرطبة[2] .

وهنا قام « مايونى » بدراسته التحليلية والعلمية الدقيقة ، والتى أوضح فيها صورة التوزيع السابق واللاحق للأنواع الحيوانية فى الفيلة ووحيد القرن وأفراس النهر بالإضافة إلى الزراف ، حيث لاحظ الآتى :

- ارتبط التوزيع الحالى لوحيد القرن أو فرس النهر بمناطق تستقبل

---

* يقصد بجنوب أفريقيا الصحراوى نطاق صحراء كلهارى بجنوبها الغربى كما أشرنا إليه بداخل النص .

(1) Karl, Butzer (W.) : Ipid, PP. 449— 451.
(2) Karl, Butzer : Locit .

قدر سنوى من الأمطار يبلغ معدله ١٥٠ سم . وجدير بالذكر أن نظم الأمطار العالمية Rainfall Regem تشير إلى أن هذه الكمية ترتبط أساسا بحواف النظام الاستوائى الرطب Tropical Hot Climate والذى يرمز له جلن تريورتا Glenn (T.) Trewartha بالرمز (Ar)³ الذى يعنى أن عــــدد شهوره المطرة خلال العام تتراوح ما بين عشرة إلى إثنى عشر شهرا ، والذى يرتبط معدله السنوى للحرارة بحوالى ٢٥ - ٢٧ درجة مئوية[1] .

- كما أن الحد الأدنى للأمطار بالنسبة للفيلة إنما يرتبط بخط مطر متساوى ١٠٠ سم للعام تقريبا أى بالحواف الجنوبية الإنتقالية بين الإقليم السابق وإقليم البحر المتوسط طبقا لكميات نظام المطر فيه أى حواف السافانا[٢] .

- أما الزراف فهو يرتبط بكمية مطر ٥٠ سم للعام ، وهذه ترتبط بالحدود الخاصة بنظام مطر البحر المتوسط بصفة عامة ، وقد ورد ذكرها برسوم الصحراء بشمال أفريقيا وشبه جزيرة العرب . (انظر خريطة شكل رقم ١٣) .

ولقد احتوت الصور الصخرية على مجموعة صور لحيوانات مائية دلت بشكل مباشر على احتياجها الماء دون تقدير مقنناتها منه ، ومثال ذلك صور الأسماك فى (آن ترومساك بالجزائر) وصور الأسماك بجنوب أفريقيا ، كما وجدت صور للأسماك فى جنوب غرب أمريكا الشمالية بالإضافة إلى صور للحيتان البحرية باعتبارها صحراء ساحلية مطلة على الباسفيكى ، وكذلك وجدت بالفاو فى جنوب الجزيرة العربية . وربما كان العذر فى صحراء أمريكا الشمالية الجنوبية الغربية لإنسانها عندما تأثر ببيئة الساحلية ، ولكن ما العذر لإنسان

---

(1) Glenn (T.) Trewartha & Lyle (H.) Horn : An Introduction to Climate. Fifth Edition; London—1980 . P. 235.

(٢) يوسف عبد المجيد فايد : جغرافية المناخ والنبات . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت . ١٩٧١ م ص ٨٩ ، ٩٠ .



(شكل رقم ١٣) عن كارل بوتزر « البيئة والآثار »

الصحراء الجزائرية وصحراء جنوب أفريقيا وأيضا جنوب شبه الجزيرة !!

كما احتوت بعض رسوم الصحارى على صور للنبات الطبيعى المقترن ببيئة العصر المطير كما هو الحال فى رسوم موريتانيا كما يذكر سميث فليب، إضافة إلى رسوم نباتات بيئة العصر المطير بالبيئة الصحراوية للمملكة العربية السعودية كما أشرنا إليها سابقا(١) .

إضافة إلى ما سبق توجد مجموعة صور « للطيور القديمة بالصحارى » كالنعام والبوم فى جنوب أفريقيا ، وفى الصحراء الشرقية بوادى أبو صحاج، كطيور الحبارى (ديك رومى) والغراب ومالك الحزين ، وهذه تصور غنى البيئة وتنوع ما تحتويه من حياة « حيوية » .

ولعل أبرز الصور الصخرية هى التى ارتبطت بالصور البشرية لسكان الصحارى فقد صور الرجال فى مختلف مراحل أنشطتهم ، سواء الصيد أو الملاحة ، ولقد سادت الأولى بالجزيرة العربية وشمال أفريقيا وجنوبها والعالم الجديد . مما يدل على معيشة الإنسان وممارسة الصيد . أما الملاحة فلقد اقتصرت على الصحراء الشرقية وأوديتها المتجهة صوب النيل ، فهذه دلالة على جريان أوديتها بالماء واستخدام الإنسان لتلك الأودية فى التنقل ومثال ذلك وادى القش .

كما صورت النساء بعضهن راعيات الأغنام فى وادى أبو واصل وهوية بالصحراء الشرقية وأيضا بصحارى جزيرة العرب ... أليس فى هذا دلالة على مقدرة الصحراء على استيعاب السكان قديما ، كما وجدت حيوانات الرعى التى ترتبط بالمرعى الوفير . أضف إلى ما سبق الآلات والأدوات الحجرية الصوانية مقترنة ببعض الرسوم ، كوادى عطوانى بالصحراء الشرقية. إضافة

---

(1) Smith (E. L.) Philip : »Early Food production in North Africa. pp. 156—157.

إلى الشقف (الكسر) الفخارى بوادى القش . ووادى فاو بالجزيرة العربية .

وبناء على ما سبق ... ألم تكن البيئة بالفعل صدى للعصر المطير ؟ ! رغم أنها الآن ينطبق عليها تصنيف بلير Blair (.T.A) (عام ١٩٤٢ م) من أن الصحراء هى المنطقة ذات المناخ الجاف والذى يحدها خط المطر المتساوى ١٠ بوصات (٢٥ سم/ ٢٥٠ ملليمتر للعام) ، بحيث ما يقع دونه يعد صحراء وما يقع بعده أو يتعداه يعد فى حيز المناخات الرطبة ، ولكن « أوستن ميللر » يصحح هذا التحديد عندما وضع فى اعتباره « عامل التبخر » والذى يؤثر بدوره على الأثر الفعلى للأمطار Effectivness بما يلتهمه من الماء ثم بما ينساب من الماء الجارى فوق الأراضى الصحراوية الجافة ، ومن هنا يضيف « ميللر » على رأى « بلير » التعديل القائل بأن الحدود أقل من ١٠ بوصة هى الحدود الملائمة للصحارى الحارة لذا فهى لا يقل متوسط حرارتها الشهرية عنده عن ٤٣ فهرنهيتيه ويرمز له بحرف (.F) ، ولكن عادة ما نجد أن تصنيف بلير هو الذى لايزال يسود خاصة فى مجال تحديد أمطار الصحارى الحالية ومنها صحارى قارة أفريقيا سواء الكبرى أو كلهارى (بمقدار يقل من ٢٥ سم / ١٠ بوصات) . أو غيرها من الصحارى الحارة . وإذا اتبعنا تصنيف ثورنثويت Thornthwaite فى تصنيف المناخ الصحراوى الجاف لنطاق الصور الصخرية بالعالم ، فإننا نجده يصنفه على أساس الجمع بين عناصر المناخ المؤثرة فيه بشكل واضح وهما علاقة التبخر (E) بعنصرى التساقط من ناحية (.p) والحرارة (.T) فى تصنيفه لعام ١٩٣١ م من ناحيـــة والتبخر وعلاقته بالنتح Evapotranspiration فى تصنيفه المعدل لعام ١٩٤٨ (*)

(*) توصل فى تصنيفه لعام ١٩٣١ م إلى تقسيم العالم إلى خمس فئات مناخية عندما جمع بين التبخر والتساقط (E . P) تقابل خمس أنواع رئيسية لغطاء النباتى الطبيعى (غابات مطيرة ، غابات ، حشائش ، استبش ، صحارى) وفى جمعه التبخر والحرارة (.T . E) توصل إلى تقسيم العالم لحوالى ست نطاقات حرارية (نطاق مدارى ، معتدل ، معتدل بارد ، تاييجا ، تاندرا ، جليد دائم) .

لذا يرمز فى تصنيف عامى ١٩٣١ ، ١٩٤٨ م إلى إقليمنا بأنه ($EdB_4\acute{a}$)
بحيث أن : E = من ناحية الرطوبة فهى تعنى منخفضة بحيث تصل إلى أقصى قدر انخفاضها به فهى (أقل من ٤٠ إلى أقل من ٦٠) ، ويعزى ذلك إلى عدم توافر مصادر الرطوبة بالأقاليم (كالنبات الطبيعية أو المسطحات المائية الداخلية كالبحيرات . أو المستنقعات أو الأنهار .. الخ) . وهذه عوامل تزيد جفاف الإقليم على الأقل فى الهولوسين بشكل يخالف ما نراه من زحزحة للأمطار وما يترتب عليها من تأثر الأودية الجافة الآن بها ، علاوة على وفرة النباتات الطبيعية بدليل وفرة الحيوانات العاشبة واللاحمة السابق الإشارة إليها بالصحارى .

كما أن d = ترمز إلى إنخفاض ملحوظ فى فصلية الرطوبة حيث تتراوح قيمتها بين صفر (إنعدام إلى ١٠)(١) .

أما B_4 فهى تعنى الربط بين معدلى التبخر والنتح الكامنين ، وبين عنصر الحرارة وطول النهار . وبذلك اعتبر أن طاقة التبخر والنتح هى (١١٤سم) التى تعد الحد الفاصل بين الأقاليم المناخية الحارة ومنها نطاقنا الصحراوى وبين الأقاليم المعتدلة .

كذلك يعنى á أن التركز الفعال للحرارة فى فصل الصيف (وأشهره الثلاثة) حزيران ، تموز ، آب/ يونيه ، يوليية ، أغسطس) وتبلغ النسبة المئوية للتركيز لإقليمنا أقل من ٤٨,٠٠ ٪ أى أنه حار .

وبهذا فإن إقليمنا يتميز مناخيا منخفض الرطوبة ٤٠ — ٦٠ ٪ حتى أنها تنعدم فصليا إلى ١٠ ٪ ، كما أن طاقة التبخر والنتح به مرتفعة (١١٤ سم) إضافة إلى أن التركز الحرارى الصيفى الفعال أقل من ٤٨ ٪ إذن هو

(١) نعمان شحادة : المناخ العملى ، الجامعة الاردنيـــة ، الاردن ١٩٨٣ ، ص ١٦٠ — ١٦٦ .

(Ed-B$_4$ d) وفى التصنيف المعدل للإقليم الجاف لدى تورنثويت لعام ١٩٥٠ م ، نجده يصنف الإقليم بأنه E.S$_2$ وتعنى :

(E) إن رطوبته تقل من ٦٦ر٧ إلى أقل من ١٠٠ (أى جاف) .

(S$_2$) حيث تعنى أن العجز المائى به كبير فى الصيف بحيث يزيد عن ٣٣ر٣ ٪ طبقا لمؤشر الفائض المائى . فإقليمنا الصحراوى يمتاز بقلة الرطوبة أقل من ٦٦ر٧ ، وأقل من ١٠٠ ، وارتفاع عجزه المائى صيفا طبقا لمؤشر الفائض المائى ٣٣ر٣ ٪[1] .

كما أن تصنيف كوبن ، يحدد إقليمنا الصحراوى B W ويميزه من خلال معادلاته عن المناخات الأخرى بمعادلات خاصة . مع إضافة متوسط الحرارة السنوى ممثلا فى حرف (h) وهو مايعنى أنه فوق ١٨° مئوية صيفا (إذن إقليمنا طبقا له « BWh » . أى جاف مرتفع الحرارة وبهذا يمكن أن تناقض الصور الصخرية « صفة الجفاف » كما أشرنا فى مقدمة هذا البحث .

---

(١) أنظر :

نعمان شحاتة : المرجع السابق ، ص ١٦٠ - ١٦٦ .

يوسف عبد الحميد فايد : دراسات مقارنة للتصنيفات المناخيـة (محاضرة ألقيت بدار الجمعية الجغرافية المصرية (الأربعاء ١٧ أبريل ١٩٦٣م) الموسم الثقافى، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٨٤ — ٨٩ .

قائمة المراجع الأجنبية

1 — Al Ansary (A. R.) : Qaryat Al—Fau » A Portrait of Pre — Islamic Civilization in Saudi Arabia » . University of Riyadh. Riyadh. 1957 .

2 — Aoua Dawson & Others : The Kingdom of Saudi Arabia. London. 1979 .

3 — Attia (M. I.) : «TopOgraphy and Goology and Iron—Ore Deposits of the District East Aswau» . Geological Survey . Cairo. 1955.

4 — Brentjes, Burchard : »African Rockarts. Translated by Antony Dent. Roma. 1969 .

5 — Brooks (C. E. P.) : « limate Through the Agcs». New York. 1970

6 — Deparıment of Antiquities 'and Museums : «ATLAL« The Journal of Saudi Arbian Archaeology . Vol. 2. (1398 A. H) — 1978 A. D. Riyadh .

7 — Department of Antiquites and Museums : « ATLAL » The Journal of Saudi Arabiau Archaeology. Vol. 3.(1399 A. H) 1979 A. D. Riyadh

8 — Ford J. L. Johstonc : « Neolithic Cultures of North Africau » Liverpool University press. 1656 .

9 — Gelen T. Trewertha & Lyle H. Horn : « An Introdaction to climate. Fifth Edition, London. 1680

10 — Huzayyin (S. A) : »Some new light on the Beginniugs of Egyptan Civilization« Extreit du Bulletin de la Socicte Royale de Gergraphie d, Egypte. T. (XX) 1939

11 — Harry Crosby : « Baja Murals of Mustery» Geographic, November — 1980

12 — Karl, Butzer (W.) : « Environment and Archeology » Chicago. 1964 pp. 449—451

13 — Korovkin (F.) : History of The Ancient World. Moscow. 1985

14 — Murray (G. W.) : The Egyptian Desert and Its Antiuipty, Survey Department. Egypt, Paper no 49

15 — Murray, (G. W.) Myes (C. H.) : Some Pre — dynastic pock Drowiugs. The Jonrnal of Egyptian Archaealogy. Volume parts. III à IV Great Britain. 1933

16 — Breston James : « American Geography » Inventory and Prospect. Washington. 1954

17 — Peak and Fleure : Peasants and Potters. London. 1927

18 — Smith (E. L.) Philipe : Early Food Production in North Africa .

19 Trigger, Bruce : Nubia Under the Pharaons. London. 1976

20 William Howells : Back of History. New York. 1954

21 Winkler, Hans A. : Rock Drawings of Southern Upper Egypt. Part I. London. 1938

قائمة المراجع العربية

١ - إبراهيم الشتلة : « الثموديون » . مجلة الدارة ، العدد الرابع ، الرياض ، رجب (١٤٠٠ هـ - يونيه ١٩٨٠ م) .

٢ - جودى (أ . ج .) ولكنسون (ج . س) : بيئة الصحارى الدافئة ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، ١٩٨٠ م .

٣ - شحاته آدم محمد : الرحلات والبعثات برا وبحرا فى مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى نهاية عصر الدولة الوسطى ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٤ - صلاح الدين بحيرى : جغرافية الصحارى العربية ، عمان ، ١٩٧٩م .

٥ - عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

٦ - عبد القدوس الأنصارى : بين التاريخ والآثار ، دار العلم للملايين ، ط ١٣ ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٧ - (ك) جوزيف ، زربو : فنانو العصر الحجرى الحديث ، مجلة اليونسكو الشهرية ، العدد ١٢٩و٢٢٠ (أكتوبرونوفمبر) . باريس . ١٩٧٩م.

٨ - كنيث والطون : الأراضى الجافة ، ترجمة على عبد الوهاب شاهين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

٩ - مايرز (ج . ل) : فجر التاريخ ، ترجمة على عزت الأنصاوى ومراجعة عبد العزيز كامل (د.ت) .

١٠ - محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية لعصر ما قبل التاريخ وفجره ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٥ .

١١ - محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الرياض ١٩٧٧م .

١٢ - محمد صبحى عبد الحكيم وماهر عبد الحميد الليثى : علم الخرائط .

١٣ - وفاء محمد رفعت وجمال عبد الهادى : نحو تأصيل إسلامى للتاريخ ، جزيرة العرب منذ أقدم العصور ، ج ١ . دار الطباعة الحديثة ، مكة ، ١٣٩٨ ه / ١٩٧٨ م .

١٤ - نعمان شحاده : المناخ العملى ، الجامعة الأردنية ، الأردن ، ١٩٨٣ م .

١٥ - يوسف عبد المجيد فايد : دراسات مقارنة للتصنيفات المناخية محاضرة ألقيت بدار الجمعية المصرية (الأربعاء ١٧ ابريل ١٩٦٣ م) الموسم الثقافى ، القاهرة ١٩٦٣ م .

ملخص البحث

الصور الصخرية الحائطية ودلالاتها المناخية على العصر المطير بالنطاق الصحراوى

تطابق توزيع الصور الصخرية مع النطاق الصحراوى الجاف بين خطى عرض ١٨° – ٣٠° شمال وجنوب خط الاستواء بالعالم . ولقد كان ذلك مدعاة للبحث فى مجال الربط بينها وبين التغيرات الجغرافية التى شاهدها هذا النطاق خلال عصر البلايستوسين فى هيئة « عصر مطر أو فيضان كبير » .

ولقد ركز الباحث جهده من أجل إبراز الدلالات المناخية الكامنة خلف مجموعة الصور الصخرية بالنطاقات الصحراوية ، وأجرى بين ماوجد منها بالعالم القديم وبالذات فى عالمنا العربى ، وبين ما وجد فى العالم الجديد مقارنة أوضحت الاختلاف فقط فى ماتناولته من موضوعات بينما أشارت إلى اتحادها فى الجوهر المتعلق بالتغير المناخى للعصر المطير .

ولقد أورد البحث دراسة مقارنة وضحت فى الخلاصة بين مجموعة صور شبة جزيرة العرب ومجموعة صور الصحراء المصرية للشرقية ، تبرز الانطباق العام بين موضوعاتها والتغيرات المناخية للبلايستوسين بكلى الصحراوين بالذات .

كما أشار البحث إلى أن المجموعة المتنوعة للصور الصخرية بالعالم تدور أساسا حول إبراز ثلاثة مراحل حضارية هامة مرت بها الصحارى فى عصر ماقبل التاريخ وكانت تتمثل فى مرحلة الصيد والقنص ، ومرحلة الرعى واستئناس حيوانات البيئة ، ثم مرحلة الاتصالات الحضارية التى تعد جزء متقدم من عصر ماقبل التاريخ يؤذن ببداية واضحة للعصر التاريخى ، ولقد ربط البحث بين المراحل الثلاثة السابقة ، وبين التغيرات المناخية الممثلة فى الأدوار

المطيرة للبلايستوسين ، بحيث توافق المرحلة الأولى فترة عدم الاستقرار البشري والتنقل وراء حيوان الصيد وهـــذا مايوافق الدور المطير الأول والأغزر مطرا من التالى له ، بينما يوافق الدور الماطر الثانى فترة الانجـذاب « المتراجع للإنسان» صوب موارد المياه الدائمة بالصحارى وبالتالى الاستقرار ومحاولة التأقلم مع حيوانات البيئة من خلال حرفة الرعى ، ثم زيادة الاتصالات المقترنة « بالهجرات البشرية » صوب مناطق أكثر استقرارا من الناحية (الهيدرولوجية) ومن ثم تتطابق تلك الفترة مع بداية الجفاف التدريجى للهولوسين .

ولقد أورد البحث صورة لهجرة خطوط المطر المتساوى وبالتالى انكماش النطاق الصحراوى فى عصر البلايستوسين مما يبرز ظهور (الزخيرة الوفيرة للصور الصخرية) بنفس المناطق التى تعانى من الجفاف الحالى بالصحارى .

ABSTRACT

The Climatic Significanse of Rock-drawings in Hot Deserts

The area located between Latitudes 18 and 30 north ond south of the equator exhibits a substantial coincedence between the hot arid desesrt of the World end a rich record of rock drwaings have peen most valuable in illumentaing the climatic changes which have been experiénced in that extend of land during the pluvial age of the pleistocene era,

This paper presents a twofold comparative analysis of :

First : The rock drawings of Arabia and that of the Eastern desert of Egypt,

Second : All rock drawings of the pluvial age (the prehistoric period) .

It was observed that tbe two regions have gone through three main developmental stages :

1— The Palaeolithic stage which is correlated with the first Pluvial period and prevalent activity of man was huning of the wild animals in nis immediate environment .

2— The Neoiithic stage during which man was far mor settled especially near water sources in desert area .

3— The last stage of the Neolithic was a time when man started his migratory movements toward area of more stable and permanent watere resources .

Talat Ahmed Abdou

القسم السادس

الدراسات الإعلامية

١ ـ الدكتور محي الدين عبد الحليم
٢ ـ الدكتور مرعى مدكور
٣ ـ الدكتور صلاح الدين عبدالحميد
٤ ـ الدكتور سامى عبد العزيز الكومى
٥ ـ الدكتور شفيق عبد الرازق أبو سعدة

المنافقون وأصول العمل الإعلامي

بقلم الدكتور
محي الدين عبد الحليم
رئيس قسم الصحافة والإعلام
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فأحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون } صدق الله العظيم .

مقـــدمة :

حفلت بحوث الإعلام بدراسة الطبيعة النوعية لجمـــاهير الرأى العام لاستكشاف السمات المميزة لمختلف الفئات ومعرفة هوية كل واحدة منها . لأن دراسة الرأى العام وتحديد الشرائح الجاهيرية المختلفة يعد أساسا هاما ، ومرتكزا رئيسا لعلماء الاتصال وخبراء السياسة تمكنهم من وضع الخطط العلمية التى تتناسب مع كل فئة حسب فكرها وعقيـــدتها وإطارها الدلالى ... إلخ .

وإن كانت هذه الدراسات قد استطاعت أن تضع النقاط على الحروف فى هذا الصدد إلا أن شريحة منها لم تجد لها مكانا بين الدراسات العلمية المتقدمة على الرغم من تأثيرها الكبير على الرأى العام ودورها البالغ الخطورة فى حياة الأمم والشعوب ، وهى شريحة المنافقين .

وقد اهتم القرآن الكريم بهذه الفئة إهتماما كبيرا وأفرد لها سورة كاملة ، تحمل اسمها ، وتعرض لها فى العديد من المواضع فى كثير من سور القرآن كما تناولها الرسول صلى الله علية وسلم فى أقواله وأفعاله ، وخاض معها تجارب قاسية جديرة بالاهتمام والدراسة .

والنفاق يأتى فى مقدمة معاول الهدم لكيان المجتمعات ، وهو داء عضال يتطلب استراتيجية خاصة لمواجهته .. وترتفع معدلات النفاق فى المجتمعات التى تمر بفترات تحول حيث تظهر فئة المستفيدين من الوضع القديم والتى تتضرر من الوضع الجديد ، ثم يكيدون لدعاة التغيير والإصلاح .

وإذا كان النفاق يمثل خطورة على المجتمع بصفة عامة ، فإن خطورته تزداد بين الأوساط التى تتبوأ مواقع دقيقة وتتحمل مسئوليات حساسة لاسيما هؤلاء الذين يتصدون لقيادة الفكر أو يضطلعون بمهمة الاعلام والدعوة والاتصال بالجماهير .

وتشتد خطورة المنافقين إذا لبسوا ثوب الدين والعقيدة ، فهم حينئذ يفسدون فى الأرض ويصبحون أداة طيعة لتزييف الحقائق ، ويسخرون الدين لتحقيق أغراضهم ، ويفسرون آيات الكتاب حسب أهوائهم ويحملون النصوص غير ما تحتمل ، ويلوون عنق الحقيقة لتتوافق مع أهوائهم ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »(١) .

وتأسيسا على ذلك فإن خطط الدعوة والإعلام لابد أن تأخذ فى اعتبارها هذه الفئة من الناس وتعمل على اكتشافهم ، ومعرفة نشاطهم وتحركهم وأماكن تواجدهم لتستطيع أن تحمى الجماهير من شرورهم ، وتحجم نشاطهم حتى لا يمتد تأثيرهم ولا تتسرب عدواهم إلى الشرائح الجماهيرية الأخرى ، وحتى ندفع عن المجتمع خطرهم .

ولعلى بهذه الدراسة أستطيع أن أسهم فى إثراء للبحث العلمى فى حقل الأعلام والرأى العام .

وقد كان القرآن الكريم هو المصدر الرئيسى من مصادر هذا العمل العلمى لما احتواه من تحليل دقيق ووافٍ لهذه الفئة من حيث السلوك والاتجاه ، كما كانت سنة الرسول مصدرا رئيسيا لهذه الدراسة ، ثم المراجع الأصيلة فى التفسير والتاريخ الإسلامى وما تناولته كتب المعاصرين فى هذا الصدد .

وتحوى هذه الدراسة عرضا علميا لمفهوم النفاق ، وأنواعه ، والسمات المميزة للمنافقين ، والصعوبات التى تكتنف الباحثين والخبراء وقادة الرأى حين تواجه هذه الفئة ، وكيفية إعداد الخطط الإعلامية للتعامل معها كما تناولت هذه الدراسة المناخ الذى يسود فيه النفاق ، وعوامل ازدهاره ، وآثاره السلبية على خطط الدعوة والإعلام .

---

(١) سورة آل عمران : آية (٧٨) .

مفهوم النفاق

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ، وتتفاوت مراتبه بين النفاق الاعتقادى وهو الذى يخلد صاحبه فى النار ، والنفاق العملى الذى يرتكب صاحبه أكبر الذنوب[1] .

والمنافق فى الاصطلاح الشرعى هو الذى يظهر خلاف ما يبطن، فإذا كان الذى يخفيه هو التكذيب بأصول الإيمان ، فهو المنافق الخالص ، وحكمه فى الآخرة حكم الكافر ، وقد يزيد على الكافر فى العذاب لخداعه المؤمنين بما يظهره .

أى أن المنافقين ليسوا على درجة سواء من النفاق ، فمنهم من تصحو نفسه اللوامة لتعيده إلى الإيمان ، ومنهم من يتمادى فى نشاطه ، ويستمر فى نفاقه ، والمنافقون يقولون عن أنفسهم أنهم غير مفسدين فى الأرض ولكنهم المصلحون فيها ، ولكن الله يقرر أنهم هم المفسدون :

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »[2] .

وجوهر النفاق واحد وإن اختلفت أنماطه ودرجاته ، وتعتبر حركة النفاق من أخطر الظواهر فى حياة الأمم والشعوب ، ولا أدل على ذلك من هذا الحيز الكبير الذى شغله الحديث عن النفاق والمنافقين فى القرآن الكريم .

فالآيات التى تتحدث عن المنافقين فى القرآن كثيرة ، وهى فى سورة البقرة تبدأ من الآية الثامنة حتى الآية العشرين ، هذا بخلاف ما جاء عنهم فى سورة التوبة وهو ما يكون الجزء الأكبر من هذه السورة ، فشغل هؤلاء

---

(١) إسماعيل بن كثير الدمشقى : تفسير القرآن العظيم ج ١ ، القاهرة ، مكتبة الدعوة الإسلامية ١٩٨٠ ، ص ٤٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية (١١ ، ١٢) .

مساحة كبيرة من الآيات الكريمة ، بل أن الحق تبارك وتعالى قد خصهم بسورة كاملة تحمل اسمهم وتحوى إحدى عشرة آية[1] .

والمنافقون بصفة عامة هم الذين يخالف قولهم فعلهم ، وسرهم علانيتهم ، ومدخلهم مخرجهم ، ومشهدهم مغيبهم .

وإذا كان الذى يخفيه المنافق شيئاً آخر غير الكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإنما هو شىء من المعصية ، فهذا النوع هو الذى فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق[2] .

وكلمة المنافق فى لغتنا المعاصرة تشمل المعنى الدينى والاجتماعى والخلقى ، ولاشك أن الموصوم فى دينه بالنفاق يسهل عليه النفاق السياسى أو الاجتماعى أو غير ذلك ، والمنافقون عشاق زعامة ، وعبيد مصالح ، يمتطون كل موكب يضمن لهم السيادة والقيادة ، ومن أجل هذا فإنهم يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره[3] .

وقد ظهرت فى الأفق أنواع متعددة من النفاق أبرزها :

١ — النفاق السياسى : وهو الذى يدفع صاحبه إلى خداع الرأى العام لكسب تأييده والحصول على دعمه لكى يتبوأ مكانه فى المجالس النيابية والشعبية ليحقق أغراضه وطموحاته الخاصة أو الذى ينافق السلطان ليحصل على وضع مميز أو مركز قيادى ، ويظهر هذا النوع بصورة واضحة أثناء الحملات الانتخابية والأزمات السياسية .

---

(١) أحمد إبراهيم مهنا : تبويب آى القرآن الكريم من الناحية الموضوعية . ج ١ القاهرة . دار الشعب . د . ت . ص ٥٣ .

(٢) عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة . ج ١ . مطابع المختار الاسلامى . د . ن . د . ت . ص ٩٢ .

(٣) محمد سيد محمد : المسئولية الاعلامية فى الإسلام . القاهرة . مكتبة الخانجى ١٩٨٣ . ص ١٦٩ .

٢ — النفاق الاقتصادى : وهو الذى يخدع الآخرين لتحقيق الكسب السريع الذى لا يعكس واقعا ولا يعبر عن إنتاج فعلى ، ولا يخدم مصلحة عامة ، ولكن يدر ربحا سريعا على صاحبه بغض النظر عن مردوده الاجتماعى .

٣ — النفاق الاجتماعى : ويظهر بصوره واضحة فى المعاملات اليومية بين الأفراد والجماعات وقطاعات العمل والأنشطة المختلفة ، وقد يمارسه بعض الأفراد والجماعات بطريقة تلقائية لأنهم تعودوا عليه وأصبح جزءا من تكوينهم الفكرى وسلوكهم اليومى .

٤ — النفاق الوظيفى : وهو الذى يسود فى دوائر العمل للحصول على مركز وظيفى أو مغنم مادى ، أو وضع مميز ، ويستشرى هذا النشاط بصورة كبيرة فى المواقع التى لا تحكمها قواعد ثابتة أو قوانين حازمة ، وكذلك المواقع التى توضع فيها قيادات ضعيفة الأداء سقيمة الوجدان تستجيب بسهولة لعوامل الجذب والاستمالة التى يمارسها المنافقون .

٥ — النفاق فى أجهزة الدعاية والإعلام : وهو الذى تمارسه بعض العناصر التى تعمل فى هذا المجال الحيوى ، ومجالات النفاق فى العمل الإعلامى متعددة حيث يمكن أن يتخذ النفاق أشكالا وأنماطا مختلفة ويقدم فى قوالب كثيرة ويخدم أغراضا شتى ، وهذا النوع من النفاق يتطلب اهتماما خاصا من الباحثين والمختصين فى هذا الفرع الهام من فروع العلم والمعرفة نظرا لخطورته على قطاعات كبيرة من الجماهير .

والمنافقون فئة ليست لها أصول عرقية أو جذور تاريخية أو عقائد دينية أو أيديولوجيات وضعية ، فقد أنجب رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ابنا صالحا وهب نفسه وحياته لله ولرسوله ، وأفرزت عصور الظلام والضلال أخيارا حملوا مشاعل الحرية والهدى ، كما خرج من ظهور العمالقة أقزام ومنافقون ألبسوا الحق ثوب الباطل وألبسوا الباطل ثوب الحق .

والنفاق إذن لا يرتبط بزمان أو مكان أو عائلة أو عشيرة معينة ولكن المنافقين فئة ضلت فأضلها الله ، وغرت فأغراها الشيطان ، وهوت فسقطت فى أتون الرذيلة والضلال .

المنافقون وأثرهم فى الرأى العام

ترجع خطورة المنافقين إلى دورهم الفعال فى إحداث الفتنه ، وتمزيق الكلمة ، وبث الكراهية ، وتشتيت شمل الجماعة ، فهذه فئة تظهر الإيمان والمحبة رغبة فى تحقيق أغراضها ، وتكن العداوة والبغضاء حقداً وحسداً وعدوانا على المؤمنين والناجحين .

وحركة النفاق تتخذ الدس والوقيعة طريقا لها ، ويشهد تاريخ الأمم والشعوب هذه الحقيقة ، وفى العصر الحديث راجت أقنعة التنكر وبطاقات التمويه والتضليل ، وظهرت أغلفة النور لأخبث السموم لاسيما بعد التقدم الهائل لوسائل الاتصال ، والتغير الكبير فى النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم .

ويأتى النفاق فى مقدمة العوامل التى تسهم فى تخلف المجتمعات وبث الفرقة بين صفوف الجماهير وهو الداء العضال الذى يهدد الأمم فى حاضرها ومستقبلها ، ولهذا يصبح من الأهمية بمكان القضاء عليه قبل أن يستشرى ويتسع مجاله وقل أن يسلم مجتمع من وجود منافقين فيه ولكن المجتمعات تختلف قوة وضعفا فى قدرتها على الصمود أمام هذه الشريحة من البشر ، لكن القبلة فى النهاية تكون لمن يثبت وتترسخ أقدامه .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[1] » .

والمنافقون هم أخطر فئات الرأى العام وذلك لقدرتهم على

---

(١) سورة النور آية رقم (٥٥) .

على التلون ، وارتداء كل الاثواب فى كل وقت ، فهم مسلمون مؤمنون إذا كان الإسلام سيحقق لهم عائدا ويدر عليهم ربحا ، وهم كفار إذا تعثر المسلمون وضعفت شوكتهم وهم، يهود أو نصارى إذا رأوا فى ذلك ما يحقق بغيتهم .

وهم علماء ومفكرون وقت الحاجة ، يكتمون العلم ويخفونه إذا ازم الأمر، جهلاء لا يعرفون إذا اقترفوا الذنب وارتكبوا المعصية .

وتختلف مراتب النفاق بحسب توافر إحدى خصاله ، ذلك أن هناك تناسبا طرديا بين درجة النفاق وتوافر هذه الخصال كما حددها رسول الله فى حديثه الشريف وهى (الخيانة — الكذب — الغدر — الفجر) .

وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يرى فيه الحقائق تطمس ، أو القيم تهدر أو آيات الله يستهزأ بها فيسكت ويتغاضى ويظن أن ذلك تسامح أو دهاء أو سعة صدر أو حرية رأى ، ولكنها بداية الاستسلام والهزيمة الداخلية تهب فى أوصاله وتستمر معه ، ثم يتدرج بعد ذلك فى سلم النفاق حتى تكتمل فيه صفات المنافق الكامل .

وقد أكد الحق جل وعلا على أن هذا الصنف من الناس أسوأ من الكافر لأنه اتفق معه فى الكفر وأمتاز عليه بالخداع والتضليل ، ويرجع ذلك لقدرة المنافق على التسلل بين صفوف المسلمين ، فيكون ايذاؤه شديدا والحذر منه قليلا ، بخلاف الكافر الذى لا يرتدى قناع النفاق فيظهر عارى الوجه سافر الفكر، يعرفه العامة والخاصة، فيحتاطون، منه ويحذرون شره .

وإذا كان القرآن الكريم قد تعرض للمؤمنين والكافرين وحدد أوصافهم بصورة واضحة ، فإنه قد أفسح مساحة واسعة للمنافقين لأن الفريقين الأولين يظهر الوضوح فى اتجاهاتهما والتميز فى سلوكهما ، فالفئة الأولى مؤمنة مستقيمة ، صافية ، مستنيرة ، والفئة الثانية كافرة منحرفة ، معوجة مظلمة .

أما فئة المنافقين فهى التى تتلون بكل إناء فى كل وقت وحين ، تظهر فى لباس المؤمنين ، وتعمل بتخطيط الكافرين ، وحين أطال القرآن الكريم فى عرض أوصافها ورسم صورتها كان ذلك إيماء بضخامة الدور الذى يمكن أن تلعبه فى حياة المجتمع المسلم والاضطراب الذى يمكن أن تحدثه فى صفوف الجماهير عن طريق الخداع والتغرير ، فهم يظهرون فى صفوف المسلمين كأنهم منهم ، يصلون صلاتهم ويصومون صيامهم ويعبدون الله مثلهم ، وبالتالى فإنه من الصعب اعتبارهم خصوماً سافرين ، وأن كان كيدهم أشد وعداوتهم أمر .

وانطلقت هذه الفئة من البشر تعكر فى الماء الصافى ، وتنسج خيوط العداوة بين المسلمين ، وتتواطأ مع أعداء الله ، تأخذ منهم أساليب الخراب وتبثها بين المسلمين تارة بأسلوب الاستفهام ، وأخرى على سبيل النصح وطوراً بطريق التحرش ، وتستعمل كل سلاح تراه يؤدى بها إلى الغاية من نميمة وتحريض وكذب وتشكيك وإفشاء الأسرار (١) .

---

(١) عبد القادر زمهى العلوى : الدعوة الإسلامية فى مواجهة خصومها . الدار البيضاء . مطبعة النجاح الجديدة . ١٩٨١ . ص ٦٤ .

بيئة النفاق وعوامل ازدهاره

يظهر النفاق وينتشر و يسود المجتمع كلما اكتنفته ظروف وعن وصعاب لاسيما في مراحل التحول والتغيير التي تمر بها الأمم والشعوب، وينمو النفاق أيضا و يزدهر إذا صادف نظما تحكمها قوانين جائرة أو قيادات ظالمة أو أحكام فاسدة حيث يجد المنافقون المناخ مهيئا ، والفرصة سانحة للنشاط والابتزاز وتحقيق الأغراض والمكاسب ، ذلك أن هذه الفئة المريضة لاتستطيع الحياة في مجتمع سوى ، ولا تجد مجالا لها في مناخ صحى .

كما يجد المنافق المجال سهلا وميسرا في ظل الأحكام الاستبدادية التي لاتتيح فرصة للرأى العام كي يعبر عن نفسه بحرية دون خوف أو مداهنة ، وفي هذا يقول هارولد لازويل Harold Laswell إن الحكومات الاستبدادية لاقبل لها بالنقد ، كما أنها لاتستطيع تحمله ، وإذا أردنا أن نؤكد على هذه الحقيقة فعلينا أن نلقى نظرة سريعة على أى نظام استبدادى فسنجد أن جميع الشواهد والبراهين تجمع على ذلك ، ويظهر ذلك بصورة واضحة في نشاط أجهزة الإعلام المختلفة حيث يحظر فيها نشر الأخبار والتعليقات المخالفة للنظام(١).

كما يجد النفاق البيئة المهيأة والتربة الخصبة في ظل النظم الشيوعية والشمولية ، حيث تؤكد النظرية الماركسية مسئولية الحزب في الرقابة على وسائل الاعلام وتركيزها في يده ، وتنبع رقابة الحزب على وسائل الإعلام من واقع الدور المكلف به بهدف التأثير على اتجاهات الجماهير وكسبهم إلى جانبه(٢) .

---

(1) Laswell, Harold : Discription The Contents of Communication, In Brace Lannes. Propapanda, Communicatoinand Public Opinion Princeton & univcrsity press .1964. p. 19.

(2) Iakles, Alex : Public Opinion in Soviet Russia. Cambridqe. Harold University Press. 1958. P. 22

كما يظهر المنافقون إذا وجدوا أنفسهم قلة ، وصارت السيادة للأكثرية المؤمنة واستجابت الأغلبية لنداء الحق والعدل ، وتجـــاوز المجتمع المحن والصعاب التى واجهته ، وحينئذ لا تستطيع فئة المنافقين مواجهة الكثرة السوية أو الأغلبية المؤمنة فيلجئون إلى نفاق هذه الأغلبية ويتعاملون مع هذه الكثرة بوجه ، ومع القلة بوجه آخر ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون[1] » .

ولم يظهر النفاق فى عهد الرسول إلا بعد هجرته إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها وارتفاع شأن المسلمين ، وازدياد قوتهم . وانتصار الدعوة الإسلامية ، وإعلاء كلمة الحق والعدل ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وانزواء شأفة الكفر وازدياد قوة المؤمنين وتدعيم حصونهم ، حينئذ لا يجد هذا النفر من الذين لم يؤمنوا مع المؤمنين ، ولم تسعفهم شجاعتهم البقاء على كفرهم مع الكافرين سبيلا لهم إلا النفاق ، فيبطنون الكفر ويظهرون الإسلام .

وقد ابتلى المسلمون بالمنافقين منذ ظهور الإسلام فى المدينة وعانى منهم المسلمون عناء قاسيا مرا ذلك أن المنافقين قد كرسوا جهودهم وأعدوا خططهم ودبروا مكائدهم لشن الحرب على المسلمين وجرهم إلى معارك جانبية والهائهم عن الهدف الأسمى الذى يعملون من أجله ، لاسيما أنه كان من بين صفوف المنافقين قادة للرأى والفكر لهم كلمة مسموعة ومكانة عزيزة فى مجتمع المدينة .

وهذا الصنف من القادة يتبوأ منزلة خاصة فى مجتمعاتهم شأن قادة الرأى فهم الأرفع منزلة ، والأعلى مكانة ، وذلك يعطيهم وضعا عزيزا داخل الجماعة التى ينتمون إليها ، والتى يحرصون على الاتصال بها ، ومعايشتها ، ويجعل كلمتهم

---

(١) سورة البقرة آية رقم (١٤) .

مسموعة بينهم مما قد يؤدى نشاطهم إلى حدوث تأثير على اتجاهات الرأى العام(١) .

وهذا يشير إلى التأثير البالغ الذى يمكن أن يحدثه قادة الرأى من المنافقين لأن من بينهم أصحاب الآراء الراجحة، ذوى العقول القادرة على تدبير المؤامرات ، والعمل فى الخفاء ، وإعداد الخطط بذكاء واقتدار ، بهدف تفريق صفوف المؤمنين، وإحداث الفرقة بينهم . وليس من شك أن هذه الفئة قد أضعفت المسلمين ، وكلفتهم الكثير من الأرواح والأموال ، وكان خطرهم على دولة الإسلام كبيرا، وتأثيرهم عليها مريرا .

ولم تكن عداوة المنافقين وحربهم للحق والخير الذى حملته رسالة الإسلام بمجرد حدث عارض أو فترة زمنية بعينها ، ولكنها الكراهية والحقد الذى يكنه الباطل للحق، والصدام الأزلى بين الضلال والهدى ، ولذلك استمر حرب النفاق ضد الإسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما استمر من بعده ، وظلت هذه الحرب الخبيثة تشكل عقبة كئودا فى حياة الأمة الإسلامية وستظل تمارس نشاطها وتلعب دورها مستهدفة النيل من هذا الدين الذى يشكل خطرا على خطط النفاق، وكبحا لجماح المنافقين، ذلك أن هذه الحرب تعتمد على التشكيك فى الفكر والدين ، ثم إحداث الفتنة والوقيعة بين المسلمين وبعضهم البعض، والالتفاف حولهم وهم جماعات صغيرة ممزقة تكره بعضها بعضا، ثم الاجهاز عليهم وتشويه عقيدتهم ، لأن من دواعى سرور المنافقين اضطراب أمور الجماعة المتماسكة واختلال أحوالهم ، وبلبلة خواطرهم ، وفزع قلوبهم وقلق نفوسهم ، ودوام حزنهم وزيادة همهم وشغلهم بأمور فرعية وقضايا جانبية عن الهدف الأساسى فى العمل والإنتاج، والدعوة إلى الله .

---

(1) Lane, Robert and Sears David : Public Opinion. New Delhi. Prentice Hall of India. 1964. P 39

المنافقون وقياس الرأى العام

تضطلع بحوث الرأى العام فى الوقت الحاضر بدور حيوى فى حياة الأمم والشعوب المعاصرة ، وبدونها يصبح وضع الخطط وإعداد البرامج السياسية أو الإعلامية أو الاقتصادية مسألة صعبة .

وقد حققت الدراسات العلمية تقدما كبيرا فى هذا الصدد ، يؤكد ذلك النتائج التى أجرتها معاهد ومراكز بحوث الرأى العام فى العالم المتقدم ، والتى أصبحت منطلقا أساسيا لصانع القرار وللجمهور على السواء .

وتأخذ بحوث الرأى العام على عاتقها القيام بمهام أساسية فى المجتمعات الديمقراطية المعاصرة من أهمها مساعدة الأجهزة الحاكمة على أداء مهامها فى حل مشكلات الجماهير ، واضاءة الطريق أمامها لاتخاذ القرارات المناسبة وابقاء القادة على صلة وثيقة بالشعب . كما تأخذ هذه البحوث على عاتقها القيام بإعلام الجماهير على الصعيدين المحلى والعالمى بالاتجاهات والمواقف المختلفة وتتفوق فى ذلك على وسائل الاتصال الحديثة لقصور هذه الوسائل عن كشف النقاب وسبر أغوار الجماهير وإزالة اللبس وبالتالى فقد لاتستطيع تقديم صورة صادقة ودقيقة عن أفكار الناس وما يدور بأذهانهم ، فى حين بحوث الرأى العام يمكنها أن تلعب دورا إيجابيا فى هذا الصدد من خلال الأساليب العلمية والمقاييس الدقيقة فى الدراسة والتحليل(١).

إلا ان أشق ما يواجه هذه البحوث فى مرحلة جمع البيانات هو استخلاص الحقيقة من إجابات فئة المنافقين ، والحصول على البيانات الصادقة التى يعتمد عليها فى التحليل واستخلاص النتائج ، وإعداد التقرير ثم إصدار القرارات السليمة التى تلبى الاحتياجات الفعلية للجماهير . حيث يحرص المنافقون

---

(1) Kretch David and Krutchfield Richard : Theory and Problems of Social Psycholoqy. Bombay. Moc-yraw Hill Publishing Company. 1964 pp. 306—808.

كل الحرص على مظهرهم العام ، ولهذا المظهر تسخر كل وســـائل الجذب والاغراء ، وتستخدم كل الحيل والفنون التى تسحر من يراهم ، لحديثهم ساس وصورهم خلابة وحركاتهم مرسومة وسكناتهم محسوبة يخاطبون الناس بما يحبون بغض النظر عن صدق ما يقولون، فتبدو إجاباتهم صحيحة، وردودهم طبيعية ، وكلامهم صادقا، وذلك بقدر ما يتوافر لهم من قدرة على إخفاء واقعهم الحقيق ، فهم الذين قال الله فيهم .

« يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا [1] » .

وهـــذا يلقى على الطرق الحديثة فى بحوث الرأى العام عبئا إضافيا لاستكشاف هذه الفئة وتحرى الدقة فى التعامل معها وتمحيص ما يصدر عنها من أقوال وتصريحات وتوظيف الأساليب الفنية المختلفة للتأكد من صحة إجاباتهم ، واستخدام الطرق العلمية لكشف الكذب فى ردودهم ، وهذا يتطلب مهارة خاصة وقدرة معينة لاستخدام أساليب كشف الكذب واختبار صحة الإجابات ، ومن أهم هذه الأساليب ما يلى :

١ — إجراء الدراسات الاستطلاعية قبل التوجه إلى الميدان والحصول على البيانات .

٢ — العمل على تحديد المنافقين وحصرهم بكافة الطرق الممكنة حتى يمكن تدارك ما يصدر عنهم من أقوال وإجابات وتمحيصها .

٣ — الاستفادة بوسيلة الملاحظة المشاركة التى تمكن الباحث من معايشة المبحوثين وكشف هويتهم من خلال إشتراك الباحث فى حياة الناس الذين يقوم بملاحظتهم وإسهامه فى أوجـــه النشاط التى يمارسونها فى فترة الملاحظة .

---

(١) سورة النساء آية رقم (١٤٢ ، ١٤٣) .

وتتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات جمع البيانات بأنها تفيد فى جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلى فى الحياة دون عناء كبير كما أنها تفيدفى جمع البيانات فى الأحوال التى يبدى فيها المبحوثون نوعا من المقاومة للباحث ويرفضون الإجابة على أسئلته .

٤ — استخدام أساليب كشف الكذب والتحقق من صدق الإجابات فى مختلف مراحل البحث .

٥ — الاهتمام بأسئلة الاختبار Check questions واعدادها وتوجيهها بطريقة ذكية وواعية .

٦ — تطبيق معامل الصدق Validity لمعرفة ما إذا كان الباحث يقيس أو يصنف بالفعل مايود أن يقيسه أو يصنفه للتأكدمن صدق المعلومة التى حصل عليها وكذلك معامل الثبات Reliability للتأكد من اتساق أداة القياس وإمكانية الاعتماد عليها وتكرار استخدامها(٢) .

---

(١) عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعى القاهرة . مكتبة وهبة ١٩٨٢ ص ٣٠٨ ، ٣٢٢ .

(٢) محمد الجوهرى وعبدالله الخريجى : طرق البحث الاجتماعى . ط ٣ . جدة دار الشروق ١٩٨٠ . ص ١٠٨ ، ١١٠ .

المنافقون وحراس البوابات الإعلامية

Qate Keepers

إذا كانت آفة النفاق تمثل خطرا حقيقيا على المجتمع بصفة عامة فإنه يجب العمل على درئها ووقف سريانها فى كيان الأمة .

فإن خطرها يشتد وسلبياتها تزداد ومردودها على المجتمع يكون أفدح إذا إذا أمتد إلى أجهزة صناعة الفكر وقيادة الرأى Qate Keepers لأن أخطر هؤلاء الذين يعظون الناس ولا يتعظون وينهونهم ولا ينتهون ، أولئك الذين قال الحق فيهم :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون[1] » .

وتكمن خطورة النفاق فى أجهزة الإعلام فيما يلى :

١ — الانتشار الواسع لوسائل الاتصال الجماهيرى والتى لا تدانيها وسائل أخرى فى هذا الصدد فهذه الوسائل تستطيع تغطية مساحة جغرافية واسعة ، الرذائل الوصول إلى أكبر عدد من الجماهير ، وبالتالى فإن قدرتها على نشر كاتستطيع التى يفرزها النفاق أوسع من قدرة كافة الوسائل والأجهزة الأخرى .

٢ — قوة تأثر هذه الأجهزة بما تمتلك من تقنيات حديثة وقدرات خاصة وعوامل جذب قد لا يستطيع معها المتلقى عنها أن يقاوم إغراءاتها واستمالاتها .

ويكمن الخلاف بين المجتمعات القديمة والحديثة فى مدى توافر هذه الوسائل وقوة تأثيرها ، ففى المجتمعات الأولية كانت المحادثات بين الناس والشائعات والاخبار التى تنتقل من شخص لآخر هى التى تلعب دورا رئيسيا فى تشكيل اتجاهات الجماهير ، وبعد ثورة التصنيع والتقدم الحضارى والمعطيات التكنولوجية المعاصرة تقدمت وسائل الاتصال بالجماهير

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٤٤) .

وأصبحت تلعب دورا على درجة كبيرة من الأهمية فى حياة الأمم والشعوب المعاصرة(١) .

٣ — إن أجهزة الحكم الفاشية والنظم الاستبدادية والشمولية تحرص على تنصيب المنافقين على هذه الأجهزة فى محاولة منها لاغتصاب العقول وتخدير الجماهير واحتواء الرأى العام لترسيخ المفاهيم والقيم التى تستهدفها والمبادىء التى تعتنقها .

٤ — إن وسائل الاتصال إذا غلب عليها النفاق وسيطر عليها المنافقون لا تستطيع أن تضطلع بالمهمة التى قامت من أجلها وهى التعبير الموضوعى عن اهتمامات الجماهير ومصالحها وآلامها وآمالها وأهدافها ، بل على العكس فإنها تعمل على احتواء هذه الجماهير والقضاء على طموحهم وتخديرهم لقبول السياسات التى تفرض عليهم والتعامل مع الأوضاع القائمة وإقناع الرأى العام أن ما دون ذلك هو التردى والضياع .

٥ — إن رجال الإعلام هم قادة الفكر فى الأمة ، فيهم تتمثل القدوة وبالتالى فإنه يجب أن يكونوا نماذج طيبة فى السلوك القويم والعمل الصالح والقول الحق لكى يتحملوا مسئولياتهم فى تزويد الجماهير بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة ذلك أن القدوة الحسنة تغنى فى ذاتها عن بذل الجهود، وتوفر الكثير على واضعى الخطط الإعلامية وتضطلع بدور لا تستطيع وسائل الإعلام القيام به .

٦ — إذا كان الحق تبارك وتعالى قد أوجب فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على المسلمين جميعا كل بقدر ما يتوافر له من علم ومقدرة ، فإن هذه الفريضة أوجب ما تكون على قادة الفكر وصناع المعرفة ورجال الإعلام .

---

(1) Kappuswamy, B : An Introduction to Social Psychology. London. Asia Publishing Company. 1961 p. 241, 242

ولا شك أن الواجب فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يفعل ما يأمر به الله وينتهى عما ينهى عنه ، ليسود فى الأمة هذا الواجب ، وليحس الناس جميعا بمسئولياتهم تجاه هذا الأمر ، فلا يخافون فى الله لومة لائم ، ولا يخشون فى الحق سلطانا جائرا وبذلك تسعد الأمة وتستحق نصر الله(١).

(١) عبد الغفار عزيز : الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق . القاهرة . مؤسسة الوفاء للطباعة ١٩٨٢ . ص ٢٢٦ .

المنافقون وإعداد الخطط الإعلامية

يتطلب اعداد الخطة الإعلامية معرفة الظرف الاتصالى واستكشاف طبيعة الجمهور الذى تتوجه إليه هذه الخطة ومعرفة اهتماماته، ونظامه القيمى، وعاداته وتقاليده ومفاهيمه، ذلك أن فشل كثير من الحملات الإعلامية إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى نقص البيانات اللازمة والمعلومات الدقيقة التى يتم على ضوئها وضع البرامج واختيار الوسائل التى تتناسب وأحوال هذه الجماهير.

ومن خلال الدراسات التى أجريت فى هذا الصدد يتبين لنا أن كل شريحه من الشرائح الجماهيرية تتطلب استراتيجية خاصة للتعامل معها فمخاطبة المثقفين تتطلب برنامجا إعلاميا يختلف عن البرنامج الذى يتم اعداده الأميين ومن لم ينل حظا من الثقافه والتعليم، والتوجه إلى الأطفال تتطلب برنامجا يختلف عن البرنامج الخاص بالشباب أو الشيوخ، والإعلام الذى يتوجه إلى النساء يحتاج إلى اعداد خاص قد لايحقق نجاحا إذا تم توجيهه إلى الرجال وهكذا.

وينطبق هذا الكلام على أصحاب المذاهب والأيدلوجيات والأديان المختلفة لاسيما إذا كانت الرسالة تتناول العقيدة وتستهدف الدعوة، ذلك أن الخطة الإعلامية الموجهة إلى الملاحدة والمشركين تتطلب تكتيكا خاصا يتناسب مع فكرهم، وهى بدورها تختلف عن الخطه الموجهة إلى أهل الكتاب الذين يعتنقون اليهودية أو النصرانية، وهذا وذاك يختلف عن الخطة الموجهة إلى الشيوعيين أو البوذيين أو غير ذلك.

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتحرى هذا الواقع ويتعامل معه، وكان يخاطب الناس على قدر عقولهم وأفهامهم ومذاهبهم، وإذا استعرضنا نداءاته الموجهة إلى كل واحدة من هذه الفئات ستبرز لنا هذه الحقيقة، ويتضح

هذا بصورة جلية فى رسائله إلى ملوك وأباطرة العالم آنذاك ، فرسالته إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام اختلفت فى توجهاتها عن رسالته إلى كسرى ، وخطابه إلى المقوقس يختلف عن خطابه إلى النجاشى ، وهذا وذاك يختلف عن رسائله إلى أمراء الجزيرة العربية فى المضمون وفى الشكل .

وإذا كانت بحوث الرأى العام تواجه مشقة بالغة فى كشف المنافقين واستخراج الحقيقة من صدورهم ، فإن خطط الإعلام أيضا لابدأن تكتنفها هذه الصعاب فى مخاطبة هذه الفئة والتعامل معها ، ويرجع ذلك إلى المقدرة الكبيرة التى تتوافر لديهم فى إخفاء مكنونات نفوسهم ، وحقيقة ما يدور فى أذهانهم ، والمهارة الفائقة التى تمكنهم من التحدث بمختلف الألسنة ، وحذقهم فى التعامل مع العدو والصديق دون أن تبدو عليهم علامات تكشف هويتهم او تحدد أهدافهم حتى يمكن اعداد الحملات الإعلامية التى تتلاءم مع أفكارهم وثقافاتهم ومذاهبهم .

وإذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، مؤيدا بالوحى الإلهى قد استطاع أن يكشف أساليب النفاق وخطط المنافقين ويتعامل معهم مسترشدا فى ذلك بما أنزل عليه من الله سبحانه وتعالى ، فإن الرسول قدمات ، والوحى قد انقطع ، فهل انقطعت السبل الكفيلة بكشف النفاق ومعرفه المنافقين حتى يمكن مواجهتهم والعمل على هدايتهم ، أو احباط مخططاتهم وتحذير الرأى العام من مؤامراتهم ؟ هذا هو ماستكشف عنه هذه الدراسة .

السمات المميزة للنفاق والمنافقين

إذا كان النفاق يقوم على الكفر الباطن وبإخفاء ما فى القلوب ، وإذا كانت هناك صعوبات بالغة فى سبر أغوار المنافقين وإماطة اللثام عن اتجاهاتهم الحقيقية ، إلا أن هناك علامات بارزة تظهر على المنافقين فى أقوالهم وأفعالهم ، وتسهم فى الكشف عنهم ، وتوضح دواخل نفوسهم ، وتفرز ما تضمه أعماق قلوبهم ، وتحدد درجة النفاق التى هم عليها ، وإلى أى مدى يمكن وقفها أو احتواؤها أو مواجهتها ، فهل هم من المنافقين الذين يخفون تكذيب الله ورسوله ؟ أو من الذين لديهم أصل التصديق ولكن شاب تصديقهم بعض معانى النفاق أو اتصفوا ببعض صفات المنافقين؟.

إلا أنه من خلال منهج الحق تبارك وتعالى الذى خلق الإنسان ويعرف ما توسوس به نفسه والذى جعل لكل شىء قدرا ، ومن واقع الدراسات العلمية التى أجريت على النفاق والتجارب العملية التى تحكم مسيرة حياتهم يمكن أن نستخلص مجموعة من السمات التى تميزت بها هذه الفئة من فئات الرأى العام لتكون بمثابة مشاعل تضىء الطريق للضاربين فى حقل الدعوة والإعلام، وتمكنهم من اعداد الخطط وتحديد الوسائل وانتقاء الأدوات التى تناسب هذه الفئة ، وتتعامل مع منهجها فى الحياة ، لاسيما أن القرآن الكريم قد وضع النقاط على الحروف فى هذا الصدد ، وفى ذلك يقول عز وجل :

« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالهم[1] » .

---

(١) سورة محمد آية رقم (٣٠) .

كما أن سنة الرسول وممارسات الخلفاء الراشدين والسلف الصالح من القادة والزعماء يمكن أن تشكل أساسا طيبا توضح وتبرهن وتؤكد ما ورد فى كتاب الله بهذا الشأن لاستكشاف هذه الظاهرة الخطرة على الرغم من أساليبهم العديدة فى التنكر، وطرقهم الملتوية فى التحدث، ومهاراتهم البالغة فى التخفى، وقدراتهم الكبيرة فى الظهور بشتى الصور، وارتداء مختلف الأقنعة . .

وفى ضوء ذلك يمكن تحديد الملامح والسمات التى تبرز طبيعة المنافقين وتبين هويتهم فيما يلى :

أولا : ازدواج الشخصية واختلاف ظاهر القول عن واقع السلوك :

يعد وضوح شخصية المتلقى من العوامل الجوهرية التى تيسر لرجل الإعلام مهمته وتمكنه من وضع خططه واختيار أساليبه فى تحقيق الهدف الذى يسعى إليه، واختيار البدائل، وتحديد الوسائل والأدوات المناسبة للتعامل مع هذه الشخصية .

وبقدر ماتتسم هذه الصفة فى الشخصية الفردية فإنها تنطبق على الشخصية الجمعية لأن الفرد باعتباره عضوا فى جماعة لابد أن يتوافق مع نظامها القيمى وتلتقى أهدافه مع أهدافها . وعضوية الفرد فى الجماعة تلعب دورا حيويا فى تكوين اتجاهاته، ويرى كثير من الباحثين أن الجماعة تعتبر محورا هاما لنمو اتجاهات الفرد مما ينتج عنه تجانس هذه الاتجاهات داخل الجماعة، كما أن الجماعة تضغط على الفرد لكى يسايرها، ويميل الأفراد إلى الانضمام لجماعات تسودها اتجاهات تتواكب مع اتجاهاتهم، ويتعرضون لوسائل الاتصال التى تدعم هذه الاتجاهات، والبيانات والمعلومات التى تتوافق معها(١) .

---

(١) جابر عبد الحميد : سيكلوجية التعلم . القاهرة . دار النهضة العربية . ١٩٧٢ . ص ١٥١ .

ويتأثر سلوك الإنسان بالجماعة التي ينتمي إليها كما يؤثر فيها ، ويمكن تأثير الجماعة على سلوك أفرادها في درجة الخضوع والاستجابة لمعايير هذه الجماعة والضغوط التي تصدر عنها ، وكلما كان هذا الخضوع كبيراً أدى ذلك إلى توحيد سلوك الأفراد وآرائهم واتجاهاتهم داخل هذه الجماعة ، والجماعة بهذا تمارس دورا هاما في تحديد سلوك أفرادها وتشكيل أنماط تصرفاتهم[1] .

وينطبق هذا بصورة واضحة على جماعة المنافقين الذين يتفقون في المشارب والميول والاتجاهات ، وتجمعهم صفات مشتركة أبرزها ازدواج الشخصية ، وقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ليكشف لرجال الدعوة والإعلام حقيقتهم حتى لا ينخدعوا بالمظهر وينصرفوا عن الجوهر ، وقد قال عز وجل في ذلك :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم[2] » .

والمنافقون تتوافر لديهم القدرة على الاستمالة وإقناع المتلقي عنهم وإيهامه بأن ما ينطقون به هو الحق وما يعلنونه هو الصدق ، يؤكد ذلك قول الله تبارك وتعالى :

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد[3] » .

---

(١) سعيد المغربي وكاميليا عبد الفتاح . علم النفس الاجتماعي . د . ن د . ت ص ١٣ – ١٦ .

(٢) سورة المائدة : آية رقم (٤١) .

(٣) سورة البقرة : آية رقم(٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الصنف من الناس بأنهم أسوأ نوعية بشرية فى قوله :

« تجدون الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خيار الناس فى هذا الشأن أشدهم كراهية له ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »(١) .

ثانياً : الخداع والرياء :

يعلن المنافقون الاستقامة والصلاح لكى ينالوا بذلك فى الدنيا مكانة المؤمنين الصادقين ، فى محاولة لإخفاء الحقيقة التى تتناقض مع واقعهم لأن قلوبهم خالية من رصيد الإيمان ، ويدعون العلم والمعرفة ، كما يوهمون الجماهير بقدرات ليست فيهم مستخدمين فى ذلك شتى الحيل ، والمنافقون يستهدفون من وراء ذلك خداع الله ، وخداع الناس وأصحاب النفوذ وذوى السلطان كى يحققوا من وراء ذلك الأهداف التى يسعون لها ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيهم :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا أنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون(٢) » .

والقرآن الكريم فى هذا يرسم المنافقين صورة مزرية وهم يمارسون نشاطهم مستخدمين أساليب الخداع والتمويه لتخدير العقول وكسب الأفئدة ، ويتلونون كالحرباء ، فى قلوبهم السم وعلى ألسنتهم الدهان ، وهى صورة منفرة تبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماهير المؤمنة من الشر وما يتربصونه بهم

---

(١) أبو زكريا يحى بن شرف النووى : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين د . ن . د . ت . ص ٥٤٣ .

(٢) سورة البقرة : آية (١٤ ، ١٥) .

من الدوائر ، وهم مع ذلك يتظاهرون بالمودة للجماعة حين يكون لهذه الجماعة نصر وقوة وثراء .

فنهج هؤلاء خداع كل من يتعامل معهم ، حتى إنهم يظنون أنهم قادرون على خداع الله سبحانه وتعالى :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا[1] » .

وقد حذرنا الله منهم فلا نكشف لهم خططنا ولا نطلعهم على أسرارنا لأنهم يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان ، فهم أناس فسدت قلوبهم وامتلأت بالأفكار السقيمة وخوت من كل جوهر صفى نقى ، فى حين أن مناظرهم وصورهم خلابة قد تخدع من لا يعرف خبث نواياهم فهم يظهرون الإيمان ويسرون الكفر ويعتقدون بذلك أنهم قادرون على خداع الحق تبارك وتعالى ، وخداع الناس .

والمنافق بهذا خفع الأخلاق يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، يصبح على حال ، ويمسى على غيره ، ويمسى على حال ويصبح على غيره ، ويتكفأ تكفأ السفينه كلما هبت ريح هبت معها[2] .

وتشتد خطورة هؤلاء إذا وجدوا فى أجهزة صناعة الفكر وقيادة الرأى ، لأن تأثيرهم سوف يشمل كل من يتلقى عنهم ، وقد تتسع دائرة الجمهور المستقبل ليغطى مساحة بشرية وجغرافية هائلة ، واستكشاف هذه النوعية من البشر يعد ضرورة حيوية لنجاح الخطط الإعلامية الجادة لأنهم عوامل وسيطة قادرة على إحباط الحملة الإعلامية أو تشويهها أو منع التعرض والإدراك الصحيح لمضمونها .

---

(١) سورة النساء : آية (١٤٢،١٤٣) .

(٢) اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى : تفسير القرآن العظيم . المرجع السابق ص ٤٨ .

وتظهر هذه الخصلة بينهم بصورة جلية حين يقع المنافقون فى مأزق أو يتعرضون لموقف صعب أو حادث جلل ، وفى ذلك يقول عز وجل :

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً[1] » .

ومن أبرز علامات المنافق الرياء ، والرياء ينطوى على الخداع ، ذلك أن من يرائى الناس يخدعهم ، لأنه يظهر غير ما يبطن ، والرياء نوع من الشرك الخفى ، إذ أنه ادعاء كاذب ، حيث يزعم المرائى أقوالا أو أفعالا مخالفة للحقيقة ليغش الناس ويستهويهم بما يخالف الحقيقة ولا يترجم الواقع . ذلك أن المرائى يولع بالأقنعة الكاذبة ، ويلتثم بالأغطية البالية ليخفى باطنه القبيح ويتستر على نفسه الامارة فيوارى الشر ويحسن الباطل[2] .

وقد وصف الرسول المنافقين هنا أيضا بأنهم شر الناس فى قوله صلوات الله وسلامه عليه :

« تجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه[3] » .

والمرائى فاقد للجمال والصدق ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، فهو وأن كان يتكلم كلاما ظاهره الرحمة ، لكن باطنه العذاب كالذى يدس السم لضيفه ويطعن أصدقاءه وهو يكتسب الخداع بالتعود ، ومن ثم يعمى قلبه عن كل بصيرة ، ويقع فى شرك خداعه فيعمى قلبه ، ويعشق نفسه ، ولا يرى غير ذاته حتى لوظلم الناس جميعا أو تجاوز كل ما هو مسموح له .

وهكذا نرى المنافق خادعا مخدوعا ، خادعا للناس ، مخدوعا لنفسه فى

---

(١) سورة النساء : آية (٦٢) .

(٢) حمزة محمد الشرقاوى : نحو علم نفس إسلامى ، ج ٢ ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٦٩-٧٠ .

(٣) أبو زكريا يحيى بن شريف النووى : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، المرجع السابق ص ٥٤٤ .

كل الأمور ، وينافق ليحقق ذاته ويشبع رغباته ، والرياء ماهو إلا فسق ، وعبادة الذات ونسيان لله ، وهو ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على المرء فيغويها بالأباطيل ويوقعها بالتلبيسات والأكاذيب حتى إنها إذا لبست قناع الخداع ، ظنت أنها مركز الكون كبرياء وغرورا[1] .

وقد أكد الله على فسق المرائى فى قوله عز من قائل :

« نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون »[2] .

ومن الرياء حب الرياسة ، وتعظيم الذات ، وتسخير الناس لتحقيق المصالح الشخصية ليعلو المنافق . وليعلم الآخرين أنه أعلم العلماء ، والمرائى يتفاخر بنفسه ويتباهى بها ويحرص عليها .

ثالثا : الجبن والغدر والخيانة :

من خصال المنافقين المميزة عدم القدرة على المواجهة لعلمهم أن المواجهة قد تكشف النقاب عما يعتمل داخل نفوسهم ، حيث تختلف اتجاهاتهم الباطنة عن سلوكهم الظاهر حتى يستطيعوا تدبير المكائد وبث الأحقاد وهم متسترون خلف واقع مزيف ، وهم يتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ليتقوا توقيع الجزاء عليهم ، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى والخيانة ، وفى ذلك يقول تعالى :

« رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون »[3] .

وأساس النفاق الكفر والجبن ، أما الكفر فهو مايبطنه المنافق وأما الجبن فهو الذى يجعل المنافق يظهر خلاف مايبطن ، ولهذا لا يكون المنافق إلا جبانا خوانا ضعيف القلب . يحسن الكيد والمواربة والعمل فى الظلام .

---

(١) محمد حسن الشرقاوى . المرجع السابق . ص ٧٠ .

(٢) سورة التوبة : آية ٦٧ .

(٣) سورة التوبة : آية ٩٣ .

وهذا الصنف من الناس يحسبون اللؤم قوة، والمكر السيء براعة، وهو في حقيقته ضعف وخسة، فالقوي ليس لئيما ولا خبيثاً ولا خادعاً ولا متآمرا أو همازا في الخفاء.

ولهذا فهم يحرصون على العمل في الظلام بشتى الطرق وبكافة الأسلحة المشروعة وغير المشروعة، ومن أهم مواضع الخطر في المنافقين أنهم غير ظاهرين، وإنما يحاولون دائما أن يقنعوا أنفسهم بأقنعة كثيفة ليبدوا أمام الناس أنهم منهم، بل قد يغلطهم البعض على قوة تدينهم وسلامة منطقهم وصحة عقيدتهم واستعدادهم لعمل الخير، وذلك بسبب مبالغتهم في إخفاء أمرهم، وإمعانهم في إبعاد كل ما يثير شبهة النفاق عنهم ثم يندسون بين الجماهير يحيكون المؤامرات ويدبرون الفتن وينفثون السموم[1].

وفي الوقت الذي فرض فيه الحق تبارك وتعالى على المؤمنين التزام الأمانة والوفاء بالعهد، واحترام الغير، وجاءت المواثيق والمعاهدات الدولية لتؤكد على هذه الفضائل، نجد المنافقين ينحون منحى آخر أساسه الغدر والخيانة.

« الذين عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون »[2].

وكان المنافقون يرمون النبي صلى الله عليه وسلم بأوصاف هي أبعد ما تكون عن خلقه وشمائله من ذلك ما كان يدور بين البعض منهم من غمز ولمز عند توزيع الصدقات، واتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالمحاباة في القسمة، وعدم العدالة في التوزيع، وهم في ذلك يعملون على صرف الناس عنه والتشكيك في عصمته:

« ومنهم من يلمزك في الصدقات، فإن أعطوا منها رضوا، وأن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون »[3].

---

(١) عبد الحليم حفني: أسلوب السخرية في القرآن الكريم. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٧. ص ٤١.

(٢) سورة الأنفال: الآية (٥٦). (٣) سورة التوبة: الآية (٥٨).

بل أن منهم من هم بقتل النبى لولا أن كان الحق تبارك وتعالى يحفظه بالوحى . ويرعاه بعنايته .

وكانت مواقفهم المخزية وقت المحن والأزمات وأثناء الحروب تدل على غدرهم وخياناتهم ، وفى ذلك يقول جل وعلا :

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون »[1] .

ومما لاشك فيه أن العمل على هداية هذا الصنف من الناس مسألة صعبة ، كما أن تركهم يمثل خطورة على المجتمع ، إلا أن خطط الأعلام يجب فى كل الأحيان أن تعمل على الكشف مخططاتهم ، وحماية الجماهير من شرورهم ، وفضح أسرهم .

رابعا : الحقد والحسد وكراهية الخير :

المنافق بحكم بنائه الفكرى وتكوينه الوجدانى لا ولاء له إلا لنفسه ولا انتماء له إلا لمصالحة الذاتية .

وكان هذا هو أسلوب المنافقين حتى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالمنافقون إذن يكرهون الخير للغير ، ويعملون بكل الطرق على الحيلولة دون وصوله إلى الناس وتغلى قلوبهم بالحقد والحسد على من أحرزوا قدرا من النجاح فى أى ميدان . فيزيد ذلك فى مرض قلوبهم ، ذلك أنهم أوصدوا قلوبهم عن الإيمان وأغلقوا عقولهم عن الفهم ، ولم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة لمعارضة المؤمنين معارضة صريحة بسبب فساد عقولهم وخراب ضمائرهم ، فهم يتعذبون بحقدهم وحسدهم وينالون سخط الله فى الدنيا والآخرة .

وفى ذلك يقول تبارك وتعالى :

---

(١) سورة التوبة : آية (٨١) .

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون »[١] .

وهؤلاء ـ بحكم تكوينهم هذا ـ لا يبادلون الآخرين وداً بود ، وخيرا بخير ، أو حباً بحب . لا سيما مع عناصر الصلاح والإيمان ، وفى ذلك يقول عز وجل :

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ »[٢] .

والمنافق عدو فاجر بطبعه ، والفجور يعنى الخروج عن الحق عمدا حتى يصير الحق باطلا والباطل حقاً . وفى هـذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن أبغض الرجال إلى الله الألد الأخصم »[٣] .

والمنافقون لم يكفوا أبدا عن الكيد للمسلمين والارجاف بهم وبنبيهم ، وإذا تمكنوا فى الأرض وتبوءوا مناصب أو قيادات فإن خطرهم يكون محققا وأثرهم يكون مدمرا ، يؤكد ذلك الحق تبارك وتعالى فى قوله :

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد »[٤] .

ومن شدة كراهيتهم وحسدهم للمسلمين تراهم يبثون الشائعات الضارة بهم لتحقيق أغراضهم الخبيثة فهم يسارعون ـ على سبيل المثال ـ بإذاعة أخبار الهزيمة ليفتوا فى عضد المؤمنين ، ويدخلوا الرعب فى قلوبهم ، واليأس فى

---

(١) سورة المنافقين : آية (٧) .

(٢) سورة آل عمران: آية (١١٩) .

(٣) زين الدين أبو الفرج بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلى البغدادى، جامع العلوم والحكم . ط٥ . ص٢٢ . القاهرة: مكتبة الدعوة الإسلامية ١٩٨٠ ، ص٥٢٢ .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٠٥) .

نفوسهم ، ومهابة العدو فى صفوفهم ، فى محاولة لغرس عوامل الضعف والهزيمة والفشل بينهم «[1] .

والواقع أن كل الخصومات والعداوات والشحناء والفرقة التى تحل بالمجتمعات ترجع إلى نشاط المنافقين ودخولهم بين مختلف الطوائف يتظاهرون بالإخلاص ، ويكنون الحقد والعداوة بقصد تفتيت عرى المجتمع ، والقضاء على العلاقات الطيبة بين أفراده ، فهم الشر المستطير والأسهم المسمومة .

خامسا : الفتنة والنميمة والوقيعة :

وهذا دأب المنافقين دائما يمليه عليهم فساد قلوبهم ، وسوء نواياهم ، مستهدفين من وراء ذلك تحقيق أغراضهم الخبيثة والدنيئة .

ويجنح المنافقون إلى جر المؤمنين إلى معارك جانبية لإهدار جهدهم ، وإضاعة وقتهم ومالهم ، وذلك من خلال ثرثرات فارغة ، وصراعات صغيرة ، وأقاويل لا أساس لها ، وكلمات لا معنى لها ، وهى ثرثرات لا تدخل فى دائرة النقد الموضوعى المفيد بقدر ما تدخل فى دائرة الجدل العقيم ، والدس والوقيعة وإحداث الفتنة بين العاملين الناجحين المنتجين والمؤمنين .

وباستعراض تاريخ المنافقين مع رسول الله نجد أن دورهم فى هذا الصدد كان أخطر من دور المشركين بمكة ، واليهود بالمدينة وكانوا أخسهم نفوسا والأمهم طباعا ، فليس كالنفاق آفة تقتل المروءة والشجاعة ، ولهذا حدد لهم الله موقعهم المناسب بأنهم فى الدرك الأسفل من النار .

وإحداث الوقيعة بين المؤمنين وإثارة الفتن فى صفوفهم هو منهج حياتهم وأسلوب عملهم ، كما كان شأن عبدالله بن أبى بن سلول وأنصاره وأتباعه حين

---

(١) محمد الرؤوف يونس : الرأى العام فى الإسلام . القاهرة . مكتبة الوعى الإسلامى ، ١٩٦٦ . ص ١٦ .

أثاروا الفتنة بين المهاجرين والأنصار حينما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، ويقبلون على رسول الله بالسمع والطاعة والمحبة، فكرهوا منهم ذلك كما كرهوا أن يظلوا فى عزلة وحدهم، فدخلوا فى الإسلام ظاهرا، وبقيت قلوبهم على جحودها وغيظها، فكانوا يقومون بمهمة الطابور الخامس لأعداء الله وأعداء رسوله، فأعلم الله رسوله بنبأ هؤلاء ليأخذ منهم حذره[1].

« ومن حولكم من الإعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم »[2].

والواقع أن كل الخصومات والعداوات والشحناء والفرقة التى تحل بالمجتمع ترجع بالدرجة الأولى إلى نشاط المنافقين ودخولهم بين مختلف الطوائف، يتظاهرون بالإخلاص والإيمان والمودة، ويكنون الكراهية والعداوة، ويشعلون الفتنة، ويحدثون الوقيعة بين الجماهير، بقصد تفتيت عرى الجماعات المتماسكة، والقضاء على العلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع وبعضهم من ناحية، وبينهم وبين قادتهم من ناحية أخرى، وإثارة الشكوك وشن الحملات المغرضة، ولعل خير مثال لذلك حادث الإفك الشهير الذى أطلق فيه المنافقون الإشاعات الكاذبة على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، مما سبب ألما نفسيا وترك حزنا عميقا فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، لولا أن كشف الله له الأمر بالوحى وبرأ أم المؤمنين من هذا الشر المستطير.

سادساً : الكذب :

حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهم العلامات المميزة للمنافق وهى الكذب فقال :

« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت

(١) البهى الخولى : تذكرة الدعاة القاهرة . مطبعة دار الكتاب العربى . ١٩٥١ . ص ٢٦٦ .

(٢) سورة التوبة : آية (١٠١) .

فيه خصلة من نفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[1] .

والكذب هو أسوأ الآفات التى تصيب الإنسان فى سلوكه ، وهو البداية الحقيقية لإنهيار الفرد وإنهيار المجتمع ، وهو المنزلق إلى الرذيلة بكافة أشكالها ، كما أنه من أهم عوامل إفساد القيادات والقواعد وضياع الأمل والعمل ، فلا تتقدم الأمم التى يتسم أهلها بالكذب سواء كانوا قادة أم تابعين ، رجالا أم نساء ، علماء أم جهلاء ، لأن تحضر الأمم يقاس بالصدق الذى يميز الإنسان حتى فى أشد الأوقات صعوبة .

ولا يوجد بديل للارتقاء بالمجتمع فى مختلف المجالات إلا من خلال إستراتيجية علمية توظف فيها أجهزة الإعلام والتعليم والتربية للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة التى تهدد المجتمعات فى حاضرها وفى مستقبلها .

وقد تبين من الدراسات الإعلامية إنه لا قيمة لأية أقوال إذا لم تأت ترجمة للإتجاهات الفعلية ، والسلوكيات العملية ، ذلك إن الإنسان السوى مهما بلغت معاناته يلزم نفسه بأن يكون حساب الكلمات لديه هو نفسه حساب القدرات ، بل ولا يضر المرء أن تكون كلماته أقل من قدراته فذلك أكثر أمانا من أن يقع العكس .

وهذه ليست من طباع المنافق الذى يتناقض ظاهره مع باطنه ، ويتنافر مظهره مع مخبره ، والذى يتقن الكذب والتمويه ، فإذا جاء دور العمل ظهر المخبوء ، وانكشف المستور ، وتضح بما فيه من حقيقة الشر و البغى والحقد والفساد ، وحين يتحدث الكذاب فإنه يتصور نفسه خلاصة من الخير ومن الإخلاص ومن التجرد والترفع ، ومن الرغبة فى إفاضة الخير والسعادة والطهارة

---

(١) أبو زكريا يحيى بن شرف النووى : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين . المرجع السابق . ص ٥٤٤ .

على الناس ، فيعجبك حديثه وذلاقة لسانه، ونبرة صوته، وقوله فى الخير والبر والصلاح ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، زيادة فى التأثير والإبعاد وتوكيدا للخير والإخلاص ،وطهارة النفوس وخشية الله . وهو أبعد ما يكون عن ذلك .

وقد حسم القرآن الكريم هذا الأمر حين أكد على أن الكذب صفة أصيلة من صفات المنافق فقال عز وجل :

إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ،[1] .

وقد نهى الرسول عن الكذب الذى يوقع صاحبه فى منزلق النار ، بقوله صلى الله عليه وسلم :

« لا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار[2] » .

كما حذر من مغبة هذه الآفة التى تورث صاحبها فجـــورا وتهوى به فى جهنم بقوله :

« إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وأن الفجور يهدى إلى النار[3] » .

وفى الحقيقة أن الكذب هو بداية الانهيار الفعلى للإنسان، يفقده التوازن والتماسك ، ويؤثر على كيانه العقلى، وبنيانه النفسى، وإذا تفشت هذه الرذيلة فى المجتمع أدت إلى إنهياره .

وهنا يصبح من الأهمية بمكان تضافر أجهزة الإعلام والتعليم والتربية

---

(١) المنافقون : آية (١) .

(٢) صحيح مسلم — بشرح النووى . جـ١ القاهرة ــ المطبعة المصرية ومكتبتها . د . ت . ص ٦٥ .

(٣) زين الدين أبو الفرج بن شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلى البغدادى : جامع العلوم والحكم . المرجع السابق . ص ٥٢٢ .

فى خطة محكمة للقضاء على هذه الآفة ، والكشف عن أصحابها مهما كانت مواقعهم ، وتربية النشىء منذ الطفولة المبكرة على الصدق، من خلال النماذج الصادقة فى التاريخ الإسلامى والتاريخ العالمى ،فى مختلف القوالب الفنية الجاذبه كالقالب الدرامى والقالب الإخبارى والحوارى وغير ذلك .

سابعاً : الكفر والانغلاق :

إذا كان الكفر يأتى فى مقدمة الرذائل التى وضعها الله على رأس الكبائر وحدد لصاحبها موقعه فى الدنيا والآخرة .

فإن الله قد بوأ المنافقين مكانا مميزا فى النار وحشرهم مع الكافرين فى جهنم جميعا ، بل أنه وضع المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ذلك أن الكافر لايتردد فى إعلان كفره وإلحاده، ورفضة للرسالات السماوية وشجبه لأنبياء الله ، وإعلانه العداوة سافر الوجه واضح الفكر ، عارى القلب . وهذا يمكن المؤمنين من التعامل مع هذا الصنف من الناس ،لأن النجاح فى التخطيط والمواجهة يتوقف على تحديد الخصم ومعرفة مكانة ومكانته ، وفهم أساليبه ووسائله ، أما المنافق الذى يتحلى بالمكر والدهاء والخبث والرياء فإن خطره أشد وحربه أصعب .

والتحالف مع الكفار يعد أحد الأساليب الرئيسية والمواقف المبدئية للمنافقين ،وهم بذلك يعملون بكل الطرق للاضرار بالإسلام والكيدله، ويجدون ضالتهم فى هذه الفئة المارقة وفى ذلك يقول عز من قائل .

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا[1] » .

---

(١) سورة النساء : آية (٦١) .

فهم يطلبون عندهم العزة ، وتوضح الشواهد والبراهين هذه الحقيقة التى تحكم سلوك المنافقين فى هذا الصدد ، كما تكشف عن خطأ تصورهم لحقيقة القوى ، وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التى يطلبها عندهم المنافقون ، وتقرر آيات الحق تبارك وتعالى أن العزة لله وحده ، فهى تطلب عنده ولا عزة ولا قوة ألا له[١] .

« الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعا[٢] » .

ويتمثل الكفر أحيانا فى الاستهزاء بجلال الرسالة والرسول والسخرية منه ، والخوف من أن يكشف الله أمرهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزءوا أن الله مخرج ما تحذرون »[٣] .

وقد كان المنافقون يضيفون إلى الكفر والجحود استهزاءهم بالنبى والمسلمين حين يخلو بعضهم إلى بعض ، وكانوا يصرون على الكيد لهم ، ويتولون المشركين واليهود دون النبى والذين اتبعوه ، ويطلقون كلمة السوء على النبى والذين آمنوا معه[٤] .

وكان المنافقون يعقدون مجالس للسخرية بالمسلمين والاستهزاء برسول الله كما كان يفعل المشركون ، ولذلك جمعهم الله تعالى مع المشركين فى حكم واحد بقوله عز وجل :

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن . مجـ ٢ . جـ ٥ - ٧ بيروت . دار الشروق ١٩٧٣ . ص ١٢٩ .

(٢) سورة النساء: آية (١٣٩) .

(٣) سورة التوبة :آية (٦٤).

(٤) طه حسين : مرآة الإسلام:القاهرة . دار المعارف بمصر . ١٩٥٩ . ص٩٣ .

« أن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا »[١] .

بهذا نرى أن هذه الفئة التى اتسمت بالغدر والكذب والجبن والخداع والحقد والحسد قد اجتمعت على الكفر الباطن والنفاق الظاهر ، ولذلك يصبح خطرهم على المجتمع أشد من خطر العدو الظاهر ، ويصبح وجودهم فى مواقع القيادة والريادة أو الأماكن الحساسة كأجهزة الاتصال وبناء الرأى العام نذير خطر على المجتمع . فكلما قويت شوكتهم واشتد ساعدهم كان تأثيرهم أقوى ودورهم أبلغ ، وبالتالى فإن الاتصال بهم يتطلب تخطيطا دقيقا وفهما عميقا وقدرة متميزة .

---

(١) سورة النساء : آية (١٤٠) .

أصول الاتصال والمواجهة مع المنافقين

أنه من الظلم الواضح إصدار الأحكام على الناس من خلال التصرفات العابرة ، ولهذا حرم الله الغيبة وأمر بالنصيحة والمواجهة ، ولا يرى الإسلام أن مجرد المخالفة فى الرأى تبيح العداوة والبغضاء ، وتمنع المسالمة والتعاون على شئون الحياة لأن الشدة مع المخالفين تؤدى إلى تفكك الأسر وحقدها ، إلا أن هذا لا يحول دون العمل على اكتشاف الطبيعة النوعية لكل شريحة من شرائح المجتمع والعمل على إيجاد صيغة مناسبة للاتصال بهم إما بهدف هدايتهم أو مواجهتهم ، أو إحتواء عداوتهم .

وقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحى الإلهى ليكشف له أمر المنافقين ، ويحدد له كيفية التعامل معهم ، وكانت آيات القرآن الكريم القاطعة لكل التباس تقف بالمرصاد لكل لبس أو غموض فى هذا الصدد .

وكان عمر بن الخطاب يقول أن أناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذهم الآن بما ظهر من أعمالهم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شىء ، الله يحاسبه على سريرته ، ومن أظهر لنا شرا لم نؤمنه ولم نصدقه وأن قال أن سريرته حسنة(١) .

وتدل الشواهد والبراهين على أن معرفة حقيقة المنافقين وما تضمره نفوسهم ليس بالأمر اليسير ، وتكمن هذه المشاق فى عدم القدرة على سبر أغوارهم والكشف عن اتجاهاتهم الحقيقية لاسيما كلما ارتفعت درجاتهم فى سلم النفاق ، وقد عرضنا للسمات المميزة للنفاق والمنافقين كما حددها القرآن الكريم وكما أوضحتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ، لكى تسهم فى الكشف عنهم وتحديد هديتهم وما تخفيه سرائرهم.

---

(١) محمد يوسف الكاندهلوى : حياة الصحابة ـ جـ ١ ، مجـ ١ ـ بيروت ، دار المعرفة والنشر ـ ١٩٦٣ - ص ١٥ .

وفى الحقيقة أن التعامل مع هذه الفئة يتطلب مهارة وحذقا وذكاء وقدرة خاصة على مواجهة هذه الشريحة الخطرة من شرائح المجتمع .

وهنا يجب أن يكون منهج القرآن نبراسا لنا ، وسنة الرسول هاديا ومرشدا لتحديد أساليب التعامل مع هذه الفئة ، ذلك أن القرآن الكريم قد تكفل بتزويد المسلمين بأهم أسلحة مقاومة النفاق .

كما أنه من الأهمية بمكان الاستفادة بمعطيات العصر الحديث واكتشافاته فى كشف النفاق والمنافقين ، لاسيما وقد أسهم كثير من العلوم فى فهم سلوك الإنسان ، وفى التعرف على دوافع هذا السلوك ، والعوامل التى تؤثر فيه مثل علم النفس Psychology الذى جعل سلوك الفرد من مختلف جوانبه محورا اساسيا لاهتماماته ، وعلم الاجتماع Sociology ذلك العلم الذى يدرس الأحوال الثقافية والمؤسسات الاجتماعية التى أثرت فى الجماعات المختلفة كالأسرة والمدرسة ودور العبادة ودوائر العمل والتنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، فبينما يتناول علم النفس دراسة سلوك الإنسان كفرد ، فإن علم الاجتماع يعمل على فهم السلوك الجماعى Jroup Behaviour [1] .

وقد أسهمت العلوم السلوكية وعلم الإنسان Anthropology ودراسات الرأى العام ومناهج البحث العلمى بالكثير فى هذا المجال مما يمكن الاستفادة بنتائجها فى فهم سلوك المنافقين .

ومن معطيات القرآن الكريم وسنة الرسول ونتائج الدراسات العلمية المعنية يمكن أن نجمل أفضل أساليب الاتصال والتعامل مع المنافقين فيما يلى :

١ — الحرص والحذر وتمحيص أقوال المنافقين وأفعالهم :

وجه القرآن الكريم تحذيرا شديدا الرسول والمسلمين يبصرهم بأمر المنافقين ويلفت نظرهم من مغبة أعطاء الأمان لهم أو التهوين من شأنهم أو كشف

(١) على أحمد على : أسس العلوم السلوكية والنفسية . القاهرة — مكتبة عين شمس د . ت . ص ٨ .

أسرار المسلمين لهم ، لأن قلوبهم لن تصفو ونفوسهم لن تخلو من الحقد والكراهية .

ولم يكتف القرآن بتحذير الرسول والمؤمنين من شرهم ولكنه اتبع ذلك بإعلان غضب الله ونقمته عليهم .

وإذا كان هذا التحذير موجها إلى المؤمنين عامة ، فإن أهميته تزداد لدى رجال الدعوة والإعلام والذين يعملون فى مجال المعلومات ، لأن كل معلومة سيحصل عليها المنافقون سيتم توظيفها لضرب المؤمنين ، وتمزيق وحدتهم ، والقضاء على عوامل نموهم وازدهارهم ، وأحداث البلبلة والاضطراب فى صفوفهم .

ولذا أمر الله نبيه بعدم طاعتهم فقال عز وجل :

« ياأيها النبى أتق الله . ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا(١) .

وفى ضوء ذلك أكد القرآن الكريم على ضرورة التحرى عن صحة ما ينقلون من معلومات ، والتأكد من صدق مقولتهم فى أى أمر درءا لفتنتهم والإندفاع وراء أهوائهم .

وهنا يصبح من الضرورى معاملة المنافقين بحذر شديد ، ويقظة كاملة لإفساد مخططاتهم ، والكشف عن حقيقتهم حتى يعيش المجتمع سالما آمنا شرهم ومحافظا على العلاقات الطيبة بين أفراده وجماعاته ، واقيا نفسه من كيدهم .

٢ - الصبر والتسامح وسعة الصدر :

وهو مطلب إنسانى وإسلامى وصفة أصيلة من صفات المؤمنين فيما يكتنف حياتهم من مسائل وقضايا .

---

(١) سورة الأحزاب : آية (١ ، ٢).

ولعل الصبر على المنافقين خير علاج لمواجهة هذه الفئة الشريرة من فئات المجتمع ،هؤلاء الذين لا نستطيع أن نسبر غورهم ، كما لانستطيع أن نتغاضى عن جرائمهم وخططهم الخبيثة ، لأنهم يعلنون الصلاح والتقوى ويظهرون الإسلام، ويرتدون قناع الفضيلة.

وحين جاء المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع النبى فى غزوة تبوك يعتذرون لرسول الله ، عما كان من قعودهم ، فلم يملك النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يقبل ظاهر عذرهم ويستغفر لهم ، وحين جاء الصحابى الجليل عبد الله بن عبدالله بن أبى بن سلول يتشفع فى أبيه كبير المنافقين وكان يحتضر ، قبل الرسول شفاعته ، بل شهد موته وتشييع جنازته، وقام على قبره .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل عبدالله بن أبى على أنه مسلم ولم يعامله معاملة المشرك أو المرتد أو الكاذب فى إسلامه ، ذلك أن الأحكام الإسلامية فى مجموعها تتكون من جانبين . جانب يطبق فى الدنيا ويكلف المسلمون بالعمل به فيما بينهم ، وجانب آخر يطبق فى الآخرة ، ويكون أمره عائدا إلى الله عز وجل . أما الجانب الأول فيقوم أمره على الأدلة المادية المحسوسة بحيث لايترتب شىء من نتائج الأحكام إلا بموجبها . وأما الجانب الثانى فيقوم على ما استقر فى القلوب واستكان فى الصدور ومرد القضاء فى ذلك إلى الله تعالى ، وتطبيقا لهذه القاعدة الشرعية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من اطلاعه على كثير من أحوال المنافقين وما تسره أفئدتهم بوحى من الله تعالى يعاملهم معاملة المسلمين دون تفريق فى الأحكام الشرعية العامة وفى ذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يقول .

« إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم »(١) .

وهذا لايتنافى مع أهمية الحذر من المنافقين ، واليقظة لتصرفاتهم لخفدهم

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة ـ ط ٧ ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ـ مكتبة شباب الأزهر ـ ص ١٨٣ .

دفين، ومكرهم لعين، فذلك من الواجبات البدهية فى كل وقت ،وكل ظرف مع التسليم بأن رحمة الله التى وسعت كل شيء يمكن أن تشمل التائبين منهم عن صدق ويقين ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون[١] » .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حكيما موفقا فى التغلب على المتاعب التى واجهته مع المنافقين فى الجبهة الداخلية ، وقد تعامل معها بمنتهى اليقظة والحذر والحزم ، وزاوج فى ذلك بين اللين والشدة حتى أستقام له الأمر وحقق الله له النصر فى النهاية[٢] .

وكان الرسول يستهدف من وراء ذلك التأكيد على أن رسالة الإسلام لاتبنى على الأحقاد ولا على الكراهية ، بل هى رسالة إصلاح وتفاهم ،ويظهر ذلك فى أحكامها التى عبر عنها فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« أمرنا أن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر[٣] » .

وهذا يتطلب الصبر على الضراء والإلتجاء إلى الله ، وحسن الظن به ، والثقة فى عدله ورحمته ، والتحصن به ، والحذر الشديد مع هذا الصنف الذى لايضمر إلا شرا ، ولا يكن إلا حقدا يؤكد ذلك قول الحق تبارك وتعالى .

« أن تمسسكم حسنة تسؤهم وأن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وأن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا أن الله بما يعملون محيط[٤] » .

---

(١) سورة الزمر : آية (٥٣ ، ٥٤) .

(٢) عبد الغفار عزيز : الدعوة الإسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الديني . ط ٣ . القاهرة . مؤسسة الوفاء . ١٩٨٣ . ص ١٦٢ .

(٣) عبدالقادر رفعى العلوى : الدعوة الإسلامية فى مواجهة خصومها . المرجع السابق . ص ٦٧ .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٢٠) .

أى أن مردود مكرهم سيعود عليهم ، فلا يحيق المكر السيىء إلا بأهله فى النهاية ،وقد التزم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدوء والصبر ونكران الذات وهو يبنى دعائم الإسلام ، لأن هذا البناء يتطلب مجهودا خاصا يحفظه من التيارات الجارفة التى تتولد عن الطيش والغلظة والاندفاع الأحمق ، حتى تكون الرسالة قوية ، لا تهزها عواصف، ولا تنال منها فتن ، ولا تغير معالمها مؤمرات أو تقلبات ، ولا يزيدها تعنت المعاندين وكيد الحاقدين إلا إستقرارا ورسوخا .

كما نهج الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا مع المنـــافقين منهج الاغضاء والإعراض ، وتبصير المؤمنين بأمرهم، بهدف التخلص من هذا المعسكر اللعين دون جزع أو يأس أو حزن التزاما بمنهج الحق الذى قال عز من قائل :

« ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم[1] » .

٣ - فضح مؤامراتهم وكشف مخططاتهم :

إن تحصن الدعاة بالله فى مواجهة النفاق والمنافقين لا يعنى السكوت عن أعمالهم ، أو التستر على نشاطهم ، أو عدم الحذر منهم، والتغاضى عن استئصال شأفتهم من المجتمع ، بل أن ذلك واجب لا يجوز تركه وأهماله شريطة التحرى والتثبت كيلا يؤخذ برىء بذنب سواه ، ولا يظلم أحد بفعل غيره ، فلا يملك أحد أن ينفى مسلما عن الإسلام لمعصية ارتكبها أو ذنب اقترفه .

وقد كشف الحق تبارك وتعالى مخططاتهم وحسم الأمر بالنسبة لهم ، لأنه وحده الأعلم بما فى نفوسهم، وما تكنه صدورهم .

ففضح نواياهم وبين أساليبهم الملتوية فى قوله عز وجل :

---

(١) سورة المائدة : آية ٤١ .

« فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ،فقل لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ، ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون(١) » .

٤ ـ عدم موالاتهم أو إعطاء الامان لهم :

أنه بقدر ما نهج الإسلام منهج السلم وعدم الظلم ورفض العدوان ، إلا أنه لا يقبل التمييع فى مواجهة النفاق والمنافقين حين يستبين أمرهم ، وتتضح عداوتهم ، ويظهر خطرهم فيستنكر الحق سبحانه وتعالى التراخى فى موضع الحسم ، وانقسام الجماعة المسلمة نحو المنافقين إلى فئتين ، فمبادىء الإسلام واضحة فى ضرورة تحديد الأمور وحسمها وفى ذلك يقول تعالى :

« يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »(٢) .

واختيار الإسلام للسلم كهدف له ، ومبدإ يلتزم به يتفق مع منهجه الأساسى فى حرية الرأى والتعبير والاختيار ، كما يحترم الإسلام العهود والمواثيق ، فإذا لجأ المنافقون إلى معسكر بينه وبين الجماعة المسلمة عهد مهادنة وعهد ذمة فهم فى هذه الحالة يأخذون حكم الذين يلجئون إليهم ويتصلون بهم(٣).

كما أن الإسلام يرى أن المعاهدة إذا تمت مستكملة شروطها ، وحافظ عليها الطرف الآخر ولم تبد من جانبه خيانة ، ولم تتغير الأحوال التى وضعت بمقتضاها ، كان الوفاء بها واجبا دينيا ، وفى الإخلال بها غدرا

---

(١) سورة التوبة: آية (٨٣ ، ٨٤) .

(٢) سورة التوبة: آية (٧٣) .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ـ مج ٢ ، جـ٥ ـ ٧ بيروت . دار الشروق . ١٩٧٣ ص ٢٨٢ .

وخيانة إلا إذا أخل الطرف الآخر بشيء من التزاماته نحوها بقرائن واضحة وأنباء صادقة[1] .

إلا أن الفئة التي توغل النفاق في كيانها وأصبح جزءا من تكوينها الفعلي والوجداني يصبح إعلاءها وهدايتها الإسلام إهدارا للوقت والجهد ، وقد أكد الله على ذلك بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[2].

وهنا تصبح موالاة المنافقين مسألة مرفوضة لأنهم لا يسمون إلى الإيمان والهداية ، كما أمن الناس ، ولكنهم - على العكس - يسعون إلى جر المؤمنين إلى مزالق الكفر .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله »[3] .

٥ - الاعراض عنهم ، وتوجيه الدعوة لمن هم أهل لها :

إذا كان الإعلام عن الإسلام أو الامتثال لأوامر الحق تبارك وتعالى في أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب الدعاة والمسلمين جميعا فإن هذا الجهد يجب أن يوجه لمن هم أهل لها ، حتى لا يهدر الوقت والجهد مع فئة لا تجدي معهم أي دعوة ولن يتحقق من ورائهم أمـــل في الهداية .

---

(١) محمود شلتوت . الإسلام عقيدة وشريعة . القاهرة - دار الشروق ١٩٨٠ ص ٤٥٧ .

(٢) سورة الأنفال : الآية (٢١ - ٢٣) .

(٣) سورة النساء : آية (٨٩) .

وقد حدد الله مكانهم فى قاع جهنم ، وليس لهم نصير يحول بينهم وبين العذاب إلا التوبة من النفاق، وإصلاح أعمالهم ، لعل الله يقبل توبتهم ، فالحق تبارك وتعالى لم يغلق الباب أمام توبه المنافقين ، فقال فى ذلك :

« ليجزى الله الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما »(١) .

والإسلام يرفض أن يعتنقه أحد إلا عن قناعة ورضى وإيمان كامل ، فليس فى حاجة إلى من يدخله جاهلا أو كارها أو منافقا ، ولهذا ترك حرية للجميع دون قهر أو قمع أو اغتصاب للعقول أو الأفئدة وفى ذلك يقول عز وجل :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفقا »(٢) .

وهنا يجب أن تعمل الخطة الإعلامية على محاصرتهم ، إتقاء لشرهم ، ودرءا لضررهم ، والقضاء على حملات الهمس والشائعات التى يشنونها على الإسلام والمسلمين، فهذا دأبهم وذاك منهجهم ، أما العمل على هداية قوم سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، فهذا إهدار للطاقة والجهد بلا عائد أو مردود .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

« أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »(٣) .

ويكمن الحل القرآنى مع هؤلاء فى الأعراض عنهم وتوجيه النصح لهم وإعلامهم بكلمة الحق .

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٤ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٢٩ .

(٣) سورة النساء: الآية ٨٨ .

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا »(١) .

٦ - تحصين الجماهير بالحقائق وتزويدهم بالمعلومات الصحيحة .

تتحمل أجهزة الإعلام والدعوة الجانب الأكبر من مسئولية حماية الجماهير من خطر المنافقين ، وذلك بتزويدهم بالحقائق والمعلومات الصادقة أولا بأول لتكون حصنا لهم في مواجهة الشائعات الضارة وحملات الهمس وأساليب الفتن والدسائس ، فالحقيقة وحدها كفيلة بدحض كل محاولات الشر والفساد والوقيعة والفضاء والمؤامرات التي يحوكها المنافقون ، لأن نشاطهم يزدهر في مناخ الكبت والقمع والتعتيم الذي يسيطر على المجتمعات الاستبدادية ويتسبب في اتساع الهوة وفقدان الثقة بين القيادة والقاعدة ، وبين الجماهير بعضها والبعض الآخر .

وقد جاء في التقرير الذي أعده الأمين العام للأمم المتحدة عن أعمال المنظمة أن الوظيفة الرئيسية للإعلام هي مباشرة جمع المعلومات الدقيقة وإذاعتها مباشرة حرة مسئولة وأن خير وسيلة لتحقيق أهداف حرية الإعلام هي إتاحة مختلف مصادر الأنباء والآراء لكل إنسان(٢) .

والإعلام الذي لا يقوم على الواقع ولا يلتزم بالموضوعية والتجرد ، ويعبر عن الجماهير تعبيرا موضوعيا ينتفي عنه مفهوم الإعلام ويفقد أهم دعامة له وهو عامل الصدق .

فالإعلام هو تزويد الجماهير بأكبر قدر ممكن من المعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة ، وبقدر ما في الإعلام من حقائق صادقة ومعلومات دقيقة

---

(١) سورة النساء الآية ٦٣ .

(٢) الجمعية العامة للأمم المتحدة والتقرير السنوي للأمين العام . ملحق رقم (١) الدورة الرابعة والعشرين . نيويورك ١٩٧٠ . ص ٢٣٤ .

منبثقة من مصادر أمينة بقدر ما يكون هذا الإعلام سليما وقويا ، وهذا هو أيسر الطرق وأفضلها لمحاربة آفة النفاق التى يعتمد أصحابها على نقص المعلومات المتاحة ، فيجد المنافقون المناخ مهيئا لهم لبث الأكاذيب وإشاعة والأقاويل وترويج الشائعات .

وتتحمل القيادات الإسلامية المسئولية الأولى لمقاومة النفاق من خلال قيامها بحل مشاكل الجماهير ، وتوضيح الرؤى أمامهم فى كل ما يخص حاضرهم ويتعلق بمستقبلهم ، وإرساء قواعد العدل ، وتدعيم ركائز الحق وتنصيب العناصر الصالحة ، وتقديم القدوة الطيبة ، والعمل على كشف المنافقين وتنحيتهم عن مواقع القيادة والريادة حتى لا يبثوا سمومهم ويعيثوا فى الأرض مفسدين . ومصارحة الجماهير وإعلامها بكافة الحقائق الموضوعية يعد مطلبا جذريا حتى يسهموا فى مقاومة النفاق والمنافقين .

ويؤكد ولبور شرام إن الإعلام الذى يتزايد تداوله هو الذى يجعل القادة يحدثون الشعب ، كما يجعل الشعب يحدث قادته كما يحدث نفسه ، ويجعل الحوار فيما يتعلق بسياسة الدولة ميسورا ، ويجعل الأهداف والمنجزات الوطنية ماثلة فى أذهان الجماهير (١) .

والإعلام بهذا عليه أن يقوم بإشباع رغبة الجماهير فى المعرفة حيث إن حرمان الناس من المعلومات والحقائق التى تعالج شئونهم يؤدى إلى خلق جو من التوتر وعدم الثقة ، ويساعد المنافقين على ممارسة نشاطهم .

وفى هذا يقول توماس جيفرسون Thomas Jefferson إن الطريقة المناسبة لمنع اللبس وسوء الفهم عند الجماهير تكمن فى تزويدهم بالمعلومات الكافية التى تعالج شئونهم وأحوالهم عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة ،

---

(١) ولبور شرام : أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية ترجمة . محمد فتحى ويحيى أبو بكر . القاهرة ـ ص ٦٥ .

وإتاحة الفرصة للحقائق لكى تنساب إلى الشعب وتصل إلى مختلف الكتل الجماهيرية [١]

٧ ـ القضاء على النفاق فى أجهزة الدعوة والإعلام :

إنه لا يكفى للداعية أو رجل الإعلام أن يكون فقيها ، عالما أو خطيبا مفوها أو إذاعيا لامعا ، بل لابد أن يكون فوق هذا وذاك تقيا ورعا ، عاملا بعلمه ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وحجب الهدى وانعدم الأثر . ورحم الله مالك بن دينار حيث يقول :

« إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ، كما يزل القطر عن الصفاء »[٢] .

وفى الحقيقة إن العمل الإعلامى بكافة أشكاله وقوالبه مسموعا أو مرئيا أو مكتوبا ، وسواء كان خطابة أم وعظا لن يجد آذانا صاغية لدى الجماهير إذا لم يلتزم القائمون بالإتصال بما يقولون ، والتاريخ الدولى والتاريخ الإسلامى يغص بنماذج من الخطباء الذين كانوا يبكون السامعين ولكن أقوالهم كانت تخالف أعمالهم ، وسلوكهم الظاهر يتناقض مع اتجاهم الباطن .

وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن من البيان لسحرا »

فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة سواء كانت خصومته فى الدين أم فى الدنيا على أن ينتصر للباطل ويخيل للسامع أنه حق ، ويوهن الحق ويخرجه

1) Rivers, William : Mass Media. Delhi. Universal Book Stall . 1963 P. 3

(٢) فتحى يكن : مشكلات الدعوة والداعية ـ ط ٤ ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٨٠ ـ ص ١٤٩ .

في صورة الباطل . كان ذلك من أقبح المحرمات وأخبث خصال النفاق[1] .

ويقول أيضا :

«إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار »[2] .

وكان الحسن البصرى يعجب من الحجاج بن يوسف الثقفى فيقول :

« ألا تعجبون من هذا الفاجر ، يرقى عتبات المنبر فيتكلم بكلام الأنبياء وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله فى قوله ، ويخالفه فى عمله » .

ومثل هؤلاء الخطباء يقتبسون من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهجه فى تهوين الدنيا والتذكير بالموت ، تساعدهم مقدرتهم الكلامية على صوغ العبارات القوية التى تفزع القلوب وتثير الإشفاق من الحساب فى الدار الآخرة .

وهذا الصنف من المنافقين لا يختلف عن هؤلاء الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف والذين قال الله فيهم :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون »[3] .

ذلك أن أبرز صفات الداعية ورجل الاعلام المسلم العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به ، ولا ينهى عن الشيء ما لم يكن هو أول تارك له ، ليفيد وعظه

(١) زين العابدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلى البغدادى : جامع العلوم والحكم . ط ٥ — القاهرة — مكتبة الدعوة الإسلامية . ١٩٨٠ ، ص ٥٢٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ٥٢٢ .

(٣) سورة التوبة آية . ٦٧ .

ويثمر إرشاده ، وإلا فلو كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه يكون هو نفسه عقبه في سبيل الإصلاح ، وهيهات أن ينتفع به ففاقد الشيء لا يعطيه .

ذلك أن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ، كما يزل القطر عن الصفا ، فإن من حث على التحلي بفضيلة وهو يماطل فيها أو أمر بالتخلي عن نقيصة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء وعمل سخرية في نظر العقلاء ، فإن من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس منه ، واستهزءوا به ، واتهموه في دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به »(١) .

---

(١) على محفوظ : هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة . ط ٥ ، القاهرة . دار الكتاب العربي . ١٩٥٢ . ص ٩ .

الخاتمـــة

تكشف لنا هذه الدراسة عن النفاق كظاهرة تواكب وجود المجتمع البشرى فى كل زمان وكل مكان . تجد التربة الصالحة ، والمناخ الذى تزدهر فيه فى ظل النظم الدكتاتورية والأوضاع الفاسدة حيث تسيطر العناصر الانتهازية وتتسع الهوة الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع .

ومن السمات المميزة للنفاق الكذب والفجور والخيانة والغدر ، ومن أبرز مظاهر النفاق الاختلاف الواضح بين ظاهر الأقوال وواقع الأفعال ، أو بين الاتجاه الداخلى والسلوك الظاهرى .

وأخطر أنواع النفاق هو الذى يظهر فى أجهزة الدعوة والإعلام وبين رجال الفكر وقادة الرأى لأن تأثير هذه الأجهزة وهؤلاء القادة يتسع ليغطى مساحة جغرافية وبشرية واسعة ، كما أن تأثيرهم كمفاتيح للاتصال وحراس للبوابات الإعلامية يكون أعمق . من هنا يصبح القضاء على النفاق والمنافقين فى هذه الأجهزة وتلك الأماكن الحساسة ، وتخليص المجتمع من شرورهم ، وتحجيم دورهم هدفا استراتيجيا ومطلبا جوهريا للإرتقاء بالمجتمع والنهوض به .

واكتشاف المنافقين ومعرفة هويتهم يعد أمرا هاما لخطط الاعلام ، وبحوث الرأى العام ، وواضعى السياسات المختلفة ، وصانعى القرارات ، حتى تأتى قراراتهم ترجمة فعلية لنبض الجماهير وإنسجاما مع آمالهم وآلامهم .

ذلك أن الخطط الإعـــلامية إذا لم تأت متوافقة مع ظروف الجماهير وتطلعاتهم ، منسجمة مع إطارهم الدلالى ، فسوف يؤدى ذلك إلى ضعف جسور العلاقة التفاعلية بين هذه الجماهير ومصادر الاتصال ، وقد ينجم عن

ذلك حدوث هوة فى التصديق Credipility bog بين هذه الأجهزة وبين المتلقين عنها ، وبالتالى فإن تستطيع السياسات الإعلامية التى تتناول قضايا المجتمع ، وتعالج مشكلاته أن تحقق الأغراض التى تستهدفها .

وإذا كانت بحوث الإعلام تواجه صعوبة بالغة فى الكشف عن فئة المنافقين نظرا لقدراتهم الكبيرة فى إخفاء حقيقة نواياهم ، والكشف عن خباياهم ، ومعرفة اتجاهاتهم الفعلية ، إلا أن هناك سمات مميزة حددها الحق تبارك وتعالى لهذه الفئة فى القرآن الكريم وأكدتها سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبرزتها حقائق التاريخ ، وممارسات السلف الصالح ، والتجارب العملية - يمكن من خلالها الكشف عن المنافقين ، لاسيما وقد تقدمت أساليب كشف الكذب واختبار صحة المعلومات وصدق البيانات التى تحملها إجابات المبحوثين وذلك قبل تفريغها وتحليلها واستخلاص النتائج التى أسفرت عنها ، كما أن الوحى الإلهى الذى كان يبين للرسول صلى الله عليه وسلم هوية المنافقين قد انقطع بوفاته ولم يعـــد هناك إلا الاستعانة بالله عليهم وتوظيف الطاقات البشرية والمعطيات العلمية لمعرفتهم .

وقد حدد الحق تبارك وتعالى أمثل أساليب الاتصال والتعامل مع فئـة المنافقين ، سواء لهدايتهم ، أو لدرء خطرهم ، وإتقاء شرهم ، يأتى على رأسها تمحيص كل مايصدر عنهم حتى لانصيب قوما بجهالة ، والحرص والحذر منهم ، والصبر وقوة التحمل ، وإجهاض مخططاتهم ، والقضاء على مؤامراتهم ، ومواجهتهم ، أو جهادهم إذا اقتضى الأمر ، أو الأعراض عنهم مع احترام العهود والمواثيق التى تعقد معهم .

ويأتى تزويد الجماهير بالحقائق الصادقة والمعلومات السليمة فيما يخص حاضرهم ومستقبلهم على رأس العوامل التى تسهم فى القضاء على مناخ النفاق

وتقضى على الشائعات أو حملات الهمس التى تسود فى جو التعتيم ونقص المعلومات .

وإذا كان القضاء على النفاق فى الحياة العامة يعد مطلبا جوهريا للنهوض بالمجتمع وتقدمه، فإن مقاومته والقضاء عليه فى أجهزة الدعوة والإعلام وفى منابر الفكر وأجهزة صناعة الرأى يصبح أكثر أهمية، نظرا للمكانة الخاصة التى تتبوؤها هذه الأجهزة فى الحياة المعاصرة ، ويرجع ذلك إلى سعة انتشارها وقوة تأثيرها .

مصادر البحث ومراجعه

أولا : القرآن الكريم .

ثانياً : السنة النبوية .

ثالثاً : الكتب العربية .

١ - أبو زكريا يحي بن شرف النووى : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، د . ن . د . ت .

٢ - إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى : تفسير القرآن العظيم . ج ١ ، القاهرة ، مكتبة الدعوة الإسلامية ، ١٩٨٠ .

٣ - جابر عبد الحميد : سيكلوجية التعلم ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .

٤ - زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن حسن بن شهاب الدين بن أحمد رجب الحنبلى البغدادى : جامع العلوم والحكم ، ط ٥ ، القاهرة ، مكتبة الدعوة الإسلامية ، ١٩٨٠ .

٥ - سعيد المغربى وكاميليا عبد الفتاح : علم النفس الاجتماعى ، د . ن . د . ت .

٦ - عبد الجليل شلبى : الخطابة وإعداد الخطيب ، القاهرة ، دار الشروق ١٩٨١ .

٧ - عبد الحليم حفنى : أسلوب السخرية فى القرآن الكريم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .

٨ - عبد القادر رفوى العلوى : الدعوة الإسلامية فى مواجهة خصومها ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، ١٩٨١ .

٩ - عبد الغفار عزيز : الخطابة الدينية بين النظرية والتطبيق ، القاهرة ، مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٢ .

١٠ - عبد الغفار عزيز : الدعـــوة الإسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الدينى ، القاهرة ، مؤسسة الوفاء ، ١٩٨٣ .

١١ - على أحمد على : أسس العلوم السلوكية والنفسية ، القاهرة ، مكتبة عين شمس ، د . ت .

١٢ - على محفوظ : هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والإرشاد ، ط ٥ ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٥٢ .

١٣ - فتحى يكن : مشكلات الدعوة والداعية . ط ٤ . بيروت . مؤسسة الرسالة . ١٩٨٠ .

١٤ - مجاهد محمد هريدى : منهج القرآن والسنة فى العلاقات الإنسانية ، القاهرة ، مطبعة الأمانة ، ١٩٧٨ .

١٥ - محمد حسن الشرقاوى : نحو علم نفس إسلامى ، ط ٢ ، الإسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ .

١٦ - محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة ، ط ٧ ، القاهرة ، مكتبة شباب الأزهر ، ١٩٧٨ .

١٧ - محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة . القاهرة . دار الشروق . ١٩٨٠ .

١٨ - محمد يوسف الكاندهلوى : حياة الصحابة ، مج ١ ، ج ١ ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

١٩ - سيد قطب : فى ظلال القرآن : مج ٢ ، ج ٥-٧ بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٣ .

رابعا : الكتب المترجمة :

١ - شرام ولبور : أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية . ترجمة محمد فتحى ويحيى أبو بكر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

خامساً : كتب أجنبية :

1—Krech, David and Kruchfield Richard. Theory and Proplems of Social Psychology. Bombay. MC Graw Hill Publishing Company. 1964

2 — Lane Robert and Sears, David : Public Opinion. New Delhi . Prentile Hall of India. 1964

3— Rivers, William : Mass Media . New Delhi . Universal Book Stall. 1963

مدخـــل إلى :

الصحافة المتخصصة

بقـــلم

دكتور مرعى مدكور

مقـــدمة :

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله ...

وبعـد :

يتناول هذا البحث الصحافة المتخصصة باعتبارها واحدة من مظاهر التقدم الكبير فى صناعة الصحافة الطباعية ؛ خاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ؛ حيث تعددت أشكالها ، والمؤسسات التى تصدرها ، وجمهورها ، وطرق تمويلها ، وأهدافها . وأساليب كتابتها ...

فقد تحولت الصحافة المتخصصة من مجرد أركان أو أبواب أو صفحات متخصصة تنشر بشكل ثابت فى الصحافة العامة إلى كم كبير ومتنوع من الصحافة المتخصصة الموجهة إلى جماهير بعينها (وإن كانت تحاول جاهدة جذب غير المتخصصين من القراء إليها) كما تنوعت هذه الصحافة فى محتواها ، واستعانت بالمستحدثات التيبوغرافية وبفنون الإخراج الصحفى لتصل إلى أعداد كبيرة من جماهيرها المستهدفة ـ وغير المستهدفة أيضا ـ ولتقف فى وجه المنافسة الشرسة للوسائل الاتصالية المتعددة من تلفزيون وراديو وصحافة عامة .

ويركز هذا البحث على التطور التاريخى للصحافة المتخصصة ؛ انتشارها وتنوعها ، وجمهورها ، وتأثيرها . . . على أمل أن تتبعه دراسات أخرى فى فنون الكتابة الصحفية للصحافة المتخصصة ، ولجمهور هذه الصحافة ، وللقائم بالاتصال فى هذا المجال .

أولا : الصحافة الطباعية من العمومية إلى التخصص

تطورت الصحافة الطباعية وتعددت وتنوعت بدرجة كبيرة ، وأصبح من الصعوبة - حتى على المتخصصين - معرفة أعداد الصحف التى تصدر فى العالم لكن الأرقام التقريبية التى تصدرها الجهات ذات الاختصاص ؛ مثل اليونسكو وغيرها ؛ تقول أن عدد الصحف التى تصدر فى العالم يصل إلى ٦٠ ألف صحيفة ، وأن توزيعها ٥٠٠ مليون نسخة ، وأن حوالى ٨ آلاف صحيفة منها تصدر يوميا ، أما قراء الصحف فيزيد عددهم عن أرقام توزيعها بكثير[1] ...

ومع تعدد الصحف وتنوعها ؛ تنوع جمهور الصحافة أيضا وتعددوا واختلفت أهدافه وعاداته القرائية ، خاصة بعد أن أصبحت الصحافة الطباعية فى وضع تكميلى[2] - وليس تنافسيا - أمام هجوم وسائل الاتصال الالكترونية التى تستخدم الصوت والصورة مستفيدة من سرعة نقل المعلومة أو الحدث لدرجة تصل فى بعض الأحيان إلى التزامن مع الحدث نفسه لجعل المتلقى على صلة بكل مايجرى فى أنحاء الدنيا .

فأمام التطور الكبير الذى جعل وسيلة ؛ كالتلفزيون مثلا تتفوق على الصحافة فى تقديم ماجرى ونقله إلى المشاهدين فى منازلهم لحظة وقوعه ؛ كان لابد للصحافة أن تغير من طرق أدائها وأن تتكيف مع معطيات التقنية الحديثة للخروج من مأزقها هذا والمحافظة على جمهورها الذى أصبح التلفزيون - على سبيل المثال - يحتل المركز الأول فى قائمة اهتمامات الأغلبية منه .

1 — John C. Merrill ed , Global Journalism N. y., Longman : 1983 P. 39

(٢) بيير البير ، الصحافة ، ترجمة فاطمة عبد الله محمود ، سلسلة الألف كتاب (الثانى) ، عدد ٤٤ (القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨٧) ص ٦ .

وبالفعل ، استفادت الصحافة الطباعية من ثورة التقنية ، وطورت نفسها فى مجالات الكتابة والطباعة والتوزيع ، واستغنت ـ فى معظمها ـ عن الطباعة الساخنة وبدأت تتعامل مع الجمع التصويرى وأجهزة الكومبيوتر المبرمجة على صفحات الصحيفة أو المجلة والتى تتلقى موادها من وكالات الأنباء والمراسلين والمندوبين مباشرة وتعرضها على شاشة صغيرة أمام المحرر المسئول فى المركز الرئيسى لطباعتها ليحذف أو يضيف كما يشاء دون ورق أو جمع للحروف الرصاصية الساخنة .

وهذا التطور الكبير فى صناعة الصحافة وضع الصحف نفسها فى منافسة شديدة من جانبها على القارىء ، ووضع القارىء فى موقف المفاضلة والاختيار وهذا بدوره أدى إلى أن تبحث الصحافة عن طرق لجذب القراء وربطهم بها خاصة بعد أن فقدت ـ الصحافة ـ مركز الصدارة فى مجال الإخبار ، ووجدت المؤسسات الصحفية أن الحل يكمن فى تغير داخل الصحف نفسها بحيث تتحول الصحافة من المنافسة على الخبر إلى المنافسة على التحليل والتفسير(١) والموضوعات التى تشبع الاهتمامات الخاصة بطبقة معينة أو فئة مهنية أو مجال تخصصى بعينه .

وأصبح هذا الإشباع لفئة أو طبقة أو تخصص ، ارتباطا متبادلا بين دورية معينة وبين نوعية معينة ـ ولو قليلة نسبيا ـ من القراء ، تضيق فيه شدة المنافسة من جانب الصحافة العامة وفرص الاختيار من جانب القراء .

ومن هنا ازداد الاهتمام بالصحافة المتخصصة ، وأدى هذا الاهتمام إلى مزيد من الإصدرات المتخصصة وإلى التوسع فى نشر مواد متخصصة بمجمة

---

(١) البرت ل . هستر (محرر) ، دليـــل الصحفى فى العالم الثـالث ، ترجمة كمال عبد الرءوف (القاهرة الدار الدولية للنشر والتوزيع ١٩٨٨) ص ٤١ .

الصحافة العامة تلبية للاهتمام بهذا اللون من الصحافة الطباعية(١) .

١ - مفهوم الصحافة المتخصصة :

مع تقدم النشاط البشرى فى المجالات النوعية المختلفة وشيوع التخصص فى تلك المجالات ، أصبحت الصحافة المتخصصة بمجالاتها المتعددة وصورها المختلفة بمثابة قنوات ربط التخصصات العلمية والمهنية وبين المنتسبين إليها أو هواتها من القراء ، كما تستخدم الصحافة المتخصصة أيضا لتبسيط المعارف وإشاعاتها على نطاق جماهيرى ، بالإضافة إلى اعتبارها أداة مميزة للتعليم الدائم فى مجالاتها(٢) .

وهكذا وجدت الصحافة نفسها مطالبة بالقيام بمجهود دائم للتأقلم مع التغير المستمر فى أنماط حياة قرائها ، وهذا المجهود الدائم جعلها تتنافس فيما بينها كصحافة طباعية تطالع جماهيرها بصفة دورية .

فالصحافة العامة والشاملة تتخذ من التخصص مدخلا لقرائها حيث تقدم لهم معلومات- يتعذر الاهتداء إليها على شاشة التلفزيون- فى صفحات نوعية منها : صحافة الأطفال وصفحات الشباب أو الصحافة المدرسية أو الجامعية ، وصحافة المرأة أو الأسرة . والصحافة الاقتصادية ، والمهنية وغيرها من صفحات أو أركان أو ملاحق أو زوايا خاصة بالإذاعة (المسموعة والمرئية) والفديو ، والأغنية ، والطب الشعبى ، والعلوم ، والسياحة . وصحافة أوقات الفراغ . ودخلت هذه الصفحات فى منافسة مع المجلات الدورية عن طريق المواد المتخصصة المجمعة على صفحاتها ، لدرجة أن بعض الصحف أصبحت تحاكى المجلات - على الأقل فى الأعداد الأسبوعية أو الخاصة لهذه الصحف مضمونا وإخراجا .

---

(١) على شلش ، النقد السينمائى (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦) ص ٩٦ .
جلال الدين الحامصى ، الصحيفة المثالية (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٢) ص ٢٠٩ ؛
(٢) بيير البير ، مرجع سابق ص ٢٥ .

والصحافة المتخصصة تنوعت هي الأخرى وتعددت وأصبحت تقدم في مستويات متعددة يمكن حصرها في ثلاثة أنواع، على النحو التالي :

(أ) مستوى يخاطب القارىء العادي، ويقدم عادة في صفحات تنشر مواد متخصصة مجمعة في أشكال متنوعة بالصحافة اليومية أو الأسبوعية العامة (جرائد ومجلات) وهذا النوع من الصحافة لا يخاطب جمهورا بعينه، وإنما يجد فيه القارىء العادي عبر الصفحات المتخصصة زادا يشبع هوايته ويشكل ملامح ثقافته.

(ب) مستوى القارىء متوسط الثقافة وصاحب هواية معينة أو رغبة في الاستزادة والمعرفة في فرع معين من التخصصات العلمية أو الإبداعية أو المهنية أو الترويحية، وهذا النوع من الصحافة يقدم في :

* الصحف اليومية المتخصصة، مثل. «لاجازيت ديلوسبورت»(*) و «الرياضية»(*).

* الصحف الأسبوعية المتخصصة، مثل : «المسلمون»(*) و «النور»(*) و «الندوة الرياضية»(*) :

---

(١) فاروق أبو زيد، الصحافة المتخصصة، ط ١ (القاهرة عالم الكتب ١٩٧٦ ص ٥ وإجلال خليفة اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي ج ١ ط ١ (القاهرة، دار الإنسان ٩٧٢ ص ١٣٦.

(*) لاجازيت ديلوسبورت : صحيفة رياضية صدرت في إيطاليا عام ١٨٩٦ وتعتبر الصحيفة الرياضية اليومية الأولى في أوربا الآن.

(*) الرياضية : صدرت في جدة بالسعودية في الأول من أكتوبر ١٩٨٦ وتعتبر أول صحيفة رياضية عربية يومية.

(*) المسلمون صدرت في جدة في ١٩/٥/١٤٠٥هـ - ٩/٢/١٩٨٥ إسلامية أسبوعية.

(*) النور : إسلامية أسبوعية، صدر عددها الأول في ٢١/٥/١٤٠٢ هـ - ١٧/٣/١٩٨٢ مقرها القاهرة.

(*) الندوة الرياضية : كانت ملحقا لصحيفة (الندوة) ثم أصبحت أسبوعية منذ ٢/١/١٤٠٩ - ١٤/٨/١٩٨٨ كصحيفة رياضية مستقلة.

• المجلات الأسبوعية أو الشهرية المتخصصة : وهى مجلات لها جمهورها الذى يتابع تخصصاً «ما» فى الدورية التى يطالعها بانتظام ، وهذه الدوريات وإن كانت متخصصة إلا أنها لا تدخل فى إطار (تخصص التخصص) فهى أقرب إلى تقديم المادة المتخصصة بشكل عام وثقافى أكثر من كونها مادة متخصصة لجمهور متخصص . . ومن هذه المجلات : «الثقافة العربية» السعودية الشهرى .

(جـ) مستوى القارىء المتخصص ، وهذا النوع من الصحافة يقدم مادة متخصصة لجمهور متخصص ، فالمحتوى الذى يقدم يدخل فى إطار (تخصص التخصص) أى التخصص الدقيق من حيث المادة وطرق عرضها ، وينحصر جمهور هذا المستوى من الصحافة فى المتخصصين أو أعضاء الهيئات العلمية أو المهنية أو الإبداعية التى تصدر هذه الصحافة أو تشرف عليها أو تجد فيها صوتها المعبر عنها ، ومن الصعوبة جذب جمهور جديد إلى قراء هذا النوع من الصحافة ، حيث أن المتابعة هنا تحتاج قدرا من المعرفة التخصصية . . وتنشر هذه المطبوعات - غالبا - شهرية : مثل مجلة «شعر» المصرية ، أو فصلية : مجلات (فصول) المصرية المتخصصة فى النقد الأدبى ، و(البحوث) العراقية ، و(الدارة) السعودية وغيرها . .

والصحافة المتخصصة ، بمستوياتها الثلاثة ، تسعى إلى الانتشار وجذب مزيد من القراء ، وبالتالى زيادة تأثيرها . .

ورغم تعدد فئات الصحافة المتخصصة وتنوعها وانتشارها إلا أنه من الصعوبة وضع مفهوم محدد جامع مانع لها ، لكنه يمكن وضع إطار عام يحدد ملامحها الرئيسية على النحو التالى :

«صفحات دورية تهتم بتخصص شامل أودقيق تنشر فى صحافة عامة بشكل ثابت ، أو دوريات متخصصة تكرس صفحاتها للتخصص الشامل أو الدقيق ،

ترتبط بجمهور التخصص وبعصره وتستخدم الفنون الصحفية المتعددة (كتابة واحدة) للوصول إلى قرائها وخدمة التخصص وتوسيع قاعدته » .

٢ ـ نشأة الصحافة المتخصصة :

عرف الإنسان . عبر تاريخه الطويل ، طرقا متعددة للإعلام المتخصص قبل ظهور الصحافة الطباعية بزمن طويل . . ورغم ما يذكره بعض المؤرخين من وجود صحافة متخصصة قبل الميلاد فى صورة نقوش على الأحجار سجل فيها « بتاح » أخبار انتصارات الفرعون المصرى الأكبر لتوزيعها على الجنود وطائفة الحكام[١] أو فى صورة (الحوليات الكبرى) التى أصدرها الرومان فى مصر عندما احتلوها[٢] أو فى الوسائل البدائية مثل: قرع الطبول « وإشعال النار » والمناداة وغيرها . إلا أن هذه العمليات الإعلامية لا تقدر ؟ تحت مسمى الصحافة بمفهومها العلمى الحديث . .

• بداية نشأة الصحافة المتخصصة فى العالم :

رغم مضى زمن طويل منذ اخترع جوتنبرج ، فى القرن الخامس عشر الميلادى ، آلة الطباعة ، إلا أن هذا الفن ـ الطباعة ـ قد تطور فى مراحله الأولى ببطء فقد بدأت الصحافة بمعناها العلمى (كصناعة وسلعة وجمهور) فى القرن السابع عشر عندما ظهرت بأندونيسيا عام ١٦١٦ م صحيفة تحمل اسم Memorié des Nouvelles كرسالة إخبارية موجهة إلى موظفى شركة الهند الشرقية الهولندية[٣] ثم توالى صدور صحف صغيرة فى دول متعددة ، وكانت تلك الصحف فى أغلبها موجهة ـ أيضا ـ إلى جمهور مصر وخاص ومحدد .

(١) محمود الجوهرى ، المحرر العسكرى (القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٨) ص ١٣

(٢) محمود نجيب أبو الليل ، صحافة فرنسا فى مصر (القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٢) ص ١٥ ـ ٢٢ .

(3) John C. Merrill, op. cit, p. 185.

ومع التطور فى المجالات المختلفة ، وبخاصة فى المجال العلمى ، ظهرت الحاجة إلى ربط أعضاء هذه المجالات والمستفيدين منها بعضهم بالبعض الآخر ، وربطها بمجالات تخصصاتهم واهتماماتهم وأنشطتهم ، ومن هنا بدأت مجلات متعددة فى الظهور ، وكانت الأسبقية فى هذا المجال المجلات المتخصصة فى العلوم ، ويرجع ذلك لعدة أسباب منها[1] :

- ارتفاع معدلات النشاط العلمى ، وعدم نمو المعرفة العلمية أو شيوعها لملاحقة هذا النشاط المعرفى العلمى ، ومن أصبحت المجلات العلمية ضرورة وأرضا خصبة لتبادل أوجه هذا النشاط بين المتخصصين .

- تأكيد الأسبقية فى مجال الاختراعات والاكتشافات العلمية ، فقد ساعد ظهور المجلات ، وتسجيل الاختراعات على صفحاتها ، فى التخفيف من حدة الميل الطبيعى إلى التكتم قبل الحصول على براءات الاختراع أو حق الاستغلال التجارى .

- أصبح للمجلات العلمية الفضل فى إتباع العلماء وسيلة أخرى غير طريقة الشفرة Anqram العلمية التى تتكون من جملة تعلن عن اكتشاف جديد أو اتباعهم - العلماء - طريقة إيداع خطابات مغلقة مؤرخة لدى الجمعيات العلمية تتضمن فكرة جديدة أو أحد الاختراعات التى لم تر النور بعد ، فتعددت هذه المجلات وتنوعت بتنوع الأنشطة العلمية .

- مظاهر الاختلاف بين نوعيات الإنتاج الفكرى ، فبينما يتركز الاهتمام بالفنون والإنسانيات على الكتب ، نجد أن العلوم تعتمد أساساً فى نشرها على المقالات المنشورة فى دوريات متخصصة ومحكمة .

---

(١) جاك ميدوز ، آفاق الاتصال ومنافذه ، ترجمة حشمت قاسم (القاهرة المركز العربى للصحافة) : د . ت ص ٣٤

وفى فرنسا بدأت أولى المجلات العلمية المتخصصة فى الصدور عام ١٦٦٥م حيث صدرت مجلة Tournal des Scavans كأول دورية تهتم بنشر الاكتشافات العلمية وعرض الكتب ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر أسس هنرى أولدنبرج (oldenburq.) أمين الجمعية الملكية فى إنجلترا أول مجلة علمية بريطانيا Philosophical Transactions كمشروع لنشر الاكتشافات العلمية الحديثة ، ثم تعددت الدوريات العلمية المتخصصة مع التطور والتقدم فى فروع العلم المختلفة ، فلو نظرنا إلى مجال فرعى من مجالات العلوم ، وليكن علم الغدد الصماء على سبيل المثال ، لوجدنا أن البحوث المنشورة فى هذا المجال فى مائة وثمانين عاما قبل عام ١٩٥٦ تعادل من حيث العدد البحوث المنشورة فى ستة أعوام فقط بعد عام ١٩٥٦ .

والتعدد والتنوع فى الدوريات العلمية المتخصصة لا يعنى بحال من الأحوال أن هذه الدوريات اقتصرت بصفة أساسية على المتخصصين فى مجالاتها ، بل أدى تنوعها وتعددها واستفادتها من الجانب التقنى إلى تغلب الحس التجارى على كثير منها ، حتى ارتفعت أصوات متعددة تناد بوضع حد لهذا الفيضان المستمر من الدوريات المتخصصة(١) .

ومع التنوع والتعدد فى الدوريات المتخصصة ورواجها على مستوى واسع ، نوعت الصحف (اليومية والأسبوعية) أيضا فى محتوى ماتنشره تلبية لاهتمامات القراء قدر إمكاناتها ، فى محاولات مستمرة منها للمحافظة على قرائها والوقوف فى وجه المنافسة الشرسة للوسائل الاتصالية الأخرى بمؤثراتها الصوتية والبصرية والتى تقدم الحدث فور وقوعه .

ـ وفى أحايين كثيرة تقدمه بالتزامن مع وقوعه ـ بالصوت والصورة ووجدت الصحافة الطباعية أن الحل الأساسى للخروج من أسر المنافسة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤ .

والمحافظة على التفوق فى جوانب أخرى غير الإخبار هو الاتجاه إلى التحليل والتفسير والتعمق والتعليق على مجريات الأمور ، وهذا معناه تقديم مبررات وأسباب ونتائج ماجرى (إضافة إلى ماتقدمه كاميرا التلفزيون أو ميكرفون الراديو) فى لغة سهلة ومبسطة يفهمها القارىء العادى ... ومن هنا تحولت صفحات الصحيفة أو الدورية الواحدة إلى مجموعة صفحات متخصصة (باستثناء الصفحة الأولى فى الصحيفة العامة ، والغلاف فى المجلة العامة) لها أقسامها المتخصصة[1] التى يقوم عليها متخصصون يجمعون بين موهبة التخصص وموهبة الصحافة ، بالإضافة إلى المتعاونين مع هذه الصفحات المتخصصة من الكتاب المصاحفين والاتفاقات والوكالات المتخصصة ، لتزويدهم بما يهم جمهورها عرضا وتحليلا وتفسيرا .

• بداية التخصص فى الصحافة العربية :

بدأت الصحافة فى أغلب ـ الدول العربية عند ظهورها بدايات شبه

(1) Cineh Moghdem. Computers in Newspaper Publishing N. Y., Marcel Dekker, I. N. C. : 1978 P· q.

لعدم وجود أعداد الصحيفة اختلف المؤرخون حول تاريخ صدورها .. فيذكر محمود نياض أن العدد الأول منها صدر فى ٢٨ من أغسطس ١٧٩٨ م ، بينما يذكر أحمد حسين الصاوى أنها صدرت ٢٩ من الشهر نفسه ، أما صلاح الدين البستانى فيذكر أن تاريخ صدورها هو ١٥ من أغسطس من الشهر نفسه .. انظر :

ـ محمود نياض ، الصحافة الأدبية فى مصر (القاهرة ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ١٩٦٦) ص ٢ .

ـ أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة فى مصر (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢) ص ٤٧ .

ـ صلاح الدين البستانى ، (الصحافة الفرنسية فى مصر) صحيفة (الأخبار) المصر ١٩٧٠/١٢/٦ .

متخصصة بالمفهوم العلمى للصحافة المتخصصة (مادة متخصصة ، يقوم عليها متخصصون ، لجمهور ـ أغلبه ـ متخصص) وقد كانت البداية فى هذا المجال للصحافة الأجنبية فى البلاد العربيه ، إذ بدأت هذه الصحافة متخصصة لجمهور محدد ومعروف . . . فأول صحيفه صـــدرت فى البلاد العربية كانت Le Courrier de L, Egypte التى أصدرها القائد الفرنسى بونابرته فى مصر ـ أثر حملته عليها واحتلالها عام ١٧٩٨ ـ لنشر أخبار الجيش وتنقلاته وحروبه ، كما أصدرت الحملة الفرنسية فى مصر أيضا صحيفـــة أخرى باسم LaDéeade Egyprienne لتكون « صفحة للأدب والاقتصـــاد السياسى » Joarnal Liıtéraire et D,Economie Politnqe وكانت تصدر مثل الصحفة الأولى باللغة الفرنسية ، بالإضافة إلى بعض صفحات تطبع باللغة العربيه وتنشر أمثال لقمان الحكيم وتفسير بعض آيات القرآن الكريم وقصائد ركيكة دأب على كتابتها نيقولا الترك تمجيدا للقوات الفرنسية وتخذيلا لعدوها التقليدى : إنجلترا . . ! ،

وبعد رحيل الحملة الفرنسية بأكثر من ربع قرن ، صدرت « الوقائع المصرية » كصحيفة حكومية سنة ١٨٢٨ لنشر الأوامر والأحكام وأخبار الأقاليم ، وفى عام ١٨٣٣ صدرت « الجريدة العسكرية » أثناء حروب محمد على فى الشام وتلتها عدة صحف عسكرية أخرى . .

والصحف السابقة كلها كانت تخاطب جمهورا معينا ، ولها رسالة محددة تتمثل فى إعلام فئة بعينها بمجريات الأمور ، سواء كانت هذه الفئة : طبقة الحكام والجيش كما كانت هـذه الصحيفتين الفرنسية أو الصحف العسكرية الأخرى أو غير العسكرية . .

وبجانب هذا النوع من الصحافة ، كانت هناالصحافة العامة التى اصطبغت بلون أدبى منذ ظهورها ، ومن يتأمل الصحافة المصرية أو الشامية منذ منتصف القرن التاسع عشر يجـد تلازما بين الصحافة وبين الأدب على صـفحاتها ،

لدرجة أن الصحافة كانت مرآة حقيقية لهذا الأدب وللحياة الفكرية بصفة عامة ، فقد ظهرت صحف متعددة فى ثوب أدبى ، حتى الصحافة غير المتخصصة فى الأدب مثل مجلة « يعسوب الطب » التى صدرت عام ١٨٦٥ م ظهر اهتمامها الواضح بالأدب : شعره ونثره . وذاع صيت دوريات كثيرة مثل روضة المدارس » منذ صدورها فى ١٨ من أبريل ١٨٧٠ ، وأصبح التعلل بالاهتمام بالأدب ـ فى حالة عدم الاهتمام به كأساس لإصدار دورية ـ جواز مرور للحصول على موافقة المسئولين فعندما أراد سليم تقلا (الصحافى الشامى) إصدار صحيفة فى مصر باسم (الأهرام) كتب فى طلب الإذن أنه « يقصرها على البرقيات التجارية والعلمية ، وينشر فيها نتفاً من الكتب الأدبية والعربية وبعض قصائد الشعر » ولن تتناول « المسائل البوليتيقية » على ترخيص الصحيفة ليصدر أول عدد منها فى مدينة الإسكندرية ـ السبت ١٨٧٨/٨/٥ ـ باسم (مقال الأهرام) ثم تنتقل بعد ذلك لتصدر من القاهرة .

.. وهروبا من التضييق الذى أصاب الصحافة والصحفيين الشاميين نتيجة بعض مواد قانون العقوبات الذى صدر فى الديار العثمانية عام ١٨٥٨(١) شهدت مصر هجرة عدد كبير من الصحفيين الشاميين إليها ، وقد كان هؤلاء المهاجرين تأثيرهم الكبير فى الصحافة وتوجهاتها ، سواء على مستوى الصحف والمجلات التى أصدروها أو الصحافة الأخرى التى استنفدت الكثير من طاقاتها فى معارك وردود ونزاليات مع هؤلاء الصحفيين وصحفهم ..

فعندما انتقلت مجلة (المقتطف)(*) من بيروت إلى مصر عام ١٨٨٥

(١) إحسان عسكر ، نشأة الصحافة السورية (القاهرة ، دار النهضة العربية : ١٩٧٢) ص ٥٢ .

(*) صدرت فى بيروت فى الأول من مايو ١٨٧٦ لصاحبيها السوريين : يعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧) وفارس نمر (١٨٥٦ – ١٩٥١) وانتقلت إلى القاهرة =

أحدثت جدلا واسعا ومعارك صحفية متعددة استمرت حتى توقفت عن الصدور عام ١٩٥٢ ، رغم إعلانها أنها « صحيفة علمية لا تتعرض للمباحث الدينية والسياسية إلا من باب العلم » فقد كانت تجد فى حياة الأوربيين مثالا يجب أن يحتذى به راغبو النهضة ، وتناقضت بشكل أساسى مع توجهات المفكرين الإسلاميين أمثال : الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ، وقد تصدت لها بشدة صحافة الاتجاه الإسلامى ، ومنها (المؤيد للشيخ على يوسف منذ صدورها فى الأول من ديسمبر ١٨٨٩ ، و (الإسلام) ١٨٩٤ - لأحمد الشاذلى الأزهرى ، و(المنار) ١٨٩٨ - لمحمد رشيد رضا ، و(الحياة) ١٨٩٩ - لمحمد فريد وجدى ، و (الهداية) ١٩١٠ - لعبد العزيز جاويش .

.. وإذا كانت الصحافة المتخصصة قد تعددت فى مصر فى تلك الفترة - وبخاصة صحافة الإتجاه الإسلامى وصحافة الأدب - فإن الصحافة العامة قد تقلبت بشكل كبير بعد الاحتلال الإنجليزى للبلاد عام ١٨٨٢ م نتيجة القيود والتعسف مع الصحافة والصحفيين عند مخالفتهم السياسة العامة أو مناقشة أمور الاستقلال ..

ففى العقد الأول للاحتلال الإنجليزى لمصر صدرت ٥٣ صحيفة ومجلة ، منها ٤ صحيفة علمية وأدبية وفكاهية ، بينما لم يصدر من الصحف العامة سوى ثلاث عشرة صحيفة فقط ، أما ماصدر فى العشر سنوات السابقة على الاحتلال فقد وصل إلى ٣٠ صحيفة عامة أو سياسية وثلاث صحف أدبية وعلمية[1] .

وقد كانت الظروف السياسية المتردية فى أغلب الدول العربية فى صالح الصحافة النوعية ، حيث وجد الصحفيون فى البعد عن السياسة المباشرة مخرجا

= عام ١٨٨٥ .. كانت فى شكل مجلة ويكتب على غلافها (جريدة) لعدم اتضاح المفاهيم وتحديدها فى ذلك الوقت بالنسبة للمطبوعات بشكل عام ..

(١) سامى عزيز ، الصحافة المصرية : وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، سلسلة المكتبة العربية (القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨) ص ١١٤ .

للأفراد من دائرة القوانين العامة وقوانين الصحافة المقيدة لهم ، وبينما كانت الصحافة العامة تتقلص وتتوقف عن الصدور أو تصادر أعدادها ، كانت الصحافة النوعية تتخذ من لافتاتها غير السياسية ستارا لعملها . .

ففى مصر تنوعت المطبوعات وتعددت على النحو التالى :

ـ نسائية ، بصدور مجلة (الفتاة) الشهرية فى ٢٠ من نوفمبر ١٨٩٢ للبنانية هند نوفل لتكون مفتتحا لإصدارات متعددة فى هذا المجال . .

ـ مدرسية ، بصدور مجلة (المدرسة) فى الثامن عشر من فبراير ١٨٩٣ لمصطفى كامل . .

أدبية ، بظهور مجلة (المنظوم) فى منتصف نوفمبر ١٨٩٢ . .

ثم توالت المطبوعات فى مثل هذه المجالات وفى غيرها . .

وفى المغرب العربى تنوعت الصحف من حيث انتماءاتها (فرنسية أو عربية فى منطقة النفوذ الفرنسى ، وإسبانية فى منطقة النفوذ الإسبانى بمنطقتى : سبتة وتطوان ، وإنجليز فى طنجة) وقد بدأت الصحافة فى البلاد بالصحافة فى البلاد بالصحافة الأجنبية عندما ظهرت صحيفة (المتحرر الأفريقى) الإسبانية إلا أن مجلة (سنان القلم لتنبيه وديع كرم الأديب التى أصدرها السيد محمد العابد ابن أحمد بن سودة باللغة العربية وكتبها بالخط الفارسى فى ٢٠ من ذى الحجة ١٣٢٥هـ (٢٦/١/١٩٠٨ م) تعتبر البداية الحقيقية للصحافة المتخصصة هناك فهى (مجلة أدبية يستأنس بمطالعتها الأديب ويطلع بها على كل نمط غريب ، ويكشف بها عن حال صدر منه الذل الصراح ، ويقمع بها من أراد الذب عنهم كصاحب « السعادة » وتلميذه « الصداح »)(١) واتخذت هذه المجلة

(١) زين العابدين الكتانى ، الصحافة المغربية وتطورها ، الجزء الأول (المغرب وزارة الأنباء : د . ت ص ١٩٢ ، « وديع كرم » الذى قالت المجلة أنها مخصصة لتنبيهه هو صاحب جريدة (السعادة) التى أصدرتها السفارة الفرنسية فى طنجة عام ١٢٨٢هـ (١٩٠٥ م) للترويج للاتجاه الفرنسى فى البلاد ، أما تلميذه « الصداح » فهو « نعمة الله الصداح » اللبنانى الأصل وصاحب صحيفة (الفجر) .

من بلاغة اللغة العربية وفن الشعر واستهواء المقامة وسائل لمقاومة الصحافة الموالية للاحتلال الأجنبي بأنواعه في البلاد .

أما في شبه الجزيرة العربية فقد صدرت بعض الصحف مثل (صنعاء) في اليمن ، و) حجاز : ولايتي سالنامه سي)(*) و (شمس الحقيقة) و (القبلة) و (الفلاح) ، أما أول مجلة في الحجاز فكانت (مجلة مدرسية جرول الزراعية) لمديرها المسئول هاشم المعرى وصـــدرت في مطلع شهر رجب ١٣٣٨ (١٩٢٠/٣/٢١ م) كمجلة « فنية زراعية تجارية صناعية تصدر أول أسبوع من كل شهر »(١) .

وهكذا ، تنوعت الصحافة وتعددت نتيجة ظروف كثيرة ، وكان هذا التنوع والتعدد مجرد إرهاصات لصحافة نوعية تقدم مضامين خاصة لجمهور خاص لهذه الصحافة أثرها الكبير في إشاعة التخصص على مستوى القارىء العام كثقافة عامة .

(*) لم تكن صحيفة بالمعنى الحقيقي للصحافة ، فهي كتاب دوري رسمي يحوي معلومات وإحصاءات عن البلاد ، ويحرر باللغة التركية ، ثم كانت جريدة (حجاز) أول صحيفة بالمعنى الحقيقي للصحافة ... وصـدرت في ١٣٢٦/١٠/٨ هـ - ٣ /١١ /١٩٠٨ م وتحرر باللغتين العربية والتركية .

(٢) محمد عبد الرحمن الشامخ ، نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية ط ١ (الرياض دار العلوم للطباعة والنشر : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١) ص ١٢٨ ... وذكر المعرى غرض المجلة قائلا « وبما أننا دخلنا في دور الزراعة الحديث وعزمنا بعـــد الاتكال على الله أن نفي هذه الحرفة حقها عاملين بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الدالة على الاهتمام بالزراعة والفلاحة ، قد شرعنا في إصدار مجلتنا هـذه باسم (مجلة جرول الزراعية) .

ثانيا : انتشار الصحافة المتخصصة وتنوعها

لما كان من الصعب على أية صحيفة ـ مهما بلغت إمكاناتها البشرية والتقنية ـ أن تقدم صورة متكاملة لهذا العالم(١)، ونظرا لتنوع القراء واختلاف درجات ثقافتهم واهتماماتهم ، فمن البديهي أن يبحث القارىء ـ قبل إقدامه على شراء صحيفة ـ عن إجابة على السؤال التالي :

ـ ماذا بهذه الصحيفة بالنسبة لي ؟(٢) :

ويتنوع القراء وأسئلتهم تتنوع الإجابات ، وبالتالي تتنوع الاختيارات ونتيجة لهذا التنوع في القراء واختياراتهم واهتماماتهم ومطالبهم من الصحافة الطباعية ، فإن الصحافة تظل دائماً تبحث عن الجديد وما يمثل أهمية لأكبر نسبة من القراء حتى تمثل المطبوعة جزءا من اهتمام القارىء والارتباط بها . . .(٣) .

١ ـ انتشار الصحافة المتخصصة وازدهارها :

١/١ ـ انتشارها في العالم :

تقول أرقام التوزيع أن الصحافة العامة بدأت تتقهقر أمام الصحافة النوعية التي تلبي رغبات واهتمامات فئات وجماعات متنوعة ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية تصدر ١٧٥٦ صحيفة يومية ، يصل مجموع توزيعها إلى ٢٣١ر٦٥٥ر٦٠ نسخة يوميا و٨٧٢٤ صحيفة أسبوعية أو نصف أسبوعية ، ـ على الأقل ـ ٨ آلاف مجلة عامة أو متخصصة ، وأن الغالبية العظمى من

(1) Ou Caunon, Reporting: an inside view (U. S. A., California Journal Press : 1977) p. 33

(2) Loyed K. Baskette and others, The art of editing, 3 ed. (N. Y., Macmillan Paplishg Co. : 1982) p. 15

(3) Donald A. Johnson, Journalism and the media (N. Y., Barnes and Noble books : 1979) p. q.

هذه المطبوعات تتوجه إلى جمهور نوعى[١] لدرجة أنه لا توجد مطبوعة تتشابه مع مطبوعة أخرى فى محتوى ما تقدمه ، فكل صحيفة أو مجـلة لها اهتماماتها ومجالاتها وبالتالى لها جمهورها المتابع لها ؛ خاصة فى المطبوعات الدورية غير اليومية[٢] والتى تتوجه إلى قراء نوعيين لهم اهتمامات أبداعية أو نوعية أو مهنية خاصة ..

ففى دراسة : أجريت على توزيع الدوريات فى كل من الولايات المتحدة وكندا فى ٢٤ نوفمبر ١٩٧٦ اتضح تفوق المجلات النوعية على المجلات العامة فى التوزيع[٣] حتى مجلة Time — الإخبارية العامة وذات الشهرة العالمية — تقهقرت إلى الترتيب الرابع عشر بالنسبة للمجلات الأكثر انتشارا .. !!

وفى الاتحاد السوفيتى يصل عدد الصحف إلى ما يقرب من ٨٠٠٠ صحيفة ، منها ٢٨ صحيفة مركزية ، و١٦٠٠ صحيفة على مستوى الجمهوريات ، و٢٩٣

---

(١) Ibid., P. 9?

(٢) Tohn C. Merrill (ed.), op. cit., p. p. 309 312

(٣) T. W. C. Lick, Russel N. Baird, Magazine editing and production, 2 ed. (U. S., Brawn Company Publishers : 1974) P. 8.

وقد جاء ترتيب المجلات من حيث زيادة التوزيع على النحو التالى :

TV Gide	وتوزيعها ١٩٫٨١١٫٢٦٨ نسخة
Reedər,s Digest	» ١٨٫٥١٢٫٤٥٣ »
National Geographic	» ٩٫٦٠١٫٧٢٧ »
Family Circle	» ٨٫٣٢٨٫٩٣٠ »
Woman,s Day	» ٨٫٢٤٠٫٣٠٦ »
Better Homes and Gardens	» ٨٫٠٣١٫٩٦١ »

وهكذا ؛ حتى تأتى مجلة (تايم) فى الترتيب الرابع عشر بتوزيع ٤ر٢١٤ر١٦ نسخة ، تليها مجلة Newsweek (نيوزويك) العامة والإخبارية بتوزيع ٢ر٩٩١ر٠٣٢ نسخة .. !! ..

صحيفة للضواحى ، والصحف الأخرى مطبوعات نوعية للمناطق والمصانع والمنشآت التعليمية[1] . .

أما فى إيطاليا فتتفوق الصحف النوعية على الصحافة العامة ، فصحيفة « لاجازيت ديلوسبورت » الرياضية اليومية توزع مليون نسخة يوميا ، ومليون ونصف المليون نسخة فى عدد يوم الأثنين من كل أسبوع لتغطيتها فعاليات الدورى فى أوربا ، وهى بذلك تتفوق على الصحف العامة فى إيطاليا وأشهرها Corriere della Sera (٧٥٠ ألف نسخة) و La Stampa (٤٠٣ ألف نسخة) . .

١/٢ — إنتشار الصحافة المتخصصة فى العالم العربى :

إذا كانت الصحافة العربية قد بدأت عند ظهور شبه متخصصة ، خاصة فى مجالات الأدب العربى : نثرا وشعرا ، لدرجة أن المتأمل لها يرى أنها — جاء فى بدايتها — يمكن اعتبارها مجرد وسيلة لنشر أدب العربى[2] فإن هذه الصحافة قد تعددت وتنوعت ، وأصبحت الدوريات النوعية والمتخصصة منها تتفوه صناعة وتوزيعا — فى حالات كثيرة — على الصحافة الشاملة . .

ففى دول الخليج العربية (الإماراة العربية المتحدة ، البحرين ، المملكة العربية السعودية ، العراق ، سلطنة عمان ، قطر ، الكويت) يصل مجموع الدوريات التى تصدر بها — رغم أن بعض هذه الدول حديثة عهد الصحافة — ٧٧١ دورية ، ما بين صحيفة أو مجلة أو نشرة ، يومية أو أسبوعية أو نصف شهرية أو كل شهرية أو ربع سنوية أو نصف سنوية أو حولية . .

---

(١) سلوى أبو سعدة ، الصحافة فى الاتحاد السوفيتى (القاهرة ، دار الموقف العربى ١٩٨٨) ص ٢٠ . .

(2) William A. Rugh, The Arab Press N. Y. Syracuse University Press : 1979 P. 8.

ورغم هذا الكم الكبير من الإصدارات الدورية فى هذه المنطقة ، إلا أن الدوريات العامة منها والتى تخاطب القراء على اختـــلاف أعمارهم واتجاهاتهم لاتتعدى ٨٠ دورية باللغة العربية و٢٤ دورية بلغات غيرالعربية، أما الدوريات الأخرى — وهى الغالبية العظمى (٦٦٧) فهى دوريات نوعية متخصصة تتوجه إلى جمهور محدد ومعروف نسبيا(١) .

وفى مصر تتزايد ـ أيضا ـ عدد الدوريات النوعية والمتخصصة وتفوق على عدد الدوريات العامة ، وتقول إحصاءات الدوريات التى تصدر من مرة إلى ثلاث مرات أسبوعيا ـ ولكنها منتظمة الصدور ـ أن مصر بهـا ٢٨ دورية من هذا النوع ، فى حين أن عدد الدوريات المتخصصة بها وصل

---

(١) دليل الدوريات الخليجية الجارية ،ط ١ (الرياض ، مركز التوثيق الإعلامى لدول الخليج العربية / مكتب التربية العربى لدول الخليج / الأمانة العـــامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية : ١٠٤٨ هـ / ١٩٨٨) ص ٢٥١ وما بعدها.. وترتيب نوعيات هذه الدوريات من حيث العدد على النحو التالى :

النوع	العدد					
. دوريات دينية (إسلامية) :	٤١	دورية	باللغة	العربية	–	بلغة أ ج
. » اقتصادية :	٣٧	»	»	»	١	» »
. » خاصة بالتعليم :	٣٣	»	»	»	١	» »
. » أدبية :	٣١	»	»	»	–	» »
. » خاصة بالتعليم الجامعى :	٣٠	»	»	»	١	» »
. » طبيه :	٢٠	»	»	»	٦	» »
. » علوم :	٢٠	»	»	»	٢	» »
. » علوم عسكرية :	١٦	»	»	»	–	» »

ويستمر تناقص أعداد الدوريات فى التخصصات ذات القرائيـــه غير المرتفعة الشائعه تدريجيا .

١٩٢ دورية[1] هذا بالإضافة إلى الدوريات المتخصصة غير الرسمية التى وضعت على لافتاتها أنها (كتاب غير دورى) للافلات من شرط الحصول على ترخيص بالصدور ، وقد انتشرت هذه الدوريات وبصفة خاصة فى مجال الأدب ووجدت لها صدى طيبا خاصة بين شباب الأدباء ..

وفى الجزائر ست دوريات عامة و١٠٩ دورية متخصصة تتفوق فى توزيعها على الدوريات العامة ..

أما فى المغرب فتوجد ٥٢ دورية عامة و٢٨ دورية خاصة[2] ..

وتتفوق الدوريات المتخصصة على الدوريات العامة من حيث التأثير إذا عرفنا أن أغلب الدوريات العامة تنشر مواد متخصصة مجمعة على صفحاتها تتنوع ما بين الملحق الدورى أو الزاوية الثانية والدورية أيضا، وتعتبر محاور جذب لجمهور متفرع يجد فى الصحافة الدورية - عن طريق هذه المواد المتخصصة - ما يشبع هوايته أو يربط بتخصصه ويطلعه على الجديد والهام بشأنه ..

---

(١) عبد العزيز شرف ، الاعلام ولغة الحضارة ، سلسلة « كتابك » ، العدد ١٨ (القاهرة ، دار المعارف : ١٩٧٧ ص ٤٨ .. وتتنوع هذه الدوريات بين تخصصات مختلفة . فلسفة وعلم نفس (٤٩ دورية) وفنون عسكرية (٤٧) وزراعـــة (٤١) والعاب رياضية (١٤) و أدب (١٣) وأطفال (٥) ودوريات تتناول أكثر من فرع ولكن بشكل متخصص ومتعمق (٢٢) .

(٢) مرعى مدكور ، « دراسة لفن التحرير الصحفى فى الصفحات الأدبية » ، ماجستير : غير منشورة (القـاهرة ، كلية الاعلام بجامعة القـــاهرة : ١٩٨٠) ص ٤٣ وما بعدها .

٢ ـ فئات الصحافة المتخصصة :

(ا) من حيث الشكل :

(ا) ١ ـ مواد متخصصة مجمعة تنشر فى الصحافة العامة (يومية أو غير يومية) فى عدة أشكال بصفة دورية ثابتة ، على النحو التالى :

• الملحق الثابت : وقد تكون دورية هذا الملحق بصفة يومية (دنيا الرياضة فى صحيفة الرياضة) السعودية ، و « الجزيرة الرياضى » فى صحيفة (الجزيرة) السعودية ، أو ينشر بصفة أسبوعية (« ملحق الأربعاء » الثقافى فى (المدينة) السعودية) و ينشر الملحق داخل العدد فى صفحات عدة تحت اسم « ملحق ... أو يكون منفصلا عن الصحيفة ، وتكون صفحات الملحق فى المقاس العادى للصحيفة (٤١ — ٤٣ سم × ٥٣ — ٥٦ سم) ـ أو أقل من ذلك فى حالة صدور الصحيفة فى مقاس يختلف عن المقاس العادى للصحف العادية Standaid Size ـ وقد يصدر الملحق فى مقاس مختلف عن الصحيفة كأن يصدر فى مقاس الصحف النصفية Tabloid مثل ملحق « الأربعاء » عن صحيفة (المدينة) أو فى ربع المقاس العادى للصحيفة مثل ملحق صحيفة (الندوة) ـ الندوة الرياضية ـ قبل أن يتحول إلى صحيفة أسبوعية متخصصة بالاسم نفسه ..

• القسم الثابت : وهو عبارة عن مواد متخصصة تنشر دوريا بشكل ثابت ، ويكون القسم الثابت فى صوره من عدة صور تبعا لاهتمامات الصحيفة ومستواها وجورها ونوع التخصص ، كما يلى :

ـ الصحيفة المتخصصة ..

ـ الركن الثابت أو الباب المتخصص الثابت ..

والمساحات الصحفية السابقة (الملحق/الصفحة/الركن)المواد المتخصصة ليست جديدة على الصحافة المعاصرة بل عرفتها الصحافة منذ بدايتها فى صورة

أو أخرى ، حتى أنه يمكن القول أن تخصيص مساحات للمواد المتخصصة لتنشر مجمعة فى الصحافة يعتبر البداية الحقيقية للصحافة المتخصصة والعمل على نشرها على مستوى جماهيرى فعلى سبيل المثال ، قبل أن تصدر أول مجلة نسائية عربية متخصصة - مجلة (الفتاة) عــام ١٨٩٢ م لهند نوفل - كانت مجلة (المقتطف) قد بدأت قبل ذلك بعشر سنوات تنشر ركنا متخصصا للمرأة وأطلقت عليه اسم (باب تدبير المنزل [1]) ..

وقد تنوعت المواد المتخصصة المجمعة المنشورة فى الصحافة العامة بشكل دورى ، وأصبحت تشكل ملامح بعض الصحف ، ووصل التنافس فى تقديم المواد المتخصصة درجة جعلت بعض الصحف تقـدم ملاحق أو صفحات متخصصة * ..

(ا) ٢ - مواد متخصصة مجمعة تنشر فى الصحافة العـامة (يومية / غير يومية) بشكل غير ثابت ، وإنما نتيجة ظروف أو مناسبات جعلت قضايا متخصصة تبرز بشكل طارىء ، وتنشر معالجاتها بعيدا عن الصفحات المتخصصة ليحتل الصفحة الأولى أو مجموعة صفحـات متتالية ، وتـكون معالجة هذه القضايا متناسبة طرديا مع حجم القضية وأهميتها ، ومن هذه القضايا ما هو طارىء ، مثل فوز الروائى المصرى نجيب محفوظ بجائزة نوبل حيث احتل هذا الخبر الأدبي ما نشيت صحيفتى (الأهرام) المصرية (والشرق الأوسط)

---

(١) إجلال خليفة ، مرجع سابق ، ١٩٦٧ ..

* ظلت صحيفة (الجمهورية) المصرية تعتمد فى توزيعها فترة طويلة على الرياضة ، وتعددت الملاحق الرياضية المتخصصة فى الصحافة العامة ، ووصـل الاهتمام بها إلى إصدارها يوميا (بدأت صحيفة « الرياض » السعودية تقدم ملحقا رياضيا يوميا ملونا ابتداء من ١٤٠٩/٢/٦ هـ وتبعتها صحيفة « الجزيرة » السعودية) ولا تخلو صحيفة عامة - محلية أو دولية - من صفحات أو أكثر للرياضة ، والمال والاقتصاد والسياسة وغيرها ..

السعودية(١) .. وقد تكون القضايا معروفة مسبقا وخطط لتغطيتها وانتقلت من الصفحة المتخصصة إلى الصفحات الأولى لتتناسب التغطية الصحفية لها مع أهميتها، مثل جوائز الملك فيصل العالمية فى الفروع المختلفة والتى توزع على الفائزين بها كل عام ..

وبالإضافة إلى هذه المواد المتخصصة المجمعة هناك المتابعات الإخبارية المتخصصة التى تجد طريقها ـ فى أحايين كثيرة ـ الصفحة الأولى أو الداخلية غير المتخصصة ..

(ا) ٣ ـ مواد متخصصة تنشرها صحافة متخصصة (صحف ومجلات) ، وهذا المواد ـ على تعدد أشكالها الصحفية ـ فى تخصص واحد شامل ، وغير دقيق فى الأغلب ، بحيث يتناسب مستوى مضمون المادة المنشورة مع الجمهور الأساس الموجهة إليه المطبوعة ..

ومستوى المادة المتخصصة التى تنشر فى صحيفة أو مجلة متخصصة تكون أرفع مستوى وأكثر تخصصا عن المواد المتخصصة التى تنشر الصحافة العامة ، حيث أن جمهور الصحافة المتخصصة معروف ومحدد بشكل تقريبى ، ولديه معرفة بالتخصص ومتابعة له أو ـ على الأقل ـ اهتمام به .

وتضم هذه الفئة من الصحافة :

ـ الصحف اليوميـــة أو الأسبوعية أو نصف الشهرية أو الشهرية المتخصصة ..

ـ المجلات الأسبوعية ونصف الشهرية والشهرية المتخصصة ..

ومحتوى ما تقدمة هذه الصحافة لا يخاطب جمهورا متخصصا دقيقا ، لكنه تخصص شامل يجد له قاعدة قرائية من المتخصصين ومن هواة التخصص وغيرهم من أصحاب الثقافة بمعناها الشامل ..

---

(١) « الأهرام » و « الشرق الأوسط » ، ١٩٨٨/١٠/١٤ م .

(أ) ٤ ـ دوريات متخصصة تقدم مضمونا تخصصيا دقيقا (تخصص التخصص) وقد تعددت هذه الدوريات فى مجالات متعددة بتنوع التخصصات التى تعبر عنها ، وتهتم هذه الدوريات بالصفة التحليلية والتفسيرية للتخصص كوسيلة ربط بين المتخصصين وبين المجال الذى ينتمون إليه (فقه/تفسير/اتصال/طب/ديكور .. الخ) ..

وتهتم بعض هذه الدوريات بالعناصر التيبوغرافية كوسائل إيضاح لمضمونه المادة ، فى حين تحجم دوريات أخرى عن الخط العلمى المحكم مما يدخلها فى دائرة الكتاب العلمى أكثر كثر من كونها صحافة متخصصة . .

(ب) فئات الصحافة المتخصصة من حيث المضمون :

تتنوع فئات الصحافة المتخصصة من حيث محتواها ومراكز الاهتمام فى هذا المحتوى فى كل فئة على حدة ، فإذا كانت هذه الصحافة « لاتهتم سوى بالطبقة الاجتماعية التى تعبر عنها أو الفئة المهنية التى تخدمها أو بالمجالة الذى تتخصص فيه »[1] فإنها تتنوع بتنوع وتعدد الفئات أو الطبقات أو المهن التى تعبر عنها داخل التخصص نفسه ، ومن هذه الفئات :

ـ الصحافة الدينية :

ويشهد العالم تعددا وتنوعا كبيرين فى الفئات النوعية لهذا النوع من الصحافة ، خاصة صحافة الاتجاه الإسلامى والصحافة المسيحية . قد أدى عدم تحديد مفهوم « الصحافة الدينية » إلى عدم الدقة فى تصنيفات متعددة لهذه الصحافة ، خاصة وأن هذه المفاهيم تختلف اختلافاً كليا فى بعض الأحايين من دولة إلى أخرى . .

فى مصر يستخدم مفهوم « الصحافة الإسلامية » للتعبير عن « الصحافة

---

(١) فاروق أبو زيد ، مدخل فى علم الصحافة (القاهرة ، عالم الكتاب:١٩٨٦) ص ١٧٨ .

الدينية » ، هذه الصحافة التي تعالج أمور الحياة انطلاقا من التعاليم الإسلامية ، وهناك هوة كاملة بينها وبين الصحافة العامة: منطلقا وتوجها وغاية .. والحال نفسه في أغلب الدول العربية والإسلامية الأخرى ..

أما في المملكة العربية السعودية فيأخذ مفهوم « الصحافة الإسلامية (*) بعدا أشمل يضم ما يصدر داخل البلاد من صحافة ، على أساس أن هذه الصحافة تصدر في دولة إسلامية ، ويقوم على إصدارها مسلمون ، وتتوجه - بشكل أساسي - إلى جمهور مسلم ..

وفي الدول العربية تصدر أعداد متنوعة من الصحافة الدينية (الإسلامية) تبعا للمرحلة العمرية وجهة الاصدار (حكومية/حزبية/أهلية) والتوجه الفكري ، وتقوى بدور كبير في حل الأمور الحياتية انطلاقا من التعاليم الإسلامية ، وترقية اهتمامات الناس قبل تبنيها ، وترجع بدور هذه الصحافة

(*) يتحمس القائمون على الصحافة السعودية في اعتبار أن الصحافة التي تصدر بالمملكة صحافة إسلامية ، وعندما تخصص صحيفة « ما » صفحة دينية متخصصة تطلق عليها « صفحة الفكر الديني » ، في حين يرفض آخرون تخصيص صفحة أو أكثر للدين باعتبار أن « شمولية الدين - الإسلامي - موجه في شئون الحياة » وأن « أية محاولة لحصر الموضوع الديني في صفحة أو أكثر هو حجر على نشاطاته الذي يمتد إلى كل أمور حياتنا » انظر :

- عبد الرحمن الراشد ، « كلمة إلى القارىء » ، مجلة (المجلة) السعودية ، العدد ٤٧٦ ، في ١٤٠٩/٨/١٥ (١٩٨٩/٣/٢٢) ص ٦ .

والرأي السابق نفسه تأخذ به صحيفة (الرياض) السعودية ، ففي سؤال وجهه أحد الباحثين لأحد مدراء التحرير في الصحيفة عن السبب في عدم وجود صفحة دينية بالصحيفة بالرغم من اهتماماتها المختلفة ، قال مدير التحرير : « بما أننا مسلمون ومجتمعنا مسلم فليس هناك داع للصفحة الدينية » . انظر :

- حسن إبراهيم الشريف ، الصفحات الدينية في الصحف والمجلات السعودية : بحث مكمل للماجستير ، غير منشور (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض : ١٤٠٥ هـ) ص ٢٩ .

فى صيغتها الحديثة - إلى صحيفة (العروة الوثقى)(*) التى أصدرها فى باريس جمال الدين الأفغانى المدير المسئول ومحمد عبده (المحرر الأول).. وقد تأخر ظهور صحافة الاتجاه الإسلامى على مستوى جماهيرى فى البلاد العربية لسببين رئيسين ، هما :

. الاحتلال الأجنبى لمعظم الدول العربية ، والذى أعاق ظهور هذا النوع من الصحافة لدرجة أن صحفا متعددة ذات اتجاه إسلامى لم تصدر فى أوطان أصحابها وإنما صدر فى المنفى (**) ..

. ظهور الصحافة فى أغلب البلاد العربية ـ خاصة فى مصر ولبنان وسورية ـ باتجاهات غير إسلامية للشاميين المهاجرين إلى مصر فرارا من القوانين المتعسفة فى بلادهم .

وتشهد الدول العربية فى السنوات الأخيرة تنوعا كبيرا فى الصحافة الدينية المتخصصة ، لدرجة أن دول الخليج العربى وحدها تصدر بها إلخ دورية دينية (إسلامية) متقدمة فى ذلك على الفئات الأخرى للصحافة المتخصصة[1].

(*) صدر عددها الأول فى الخامس عشر من جمادى الأولى ١٣٠١ هـ (١٣ من مارس ١٨٨٤ م) واستمرت ١٨ .

(**) من هذه الصحف .

ـ العروة الوثقى : وكانت موجهة أساسا ضد الاحتلال الانجليزى .

ـ منير الشرق : أصدرها على الغاياتى (باللغة الفرنسية مع باللغة العربية كان يكتبه بيده) كأول جريدة تصدر فى جنيف بسويسرا تدافع عن الشرق والشرقيين ، وبعد ربع قرن فى المنفى عاد الغاياتى لبلاده قبيل الحرب العالمية الثانية وأصدر صحيفة باللغة العربية فى مصر .

ـ الأمة العربية La Nation Arab : أصدرها شكيب أرسلان بالإشتراك مع إحسان الجابرى باللغة الفرنسية فى جنيف بسويسرا ، واستمرت حتى نشوب الحرب العالمية الثانية .

ـ صحافة الاهتمام الإبداعى :

وتضم هذه الصحافة عدة أنماط داخل التخصص الإبداعى ، منها :

. الصحافة الشاملة المتخصصة فى لون من ألوان الابداع : الأدب/الفن/الفكر .. الخ .. وتضم هذه الصحافة عدة أنماط من الكتابة داخل مجال التخصص ، وتتوجه هذه الصحافة إلى جمهور كبير نسبيا عن صحافة التخصص الدقيق أو (تخصيص التخصص) ..

. صحافة الإبداع النوعى : وهذا النوع من الصحافة المتخصصة مكانه المجلات المتخصصة ، حيث تخصص المجلة صفحاتها للون واحد من أنواع الإبداع وتقدم بعض نماذجه ـ قديما وحديثا ـ ونقد هذه النماذج وتقديم قراءات متعددة وأخبار وقضايا خاصة بهذا النوع من التخصص ، ومن الأمثلة لهذه المجلات : مجلة (الشعر) مجلة (المسرح) مجلة (القصة) مجلة (فصول) النقدية وغيرها .. وجمهور هذه المجلات قليل نسبيا وأكثر تخصصا وارتباطا بالمجال الذى يتابعه . .

ـ صحافة الأطفال :

وتقوم هذه الصحافة على « الفن البصرى فى المقام الأول . إذ تعتمد على الكلمة المطبوعة والصورة واللون فى تعبيرها عن الأفكار والحقائق »[1] وتتنوع هذه الصحافة المتخصصة تبعا لمراحل النمو النفسى لتطور شخصية الطفل فى مراحله المختلفة(*) : الطفولة المبكرة (١½ ـــ ٦ سنوات) ومرحلة

---

(١) هادى نعمان الهيتى ، صحافة الأطفال فى العراق ، سلسلة (دراسات) ، العدد ١٧٦ (الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والفنون ، دار الرشيد للنشر ١٩٧٩) ص ١٩

(*) يطلق على هذا التقسيم نموذج أريكسون Etikson والذى ركز فيه صاحبه على نمو شخصية الطفل فى إطار المجتمع الذى يعيش فيه وأسماه النمو النفسى الاجتماعى ، على جانب (الأنا) خلافا لفرويد الذى ركز على جانب (الهو) فى شخصية الفـــرد .

الطفولة المتأخرة (٦ - ١٢ سنة) ومرحلة المراهقة (١٢ - ١٨ سنة) وكل مرحلة عمرية لها صحافة من جرائد ، ومن بين صحف الأطفال المخصصة لمرحلة الطفولة المبكرة Onr Little Frieud التي تصدر في كاليفورنيا منذ عام ١٨٩٠م، ومن الصحف المخصصة للأطفال في مرحلة المتوسطة صحيفة One Two الأمريكية ، ومن صحف الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة صحيفة Okk i الهولندية ، أما المراهقون فلهم صحفهم الخاصة بهم ومنها Teen Time الأمريكية وغيرها [١] .

أما مجلات الأطفال فتتنوع تنوعا كبيرا من حيث المحتوى [٢] ، ولكن رغم هذا التنوع الكبير في صناعة المجلات فإن مجلاتنا العربية المخصصة للأطفال لا تراعي المرحلة العمرية لمن تتوجه إليهم ولا الهدف من إصدارها، وتعتبر - في أغلبها - ترجمة نصية لمجلات أجنبية للأطفال أو مجرد تقليدها ، هذا رغم أن هذا النوع من الصحافة ليس جديدا على العرب منذ أن أصدر رفاعة رافع الطهطاوي أول مجلة من هذا النوع باسم (روضة المدارس المصرية)(*).

- صحافة الأسرة :

وتتنوع هذه الصحافة تنوعا كبيرا حسب جمهورها الذي توجه إليه بشكل أساسي داخل محيط الأسرة ، وتشمل عدة أنماط ذات اهتمام عام أو خاص .. وقد بدأت في هذه الصحافة في العالم العربي عام ١٨٩٢ م بمجلة (الفتاة) التي أصدرتها في مصر هند نوفل ، ويصل عدد ما يصدر من هذه الصحافة الآن في البلاد العربية ٤٧ مجلة من مجموع الاصدارات التي عرفتها هذه البلاد ووصلت

(١) هادي نعمان الهيتي ، مرجع سابق ، ص٢٣ .

(2) Solme K. Richardsou, Magazine for children (Chicago, Amerioan Ribrary Association : 1983) p. 1—9

(*) صدر العدد الأول منها في ١٨ من أبريل ١٨٧٠ م وكانت مجلة عامة توجه اهتمامها الأول للناشئين أبناء المدارس .

١٥٣ مجلة(١)، وهذا بإضافة إلى المواد المتخصصة التى تنشر فى الصحف والمجلات العامة والتى تخاطب الأسرة . .

ـ الصحافة الطلابية :

وتنقسم إلى فرعين رئيسين هما الصحافة المدرسية ، والصحافة الجامعية ، وقد انتشرت هذه الصحافة (خاصة المجلات) وتنوعت ولاقت تشجيعاً كبيرا من الوزارات والهيئات المعنية بالتعليم فى البلاد المختلفة ، وقد تصدر هذه الصحافة عن مدرسة أو قسم علمى أو جامعية ، أو عن مؤسسات حكومية أو دور نشر خاصة ، أو كصحافة مجانية (إعلانية) .

ـ الصحافة الرياضية :

وتحتل هذه الصحافة (جرائد ومجلات متخصصة ، ومواد رياضية مجمعة تنشرها الصحافة العامة) مركز الصدارة توزيعا وجـــذبا للقراء ، وبعض هذه المطبوعات توزع على مستوى دولى متفوقة فى ذلك على الصحافة العامة .

وتتنوع هـــذه الصحافة بين متخصصة بالمعنى الشامل للتخصص ، وبين صحافة نوعية متخصصة بالمعنى الدقيق للتخصص : كرة قدم ، فروسية ، سباحة ، صيد ، ملاكمة ، جودو ، مصارعة ، تنس ، كرة سلة ... إلخ ... وكل رياضة من هذه اللعبات لها جمهورها .

وتتعـــدد الصحافة المتخصصة وتتنوع بدرجة كثيرة يصعب حصرها بالنسبة لمادتها ، وتخصصها ، والموقف العام ، والقراء ، والمصدر ، والطابع العام ، والمضمون ، والهدف ، وغير ذلك من تقسيمات متعددة لها(٢) .

---

(١) سعيد محمد جمعه ، « بمناسبة مرور قرن على الصحافة » ، صحيفة الشرق الأوسط ، العدد ٣٧٥٣ ، ١٩٨٩/٣/١٨ ، ص ١٨ .

(٢) محمود أدهم ، فى عالم المجلة (القاهرة ، د. مكان نشر ١٩٨٦) ص ٤٩ .

ثالثا : جمهور الصحافة المتخصصة

إذا كانت الصحافة المتخصصة ثمرة مباشرة للتراكم الكمى المعرفى وتلبية للاهتمام القرائى المتزايد بهدف تعميق ومتابعة التخصص النوعى ، فإن بداية الاهتمام بالتخصص فى الصحافة جاء نتيجة عوامل متعددة منها :

(ا) اهتمامات أصحاب هذه المطبوعات . حيث تكون هذه الإصدارات - غالبا - صدى لاهتمامات أصحابها ، فمجلة The Reader's Digest (أوسع المجلات الشهرية فى العالم والتى تصدر فى ٣٩ طبعة و ١٥ لغة ويزيد قراؤها عن مائة مليون هى تعبير عن اهتمامات صاحبها De Witt Wellace وملاحظاته حول أهم المقالات التى أطلع عليها ورأى تقديم ملخص لها ، فكان صدور هذه المجلة فى الخامس من فبراير ١٩٢٢[1] .

وفكرة مجلة إخبارية مثل Time جاء نتيجة تجربة Hadben مع زميله Henry R. Luce فى إصدار صحيفة يومية مدرسية فكانت هذه المجلة الأسبوعية الشهيرة منذ الثالث من مارس ١٩٢٣ وحتى اليوم[2] ومجلة (شعر) اللبنانية صدى لأفكار يوسف الخال وأدونيس باتجاههما القومى الحزبى ونزوعهما الشديد إلى التغرب ... وهكذا .

(ب) شخصية رؤساء التحرير وثقافاتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم ، فعندما قفز محمد حسنين هيكل بصحيفة (الأهرام) وجذب إليها من المثقفين : لويس عوض كمحرر أدبى للقسم الثقافى . ونجيب محفوظ الروائى ليبــدأ الكتابة ككاتب معروف ، ورائد المسرح العربى توفيق الحكيم كان تعبيرا عن شخصية رئيس تحرير الصحيفة الذى كان يطمح إلى جعلها « صوت مصر »

---

(1) W. Click, Russel N. Baird, op. cit., p. 19
(2) Ibid., p. 18

تمثلا بصحيفة The Time التى كانت تبدو وكأنها (صوت بريطانيا)[1] وملحق (ألوان من التراث) بصحيفة (المدينة المنورة) السعودية (والذى صدر عددها الأول فى الثامن من شوال ١٣٩٥ هـ بإشراف الدكتور محمد يعقوب تركستانى ولا يزال يصدر أسبوعيا حتى اليوم) هو فى مجمله تعبير عن شخصية المشرف والمحرر الأول له .

(هـ) بعض الظروف الطارئة من رقابة مباشرة ، أو احتلال أجنبى يعطل القوانين أو يفرض أخرى معطلة للصحافة بشكل مباشر أو غير مباشر ، أو قوانين خاصة بالصحافة وتتعسف ضـــدها وذلك كله يلجىء الصحافة إلى التخفى تحت ستار التخصص من آداب أو فنون أو فكاهة ، فى حين أن التوجه الأساسى لهذه الصحافة يكون سياسيا فى حقيقته رغم ستار الرمز أو أو عدم الوضوح أو الإعلان عن الهدف[2] .

- جمهور الصحافة المتخصصة :

يلعب الجمهور فى العملية الاتصالية دورا لا يمكن أن نعتبره سلبيا ، فكما أن القائم بالاتصال يؤثر على الجمهور ، فالجمهور أيضا يؤثر على القائم بالاتصال وتثار التساؤلات حول العلاقة القائمة بين القائم بالاتصال وبين الجمهور[3] وتؤكد دراسات الجمهور أنه من الصعوبة تحديد التأثير ومداه ونوعيته بالنسبة لقراء الصحف ، حيث أن دراسات التى تعتمد على أرقام توزيع المطبوعات

---

(1) Martin Walker, Powers of the Press (Loudon, New York, Qnartet Books : 168S) p. 174

(٢) مرعى مدكور ، فن تحرير صفحات الأدب فى الصحافة المصرية ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة القاهرة ، كلية الإعلام ١٩٩٠) ص ٢٥ ومابعدها .

(٣) جيهان أحمد رشتى . الأسس العلميه لنظريات الإعلام (القاهرة دار الفكر العربى ١٩٧٧) ص ٣٤٩ و ٤٣٣ .

لم تعطى نتائج دقيقة خاصة وأن المطبوعات أصبحت فى حكم المتخصصة - حتى العامة منها وإن اتجاهات الجمهور وميـــوله القرائية من الصعب تحديدها بدقة .

فى دراسة قامت بها عشر صحف يومية اقليمية كبرى فى فرنسا حول قرائية الصحف ، جاءت أهم النتائج موضحة ، أن قراءة الصحيفة هى - قبل كل شيء - مجرد عادة ، وأن أكثر من ٧١٪ من القراء ما يزالوا يقرأون جريدتهم المفضلة منذ أكثر من عشر سنوات (وترتفع النسبة إلى ٨٨٪ لمن هم فى سن الخمسين أو أكثر من العمر) وأن قرائية الصحيفة بالنسبة لحوالى ٩٠٪ يعتبر عملية استرخاء(١) .

والسبب السابق لقراءة الصحف لا ينطبق على الصحافة المتخصصة ، فقراءتها ليست - غالبا - عادة أو استرخاء ، فهى لا تقدم « الطزاجة » الإخبارية التى تدفع لمتابعتها ، حتى وإن قدمتها فليست هى الأساس وإنما تقترن بصفة أخرى هى الصفة التحليلية أو التفسيرية(٢) وحتى إذا كانت عملية القراء للصحيفة العامة مجرد « استرخاء » فى أغلبها . فإن هذا الاسترخاء أو الترفية قد يقود القارىء إلى أن يتواصل مع مواد أخرى متخصصة مثل عمود لكاتب سياسى أو برنامج سباق خيل أو تقرير مباريات كرة قدم(٣) فالقارىء غير المتخصص قد يجد نفسه أمام مواد مجمعة متخصصة منشورة فى الصحافة العامة ، وقد يكتشف فى نفسه أهلية لاستيعاب هذه المادة والتواصل معها ، وهذا ما يولد لديه اهتماما قرائيا جديدا ..

الصحافة المتخصصة فى بعض أشكالها إذن ليست مقصورة فقط على القارىء ا

---

(١) بيير البير ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٢) أحمد المغازى ، الاعلام والنقد الفنى ، سلسلة كتابك ، العدد ٧٨ (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٨) ص ٥٠ .

(3) Bill Grund, The Press inside out (London, W. H. Allen : 1676) p. 94

المتخصص ، وإنما يتكون جمهورها فى المقام الأول خاصة بالنسبة للصحافة التخصص الدقيق (تخصص التخصص)أما صحافة التخصص العام (الشامل) فيضاف إلى قرائها المتخصصين من يجدون أنفسهم فجأة أمام مادة جديدة عليهم قد ينجذب بعضهم لما تقدمه ويعود إليها مرة ثانية لإعادة اكتشافها وفك رموزها ، قراءتها ، وهكذا .

ويتأثر القارىء فى مدى إقباله على قراءة صحيفة من عدمه بالتالى :

• مستوى الصحيفة ، فصحف مثل The Guardian, The Times لا يتعدى توزيعهما نصف المليون نسخه ، لكن ما تقدمه واحدة منهما فى واحدة من صفحـــاتها المتخصصه له تأثيره على البريطانيين ، من قادة الرأى باعتبار الصحيفتين ان الصحف الجادة ، أكبر من أضعاف ما تنشر صحيفة بريطانية أخرى مثل The News of the wold صاحبة الـ ٤,٧٠٨,٠٠ نسخة يوميا والتى تعرف بصحيفة الاثارة أو الفضائح(١) ..

• مضمون ما تقدمه الصحيفة أو المجلة ، فليس بالضرورة أن يكون التوزيع الكبير تعبيرا عن تأثر بمحتوى ما تقدمه المطبوعة ، وإن كان - حتى الآن - دليلا على الاقبال عليها ومداه ..

- العوامل التى ساعدت على انتشار الصحافة المتخصصة :

هناك عدة عوامل رئيسية يرتفع ارتفاعها بزيادة الطلب على وسائل الاتصال بشكل عام - ومنها الصحافة المتخصصة - وهى(٢):

---

(1) John C. Merrill (ed.), op. cit., p, 64

(٢) عمر الخطيب ، الاعلام التنموى ، ط (الرياض ، دار العلوم للطباعه والنشر والنشر : ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣) ص ٢٠٨ ..

- جيهان أحمد رشتى ، نظم الاتصال : الاعلام فى الدول النامية (القاهرة ، دار الفكر العربى : د . ت) ص ١٠٦ ..

- نمو عدد السكان ..

- ازدياد دخل الفرد .

- ارتفاع الطلب على وسائل الاتصال . وهذا ينتج عن ارتفاع دخل الفرد وزيادة نسبة التعليم مقارنة بالأمية وظهور حاجات معرفية جديدة .

كما أن هناك تغييرات مستمرة فى العالم . خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. أدت إلى تحولات كبيرة أيضا فى مجال الصحافة المتخصصة ، منها :

- التقدم التقنى الذى ترك بصماته على الصحافة ، فإذا كانت الصحافة قد خطت خطوات كبيرة للأمام وأصبحت واقعا ملموسا بظهور مقوماتها من من تقنية وجمهور وتوزيع ، فإن هذه التقنية تتقدم يوميا بخطى رهيبة ، فلم تعد الصحيفة كما كانت : مجرد نسخ متعدده وجمهور محدد ، وإنما أصبحت مؤسسات متعددة الأنشطة ، ولنا أن نتخيل صحيفة مثل **Asahi shimbun** اليابانية التى تعتبر من أكبر المراكز الثقافية فى بلادها بنشاطها المتعدد من نشر كتب وإصدارات المجلات والدوريات والصحف وطبعها فى خمس مدن يابانية أكثر من مائة طبعة كل يوم(1) .

- القفزة الكبيرة فى مجالى الراديو والتليفزيون والاهتمام الجماهيرى بهما، واحتلالهما الصدارة بالنسبة للمجال الإخبارى ، مما جعل الجمهور يبحث عن الجديد ، وجعل الصحافة أيضا تبحث عن مجالات أخرى غير الاكتفاء بتقديم ماجرى ..

- التغير الذى طرأ على الجمهور أيضا من حيث التعليم والتنقل والحاجة إلى معرفة جديدة تجنح إلى التحليل والتفسير وتلبية الرغبات والحاجات المعرفية ، وبالإضافة إلى ذلك هناك عوامل لها تأثيرها المباشر فى انتشار الصحافة المتخصصة ، منها :

---

(1) Martin Walker, Op. cit., p. 188

- قيام الجمعيات النوعية المتخصصة ، واستخدام المطبوعات للتعبير عن أفكارها والتواصل مع أعضائها .

- الإقبال الذى حظيت به الدوريات المتخصصة والمواد المتخصصة المجمعة التى تنشر الصحافة العامة فى صورة ملاحق أو صفحات أو زوايا متخصصة ، هذا أدى إلى أن تبحث المؤسسات الصحفية عن استغلال أمثل لهذا الاتجاه من جهة الجمهور .

- صدور العديد من الدوريات المتخصصة عن جهات حكومية أو أهلية ، ليس تجارية ، بهدف غير الربح المادى كإشاعة ثقافة تخصصية معينة على مستوى أوسع .

- دعم المطبوعات المتخصصة فى بعض الأحيان ، حيث تقدم الحكومات دعماً الحكومات دعماً لبعض الهيئات أو المؤسسات أو الأفراد الذين يصدرون مطبوعات نوعية . بهدف استمرار هذه المطبوعات التى تساهم فى تنمية التذوق اللغوى أو الفنى أو تنمية مهارة معينة أو تعضيد اتجاه معين ، ويأخذ هذا الدعم عدة صور ، منها :

- الدعم المباشر بتقديم العون المادى ..
- الدعم غير المباشر ، فى أشكال متعددة على النحو التالى :

(أ) توفير حصص مستلزمات الإنتاج من ماكينات وأحبار وورق واتصالات بأسعار مدعومة ..

(ب) تقديم إعلانات حكومية لنشرها فى هذه المطبوعات . .

(ج) اقتناء مجموعة نسخ لتغطية تكاليف النشر وتحقيق هامش ربح يشجع على الاستمرار . .

- الاهتمام الجماهيرى بالتخصص ، والذى يتضح فى ظهور وتعدد وتنوع الجمعيات والأندية المتخصصة فى المجالات المتنوعة : إبداعية (أدب / مسرح / سينما / راديو / تليفزيون .. الخ) وأسرية (نسائية / أطفال / أزياء / خدمة /

صحة أسرية / ديكور) وفئوية (طلابية / عمالية/ مهنية / موظفين) رياضيين (خيل / سباحه / ملاكمه / كرة قدم / تنس / تربية حمام زاجل) وغير ذلك من جمعيات ترويحية وترفيهيه وغيرها ، بالإضافة إلى هواة هذه المجالات النوعيه والذين لاترق إمكاناتهم إلى المشاركة والممارسة فى هذه المنتديات . وهؤلاء يشكلون نسبة كبيرة من هذه المطبوعات المتخصصة الى تعبر عن هذه الأنشطة أو تلقى الأضواء عليها بشكل مباشر .. وتعمل الصحافة المتخصصه على توسيع دائرة قرائها بعدة طرق منها[1] :

١ - تلبية رغبات القراء والإجابة على أسئلتهم فى باب أو أكثر ، وهناك دراسات متعددة حول مشكلة رغبات الجمهور وهل تلبى هذه الرغبات بشكل مطلق أم يعطى هذا الجمهور ما يحتاج إليه وليس فقط ما يريد[2] وإن كانت الصحافة المتخصصة . غير الهادفة أساساً للربح ، ليست لديها مشكلة فى ذلك باعتبارها صحافة رسالة ولا تقصد الجمهور الكبير بتنوع رغباته ..

٢ - نشر آراء القراء وتعليقاتهم ومشاركاتهم فى أبواب الهواة ..

٣ - تنظيم الدورات والمسابقات ورصد الجوائز المادية والمعنوية ، وتتنوع هذه المسابقات بين مجرد اقتناء المطبوعة والمتابعة ، وبين كتابة الدراسات والإشراف على الموهوبين فى مجالات التخصص ..

إن التقدم الرهيب الذى يشهده العالم فى مجالات الاتصال يجعل الصحافة المتخصصه مسئولة عن تقديم تخصصية فى مجالاتها حتى يقبل عليها الجمهور هروباً من نمطية معالجات الصحافة العامة والتى تتزامن - فى احايين كبيرة مع ماجرى ، فلديها الوقت والإمكانات ، والجمهور أيضا ..

---

(١) على شلقى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) جيهان رشتى ، الأسس العلمية لنظريات الأعلام ، مرجع سابق ، ص ٤٣٣ .

خاتمـــة

إن طوفان الصحافة المتخصصة العربية والوافدة على بلادنا من الغرب دليل ملموس على تنوع اهتمامات القراء ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقف مجرد مستقبلين لهذه الصحافة التي تلبي الاهتمامات والرغبات ونتعامل معها عن طريق المصادرة تارة والمنع تارات أخرى ، خاصة وأن الحواجز قد تلاشت تقريبا بصفة عملية بين الدول بفعل وسائل المواصلات والنقل والاتصال ، فهذه الصحافة التي تلبى رغبات متنوعة : موسيقى ، فنون ، رياضة . أسرة ، طفولة ، ترويح ، وإن كانت غير مباشره في تأثيرها إلا أنها تقدم الفرصة ـ كما يقول جوزيف كلابر ـ وهـــو يدلى بشهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس النواب الأمريكى عام ١٩٦٧ .. كذلك لم تحسم قضية مجلات : (شعر) اللبنانية ودورها في إشاعة العامية في مواجهة لغة القرآن الكريم (هذا الدور الذي بدأه في مصر مهندس الري الإنجليزى وليام ويلكوكس في مجلة تحمل اسم « الأزهر » رغم أنها متخصصة في الصحة العامة !!) .

ومجله (حوار) اللبنانية أيضا وجوائزها المشبوهة ، ثم مجلة (الكاتب المصرى) التي أصـــدرها أربعة يهود في مصر وترأس تحريرها طه حسين !! ..

إننا يجب أن نتعامل مع هـذه المجلات عن طريق الحوار لترشيدها ، أما مقاطعتها ـــ كما يفعل البعض ـــ فلا يلغى دورها أبدا . . فعنـدما توجد المجلة التي تحترم عقل القارىء وتلبى اهتماماته متوسلة في الوقت ذاته بالفنون الصحفية المختلفة ـ كتابة وإخراجا ـ فإنها ستكون مؤثرة

وستؤدى دورها على أكمل وجـــه ، ولعل صحافتنا الدينية المتنوعة والمتعددة التى تصدرها الهيئات الإسلامية فى الداخل والخارج مطالبة بتطبيق الأسس العلمية للصحافة حتى يصل مضمونها إلى قرائها وتكتمل دائرة الحوار ..

ومن الله العون ..

أهم مراجع البحث

باللغة العربية :

١ - إجلال خليفة، اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصحف، جـ ١، ط ١ القاهرة، دار الإنسان : ١٩٧٢ .

٢ - أحمد المغازى، الإعلام والنقد الفنى، سلسلة « كتابك »، عدد ٧٨، القاهرة، دار المعارف : ١٩٧٨ .

٣ - إحسان عسكر، نشأة الصحافة السورية، القاهرة . دار النهضة العربية : ١٩٧٢ .

٤ - أحمد حسين الصاوى، فجر الصحافة فى مصر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب : ١٩٧٥ .

٥ - جيهان أحمد رشتى، الأسس الفكرية لنظريات الاعلام، القاهرة، دا الفكر العربى : ١٩٧٨ .

٦ - جيهان أحمد رشتى، نظم الاتصال : الإعلام فى الدول النامية، القاهرة، دار الفكر العربى : د . ت .

٧ - دليل الدوريات الخليجية الجارية، الطبعة الأولى، مركز التوثيق الإعلامى لدول الخليج العربية مكتب التربية العربى لدول الخليج الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجى : ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ .

٨ - زين العابدين الكتانى، الصحافة المغربية، جـ ١، المغرب، وزارة الأنباء : د . ت

٩ - سامى عزيز، الصحافة المصرية : وموقفها من الاحتلال الإنجليزى، سلسلة المكتبة العربية، القاهرة، دار الكاتب العربى : ١٩٦٨ .

١٠ - سلوى أبو سعدة، الصحافة فى الاتحاد السوفيتى، القاهرة دار الموقف العربى : ١٩٨٨ .

١٢ - على سكش ، النقد السينمائى فى الصحافة المصرية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨٦ .

١٣ - فاروق أبو زيد ، الصحافة المتخصصة ، ط ١ ، القاهرة ، عالم الكتب : ١٩٧٦ .

١٤ - فاروق أبو زيد ، مدخل إلى علم الصحافة ، القاهرة ، عالم الكتب : ١٩٨٦ .

١٥ - محمود أدهم ، دراسات فى عالم المجلة ، القاهرة ، د/ مكان نشر : ١٩٨٦ .

١٦ - محمود علم الدين ، المجلة : التخطيط لإصدارها ومراحل إنتاجها ، القاهرة ، العربى للنشر والتوزيع : ١٩٨١ .

١٧ - محمود فياض ، الصلاة الأدبية فى مصر ، القاهرة ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية ، ١٩٦٦ .

١٧ - هادى نعمان الهيتى ، صحافة الأطفال فى العراق ، الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والفنون .

مراجع معربة :

١ - البرت ل . هستر (محرر) ، دليل الصحف فى العالم الثالث ، ترجمة كمال عبد الرءوف ، القاهرة الدار الدولية للنشر والتوزيع : ١٩٨٨ .

٢ - بيير البير ، ترجمة فاطمه محمود ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .

٣ - جاك ميدوز ، آفاق الاتصال ومنافذه ، ترجمة حشمت قاسم ، القاهرة ، المركز العربى للصحافة : د . ت ..

باللغة الأجنبية :

— Bill Grundy, The Press inside ont, London, W. H. Allen : 1976

— Dineh Moghadam, Computers in Newspaper Publishing, N.y, Marcel Dekker : 1978

— Donald H, Johnson, Jovrnalism and the media, N. Y. Bernes and Nobbe books : 1676

— Floyed K. Baske He and others, The ait of editing, 3 ed., N. Y. Macmillan Publishing Co. : 1682

— John C. Merrill (ed)., Globel Journalism, New York, Longman, 1983

— Lou Connon, Reporting : an inside View, California, California Journal Press : 1977

— William y. Rugh, The Arab Press, N. Y., Syracuse Univer Press : 1979

— Mertin Walker, Pomat of the Press, London, London, N. Y. Quartet Books : 1982

— Selma K. Richardson, Magazine for Children, Chicago, American Library Association : 1988

قياس معدلات أداء الإعلاميين المبتدئين

بقلم الدكتور
صلاح الدين عبد الحميد محمد

أكثر المشكلات التي تواجه المسئولين في المؤسسات الإعلامية سواء كانت إذاعية أو صحفية، هي معرفة المستوى الحقيقي للمبتدئين في مجال العمل الإعلامي، وليس المقصود بهم العاملين في مجال الإنتاج الإعلامي المساعد كعمال الطباعة والفنيين الكهربائيين وفنيي القطع والتغليف بالصحف والمجلات والكتب الذين يندرجون تحت عضوية النقابة العامة للصحافة والطباعة والنشر، ولكن المقصود هنا هم المبتدئين في العمل الإعلامي الذين ينحصر عملهم في الإنتاج الفكري والثقافي والعلمي كالصحفيين والمذيعين والمخرجين والمصورين، وهم الذين يندرج أكثرهم تحت عضوية نقابة الصحفيين.

ومما يجعل حل هذه المشكلة ضرورة حيوية، والاستمرار في حلها أولا بأول أكثر إلحاحا، إن رياح التغييرات الصناعية والتكنولوجية قد هبت على صناعات وسائل الاتصال، فبدأت في أساليب تقسيم العمل التي يسرت الإنتاج الجماهيري في الصناعات الأخرى. ولقد أصبح التخصص مصاحباً لتعاظم الحجم وزيادة الكفاية، وهما من مميزات وسائل الاعلام في أواخر القرن العشرين، كما ساعدتا على نمطيه السلع المنتجة في غير وسائل الإعلام وعلى النحو الذي سار عليه إنتاج هذه السلع النمطيه كالصابون والسيارات والثلاجات، وزالت دولة الصحيفة التي ينتجها شخص واحد لتحل محلها الصحيفة التي يعمل فيها المئات من المتخصصين الذين يسهم كل واحد منهم في إنتاج الصحيفة[1].

---

(١) وليم ل. ريفرز وآخرون: وسائل الإعلام والمجتمع الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨٠ ترجمة الدكتور إبراهيم إمام.

كما غزا التخصص العمل الإذاعى[1] أيضاً ، ولم يعد البرنامج من خلق شخص واحد وإنما نتيجة تفاعلات مركبة من مواهب متعددة كالمنتجين والمخرجين وكتاب النصوص والممثلين والمذيعين والموسيقيين ، ولم يعد المعلقون يعدون نصوصهم بأنفسهم وإنما يقراون مايعده غيرهم من الكتاب ، وهؤلاء بدورهم يعتمدون على الامكانات الخاصة بالشبكة بجمع الأخبار من المصادر[2] .

ويعتبر تحديد معدلات الأداء أو الانجاز غاية سامية فى نظر الجهات التى يعمل فيها عدد كبير منهم خصوصا العاملون فى المجال الفكرى التخطيطى من أجل صالح المؤسسة الإعلامية من ناحية والعاملين فيها من ناحية أخرى .

مفهوم الكفاية الإنتاجية فى الأداء الإعلامى :

والكفاية الإنتاجية هى تحقيق إنتاج إبتكارى أو نمطى أفضل من ناحية الكم والكيف بإستخدام أفضل الطرق للإستفادة الكاملة من كافة الموارد والإمكانات ، والاستخدام الأفضل لعناصر الإنتاج المتاحة[3] ، وتساوى النسبة بين المخرجات Outputs أى المنتج النهائى ، والمدخلات Inputs أى المتطلبات اللازمة للإنتاج ، ولا يقتصر مفهوم الكفاية الإنتاجية على مجال الإنتاج الصناعى أو أى مجال متصل به فحسب ، بل ينسحب كذلك على كافة مجالات الحياة ، ويعنى توفير الوقت والجهد والمال فى أيه مرحله من مراحل الإنتاج أو العمل .

والاستخدام الأمثل للمدخلات من أجل إنتاج إبتكارى أو نمطى ،

---

(١) فى الراديو والتلفزيون   (٢) نفس المرجع ص ٨١ .

(٣) مصطفى أحمد عبيد : مفهوم الكفاية الإنتاجية ـ طبع فى أساليب رفع الكفاية الانتاجية الطبعة الأولى ـ القاهرة (بدون ناشر) سنة ١٩٧٠ ص ١٣

إنما هو مفهوم نظرى يعبر عن النهاية القصوى التى يمكن الوصول إليها ، وهى علاقة بين كمية المدخلات وكمية المخرجات .

وكلمة الكفاية الإنتاجية Productivity فى الأداء الإعلامى هى تحوير لكلمة كفاءة الإنتاج وتعنى الفاعلية فى الأداء ، وهى - أيضاً - المقياس الصادق لمدى التشغيل الاقتصادى للأعمال الابتكارية أو النمطية ، ومؤشراً لمدى الاستفادة من عناصر الإنتاج ، ومعيار للمقدار الناتج من استخدام الجهد والوقت والمال والخبرة أى المتطلبات اللازمة الإنتاج أو الابتكار . وهى التى تسمى بالمدخلات ويتم الاستخدام الأمثل للمدخلات بإتباع الأصول والأسس العلمية فى الإدارة لتوجيه هذه المدخلات الوجهة الصحيحة[1] ، حسبما هو محدد سلفاً فى الخطة العامة أو الجزئية ، أو حسب أسلوب المؤسسة الإعلامية فى الإنجاز .

الإدارة العلمية ومعدلات الأداء الإعلامى :

ولقد أدى إتساع وتعقد نظام الإنتاج المادى والفكرى والابتكارى ، وكبر حجم المؤسسات الإعلامية ، وظهور المشكلات التقنية والفنية والتقدم السريع فى الاختراعات . إلى البحث عن إدارة جديدة لمواكبه التغييرات التقنية والفنية لسد الحاجة إلى الرجل المناسب الكفء ، ونتيجة لذلك ظهرت أفكار عديد للإدارة وفى مقدمتها ماطالع به علينا فريدريك تايلور Frederek Taylor صاحب نظرية الإدارة العلمية التى تركز على عاملين هما الادارة الفنية والإدارة الإنسانية ، حيث اتضح أن المدير هو المنسق للجوانب الفنية البشرية فى أى عمل إنتاجى ، أى أن المدير يكون مسئولا عن التنظيم

---

(١) د . سيد محمود الهوارى : الإدارة - الأصول والأسس العلمية - ط ٤ مكتبة عين شمس للقاهرة ١٩٧٠ ص ٨٩ .

وعن جميع العلاقات المتشابكة وغير المتشابكة أثناء العمل الإنتاجى[1]، وسواء كان نمطيا أو ابتكارياً ، ويتضمن مدخل تايلور فى نظرية الإدارة العلمية لإدارة العمليات الإنتاجية، عدة جوانب متصلة بشكل مباشر بمعدلات الأداء والإنجاز[2]، وهى :

١ ـ التعريف الدقيق الواضح بأحسن طريقه لأداء العمل حيث أن هناك ـ دائماً ـ طريقة أفضل .

٢ ـ الإهتمام باختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب .

٣ ـ تدريب الرجل المناسب بالشكل الذى يستطيع به أداء عمله على أكمل وجه

٤ ـ تحديد المستوى النمطى للأداء المتوقع والمطلوب .

٥ ـ إعطاء المكافأة والتشجيع لمن ينتج فوق المستوى النمطى .

ونتيجة الإهتمام الشديد لمدرسة الإدارة العلمية بالجانب الإنسانى، وأثره على الأداء الوظيفى ودراسة أسباب ودوافع السلوك الإنسانى ، والأساليب التى تنمى السلوك الوظيفى الأكثر إنتاجاً ، ظهرت أهمية الإستفادة من المهارات البشرية بطرق إيجابية مثل الحوافز الإنسانية والاجتماعية وتنمية روح الجماعة والإهتمام بالمهارات الفردية .

وهناك عدة نقاط رئيسية تدور حول قياس وتحديد معدلات الأداء لدى الإعلاميين وهذه النقاط الرئيسية هى :

---

(١) د. محمد حسن أسعد : إدارة الموظفين ـ دورها وعلاقتها بالأجهزة الرقابية والتشريعية فى المملكة العربية السعودية : مجلة الإدارة العدد الثانى : أكتوبر سنة ١٩٨٤ ص ٣٦ .

(٢) محمد حسين ياسين ، د . مدنى عبد القادر علاقى : وظائف الإدارة ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة معهد الإدارة بالرياض ـ الرياض سنة ١٩٨٣ ص ٧٥ .

أولا : أهداف قياس معدلات الأداء :

يهدف قياس معدلات الأداء (الذى يعتبر جزئيه تفصيليه ضمن الإهتمامات التى تركز عليها مدرسة الإدارة العلمية) إلى تحقيق عدة أغراض هامة منها ما يتعلق بالجهات أو المؤسسات الإعلاميه التى يعمل فيها الشخص ، ومنها ما يتعلق بالشخص المبتدىء نفسه، وهى التى تساعد على إنجاز العمل (أو أداء الوحدات النمطيه المتكررة أو جزئياتها) طبقا للموازنات الماليه المحددة والجهود المقدرة سلفاً للإنتهاء منه ، ومن هذه الأغراض ما يلى :

* تطوير وتحسين مستوى أداء الإعلامى المبتدىء من أجل تحقيق رفاهيته شخصياً ورفاهية المجتمع ككل .

* الوقوف على مستوى كفاءة الإنتاج لدى الإعلامى المبتدىء ، وهذه ضرورة حيوية يتم على أساسها الآن - أو فيما بعد - إصدار قرار لإعطائه التدريبات التى ترفع كفاءته فى العمل .

* ومما يبين الأهمية الشديدة لتحديد معدلات الأداء،أن العمل الإنسانى ظل ولا يزال وسيبقى دائماً هو المحور الرئيسى للإنتاج ولمستوى الكفاءة الإنتاجية أفقياً ورأسياً، الأمر الذى يجعل قياس معدلات الأداء- كما وكيفا - من العوامل الرئيسية لدفع المبتدئين إلى معرفة مستواهم الحقيقى وتحمسهم وإنطلاقهم إلى آفاق أرحب .

* وضع حد لتفشى معوقات ومشكلات العمل التى تواجه الإعلامى المبتدىء ، وتلافى الأسباب التى تعوق إنطلاقه وإمكاناته فى العطاء ، وهذا ينعكس أثره على إقبال الجمهور وإستفادته مما يذاع فى الراديو أو التلفزيون أو ينشر فى الصحيفه إذا كانت المؤسسة إعلامية ، وعلى إتساع المشروع وإقبال المستهلكين إذا كان من مشروعات الإنتاج الصناعى أو الخدمات .

* ويهدف قياس معدلات الأداء ليس فقط إلى تحديد مقدار الإنتاج أفقياً ورأسياً أى كمية الإنتاج مع جودته، ولكن - أيضاً - إلى تحديد المجالات التى تناسب

الإعلامى المبتدىء دون غيره ، فكل من الإعلاميين المبتدئين يجد فى نفسه الكفاءة فى فن أو مجال دون غيره أو باباً من الأبواب الصحفية دون غـــيره .

* كما أن تحديد معدلات الأداء يشجع الإعلامى المبتدىء على تحقيق ذاته وإثبات مقدرته فى الإنتاج والإبتكار والتجويد، والمعروف أن الأغلبية العظمى من المبتدئين الذين يقتحمون العمل الإعلامى ، ينظرون فقط إلى الشهرة الجماهيرية ، ويفكرون كيف يصلوا إلى تحقيق ذلك فى أسرع وقت، بينما ينقصهم الكثير من المعلومات عن نوعيه هذا العمل وتفاصيله ومشكلاته والجوانب الفنية فيه .

ثانيا ـ تهيئة المناخ المناسب لقياس معدلات الأداء :

لن تستطيع المؤسسة الإعلاميه تحقيق أهدافها من وراء قياس معدلات الأداء إذا كانت هناك أوضاعاً غير مناسبة أو مشكلات تؤرق المبتدئين سواء فى العمل فى الجهاز الإعلامى أو فى حياتهم الخاصة ، وهى الظروف والأوضاع السلبية التى يطلق عليها غالبية المفكرين إسم « المحبطات » تارة أو « مثبطات الهمم تارة أخرى[1] .

ولكى يكون مناخ قياس معدلات الأدا مناسباً ، فإن هناك مجموعة إجراءات أولية يجب القيام بها قبل الشروع فى هذا التحديد أو القياس وهى :

- بحوث عمليات الأداء الإعلامى .
- تحديد ووضع معدلات للأداء .
- رفع كفاءة الأداء الإعلامى .

---

(١) صلاح الدين عبد الحميد محمد : أثر الإعلام على الكفاية الإنتاجية ـ رسالة ماجستير غير منشورة مودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ ، ص ٢٣٧ .

١ ـ بحوث العمليات : ويتطلب تحديد معدلات الأداء والإنجاز سواء الإعلاميين المبتدئين أو القدامى فى ميادين الإنتاج الإبتكارى أو النمطى ، إجراء بحوث العمليات لإلقاء الضوء على هذه الأعمال وخطواتها وظروفها وبيئة تنفيذها والمشكلات التى تعوق الإنتاج أو تقف فى سبيل التجويد فيه ، وبشكل أكثر تحديداً ، يمكن تفسير معنى بحوث العمليات بأنها الدراسة والتحليل العلمى للمشكلات الإداريه والفنية بهدف الوصول إلى الحد الأمثل لفاعليه الأداء الكلى ، والنهائى للجهاز الإعلامى ، أو فى قسم من أقسامه ، ويطلق العديد من خبراء الكفاية الإنتاجية على بحوث العمليات اسم « دراسات العمل » ، وهما ـ فى الحقيقة ـ مسميان لمعنى واحد .

وبداهه يقوم مجال بحوث العمليات على أساس تداخل وارتباط الكثير من العلوم فى تشكيل أو إتباع طريقة التفكير العلمى بأساليبها وأدواتها فى دراسة العمليات المختلفة التى تدخل فى الإنتاج النمطى أو الإبتكارى ، وقد أدى هذا المزج إلى بزوغ المدخل المتكامل والمتداخل لدراسة المشكلات الكلية ، ووفقاً لهذا المفهوم يمكن تحديد الخصائص المعينة التى تتصف بها بحوث العمليات[١] بما يلى :

١ ـ وجود مشكلة قائمة ومتفاعلة فعلا تتطلب الحل واتخاذ القرار المناسب بشأنها ، وحيث أن انتهاء هذه المشكلة سواء بالحل أو بالتحلل من تلقاء نفسها ، لا يستوجب البحث فيها أو الإشارة إليها بعد أن انتهت أو توقف تأثيرها على العمل .

٢ ـ ارتباط العديد من التخصصات بمشكلة واحدة تتأثر بها بشكل مباشر أو غير مباشر .

٣ ـ القيام بحل هذه المشكلات من كل مداخلها مهما تنوعت ومهما كان القضاء على جانب منها أو أحد مداخلها صعباً .

(١) د. محمد محمد الهادى : الإدارة العلمية . الرياض سنة ١٩٨٢ ص ٣٣٣ .

٤ - أن يوضع فى الإعتبار أن المشكلات المتعلقة بالإنتاج الابتكارى أصعب حلا من تلك المتعلقة بالإنتاج النطقى، وبذلك فإن المشكلات المتعلقة بمراحل إنتاج برنامج تلفزيونى أو إذاعى أو بمراحل إنتاج صحيفة بدءاً من عمليات الحصول على المادة الصحفية حتى إتمام طبعها يكون هو المجال الحقيقى هنا لبحوث العمليات.

(٢) تحديد مستويات ومعدلات الأداء:

أما الإجراء الثانى فهو تحديد مستويات ومعدلات الأداء، ويتم بعده خطوات منها[1]:

١ - تحديد إختصاصات كل قسم تنظيمى من خلال مناقشة التساؤلات التالية (هل هى تلك الإختصاصات الواردة فى القرار التنظيمى فعلا أو وفقاً لخطة عامة متغيرة؟ - وما هى الإختصاصات التى يمارسها القسم وتقع فى إختصاصات قسم آخر؟ - وما هى الاختصاصات الخاصة بالقسم ويمارسها قسم تنظيمى آخر؟).

٢ - تحديد العمليات التى تتم داخل كل تخصص، فكثيراً ما تحوى الوظيفة الواحدة عدة عمليات متكاملة (مخرج يقوم بإخراج فيلم تلفزيونى ويقوم بالتصوير أحياناً، يلقى محاضرات، يحضر لجان ومؤتمرات.

٣ - دراسة خطوات العمل فى كل عملية على حده وتحليلها للتأكد من أنها تمارس بأبسط طرق العمل، وتحقق الإنسياب والتدفق اللازمين، ما تنتفى معه الإختناقات. ولا خلاف فى إن تبسيط الإجراءات والتوصل إلى أبسط الطرق لأداء العمل، هى عملية أساسية قبل القيام بقياس الوقت لتحديد الزمن النمطى.

---

(١) مصطفى كمال خميس: قياس العمل ومعدلات الأداء - مجلة الإدارة - العدد الرابع - أبريل سنة ١٩٨٤ ص ٧٢.

٤ ـ تحديد وحدة الأداء لكل عملية ، وهي ـ كما سبق القول ـ أصغر وحدة متميزة يمكن أن يقسم إليها العمل في مجال أو نشاط نوعي معين ، سواء كان إبتكاري أو نمطي .

(٣) رفع كفاءة الأداء الإعلامي :

أما الإجراء الثالث والأخير ، فيتضمن عدة عمليات متداخلة ومتكاملة لرفع مستوى مهارة الإعلامي المبتدىء ، وتساهم كلها في تحقيق أعلى كفاءة له ومنها ما يلي :

فبالنسبة للتدريب على العمل يتم عقد الدورات التدريبية بصفة منتظمة ومستمرة للإعلاميين المبتدئين ومديري الأقسام مما يؤدي إلى تحقيق التفاعل بين القائم بالعمل وعمله ، ووضع نظام فعال للإتصالات داخل إدارات وأقسام المؤسسة الواحدة ، مما يؤدي إلى تنمية العلاقات الإجتماعية والإنسانية وتحسينها (١) .

ومن ناحية الرقابة ، فمن الأفضل ـ ما أمكن ـ الإقلال من استخدام مفهوم الرقابة الداخلية المتعددة على الأقسام المختلفة في المؤسسة الإعلامية ، وفي داخل كل قسم على حدة ، الأمر الذي يدعم حرية التصرف والاستقلال الذاتي والإداري في العمل(٢) .

ومن ناحية المشكلات التي تطرأ في العمل ، فيتم إعداد وتقديم استقصاءات دورية للإعلاميين المبتدئين والفنيين والمديرين ، للقضاء على المشكلات أولا بأول حتى نستطيع التعرف على مدى إدراكهم بأهمية الدوافع ومقدار إشباعها مع مراعاة الدقة والبساطة والوضوح من تصميم الاستمارات .

ومن ناحية ظروف العمل ، يكون من الضروري توفير الظروف المناسبة للعمل والتي تدفع الأفراد إلى الأداء الجيد من خلال الترتيب المناسب

---

(١) ، (٢) ، محمد نجيب محمود : دراسة للفروق في إدراك المديرين لدوافعهم ـ مجلة الإدارة العدد الرابع ـ إبريل سنة ١٩٨٤ ص ٦٤ .

الآلات والمعدات وتوفير درجات الحرارة وتهوية الأماكن .

وأخيراً التدقيق فى إختيار القيادات التى تشغل المناصب الإدارية العليا، وإسناد الوظائف الرئيسية والمناسبة لهم على أساس المهارة والخبرة[١] .

الظروف المواتية ودوافع تجويد الأداء :

هناك إختلاف كبير بين مفهومى الظروف المواتية لتجويد الأداء الإعلامى ودوافع تجويد الأداء الإعلامى ، فالمفهوم الأول يتضمن الأسباب والعلاقات الموجودة فى بيئة العمل وتساعد على الأداء الجيد ، أما المفهوم الثانى وهو دوافع تجويد الأداء . فيتضمن الأسباب الداخلية والنفسية للإعلامى المبتدىء وغير المبتدىء أيضا .

وفى مقدمة الظروف المواتية تقف بيئة العمل ، فهو (أى العمل) ليس مجرد بذل جهد عقلى أو عضلى للتأثير على الأشياء المادية وغير المادية المحيطة بالفرد ، ولكنه تفاعل بين الفرد وبيئة العمل ؛ يحاول الفرد فى أثناء ذلك أن يحقق أهدافه ويشبع رغباته وحاجاته ، وفى أثناء هذا التفاعل - أيضاً - تنمو وتتكامل شخصيته وتتحقق ذاته ويشعر بقيمته الإنسانية[٢] وفى هذا الإطار يتجه سلوك الفرد إلى وجهات مناسبة سوية تدعم جودة الأداء وإنجازه ومن ناحية الدوافع ، فإن لكل شخص خواصه ومميزاته التى ينفرد بها، ولكنه - فى نفس الوقت - يعتبر كل متكامل وليس مجموعة أجزاء متفرقة ، وهنا تظهر ضرورة دراسة سمات كل شخص على حدة ، فالفرد هو الذى يتخذ القرارات وهو المسئول عن العمل باستمرار ، ولذلك فإن دوافعه وحاجاته النفسية تعتبر عنصراً هاماً فى الدوافع التى تؤثر على بيئة العمل

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٢) د. محمد محمد الهادى : الادارة العلمية (مرجع سابق) ص ١٨٠ .

ككل ، وتنقسم حاجات الفرد النفسية إلى قسمين أولها الحاجة إلى الأمن النفسى التى تدفع الفرد إلى أن يكون موضع حب وعطف واهتمام الآخرين ، وثانيهما الحاجة إلى التقدير والاحترام التى تدفع الفرد إلى أن يكون موضع احترام وتقدير الآخرين[1] ، ويمكن تحديد الدوافع النفسية الداخلية لدى الإعلامى المبتدىء - ببعض التفصيل - مع التركيز على العلاقة بينه وبين عمله .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن الظروف والأوضاع السلبية حتى لا نخرج عن إطار هذا الموضوع وخلاصة ما نريد الاشارة إليه هنا ، أنه ما لم يجر العمل على إزالة الأوضاع السلبية فى بيئة العمل . فسوف يكون من الصعوبة إجراء تحديد دقيق لمستويات ومعدلات الأداء ، لأنها - أى هذه الظروف - تعتبر مؤثرات عكسية تؤدى إلى الإخلال بدقة التحديد وموضوعيته ، ولكن حديثنا هو عن الدوافع الداخلية التى ينبغى دعمها وتهيئة الظروف المواتية لها ، والتى تتمثل فى مجموعة من الدوافع النفسية والاجتماعية والاستقلالية والمالية والأدبية ، وهذه كلها تعمل - بالإضافة إلى ذلك - على دعم الظروف الإيجابية الموجودة فى بيئة العمل للانجاز والعطاء والتجويد ، ومن ثم قياس دقيق لمعدلات الأداء ، ومن هذه الدوافع الداخلية مايلى[2] :

١ - الميل إلى الاستقلال :

يحتاج المبتدىء إلى احترام وجهات نظره الشخصية وتأكيد أهمية مشاركته - فى حدود إمكاناته - فى إتخاذ القرارات والحد من المفهوم التقليدى لإستخدام السلطة أو التطبيق الشكلى لمفهوم الرقابة الممنوح للمسئولين عن التحرير أو للجهة الرقابية ، وتقليل العقبات والبوابات التى يتم من خلالها تنفيذ الرقابة ، التى يفقد الإعلامى المبتدىء حرية التفكير والتصرف ، وحرية معالجة المسائل الفكرية والثقافية .

---

(١) نفس المرجع ص ١٨١ .

(٢) محمد نجيب محمود : نفس المرجع ونفس الصفحة

٢ - الميل إلى الثقة والتقدير[1] :

وهذا يتطلب الإقلال من تدخل رؤساء الأقسام أو كبار المسئولين من التحرير فى أعمال المبتدىء ، إلا فى حدود التوجيه والإرشاد ، والحيلولة دون الوقوع فى الأخطاء ، وهذا يؤدى إلى ثقة المبتدىء فى نفسه واحترامه لذاته ، ويدعم هذا الاتجاه ويقويه ، قدراً مناسباً من التقدير لشخصه ولأهمية عمله .

٣ - الدوافع الاجتماعية :

وتنحصر هذه الدوافع فى الحاجة إلى تضييق الفجوة بين كل من الإعلاميين القدامى والمبتدئين ، وتنمية العلاقات الإجتماعية بينهم والمشاركة الجماعية والمساواة فى معاملة المؤسسة لكل منهم ، والتركيز على المساعدات الإجتماعية بصفتهم فى بداية الطريق ، وذلك عن طريق النوادى والرحلات والخدمات الأخرى .

٤ - الميل إلى تحقيق الذات :

والسبيل إلى هذا هو إتاحة الفرصة أمام الإعلامى المبتدىء لإظهار مواهبه وقدراته على العمل الخلاق والتجديد والإبتكار ، وهذا يحتاج إلى قدر غير قليل من الإستقلال ، وقدراً من سلطة إتخاذ القرار فى حدود صالح وأهداف المؤسسه الإعلامية ، وبطبيعة الحال ، فإن هذا يصحبه قدراً من المسئولية التى تناسب مقدار سلطة إتخاذ القرارات .

٥ - الميل إلى الاستقرار فى العمل[2] :

ويحتاج هذ إلى توفير عدد من المطالب الأساسية ، وفى مقدمتها توفير ظروف وأوضاع العمل المناسب ، وتحقيق الأمان وإزالة مصادر التهديد التى يتخيلها أو يواجهها فعلا ، وينبنى هذا كله على عدة أسس منها : (حقه فى سرية

(١) د . محمد محمد الهادى : نفس المرجع — ص ١٤٢ — وانظر كذلك د . بكر القبانى : الوجيز فى الإدارة العامة — دار النهضة العربية — ص ٢٨ .

(٢) د . محمد محمد الهادى : نفس المرجع ص ١٤٣ .

مصادره - وحقه فى نشر وجهات نظره إذا كان طرفاً فى قضية أو موضوع تتناوله وسائل الاعلام - وحقه فى الإختلاف فى وجهات النظر - وحقه فى الدفاع عن نفسه فى كافة الظروف - وحقه فى ألا يبعد عن عمله بسبب أى خطأ خصوصا الأخطاء غير المقصودة، وحقه فى الجزاء الأدبى والمادى نتيجة عمله أو جهده، مع وضوح مبادىء تقييم هذه الحقوق، وأن يكون على أسس موضوعية) .

وإذا تحققت كل هذه الرغبات والميول، فإن إمكاناته كلها سوف تنطلق بلا معوقات أو مشكلات مما يترتب عليه أن يكون معدل الأداء لديه طبيعيا ويتم تحديده بدقه وموضوعية .

ثالثاً - متطلبات القياس الدقيق لمعدلات الأداء .

هناك مجموعة من المتطلبات الأساسية لقياس معدلات والأداء للوصول به إلى نتائج دقيقة، ومن الضرورى على القائم بالقياس معرفتها ، وليس هناك إختلاف على أن العمل بلا خطوات أو أسس معروفة أو منهج محدد يؤدى إلى قياس إرتجالى يوصلنا إلى تحديد غير مضبوط الأداء العمل ، والمقصود هنا - أن تخضع الخطوات المتبعه وتسير على أسس ثبتت علميتها وموضوعيتها، وغير هذا سوف يترتب عليه واحده من ثلاث نتائج هى : (وضع الشخص فى غير المكان المناسب - أو حدوث ظلم نتيجة الإستهانة بإمكانات الإعلامى المبتدىء أو المبالغة فى تحديد إمكاناته حيث أنه لازال يحتاج إلى مزيد من التدريب والخبره .

وهذه المتطلبات هى التعرف على الجوانب التالية :

١ - طبيعة مصادر المادة الإعلامية ، وهى الجهات التى يقضى فيها الإعلامى المبتدىء وقتاً طويلا للحصول على مادته الإعلامية ، ويتعامل معها أطول وقت ممكن ، وهذا التعامل - كما هو معروف - حتمى ، وإلا سيصاب بالفشل،

فإذا كانت المصادر فيها بعض المشكلات التي تواجه الإعلاميين القدامى وتحول دون حصولهم على ضالتهم ، فما هو الحال بالنسبة المبتدئين الذين تعوزهم الخبرة والمران ، وكلما كانت هناك بعض الصعوبات أو المخاطر ، فإن هذا يحسب كعامل إيجابي في قياس المستوى كماً أو كيفاً .

٢ ـ طبيعة المادة الإعلامية التي يتعامل معها المبتديء ، ولسنا هنا بصدد تحديد درجة صعوبة الحصول على المادة ، ولكننا أمام مواد ومضامين لها طبيعة خاصة تجعل من الصعوبة معالجتها للنشر أو الإذاعة . والأغلبية العظمى من المواد المطلوب معالجتها للعرض أو النشر تتسم بصفة أو أكثر من الصفات التي تعوق الإعلامي المبتديء ، وتجعل من الصعب عليه أداء عمل يفيد الجماهير ويرضيها ، ومن هذه الصفات : ـ

- حساسية المضمون .
- أهمية المضمون وخطورته .
- علمية المادة وضيق نطاق تخصصها أو ندره المتخصصين فيها .
- تعقد المادة وصعوبة متابعتها جماهيرياً .
- درجة السرية ومحاذير الإفشاء .
- ما تتضمنه المادة من إثاره للجماهير .
- ما تتضمنه المادة من تكدير للسلم والأمن العام .

وهذه الصفات كلها ـ أو بعضها ـ ينبغي أن توضع في الحسبان عند إختيار الطريقة المناسبة لتحديد معدلات الأداء ، ولا يعني هذا القول أن كافة المبتدئين من المذيعين والمذيعات أو غيرهم كالصحفيين لايتمكنون من معالجة المادة بالشكل المناسب ، ولكنه يعني تحديد مستوى الجميع في الأداء وكيفيته بالشكل الذي يحقق أهداف الخطة العامة وفائدة الجماهير في وقت واحد .

٣ ـ طبيعة الشخصيات أو الضيوف المتعاونة ، للشخصيات المتعاونه دور كبير فى التأثير على معدل أداء المذيع أو الصحفى ، والكثير من المواد تتطلب المعالجة من خلال ضيف مسئول أو شخصية عامة ، مما يجعل من الضرورى وضع هذا فى الإعتبار عند تحديد معدل الأداء ، والقليل من الضيوف هم الذين يساعدون المذيع أو الصحفى بما يتوفر لديهم من إمكانات توهلهم لذلك، ولكن الكثير منهم يتصف بواحدة أو أكثر من الصفات التى تعتبر مصدراً من مصادر الصعوبات المتناهية لدى المذيع المبتدىء ، كنوعية الضيف رجلا كان أو إمرأه ـ المستويات العلمية الثقافية ـ ونوع التخصص وأهميته ، وهذه الأهمية تتدرج بين رئيس المؤسسة ورجل عادى من عامة الشعب ـ وأهمية المعلومات أو الاجابات المطلوب الحصول عليها من الضيف بصرف النظر عن أهميته شخصياً ـ ودرجه الحساسية والخجل وكذلك القـــدرة على التعبير والشرح .

٤ ـ طبيعة وحدة الأداء نفسها ، ويتأسس تقييم الأداء ـ أيضاً ـ على نوعية وحدة الأداء ، وتتفاوت هذه الوحدة من أصغر عمل لايستغرق سوى دقائق إلى إنتاج أعمال ضخمه لاتنساها الجماهير ، وتتفاوت وحدة الأداء كذلك بين عمل جزئى متكرر ألى عمل كلى متنوع ومتميز من عمل إلى آخر ، ويمكن إعتبار ذلك معياراً يتحدد على أساسه حجم العمل المؤدى أو الجزء المحدد خلال فترة زمنية محددة سلفاً ، ومن الضرورى عند تحديد طبيعة وحدة الأداء كأساس لتحديد معدل الأداء ، أن تتحدد مسبقاً ثلاثة جوانب هامة هى : ـ

(ا) تحـديد الحدين الأقصى والأدنى للمدة الزمنية النمطية اللازمة للإنجاز .

(ب) تحديد مستوى الجودة اللازمة للإنجاز فى حديه الأقصى والأدنى .

(د) تحديد المقدار المسموح به من الوحدات المعيوبه أو التالف

أو الرايشي ، وكذلك القدر المسموح بضياعه من الوقت(١) .

٥ ـ المستوى الذهنى المطلوب ، ومن المهم ـ عند قياس معدلات الأداء ـ التفرقة بين الأعمال التى تحتاج إلى قدر أكبر من العمل البدنى وقدراً أقل من العمل الذهنى والعكس ، ونحن نرى أن وضع معدلات واضحة لمستويات العمل الذهنى من أجل تصنيفها ، ليس بالأمر المستحيل مع الاعتراف ـ طبقاً ـ بأن هناك صعوبات كثيرة تقف أمام ذلك وتحتاج إلى تعامل خاص .

٦ ـ طبيعة تخصص الإعلامى المبتدىء : ويندرج تحت هذا كافة الأعمال التى يقوم بإنجازها فى الوقت الراهن ، فهناك أعمال وتخصصات متنوعة تعمل كلها لانجاز برنامج واحد يمكن للمبتدىء أن يعمل فى واحدة منها ، وهناك ـ أيضا ـ الأقسام المختلفة التى تعالج فيها المادة كأقسام المنوعات والبرامج السياسية والبرامج الاجتماعية وأقسام الحوادث والتحقيقات والأخبار فى الصحف والمجلات ، وهذه كلها تخصصات تختلف من قسم إلى آخر داخل المؤسسة الإعلامية الواحدة .

رابعاً ـ معايير تحديد جودة الأداء :

وهذه المعايير الموضوعة لتحديد معدلات جودة الأداء ، إنما هى معايير عامة لكافة خصائص العمل الإعلامى ـ صحفياً كان أو إذاعياً ، وهذه الخصائص كثيرة ومتنوعة ، منها جودة وقوة التأثير ، وجاذبية الموضوع ، واتساع عدد المشاهدين أو القراء ، وعدد الحلقات المتكاملة أو المجزأة أن وجدت .

ويمكن الإشارة إلى بعض الخصائص الأخرى التى تسام فى بيان جودة

---

(١) السيد أحمد الجنزورى : مراقبة جودة الإنتاج (طبع فى) أساليب رفع الكفاية الإنتاجية : الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ ـ ص ١٢٧ .

أو عدم جودة أداء المشتركين فى العمل التلفزيونى أو الصحفى كل حسب تخصصه ، وهذه الخصائص تظهر فى واحدة من الصور التالية :

* إما إنجاز العمل الكامل (أو عدد من الأعمال النمطية) فى وقت أقل من الوقت المخصص له ، وبهذا تنتهى ماكينات وآلات التصوير من عملها قبل الوقت المحدد ، الأمر الذى يتمكن معه المسئول من استخدامها فى أوامر تشغيل أخرى ، أو إجراء التجهيزات وأعمال الصيانة اللازمة قبل موعدها ، وينطبق نفس القول على العمل فى وقت أقل ، ويظهر ذلك بوضوح عند ترجمة هذا الوقت والجهود إلى أموال .

* صورة أخرى ... إنجاز العمل المتكامل (أو مجموعة الأعمال النمطية) مع استنفاد الوقت المحدد كله وبنفس الجهد والنفقات ، ولكن الإنجاز يكون بعدد أكبر ، مما يؤدى إلى تغطية مساحة أكبر من العمل بنفس الجهد والنفقات والوقت .

* أيضاً ... إنجاز العمل المتكامل المستهدف (أو الأجزاء النمطية) فى نفس الوقت المحدد سلفاً وبنفس النفقات المالية ، ولكنه مع توفير فى العنصر البشرى سواء من الفنيين أو المساعدين .

* كذلك إنجاز الأعمال المتكاملة (أو الأعمال النمطية المتكررة أو العمليات الجزئية) بحيث تكون مقبولة كلها من الناحية الإنتاجية أو الرقابية أو التقييمية ، وبحيث لا توجد حالات مرفوضة أو مؤجلة أو توضع فى الطلب إلى أجل غير مسمى ، ويقف وراء هذه الحالة عدة أسباب لا مجال لها هنا ، وهذه الحالة فى المنتجات والسلع الصناعية ، تسمى المعيبة أو المنقوصة أو المكسورة أو غير المقبولة إستهلاكياً ، ويمكننا أن نسمى هذه الحالة من من مستوى الجودة فى الأداء بإنجاز الأعمال المتكاملة أو أجزاء مع أقل قدر من المرفوض ، أو عدم وجوده أصلا ، وهناك معياران رئيسيان يمكن بواسطتها قياس معدلات الأداء والتعبير عن كفاءة الإنجاز . وهذان المعياران هما :

المعيار الأول ـ معيار كفاءة الأداء الكلي[1] :

وهو النسبة بين المخرجات Outputs (وهي الأعمال المتكاملة التي تم إنتاجها أو الأعمال النمطية المتكررة أو الجزئية) وبين المدخلات Inputs (وهي العناصر اللازمة لإنتاج العمل التلفزيوني أو الصحفي المتكامل مثل النفقات المالية والعمالة الفنية والمواد المستهلكة) ويمكن التعبير عن هذا المفهوم بمعادلة على النحو التالي :

معيار كفاءة الأداء الكلي =

$$\frac{\text{المخرجات Outputs}}{\text{المدخلات Inputs}} = \frac{\text{الانتاج النهائي (أي الأعمال المتكاملة أو النمطية أو الجزئية)}}{\text{النفقات المالية + الجهود البشرية + المواد المستهلكة}}$$

وهذا المعيار هو معيار كلي لتحديد كفاءة إنجاز الوحدة الكاملة أو النمطية بالنسبة للجهاز الإعلامي ككل ، أو كل أعضاء فريق العمل معاً ، وبتعبير آخر هو مقياس عام لتحديد معدلات أداء فريق أو هيئة أو مؤسسة ، ولا يصلح لقياس معدلات أداء الأفراد كل على حدة .

المعيار الثاني ـ معيار كفاءة الأداء الجزئي[2] :

وهو النسبة بين المخرجات وبين المدخلات كما أشرنا إليها في المعيار الكلي ، ويمكن التعبير عن مفهوم الأداء الجزئي بالأشكال الجزئية التالية :

$$\text{١ ـ معيار كفاءة الاستخدام للنفقات أو رأس المال} = \frac{\text{النفقات المالية المنصرفة}}{\text{عدد الحلقات أو عدد الأجزاء}}$$

ويمكن تحديد مستوى كفاءة أداء رأس المال ، والنفقات المالية الأخرى التي تم صرفها على العمل المتكامل أو الأجزاء النمطية ، ويدخل ضمن ذلك المنصرف على النقل والانتقالات والتخزين والتسهيلات وإيجار الأماكن والاستهلاك المعياري للأدوات والآلات . وبهذا يمكن تحديد معدل أداء فرد واحد أو أكثر بواسطة أسلوبه في الإنفاق ومقارنة ذلك بالحالات الشبيهة السابقة .

---

(١) مصطفى أحمد عبيد : المرجع السابق ص ١٥ .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

٢ - معيار كفاءة أداء العمل = العمل أو الجهد المبذول / عدد الحلقات أو الأجزاء

ويمكن بهذا المعيار تحديد مستوى الفنيين والموجهين والمساعدين وكافة الجهود التى بذلت لإنتاج عمل متكامل (أو جزئيات نمطيه) ويعبر عنه بمقدار العمل الذى بذل سواء كان القياس يوم / عمل ، أو ساعة / عمل ، أو بالقطعه ، وبهذا الشكل يمكن تحديد معدلات أداء مجموعة أو فريق .

٣ - معيار كفاءة أداء المواد الخام أو المصنعه اللازمة لإنتاج التلفزيونى أو الصحفى .

= كميـــة المواد المستخدمة (سواء خام أو مصنعه) / عدد الحلقات الكاملة أو الوحدات النمطية أو الجزئية

ويمكن بهذا المعيار تحديد مستوى إستغلال المواد المستخدمة او المستهلكة فى الانجاز ، ويتم ذلك على أساس حساب نمطى محدد سلفاً من الكميات أو القطع أو العدد المستهلك من الوحدات الخام أو السلع المصنعة التى يحتاج إليها الانجاز المسلسل أو (حلقة واحدة) ، وبواسطة هذا المعيار يمكن تحديد جودة أداء فرد واحد أو مجموعة أو فريق .

خامساً - طرق قياس معدلات الأداء(١) :

وهذه الطرق - فى نظرنا - ما هى إلا أساليب نظرية مقترحة لتحديد وتقييم معدلات إنجاز العمل فى الراديو والتلفزيون ، والمتوقع أن تواجهها العديد من الصعوبات عند التنفيذ ، وهى لا تستخـــدم فى كافة الأعمال والتخصصات ولكن فى بعض الأعمال النمطيه أو التى تشابهها ، وبالرغم من أنها كانت ولا زالت تستخدم فى تقييم مستوى العمل فى الانتاج السلعى وفى تقديم الخدمات ، إلا أن هذا لا يمنع من الاستفادة منها فى قياس معدلات أداء العمل فى المجال الاعلامى ، واضعين فى الاعتبار الطبيعة الخاصة والفريدة

(١) كيث دافيز : السلوك الإنسانى فى العمل - دار نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٧٤ ص ٦١٥ - ٦٣٠ .

للعمل في أجهزة الاعلام المختلفة ومن طرق تحديد معدلات الأداء الطرق التالية : ـ

١ ـ طريقة التقدير الشخصي :

تعتمد هذه الطريقة على فهم الرئيس المباشر وإدراكه ومعرفته بتفاصيل العمل نتيجة الخبرة الطويلة في هذا المجال ، أو على الجهة التقييمية أو جهة تقرير الصلاحية، والواضح أن هذه الطريقة سهلة وميسورة ، وهي المتبعة ـ تقريباً ـ في أغلب أجهزتنا الإعلامية .

وطالما أن هذا التقدير يعتمد على التقدير البشري ، فإن الحاجة إلى طريقة أخرى لا زالت ملحة وضرورية ، لأن التقدير بتلك الطريقة ـ فيما خلا الحالات النادرة ـ يتأثر بالحالة النفسية للقائم بالتقدير وأوضاعه الإجتماعيه ومستواه الإقتصادي وعلاقاته الشخصية وأوضاعه « المزاجية » ، وهي كلها مؤثرات سلبية على موضوعية التقدير ومستواه ، سواء بالإستهانة أو المبالغة .

٢ ـ طريقة الملفات والبيانات السابقة :

تعتمد على وضع معدلات نمطية مسبقة على أساس إنجازات سابقة أجراها الإعلامي المبتدىء أو على معرفة أعمال أخرى تمت فعلا ، ومن ثم تخصيص عدد من المتوسطات من هذه الأعمال في فترات متقاربة أو متباعدة ، ثم تحديد معدلات الأداء على هذا الأساس .

٣ ـ طريقة المدة الزمنية النمطية :

تعتمد هذه الطريقة على المعلومات والبيانات السابقة التي يتم بها تحديد صعوبات العمل وحجمه الحقيقي وتكلفته الواقعية ، ونوعية وإتجاهات وميول القائمين بإنجاز العمل من فنيين ومساعدين وغيرهم ، وعلى أساس هذه المعلومات يتم تحديد مدة زمنية نمطية يتم خلالها الإنتهاء من العمل بشكل متكامل ، وتحديد المدة الزمنية في هذه الحالة يكون تحديداً تقريبيا حيث يوضع لها حد أقصى وحد أدنى ، وبنفس الطريقة يتم تحديد مدة زمنية تقريبية لإنجاز الأعمال النمطية المتكررة أو الجزئية ، وتحدد لها ـ أيضاً ـ حد أقصى وحد

أدنى . وفى الحالة الأولى (المدة الزمنية التقريبية لإنجاز العمل المتكامل) يمكن تحديد معدلات الأداء للفريق المنوط به إنجاز العمل ككل ، ويصعب - كذلك - تحديد معدلات أداء الأفراد كل على حده ، أما فى الحالة الثانية (المدة الزمنية التقريبية لإنجاز الأعمال النمطية) ، فيمكن تحديد معدلات أداء كل فرد على حده أو مجموعة قليلة من الأفراد .

٤ - طريقة الكم أو العدد النمطى أو الجزئى :

يتم - بهذه الطريقة - تحديد عدد من الأعمال النمطية أو الجزئية التى يوكل إلى الأفراد أداؤها ، ولا يحدد لها مسبقا مدة زمنية تقريبية ، ويعطى للشخص الحرية فى المدة الزمنية التى تناسبه بحيث يكون طولها مقبولا فى حده الأقصى ، وتنجح هذه الطريقة بشكل واضح فى تحديد معدلات أداء الأعمال النمطية الصغيرة أو الأعمال الجزئية ، وهى كثيرة جداً ومتعددة ، وتشكل جزءاً كبير من العمل الفنى المتكامل ، ولا تصلح هذه الطريقة فى ثلاث حالات هى : (- أنها لا تصلح فى قياس معـــدلات أداء الفريق ككل : لاتصلح فى تحديد مستوى جودة أداء الأعمال الفنية المتكاملة : وأنها لا تصلح فى تحديد معدلات أداء الأعمال التى يغلب عليها الطابع الفكرى أو الذهنى) .

٥ - طريقة الملاحظة الشخصية :

وهذه الطريقة مزيج بين طريقتى المدة الزمنية النمطية والعدد النمطى ، وتعتمد على الخبرة الطويلة للمشرف على العمل ، وكلما حدد المشرف مدداً زمنية نمطية وعدد نمطى من الأعمال الصغيرة ، فإنه ينجح نجاحاً كبيراً فى إجراء ملاحظة جيدة يمكن الاعتماد عليها فى تحديد دقيق لمعدلات الأداء ، ومن الضرورى - عند إستخدام طريقة الملاحظة الشخصية - اتباع ثلاث خطوات وتسجيلها أولا بأول وهى :

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

- د. على السلمى : إدارة الأفراد لرفع الكفاية الانتاجية - الطبعة الأولى دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- د. محمد حسن ياسين ، د. مدنى عبد القادر علاقى : وظائف الادارة - معهد الادارة العامة بالرياض - الرياض ، سنة ١٩٨٣ .
- د. محمد سيد محمد : إقتصاديات المؤسسة الصحفية ، الجزء الأول مكتبة كمال الدين - القاهرة ، سنة ١٩٧٩ .
- د. محمد سيد محمد : الاعلام والتنمية ، الطبعة الأولى - دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٥ .
- د. محمد على العويني : الاعلام الدولى بين النظرية والتطبيق - الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٨ .
- د. محمد محسن أسعد : إدارة شئون الموظفين بالمملكة العربية السعودية مجلة الادارة ، العدد الثانى - أكتوبر سنة ١٩٨٤ .
- د. محمد معوض : فنون العمل التلفزيونى - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٨٦ .
- د. محمد محمد الهادى : الادارة العلمية - دار المريخ للنشر - الرياض سنة ١٩٨٢ .
- محمد نجيب صبرى : دراسة الفروق فى إدراك المديرين ودوافعهم - مجلة الادارة - العدد الرابع أبريل سنة ١٩٨٤ .
- وليم ل . ريفرز وآخرون : وسائل الاعلام المجتمع الحديث - دار الفكر العربى - القاهرة (بدون تاريخ) ترجمة الدكتور إبراهيم أمام .
- مصطفى أحمد عبيد : مفهوم الكفاية الانتاجية (طبع فى) أساليب رفع الكفاية الانتاجية (بدون ناشر) القاهرة سنة ١٩٧٠ .
- مصطفى كمال خميس : قياس العمل ومعدلات الأداء - مجلة الادارة العدد الرابع سنة ١٩٨٤ .

مراجع بالأجنبية :

— Condline E. Frank,. Journalism, Teach goursey Books st. Paul,s House, London, 1969

— Edward Bliss Jr. & John M. Patterson, Writing News for Broadcast. Columbia University Press, Newyork 1978

— Emery E. and Others, An jntroduction to mass Communication, Second Edition, Jndia Dodd Mеod Compony 1965

— Gene Gilmore & Robert Root, Modern Newspaper Edіtiny, Second Edition, Boyed & Fraser Publishiug Compony San Francisco 1976

— Marsball Mcluhan, Understonding Media, Mcgraw Hill Book Company, New York, 1964

— Peter Marshall, Jmproving The Visual News (Papers) London July 1979

— Ryan, W. S., Network Analysis in formiug The New Organization, Londen HMSO, 1967

— Welbur Schamm. & William L. Rivars., Responsibility in Moss Communication, Third Edition, Horper & Row Publishers, New york, 1980

— William L. Rivars, The Mass Media, Second Edition, Harper & Row Publishers, New york, 1975

نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية

بقلم دكتور
سامى عبد العزيز الكومى

مقـــدمة :

يهدف هذا البحث إلى التعريف الموجز بنظم المعلومات فى المؤسسات المعاصرة عامة ، ونظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية بخاصة ، وما أدى إليه عصر تفجر المعلومات . وتقدم تكنولوجيا المعلومات ، وظهور علم المعلومات من تطور عمل هذه النظم .

ولهـــذا عرفت بالنظم عامة ، وبنظم المعلومات ونظم المعلورت فى المؤسسات الصحفية بخاصة ، ثم عرفت بمفهوم كلمة المعلومات ومجال عمل علم المعلومات ، والجديد فى عمل نظم المعلومات بمراحله الثلاثة فى : الحصول على مصادر المعلوت بأنواعها المختلفة (المدخلات) ، وتنظيم وحفظ وتخزين المعلومات (المعالجة والتشغيل) ، واسترجاع المعلومات وتقديم الخدمات المعلوماتية (المخرجات) ، ورجعت فى ذلك إلى قائمة من أحدث المراجع للمتخصصين فى علم المعلومات .

ثم شرحت أهمية الحصول على المعلومات الدقيقة والكافية فى رفع مستوى فن التحرير الصحفى فى المؤسسات الصحفية : سواء فى تحرير الخبر أو الحديث أو التحقيق أو المقال أو الحمـــلة الصحفية . ودور نظم المعلومات فى ذلك ، وكذلك أهمية توفير المعلومات الدقيقة والكافية للمسئولين عن إدارة المؤسسة الصحفية لاتخاذ القرارات السليمة .

عصر تفجر المعلومات : كثيرا مايطلق على العصر الذى نعيش فيه الآن عصر تفجر المعلومات Information explosion ويقصد بتفجر المعلومات التزايد الهائل فى نمو وتنوع كل أشكال المعلومات فى هذا العصر(١) .

والاهتمام بالمعلومات قديم قدم الحضارات القديمة منذ خمسة آلاف عام تقريبا حيث احتاج الإنسان والدول على حد سواء إلى إيجاد ذاكرة تجميعية لتسجل مايقوم به الفرد أو الدولة حتى يمكن الرجوع إليها فى المستقبل للبرهنة على أفعاله وأفكاره وربطها بالماضى الذى لاغنى عنه ، وبتكاثر المعلومات على مر السنين ظهرت الحاجة إلى تجميعها فى مستودعات أطلق عليها ألفاظ كثيرة منها المكتبة والأرشيف ومركز المعلومات ، وقاعدة البيانات ، وبنك المعلومات ... إلخ(٢) .

أما بداية الاهتمام الجدى بظاهرة المعلومات المعاصرة فترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر عندما ظهرت الجرائد ونظم الاتصالات من بعد (مثل التلغراف) ، إلا أنه فى الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية بزغت تطورات واضحة فيما يتعلق بالمعلومات وتكنولوجيتها ، فقـــد انتشرت وسائل الاتصالات الجماهيرية من تلفزيون وإذاعه وغيرها ، ودخلت الحاسبات الآلية فى معظم أنشطة المجتمع كما انتشرت على نطاق واسع أنواع أخرى من المعلومات المسجلة أو المطبوعة بجانب تطورات النسخ المصغر بالأشكال الميكروفيلمية والميكرفيش وغيرها .

ويتنبأ الكثيرون بأن العالم سيشهد فيما بقى من هذا القرن ، والقرن الحادى والعشرين تحولا كبيرا فى تاريخ البشرية بسبب التطورات التكنولوجية

(١) دكتور محمد فتحى عبد الهادى : مقدمة فى علم المعلومات ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨٤ ص ٣٠٠ .

(٢) دكتور محمد محمد الهادى : نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، دار الشروق القاهرة ١٩٨٩ م ص ٥٣ .

التي مر بها الإنسان منذ اختراع الآلة البخارية وهي أساس الثورة الصناعية الأولى ، وبزوغ الثورة الصناعية المرتكزة على البترول والكهرباء ، أما حقبة مابعد الثورة الصناعية فإنها تتمثل في ظهور معالم ثورة المعلومات وما تمثله من تقنيات الحاسبات الآلية والاتصالات والمصغرات الفيلمية التي تتعامل كلها مع المعلومة ، وبدأت معالم هذه الثورة المعلوماتية تتضح وتتراءى للبشر وأثرت على الحياة المعاصرة ، كما امتدت آثارها إلى كل أنشطة المجتمع المعاصر ، ويلاحظ أن كل ذلك يختص بالمعلومات كمورد وقوة أساسية أصبحت عصب أي جهد معاصر وجوهره(١) .

وفي هذا العصر تنوعت مصادر المعلومات وتعددت أشكالها بصورة لم يسبق لها مثيل ، ولم يعد الكتاب هو الوسيلة الوحيدة لنقل المعرفة ، فقد ظهرت إلى جواره الدوريات ، وتقارير البحوث ، والدراسات التي تقدم إلى الندوات والمؤتمرات ، والرسائل الجامعية ، وبراءات الاختراع ، والمعايير الموحدة ، والمواصفات القياسية ، وتقارير تقويم التجارب ، وغيرها ، وظهرت إلى جانب تسجيل المعلومات في صورة مكتوبة لأغراض القراءة وسائل أخرى تتجه إلى سمع الإنسان وبصره مثل الأسطوانة والشرائح والشفافات والصور والتسجيلات الصوتية والمرئية(٢) أي ماتحمله الأوعية غير التقليدية كالأدوات السمعية والبصرية وأوعية الاختزان الآلية والالكترونية من معلومات(٣) .

وقد شهدت القرون الأخيرة تطورا سريعا ومتلاحقا في حركة النشر

(١) المرجع السابق ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) دكتور محمد فتحي عبد الهادي : مقدمة في علم المعلومات ، مرجع سابق ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) دكتور محمد محمد الهادي : نظم المعلومات في المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٠ .

العلمى ، فعندما أنشئت الجمعية العلمية الملكية فى لندن سنة ١٦٦١ لم يكن يوجد فى العالم أية مجلات علمية ، ومن المحتمل أن يكون عالم مثل نيوتن Newton قد قرأ كل ما كتب ونشر فى مجال العلوم فى زمنه ، أما منذ ذلك الوقت فإن الكتابات العلمية تتضاعف كل خمس عشره سنة تقريباً، أى أن كمية الكتابات العلمية تتزايد مائة مرة كل قرن من الزمان ، وبهذه الزيادة الضخمة المتصلة بمخرجات المعلومات ، أصبح من الضرورى إعداد أدلة وفهارس وكشافات تساعد العلماء والباحثين والقراء فى التعرف على المعلومات فى الموضوعات المختلفة التى يريدون الاستفادة منها ، بل إن هذه المهمة أصبحت من الصعوبة بمكان ، إذ تضخم عدد الأدلة والكشافات والفهارس ونما حجمها حتى أن عددها الحالى أصبح يقدر بحجم كل الكتابات أو المعلومات العلمية التى صدرت منذ مائة سنة(١).

وتدلنا بعض التقارير . والإحصاءات على صورة تفجر المعلومات الذى نتحدث عنه ، ونختار منها مجال الدوريات ، فإن أكثر التقارير تحفظا تشير إلى أنه صدر فى العالم مايزيد على ٩٠٠,٠٠٠ دورية مطبوعة أو شبه مطبوعة ، وأن ما يصدر كل عام يدور حول ٥٠٠,٠٠٠ دورية على المستوى العالمى ، وأن معدل الزيادة السنوية فى عدد الدوريات يصل إلى حوالى ١٥,٠٠٠ دورية (٢).

وشهدت السنوات الأخيرة انفجارا هائلا فى حجم ما يطبع وينشر فى كل مجال من المجالات المتخصصة ، وعلى سبيل المثال فإن محرر باب العلوم فى الصحيفة عليه أن يقرأ كل عام ما يزيد على مليون مقالة نشرت فى الدوريات العلمية والتكنولوجية . وهذا المليون هو فقط حصر للمقالات التى تحتوى

(١) محمد محمد الهادى (دكتور) : نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦١ .

(٢) شعبان عبد العزيز خليفة (دكتور) الدوريات فى المكتبات ومراكز المعلومات ، العربى للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٠ ص ٣٥-٣٦ .

على معلومات وأفكار جديدة غير مكررة ، وإلا لزاد العدد بكثير وتد فرض ذلك على المكتبات ومراكز المعلومات ليس فقط تطوير النظم التقليدية من تزويد وفهرسة وتأليف ورؤوس موضوعات وخدمات ببليوجرافية ، بل برزت إلى الوجود خدمات جديدة مثل خدمة التوثيق وخدمة البث الانتقائي للمعلومات بهدف توفير المعلومات المطلوبة لأغراض محددة في الوقت المناسب .

كما استخدمت أفضل النظم لحفظ واسترجاع المعلومات ، وذلك من خلال الوسائل التقليدية أو غير التقليدية كتلك التي تستخدم الحاسبات الالكترونية ، وليست بنوك المعلومات التي تمتد في شبكات متكاملة من التنسيق والتعاون عبر العالم كله ، إلا وسائل حديثة استحدثها الموثقون لإعداد المعلومات وتكشيفها واسترجاعها بواسطة الحاسبات الالكترونية حتى يستطيعوا الوفاء بأغراض خدمة المعلومات على أكفأ المستويات[١] .

ويرى علماء الاقتصاد السياسي أن الثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة تتمثل في ثلاثة مجالات رئيسية هي ثورة تكنولوجيا المعلومات ، وثورة التكنولوجيا الحيوية ، وثورة تكنولوجيا المواد . ويرون أن ثورة تكنولوجيا المعلومات تتعلق بجمع وتوصيل وتخزين واستعادة ومعالجة وتحليل المعلومات . وتقوم على الربط بين التكنولوجيا المبنية على الالكترونات الدقيقة وصناعة المعلومات وتتصف تكنولوجيا الالكترونات الدقيقة بسمات أهمها أنها ذات كثافة علمية شديدة ، كما تتميز بشدة كثافة رأس المال فيها ، وبتركيز شديد على النطاق العالمي[٢] .

ونظرا لحقيقة أن المعرفة الإنسانية تتضاعف كل ثمانية إلى عشرة أعوام ،

---

(١) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) وآخرون : مراكز المعلومات الصحفية ، دار المريخ الرياض د . ت ص ٧ .

(٢) فؤاد مرسي (دكتور) : الرأسمالية تجدد نفسها ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٠ ص ٣٧ .

فإن هذه الظاهرة قد قادت إلى أهمية التشغيل الذاتى ، وأهمية الأوتوماتية فى معالجة المعلومات ، ومن هذا الاندماج التدريجى بين تكنولوجيا الاتصالات وتكنولوجيا الحاسبات فظهرت تكنولوجيا المعلومات ، وقامت النظم الحديثة للمعلومات بمالها من طاقات هائلة على التخزين والمعالجة والنقل ، وأتاحت بذلك وسيلة سريعة لعدد متزايد من الناس والمؤسسات فى مجال البحث عن المعلومات ، وهكذا أصبحت المعلومات موردا اقتصاديا فى حد ذاتها ، تتطلب مستوى عاليا من الكفاءة حتى يمكن جمعها ومعالجتها ، وبثها مرة أخرى بعد أن تمت معالجتها ، بحيث توضع فى صورة مناسبة للمستخدم النهائى لها : لصناع القرارات والمخططين والباحثين والعلماء والجمهور العريض المتلقى للمعلومات.

وأصبحت المعلومات سلعة جديدة لها سوقها الواسعة محليا وعالميا ، وفى الولايات المتحدة فإن حصة قطاع المعلومات وصلت إلى ٥٢ ٪ من الناتج القومى فى عام ١٩٨٠ ، ومن المتوقع أن تصل إلى ٨٠ ٪ عام ١٩٩٠ ، كما أن ما حققته الشركات العاملة فى مجال الحاسبات ونظم وسائل الاتصال من أرباح يمثل ٤٣ ٪ من اجمالى أرباح الشركات الأمريكية طبقا لبيانات عام ١٩٨٠ ، ويتوقع أن يصل حجم مبيعاتها إلى ٢٥٠ مليار دولار عام ١٩٩٠ (١).

مشكلة المعلومات وظهور علم المعلومات :ـ

أصبحت ظاهرة تفجر المعلومات مشكلة رئيسية تواجه الإنسان المعاصر، وإذا كان أساس هذه المشكلة هو الكم الهائل الذى ينشر من المعلومات ، فإن هناك عناصر أخرى لهذه المشكلة ، منها التفتت أو التخصص المتزايد فى العلوم ، وماسببه من تشتت كبير فى الإنتاج الفكرى الذى يحتاجه الباحث المتخصص ، وتنوع أشكال النشر العلمى ، وتزايد عدد اللغات التى تنشر بها المعلومات المفيدة ، والتكاليف المتزايدة للنشر ، وما نتج عنها من ارتفاع

(١) فؤاد مرسى (دكتور) الرأسمالية تجدد نفسها ، مرجع سابق ص٣٨ –٣٩ .

كبير فى أسعار المطبوعات ، وتأخر بث المعلومات خلال قنوات الاتصال الرسمية .

وفى مواجهة مشكلة تفجر المعلومات هذه بذل الإنسان محاولات للتعرف على المعلومات واختيارها ، وتجهيزها وتخزينها واسترجاعها وبثها بغية الاستفادة القصوى منها ، كما اتجه إلى دراسة كيفية اتصال الإنسان بزميله مهما بعد الزمن والمكان ، ومحاولة اكتشاف طرق وأساليب أفضل للحصول على المعلومات المناسبة للشخص المحتاج إليها .

وقد أدى هذا التطور فى تفجير المعلومات والحاجة إليها وتغلغلها فى كل جوانب حياة الإنسان إلى ظهور علم المعلومات ، وإن كان قد سبقه فى الظهور تاريخيا ، علم المكتبات ، و (التوثيق) و (استرجاع المعلومات) و (التنظيم الببليوجرافى) ، التى تفاعلت مع علوم أخرى متعددة ، مع الاستفادة بكل من (نظرية المعلومات) و (السيبرناطيقا)[٢] .

وقد وضعت تعريفات كثيرة لعلم المعلومات ، بعضها مختصر وبعضها مفصل ، وبعضها يحاول تلافى القصور فى البعض الآخر ، وليس هنا مجال يسمح بالمقارنة بين هذه التعريفات ، ولكننا نختار منها تعريفا نرى أنه جامع لكل سمات هذا العلم ، وهو التعريف الذى قدمه الأستاذ روبرت تايلور R. Taylor عام ١٩٦٧ فى خطابه الذى وجهه لأعضاء مكتب التوثيق الأمريكى Amirican Institute of Decumentation يقول فيه إن « علم المعلومات هو العلم الذى يبحث فى خصائص وسلوك المعلومات ، والقوى التى تتحكم فى عملية نقلها ، والتكنولوجيا الضرورية فى معالجتها ، بغية الوصول المباشر والاستخدام الأمثل للمعلومات ، ويشتمل اهتمام علم المعلومات على تمثيل المعلومات فى كل من النظم المادية والاصطناعية ،

---

(١) أنظر : محمد فتحى عبدالهادى : مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٥٥ ، ومحمد محمد الهادى : نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ص ٦٤ .

واستخدام الرموز أو الشفرات فى ارسال وتخزين وطلب الرسائل بفعالية ، ودراسة أساليب ووسائل معالجة المعلومات المتمثلة فى الحسابات الآلية ونظم برمجتها . . كما أن علم المعلومات يمثل مجالا من مجالات المعرفة الذى يتداخل مع غيره من العلوم الأخرى ، فيرتبط بالرياضيات ، والمنطق ، واللغويات ، وعلم النفس ، وتكنولوجيا الحاسبات الآلية وبحوث العمليات وعلم المكتبات ، والاتصال ، والإدارة ، وغيرها ، كما يشتمل علم المعلومات على مكونات كل من العلوم البحتة التى تقدم تساؤلات فى الموضوع دون الدخول فى التطبيقات ، والعلوم التطبيقية التى تسهم فى تطوير الخدمات والمنتجات(١).

وقد لاقى هذا التعريف قبولا مما أدى إلى تغير اسم معهد التوثيق الأمريكى إلى الجمعية الأمريكية لعلم المعلومات American Society of Information Science (ASIS) وأدى إلى انتشار مفهوم المعلومات بعدئذ .

مفهوم (المعلومات) ومفهوم (نظم المعلومات) : ـ نتناول بالشرح فى هذا الجزء مفهوم كلمة (المعلومات) ومفهوم (النظم) عموما و (نظم المعلومات) بصفة خاصة ، ثم نصل إلى الحديث عن (نظم المعلومات) فى المؤسسات الصحفية والاتجاهات الحديثة فى أدائها لوظائفها .

مفهوم المعلومات : ـ المعلومات هى الأفكار والحقائق عن الناس والأشياء . . الخ ، أو هى أية معرفة تكتسب من خلال الاتصال أو البحث أو التعليم أو الملاحظة(٢) .

أو أن المعلومات هى البيانات التى تمت معالجتها لتحقيق هدف معين أو لاستعمال محدد ، لأغراض اتخاذ القرارات ، أى البيانات التى أصبح لها

---

(١) محمد محمد الهادى (دكتور) نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة . مرجع سابق ص ٦٤ .

(٢) محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ١٣ .

قيمة بعد تحليلها أو تفسيرها أو تجميعها فى شكل ذى معنى والتى يمكن تداولها وتسجيلها ونشرها وتوزيعها فى صورة رسمية أو غير رسمية وفى أى شكل[١] .

وهناك تعريف للمعلومات يهتم بالاختلاف بين كلمة (المعلومات) وكلمة البيانات المستخدمتان بطريقة مترادفة فى كثير من الأحيان ، إلا أنهما يختلفان فى المعنى ، وإن كانتا ترتبطان معا فى مستوى المضمون ، على أنه يمكن تعريف كل من اللفظين على النحو التالى :

(ا) البيانات : أو المعطيات وهى مشتقة من كلمة (بين) ومنها (البيان) أى مايتبين به الشىء من الدلالة وغيرها[٢] ، وهى مايطلق عليه باللغة اللاتينية (Datum) والتى استخدمت فى اللغة الإنجليزية كما هى ، بينما تستخدم فى اللغة الفرنسية (Donnée) ، وتعبر عن الأرقام والكلمات والرموز والحقائق أو الإحصاءات الخام التى لا علاقة بين بعضها وبعض ، ولم تفسر أو تستخدم بعد ، أى ليس لها معنى حقيقى ، ولا تؤثر فى رد فعل أو سلوك من يستقبلها. أى أن البعض ينظر إليها فيما يتصل بعدم تقويمها ، بينما يعرفها البعض الآخر بأنها غير منتظمة ، كما يعرفها فريق ثالث بأنها غير مفسرة ، وبذلك فإن البيانات هى الحقائق أو الرسائل أو الإشارات غير المقومة ، وغير المنظمة ، وغير المفسرة .

(ب) أما المعلومات فينظر إليها على أنها بيانات قومت ونظمت وفسرت بغية الاستخدام ، أى أصبح لها مضمون ذو معنى معين يؤثر فى الاتجاه ورد

---

(١) أحمد الشامى ، وسيد حسب الله (دكتور) : المعجم الموضوعى لمصطلحات المكتبات والمعلومات ، دار المريخ ، الرياض ١٩٨٨ ص ٥٦٩ .

(٢) مختار الصحاح : محمد بن بكر عبد القادر الرازى ، وتصحيح محمود خاطر ط ٥ ، المطبعة الأميرية ١٩١٦ ص ٤٥٢ .

الفعلى والسلوك[1] . ومن ثم تكون البيانات هى المـــادة الخام التى تصنع منها المعلومات .

نظام المعلومات فى المؤسسات العامة والمؤسسات الصحفية :

أولا ـ معنى النظام بصفة عامة : يعرف النظام « أو النسق » System فى قاموس علم الاجتماع بأنه : « تنظيم ينطوى على أجزاء مترابطة تتميز بالاعتماد المتبادل ويشكل وحدة واحدة ، على أن النسق يعتبر نموذجا تصوريا يستخدم لتيسير فحص الظواهر المعقدة وتحليلها . وعلى الرغم من أن النسق يمثل تجريدا من نسق أكبر منه ، إلا أنه يعالج كما لو لم يكن جزءا من كل »[2] .

أما علماء الإدارة فإنهم يقدمون التعريف التالى للنظام : « يشير لفظ نظام إلى العلاقات الوظيفية التى تربط مجموعة أجزاء أو وحدات بغرض التوصل إلى أهداف معينه ، هذه الأهداف هى مبرر وجود النظام ، فمثلا الإنسان الفرد يعتبر نظاما ، والحيوان من حيث هو كائن حى يعتبر نظاما أيضا ، والمنظمه مهما كان نوعها أو حجمها تعتبر نظاما .

« وكل نظام يتكون من عدة أنظمه فرعية ، وفى الوقت نفسه هو نظام فرعى فى نظام أكبر وأشمل ، وتتحقق أهداف النظام من خلال عمليه منظمه لقبول مدخـــلات وإنتاج مخرجات بحيث تتفاعل أجزاء النظام الفرعية وتتبادل التأثير مع النظام الأكبر ، وتتوامم أهداف النظام مع النظم الأخرى فى البيئه المحيطة »[3] .

---

(١) محمد محمد الهادى (دكتور) : نظام المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) عاطف غيث (دكتور) قاموس علم الاجتماع ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٩ ص ٤٨٠ .

(٣) صالح سلطان (دكتور) نظم المعلومات ومجتمع المعلومات ، مذكرة غير منشورة ، أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ، د . ت . ص ١ .

وبناء على المفهوم السابق تتحدد الخصائص المميزة للنظام .

خصائص النظام :ـ

١ ـ أن النظام ينشأ بقصد تحقيق هدف أو أهداف معينة ، وهذا يعني أن وجوده مقصود ووفقا لخطة ، سواء كان نظاما مخلوقا أو نظاما مصنوعا .

٢ ـ أن النظام يتكون من عدة أنظمة (أجزاء) فرعيه ، وهو جزء من نظام أكبر .

٣ ـ أن كفاءة وفعالية النظام يتوقفان على كفاءة وفعالية النظم الفرعية المكونة له .

٤ ـ أن النظام مفتوح يتفاعل مع النظم الأخرى فى البيئة المحلية ويتبادل التأثير معها .

٥ ـ النظام يحقق التكيف والضبط الذاتى من خلال مايسمى بارتداد الأثر أو التغذية المرتدة .

٦ ـ يتميز النظام بالديناميكية ، أو قابليته للتغير وفقا لتغير الظروف المحيطه ، وهذا يحتم مراجعته وتقييمه من آن لآخر لإجراء التعديلات التى تحقق التوازن والمواءمه مع مايحدث من تطور[1] .

ثانيا : نظام المعلومات : Information System بصفة عامة هو نظام يمكن من تجهيز وتوصيل المعلومات ، أو هو إجراء منظم لتجميع المعلومات الموثقة وتجهيزها واختزانها واسترجاعها لارضاء حاجات متنوعة[2] .

وترجع أهمية إنشاء نظم معلومات فى المنظمات الحديثة إلى أن هذه المنظمات تتميز باتساع مجالات نشاطها ، وضخامه حجم العمليات وعدد العاملين ، بالإضافه إلى تشابك العلاقات مع كثير من العملاء والموردين

---

(١) المصدر السابق ص ٢ .

(٢) محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٣٠٥ .

...ة ، لـكل هذا أصبح قنوات تدفق المعلو
...د المعلومات اللازمة لإنجاز الأنشطة بالـكفا
...برز الضرورة الملحة لوجود هيكل منظم لتداول
...يمه وفقا لفلسفة أنه أداة لخدمة الإدارة لتحقيق الأهداف

...المعلومات فى حد ذاته نظام لإنتاج المعلومات من خلال القيام
...البيانات التى تم جمعها والحصول عليها من مصادرها المختلفة إلى
...معلومات بحيث توضع تحت تصرف المشتواين فى مراكز اتخاذ
...رارات أو تستخدم كمدخلات لنظام معلومات أخرى .

وهكذا يمكن القول إن نظام المعلومات هو ذلك التنظيم الذى يحكم نقل
المعلومات من منتجها إلى المستفيدين منها ، وعموما فإنه ينبغى على نظام
المعلومات أن يرمى إلى ثلاثة متطلبات أساسية هى :

١ ـ أن يكون قادرا أن يعلم أو يخبر المستفيد أين يجـــد المعلومات
التى يريدها .

٢ ـ أن يكون النظام قادرا على نقل هذه المعلومات له عندما يقرر أنه
يرغب فيها .

٣ ـ أن يرد على أسئلة المستفيد فى إطار حدود الوقت الذى يراه المستفيد
من المعلومات مناسبا .

وقد اكتسبت نظم المعلومات أهمية كبيرة فى المجتمعات المتقدمة والنامية
على حد سواء لما لها من دور ملموس فى إنجاز عمليات التخطيط والتنمية على
أحسن وجه ممكن ، ونظام المعلومات فى أى مجتمع إنما هو بمثابة الجهاز
العصبى فى جسم الإنسان فبقدر قوة النظام وسلامته واستقامة قنواته بقدر
... لهذا المجتمع مقومات القوة والإزدهار(١) :

(١) ... د الهادى (دكتور) : مقدمة فى علم المعلومات مرجع سابق

رابعاً : نظام المعلومات فى المؤسسات الصحفية :

وإذا كان التعريف المذكور لنظام المعلومات ينطبق على نظم المعلومات في المؤسسات بصفة عامة ، فإننا يجب أن نفرق بين نظام المعلومات فى مؤسسات إنتاج السلع والخدمات فى المجتمع وبين نظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية .

وإذا كانت مؤسسة ما فى المجتمع تقوم تقوم بإنتاج سلعة أو خدمة فإن نظام المعلومات فيها يميل إلى التخصص فى إنتاج المعلومات المتعلقة بهذه الخدمة أو السلعة ، معلومات عن حاجة المستهلكين إليها ، المؤسسات المنافسة فى الإنتاج ، حجم الإنتاج المطلوب ، التطورات التى تحدث فى إنتاج هذه السلعة فى المؤسسات الأخرى على مستوى الدولة والعالم ، بيانات نوعية عن جمهور العاملين فى المؤسسة ، وميزانيتها وعملائها ومنافسيها وأسواقها ، وعلاقاتها المختلفة وغير ذلك .

وإذا كان نظام المعلومات فى أية مؤسسة يخدم هذه المؤسسة فى مجال نشاطها الذى تخصصت فيه فى المجتمع ، فإن نظام المعلومات فى المؤسسات الصحفية يتميز بالشمول الذى يناسب شمول نشاط المؤسسة الصحفية والذى يقوم على الأخبار والمعلومات والأفكار . إن المؤسسات الصحفية وبخاصة تلك التى تصدر مجلات وجرائد عامة - تهتم بالإعلام والثقافة بالمعنى الشامل فى المجتمع كله ، ومن ثم بكل أنواع النشاط الإنسانى فى المجتمع ، ومن ثم فإن نظام المعلومات فى المؤسسات الصحفية ينبغى أن يمتد ليشمل ذلك كله أيضا . فيكون قادراً على إمداد المستفيدين - وهم الصحفيون بخاصة - بمعلومات عن كل أنواع النشاط الإنسانى ، والمعرفة الإنسانية ، والقضايا المطروحة كل فى مجال تخصصه وإهتمامه فى عمله الصحفى .

= ص ١٩٢ وحشمت قاسم (دكتور) نظم اختزان المعلومات واسترجاعها ، المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس القاهرة ١٩٧٨ ص ٢ .

تقدم تكنولوجيا المعلومات ونظم المعلومات الصحفية : لانهدف هنا إلى شرح عمل نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية سواء منها النظم التقليدية أو تلك التى أدت تكنولوجيا المعلومات إلى تطورها ولكننا نحاول أن نبين أثر تقدم تكنولوجيا المعلومات فى عمل نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية ، خاصة بعد ماذكرناه من تفجر المعلومات وزيادتها زيادة هائلة ، وكيف أثر هذا التقدم على عمل هذه النظم فى المراحل الآتية :

١ - طرق الحصول على البيانات من مصادرها ، وأنواع هذه البيانات ، واختيارها (مدخلات النظام) .

٢ - معالجة البيانات أو تشغيلها أى تحويلها إلى تقارير معلومات بالإضافة إلى عمليات الفهرسه والتصنيف والتكشيف والحفظ والتخزين .

٣ - خدمات المعلومات ، الاسترجاع ، والبث الانتقائى ، وإجابة الاستفسارات ، ونقل وتوصيل المعلومات إلى المستفيدين (مخرجات النظام) .

أولا : الحصول على البيانات : تعتبر وظيفة تجميع المعلومات من مصادرها المختلفة والمتنوعة المهمة الأساسية الأولى التى على أساسها بنيت نظم المعلومات المعاصرة بأشكالها وأبعادها المختلفة والمؤسسات الصحفية من المنظمات المعاصره التى تكتسب فيها المعلومات أهمية قصوى فى العمل الصحفى والعمل الإدارى على السواء .

وتنقسم مصادر المعلومات فى مراكز المعلومات الصحفية إلى المجموعات التالية :

١ - مجموعات القصاصات والصور والخرائط والنشرات .

٢ - مجموعات المراجع والكتب والدوريات (والمقصود بالمراجع فى نظم المعلومات الصحفية تلك التى تعتمد عليها فى مراجعة تصحيح أسماء

الأشخاص والأماكن والدول والتواريخ والأرقام ، مثل الموسوعات ، ودوائر المعارف . والقواميس اللغوية ، ومعاجم المصطلحات ، والقوائم البيليوجرافية ، والكشافات ، ونشرات المستخلصات ، والموجزات الإرشادية ، ومختصرات الحقائق ، والأطالس ، وأدلة الأفراد والهيئات والجداول الإحصائية ، وكثيرا ما يكون لهذه المراجع قسم خاص فى مركز المعلومات) .

٣ - مجموعات المواد السمعية والبصرية والمواد الميكروفيلمية .

والواقع أن مراكز المعلومات فى المؤسسات الصحفية تواجه سيلا لا ينقطع من المواد ، وعليها أن تختار منها مايتوافق مع سياسة مرسومة ، وما يمكن أن يحقق أهدافها لا فى الوقت الحالى فقط ولكن فى المستقبل أيضا ، حيث أن المفاجآت فى العمل الصحفى كثيرة ولا تتحمل الانتظار(١) .

وتضع الصحف عددا من القواعد لاختيار هذه المواد منها : جدة المعلومات وطرافتها ، وملاءمتها للاستخدام ، والحاجة إليها ، وتجنب التكرار ، وخطط الحفظ وسياسة الاستهلاك(٢) . وتشعر مراكز المعلومات بمسئوليتها عن توفير المعلومات اللازمة للعمل الصحفى فتلجأ إلى وسيلة لسد الثغرات الموجودة لديها وترسل مندوبيها للبحث عن المعلومات فى مصادرها المختلفة ، كما تصمم نماذج ترسلها للاستكمال لكى تضمن أنها تحصل على البيانات الضرورية .

وقد تطورت وسائل تزويد نظام المعلومات الصحفية بالمعلومات تطورا كبيرا بظهـــور مايعرف بالمرافق البيليوجرافية Bibliographic Utilities

---

(١) محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) . مراكز المعلومات الصحفية ، مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢) أبو الفتوح حامد عودة : تنظيم المعلومات الصحفية فى الأرشيف والمكتبات مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٠ .

وهى مرافق يمكنها أن توزع مختزناتها من المعلومات فى وقت واحد فى مواقع عديدة قد تبلغ الآلاف ، وعلى بعد مسافات كبيرة قد تصل إلى إلى مئات الأميال أو الآلاف ، وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنها توزع المعلومات على المستفيدين بالطريقة نفسها التى تقوم بها المرافق الأخرى المألوفة فى توزيع الماء والغاز والكهرباء .

وهذه المرافق استطاعت أن تستخدم معطيات تكنولوجيا الاتصالات السلكية واللاسلكية لتمزج فيها بين إستخدام التليفون والفاكسميل وكابلات الميكروويف ، والأقمار الصناعية ، والنهايات الطرفية لأجهزة الحاسب الالكترونى فى إرسال المعلومات المختزنة واستيعابها عبر مسافات بعيدة داخل الدولة الواحدة وخارجها[1]، وهذا التطور الحديث فى الحصول على المعلومات سوف يكون له تأثير فى المستقبل القريب على كل مراكز المعلومات فى المؤسسات الصحفية .

ثانيا ـ تنظيم المعلومات وتحليلها والمعالجة الفنية لها : وتقوم على ثلاثة محاور رئيسية هى : الفهرسة والتصنيف، والتحليل الموضوعى أو التكشيف، ولقد كانت هذه العمليات ورقية منذ عرفت فنون الفهرسة والتكشيف ، ولكنها أصبحت اليكترونية فى السنوات الأخيرة حين إستخدم فيها الحاسب الآلى .

وقد حفلت الأبحاث العربية فى الأرشيف والمكتبة الصحفية التى ظهرت منذ ستينات هذا القرن بشرح عمليات الفهرسة والتصنيف والتكشيف ويمكن الرجوع إليها فى ذلك .

(١) سعد محمد الهجرسى (دكتور) : الكتب وبنوك المعلومات ، وقائع الحاضر وتوقعات المستقبل ، القاهرة ، مجلة عالم الكتبات ، يوليو ، أغسطس ، سبتمبر سنة ١٩٨٤ ، ص ٢ .

وفى نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية هناك فئتان من الذين يتعاملون مع هذه الفنون المذكورة : الذين ينشئونها وهم أخصائيو المعلومات العاملون فى نظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية وهؤلاء يفترض فيهم أنهم قد درسوا الفهرسة والتصنيف دراسة منهجية ، والفئة الثانية وهم الصحفيون وغيرهم من العاملين فى المؤسسة وهؤلاء يحتاجون إلى تدريبهم على هـذه الفنون وعلى غيرها مما يفيدهم فى تعاملهم مع نظام المعلومات .

وهناك طريقتان للتعامل مع المستخدمين للمعلومات فى نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية هما طريقة النظام المغلق وطريقة النظام المفتوح .

فالنظام المغلق يعد واجهة لإستقبال مستخدمى المعلومات يجلس عليها واحد أو أكثر من أخصائيي المعلومات يلبون طلبات المستخدمين ومن ثم لايسمح لمستخدمى المعلومات باستعمال الفهارس أو الجلوس داخل مركز المعلومات حيث يلبى الأخصائيون فى المركز طلباتهم فقط .

والنظام المفتوح ، وفيه يسمح لمستخدمى المعلومات إستعمال الفهارس وإستخراج المعلومات بأنفسهم ، وتعد فيه مقاعد ومناضد لجلوسهم للحصول على المعلومات من الملفات وغيرها .

وعلى أية حال فإنه حتى فى النظام المفتوح ، فإن بحث مستخدمى المعلومات عن متطلباتهم ينبغى أن يكون تحت إشراف أخصائى المعلومات فى المركز ، وينبغى ـ أيضاً ـ أن يكونوا على استعداد لتقديم العون لمستخدم المعلومات بالدقة والسرعة اللازمتين .

والمركز المفتوح ميزات يتفوق بها على المركز المغلق ، لأن تجربة البحث عن المعلومات فى حد ذاتها تفتح أمام الصحفى آفاقا جديدة ، وتثرى عمله الصحفى ، وتكون لديه اتجاها للحصول على المعلومات والإستفادة منها

يستمر معه دائما ، والقنوات المفتوحة - بصفة مستمرة - بين العمل الصحفى ومركز المعلومات فى المؤسسة الصحفية ترفع من مستوى العمل الصحفى وتجعله أكثر دقة ومنافسة للعمل الصحفى فى المؤسسات الصحفية الأخرى ، ويمكن أن يساهم فى تحقيق ذلك مايلى :

١ - - تدريس مقرر دارسى عن « نظم المعلومات فى المؤسسات الصحفية » لطلاب الصحافة فى الجامعات .

٢ - تدريب الصحفيين على التعامل مع نظم المعلومات فى المؤسسة وكيفية الاستفادة منها وتعريفهم بما تختزنه من معلومات تفيدهم كل فى مجال عمله .

وأهم التطورات الحديثة فى تنظيم المعلومات وتحليلها ومعالجتها فنيا تتمثل فى استخدام الحاسب الآلى فى هذه العمليات وفى استخدام المصغرات الفلمية حيث تتحول عمليات حفظ وتخزين المعلومات من الأوعية الورقية إلى الأوعية المقروءة آليا بواسطة الكمبيوتر وإلى المصغرات الفلمية .

فالمكتبات ومراكز المعلومات فى الحاضر والمستقبل ستفسح داخلها مكانا للنهايات الطرفية ذات الاتصال المباشر On Line[١] بقواعد البيانات المحلية والأجنبية على حد سواء ، وسيتحول أخصائيو المعلومات والتوثيق وأمناء المكتبات وغيرهم من القيام بالمهام التقليدية إلى الوظائف الأساسية الجديدة التى يقوم فيها الكمبيوتر بالدور الأساسى إمتدادا للعقل البشرى فى إنتاج المعلومات .

---

(١) الاتصال المباشر On Line هو ربط مستفيد على بعد بالحاسب الآلى المركزى من خلال وسيلة اتصال مستمرة . انظر : محمد فتحى عبد الهادى : مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٢٩٩ .

ومن المتوقع أن يكون لقواعد البيانات(١) دور هام فى تدعيم الرسالة التى تضطلع بها مراكز المعلومات والمكتبات فيتوفر حاليا عدد ضخم من قواعد المعلومات التى تستخدم الكمبيوتر وتوفر خدماتها لمستخدمى المعلومات بتكاليف غير باهظة ، بل إن إحدى مؤسسات خدمات المعلومات وهى شركة Dialog Information Service Inc فى الولايات المتحدة الأمريكية توفر مئات من قواعد البيانات التى يمكن الوصول إليها من بعد من جميع أنحاء العالم .

وبالإضافة إلى الاختراعات الحديثة فى مجال تكنولوجيا المعلومات، فإن أقراص الفديو ، والأقراص الضوئية تقدم دعامة كبيرة فى أعمال المكتبات ومراكز المعلومات فى تخزين البيانات الببليوجرافية وتوزيعها ، فالقرص الضوئى الواحد يمكن أن يستوعب مايعادل ١٢٫٥ بليون حرف أو بايت، واستخدام نصوص الفديو سيمكن من عرض النصوص والرسومات وقراءتها كما تقرأ نصوص الكتاب ، وكذلك البريد الأليكترونى وصور الفاكسميل سوف تمكن من إرسال الرسائل وصفحات النصوص بطريقة فورية (٢).

أمثلة لاستخدامات الكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصال فى معالجة البيانات وتخزينها واسترجاعها :

إن التطورات الأخيرة فى النشر ومعالجة البيانات وتخزينها واسترجاعها اليكترونيا تمكن من استرجاع جزء أو أجزاء من نص مخزن فى الحاسب

(١) قاعدة المعلومات أو مرصد المعلومات Data Base هى فايلات (ملفات) تركيبية كبيرة للمعلومات فى شكل مقروء آليا ، ويمكن الاستفادة منها من خلال حاسب اليكترونى . انظر المرجع السابق ص ٣٠٢ .

(٢) راجع : محمد محمد الهادى : تكنولوجيا المعلومات وتطبيقها ، دار الشروق ١٩٨٩ ص ٢٨ و ٣٠، ٣٢، ٣٧٨ .

الآلى للتوصل إلى المعلومات التى يحتويها هذه الجزء دون استرجاع النص بأكمله إذا كان كتابا مخزنا أو دائرة معارف مثلا ، ومن أمثلة النصوص التى يتم معالجتها وتخزينها بهذه الطريقة القواميس ودوائر المعارف وكتب الحقائق وجداول الطيران والنقل البرى والبحرى والأدلة والكشافات وغيرها من من مصادر المعلومات ، وتشكل المعلومات فى هذه المراجع - بحق - مرصد بيانات Data base تختزن فى حاسب أليكترونى أو على شريط ممغنط أو على قرص disk أو فى ذاكره حاسب أو فى شكل كتاب .

وهناك تطور حديث فى تكنولوجيا المعلومات استفاد من استخدام الكمبيوتر فى جمع حروف الطباعة وإخراج المطبوعات من ناحية ، ومن استخدام الكمبيوتر فى معالجة البيانات وتخزينها واسترجاعها من ناحية ثانية ذلك أن مراصد المعلومات Information bases البيبليوجرافية تعتمد أساسا على مراجع وببليوجرافيات على شكل مطبوع ، ونظراً لتطور تكنولوجيا الطباعة التى أصبحت تستخدم الحاسب الآلى فى تجميع الحروف وصفها وإخراج الكتب وغيرها من المطبوعات كان من السهل استخراج شريط ممغنط آخر من المطبوع يرسل إلى مرصد المعلومات، وبعد إدخال تعديلات طفيفة على الشريط يستخدم كبنك معلومات على خط الاتصال المباشر ، وبهذه الطريقة يمكن الآن الحصول على الببليوجرافيا أو المرجع المطبوع بالإضافة إلى وجوده فى مرصد المعلومات ومتاح للبحث فيه عن طريق الخط المباشر(١) .

---

(١) محمد محمد أمان (دكتور): النشر الألكترونى وتأثيره على المكتبة ومراكز المعلومات ، المجلة العربية للمعلومات السنة السادسة عـــدد ١ تونس ١٩٨٥ ص ١٣ ، ١٤ .

ومن أمثلة استخدام الحاسب الآلي في تجميع الببليوجرافيات والقواميس ودوائر المعارف .

قامت جامعة أكسفورد بحفظ قاموسها الشهير Oxford English Dictionary اليكترونيا ووضعه على الخط المباشر ، وتعتبر هذه التجربة خطوة هامة جدا في مجال استخدام قواعد المعلومات Information bases وخدمات الاتصال المباشر في علوم الإنسانيات Hnmanities .

أما شركة بوكر Bowker التي تنشر الببليوجرافيا الشهيرة Book in print وتحصر المطبوعات التي توجد في سوق النشر الأمريكية كل سنة على شكل ببلوجرافيا في شكل مطبوع ، لقد قامت شركة بوكر بحفظ هذا الببليوجرافيا على شكل بنك معلومات في قاعدة لوكهيد .

قامت جمعيه اللغات الحية (M.L.A.) Modern Languages Association باستخدام الحاسب الأليكتروني في تجميع وإخراج مرجعها الهام بعنوان : M. L. A. International Bibliography والتي تشمل ٤٠٫٠٠٠ مدخل على شكل اليكتروني ، في مرصد معلومات مؤسسة (ديالوج) لخدمة المعلومات Dialog Information Service Inc ويتيح هـــذا المرصد البحث في الببليوجرافيا على خط الاتصال المباشر باستخدام رءوس الموضوعات ، وهي طريقة هامة للباحثين الذين يرغبون في البحث عن موضوعات مترابطة .

مهدت تكنولوجيا المعلومات الحديثة لاستخدام خطوط الاتصال المباشر للبحث في الفهارس الأليكترونية للمكتبات Computer online Catalogs والتي بدأت تعم في الكثير من مكتبات الجامعات الكبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية وتعتمد هذه التجارب على الخطة الناجحة التي أتبعها نظام أو سي إل سي O. C.L.C. ونظيره Blaise في بريطانيا ، ونجد الآن العديد من المكتبات الجامعية والعامة التي استغنت عن فهارسها البطاقية ، وتستخدم

بدلا منها الفهارس الآلكترونية التى يبحث القراء والمستفيدون فيها عن طريق الطرفيات المنتشرة فى المكتبة والمدينة الجامعية والمبانى الأخرى فى الجامعة بل يمكن للمستفيد أن يبحث فى هذه الفهارس من منزله أو مكتبه وذلك باستخدام الطرفى أو خط الاتصال التليفونى ، ونجد هـــذه الفهارس الآليكترونية الآن فى مكتبات جامعة اليئوى، وجامعة مانكاتو افى مينيسوتا ومكتبة نيويورك العامة وغيرها[1] .

المصغرات الفيلمية : Microfilms وهو أحد أنواع المصغرات المتعارف عليها فى مراكز المعلومات ، والميكروفيلم عبـــارة عن فيلم تصويرى مصنوع من مادة البلاستيك أو الأسيتات ، وتنتج الأفلام بعروض تتراوح بين ٨ مم و ١٠٥ مم وبأطوال تتراوح بين ٣٠ مترا و ١٢٢ مترا وتعتبر الأفلام عرض ١٦ مم و ٣٥ مم من أكثر الأشكال استخداما .

والمصغرات الفيلمية Microfilms من أكثر أنواع المصغرات استخداما فى مراكز المعلومات فى المؤسسات الصحفية ، حيث لها عدد من الميزات أهمها مايلى :

١ ـ يوفر الحيز حيث يصل هذا التوفير فى الحيز المكانى إلى حوالى ٩٨ ٪ من الحيز المطلوب لحفظ الوثائق والدوريات الأصلية .

٢ ـ إتاحة الحفظ لمـــدة طويلة ، فالمادة التى يصنع منها الفيلم أقوى وأطول عمرا من المواد الورقية .

٣ ـ تحقيق أمن الوثائق التى على درجة من السرية حيث تصـــور على

---

(١) محمد محمد أمان (دكتور) : النشر الأليكترونى وتأثيره على المكتبات ومراكز المعلومات المجلة العربية للمعلومات السنة السادسة العدد الأول تونس سنة ١٩٨٥ ص ١٣ ، ١٥ .

ميكروفيلم يوضع فى خزائن فتصعب قراءتها ، بالإضافة إلى أنه يصعب قراءتها إلا بالأجهزة الخاصة بذلك عكس الوثائق الورقية .

٤ ـ تصوير المواد النادرة مثل المخطوطات والكتب والدوريات النادرة المعرضة للتلف فيمكن الاحتفاظ بصور منها .

ونظرا لصغر حجم المصغرات الفيلمية فلا يمكن قراءتها بالعين المجردة ولذلك يلزم تكبيرها عن طريق عرضها على جهاز عرض يسمى جهاز القراءة أو طبعها واستنساخها على الورق العادى بواسطة جهاز للقراءة والطبع[1] .

ولقد كان إنشاء وحدة تصوير ميكروفيلم هو النواة الأولى : فى (مركز الأهرام لنظم وتكنولوجيا المعلومات) . فلقد انشئت وحـــدة تصوير الميكروفيلم هذه عام ١٩٦٩م عندما تعاظم حجم مشكلة حفظ وتخزين نسخ جريدة الأهرام القديمة منذ صدورها عام ١٨٧٦ م وحتى الآن والتى يضمها أرشيف المحفوظات حيث اعتبرت تاريخا للأهرام وذاكرة لمصر والمنطقة يعود إليها الباحثون والدارسون والمؤرخون . ونتيجة للتداول وطبيعة أماكن الحفظ فقد باتت النسخ القديمة مهددة بالتلف ، ومن هنا رأت مؤسسة الأهرام إنشاء وحدة ميكروفيلم صغيرة تتولى تصوير أعداد الأهرام القديمة وحفظها والبحث عن بديل للتالف والمفقود منها ، وذلك فى المكتبات العامة وعند قراء الأهرام من كبار السن ، وبعد جهد تم إستكمال ٩٩٫٨٪ من كل إعداد الأهرام القديمة وتم تصويرها كلها على المصغرات الفيلمية حسب تسلسلها التاريخى[2] .

---

(١) محمد فتحى عبد الهادى : مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٢٥٦ ـ ٢٦١ .

(٢) جريدة الأهرام ـ ملحق خاص مع العـــدد الصادر فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٨٤ .

المزج بين تكنولوجيا الحاسب الآلى والميكروفيلم : - وقد تم هذا من أجل إيجاد طرق جديدة للتوفيق Harmonise بين القوة الاليكترونية للحاسب الآلى والقوة التسجيلية للفيلم من أجل إنتاج تطبيقات نافعة وقد ظهرت هذه المزاوجة فى ناحيتين :

١ - عندما تزايدت المعلومات المصورة على الأفلام ، أصبح من الضرورى تكشيف هذه الأفلام من أجل إيجاد مكان المعلومة المطلوبة ، ومن أجل هذا اخترع العالم الأمريكى فانفر بوش سنة ١٩٤٦ آلة تسمى MEMEX تستطيع البحث عن المعلومات المسجلة على بكرة الميكروفيلم بطريقة آلية ، وفى الوقت الحاضر تستخدم الحاسبات الإليكترونية لإعداد الكشافات والبحث عن المعلومات المطلوبة ، كما تستخدم أيضا لإيجاد واختيار الصورة المصغرة المطلوبة Mimophotograph من ملف ميكروفيلم كبير جدا .

٢ - إستخدام الحاسبات الالكترونية فى إنتاج الصورة المصغرة على الميكروفيلم ، وبدلا من طبع نتائج طبع الحاسب الاليكترونى أو مخرجاته على ورق فإن الحاسب يبرمج لتشغيل آلة خاصة لتكوين أشكال الحروف والأرقام وعرضها على فيلم .

هذه العملية تتم بسرعة كبيرة جداً لدرجة أن مئات من سوالب الصفحات Page negatives يمكن إنتاجها كل ثانية وهذه الآلات ذات الغرض الخاص تسمى مخرجات الحاسب الاليكترونى على ميكروفيلم(١) .

ثالثا : مخرجات النظام (استرجاع المعلومات والخدمات المتعلقة بها) :

إسترجاع المعلومات للاستفادة بها وتقديم خدمات المعلومات ، وتزويد الصحفيين والكتاب فى المؤسسة الصحفية بها ، هو الهدف من قيام نظام

(١) محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٢٧٣ .

المعلومات فى المؤسسة الصحفية ، ونظم إسترجاع المعلومات هذه هى الهدف من كل الخطوات السابقة الخاصة بتجميع الوثائق والبيانات وتحليلها وعمل الكشافات ونظم التصنيف والمستخلصات والنماذج التى توصفها ، والتحكم فى اللغة المستخدمة بمصطلحاتها الرئيسية ، وتسجيل نتائج التحليل فى أوعية يمكن البحث فيها ، وتخزين مصادر الوثائق فى قاعدة بيانات ، فاسترجاع المعلومات للاستفادة بها وتقديم خدمات المعلومات هى الهدف من كل الإجراءات السابقة .

وأهم الخدمات التى يقوم بها نظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية :

١ ـ خدمات إستخراج المعلومات من المراجع والرد على الأسئلة والاستفسارات .

٢ ـ خدمة تداول أوعية المعلومات .

٣ ـ خدمة التصوير والاستنساخ .

٤ ـ إعداد القوائم الببليوجرافية والكشافات والمستخلصات الخاصة بموضوعات معينة .

٥ ـ خدمة الترجمة .

٦ ـ خدمة الإحاطة الجارية .

٧ ـ خدمة البث الإنتقائى للمعلومات (أى أن مركز المعلومات يقدم المعلومات للفرد مباشرة ، ويصمم الخدمات وفقا لكل باحث بعينه ، فيمده بالمعلومات التى تدخل فى نطاق اختصاصه كل فترة زمنية محددة) .

٨ ـ إصدار النشرات الدورية للمعلومات .

٩ ـ المراجعة (المعلوماتية) لكل ماينشر فى الصحيفة ، ويمكن أن يكون ذلك على السلخ (البروفات) بالطريقة التى يتم بها تصحيح هذه السلخ من الناحية اللغوية والنحوية .

١٠ – تدريب المستفدين وتوعيتهم بخدمات المعلومات(١) وخاصة على المستجدات فى تكنولوجيا المعلومات .

ويعتبر نشر الوعى المعلوماتى وتدريب الصحفيين على إستخراج المعلومات من مصادرها من الواجبات الهامة لنظم المعلومات فى المؤسسة الصحفية ، فكم من الصحفيين – وبخاصة الجدد – يعرف طريقة استخراج المعلومات من دائرة المعارف البريطانية ، وكم منهم يستطيع البحث فى الأطالس والخرائط واستعمال مفاتيحها لمعرفة المدن والدول ومواقعها وظروفها المناخية والطبيعية والاقتصادية والسكانية ، وكم منهم يعرف طريقة الكشف عن معانى الكلمات فى معجم لسان العرب لابن منظور أو القاموس المحيط ، وكم منهم يستطيع أن يستدل على مكان آية فى القرآن الكريم عن طريق إستخدام المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ثم يستخرج تفسيرها من كتب التفسير المعروفة ، وهذه أمثلة فقط ويمكن أن يقال مثلها الكثير عن أمهات كتب اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ والحضارة ، وكذلك عن إستخدام الفهارس والكشافات وكتب التراجم : وإمكانات قواعد ومراصد وشبكات المعلومات المحلية والعالمية وكيفية الاستفادة منها .

نظم المعلومات فى خدمة التحرير الصحفى والإدارة الصحفية :

أولا : فى خدمة التحرير الصحفى :

١ – تحرير الأخبار : حين يقع حدث معين تتوافر فيه عناصر الخبر الصحفى يسارع المندوب الصحفى إلى تغطيته صحيفيا فى موقعه ومن الأشخاص المشاركين فيه فى التو واللحظة ، وتبرز أهمية مراكز المعلومات الصحفية

(١) محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ١٤٣ ومابعدها .

فى المؤسسة الصحفية فى مرحلة التغطية الصحفية للخــبر واستكماله على النحو التالى :

(ا) تنقسم التغطية الصحفية للخبر إلى تغطية تسجيلية أو تقديرية ، وهى التى تهتم بالحصول على التفاصيل والمعلومات الخاصة بحدث تم بالفعل ، وتغطية تمهيدية وهى التى تهتم بالحصول على التفاصل والمعلومات المتعلقة بحدث متوقع أى حدث لم يتم بعد ولكن هناك دلائل تشير إلى احتمال وقوعه ، فإن ، بإن فوز حزب المعارضة بأغلبية فى الإنتخابات النيابية تعنى توقع سقوط الوزارة الحاكمة وتشكيل وزارة جديدة فهنا يقصد بالتغطية التمهيدية محاولة الحصول على معلومات عن رئيس الوزراء القادم ، وأهم المرشحين لتولى المناصب الوزارية الجديدة وموعد إعلان التشكيل الوزارى الجديد[١] ويستفيد المندوب الصحفى فائدة كبيرة من مركز المعلومات للحصول على هذه المعلومات .

(ب) إن الحصول على الغالبية العظمى من الأخبار لا يتم إلا عن طريق إجراء المقابلات مع مصادر الأخبار[٢] ،ومعرفة المندوب الصحفى بمعلومات وافية عن شخصية مصدر المعلومات يسهل مهمته فى الحصول على الأخبار .

(ج) قبل أن يذهب المندوب الصحفى لتغطية خبر معين عليه أن يضع خطة مسبقة متكاملة لجميع جوانب التغطية ، يشمل أحد عناصرها محاولة الحصول على أكبر قدر من المعلومات المتعلقة بحدث معين من مركز المعلومات فى الصحيفة التى يعمل بها ، أو من الكتب الخاصة به ، أو النشرات أو الأبحاث والتقارير المرتبطة بالحدث ، فإن حدث مثلا حريق كبير بفندق

---

(١) فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الخبر الصحفى : دار المأمون للطبع والنشر ، ١٩٨١ ص ٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

مشهور فعلى المندوب الصحفى أن يحاول الحصول على بعض المعلومات من مركز المعلومات فى الصحيفة عن تاريخ بناء هذا الفندق ، وأهم الأحداث التى مرت به ، وأشهر الشخصيات التى نزلت فيه ، وعدد غرفه ، وتكاليف إنشائه ، وغير ذلك من المعلومات .

(د) وفى التغطية الصحفية للخبر وتحريره يجد المندوب الصحفى ضرورة لمراجعة دقة تفاصيل كثيرة فى مركز المعلومات فى الصحيفة منها الدقة فى كتابة الأسماء والبيانات المنشورة عنهم ، والأسماء الصحيحة للأماكن ، وإذا ما كان لها شهرة من نوع ما ، ودقة أسماء المدن والدول ، وإذا كان الخبر يحتوى على أرقام فينبغى التثبت من صحة هذه الأرقام مع التحليل والمقارنة ، وإذا كان الخبر يتعلق بمناسبة دينية أو قومية احتاج المندوب الصحفى إلى معلومات عن هذه المناسبة . ويجد المندوب نفسه ـ فى كثير من الأحيان ـ مهتما بالخلفية التاريخية للحدث وربطه بالأحداث السابقة المشابهة ، وبالمشتركين فيه والمرتبطين به ، سواء كانوا من البشر أو الأماكن أو المؤسسات العامة أو الخاصة مما يجده فى مركز المعلومات فى المؤسسة الصحفية[1] .

(هـ) وفى بعض الحالات فإن استكمال الخبر لا يكون بتغطية نقص فى وقائعه بقدر ما يكون استكمالا لمعلومات لابد منها لفهم الخبر وأبعاده ، فمثلا حين نشر خبر عن نشوب معارك بين فيتنام الشمالية وكمبوديا ، ربما أثار خلطا فى ذهن القارىء وعدم فهم للخبر ذاته ، فالدولتان تدينان بأيديولوجية واحدة ، وكان بينهما تعاون لإتباع هذه الأيديولوجية وتدعيمها ، ولذلك فإن نشر خبر تقريرى عن المعارك يكون ناقصا ، ويكون إستكمال هذا الخبر بنشر معلومات عن صراع الحدود بين الدولتين ، وكون الصراع بينهما إنعكاس للصراع بين الصين والاتحاد السوفيتى ، وهذا يتطلب معلومات عن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧١ ـ و ٢٧٢ .

تاريخ بعض الشخصيات والأماكن والهيئات والمؤسسات والصراعات ، وهذه المعلومات يحصل عليها الصحفي من مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية : المكتبة ، وقسم المراجع والأرشيف ، والابحاث ومختلف نظام معالجة المعلومات وتخزينها بالمركز ، مثلما يحصل عليها من أرشيفه الشخصي ، الذي يعده وفقاً لإهتماماته ، كما يستعين بثقافته وخبرته في مثل هذه المعلومات[1] .

(و) وفي مجال خدمات مركز المعلومات في المؤسسة الصحفية لقسم الأخبار مايقوم به المركز من إعداد كشافات الأحداث المقبلة ، ونجد في هذا الكشاف الذي ينظم تنظيماً زمنياً وموضوعياً : المؤتمرات المزمع عقدها ، والمعارض المزمع أقامتها ، والمباريات الرياضية ، والزيارات الرسمية في الداخل والخارج ، والأعياد والمناسبات القومية والدولية ... إلخ . ومع هذا الكشاف يقوم أخصائيو المعلومات بإعداد المواد والبيانات والمعلومات اللازمة لهذه الأحداث والمناسبات ، ومايتصل بها من شخصيات وملابسات حتى إذا ما جاء موعد المناسبة وجد المحرر المسئول أو المندوب الصحفي المعلومات التي تساعده على تغطية الموضوع[2] .

٣ - نظام المعلومات وتحرير الحديث الصحفي : - ينقسم فن إعداد الحديث الصحفي إلى ثلاث مراحل هي : (ا) الإعداد للحديث الصحفي ، و(ب) إجراء الحديث الصحفي . و(ج) كتابة الحديث الصحفي .

وتنقسم المرحلة الأولى وهي الإعداد للحديث الصحفي بدورها إلى ثلاث مراحل هي :

(ا) اختيار شخصية المتحدث وموضوع الحديث .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

(٢) محمد فتحي عبد الهادي (دكتور) مراكز المعلومات الصحفية ، مرجع سابق ص ١١ .

(ب) جمع المعلومات الكافية عن الشخصية وعن الموضوع .

(جـ) إعداد الأسئلة[1] .

وخطوة جمع المعلومات الكافية عن شخصية المتحدث وعن موضوع الحديث هى التى تعتمد — فى المقام الأول — على كفاءة مركز المعلومات فى المؤسسة الصحفية، فلابد للمحرر الصحفى أن يحصل على أكبر قدر من المعلومات عن الموضوع الذى سيدور حوله الحديث ، وعن الشخصية التى سيجرى معها الحوار ، فإن مركز المعلومات فى الصحيفة يحتفظ لديه بملف كامل لكل شخصية من الشخصيات العامة فى المجتمع ، ولكل موضوع من الموضوعات التى تدخل فى مجال إهتمامات الصحيفة والرأى العام .

وفى مجال جمع المعلومات عن المتحدث يمكن للمحرر أن يقرأ ما ألفه المتحدث من كتب أو قام به من أبحاث فى أى من العلوم والفنون ، وأن يقرأ ما كتب عنـــه ، والأحاديث التى أجريت معه من قبل حتى يعرف طريقة تفكيره ، ونوع اهتماماته ، وكذلك يمكن المحرر أن يحصل على هذه المعلومات من الصحفيين الذين سبق لهم مقابلة هذا المتحدث . إذا رأى أن يستكمل بها المعلومات التى توجد فى ملف المتحدث فى مركز معلومات الصحفية .

وكثير من المحررين الصحفيين لايكتفون بالمعلومات (المعلنة) عن المتحدث ، بل يبحثون عما هو مجهول من حياة هذه الشخصية بطرق شتى للبحث عن المعلومات ، فتجىء أحاديثهم الصحفية أكثر طرافة وتشويقا ،

---

(١) راجع فى تحرير الحديث الصحفى :

— عبد اللطيف حمزة (دكتور) : المدخل فى فن التحرير الصحفى ط ٤ . دار الفكر العربى القاهرة د . ت ص ٤٠٤ وما بعدها .

— فاروق أبوزيد (دكتور) فن الكتابة الصحفية ، ط ٤ دار عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠ ص ١١ وما بعدها .

كما أن المتحدث حين يدرك أن الصحفى يعرف عنه هذا القدر الكبير من المعلومات ستزداد ثقته به ، وتزول الكلفة بينهما ، وسيعطيه كل ماعنده من آراء ومعلومات عن موضوع الحديث .

ولإدراك أهمية الإعداد المسبق للحديث الصحفى نشير إلى أنه يمكن للصحفى غير المتخصص أن يحصل على حديث صحفى جيد من شخص متخصص فى مجال معين من مجالات الحياة إذا أعد نفسه للحديث إعدادا جيدا عن طريق الدراسة المسبقة للموضوع وللشخصية التى سيجرى معها الحديث(١) . وعلى سبيل المثال يمكن لصحفى لم يدرس الطب أن يجرى حديثا جيدا مع الدكتور برنارد جراح القلب العالمى إذا ما أعد نفسه عن طريق قراءة كل ما يتعلق بجراحة القلب وبتجاربه السابقة فى زرع القلوب ، ونسبة العمليات الناجحة إلى العمليات الفاشلة ، ويمكن لهذا المحرر الصحفى غير المتخصص فى الطب أن يحصل أيضا على معلومات لا بأس بها عن حيـــاة الدكتور برنارد نفسه وثقافته ودرجاته العلمية وحياته الخاصة عن طريق متابعة بعض ما نشر عنه فى الصحافة العالمية وهو كثير أو الالتقاء ببعض الصحفيين الذين سبق لهم أن أجروا معه أحاديث صحفية ، أو التحدث مع بعض أصدقائه ، ونفس الأمر ينطبق على الحالات الأخرى المشابهة التى يضطر فيها الصحفى غير المتخصص إلى إجراء حديث صحفى مع شخص متخصص(٢) . فإن الاعـــداد المسبق والتزود بالمعلومات الصحيحة والكافية عن الشخصية والموضوع يكون خير معين له .

نظام المعلومات وتحرير التحقيق الصحفى : ـ يقسم الباحثون مرحلة الإعداد للتحقيق الصحفى إلى ثلاث خطوات :

---

(1) Harris, Jolian, and Johnson, Stanly : The Complete Reporter (The Macmilan Company) London, 1965. P. 214

(٢) فاروق أبو زيد : فن الكتابة الصحفية ، مرجع سابق ص ٢١ .

(ا) خطوة اختيار فكرة التحقيق .

(ب) وخطوة جمع المعلومات المتعلقة بالتحقيق .

(ج) وخطوة إجراء التحقيق[١] .

ومادة التحرير الصحفي التي يسعى المحرر الصحفي لجمعها تشمل حقائق عن الموضوع الذي يحققه مدعمة بالإحصائيات والبيانات الرسمية ، وآراء المتخصصين من المصادر المختلفة وبالوسائل المختلفة وآراء من يهمهم أمر التحقيق ، مع وضع الأولوية للجمهور الذي يقع على كاهله عبء المشكلة موضوع التحقيق ، وجمع المعلومات المسبقة في الإعداد لإجراء تحقيق صحفي تشمل جمع معلومات عن موضوعات وعن أشخاص ، ولا تختلف طرق جمع المعلومات للتحقيق الصحفي كثيرا عن طرق جمعها للحديث الصحفي التي تكلمنا عنها في الصفحات السابقة ، على أن يوضع في الاعتبار طبيعة كل موضوع على حده ، سواء كان حديثا أو تحقيقا صحفيا .

نظام المعلومات وتحرير المقال الصحفي : يقسم الباحثون في التحرير الصحفي فنون المقال الصحفي إلى : المقال الافتتاحي والعمود الصحفي ، والمقال النقدي والمقال التحليلي ، وإذا كانت المعلومات أهمية كبيرة في فنون التحرير الصحفي التي تحدثنا عنها فإنها تبدو أكثر أهمية في تحرير المقال الصحفي .

---

(١) راجع في مرحلة الاعدادية للتحقيق الصحفي وخطواتها :

ـ فاروق أبو زيد (دكتور) في الكتابة الصحفية ، مرجع سابق ص ١٠١ .

ـ عبد اللطيف حمزه (دكتور) : المدخل في فن التحرير الصحفي مرجع سابق ص ٤٤٠ .

ـ إجلال خليفة (دكتورة) : اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي ، ١٩٧٢ ص ٧١ .

والمقال الصحفي يعبر عن رأى الصحيفة ، وعن آراء بعض كتابها فى الأحداث الجارية وفى القضايا التى تشغل الرأى العام المحلى والدولى ، ويقوم المقال بهذه الوظيفة من خلال الشرح وتفسير الأحداث الجارية والتعليق عليها مما يكشف أبعادها ودلالاتها المختلفة(١) .

ولما كان التعبير عن الرأى والتأثير فى الرأى العام ونقد الآراء المعارضة من أهم وظائف المقال ، فإن المعلومات الدقيقة والكافية تكون ذات أهمية خاصة حتى تحمى الصحيفة نفسها من الوقوع فى الخطأ أو التعرض لمتاعب مادية أو معنوية .

وتحرير المقال الصحفى بكل أنواعه يخضع - غالبا - لقاعدة الهرم المقلوب : أعلاه المقدمة ، ووسطه الجسم أو الصلب ، وقاعدته الخاتمة ، والجزء الأول هو المقدمة يخصص لعرض الفكرة ، والجزء الأخير وهو الخاتمة يخصص للوصول إلى النتيجة التى أرادها الكاتب ، ولدعوة القارىء فى نهاية القراءة لاتخاذ رأى أو موقف .

وإذا نظرنا - فيما يلى - إلى محتوى الجزء الأوسط فى بناء كل نوع من أنواع المقال الصحفى وهو الجسم أو الصلب يتبين لنا أنه يعتمد - أساسا - على المعلومات وعرضها وتحليلها والاستنتاج منها :

محتوى الجسم (أو الصلب) فى المقال الافتتاحى :

١ - البيانات والمعلومات والحقائق .

٢ - الأدلة والحجج والأسانيد التى تؤيد وجهة نظر كاتب المقال .

٣ - الخلفية التاريخية للموضوع .

---

(١) فاروق أبو زيد (دكتور) مرجع سابق ص ١٧٩ .

٤ - أبعاد الموضوع ودلالته السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية .

محتوى الجسم (أو الصلب) فى العمود الصحفى :

١ - الأدلة أو الشواهد أو الحجج التى يؤكد بها الكاتب رأيه .

٢ - تفاصيل الحدث أو الصورة الحية أو القصة أو المشكلة أو القضية التى يطرحها الكاتب على القراء .

٣ - عندما يكون العمود عبارة عن سؤال من القارىء ، وإجابة من الكاتب فإنه جسم العمود الصحفى يتضمن إجابة الكاتب على سؤال القارىء .

محتوى الجسم (الصلب) فى المقال النقدى :

١ - عرض موضوع العمل الفنى أو العلمى .

٢ - تحليل وتفسير وشرح الأبعاد المختلفة للعمل .

٣ - تقديم المعلومات الخلفية أو التاريخية للعمل نفسه أو للأشخاص المشتركين فيه .

٤ - المقارنة بين هذا العمل وغيره من الأعمال المشابهة .

محتوى الجسم (أو الصلب) فى المقال التحليلى :

١ - المعلومات الخلفية للموضوع الذى يناقشه المقال .

٢ - حشد الأدلة والشواهد والحجج التى تؤكد وجهة نظر الكاتب .

٣ - كشف أبعاد الموضوع ودلالاته المختلفة .

٤ - عرض الآراء المؤيدة والآراء المعارضة لوجهة نظر الكاتب والرد عليها[١] .

---

(١) راجع فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الكتابة الصحفية ، مرجع سابق ص ١٧٧ .

والواضح مما سبق أن الحصول على المعلومات الدقيقة والكافية وتحليلها واستنتاج دلالاتها ومعانيها هو الأساس المتين لتحرير كل أنواع المقال الصحفى .

نظام المعلومات وتحرير الحملة الصحفية : إن أية حملة صحفية ذات أهداف اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها تقوم بها الصحيفة لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا استندت إلى المعلومات الصحيحة ، فإذا أرادت صحيفة ما أن تقوم بحملة صحفية للدعوة إلى محو الأمية مثلا فإنها فى احتياج إلى بعض البيانات عن : عدد الأميين وفئاتهم وأعمارهم ونوعياتهم، وظروف عملهم ، وظروف معيشتهم ، وكم منهم فى الحضر وكم منهم فى الريف ، ومستوياتهم الاجتماعية ، وأجهزة الثقافة المتاحة لهم ، وأسباب أميتهم ، وكم منهم لم يدخل من قبل مرحلة الإلزام ، وكم منهم تخلف فى الطريق ..... واستنادا إلى هذه المعلومات يمكن أن تكون الحملة ذات أثر وفاعلية، لا أن تكون مجرد تعبيرات فارغة لا تستند إلى حقائق علمية .

وليست الحملة الصحفية فنا من فنون التحرير الصحفى قائما بذاته مثل الخبر والتحقيق والحديث والمقال والتقرير ، ولكنها فن استخدام واحد أو أكثر من هذه الفنون أو كلها أحيانا استخداما ذكيا وواعيا وموجها لتحقيق هدف تسعى إليه الصحيفة ، وقد تستخدم الصحيفة إلى جانب فنون التحرير المذكورة الصورة والكاريكاتير أيضا لتحقيق الهدف الذى تسعى إليه .

وإذا كانت الحملة الصحفية تستخدم كل فنون التحرير الصحفية هذه ، فيمكن أن ينطبق عليها ماذكرناه فى الصفحات السابقة عن دور نظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية فى تحرير كل منها .

ولكن وظائف الحملة الصحفية ذاتها تجعل ثم فروقا بين طرق جمع المعلومات اللازمة لها ونوعها ، وبين تلك اللازمة لكل فن من فنون التحرير على حدة ، فإذا نظرنا إلى وظائف الحملة الصحفية نجد أنها تتلخص فيما يلى :

١ - تعبئة الرأى العام مع سياسة معينة أو قانون معين أو قرار معين أو اتجاه معين أو فكرة معينة ، أو تعبئته ضد هذه السياسة أو ضد هذا القانون ، أو ضد هذه الفكرة .

٢ - تنظيف المجتمع من الفساد ومن ألوان الانحراف المختلفة . ومن ذلك نرى أن الحملة الصحفية فى جانب كبير منها ذات طابع هجومى أو نزالى وخاصة التى تقوم ضد قانون أو قرار جائر ، أو فكرة خاطئة ، أو لمحاربة الفساد والانحراف فى المجتمع .

ووظائف الحملة الصحفية وطبيعتها من هذه الناحية تتطلب عـــددا من الشروط فى المعلومات اللازمة لها ، مع وضعنا فى الاعتبار أن مركز المعلومات فى المؤسسة الصحفية هو أحـــد الأقسام التى تشارك مشاركة أساسية فى الحملة الصحفية .

١ - فى الحملة الصحفية المخططة التى تعد لها الصحيفة إعدادا مسبقا تظهر أهمية إعداد الوثائق والأدلة والدراسات والأبحاث التى لا تبدأ الحملة إلا بعد إعدادها إعدادا كاملا للنشر . وفى هذا النوع من الحملات يكون من عوامل نجاح الحملة الإعداد المسبق لها عن طريق جمع أكبر كمية من المعلومات والبيانات والتفاصيل والأدلة لإقناع الرأى العام .

٢ - فى الحملة المفاجئة التى يفجرها معرفة حقيقة معينة أو نشر خبر معين فيهتز لها المجتمع كله وترى الصحيفة نفسها تتابع هذا الخبر بأخبار وتحقيقات ومقالات أخرى فى الموضوع نفسه فتفرض الحملة الصحفية نفسها ويجد مركز المعلومات فى الصحيفة نفسه فى قلب الحملة الصحفية مشاركا فيها .

٣ - فى الحملات الصحفية التى تتصدى لقانون جائر أو لأفكار خاطئة أو تكشف عن الفساد والانحراف فى مختلف صوره يكون لجمع الوثائق والأدلة والمعلومات أهمية كبيرة ، فبها يثبت الصحفى دعواه ويقوى موقفه ، وبها يحمى نفسه من أن يقع تحت طائلة القانون بتهمتى السب والقذف ؛

وبها يحدد من يشار إليهم بأصابع الاتهام فلا يلقى التهم جزافا على الأبرياء .

٤ – حينما تكون الحملة الصحفية من النوع الذى يهم الرأى العام ويمس مصالح الجماهير يتحول عدد من القراء إلى مندوبين صحفيين مشاركين فى الحملة الصحفية ، فيمدون الصحيفة بوثائق ومعلومات ويكشفون عن أسرار تساعد على استمرار الحملة وتحقيقها لأهدافها ، ويمد القراء الصحيفة بما لديهم من وثائق ومعلومات لأسباب متنوعة ، منها دافع الوطنية ، والرغبة فى الاصلاح ، أو بسبب ظلم أو ضرر وقع بهم . أو لوجود خصومة شخصية بينهم وبين من تسعى الصحيفة إلى كشف فسادهم أو إنحرافهم أو أخطائهم[1] .

ثانياً : نظام المعلومات والإدارة الصحفية : المؤسسة الصحفية كغيرها من المؤسسات تحتاج إلى الاعتماد على أسس الإدارة الناجحة لتحقيق أهدافها ، ومن الناحية الإدارية يعتبر نظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية كما هو فى أية مؤسسة أخرى فى المجتمع نظاما لإنتاج المعلومات من خلال القيام بتحويل البيانات التى يتم جمعها والحصول عليها من مصادرها المختلفة إلى تقارير معلومات بحيث توضع تحت تصرف المسئولين فى مراكز اتخاذ القرارات . أو تستخدم كمدخلات لنظم معلومات أخرى .

فالشق الإدارى لنظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية يعمل على توفير المعلومات لأصحاب سلطة اتخاذ القرارات فى المؤسسة لاتخاذ القرارات السليمة التى تحقق أهداف المؤسسة ، ويتفق الكثيرون على أن

راجع فى موضوع الحملة الصحفية وجمع المعلومات والوثائق لها :

(١) فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الكتابة الصحفية ، مرجع سابق ص ٢٤٧ ومابعدها .

(2) Hohenbery, John : The Professional Journaliet (Holt, Rinehart and Winston I. N. C.) New york 1969 P. P. 308—313

(3) Jolian, Ph. D. Jemes, L., Practical News (W. M. C. Brown Campany Publishers) 1969 P. P. 162—183

الوظيفة الرئيسية لأية مؤسسة ، وجوهر الإدارة فيها هي اتخاذ القرارات ، حيث يعتبر أكثر العمليات الأساسية في المنظمة ، وترادف كلمة الإدارة ، ويعتمد القرار في أية مؤسسة على المعلومات في كل خطوة من خطوات إعداده وتنفيذه ومتابعته(١) .

وتحتل المعلومات ركنا هاما في البناء الإداري المعاصر ، إذ هي أداة الربط الأساسية بين أجزاء التنظيم وهي الوسيلة الرئيسية للإدارة في التنسيق والتخطيط والمتابعة ، ونحن نرى المعلومات وقد توقف عليها نشاط الإدارة المعاصرة كله ، حيث نعتقد أن حركة الإدارة وتوجهاتها جميعا ماهي إلا استجابات منظمة للمعلومات المتدفقة عليها من البيئة المحيطة من ناحية ، والنابعة من أنشطتها الذاتية من ناحية أخرى(٢) .

ويوجه التفكير الإداري المعاصر عناية خاصة إلى تصميم وتشغيل نظم متخصصة في الكشف عن المعلومات ، واستقبالها ووضعها في الإطار السليم الذي يتيح لها التفاعل بطلاقة وحرية مع عناصر الإدارة جميعا . وبذلك فإن الأجزاء التنظيمية المعنية بتشغيل نظم المعلومات تحتل في التفكير الإداري المعاصر أهمية كبرى باعتبارها مراكز لضبط نبض التنظيم وحماية التدفق المنتظم والمستمر لمصدر حيويته في إحساسه بما حوله ونتائج عمله(٣) .

ونظام المعلومات في المؤسسة الصحفية يمكن - على سبيل المثال - من قياس أداء كفاءة المؤسسة الصحفية ، وأدواتها المقروءة وبيان الآثار المترتبة على تفاعلها مع القراء ، فضلا عن التمكين من الوقوف على ماتقوم به من دور ،

---

(١) محمد محمد الهادي (دكتور) : نظم المعلومات في المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٢) على السلمي (دكتور) : مهنية الإدارة ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني ، يوليو أغسطس سبتمبر الكويت سنة ١٩٨٩ ص ٣١٢ .

(٣) على السلمي (دكتور) : المرجع السابق ص ٣١٣ .

وانعكاس ذلك على الأنشطة المختلفة فى المجتمع ، الأمر الذى يتيح لأصحاب القرار فى هذه المؤسسة اختيار البدائل التى التى تمكنها من تحقيق أهدافها والتقدم نحو الأفضل .

ويمكن لنظام المعلومات فى المؤسسة الصحفية أن يقوم بخدمـــة لقسم التوزيع ، فكم من الطلبات التى يتلقاها قسم التوزيع تأتى غامضة مختلطة المعالم ، وبالرجوع إلى مركز المعلومات تتضح معالم هذه الطلبات ، ويمكن التعرف بدقة على تواريخ الأعداد المطلوبة وأرقامها والمعلومات الصحيحة عما هو مطلوب(١) .

---

(١) محمـــد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مراكز المعلومات فى المؤسسات الصحفية ، مرجع سابق ص ١٢ ، ١٤ .

قائمـــة والمراجع

١ - أبو الفتوح حامد عوده : تنظيم المعلومات الصحفية فى الأرشيف والمكتبات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

٢ - أحمد الشامى ، وسيد حسب الله (دكتور) : المعجم الموســـوعى لمصطلحات المكتبات والمعلومات ، دار المريخ ، الرياض ١٩٨٨ .

٣ - جريدة الأهرام ، ملحق خاص مع العدد الصادر فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٨٤ .

٣ - حشمت قاسم (دكتور) : أختزان المعلومات واسترجاعها ، المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، القاهرة ١٩٧٨ .

٥ - سعد محمد الهجرسى (دكتور) : الكتب وبنوك المعلومات ، وقائع الحاضر وتوقعات المستقبل ، القاهرة ، مجلة عالم المكتبات ، يوليو - أغسطس سبتمبر سنة ١٩٨٤ .

٦ - شعبان عبد العزيز خليفة (دكتور) الدوريات فى المكتبات ، ومراكز المعلومات ، العربى للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠ .

٧ - صالح سلطان (دكتور) : نظم المعلومات ومجتمع المعلومات ، مذكره غير منشورة ، أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ، القاهرة د . ت .

٨ - عاطف غيث (دكتور) : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .

٩ - عبداللطيف حمزه (دكتور) : المدخل فى فن التحرير الصحفى ، ط٤ ، دار الفكر العربى ، القاهرة د . ت .

١٠ - على السلمى (دكتور) : مهنية الإدارة ، مجلة عالم الفكر ، العدد الثانى ، يوليو - أغسطس - سبتمبر ، الكويت ١٩٨٩ .

١١ - فؤاد مرسى (دكتور) : الرأسمالية تجدد نفسها ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٠ .

١٢ - فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الخبر الصحفى ، دار مأمون للطباعة ١٩٨١ .

١٣ - فاروق أبو زيد (دكتور) : فن الكتابة الصحفية ، ط ٤ ، دار عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٠ .

١٤ - محمد فتحى عبدالهادى (دكتور) : مراكز المعلومات فى المنظمات الصحفية دار المريخ ، الرياض د . ت .

١٥ - محمد فتحى عبد الهادى (دكتور) : مقدمة فى علم المعلومات، مكتبة غريب القاهرة ١٩٨٤ .

١٦ - محمد محمد أمان (دكتور): النشر الالكترونى وتأثيره على المكتبات ومراكز المعلومات ، المجلة العربية للمعلومات ، السنة السادسة عدد ١ تونس ١٩٨٥ .

١٧ - محمد محمد الهادى (دكتور) تكنولوجيات المعلومات وتطبيقها ، دار الشروق ١٩٨٩ .

١٨ - محمد محمد الهادى (دكتور) : نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة، دار الشروق القاهرة ١٩٩٩ .

(19) Harris, Jolian, and Johnsen, Stanly, The Complete Reporter., The Macmilan Company, London, 1965

(20) Hohenbery, John : The Professional Jonrnalist, (Holt, Rinehart, and Winston I. N. C.) New york, 1969

(21) Jelian, Ph. D., James . I. Practical News (W. M. C.) Brown Conpany Publishers) 1962

ديوان العرب
مرآة الحياة الجاهلية

بقـــلم الدكتور

شفيق عبد الرازق أبو سعدة

بين يدى البحث :

كثر القول فى أولية الشعر العربى ، وتعذر على الباحثين أن يمتدوا بين ، ثنايا الأحقاب إلى مولد هذا الفن الرفيع ، فلم تتمخض جهودهم إلا عن نتائج حدسية فرضية ، لاتعضدها الصبغة العلمية ، لأنه لم يكن لدى العلماء والنقاد القدامى مايساعد على الوصول إلى الصورة التى كانت عليها أشعار العرب قبل ظهور الإسلام بقرنين أو أقل .

ويجدر التنويه بقدم الشعر فى حياة المجتمع البشرى ، نطق به الإنسان فى حضن الطبيعة التى كانت منه بمنزلة الأستاذ التاريخى ، والذى اهتدى إليه بفضل حيلته وقوة حاجته ، فى عهد الفطرة .

ـ هذه الفطرة الشاعرة التى كانت تختمر فى صدره ـ والحياة بعد لم تتعقد مظاهرها ، ولم يأخذ المنطق سبيله إلى العقول والأفهام ..

ولا ريب !! فسحة من السذاجة بادية فى الأشعار التى ولدت فى صدر الجاهلية التى أفاءت علينا بتراثها الخالد ، كالاضطراب فى أوزان بعض القصائد ، كميمية المرقش الأكبر ، التى مطلعها :

هل بالديار أن تجيب صمم   لوكان رسما ناطقا كلم

فهى من بحر السريع، فإن بعض شطور أبياتها قد خرجت على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

ماذنبنا في أن غزا ملك من آل جفنة حازم مرغم

فإن وزنه من بحر الكامل ، وكالإقواء الذي نبه إليه النقاد في قوافي بعض قصائد الفحـــول ، كلامية امرئ القيس المكسورة الروي ، إلا قوله فيها :

كأن أبانا في أفانين ودقـــه كبير أناس في بجاد مزمل

فإن رويه مرفوع[1] : ومثله ما أخذه أهل المدينة على النابغة الذبياني في داليته ..

إن طبائع الأشياء التي تأبى إلا التدرج تثبت أن مرحلة كانت بين المحو والإثبات ، والاعوجاج والاستقامة سبقت هذه المرحلة المتميزة بذلك الشعر الجاهلي الراقي ، الحسن السمت والهيئة ، الكامل النضج ، إلا أنها غابت عنا ، وورانها عن عيوننا رمال الصحراء ، حتى يقيض الله لها علماء يسألونها اليقين ، آنئذ تتقشع عن الأفق غواهبه ، ويمحو نور اليقين . وهم الفرض والتخمين(*) .

والشعر الذي اعتبره العرب أدبا رفيعا ، ولم يكن في حياتهم الأدبية أكرم مظهرا منه ، قد نحرت القبائل مجتمعة على أعتاب قوافيه وأوزانه

---

(١) الشعر الجاهلي : مراحله واتجاهاته الفنية . د . سيد حنفي حسنين ص ٢٩ ، ٣٠ بتصرف .

(*) لعل مما يؤكد هذه الحقيقة قول امرئ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خزام

وقول زهير : ما أرانا نقول إلا معـــارا أو معادا من لفظنا مكرورا

وقول عنترة : هل غادر الشعراء من متردم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟ !

فهم يشكون من أن أسلافهم لم يتركوا لهم معنى لم يطرقوه : انظر تاريخ آداب اللغة العربية . لجورجي زيدان ، تعليق : د . شوقي ضيف ١/٣٥ .

لهجاتها المحلية ، واصطلحت على لهجة أدبية فصحى ، ينظم فيها الشعراء على اختلاف أصقاعهم شعرهم ، هى لهجة قريش ، التى ساعد على سيادتها فى أطناب الجزيرة العربية ظروف دينية وسياسية واقتصادية ، فأضحت الآذان العربية فى كل الأقاليم تطرب للشعر الجاهلى ، وتتحمس له فى لغته الأدبيه الموحدة ، لذلك نشط الشعر ، واحتفت به الأفئدة وذاعت شهرة الشعراء بين ربوع القبائل المختلفة ..

« دوافع البحث : مفتريات البعض على ديوان العرب » :

ليس البحث فى أولية الشعر أو اللغة الأدبية العامة بغاية هذا البحث ، ولكنى قصدت إظهار هذا التحضر المبكر عند العرب الأقدمين، الذين عكف على دراسة أدبهم ولغتهم مستشرقو العالم الغربى من أمثال : بروكلمن ونللينو وهيوار وجرد نباوم ومرجليوث وغيرهم، وسواء عليهم أنصفوه أم حنقوا عليه فالشىء من معدنه لا يستغرب، فلهؤلاء أن يقولوا مايروقهم ويحلو لهم، لكن الطعنة إذا سددت إلى أدبنا من بنى جلدتنا فإنها تكون أنكى وأشد ، وما أصدق طرفة فى قوله :

وظـــلم ذوى القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند(١)

وما كان للناس عجبا أن يتفوق العرب على سائر الأمم فى الشعر ، لما اشتملت عليه نفوسهم من صفاء وعواطفهم من قوة ، ولما تأثروا به من طول تأمل ، وما كان يدفعهم إلى الذود عن النفس والعرض والذمار ، ولولا عوادى الضياع التى عدت على الكثير من هذا التراث الأدبى ، لوصلنا منه الفيض المدرار ..

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ، تعليق : كرم البستانى ص ٢٩ .

لكن إن تعجب فعجب قول أحد الباحثين : إن الحياة العربية الجاهلية لايجدى التماسها فى هذا الأدب العقيم ، الذى يسمونه الأدب الجاهلى ، وإن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، لأنه وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام ، ويمكن أن تلتمس فى مصادر أخرى كالشعر الأموى[١] .

وإن تعجب فعجب قول الباحث نفسه مرددا ما كتبه المستشرق « بروكلمن » عن الأدب العربى فى دائرة المعارف الإسلامية : إن ما كان عند العرب من أدب قبل ظهور الإسلام بزمن بعيد أشبه ما يكون بآداب الزنوج أو سكان جزر المحيط الهادى ، فلم تزد عن أن تكون تعبيرا بسيطا عن حياة ساذجة توشك أن تكون منحطة لا قيمة لها ، وهى حياة أهل البادية الذين لاحظ لهم من ثروة أو ترف أو رقى عقلى .... ولم يخرج الأدب العربى من دائرة الشبه بأدب الزنوج عند هذا المستشرق إلا بعد اتصاله بالحضارات[٢] .

والألم الذى يعتصرنى من جراء هذه الأقاويل كان بحثى محاولة جادة لإعطاء القوس باريها ، ووضع الأمور فى نصابها ، والإفصاح عما استعجم على البعض ، والذود عن حياض هذا الأدب الرفيع ، عملا بقول زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم[٣]

على أنى أسعى ــ فى هذا البحث ــ إلى تقرير الدليل ، واستخلاص الحجة

---

(١) الدكتور طه حسين فى أكثر من موضع من كتابه « الأدب الجاهلى » ص ٨١ ، ٨٢ ، ١١٦ وغيرها .

(٢) من حديث الشعر والنثر . د. طه حسين ص ١٠

(٣) ديوان زهير شرح الأعلم الشنتمرى ص ١٣ .

من هذا الشعر المفترى عليه ، فلست ممن يرجمون بالغيب ، أو يتعصبون لبنى جلدتهم لمجرد التعصب الممقوت .

الحقائق فى مواجهة الأباطيل :

إن المنقبين عن آثار حضارات الأمم القديمة كالأمة المصرية أو اليونانية قد يهتدون إلى غايتهم عن طريق ما نقشه أصحاب تلك الحضارات على صفائح قصورهم وقبورهم ، وما زينوا به معابدهم ، بينما يهتدى المنقب الأريب إلى مثل هذه الصورة ، بل إنه ليراها ماثلة أمامه فى ذلك السجل العربى الخالد المتمثل فى الشعر الجاهلى ، « فهو القائم عند المنقبين مقام الآثار المنقوشة والرقوق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ »[1] .

فلقد جعل العرب الشعر ديوانهم ومستودع أيامهم ، والناطق بمفاخرهم ومآثرهم ، والمعجم عن أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ، والمفصح عن عقليتهم ، والدليل إلى جغرافية جزيرتهم ببلادها وجبالها وسهولها ونجادها ونباتاتها وحيواناتها ، بل وما يشيع فيها من معتقدات وخرافات ، حتى ليمكن القول بأنهم سجلوا فيه أنفسهم ، ومن ثم جاء القول المأثور : « الشعر ديوان العرب » .

لقد نهض الشعر الجاهلى فى أحضان النفوس التى تعشقته ، والأفئدة التى أحبته ، نهضة قوية رائعة ، ففاض بالأحاسيس الجياشة ، والمشاعر الدفاقة ، والوجدانات المرهفة ، والميول المشبوبة ، وصور الطبيعة - واضحة حينا وساذجة حينا آخر - والتعبير الصادق عن الحياة الإنسانية ، بما تضطرم به من أفانين الحب وألوان البغض ، لا يتخلف فى هذا كله عن ركب

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى . د . محمد هاشم عطية ص ١١٢ .

الآداب الإنسانية ، وإن أعشى ضوؤه والتماعه بعض العيون » إن في الشعر الجاهلي وفرة من القيم الفنية الأصيلة لم يحظ بها كثير من الشعر العربي بعده ، ففيه من خصب الشعور ودقة الحس وصدق الفن وصفاء التعبير وأصالة الطبع وقوة الحياة مايجعله أصفى تعبيرا عن نفس العربي وأصدق مصدر لدراسة حياته وحياة قومه من حوله »[1] .

ولعل للبيئة وصفائها ووفرة الحرية واعتزاز العربي بشخصيته وقبيلته ، والحروب الطاحنة التي كانت كثيرا ماتنشب بين القبائل ، وما يترتب عليها من إثارة المشاعر ، وما تتطلبه الصلات الاجتماعية والمجتمعات ، والتنافس الشديد في ميدان الفصاحة والبيان ، والذي كانوا من أجله يتعوذون من العي والحصر ، فهذا النمر بن تولب يقول :

أعذني رب من حصر وعي ومن نفس أعالجها علاجا »[2]

لعله كان لهذه العوامل مجتمعة الأثر الذي لايخفى في نهضة هذا الشعر .. وهلم إلى الشعر الجاهلي نقتبس منه مايصور بيئة العربي وحيوانه ، وما يدعم رأينا ويعضد موقفنا ..

١ ـ الشعر الجاهلي والبيئة العربية :

إن الذين يمعنون النظر في صفحة الشعر الجاهلي تنعكس على أخيلتهم من مرآته صورة واضحة لتلك البيئة العربية ، ترتسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم ، وملاعب ولدانهم ، وأسماء منازلهم ، وموارد مياههم ، وعتاق خيولهم ، وأنواع حيواناتهم ، وشم جبالهم ،

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي . د. ناصر الدين الأسد ص ٢٦٥ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٣ .

ووهادهم وسهولهم ، أو بالأحرى : تلوح من هذا الشعر صورة الطبيعة إن ساكنة أو متحركة ..

فقد كانت عادة الشعراء أن يبدءوا قصائدهم بالوقوف على الديار ومساءلة الأطلال ، ثم يصفون هذه الأماكن ويذكرون مواقعها ويعرفونها كما يفعل المعنيون بعلم تقويم البلدان . على غرار ما صنع امرؤ القيس في معلقته ، فإنه بعد قوله : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... يقول :

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

وما صنع زهير بعد قوله : أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ...

فإنه يقول : ... بحومانة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها   مراجيع وشم في نواشر معصم[1]

وهذه صورة وصفية للصحراء ومابها في نظر شاعرها ، سويد بن أبي كاهل اليشكري ، الذي حالت بينه وبين محبوبته القفار المترامية الأطراف ، التي يلمع فيها السراب حين يشتد الحر ، وتهب الريح منها ساخنة ، حتى ليكاد اللحم أن ينضج ، وأن يقضي على من يسير فيها ، لشدة الحرارة ، ولابد للسائر في هذه المهامه أن يكون مستعد الملاقاة الخطر لكثرة الأعداء فيها من جانب ، والتخبط على غير هدى بسبب مرتفعاتها ومنخفضاتها ومتعرجاتها ومعالمها البالية من جانب آخر ؛ وهذه القفار يغطى هضابها ووديانها السراب حين ترتفع الشمس ، ويزداد التعطش إلى الماء ، مما يجعل قطعها قطعة من العذاب ، ولكن لابد للمضطر من ركوب الصعاب ، وتعسف السير في مسالكها وأعلامها . في قول سويد :

---

(١) المعلقات السبع للزوزني . تحقيق . محمد محي الدين عبد الحميد ص ٤ ، ٥ ، ص ١٣٨ وانظر الأدب العربي وتاريخه د محمد هاشم ص ١١٢ .

كم قطعنا دون سلمى مهمهاً ... نازح الغور إذا الآل لمع
فى حرور ينضج اللحم بها ... يأخذ السائر فيها كالصقع
وتخطيت إليها من عدى ... بزماع الأمر والهم الكنع
وفلاة واضح أقرابها ... باليات مثل مرفت القزع
يسبح الآل على أعلامها ... وعلى البيد إذا اليوم متع
فركبناها على مجهولها ... بصلاب الأرض فيهن شجع(1)

ومن ذلك قول عميرة بن جعل فى وصف ديار محبوبته التى خلت من أهلها، وصارت قطعة من الصحراء المقفرة الموحشة، إذ لم يبق منها إلا آثار دمن وبقايا أطلال عفت وطمرت، أو فرقتها الريح والأمطار؛ فجاس خلال المكان الفزع والوحشة، فقد غابت عنه آثار الحياة، فأضحى متاهة يضل فيها الخريت، وصار مأوى للسباع المفترسة، التى اتخذته لها دارا، والتى يفترس قويها ضعيفها، لأنها لاتجد ما تقتات به:

ألا ياديار الحى بالبردان ... خلت حجج لهن ثمان
فلم يبق منها غير نؤى مهدم ... وغير أوار بالركى دفان
وغير حطوبات الولائد ذعذعت ... بها الريح والأمطار كل مكان
قفار مروراة يضل بها القطا ... يظل بها السبعان يعتركان
يثيران من نسج التراب عليهما ... قيصين أسماطا ويرتديان

(1) المفضليات للضبي ط دار المعارف ص ١٩٣ ب: ٢٠ - ٢٥ (المهمه: القفر. النازح: الغور. الآل: السراب. الحرور: الريح الحارة التى تهب نهارا، الصقع: حرارة تصيب الرأس (ضربة شمس). عدى: الأعداء. زماع الأمر: الجدفيه. الكنع: الذى يلازم ولايفارق، الأقراب: الخواصر - على التشبيه - أراد جوانبها وأطرافها التى هى بمنزلة الخواصر من الناس. المرفت: المتكسر المتحطم. القزع: جمع قزعة وهى بقايا تبقى من الشعر فى الرأس، شبه بها علامات الفلاة. الأعلام: الجبال. البيد: جمع بيداء وهى القفر. متع اليوم: ارتفعت شمسه: ركبناها على مجهولها: سرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها. بصلاب الأرض: بخيل صلاب الحوافر، وأرض الفرس: حوافرها. الشجع: جنون من النشاط).

وبالشرف الأعلى وحوش كأنها
على جانب الأرجاء عوذ هجان(١)

ولا غرو !! فهذا إنما يذكرنا بقول زهير مشيرا إلى ما حل بدار «أم أوفى» :

بها العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
أثافي سفعا في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم(٢)

ويلتفت الشاعر الجاهلي إلى الظواهر الطبيعية التي تتعاور صحراءه النائية الجهات على مدار العام، حيث يقرر أن قيظ الصيف الشديد لم يحل دون هطول الأمطار المصحوبة بالبرق والرعد في أعالي الجبال، وأن هطولها يكون سيلا هدارا يجتاح كل ما أمامه، على نحو ما جاء في قول امرىء القيس :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

(١) المفضليات ص ٢٥٨ ب : ١ — ٦ (الحجج : السنين النؤى : الحاجز الذى يكون حول الخباء لمنع الماء . الأوارى جمع آرى ، وهو ماحبس الدابة من وتد ونحوه . الركى : جمع ركية ، وهى البئر . دفان : مندفنة ، جمع دفين : الحطوبات : جمع حطوبة ، ما يحتطبه الإماء ويجمعنه . الولائد : الإماء . ذعذعت : فرقت ، مروراة : لا ماء فيها ولا نبات . يحار : يضل (حتى أن القطا الذى هو أهدى الطيور لا يهتدى فيها) السبع : المفترس من الحيوان . يمتركان : يلتمس كل منهما أكل صاحبه أسماطا : يريد أسمالا اى بالية الشرف : المرتفع من الأرض الأرجاء : جمع رجا ، وهى النواحى . العوذ الإبل اللى معها أولادها ؛ هجان : كرام .

(٢) العين الأبقار الواسعات العيون . الآرام : جمع رئم ، وهى الظبى الخالص البياض الأطلاء : جمع الطلا ، وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية . المجثم : بكسر الثاء موضع الجثوم (الربض) اللأى : الجهد والمشقة . الأثافى : جمع أثفية وإثفية ، وهى حجارة توضع القدر عليها . السفع : السود . المعرس : أصله المنزل ثم استعير المكان الذى تنصب فيه القدر . المرجل : القدر . والجذم أو الجد : البئر القريبة من الكلأ أو القديمة معلقات الزوزنى ص ١٤٠ .

على قطن بالشيم أيمن صوبه ... وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء حول كتيفة ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه ... فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطما إلا مشيدا بجندل
كأن ثبيرا في عرانين وبله ... كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرا رأس المجيمر غدوة ... من السيل والغثاء فلكة مغزل
كأن السباع فيه غرقى عشية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل(١)

فامرؤ القيس يصور السرعة الخاطفة للمعان البرق وسط السحاب بحركة اليدين، وضوءه المنتشر في كل الجهات بالمصباح القوى، ويتأمل السحاب فإذا المطر ينزل منه مدرارا، وإذا هو سيل جارف يقتلع الأشجار والديار، ويحول بين الوحوش وأوكارها، لتلاقى حتفها فى تياره الجارف، لتصبح

---

(١) أصاح : منادى مرخم . الوميض والإيماض : اللمعان . اللمع : التحريك والتحرك . الحبي : السحاب المتراكم ، سمى بذلك لأنه حبا بعضه إلى بعض فتراكم ، وجعله مكللا لأنه صار أعلاه كالإكليل لأسفله . السنا : الضوء ، والسناء : الرفعة . السليط الزيت . ومنه السلطان لوضوح أمره . الذبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة . وقطن : جبل . والستار ويذبل : جبلان ، بينهما وبين قطن مسافة بعيدة . الشيم : النظر إلى البرق مع ترقب المطر . كتيفة : موضع . يكب : يلقى الشيء على وجهه . الأذقان : الأشجار (أى يقلعها) فالدوح : العظام من الشجر . الكنهبل : من شجر العضاة فى البوادى . القنان : جبل بنى أسد . النفيان : ماتطاير عن معظمه . العصم : تيوس الجبال وأوعالها . الأطم : القصر أو الحصن . الجندل : الحجارة والجص . ثبير : جبل بمكة . عرانين : أوائل . الوبل : المطر الشديد .
البجاد : كساء للأعراب مخطط مصنوع من وبر الإبل وصوف الغنم . مزمل ملتف . المجيمر : أكمة فى أرض بنى فزارة . الغثاء ماجاء به السيل . فلكة مغزل : ما استدار فوق رأسه . الأرجاء : النواحى . القصوى : تأنيث الأقصى وهو الأبعد . والأنابيش : أصول النبت ، سميت بذلك لأنها تنبش أى تخرج من الأرض . العنصل : البصل البرى . انظر المعلقات للزوزنى ص ٦٧ — ٧٦ .

بين الغثاء ومخلفات السيل ، وإذا الطيور تغرد ، وإذا هذا الوادى يزدهر بالخصب والنماء ، وإذا الفرحة تغمر ساكنيه .

ألا تراه قد صور فأبدع ؟ ووصف فأمتع ؟! ووقف على كثير من الظواهر الطبيعية فى الصحراء ؟ وسجل بعض قراها وجبالها ووحوشها ونباتها ؟!

والشاعر الجاهلى لم يغفل حيوانات صحرائه ، وخاصة ما كان شديد الصلة بحياته منها كالإبل والخيل ، فقد أكثر فيها القول ، ووصف أجزاءهما وأحوالهما فى دقة وعناية ، على نحو ما صنع طرفة مع ناقته فى قوله(١) :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

فقد وصف كل جزء من جسمها فى براعة فائقة ، كما فى قوله :

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد ...

لها مرفقان أفتلان كأنها تمر بسلمى دالج متشدد

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد ...

(١) الاحتضار هنا بمعنى الحضور . العوجاء : الناقة التى لا تستقيم فى سيرها لفرط نشاطها . المرقال : ما بين السير والعدو . الأمون : التى يؤمن عثارها . الإران : التابوت العظيم . نسأتها : زجرتها . ونسأتها : ضربتها بالمنسأة (العصاة) اللاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء مخطط . النحض : اللحم . المنيف : العالى . الممرد : المملس . الأفتل : القوى الشديد . بسلمى : أى بدلوين لكل منهما عروة واحدة . الدالج : الذى يأخذ الدلو من البئر فيفرغها فى الحوض . متشدد : قوى . الاكتناف : السكون فى نواحى الشىء . القرمد الآجر . الجمجمة : الرأس . العلاة : السندان . الوعى : هنا بمعنى الاجتماع . الملتقى : طرف الجمجمة . السبت : جلود البقر المذبوحة . التحريد : اضطراب القطع وتفاوته . الماوية : المرآة . الحجاج : منبت شعر الحاجب . القلت : النقرة فى الجبل يستنقع فيها الماء . المطحور : التى ترمى عوار القذى الرمد والوسخ . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

(انظر معلقات الزوزنى ص ٨٧ — ١٠٠) .

وجمجمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد
وخد كقرطاس الشآمى ومشفر كسبت اليمانى قده لم يحرد
وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد
طحوران عوار القذى فتراهما كمكحولتى مذعورة أم فرقد

وهذه الصورة الأخيرة تدل على قوة ملاحظة طرفة ، ودقة خبرته بأحوال حيوانات الصحراء ، إذ من المعروف أن حدة النظر والرشاقة لا تظهران فى الظبية أو البقرة الوحشية إلا إذا كانت مذعورة وهى ذات ولد .

وبمثل هذا التفصيل المستقصى والروعة الفائقة فى الوصف والملاحظة تفيض معلقة لبيد العامرى عند حديثه عن ناقته[1] ومع كل هذا فإن اهتمام الشاعر الجاهلى بالإبل لا يعدو على اهتمامه بالخيل ، التى صرف فيها القول ، ونوع فيها الشعر ، وملكت عليه قلبه وحواسه إلى حد لا تبارى فيه ، « فلم تكن العرب فى الجاهلية تصون شيئا من أموالها ولا تكرمه صيانتها للخيل وإكرامها لها ، لما كان لهم فيها من العز والجمال والمتعة والقوة على عدوهم ، حتى أن كان الرجل من العرب ليبيت طاويا ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وولده(*) . (يدعم ذلك ويفسره قول سلمة بن هبيرة الضبى فى فرسه) :

نوليها الصريح إذا شتونا على علاتنا ونلى السمارا
رجاء أن تؤديه إلينا من الأعداء غصبا واقتسارا[2]

---

(١) انظر معلقات الزوزنى ص ١٩٣ .

(*) ولم تزل العرب على الرغبة فى اتخاذ الخيل وصيانتها . . . حتى جاء الله بالإسلام فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم باتخاذها وارتباطها لجهاد عدوه ، فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » — التوبة الآية ٦٢ — فاتخذها رسول الله عليه الصلاة والسلام وحض المسلمين على ارتباطها . . (كتاب الخيل لأبى عبيدة معمر بن المثنى ط حيدر أباد : الثانية ص ٢ ، ٣

(٢) كتاب الخيل ص ١ ، ٢ .

ولقد بلغ بالعرب اهتمامهم بالخيل إلى حد العناية بأنسابها وأسمائها ، ففرس الحارث بن عباد البكرى كانت تسمى النعامة ، يقول الحارث :

قربا مربط النعامة منى ... لقحت حرب وائل عن حيال[1]

وفرس خالد بن جعفر بن كلاب كانت تسمى حذفة ، وفيها يقول :

أريغونى إراغتكم فإنى ... وحذفة كالشجى تحت الوريد

أسويها بنفسى أو بجزء ... وألحفها ردائى فى الجليد[2]

ويقول أبو دواد الإيادى - وهو ممن اشتهروا بنعت الخيل - فى فرسه الضافى السبيب (*) :

أرعى أجته وحدى ويؤنسنى ... ضافى السبيب أسيل الخد منسوب

ماء جواد عتيق غير مؤتشب ... تضمنته له جرداء سرحوب[3]

ولم تند عن دائرة الشعر الجاهلى شاردة أو واردة فى الخيل ، فقد أحاط خبرا بكل أجزائها وأحوالها . ولا ينبئك عن هذا مثل خبير كامرىء القيس فى قوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[4]

وعروة بن سنان العبدى فى قوله :

أما إذا ما أقبلت فطارة ... كالجذع شذ به نقى المنجل

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى والبجاوى وأبى الفضل ، ط الحلبى ص ١٦١ .

(٢) كتاب الخيل ص ٩ .

(*) الطويل الشعر فى أعلى العنق (العرف) .

(٣) كتاب الخيل ص ٦٢ .

(٤) معلقات الزوزنى ص ٥٢ وما بعدها .

أما إذا ما أدبرت فنبيـلة ضخم مـكان حزامها والمركل
أما إذا ما أعرضت فنعـامة تذرى سنابكها صلاب الجندل(١)

وعلقمة بن عبدة فى قوله :

وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب(٢)

وعوف بن الخرع التيمى فى قوله :

لها حافر مثل قعب الوليـد يتخذ الفـار فيه مغارا(٣)

ثم إن الأمر لم يقف بالشاعر الجاهلى من الخيل عند هذا الحد ، ولكنه تخطى الإيثار والوصف إلى التجاوب الوجدانى ، الذى رأينا نموذجه عند الفارس الشاعر عنترة العبسى ، فقد فاضت رقته على فرسه ، حتى كان يتألم لألمه . ويشفق لشقائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجعه حين تعبث به رماح الأعداء ، ويترجم عنه أحاسيسه ، قائلا :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمى(٤)

ومثل هذا الحس الوجدانى يتراءى لنا عند المنخل اليشكرى مع بعيره ، حيث جعل له قلبا يحب ويعشق مثله . فى قوله :

وأحبهـا وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى(٥)

ولعل حب العرب الجاهليين للخيل والإبل كان دافعهم إلى التفوق فى علم بيطرة الدواب . بيد أن الخيل والإبل لم ينسيا الشاعر الجاهلى بقية حيوانات صحرائه وطيورها ونباتها ، من ذلك قول عنترة يهجو قوما بعدم اهتمامهم بالخيل ، لأنهم أصحاب حمير :

---

(١) كتاب الخيل ص ٣٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٠ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٤) المعلقات ص ٣٠٤ .
(٥) الأصمعيات ق ٦٠ .

أبنى زبيبة ما لمهركم ... متخددا وبطونكم عجر ؟!
ولكم بإيثار الوليد على ... إثر الحير بشدة خبر(١)

وقول المنخل اليشكري :

فإذا انتشيت فإنني ... رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني ... رب الشويهة والبعير(٢)

وقول عنترة :

يادار عبلة من مشارق مأسل ... درس الشؤون وعهدها لم ينجل
فاستبدلت عفر الظباء كأنما ... أبعارها فى الصيف حب الفلفل
تمشى النعام به خلاء حوله ... مشى النصارى حول بيت الهيكل(٣)

وقوله :

وكأنما نظرت بعينى شادن ... رشأ من الغزلان ليس بتوأم
وكأن فارة تاجر بقسيمة ... سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليها كل عين ثرة ... فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغنى وحده ... غردا كفعل الشارب المترنم(٤)

وحفل ديوان العرب بذكر المياه والشوق إلى ورودها وتعريف مواقعها ، إذ كانت عزيزة نادرة فى الصحراء ، ولم يكن لسكانها غنى عن هذه الموارد ، يؤيد ذلك قول عمرو بن كلثوم التغلبى : (وإن كان الزهو آخذا بعنانه) :

---

(١) كتاب الخيل ص ١ . ... (٢) الأصمعيات ق ٦٠ .
(٣) الأغانى طبعة الساسى ٨/١٤٠ .
(٤) ديوان عنترة ، تحقيق : محمد سعيد مولوى طبعة المكتب الإسلامى (ط الثانية) ص ١٩٥ – ١٩٧ .

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا(١)

وأكثر منه دلالة قول جابر بن الأزرق :

فيالهف نفسى كلما التحت لوحة ... على شربة من ماء أحواض مأرب

بقايا نطاف أودع الغيم صفوها ... مصقلة الأرجاء زرق المشارب

ترقرق دمع المزن فيهن والتوت ... عليهن أنفاس الرياح الغرائب

لقد بسطت هذه البيئة العربية سلطانها على مشاعر شعرائها ، فوقفوا قبالتها يصورون مشاهدها وانفعالاتهم تجاهها فى دقة وبراعة ، إذ كان سكونها لمسة سحرية وصداها مثار شعر ، ولم لا ؟ « وهى التى تحرك العربى ، وتغذى خياله ، وتنطق لسانه ، يشعر فيها باستقلاله وعظمته ، لا ترهقه سلطة ، تنبسط أمامه رقعة الأرض فينعم بمنظرها فيجيش صدره وينطق بالشعر لسانه »(٢) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العربى كان ـ فى بعض الأحيان ـ يخرج بدافع الحاجة من دائرة صحرائه إلى البحر ، الذى كان العربى يركبه أحيانا وقد وجدنا حيثيات هذا الحكم فى الشعر الجاهلى ، فهذا طرفة بن العبد يقول فى البحر والسفن التى تمخر عبابه :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدى

يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد(٣)

(١) معلقات الزوزنى ص ٢٦٥ .

(٢) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ط القاهرة ص ٢٢ .

(٣) المعلقات السبع ص ٨٢ — ٨٤ .

.. حدوج وأحداج : جمع حدج ، وهو مركب للنساء ومثله الهودج . المالكية : نسبة إلى بنى مالك قبيلة من كلب . الخلايا : جمع خلية . وهى السفينة العظيمة . النواصف : جمع الناصفة ، وهى أماكن تتسع من نواحى الأودية . دد : اسم واد . =

وهذا عمرو بن كلثوم التغلبي يفتخر قائلا :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا(١)

وبشر بن أبي خازم يصف السفينة ، وقطعها الخلجان ، وينفذ إلى نفوس راكبيها ، فيصور حالتهم النفسية ، واستحضارهم ما قدموا من ذنوب . لطول ما يلاقون ، وما يعتمل في نفوسهم من خوف ، في قوله :

معبدة السقائف ذات دسر ... مضبرة جوانبها رداح
إذا ركبت بصاحبها خليجا ... تذكر ما لديه من جناح
يمر الموج تحت مشجرات ... يلين الماء بالخشب الصحاح
ونحن على جوانبها قعود ... نغض الطرف كالإبل القماح(٢)

بمثل هذا الإتقان صور الشاعر الجاهلي بيئته العربية وظواهرها الطبيعية الساكنة والمتحركة ، وسجل مشاعره على صفحة البحر حين اضطرته الحاجة إلى ركوبه .

والشاعر الجاهلي لم يقصر تصويره الفـذ على البيئة وملابساتها ، وإنما وسع دائرته ليشمل حياة العرب بكل أبعادها من عقلية واجتماعية ودينية وأخلاقية وعادات وأوهام وما إلى ذلك .

٢ — الشعر الجاهلي وحياة العرب العقلية :

من المحقق أنه كان للغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة والتبابعة في اليمن حضارات ومعارف ، وأنه لم يكن لسكان الجزيرة العربية من آثار المدنية العقلية أفضل من الشعر ، وأن ما وصلوا إليه من أسباب العلوم إنما كان مبنيا على قوة النظر وصدق الحس ، مستمدا من التجربة والمشاهدة حينا : ومن مخالطة الأمم المجاورة حينا آخر ، إذ كانت تشق الجزيرة العربية

= عدولية : نسبة إلى عدولى ، قبيلة بحرانية . وابن يامن : رجل من أهلها . حباب : أمواج الحيزوم : الصدر .

(١) معلقات الزوزني ص ٢٦٦ .   (٢) ديوان بشر بن أبي خازم .

طرق تجارية منظمة ، تجوب صحراواتها فتلتق بين ربوعها ثمار الثقافة الوافدة ، وهذه الأسواق والمواسم العربية التى كان العرب يقيمونها فى أطراف الجزيرة حينا وفى قلبها حينا آخر ، وكان يؤمها العرب من مختلف بقاعهم وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية ، وكان يؤمها كذلك بعض التجار الفرس والهنود والمصريين والرومان ، يلتقون فى صعيد واحد ، يتبادلون ما عندهم من متاع وعروض وآراء وأفكار من مظاهر الحضارات المختلفة ، ثم هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التى كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها ، بل تتخذ منها موطنا آخر تقضى فيها حياتها »[1] .

ولا غرو !! « فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية »[2] .

« أما وجود المعلمين فى الجاهلية فأمر ثابت منصوص عليه فى وضوح لا يصل الشك إليه ، من هؤلاء المعلمين : عمرو بن زرارة وكان يسمى الكاتب وغيلان بن سلمة بن معتب »[3] وقد أطلق على هؤلاء المعلمين فيما بعد « المؤدبون » .

يدل على ظهور الكتابة عند الجاهليين[4] قول المرقش الأكبر :

الدار وحش والرسوم كما ... رقش فى ظهر الأديم قلم

وقول لبيد بن ربيعة العامرى :

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زبر تجد متونها أقلامها

وقول عدى بن زيد العبادى :

تعرف أمس من لميس الطلل ... مثل الكتاب الدارس الأحول

وقول حاتم الطائى :

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ص ١٧ (٢) العصر الجاهلى د. شوقى ضيف ص ١٣٩

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ص ٥٠ .

(٤) انظر الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ١١٦ .

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما   كخطك فى رق كتابا منمنما

وقول طرفة بن العبد :

وخد كقرطاس الشآمى ومشفر
كسبت اليمانى قده لم يجرد(١)

كذلك كان لاتصال العرب الجاهليين بالأمم الأخرى أثره فى اتصالهم المباشر بعالم المدنية والحضارة فى هذه الأمم ، وما « شاع بين الناس أن العرب فى جاهليتها أمة منعزلة عن العالم لاتتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلاها منقطعة عمن حولها لاتتصل بهم فى مادة ، ولاتقتبس منهم أدبا أو تهذيبا : فالحق أن هذه فكرة خاطئة ، لأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا وأدبيا ، ولاريب أن « الرحلات إلى الأمم المتمدنة تجعل دائما تحت عيون الراحلين مدنية جديدة يقتبسون منها على قدر استعدادهم ، وليس أدل على ذلك مما أخذه العرب فى جاهليتهم من كلمات فارسية ورومانية ومصرية وحبشية ، أدخلوها فى لغتهم وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن الكريم »(٢) .

وقد كانت إمارتا المناذرة والغساسنة بمثابة صلة الوصل بين العرب من جانب والفرس والروم من جانب آخر ، كما كانتا بما أفادتا من حضارة هاتين الدولتين بمثابة جدولين كبيرين تسرب منهما ماء هاتين الحضارتين إلى الجزيرة العربية : والتاريخ شاهد صدق على أن عدى بن زيد التميمى كان كاتبا بالعربية ومترجما فى بلاط كسرى ، وأن ابنه زيدا قد قام بهذه المهمة بعده ، وأن لقيط بن الإيادى كان كذلك فى بلاد فارس ، وأن المرقش وأخاه حرملة كانا ممن تعلموا فى مدارس الحيرة ، وأن امرأ القيس قد اتصل بقيصر ملك

---

(١) معلقات الزوزنى ص ٩٩ . (٢) فجر الإسلام ص ١٢-١٦ .

الروم بعد أن طوف فى العرب كثيرا ، طلبا للثأر من قتلة أبيه ، وقد أكرمه ملك الروم ونادمه ، وفى ذلك يقول :

ونادمت قيصر فى ملكه — فأوجهنى وركبت البريدا
إذا ما ازدحمنا على سكة — سبقت الفرانق سبقاً بعيدا(١)

ومعرفة العرب بهذه الأمم جعل طرفة يشبه ناقته بقنطرة الرومى ، فى قوله :

كقنطرة الرومى أقسم ربها — لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

ولم تقف أسفار الأعشى عند الحدود العربية بل وجه رواحله نحو الملوك المجاورين فى الحبشة والشام وفارس ، فهاهو يقول :

قد جبت ما بين بانقيا إلى عدن — وطال فى العجم ترحالى وتسيارى

وما جاء على لسانه :

وقد طفت للمال آفاقه — عمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشى فى أرضه — وأرض النبيط وأرض العجم(٢)

وسواء أكان الأعشى هو قائل هذين البيتين أم أجريا على لسانه فإنهما يثبتان أنه كان كثير التنقل والترحال جائلا فى مختلف الأنحاء القريبة منها والبعيدة ، وأن رحلاته المتعددة اكتسبت شهرة بين الرواة . ونونية عمرو بن كلثوم تنبىء عن معرفته بالحيرة والأندرين الشامية وبعلبك ودمشق وقاصرين ، من ذلك قوله :

وكاس قد شربت ببعلبك — وأخرى فى دمشق وقاصرينا(٣)

ولقد كان هؤلاء الشعراء وغيرهم بمثابة السفراء ، فلاجرم بعد أن يكون للعرب فى الجاهلية معارفهم وعلومهم ، كعلم النجوم والكواكب التى كانوا يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ، والأنساب والأخبار ليحافظوا على

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٠ .
(٢) أنظر : مختارات من روائع الأدب . د . عبد السلام سرحان ص ٧١ .
(٣) معلقات الزوزنى ص ٢٣٦ .

عصبيتهم وليخلدوا مآثرهم ، والفراسة والقيافة ليحفظوا أعراقهم وليطلبوا الهارب منهم ، والكهانة والعرافة والزجر ، ثم الطب وبيطرة الدواب لاتصال ذلك بحياتهم وحربهم اتصالا وثيقا ، ولا عجب !! ففي كلام العرب وأشعارهم مايؤكد هذه الحقيقة العقلية ، ففيه الكثير من أسماء الكواكب. كالفرقدين والسماكين والشعرى والجوزاء والعيوق والثريا ، مما يدل على قدم معرفتهم بذلك ، انظر كيف كان المهل - عدى بن ربيعة - يرقب مصابيح السماء ويصف نجومها بقوله :

كأن كواكب الجوزاء عوذ ... معطفة على ربع كسير
كأن الجدى فى مثناة ربق ... أسير أو بمنزلة الأسير
كأن النجم إذ ولى سحيرا ... فصال جلن فى يوم مطير
كواكبها زواحف لاغبات ... كأن سماءها بيدى مدير
كواكب ليلة طالت وغمت ... فهذا الصبح راغمة فغورى(١)

وروعة امرىء القيس وبراعته فى قوله :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل(٢)

وتصوير الشماخ بن ضرار فى قوله :

لليلى بالعنيزة ضوء نار ... تلوح كأنها الشعرى العبور
إذا ما قلت أخمدها زهاها ... سواد الليل والريح الدبور(٣)

ناهيك بقول عروة بن حزام فى عراف نجد الأبلق السعدى وعراف اليمامة رباح بن عجلة :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيان

---

(١) شعراء النصرانية للأب لويس شيخو . ط بيروت ٢٧٣/١ .

(٢) المعلقات السبع ٤٨ .

(٣) عيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق : عباس عبدالساتر ط : لبنان ص ٢٤ .

وقول أوس بن حجر يمدح نفسه بالتفوق على ابن حذيم الطبيب العربي المشهور :

فهل لكم فيها إلى فإنني طبيب بما أعيا النطاسي حذيما[1]

وقول الشاعر في بني لهب المشهورين بالقيافة والزجر :

خبير بنو لهب فلاتك ملغيا مقالة لهبي إذا الطير مرت

والشعر الجاهلي بعد هذا كله يحمل في تضاعيفه دلائل صفاء أذهان الجاهليين وصدق نظرهم في الطبيعة وأحوال الإنسان ، وملامح خطرات فلسفية وفكرية رائعة ، يقف أمامها مثقفو اليوم مشدوهين كما في قول زهير :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدعم ...

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقوله :

وفي الحلم إدهان وفي العفو درية

وفي الصدق منجاة من الشر فاصدق[2]

وقول النمر بن تولب :

يود الفتى طول السلامة جاهدا فكيف ترى طول السلامة يفعل[3]

وقول المرقش الأصغر :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما[4]

---

(١) المستقصى في أمثال العرب للزمخشري الطبعة الثانية جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق ١/٢٨٣ .

(٣) عيار الشعر ص ٥٢ .

(٤) الشعر والشعراء ١/٢١٥ .

وقول عمرو بن الأهتم :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقول ذي الاصبع العدواني :

كل امرىء راجع يوما لشيمته ... وإن تخلق أخلاقا إلى حين[1]

إن سريان النزعة العقلية التأملية في هذه النماذج يؤكد كثرتها في ديوان العرب ، ويثبت التحضر العقلي المبكر عند العرب الأقدمين . وليست النزعة البيانية التي حفلت بها صفحة الشعر الجاهلي بأقل من هذه الخطرات التأملية الفاحصة دلالة على ما كان يتمتع به العربي من عقل ملهم وإحساس عميق وفكر ثاقب .

ولقد كان الشاعر الجاهلي بنجوى من المبالغة الممقوتة والإغراق المذري: وما مبالغة المهلهل وعنترة وابن كلثوم إلا من قبيل مبالغة الفرسان الذين يتقدون حماسة وشجاعة وقوة وفتوة ، ولكنهم لايخرجون عن المعقول في الغالب الأعم :

وهذا زهير يبالغ في مدح هرم بن سنان ، ولكنه لايخرج عن المعقول، في قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا[2]

ثم يلوح لي في لجة ليل ذؤبان العرب ـ الصعاليك ـ شهاب، يقود خطا فكري إلى زاوية في شعر هؤلاء الذؤبان ، تفيض بفكرة عقلية إنسانية نبيلة ، تتمثل في دعوة عروة بن الورد زعيم الصعاليك إلى العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي، كما في قوله :

إني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

(١) المفضليات ج ١ ص ٢٥ ، ٦٥٨ .

(٢) انظر تاريخ آدب اللغة العربية لجورجي زيدان . تعليق د . شوقي ضيف ١/٩٣ .

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... على شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقوله :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح(١)

فالجوع أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان ولهذا كانت نفوس الفقراء تموج بالحقد والثورة العارمتين على الأغنياء الأشحاء. إن دعوة عروة الصعاليك هذه في جوف الجاهلية لتؤكد رجاحة فكره وثقوب عقله ، فقد كان هدفه نبيلا ومغزاه كريما : بيد أن الزكاة التي جعلها الإسلام ركنا من أركانه لأهدى وأقوم قيلا : لما فيها من تنظيم ورضا وتسليم وتكافل اجتماعي : ولما تحققه من إقامة مجتمع الكفاية والعدل والفرص المتكافئة والتآخي والحب في ظل اشتراكية إسلامية ، انطلاقا من قول المولى عز وجل : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وقوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » ، وقوله جل علاه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »(٢)

بمثل هذه الصورة الملمة الصادقة نطق الشعر الجاهلي بنبض العقلية العربية وأفكارها ، وأفصح عن علوم العرب الأقدمين ، وكشف في دقة وبراعة عن موارد ثقافتهم ومدى معارفهم ، دونما تحريف أو تزيد ..

---

(١) ديوان عروة ، شرح ابن السكيت طبعة الجزائر ١٩٢٦ ص ٩٩،١٣٨ .

(٢) سورة المعارج الآية ٢٥ ، سورة الأنعام الآية ١٤١ ، سورة التوبة الآية ١٠٣ .

٣ ـ الشعر الجاهلى وحياة العرب الروحية :

تنوعت العبادات فى الجزيرة العربية ، فقد كان العربى قليل الاحتفال بها عند إحساسه بالأمان ، ويبدو أن عبادة الكواكب كانت من أقدم العبادات العربية ، وأن عبادة الأصنام كانت طارئة على جزيرة العرب وأن النصرانية واليهودية قد تسربتا إلى هذه الجزيرة وعرفتا فيها .

وفى هذه اللجة القاتمة رأى جماعة ضرورة الخروج بعقليتهم عن هـــذا الدرك من الانحطاط بخلع الأوثان، واهتدوا إلى أن لهذا الكون خالقا وأن للناس معادا ، وقد عرفوا بالحنفاء من أمثال ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت ، الذى يقول :

أنا ميت إذ ذاك ثمت حى ثم بعد الحياة للبعث ميت[١]

بيد أن عباد الأوثان كانوا يقولون بالخالق ، يقول المولى عز وجل فى حقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله »[٢] .

وجاء فى القرآن الكريم على لسانهم « ما نعبــــدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[٣] .

ورأينا جماعة من الوثنيين سئموا وثنيتهم وأحسوا قصورها عن حاجتهم الروحية فمالوا إلى الشك والإباحة ، ونظروا إلى الحياة على أنها مهزلة غير مفهومة ، ينبغى أن تقضى فى لهو ولذة واستهتار ، يرود هذه الجماعة طرفة بن العبد حيث يقول :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

وحيث يقول :

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ١٥٤ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٨٧ . (٣) سورة الزمر الآية ٣ .

متى تأتنى أصبحك كأساً روية　　وإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد
كريم يروى نفســـه فى حياته　　ستعلم إن متنا غداً أينا الصدى ؟![1]

وإذا كان يأس طرفة من حياته وشكه فى الآخرة قد دفعاه إلى اطراح الجبن والتعلق باللهو واللذة فإن زهيراً ـ وهو وثنى ـ لا يحس إحساسه ولا يطمئن إلى أن الحياة عبث ولهو أو أن العالم خلق سدى ، ولكنه يحس قصور الديانات ولهذا أخذ يفكر فى نهاية الحياة ، ويتشبث بفكرة الآخرة :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم　　ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر　　ليوم حساب أو يعجل فينقم

وإن لم تقم هذه الفكرة عنده على برهان عقلى أو بحث قوى أو رأى دينى ، بدليل اضطرابه بعد حين جعل الموت مصادفة فى قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب　　تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

والروح الدينية تشيع فى شعر كثير من شعراء الجاهلية ، ومنهم أوس ابن حجر الذى يقول :

وتعوذوا بالله من أقلامه　　إن السيوف لها من الحساد

ويقول :

وباللات والعزى ومن دان دينها　　وبالله إن الله منهن أكبر
عددت رجالا من قعين تفجسا　　فما ابن لبيني والتفجس والفخر

ونعرض هنا لرأى واحد من الباحثين المحدثين[2] الذى ذهب يعلل ورود لفظ الله فى الشعر الجاهلى بقوله : « إن لفظ « الله » فى الشعر الجاهلى محرف من لفظ « اللات » وهو معبود وثنى ، وقد حرفه الرواة المسلمون » ولكن يبطل هذا الرأى قول أوس :

---

(١) المعلقات السبع ص ١١١ - ١١٦ .

(٢) الدكتور محمد جواد على فى كتابه « العرب قبل الإسلام » عند حديثه فى الجزء الخامس عن الحياة الدينية .

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وليس معقولا أن يكون لفظ الجلالة هنا محرفا عن اللات إذ أنه أقسم فى الشطر الأول من البيت باللات ، ثم قال : إن الله أكبر من اللات .

إن الروح الدينية واضحة فى بيتى أوس ، فالتعوذ بالله والقسم باللات والعزى ثم الإضراب عن هذا القسم الوثنى ليقسم بالله ، لأن الله أكبر منها ، يؤكد هذا الوضوح الدينى »(١) .

ولقد تردد ذكر لفظ « الجلالة » فى الشعر الجاهلى عند غير أوس كثيرا ، فليس بدعا أن يرد فى شعره ، تأمله فى هذا الإطار الدينى عند زهير فى قوله :

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو(٢)

أو قول النابغة الذبيانى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب . .

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب(٣)

وفى قول عروة الصعاليك :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مضى فى المشاش آلفا كل مجزر

يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر(٤)

إن شعرنا الجاهلى ينضح بالروح الدينية عند عرب الجاهلية ، ويكشف عن أبعاد ومناحى الحياة الروحية التى عاشتها الجزيرة العربية .

٤ ـ الشعر الجاهلى وحياة العرب الاجتماعية :

بقى العرب الجاهليون الذى كانوا يحيون حياة شبه منعزلة محافظين على

(١) انظر : الشعر الجاهلى ، مراحله واتجاهاته الفنية ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٢) ديوان زهير ص ٣٧ .

(٣) انظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٨٢ .

(٤) الأصمعيات ص ٤٥ ب : ١٣ .

موروثهم ومميزاتهم القديمة ، يعيشون من عقولهم فى وحدات فكرية هى خطرات طارئة ، فتلمس لذلك فى شعرهم اضطراب حياتهم ، وتبصر حياتهم ونفوسهم مصورة فى آثارهم الشعرية تصويرا دقيقا رائعا ، ولا عجب !! فالأدب بعامة صورة الحياة الفردية والاجتماعية : وإنك لتنظر فى صفحة الشعر الجاهلى فتنعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لحياة العرب الاجتماعية فى سلمهم أو حربهم . التى كان لبيئتهم الأثر الفعال فى سنها وتكوينها ، سواء فى ذلك العادات المتأصلة التى جرى عليها العرب منذ من بعيد - المعروفة بينهم بالأوابد - أو المعتقدات والأوهام أو غير هذه وتلك من آداب وأخلاق ، والتى يمثل مجموعها المظهر الصادق لحياة المجتمع العربى فى الجاهلية .

يقول لبيد العامرى فى الجرى على سنن الأجداد العظام . والحرص على الموروث الخلق :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل	منا لزاز عظيمـــة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها	ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلا ، وذو كرم يعين على الندى	سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم	ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم	إذ لا يميل مع الهوى أحلامها(١)

ويقول زهير فى هرم بن سنان :

له فى الذاهبين أروم صدق	وكان لكل ذى حسب أروم
وعود قومـــه هرم عليه	ومن عاداته الخلق الكريم
كما قد كان عودهم أبوه	إذا أزمت بهم سنة أزوم

إن من أروع ما يمثل أخلاقهم أو قل : مثلهم العليا قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى ، الذى يتغنى فيه بأمجاد قومه :

(١) المعلقات السبع للزوزنى ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

من أناس ليس من أخلاقهم ... عاجل الفحش ولا سوء الجزع
عرف للحق ، ماتعيا به ... عند مر الأمر ، مافينا خرع
وإذا هبت شمالا أطعموا ... في قدور مشبعات لم تجع . . .
لايخاف الغدر من جاورهم ... أبدا منهم ولا يخشى الطبع
ومساميح بما ضن به ... حاسر والأنفس عن سوء الطمع . . .
فيهم ينكى عدو وبهم ... يرأب الشعب إذا الشعب انصدع
عادة كانت لهم معلومة ... في قديم الدهر ليست بالبدع[(١)]

والكرم الذي صورته سعدى بنت الشمردل الجهنية في رثاء أخيها أسعد :

يامطعم الركب الجياع إذا هم ... حثوا المطى إلى العلا وتسرعوا
إن تأته بعد الهدوء لحاجة ... تدعو ، يجبك لها نجيب أروع[(٢)]

والذي تمدح به طرفة البكري في قوله :

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد[(٣)]

والذي يصدق على العرب فيه قول زهير :

لوكان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

هذا الكرم العربي استتبع قيما وعادات روائع ، كإشعال النار في رؤوس الجبال ليهتدى بها من يضرب في الصحراء ليلا على غير هدى ، فهي بهذا أشبه ماتكون بفنار السفن في العصر الحاضر ، يؤكد ذلك قول الخنساء في أخيها صخر :

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار[(٤)]

وقول حاتم الطائي الذي ترفع بنفسه عن عبادة المال فوظفه فيما يكسبه الرفعة :

---

(١) مفضليات الضبي ص ١٩٤ ب : ٣٢ — ٤٤ .

(٢) الأصمعيات ص ١٠٢ ب : ١١ — ٢٩ .

(٣) معلقات الزوزني ص ١٠٦ .

(٤) الأغاني ١٣/٣١ ط الساسي .

إذا كان بعض المال ربا لأهله ... فإني بحمد الله مالي معبد
يفك به العاني ويؤكل طيبا ... ويعطى إذا ضن البخيل المصرد
إذا ما البخيل الخب أخمد ناره ... أقول لمن يصلي بناري أوقدوا

وقوله الذي يضيف فيه إلى إشعال النار استنباح الكلاب ، ليكون لهداية ضال ليل الصحراء معلم حسي بصري ومعلم صوتي :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما ... يقاتل أهوال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجنون وما به ... جنون ولكن كيد أمر يحاوله
فأوقدت ناري كي ليبصر ضوءها ... وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله[1]

ورعاية العرب لآداب الضيافة من ترحيب وبشاشة وإراقة دماء الهجان أثر من آثار كرمهم ، يكشف عن هذه القيمة الجليلة قول عمرو بن الأهتم :

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل ... لأحرمه إن المكان مضيق
فقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا ... فهذا صبوح راهن وصديق
وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... مقاحيد كوم كالمجادل روق
بأدماء مرباع النتاج كأنها ... إذا عرضت دون العشار فنيق ..
فبات لنا منها وللضيف موهنا ... شواء سمين زاهق وغبوق
وكل كريم يتقي الذم بالقرى ... وللخير بين الصالحين طريق[2]

وفي هذه الآداب يقول حاتم الطائي[3] :

فلما رآني كبر الله وحده ... وبشر قلبا كان جما بلابله
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... رشدت ولم أقعد إليه أسائله
وقمت إلى برك هجان أعده ... لوجبة حق نازل أنا فاعله

---

(١) انظر ديوان حاتم الطائي ـ كرم البستاني ـ طبعة صادر بيروت ١٩٥٣ م .
(٢) المفضليات ص ١٢٦ ب ٧ ـ ٢١ .
(٣) انظر ديوانه .

بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الأرض لم تخطل على حمائله
فجال قليلا واتقانى بخيره ... سناما وأملاه من التى كاغله
نفى وظيف القرم فى نصف ساقه ... وذاك عقال لا ينشط عاقله
بذلك أوصانى أبى وبمثله ... كذلك أوصاه قديما أوائله

« وكان السارى إذ جنه الليل ، ولم يجد هدى نبح كما تنبح الكلاب فتنبح على نباحه ، فيهتدى بذلك إلى مكان الحى ، ولهم فى ذلك أشعار كثيرة منها قول نابغة بنى جعدة .

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ... ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلب أو ليفزع نوم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى ... له عند إطعام المهبين مطعم
يكاد إذ ما أبصر الضيف مقبلا ... يكلمه من حبه وهو أعجم »(١)

وقول عمرو بن الأهتم :

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خفوق
يعالج عرنينا من الليل باردا ... تلف رياح ثوبه ، وبروق(٢)

وللعرب فى الجاهلية إلى جانب هذه المثل الأخلاقية مثل أخرى كالوفاء والنجدة وإغاثة الملهوف ، يقول بشامة بن حزن النهشلى :

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة ... تلق السوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبدا ... إلا افتلينا غلاما سيدا فينا
إنى لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيل الكماة : ألا أين المحامونا ؟(٣)

ومن مثلهم حسن الجوار والحفاظ على الجار يقول حاتم الطائى .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه ص ١١٣ . (٢) المفضليات ص ١٢٦ .
(٣) الكامل للمبرد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١/١١١ .

وأقسمت لا أمشى إلى سر جارة يد الدهر ما دام الحمام يغرد
وما ضر جارى يا ابنة القوم فاعلمى يجاورنى ألا يكون له ستر
بعينى عن جارات قومى غفلة وفى السمع منى عن حديثهم وقر(١)

ويقول فارس عبس عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها
إنى امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها(٢)

على أن العرب لم يقصروا كرم الجوار على الجار الجنب وإنما وسعوا دائرته ليشمل من استجار بهم وجاورهم، يؤيد ذلك قول ابن دارة الغطفانى فى جوار طيء :

جزى الله خيرا طيئا من عشيرة ومن صاحب تلقاهم كل مجمع
هم خلطونى بالنفوس ودافعوا ورائى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : تعلم أن مالك إن يصب نفدك، وإن تحبس نزرك ونشفع(٣)

وقول رجل من بنى سلامان بن سعد القضاعى :

كأن الجار فى شمجى بن جرم له نعماء أو نسب قريب
يحاط ذماره ويذب عنه ويحمى سرحه أنف غضوب
ألفت مساكن الجبلين إنى رأيت الذوث يألفها الغريب(٤)

إن مثل هذه الرعاية وهذا الحدب قد جعلا قيس بن الحدادية الخلوع يقول فى آل عمرو بن خالد الذين آووه :

وقد حدبت عمرو على بعزها وأبنائها من كل أروع ماجد
أولئك إخوانى وجل عشيرتى وثروتهم والنصر غير المحارد(٥)

---

(١) انظر ديوان حاتم المشار إليه سلفا.
(٢) ديوانه عنترة ص ٣٠٨.
(٣) كامل المبرد ١/٧٧ .
(٤) المرجع السابق والصفحة.
(٥) الأغانى ١٣/٥ .

بل إن أبا الطمحان القيني يعلن أنه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد أن خلعه قومه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، ماتهر عليه كلابهم :

وقـــد عرفت كلابهم ثيابي كأني منهم ونسيت أهلي(١)

وما أكثر المثل الرفيعة عند العرب ، ويكفي للتدليل على هـذه الحقيقة قول عنترة :

ولقـد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وقوله :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي(٢)

كذلك أفصح الشعر الجاهلي عن عادات العرب التي كان منها : ابتعاد العربي عن زواج قريبته ، فرارا من ضعف النسل ، قال شاعرهم :

فتى لم تـلده بنت عم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وقال الآخر :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة مخـــافة أن يضوى على سليلها

في حين أنهم كانوا يعتقدون أن إغضاب المرأة أثناء جماعها يعني إنجاب الذكور ، يقول الشاعر :

تسفهتها غضبى فجـاء مسهدا وأنفع أولاد الرجال المسهد

ويقول أبو كبير الهذلي :

ممن حملن به وهـن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل(٣)

ويفصح الشنفرى عن الصفات الخلقية التي كانت تثير في الرجل إعجابه بزوجه قائلا :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت

تبيت بعيـد النوم تهوي غبوقها لجـارتها ، إذا الهـدية قلت

(١) الحيوان للجاحظ ١/ ٣٨٠ .
(٢) الديوان ص ٢٤٦ ، ٢٠٧ .
(٣) انظر كامل المبرد ١/١٣٤ ، ١٣٥

تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوت بالمذمة حلت . . .
إذا هو أمسى آب قرة عينه ... مآب السعيد لم يسل أين ظلت[1]

وكان من عادتهم فى التزين الدق بالوشم - النشور - يقول طرفة البكرى :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ويقول زهير :

ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجيع وشم فى نواشر معصم[2]

وكان العرب يحيون سادتهم وملوكهم فى المناسبات والأعياد بطاقات الزهور ، مثلما نحييهم فى العصر الحاضر ، مما يدل على تحضر العرب المبكر ، من ذلك قول النابغة الذبيانى فى الغساسنة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم ... يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكسية الأضريح فوق المشاجب

وكانوا يقصون شواربهم ويرسلون لحاهم ، يقول حريث بن عناب الطائى :

فـلام فليمى يحف سباله ... ولحيته طارت شعاعا مقزعا

وكانوا يتسابقون فى الحلبة على صهوات الخيول ، ويتراهنون ، يقول عنترة فى مقتل مالك بن زهير :

فلله عينا من رأى مثل مالك ... عقيرة قوم أن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة ... وليتهما لم يرسلا لرهان[3]

وكان من أشرافهم من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، ومن هؤلاء قيس بن عاصم المنقرى ، الذى يقول فى ذلك :

لعمرك إن الخمر ما دمت شاربا ... لسالبة مالى ومذهبة عقلى
وتاركة بين الضعيف قراهم ... ومورثة حرب الصديق بلا دخل

والمتلمس الذى يقول فى ذم الخمر :

جادى لها جاد ولا تقولى ... طوال الدهر ماذكرت جاد[4]

---

(١) المفضليات ص ١٠٩ .
(٢) شرح المعلقات للزوزنى ص ٨١، ٨٢ .
(٣) ديوان عنترة ص ١١ .
(٤) انظر كامل المبرد ٢/ ٧٠ .

وقول زهير فى حصن الفزارى يشير إلى أنه كان بنجوى من الخمر :

أخى ثقــة لاتتلف الخمر ماله ولـكنه قد يتلف المـال نائـله
تراه إذا ماجئتــه متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله(١)

وكانوا يعجون الإسراف فى شرب الخمر ، والتهافت على حوانيتها ، وإتلاف موروث الأموال ومكتسبها فى اللذة والمجون واللهو ، يقول طرفة بن العبد :

ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلهـا وأفردت إفراد البعير المعبد(٢)

ومن عاداتهم « كيهم - إذا أصاب إبلهم العر والجرب - السليم منها ليذهب العر عن السقيم وفى ذلك يقول النابغة :

يكلفنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع »(٣)

ومن عاداتهم التى تـكشف عن معرفتهم بطبائع الحيوان ، لا عن الوهم والخيال ، « كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب ، إما لـكدر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل ، وكما تتبع أتن الوحش الحمار ، فقال فى ذلك عوف بن الخرع :

هجونى أن هجوت جبال سلمى كضرب الثور للبقر الظماء

وقال أنس بن مدرك فى قتله سليك بن السلـكة :

إنى وقتلى سليكا ثم أعقلـه كالثور يضرب لما عافت البقر

وكانوا يزعمون أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء - بركوبها إياها ، فتصد البقر عن الشرب ، فيضربون الثور ليطير الشيطان عنه ، فتشرب البقر - يقول الأعشى فى ذلك :

فـإنى وما كلفتمونى وربكم لأعلم من أمسى أحق وأحوبا

---

(١) ديوان زهير ص ٣١ (٢) شرح المعلقات ص ١١٠

(٣) عيار الشعر ص ٣٨ . ولعلهم بذلك كانوا يحصنونها خوفا من العدوى ، وانظر الحيوان للجاحظ ١٦/١ .

لكالثور والجنى يضرب ظهره   وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر   وما إن تعاف الماء إلا ليضربا

ويقول نهشل بن حرى :

أتترك عارض وبنو عـدى   وتغرم دارم وهم براء
كدأب الثور يضرب بالهراوى   إذا ماعافت البقر الظماء »[1]

غير أن هذه العادة إذا اتصلت بمعرفتهم من جانب ، وبوهمهم من جانب آخر ، فإن للعرب عادات تتصل اتصالا وثيقا بالوهم والزعم ، فقد « كانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقأوا عين الفحل ، فإن زادت على الألف فقأوا العين الأخرى .. إذ كانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسراق - الموتان - والغارة ، يقول النابغة :

فقأت لها عين الفحيل عيافة   وفيهن رعلاء المسامع والحامى »[2]

وكانوا يزعمون ، أن الرجل منهم إذا أحب امرأة وأحبته ، فلم يشق برقعها ولم تشق هى رداءه فإن حبهما يفسد ، وإذا فعلاه دام أمرهما ، وفى ذلك يقول عبد بنى الحسحاس سحيم :

فكم قد شققنا من رداء محبر   ومن برقع عن طفلة غير عانس

وكانوا يعلقون الحـلى والجلاجل على السليم - اللديغ - ليفيق ، يقول النابغة :

يسهد من ليل التمام سليمها   لحلى النساء فى يديه قعاقع(*)

ويقول رجل من عذرة :

كأنى سليم ناله كلم حيـة   ترى حوله حلى النساء موضعا »[3]

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون طبعة بيروت الجزء الأول الصفحة ١٨ ، ١٩ .

(٢) المرجع السابق ١/١٧ .

(*) قبله : فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

(٣) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٣٨ .

وكانوا يزعمون أن الغول تتراءى لهم فى الفلاة ، فيتبعها أحدهم فتستهويه ، وقد ادعى تأبط شرا أنه لقيها وقاتلها ، حيث يقول :

ألا من مخبر فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها : كلانا نضو أرض ... أخو سفر فخلى لى مكانى

فشدت شدة نحوى فأهوت ... لها كفى بمصقول يمانى

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

وقال امرؤ القيس :

أتوعدنى والمشرفى مضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟!

والغول : لم يخبر صادق قط أنه رآها(١) .

وكانوا يزعمون أن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر ، قالت امرأة من بنى بكر بن كلاب :

صب محب إذا ما رجله خدرت ... نادى كبيسة حتى يذهب الخدر(٢)

وللعرب فى حروبهم عادات لا تقل أهمية فى دلالتها على حياتهم الاجتماعية من عاداتهم فى سلمهم ، فالحرب كانت ولا تزال سنة دائرة من سنن الحياة ، وقد تميزت الحياة الجاهلية بكثرة الوقائع والمعارك ، وكأن الحرب أوشكت أن تكون نظامهم اليومى المعتاد ، ترخص مهجهم وأرواحهم قبالة شرف القبيلة ، وكانت الشجاعة لذلك مثلهم الأعلى « فقد يستضعف الرجل الحليم » . لقد دفعتهم العصبية القبلية إلى الانتصار للقبيلة ، انطلاقا من فلسفتهم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » يقول قريط بن أنيف العنبرى فى مازن :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

---

(١) انظر الكامل للمبرد ٩٦/٣ (٢) عيار الشعر ص ٤٠ .

ويقول وداك بن ثميل المازني في يوم كان على شيبان :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم   تلاقوا غدا خيلي على سفوان

تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى   إذا ماغدت في المأزق المتداني

عليها الكماة الغر من آل مازن   ليوث طعان عند كل طعان

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم

لأية حرب أم بأي مكان

وكانوا يرون الشرف المؤثل في الموت تحت سنابك الخيول ، وظلال العوالي يقول السموأل بن عاديا :

يقرب حب الموت آجالنا لنا   وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد في فراشه   ولا طل منا حيث كان قتيل

إذا سيد منا خلا قام سيد   قؤول لما قال الكرام فعول

وأيا منا مشهورة في عدونا   بها من قراع الدارعين فلول(١)

ويقول سعد بن مالك البكري :

الموت غايتنا فلا   قصر ، ولا عنه جماح

وكأنما ورد المنية عندنا ماء وراح(٢)

وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم الأوسي :

رجال متى يدعوا إلى الموت يرقلوا

إليه كإرقال الجمال المصاعب(٣)

وقد انبثقت عن هذه الحروب الطاحنة عادات سادت بين العرب ، منها : التشمير للثأر وهجر متع الحياة ، يفصح عن ذلك قول المهلهل بن ربيعة :

---

(١) ديوان الحماسة ٢/٣٦ ، والمثل السائر ص ٢٤٥ .

(٢) أيام العرب في الجاهلية ص ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

خذ العهد الأكيد على عمرى بتركى كل ماحوت الديار
وهجرى الغانيات وشرب كأس ولبسى جبة لا تستعار
ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار

وإمساكهم عن بكاء قتلاهم حتى يثأروا لهم ، وفى ذلك يقول الربيع ابن زياد فى مقتل مالك بن زهير :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه يبكين قبل تبلج الأسحار(١)

وزعمهم أن القتيل إذا لم يثأر له تخرج من رأسه هامة (طائر) تصيح قائلة : « اسقونى » وتظل كذلك حتى يثأر له . يقول ذو الأصبع العدوانى :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى
أضربك حيث تقول الهامة اسقونى(٢)

يقول أبو دؤاد الإيادى :

وكهول بنى لهم أولوهم مأثرات يهابها الأقوام
سلط الدهر ، والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام(٣)

ومن عاداتهم المتصلة بالحرب « النسىء » فقد كانوا يؤخرون المحرم فى الغالب شهرا ، ويعدون القدرة على النسىء مفخرة ، يقول شاعرهم :

ونحن الناسئون على معد شهور الحل نجعلها حراما

وجزنا صية الأسير عند العفو عنه وإطلاق سراحه ، تقول الخنساء :

جززنا نواصى فرسانهم وكانوا يظنون ألا تجزى(٤)

ولما كان أبو الطمحان القينى أسيرا فى يد بجير بن أوس فدحه أبو الطمحان بقصيدته التى منها :

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية ص ٢٥٧ (٢) كامل المبرد ١/٣٧٤
(٣) الأصمعيات ص ١٨٧ ب ١٥ (٤) ديوان الخنساء .

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

فأطلقه بخير وجز ناصيته(١) .

وعرف عنهم أنهم « كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدوا لسانه بنسعة خوفا من الهجاء ، كما صنعوا بعبد يغوث بن صلاءة حينما أسرته بنو تيم يوم الكلاب ، وفى هذا يقول :

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة   أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا »(٢)

وكانوا يزعمون أن المقاليت ، وهن اللائى لا يبقى لهن ولد ، إذ أوطئت إحداهن قتيلا شريفا بقى ولدها ، وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه   يقلن ألا يلقى على المرء مئزر(٣)

* * *

أرأيت ـ أيها المتلقى ـ كيف صور الشعر البيئة العربية والحيوات الجاهلية بكل أبعادها ومناحيها من ظواهر طبيعية وحياة عقلية وروحية واجتماعية وغيرها ؟ وكيف ربط الشعراء الأحداث بما شاع فى مجتمعهم من قيم وعادات وتقاليد وأوهام ؟ وكيف عرف التحضر طريقه مبكرا إلى أمة العرب فى الجاهلية ؟ وكيف ذاب الشاعر فى مجتمعه، فصور نفسه ورسم خاطره على لوحة هذا المجتمع الحبيب إلى نفسه وخاطره ؟

ولعلك لمست بعد هذا التطواف أن الجاهلية لا يمثلها بصدق ودقة إلا الشعر الجاهلى ، وأن الدعاوى الغوغائية لا تثبت أمام الحقائق الممحصة ، والحيثيات التى لا يتطرق الشك إليها .

لقد خلد ديوان العرب حياة الجاهليين ، فبقيت فى الشعر ، كما بقيت حياة الأمم الأخرى فى الصور والنقوش والرسوم على صفائح القصور والقبور والمعابد ...

---

(١) الأغانى ١١/١٢٧ .   (٢) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ .

(٣) عيار الشعر ص ٤٣ .

من أهم مراجع البحث

١ ـ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي . د/ محمد هاشم عطية . الطبعة الثالثة .

٢ ـ الأصمعيات : تحقيق الأستاذين: أحمد شاكر ، وعبدالسلام هارون طبعة دار المعارف بمصر .

٣ ـ أيام العرب في الجاهلية ، لجاد المولى والبجاوى وأبي الفضل طبعة الحلبي .

٤ ـ الحيوان للجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة بيروت

٥ ـ الشعر الجاهلي : مراحله واتجاهاته الفنية . د/ سيد حنفي حسنين . الهيئة العامة للتأليف والنشر .

٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ طبعة دار المعارف بمصر .

٨ ـ عيار الشعر لابن طباطبا .

٩ ـ المفضليات للضبي تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وهارون .

١٠ كتاب الخيل لأبي عبيده الطبعة الهندية طبعة المكتبة التجارية .

١١ ـ الكامل للمبرد تحقيق محمد أبي الفضل طبعة دار نهضة مصر .

١٢ ـ الدواوين وشرح المعلقات وديوان الحماسة .

د/ شفيق عبد الرازق أبو سعدة

{ تم بحمد الله }

محتويات العدد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

القسم السادس ـ الدراسات الإعلامية

رقم الإيداع ٦٢٦٧ / ١٩٩٠